دوستويفسكي

الأعمال الأدبية الكاملة المجلد ١٠

ترجمة الدكتور سامي الدروبي

الأبله ١

دار ابن رشد



الأعمال الأدبية الكاملة

المجلد العاشر

دوستويفسكي: الأعمال الأدبية الكاملة - ١٨ مجلداً

ترجمها عن الفرنسية: د. سامي الدروبي

الطبعة العربية الاولى: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
القاهرة ١٩٦٧

الطبعة العربية الثانية: دار ابن رشد للطباعة والنشر
بيروت - لبنان - شارع فردان - بناية شبارو
ص.ب: ١٤/٥٥٣٧ - هاتف: ٢٥٢٨٢٢

الخطوط والغلاف: عماد حليم

طبعت بإشراف: نتوورك - ايطاليا ١٩٨٥

Progettazione grafica a cura della NETWORK ITALIANA - Via Bertini, 34 - 20154 Milano

الأبله

١

الأبله (Idiote) ، كتبت هـــذه
الرواية بين سنتي ١٨٦٧ ، ١٨٦٩ ونشرت
مسلسلة فى مجلة « الرسول الروسى »

الجزء الأول

الفصل الأول

في صباح من أصباح نهاية شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ، في نحو الساعة التاسعة ، أثناء ذوبان الجليد ، كان قطار وارسو* يقترب من بطرسبرج مسرعاً . ان الرطوبة والضباب يبلغان من الكثافة أن أشعة الشمس لا تكاد تنفذ الى الأرض ؛ فيصعب على راكب القطار ، اذا هو نظر من النافذة يمنةً أو يسرة ، أن يميّز أي شيء على مسافة عشر خطوات .

ان بعض الركاب عائدون من الخارج ؛ غير أن حجرات الدرجة الثالثة ، وهي أحفل الحجرات بالركاب ، كانت ممتلئة بأناس من متوسطي الحال ، يسافرون لقضاء أعمال ، وليسوا قادمين من بعيد .

وكان الجميع مكدودين متعبين مرهقين طبعاً ، قد أثقل النعاس أجفانهم ، واصطبغت وجوههم بصفرة كصفرة الضباب .

ان في احدى حجرات الدرجة الثالثة راكبين قد جلس أحدهما أمام الآخر قرب النافذة منذ الصباح . كلاهما شاب ؛ وكلاهما يلفت وجهه الانتباه ؛ وكلاهما لا يكاد يكون معه متاع ؛ وكلاهما يرتدي ثياباً ليس فيها كبير تأنق . ان من يراهما يحس أنهما يرغبان في التحادث . ولو قد أمكنهما أن يعرفا ما في كل منهما من غرابة وتفرد ، لأدهشتهما هذه

المصادفة التي جمعتهما هذا الجمع العجيب في حجرة من الدرجة الثالثة بقطار « وارسو ـ بطرسبرج » .

ان أحدهما ، وهو شاب قصير القامة ، أجعد الشعر ، أَسْودُه تقريباً ، يجب أن يكون في نحو السابعة والعشرين من العمر . عيناه شهباوان ، صغيرتان ، لكنهما تفيضان اشتعالاً واتقاداً ؛ وأنفه عريض أفطس ، ووجنتاه بارزتان ؛ وعلى شفتيه الرقيقتين ترتسم دائماً ابتسامة غريبة ، ابتسامة ساخرة ، وقحة ، تشبه أن تكون مبغضة حاقدة . غير أن جبيناً عالياً مستوياً يلطّف من الشعور بالنفور الذي يحسه المرء حين يرى أسفل وجهه ، الثقيل الكريه . والشيء الذي يخطف البصر فيه خاصةً انما هو شحوبه الذي يشبه شحوب جثة ، وهو شحوب يضفي على هذا الرجل هيئة الارهاق والاعياء مع أنه يبدو متين البنية ، ويضفي عليه كذلك معنى المكابدة التي تبلغ حد العذاب ، رغم ابتسامته المتغطرسة الفظة ، ونظرته العدوانية المتكبرة .

كان الرجل متدثراً بمعطف واسع أسود ، مبطّنٍ بجلد خروف ، فهو يشعر بدفء كامل ، وهو لم يحسّ ببرد الليل .

ولا كذلك صاحبه الذي يجلس أمامه ، فلا بد أن هذا قد ارتعش من شدة البرد وشدة الرطوبة في تلك الليلة من ليالي شهر نوفمبر الروسي ، وهما برد ورطوبة كان واضحاً أنه لم يتهيأ لهما . انه متلفف برداء سميك لا أكمام له ، يعلوه غطاء للرأس ، كالذي يلبسه المسافرون شتاءً في بلاد غير روسيا ، في سويسرا أو في شمال ايطاليا مثلاً . ولكن هذا الرداء لا يصلح حتماً لسفرة طويلة طول هذه المسافة بين آيدكونن * وبطرسبرج . انه يصلح جداً لايطاليا ، ولكنه لا يلائم المناخ الروسي .

هذا الرجل الثاني الذي يرتدي هذا الرداء هو أيضاً شاب في نحو السادسة والعشرين أو السابعة والعشرين من العمر . وقامته أطول قليلاً

من متوسط قامات الرجال ؛ خداه خاسفتان ؛ شعره كثيف أشقر ؛ له لحية صغيرة مدببّة تكاد تكون بيضاء اللون ؛ عيناه واسعتان زرقاوان لهما نظرة ثابتة • ان في هذه النظرة شيئاً من رقة وعذوبة ، ولكن فيها ثقلاً وتعبيراً غريباً ، فاذا رآها خبير أدرك أن صاحبها رجل مريض بداء الصرع• ووجه الفتي بعد هذا محبّب الى القلب لطيف رقيق دقيق ، ولكنه شاحب اللون ، بل انه في هذه اللحظة قد ازرقّ من شدة البرد •

انه يحمل بيده اليمنى صرّة هزيلة للملابس ، ملفوفةً بمنديل عتيق حائل اللون ، وكان هذا كلّ متاعه فيما يبدو • وكان لحذاءيه نعلان سميكان ، وكانت تغطي أعلى ظاهر الحذاءين لبادتان ؛ وذلك كله ليس مما يستعمل في روسيا كثيراً •

وقد لاحظ جاره ، الشابُ الأسمر ذو المعطف ، جميع هذه التفاصيل ، تسريةً عن نفسه • ثم اقتحم الصمت أخيراً فبدأ يحدثه مبتسماً تلك الابتسامة الوقحة نفسها التي تعبّر في أكثر الأحيان عما يشعر به امرؤ غليظ القلب من تكبر فظ أمام مصائب الآخرين • قال له وهو يهز منكبيه :

ـ برد ، هه ؟

فأجاب الجار بطوية سليمة ونية صادقة (ليلاحظ القارىء أن الجليد كان يذوب) :

ـ برد جداً ، فكيف يكون البرد أثناء الجليد ؟ لم أكن أتخيل أن البرد يبلغ هذا المبلغ من الشدة في بلادنا • لقد فقدت عادة احتمال مثل هذا البرد !

ـ لا شك أنك آت من الخارج ، أليس كذلك ؟

ـ نعم ، من سويسرا !

صاح الفتى الأسمر وهي يطلق صفرة ويضحك ضحكة كبيرة :

ـ ها .. مسافة !

ودار الحديث. فكان الشاب الأشقر الذى يرتدى الرداء السويسرى يجيب بنية طيبة وطوية سليمة عن جميع الأسئلة التى يلقيها عليه محدثه ، دون أن يلاحظ ما في بعضها من تزيد وتندر بل ومن وقاحة . فروى فيما رواه أنه قضى في الخارج أكثر من أربع سنين ، فقد أُرسل الى هنالك ليعالج من مرض عصبي غريب ، هو نوع من الصرع ، أو من داء « رقص سان جى » ، مع ارتعاشات وتشنجات . وقد أثارت قصته تبسُّم جاره مراراً ، حتى لقد أخذ جاره يضحك مقهقهاً حين سأله : « وهل شفوك ؟ » فأجاب : « لا ، لم يشفوني ! » .

وأضاف الأسمر يقول مستهزئاً متهكماً :

ـ ايه ... ما أكثر المال الذى لا بد أنك أنفقته هنالك سدىً في غير طائل ! وما أجهلنا هنا اذ نوليهم تلك الثقة كلها !

فهتف رجل كان جالساً قربهما :

ـ هذه هي الحقيقة عينها !

ان الرجل يبدو في نحو الأربعين من عمره ، ويرتدى ملابس رديئة ، ويدل مظهره على أنه موظف . انه قوى الجسم متين البنية ، له أنف أحمر يتوسط وجهاً ذا بثور .

كرر الرجل يقول :

ـ هذه هي الحقيقة بعينها . وهم يجتذبون الى بلادهم جميع أموالنا الروسية !

قاطعه الفتى المريض بصوت رقيق عذب فيه روح الملاينة والمصالحة :

ـ لا ، أنت مخطىء ، فيما يتعلق بى أنا على الأقل . لست أستطيع أن أناقش ، لأننى لا أعرف كل ما يجرى . ولكننى أقول ، فيما يتصل بى ، ان طبيبى قد دفع نفقات سفرى من آخر ما يملك من قروش ، بعد أن ظل يعالجنى بالمجان سنتين .

قال الأسمر :

ـ عجيب ! ألم يكن هناك اذن من يستطيع أن يدفع عنك نفقات علاجك ؟

ـ لم يكن هناك أحد ! ان السيد بافلتشيف الذى كان يهتم بأمرى قد مات منذ سنتين . فكتبتُ عندئذ الى الجنرالة ايبانتشين ، وهى سيدة تمت الىّ بقربى بعيدة ، ولكنى لم أتلق أى جواب . فهأناذا أرجع أخيراً !

ـ والى أين تنوى أن تذهب ؟

ـ تعنى أين أريد أن أنزل ؟... والله ... لا أدرى بعد ! ...

ـ لم تقرر بعد ؟

وانفجر المستمعان كلاهما يقهقهان . وسأل الأسمر :

ـ وهذه الصرة الصغيرة تضم كل ما تملكه حتماً ، أليس كذلك ؟

فقال الموظف الأحمر الأنف مزاوداً ، راضياً عن نفسه كل الرضى، مزهواً بها كل الزهو :

ـ أراهن على أن الأمر كذلك ! وعلى أنك ليس لك شىء آخر بين الأمتعة والحقائب . على كل حال : ليس الفقر عيباً !

وصدق هذا القول أيضاً ، فان الشاب الأشقر بادر يؤيده بسرعة شديدة ولهفة كبيرة !

وتابع الموظف كلامه بعد أن ضحك الاثنان ما شاء لهما السكر أن يضحكا (الغريب في الأمر أن صاحب الصرّة قد ضحك أيضاً وهو ينظر اليهما ، فزاد ذلك ضحكهما قوة) :

ـ ان لصرتك مع ذلك دلالةً • صحيح أن المرء يستطيع أن يراهن على أنها لا تضم لفّات دنانير ذهبية ، دنانير نابوليون أو فردريك أو حتى دنانير هولاندية ، رغم أن المرء يكفيه أن يرى لبادتي حذاءيك المصنوعتين في الخارج حتى يدور في خلده ذلك ••• ولكن اذا أضفنا الى متاعك القليل هذا احتمال أن يكون لك قريبة مثل الجنرالة ايابانشتين ، فان صرّتك يصبح لها عندئذ شأن كبير وقيمة عظيمة ، هذا اذا صحّ أن الجنراله ايابانتشين قريبتك حقاً ، وأنك لا تخطىء في هذا الأمر ، ولو من قبيل السهو والذهول ••• وذلك يحدث في كثير من الأحيان ••• بسبب سعة الخيال مثلاً !•••

هتف الفتى الأشقر يقول :

ـ هنا أيضاً أنت على صواب ! انني مخطىء تقريباً • فالجنراله لا تكاد تمت اليّ بقربى ، حتى انني لم أدهش البتة حين لم تبعث اليّ بجواب • لقد كنت أتوقع ذلك •

ـ بدّدت مالاً لارسال رسالتك ، هِمْ !••• على الأقل لا يستطيع المرء أن يأخذ عليك أنك قليل السذاجة والبراءة والصدق • هذه صفات محمودة ! هِمْ !••• أما الجنرال ايابانتشين فنحن نعرفه ، لأنه في الواقع رجل يعرفه الناس كافة • أما المرحوم السيد بافلشتيف ، الذى كان يعولك في سويسرا ، فقد عرفناه أيضاً ، هذا اذا كان هو نيقولا آندريفتش بافلتشيف حقاً ، لأن الرجلين قريبان يحملان اسماً واحداً • فأما أحدهما فما يزال يعيش في القرم ، وأما المرحوم نيقولا آندريفتش ، المتوفى ، فقد

كان رجلاً محترماً له علاقات رفيعة وصلات عالية ، وكان يملك في زمانه أربعة آلاف نفس ... نعم ...

أجاب الشاب وهو يتفرس في السيد الذي يبدو عليه أنه يعرف كل شيء ، أجاب وهو يتفرس فيه بنظرة طويلة متفحصة :

ـ هو ذاك ! كان اسمه نيقولا آندريفتش حقاً .

ان هؤلاء السادة « العالمين بكل شيء » يصادفون في بعض الأحيان بل قل في كثير من الأحيان بين صفوف طبقة اجتماعية معينة . انهم يعرفون كل شيء ، لأن فضولهم اليقظ وملكاتهم العقلية تلتقي جميعاً في اتجاه واحد ، لخلو بالهم طبعاً من اهتمامات حيوية ومشاغل جدية أخطر شأناً ، كما قد يقول مفكر معاصر . على أننا حين نقول « انهم يعرفون كل شيء » يجب أن نفهم من ذلك أن ميدان علمهم محدود ، وان ساحة معرفتهم ضيقة . فان علمهم يكاد يقتصر على أمور كالتالية : أين يعمل الموظف الكبير فلان ، وما هي علاقاته ، وما مقدار ثروته ، وما هي المقاطعة التي كان حاكما فيها ، ومن هي المرأة التي تزوجها ، وكم كان المهر الذي ناله من زوجته ، ومن هو ابن عمه ، ومن هو قريبه من الدرجة الثالثة ، الخ الخ ، وهم يعرفون ذلك كله معرفة مناسبة . وهؤلاء السادة « العالمون بكل شيء » هم في أكثر الأحيان أناس صعاليك يسيرون بأكمام مثقوبة أكواعها ، ولا تتجاوز رواتبهم سبعة عشر روبلاً في الشهر ، والناس الذين يعرف هؤلاء كل شيء عنهم لا يستطيعون حتى أن يتخيلوا الدوافع التي تحضهم على التماس هذه المعارف وجمع هذه المعلومات . ولكن كثيراً من هؤلاء « العالمين بكل شيء » تغريهم معارفهم هذه اغراءً كبيراً ، وهم يستمدون من هذه المعارف التي تساوي في نظرهم علماً حقيقياً ، يستمدون منها احتراماً لأنفسهم ، ويستمدون منها متعاً روحية عظيمة ، وارتياحاً فكرياً كبيراً . ثم ان لهذه المعرفة جوانبها المغرية الجذابة . لقد عرفت

علماء وأدباء وشعراء وسياسيين وصلوا بفضل هذه المعرفة الى أهداف عالية وبلغوا غايات رفيعة ، ووجدوا بواسطتها سكينة الروح وطمأنينة النفس ، حتى انهم مدينون لها بما نالوا من مراكز فى مجال عملهم •

لم ينقطع الأسمر عن التثاؤب طوال مدة هذا الحوار • وكانت نظرته لا تبرح تطوف بالأفق من خلال النافذة ، وكان واضحاً أنه يستعجل الوصول • كان يبدو ذاهلاً ، ذاهلاً ذهولاً غريباً ، يكاد يكون قلقاً مهموماً مغموماً ، حتى أصبح سلوكه من ذلك غريباً شاذاً ، فهو تارة يصغى ولا يسمع ، وتارة ينظر ولا يرى ، ثم ينفجر ضاحكاً حتى دون أن يعرف لماذا هو يضحك •

وفجأة قال السيد ذو البثور يسأل الشاب الأشقر حامل الصرة :

ـ بالمناسبة •• هل يمكننى أن أعرف من هو السيد الذى أتشرف بمخاطبته الآن ؟•••

فأجاب الشاب الأشقر فوراً ، بسلامة نية :

ـ أنا الأمير ليون نيقولايفتش ميشكين •

قال الموظف مفكراً حالماً :

ـ الأمير ميشكين ، ليون نيقولايفتش ميشكين ؟ لا أعرفه•• لم اسمع به يوماً • لا أقصد اننى لم اسمع بهذا الأسم ، فهو اسم تاريخى* ، وفى وسع المرء بل لا بد له أن يجده فى كتاب التاريخ الذى ألفه كارامازين*• لا ، وانما أنا أقصد شخصك • وانى لأعتقد من جهة أخرى أن المرء لا يصادف اليوم فى أى مكان أحداً من أسرة الأمراء ميشكين ، حتى ان ذكراهم قد انطفأت •

فعقب الأمير يقول بسرعة :



الأمير ميشكين

بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

ـ طبعاً ، طبعاً ! لا يوجد الآن أى أمير بهذا الأسم ، الا أنا • لا بد أننى آخر رجل فى السلالة • أما اسلافنا فكانوا من صغار مالكى الأطيان الذين يزرعون أرضهم بأنفسهم • والحق ان ابى قد خدم فى الجيش برتبة ملازم ثان بعد أن تخرج من المدرسة الحربية • ومن المصادفات ان الجنرالة ايبانتشين منحدرة هى أيضاً من سلالة الأمراء ميشكين ، لا أدرى كيف ! فهى الأخيرة من نوعها أيضاً •

صاح الموظف يقول مقهقهاً :

ـ هىء هىء هىء ! الأخيرة من نوعها ! هىء هىء هىء ! ان لك طريقة بارعة فى اللعب بالألفاظ •

وابتسم الأسمر هو أيضاً • أما الأشقر فقد بدا عليه شىء من الدهشة لأنه أفلح فى أن يلعب بالألفاظ هذا اللعب ، على رداءته •

وقال شارحاً :

ـ تصور أننى قلت ما قلت حتى دون تفكير فيه !

فأجابه الموظف مرحاً :

ـ طبعاً طبعاً ، لا حظنا ذلك !

وسأله الأسمر فجأة :

ـ قل لى يا أمير : لا شك أنك طلبت العلم هناك عند استاذك ، أليس كذلك ؟

ـ نعم •••

ـ أما أنا فلم أطلب العلم يوماً •••

فأضاف الأمير قائلاً كأنما ليعتذر :



دوجوين

بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

ـ على كل حال ، أنا لم أحصِّل من العلم الا شذرات أو فتاتاً ! فقد كانوا يعدونني غير مؤهل لمتابعة دراسة منتظمة ، بسبب حالتي الصحية !

سأله الأسمر بغتةً :

ـ هل تعرف آل روجويين ؟

ـ لا ، لا أعرفهم . على كل حال ، أنا لا أعرف الا قلة من الناس في روسيا . هل أنت روجويين ؟

ـ نعم ، أنا روجويين ، بارفيون روجويين .

تدخل الموظف يسأل مهتماً اهتماماً كبيراً :

ـ بارفيون ؟ انتظر ... ألست واحداً من آل روجويين الذين ..

فقاطعه الأسمر مفاجئاً :

ـ نعم ، أنا واحد منهم ، واحد منهم هم أنفسهم .

انه لم يكلمه حتى ذلك الحين ، وانما كان يقتصر على مخاطبة الأمير .

أجاب الموظف مذهولاً محملقاً :

ـ ولكن ... هل هذا ممكن ؟

وسرعان ما اكتسى وجهه تعبيراً يفيض بالاحترام بل وبالقلق والخوف ، وتابع كلامه يقول :

ـ ألست قريب سيمون بارفيونوفتش روجويين ذاك البورجوازى الفخرى الوراثى * الذي توفى مخلِّفاً ثروة قدرها مليونان ونصف مليون ؟

أجابه روجويين مستخفاً ، حتى دون أن يتنازل فيشرِّفه بالقاء نظرة عليه :

ـ من أين تعرف أنه خلف ثروة قدرها مليونان ونصف مليون ؟

ثم تابع كلامه وهو يغمز الأمير :

ـ عجيب أمر هؤلاء الناس ! انى لأتساءل ما هذا الذى يصيبهم فاذا هم يسرعون يحــومون حولك ؟ لقد مات أبى منذ مدة قصيرة حقــاً . وأنا واصل من بسكوف متأخراً شهراً . انظر كيف أعود الى المنزل فقيراً معدماً أكاد أكون حافى القدمين . ان أخى ، ذلك الوغد الفاجر ، وكذلك أمى ، لم يرسلا الىّ مالاً ، ولا أبلغانى النبأ ! لكأننى فى اعتبارها كلب من الـكلاب ! لقد بقيت طريح الفراش فى بســكوف شهراً أعانى من الحمى الحارة !

صاح الموظف رافعاً يديه الى السماء :

ـ والآن ستقبض مليوناً أو أكثر ، دفعةً واحدة ! يا رب السماء !

قال روجويين وهو يحرك يده بحركة تنم على العصبية والغضب :

ـ ولكن ما شأنه هو وهذا ؟ هلاّ قلت لى ، أرجوك ! أنت تعلم أننى لن أعطيك قرشاً واحداً ولو مشيت أمامى على يديك !

ـ سأفعل ذلك ، سأمشى على يدى ، ما رأيك ؟

ـ انظر الى هذا الرجل ! قلت لك اننى لن أعطيك شيئاً ، لن أعطيك شيئاً البتة ، ولو لبثت ترقص أمامى أسبوعاً بكامله !

ـ لك ما تشاء ! لا تعطينى شيئاً ، فأنا لا أستحق أن تعطينى شيئاً . لـكن هذا لا يمنعنى من أن أرقص لك . ســـأترك زوجتى ، وأولادى الصغار ، لأجىء أرقص أمامك ، فى سبيل ملاطفة ، فى سبيل ملاطفة ...

قال الأسمر وهو يبصق اشمئزازاً :

ـ شيطان يأخذك !

ثم أضاف يقول مخاطباً الأمير :

ـ منذ خمسة أسابيع ، كنت مثلك . تركت أبى وأنا لا أكاد أحمل

الا صرّة صغيرة • وهربت عند عمة لى بمدينة بسكوف • وهناك مرضت، ومات هو أثناء ذلك ! غلبته المنية ! رحمة الله على ترابه ! ولكن يجب أن أقول لك انه أوشك أن يقتلنى ! صدقنى يا أمير ، أحلف لك • فلولا اننى هربت لقتلنى حتماً !

قال الأمير فى لطف وهو يتفحص بكثير من الفضول هذا المليونير الذى يرتدى ذلك المعطف الفقير :

ـ لا بد أنك أغضبته ، أليس كذلك ؟

رغم أن هذا الميراث وهذا المليون جديران بالاهتمام ، فان شيئاً آخر هو الذى أثار دهشة الأمير واهتمامه • وكان روجوين ، من جهته ، يبدو متلذذاً أكبر التلذذ بمحادثة الأمير • ومع ذلك يشعر المرء أنه كان يتكلم ارضاءً لحاجة آلية أكثر مما كان يتكلم تلبيةً لضرورة داخلية • كان يتكلم تسرية عن نفسه لا تعاطفاً مع غيره ؛ كان يدفعه الى الكلام نوع من القلق، نوع من الغم ؛ كان يتكلم لينظر الى شخص ، وليحرك لسانه • لكأنه ما يزال تحت سيطرة الحمى ، بل والهذيان • أما الموظف فكان معلقاً بشفتى روجوين ، أسيراً لهما ، لا يجرؤ أن يحوّل عنهما انتباهه لحظة واحدة • كان يتلقف ويزن كل كلمة من كلماته كأنها من الماس •

أجاب روجوين عن سؤال الأمير فقال :

ـ أما أنه غضب فقد غضب • والحق أنه لم يكن على خطأ • ولكن المذنب الأكبر فى الأمر كله انما هو أخى • ولست أقول شيئاً عن أمى ، فهى امرأة عجوز ، عاكفة على قراءة حياة القديسين ، غارقة فيها • وهى تقضى النهار كله فى صحبة نساء عجائز ، وأخى سيمون هو المسيطر على المنزل ، المتحكم فيه ، المستبد به • لماذا لم يبلغونى النبأ ، هه ؟ الأمر مفهوم ! صحيح أننى كنت عندئذ فاقداً وعيى • وهم يزعمون أيضاً أنهم

أرسلوا الىّ برقية • ولكن البرقية وصلت الى عمتي • وعمتي التي ترملت منذ ثلاثين عاماً تقضي وقتها كله ، من الصباح الى المساء ، في صحبة نساء معتوهات • ليست عمتي امرأة مترهبة ، ليست امرأة ممن يسمين مترهبات، بل هي شر من ذلك• فحين رأت البرقية أصابها ذعر ، فحملتها الى الشرطة دون أن تفضها ، فلبثت البرقية عند الشرطة الى هذا الحين • كونيف فاسيلي فاسيلفتش وحده ساعدني ، فكتب الىّ كل شيء • أما أخي فانه لم يجد ما هو خير من قضاء الليل في أن يقص شراريب الذهب من غطاء البروكار الذي يغطي تابوت أبي ، بحجة أن لهذه الشراريب « قيمة كبيرة » • هل تعلم أن في وسعي أن أرسله الى سيبيريا اذا شئت ، لأن هذا العمل خرق للمقدسات !

قال الشاب الأسمر ذلك ثم التفت نحو الموظف ، فأضاف :

ـ نعم ، هذا في عرف القانون خرق للمقدسات حقاً ، يا فزاعة العصافير في الحقول !

فأسرع الموظف يصيح قائلاً :

ـ هو خرق للمقدسات طبعاً ، خرق للمقدسات طبعاً !

ـ وهو يستحق النفي الى سيبيريا ، هه ؟ *

ـ الى سيبيريا ، الى سيبيريا ، الى سيبيريا رأساً !

قال روجوجين يخاطب الأمير :

ـ هم جميعاً يظنون أنني ما زلت مريضاً ، ولكني ، دون أن أقول كلمة لأحد ، ودون أطلع على شيء أحدا ، ركبت القطار رغم انني ما زلت عليلاً ، وجئت افاجئهم ! سيكون عليك أن تفتح الأبواب يا أخي العزيز سيمون سيميونوفتش ! أنا أعلم جيداً أنه كان يثير أبي المرحوم عليّ ، ويحقنه ضدّي ! يجب أن أعترف الآن بأنني قد أغضبت أبي فعلاً بحكاية

ناستاسيا فيليبوفنا تلك ، هذا صحيح • في ذلك أنا وحدى مخطىء • لقد أغوانى الشيطان الرجيم !

ردَّد الموظف قول صاحبه محاولاً أن يستجمع ذكرياته :

ـ حكاية ناستاسيا فيليبوفنا ؟

فصرخ روجوين في وجهه غاضباً :

ـ لا تعرفها حتماً !

فأجاب الموظف وقد لاح في وجهه معنى الانتصار :

ـ بل ربما كنت أعرفها !

ـ دعك من هذا الكلام ! في العالم نساء كثيرات باسم ناستاسيا فيليبوفنا ! أما أنت فانك وغد وقح وقاحة فظيعة ، هذه هي الحقيقة أقولها لك •

ثم أضاف يخاطب الأمير :

ـ آ ••• كنت أعرف ذلك سلفاً ، كنت أعرف سلفاً أننى لن أستطيع التملص من أفراد من هذا النوع !

أسرع الموظف يكرر قوله :

ـ جائز جداً أننى أعرفها • ان ليبديف يعرف أشياء كثيرة • أنت يا صاحب السمو تتنازل فتوجه الىَّ اللوم ، فما عساك فاعلاً اذا أنا استطعت أن أبرهن لك على أن ما أقوله هو الحقيقة ؟ اسمع اذن : ان ناستاسيا فيليبوفنا هذه التى أراد أبوك ، في شأنها ، أن يتمَّ له اقناعك بالعصا ، انما تسمى باراشكوفا • ويمكن أن يقال عنها انها سيدة ذات مزايا ، وانها في نوعها ، هي أيضاً ، أميرة • ذلك أولاً • أما ثانياً فان لها علاقة برجل اسمه توتسكى ، آتانازى ايفانوفتش توتسكى ، وليس لها



ليبديف

بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

علاقة بأحد غيره . وهو رجل من كبار المّلاكين ، وهو رأسمالى ضخم يدير عدة شركات ؛ وتربطه بالجنرال ايبانتشين صداقة قوية ...

ذهل روجويين فصاح يقول مبهوتاً :

ــ عجيب ! يبدو عليك أنك عالم بكل شيء حقاً ! شيطان يأخذك ! انه يعرفها ، انه يعرف كل شيء !

ــ كل شيء ! ليبيديف يعرف كل شيء ! يجب أن أقول لك يا صاحب السمو انني في الآونة الأخيرة قد ظللت شهرين كاملين أطوف في كل مكان مع ليخاتشوف ، الفتى ألكسى ليخاتشوف . هو أيضاً كان قد فقد أباه . واذ انني أعرف جميع الأركان والزوايا ، فقد أصبح لا يستطيع أن يخطو خطوة دون أن يصحبه ليبيديف. انه الآن في السجن بسبب ديون تراكمت عليه . ولكنه أثناء طوافنا ذاك قد أتيح له أن يعرف آرمانس ، وأن يعرف كورالى * ، وأن يعرف الأميرة باتزكى ، وناستاسيا فيليبوفنا ، وكثيرا غيرهن .

سأله روجويين وهو ينظر اليه نظرة شريرة ، وقد اصفرت شفتاه وأخذتا ترتجفان :

ــ ناستاسيا فيليبوفنا ؟ ما شأنها وليخاتشوف ؟

أسرع ليبيديف يجيب :

ــ لا شيء ! لا شيء البتة ! لا شيء اطلاقاً ! لم يستطع ليخاتشوف أن يحظى منها بشيء في يوم من الأيام ، رغم أمواله كلها . لا ، انها ليست مثل آرمانس . هي لا علاقة لها الا بصاحبها توتسكى . وقد تُرى مساءً في شرفتها بالمسرح ، « المسرح الكبير » أو « المسرح الفرنسي » . ومهما يثرثر الضباط عنها ، فانهم عاجزون عن أن يبرهنوا على أى شيء . هم يقولون : « ها هي ذى ! انظر اليها ، ناستاسيا فيليبوفنا الشهيرة تلك ! » ،



ناستاسيا فيليبوفنا

بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

ولكن ذلك هو كل ما يستطيعون أن يقولوه ، ولا كلمة عداه ، اذ ليس ثمة شيء !

قال روجوين مؤيداً ، وقد اربد وجهه وانقبضت أساريره :

ـ هذه هي الحقيقة . وقد روى لي زاليوجيف هذا الشيء نفسه في ذلك الأوان . في ذات يوم من تلك الأيام ، كنت أقطع شارع نفسكي راكضاً ؛ وكنت أرتدي معطفاً قديماً لأبي ، أرتديه منذ ثلاث سنين ، فاذا أنا أراها تخرج من أحد المخازن فتركب عربتها . شعرت بنار تشب في جسمي فتحرق أحشائي حرقاً . وصادفت عندئذ زاليوجيف . ان زاليوجيف ليس مثلي . كان يتنزه في الشارع متأنقاً تأنق صبي حلاق ، واضعاً على احدى عينيه نظارة . أما نحن في منزل أبينا فاننا ننتعل أحذية مرقعة ، ونأكل حساء كرنب . قال لي زاليوجيف : « ليست هذه المرأة لأمثالك . انها أميرة * . اسمها فيليبوفنا باراخشوفا . تعيش مع توتسكي. لا يعرف هذا المسكين توتسكي كيف يتخلص منها . لقد تقدم في السن. بلغ الخامسة والخمسين . يريد أن يتزوج أجمل امرأة ببطرسبرج ! » . ثم أخذ زاليوجيف يغرس في ذهني أنني أستطيع أن أرى ناستاسيا فيليبوفنا مرةً أخرى ، ذلك المساء نفسه ، في شرفتها من « المسرح الكبير » الذي يعرض الليلة مسرحية باليه . هه ! حاولْ في بيت أبينا أن تذهب الى الباليه : لو خطر ببالك شيء من هذا لكانت عقوبتك عقوبة واحدة هي القتل ! مع ذلك استطعت أن أهرب ساعة . فرأيت ناستاسيا فيليبوفنا مرة أخرى ، ثم بتُّ ليلتي مسهَّداً لا يعرف النوم الى جفني سبيلا. وفي صباح الغد أعطاني المرحوم أبي سندين ماليين قيمة كل منهما خمسة آلاف روبل قائلاً لي : « امض بهما ، ثم اذهب بعد ذلك الى مكتب آندريف لسداد حساب مقداره سبعة آلاف وخمسمائة روبل . أما الباقي فأعده اليَّ دون أن تتسكع في الطريق . سأبقى في الدار أنتظرك » . بعت السندين ،

وقبضت المـال ، ولكنني لم أذهب الى آندريف ، وانمـا أسرعت أمضي قُدُماً الى « المخزن الانجليزى » ، فاخترت قرطين للأذنين تزينهما ماستان يبلغ حجم كل منهما حجم بندقة . انفقت في ثمنهما العشرة آلاف روبل، حتى لقد احتجت الى اربعمائة روبل أخرى ، ولكن حين ذكرت اسمي أولاني التاجـر ثقتـه . وحملت القرطين ، وذهبت الى زاليوجيف فقلت له : « والآن فلنذهب الى ناستاسـيا فيلبـوفنا يا صاحبي ! » . وصرنا في الطريق . أصبحت لا أشعر بالأرض تحت قدميَّ ، وكنت لا أرى شيئاً مما يجري أمامي ولا حولي ! ودخلنا الى الصالون رأساً ! هاهي ذي تصل! لكنني لم أجرؤ في تلك اللحظة أن أقدِّم نفسي . ان زاليوجيف هو الذي أعلن لها قائلاً : « هذه هدية من بارفيون روجوين ، ذكرى للقاء الأمس، أرجو أن تتلطفي فتقبليها » . فتحت ناستاسيا العلبة ، وأنعمت النظر في القرطين ، ثم قالت مبتسمة : « أشكر عني لصديقك السيد روجوين لفتته اللطيفة ! » . ثم حيينا وخرجت . ليتني مت في مكاني ذلك اليوم ! والحق أنني ذهبت الى هناك مقدِّراً انني لن أرجع حياً . وانما أغاظني خاصةً أن ذلك الحيوان زاليوجيف قد نسب الفضل لنفسه في الأمر كله . كنت أنا بقامتي الضئيلة وملابسي التي تشبه ملابس الخدم واقفاً هنالك محملقَ العينين مدمَّر النفس خجلاً . أما هو فكان يرتدي ملابس على أحدث زي ، وكان متطيبـاً بالعطر ، مجعداً شـعره ، وكان زاهي اللون مشرق الوجه ، وقد عقد على عنقه ربطة ذات مربعات ، وكان لا ينفك يهز عطفيه رقة ، ويحني ظهره احتراماً . لا شك أنها اعتقدت أنه هو صاحب الهدية وقد قلت له غاضباً حين خرجنا : « أنصحك بأن لا تفكر فيها ، مفهوم ؟ ». فقال : « وددت لو أعرف كيف ستسدد حساب سيمون بارفيونتش ! » . والحق أنني كنت في تلك اللحظة احترق رغبةً في القاء نفسي بالماء بدلاً من العودة الى الدار . ثم قلت لنفسي : « لا ، ليس للأمر أية خطورة في الواقع ! » . ورجعت الى الدار كالداخل الى النار .

دمدم ليبيديف يقول وهو يلوى يديه خوفاً ويرتعش من مجرد تصور الأمر :

ـ الله الله ... كان يتفق للمرحوم ان يرسل رجلاً من الرجال الى العالم الآخر بسبب عشرة روبلات ... فما بالك بعشرة آلاف روبل ؟

قال ليبيديف جملته الأخيرة هذه متجهاً بالكلام الى الأمير .

وكان الأمير يتفرس مستطلعاً فى روجوين الذى بدا فى تلك اللحظة شاحباً شحوباً أشد .

قال روجوين :

ـ العالم الآخر ؟ ماذا تعلم أنت عن هذا ؟

والتفت نحو الأمير يستأنف سرد قصته عليه فقال :

ـ لم يلبث أبى أن عرف كل شىء طبعاً . لقد أخذ زاليوجيف يروى القصة لكل من يريد أن يسمعها . أصعدنى أبى الى غرفة ، وحبس نفسه معى فيها ، وأخذ يؤدبنى خلال ساعة كاملة . وكان يقول : « ما هذا الا لقمة أولى لتذوق الطعم ، ولكنى سأعود فى هذا المساء ، لأهيىء لك ليلة سعيدة ونوماً مناسباً ! » . هل تعلم ماذا فعل بعد ذلك ؟ ذهب الى ناستاسيا فيلبوفنا بنفسه ، هو الشيخ الشائب ، فانحنى لها محيياً حتى بلغ بانحنائه الأرض ، وأخذ يضرع اليها ويبكى . فاذا هى ترمى العلبة فى وجهه آخر الأمر قائلة له : « اليك القرطين فخذهما يا لحيةً عتيقة ! لقد أصبحا أثمن فى نظرى عشر مرات بعد أن عرفت أن بارفيون حصل عليهما بمجازفة خطيرة كهذه المجازفة ! أبلغ بارفيون تحيتى وشكرى ! » .

« واقترضت بعد ذلك عشرين روبلاً من سرجى بروتوشين ، وركبت القطار متجهاً الى بسكوف بموافقة أمى ومباركتها . فما وصلت الى بسكوف حتى كنت ارتعد من الحمى . وأسرعت العجائز تعالجنى

وتداويني بتلاوة صفحات من حياة القديسين • فكنت مصعوقاً مبهوتاً • ثم خرجت أطوف بالكاباريهات ، وأنفق فيها آخر ما بقي لى من قروش • وقضيت الليلة كلها في الشارع ، منهاراً أكاد أموت من فرط السكر • حتى اذا طلع الصباح كنت أهذى • ومما زاد الطين بلة أن الكلاب قد جاءتنى أثناء الليل تعضنى وتنهشنى فى كل موضع من جسمى • ولم استرد صحوى الا فى كثير من العناء •

قال ليديف وهو يضحك ساخراً ، ويفرك يديه احداهما بالأخرى :

ـ هيء هيء ! بعد اليوم سنسمعها تغنى ، ناستاسيا فيليبوفنا هذه • ليست المسألة الآن مسألة قرطين يهديان اليها ، فلسوف تُغمر بعد هذه الساعة بهدايا تبلغ من الكثرة أنها •••

فزأر روجوين يقول وهو يمسك ليديف من ذراعه بوحشية :

ـ يميناً ••• لو قلت كلمة واحدة عن ناستاسيا فيليبوفنا ، فلارسلنّ اليك لكمات كتلك اللكمات المتلاحقة التى ••• مهما تكن قد تجولت مع ليخاتشوف ، فان ذلك لا يمنعنى من أن أسلخ جلدك ضرباً بالسياط •

ـ اذا جلدتنى بالسوط كان ذلك دليلاً على أن فى نيتك أن تحتفظ بى قريباً منك • فاجلدنى اذن ! انك اذ تجلدنى تدع علىّ طابعك • هه ! ها نحن اولاً وصلنا !

كان القطار يدخل المحطة فعلاً • ورغم أن روجوين قد زعم أنه غادر بسكوف خفيةً دون أن يذكر ذلك لأحد ، فقد كان ينتظره فى المحطة عدد من الأشخاص أخذوا يصيحون وهم يلوّحون له بطاقياتهم •

دمدم روجوين يقول وهو ينظر اليهم منتصراً ضاحكاً ضحكة خبيثة :

ـ هه ! هذا زاليوجيف أيضاً !

والتفت نحو الأمير فجأة فقال له :

ـ اسمع يا أمير ، لقد شعرت نحوك بعاطفة ومودة ، لا أدرى لماذا ! ربما كان مردُّ ذلك الى اننى التقيت بك فى لحظة كهذه اللحظة . ولكننى فى هذه اللحظة أيضاً انما التقيت بذلك الوغد (قال ذلك مشيراً الى ليبديف) فلم أحبه . زرنى يا أمير . سوف نخلصك من لبَّادتى حذاءيك البشعتين هاتين . وسأعطيك معطفاً جميلاً جداً من فراء السمور . وسأوصى لك برداء « فراك » أيضاً ، رداء « فراك » من الطراز الأول ، وبصديرة لونها أبيض أو لونها هو اللون الذى تختاره ! سأملأ جيوبك مالاً ... وسنمضى نرى ناستاسيا فيليبوفنا ... أتزورنى أم لا ؟

قال ليبديف ملحاً بلهجة فخمة تحاول الاقناع :

ـ فكر جيداً يا أمير . لا تفوِّت هذه الفرصة ! لا تفوِّتها !

نهض الأمير ، ومدَّ يده الى روجوين فى أدب ، وأجابه بلهجة رقيقة لطيفة :

ـ سيسرنى جداً أن أزورك . وانى لأشكر لك عاطفتك شكراً لا نهاية له . قد أجيئك فى هذا اليوم نفسه اذا اتسع وقتى . يجب أن اعترف لك صادقاً مخلصاً بأننى أعجبت بك أنا أيضاً أكبر الاعجاب ، ولا سيما حين قصصت علىَّ حكاية ذينك القرطين المزدانين بالماس . وحتى قبل أن تحكى لى قصة القرطين شعرت نحوك باعجاب ، رغم تجهم وجهك . أشكرك أيضاً على المعطف والثياب التى تنوى أن تهديها الى . ذلك اننى سأكون فى حاجة كبيرة اليها قريباً ، ولست أملك لشراء مثلها الآن قرشاً واحداً .

ـ سيكون معى مال ، سيكون معى مال منذ هذا المساء .

تعال زرني !

ردّد الموظف يقول :

ـ سيكون معه مال ، سيكون معه مال ، سيكون معه مال منذ هذا المساء .

ـ قل لي أولاً يا أمير . أأنت تحب الجنس اللطيف كثيراً ؟

ـ انا ؟ لا ! يجب أن أقول لك ... لعلك لا تعلم .. ولكنني بسبب مرضي الولادي لم أعرف النساء قط !

فهتف روجويين يقول :

ـ فاذا كان الأمر كذلك يا أمير ، فانت رجل كامل البراءة حقاً ! والله يحب أمثالك !

قال ليبيديف مؤيداً :

ـ نعم نعم ، الله يحبهم .

وقال روجويين آمراً :

ـ واتبعني أنت يا حضرة الموظف !

خرج الثلاثة من حافلة القطار . لقد بلغ ليبيديف مأربه أخيراً . ولم تلبث عصبة روجويين الصاخبة أن ابتعدت في اتجاه شارع فوزنسنسكي وكان على الأمير أن يدور الى جهة ليتاينايا .

الجو يسوده الضباب وتملؤه الرطوبة . سأل الأمير المارّة . فعرف أن عليه أن يقطع ثلاثة فراسخ حتى يصل الى حيث يريد أن يصل . فقرر أن يركب عربة .

الفصل الثاني

يسكن الجنرال ايبانتشين فى منزل يبعد قليلاً عن ليتاينايا، من جهة كنيسة « التجلى » . وهو يملك عدا هذا المبنى الجميل المظهر الذى يؤجر خمسة أسداسه، يملك منزلاً ضخماً للاستثمار فى شارع سادوفايا؛ ويملك ، قرب بطرسبرج ، أرضاً شاسعة ذات غلال كثيرة ، كما يملك مصنعاً يقع فى ضواحى بطرسبرج . انه رجل ذائع الصيت ، كان فى الماضى يزاول أعمال تأجير الأراضى للمزارعين ، أما الآن فهو مساهم خطير الشأن فى عدة شركات كبرى . فهو يُعَدّ رجلاً واسع الثراء ، يقوم بمشروعات ضخمة وله علاقات رفيعة عالية . وقد استطاع فى بعض الأوساط أن يكون انساناً لا غنى عنه على الاطلاق ، ومن بين هذه الاوساط الوسط الحكومى الذى يعمل فيه . ومع ذلك كان من الأمور المعروفة الثابتة ان ايفان فيدروفتش ايبانتشين لم يحصّل أى تعليم ولم يجن أية ثقافة ، وأن حياته العسكرية قد بدأت فى مدرسة من مدارس العرفاء . ومما لا شك فيه أن هذا أمر يشرّفه ، ولكن الجنرال ، رغم ذكائه ، كان لا يخلو من بعض نقاط الضعف التى يمكن أن تغفر له على كل حال؛ من ذلك أنه كان لا يطيق أن يُشار الى ماضيه . أما أنه ذكى وحاذق ، فهذا أمر لا يسعك الا تسلّم له به . فمن آيات ذلك مثلاً أنه قد اتخذ لنفسه مبدأً يلتزمه ولا يحيد عنه ، وهو أن لا يضع نفسه فى المقدمة

يوماً ، وأن يمّحي متى وجب ذلك وكان كثير من النـاس انما يقدرونه لهذه البساطة نفسها ، ولهذه اللباقة التى تجعله يعـرف دائمـاً أين مكانه الصحيح فيقف فيه ، وأين حدوده فلا يتعداها . ومع ذلك ليت النـاس الذين يرون فيه هذا الرأى الحسن ، ويحكمون عليه هذا الحكم الطيب ، ليتهم يعرفون ما كان يجرى أحياناً فى نفس ايفان فيدوروفتش هذا الذى كان واضحاً أنه يحسن المحافظة على مكانه !...

ان الجنرال ايابانتشين ، رغم خبرته الواسـعة فى الأعمـال ، ورغم مواهبه الممتازة ، كان يؤثر أن يظهر خـادماً متحمسـاً لآراء غيره على أن يفرض آراءه هو . « خادم أمين ، نعم ، ولكن لا متملق دنىء » * . وكان الى ذلك ـ وهذه علامة من علائم العصر ـ يرى أن من شرف الانسـان أن يكون رجلاً ثابت الجنـان ، أن يكون روسـيـاً حقيقيـاً . فمن هذه الناحيـة ، اتفق أن حدثت له مغـامرات أليمة مؤسـفة ، ولكن الجنرال ليس من الرجـال الذين تخـور عزائمهم ويدب اليهم اليـأس حتى ازاء أصعب الظروف الشائكة . وبالاضافة الى هذا ، كان موفقـاً فى المقـامرة بمبالغ ضخمة . على أنه كان لا يحاول أن يتستر على هذا العيب الطفيف أو هذه الخطيئة اليسيرة التى يدين لها فى كثير من الأحيان بأرباح طائلة . بالعكس : كان يعلنها ويذيعها .

انه ينتمى الى بيئة خليطة طبعاً ، ولكنها بيئة غنية وذات نفوذ على كل حال . وكان هو ينتظر من المستقبل كل شىء : ان فى عمره لمتسعاً ، ولا بد أن يجىء كل شىء فى يوم من الأيام . ان الجنرال ايابانتشين ما يزال ـ كما يقال ـ فى سنٍ هى سن القوة . ان عمره ستة وخمسون عاماً ، وهو العمر الذى يتفتح فيه الرجل تفتحاً كاملاً ، العمر الذى يبدأ فيه الرجل « حياته الحقة » فعلاً ! صحته الحسنة ، لونه النضر ، أسنانه القوية رغم سوادها ، جسمه المتين الشديد ، وجهه الذى يعبر فى الصباح عن الاهتمام

بالعمل ، ويعبِّر في المساء عن المرح أثناء اللعب بالورق أو في منزل صاحب السمو * ، ذلك كله كان يساهم في تحقيق نجاحه حاضراً ومستقبلاً ، وينثر على طريق صاحب السعادة الورود .

وكانت أسرته زهراً متفتحاً . صحيح أنها لا تضم الا وروداً ، ولكن من حق الجنرال أن تكون له آمال عراض . هل هناك ، في حقيقة الأمر ، من هدف أخطر شأناً وأقدس قداسةً من مستقبل الأسرة ؟ بم يمكن أن يتعلق المرء ان لم يتعلق بالأسرة ؟ . كانت أسرة الجنرال تتألف من زوجته وبنات ثلاث كبيرات . لقد تزوج الجنرال وهو في شرخ الشباب ، حين لم يكن الا ملازماً أول ، تزوج فتاة تكاد تكون في مثل سنه . لم تكن الفتاة متألقة لا بجمالها ولا بثقافتها . وهي عدا ذلك لم يتجاوز مهرها الذي حملته اليه خمسين نفساً ؟ ولكن هذا كان بداية ثرائه والحق يقال . ان الجنرال لم يستنكر في يوم من الأيام أنه تزوج قبل الأوان ، لا ولا نسب هذا الزواج يوماً الى حماسة الصبا واندفاع الشباب . وكان يحترم زوجته ويهابها ، حتى لقد وصل من ذلك الى حبها .

كانت الجنرالة ، زوجةُ الجنرال ، من سلالة الأمراء آل ميشكين ، وهم أسرة عريقة جداً ، وان لم تكن متألقة كثيراً . وكانت الجنرالة تزهو بهذا المحتد النبيل زهواً كبيراً ، وتستمد منه احتراماً لنفسها عظيماً . ان شخصية من شخصيات ذلك الأوان التي كان لها نفوذ ، شخصيةً من تلك الشخصيات التي تحب أن تكون لها صفة الحماية (وهي حماية لا تكلف صاحبها أية نفقة على كل حال) ، قد أراد أن يهتم بزواج الأميرة الشابة ، ففتح أمام الملازم الأول الشاب أبواب الارتقاء ودفعه اليها . ولم يكن ايبانتشين في حاجة الى أن يُدفع دفعاً ، بل كانت تكفيه نظرة تشجيع ، ولا تغيب عنه أو تفلت منه . وعاش الزوجان سني زواجهما الطويل في وفاق تام ، باستثناء مصادفات طارئة قليلة . لقد استطاعت الجنرالة ، بفضل

منبتها الذى يصلها بسلالة أمراء ، ولأنها آخر من يحمل اسم هذه السلالة ، وربما بسبب مزاياها الشخصية أيضاً ، استطاعت منذ طفولتها أن تجد لنفسها حاميات لهن مراكز عليا ومنازل سامية . وبعد ذلك ، وبفضل رتبته الرفيعة ، أصبحت لا تشعر فى المجتمع الراقى بأى حرج ، وأخذت تحس فيه بارتياح كامل وانطلاق تام .

وفى هذه السنين الأخيرة تفتحت وازدهرت بناتهما الثلاث : الكسندرا ، وآديلائيد ، وآجلايا ، ورغم أنهن يحملن اسم ايبانتشين فحسب ، فقد دخلن الحياة بأرصدة عظيمة ، هى : محتد أمهن التى تنتمى الى سلالة أمراء ، مهرٌ ضخم محترم ، نجاح أبيهما فى المجتمع نجاحاً يبيح له أن يطمح فى المستقبل الى أعلى المناصب . ومن الأمور التى لا تفسد عليهن شيئاً ، أنهن كن على جانب من الجمال ، حتى كبراهن التى بلغت من عمرها خمسة وعشرين عاماً . وكان عمر الوسطى ثلاثة وعشرين ؛ أما الصغرى فقد أتمت العشرين منذ قليل . والصغرى هذه يمكن أن يقال عنها انها بارعة الحسن فتانة الجمال حقاً ، حتى لقد أخذ المجتمع يتحدث عنها كثيراً ، فيمتدح جمالها ويشيد بحسنها . بيد أن هذا لم يكن كل شيء . فان بنات الجنرال الثلاث كنّ يتألقن كذلك بثقافتهن ، وذكائهن ، ومواهبهن . وكان من المعروف عنهن أيضاً أنهن متحابات كثيراً ، وأنهن يتساندن تسانداً كبيراً . حتى لقد تحدث الناس فى هذا الصدد عن تضحيات ارتضت الكبريان أن تقدماها لأختهما الصغرى ، معبودة الأسرة كلها . ولقد كن فى المجتمع يتحاشين أن يضعن أنفسهن فى المقدمة ، حتى لقد كن مسرفات قليلاً فى التواضع . فما من أحد يستطيع أن يأخذ عليهن شيئاً من عجب أو عجرفة ؛ ولكن كان معروفاً مع ذلك أن لهن كبرياءهن وأنهن يعرفن قدرهن ويشعرن بقيمتهن . كانت الكبرى موسيقية ، وكانت آديلائيد تملك موهبة عظيمة فى فن

الرسم ، وهي موهبة ظلت مجهولةً سنين طويلة ، الى أن اكتشفت في الآونة الأخيرة بمصادفة بحتة • الخلاصة أن الناس كانت تكيل لهن المديح وتغمرهن بالثناء • على أن هناك ألسنة سوء طبعاً ، فمن ذلك خاصةً أن بعض الناس كانوا يتحدثون مرتاعين عن قائمة الكتب التي قرأنها •

لم تكن الفتيات تستعجل أمر زواجها • كن حريصات على بيئتهن الاجتماعية حرصاً كافياً ، ولكن بغير غلو أو مبالغة ، فكان في هذا تعارض واضح مع ما يتصف به أبوهن من طبع خاص ومطامح كبيرة وآمال عريضة •

كانت الساعة قريبة من الحادية عشرة حين رنّ الأمير ميشكين جرس باب الجنرال • ان شقة الجنرال تقع في الطابق الأول ، وهي على تواضعها تلبي مطالب منزلته ورتبته •

فتح له الباب خادمٌ يرتدي ثياباً مزركشة من ثياب الخدم ، واضطر الأمير الى أن يقدم شروحاً طويلة لهذا الرجل الذي تفحصه في أول الأمر مرتاباً ، ونظر اليه والى صرته شزراً • وأخيراً ، بعد أن أكدّ له الأمير تأكيداً قاطعاً أنه هو الأمير ميشكين فعلاً ، وانه في حاجة مطلقة الى أن يرى الجنرال لشأن مستعجل ، أدخله الخادم مبهوتاً الى حجرة مدخل صغيرة تلاصق قاعة الانتظار ، وتتصل بمكتب الجنرال • وهناك عهد به الى خادم آخر يتولى الخدمة في حجرة المدخل هذه كل صباح، ويبلغ الجنرال وصول الزوار • ان هذا الرجل الذي تجاوز الأربعين من عمره ، والذي يرتدي رداءاً رسمياً ، يعبر وجهه دائماً عن كثرة الهمّ وشدة الانشغال• ولقد كان مكلفاً بخدمة مكتب صاحب السعادة خاصةً ، فهو لذلك قوي الشعور بخطورة شأنه وعلو منزلته •

قال يخاطب الأمير بوقار ورصانة :

ــ انتظر في الصالون • أما صرّتك هذه فاتركها هنا •

ثم جلس على مقعد من المقاعد بكثير من التعالى ، وهو يلقى على الأمير نظرة قاسية مدهوشة .

جلس الأمير على كرسى ، وبيده صرته ، وقال :

ـ اذا سمحت ، فأنا أفضّل أن انتظر هنا فى صحبتك على أن أبقى وحدى هناك !

ـ ليس لائقاً أن تبقى فى حجرة المدخل لأنك زائر . أأنت ترغب في التحدث الى الجنرال نفسه ؟

كان واضحاً أن الخادم لا يكاد يستطيع أن يسلّم بأن عليه أن يبلغ الجنرال عن وصول زائر كهذا الزائر ، فقرر أن يعاود سؤاله .

بدأ الأمير يتكلم فقال :

ـ نعم ، أرغب في التحدث الى الجنرال نفسه لشأن من الشئون ..

فقال الخادم يقاطعه :

ـ لا أسألك أن تذكر لى الشأن الذى تريد أن تحدث الجنرال فيه. فان وظيفتى تقتصر على ادخالك اليه . ولكنى أعود فأقول لك اننى فى غيبة السكرتير لا أستطيع أن أبلغ الجنرال عنك .

كان ارتياب هذا الرجل يزداد دقيقة بعد دقيقة فيما يبدو . ان مظهر الأمير يختلف اختلافاً كبيراً عن مظهر الزوار المألوفين . صحيح أن الجنرال كان يستقبل فى كثير من الأحيان ، ان لم يكن فى كل يوم ، فى ساعة معينة ، ولا سيما من أجل « أعمال » ، أفراداً من كل نوع . ومع ذلك ظل الخادم حائراً . كان يبدو له أن وساطة السكرتير لا بد منها لادخال الأمير على الجنرال .

وسأله أخيراً على نحو آلى تقريباً :

ـ اذن ... أنت قادم حقاً ... من الخارج ؟

ثم أخذ يغمغم ، فلعله كان يريد أن يقول : « أأنت أمير من أسرة ميشكين فعلاً ؟ » .

أجاب الأمير :

ـ نعم ، تركت القطار منذ قليل . ولكن يخيَّل الىّ أنك أردت أن تسألني هل أنا حقاً أمير من أسرة ميشكين ، ثم لم تلق علىّ هذا السؤال أدباً ولطفاً .

همهم الخادم مدهوشاً :

ـ هِمْ ...

قال الأمير :

ـ أؤكد لك أنني لم أكذب عليك . لن تتعرض لأى تأنيب . أما ملابسى وصرّتى فليس فى أمرها ما يبعث على الدهشة : ليست أمتعتى الآن بالأمتعة الراقية !

ـ همْ ... ليس هذا ما أخشاه . أنا مضطر أن أبلغ عنك الأمير. سيجيء السكرتير حتماً ليراك ... اللهم الا أن ... ان المزعج فى الأمر انما هو ... اللهم الا أن ... ألست تريد مقابلة الجنرال لطلب معونة والتماس مساعدة ؟ هل تسمح لى بأن ألقى عليك هذا السؤال ؟

ـ لا ، لا ، اطمئن كل الاطمئنان ... ثق كل الثقة ... فانما أنا آتٍ لأمر آخر تماماً .

ـ معذرة ، لقد سألت هذا السؤال بعد أن رأيت ثيابك . انتظر السكرتير . ان الجنرال مشغول الآن مع الكولونيل . وبعد ذلك سيجيء سكرتير احدى الشركات .

ـ ما دمت سأنتظر مدة طويلة ، فانني أتمنى أن أرجوك أن تسمح لى بالتدخين فى مكان ما . معى غليونى ومعى تبغ .

ألقى عليه الخادم نظرة دهشة واحتقار ، كأنه لا يصدّق أذنيه :

ـ تدخّن ؟ تدخّن ؟ لا ، لا تستطيع أن تدخّن هنا ؛ بل ان عليك أن تخجل من خطور هذا ببالك . هِمْ ... يا له من كلام !

ـ عفوك ! أنا لم يخطر ببالى أن ادخن فى هذه الحجرة . انني أعرف آداب السلوك وعادات المجتمع . وانما أردت أن أذهب الى مكان تدلني عليه فأستطيع أن أدخن فيه . انني متعود على التدخين ، ولم أدخن منذ ثلاث ساعات . على كل حال ، لك ما تشاء . ولا شك أنك تعرف المثل القائل : « فى دير أجنبى * ... » .

جمجم الخادم رغم اراداته قائلاً :

ـ ولكن كيف تريدنى على أن أبلغ الجنرال وصول زائر مثلك ؟ أولاً ليس مكانك هنا ، وانما ينبغى أن تكون فى الصالون . أنت هنا بمثابة زائر ، أى بمثابة ضيف . لسوف ينالني تأنيب . ولكن أتراك تريد أن تنزل وتسكن معنا ؟

أضاف الخادم تلك الجملة الأخيرة وهو يلقى ، من جديد ، نظرةً مواربةً على الصرّة التى كان واضحاً أنها تقلقه .

قال الأمير :

ـ لا أظن ذلك . حتى لو دُعيت ، فلن أبقى هنا . أنا انما جئت للتعارف ، ولا شيء غير ذلك .

صاح الخادم يقول مذهولاً وقد ازدادت علائم الارتياب فى وجهه :

ـ كيف ؟ للتعارف ؟ فلماذا قلت لى اذن انك جئت لشأن من الشئون، لعمل من الأعمال ؟

ـ ليس مجيئى لعمل تماماً . أقصد .. ان مجيئى لعمل ان شئت ؛ أو قل انني جئت أسأل نصيحة . لقد جئت لأقدم نفسى خاصة ، لأننى واحد من الأمراء ميشكين ، والجنرالة ايبانتشين هى أيضاً آخر أميرات ميشكين ، ولم يبق أحد غيرنا من سلالة الأمراء هذه .

صاح الخادم يقول مرتاعاً أشد الارتياع :

ـ معنى هذا أنك قريب من الأقرباء فوق ذلك ؟

ـ قريب ؟ قرابة بعيدة جداً . أقصد : يمكن أن نعد قريبين اذا نحن أردنا ذلك ، ولكن قرابتنا تبلغ من البعد أن من الصعب أن نُعدَّ قريبين. لقد كتبت الى الجنرالة في ذات يوم ، من الخارج ، لكنها لم تبعث اليَّ بجواب . ومع ذلك رأيت أن من الضرورى أن اتصل بها عند عودتى الى البلاد . اذا كنت أشرح لك هذا كله ، فلكى انتزع من نفسك شكوكها ، لأننى ألاحظ أنك ما تزال قلقاً . ليس عليك الا أن تُعلم الجنرال أن الأمير ميشكين يستأذن فى الدخول ، حتى تصبح غاية مجيئى واضحة على الفور . فان استُقبلت كان هذا خيراً وبركة ، وان لم أُستقبل فقد يكون هذا خيراً وبركة أيضاً . لكننى أحسُّ أنهم لا بد أن يستقبلونى . فان الجنرالة ستريد حتماً أن ترى الرجل الوحيد الذى بقى من أسرة الأمراء التي تنتمى هى اليها . فهى تحرص كثيراً على نسبها ، كما سمعت ذلك عنها .

كان حديث الأمير يصطبغ ببساطة مطلقة ومع ذلك كان الخادم يزداد حيرة واضطراباً على قدر ازدياد البساطة فى حديث الأمير ، فهو بحكم تجربته لا يستطيع الا أن يدرك أن هذه اللهجة التى تصلح لحديث يدور

بين انسان وانسان ، لا تناسب حديثاً يدور بين زائر وخادم • ولما كان « الناس » أذكى كثيراً مما يتصور سادتهم ، فقد انتهى صاحبنا الخادم الى تصور حلين ممكنين : فاما أن هذا الأمير ليس الا متشرداً أفاقاً يلتمس مساعدة ، واما أنه رجل ضعيف العقل بسيط الفكر خال من العجب بنفسه • ذلك أن أميراً له عقل راجح وكبرياء شديدة لا يمكن أن يمكث منتظراً في غرفة المدخل ، متحدثاً عن شئونه مع خادم • وخلص الخادم الى هذه النتيجة ، وهي أنه سيكون مسئولاً في الحالتين كلتيهما •

قال للأمير ملحاً بأكبر شدة ممكنة :

ـ يليق بك مع ذلك أن تنتقل الى الصالون •

فأجاب الأمير ضاحكاً :

ـ ها قد رأيت بنفسك أنني لو انتظرت هنالك لما استطعت أن أشرح لك تلك الأمور كلها ، ولظللت قلقاً من ردائي وصرتي • أما الآن فقد لا يكون من الضروري أن تنتظر السكرتير • أظن أنك تستطيع بنفسك الآن أن تبلغ عني •

ـ لا أستطيع أن أبلغ عن زائر مثلك • يجب أن يتم ذلك بواسطة السكرتير ؛ لا سيما وأن الجنرال قد أوصاني منذ قليل بألا أزعجه لأي سبب من الأسباب وبأي عذر من الأعذار ماظل الكولونيل هناء ان جبريل آرداليونتش * وحده يحق له أن يدخل دون أن يستأذن له •

ـ أهو موظف ؟

ـ من ؟ جبريل آرداليونتش ؟ لا ، هو مستخدم في الشركة • اسمع : ضع صرتك هنا على الأقل •

ـ خطر ببالي هذا • يسرني أن أضع الصرة هنا ، ما دمت تأذن لي بذلك • على كل حال ، أحب كثيراً أن أنضو عني هذا الرداء أيضاً • ما رأيك ؟

ـ طبعاً . لا تستطيع أن تدخل على الجنرال بهذا الرداء على كل حال !

نهض الأمير ، فخلع رداءه بسرعة ، فبدا لابساً سترة لائقة المظهر حسنة التفصيل ، وان تكن مهترئة بعض الاهتراء ؟ ولاحت تحت السترة ، على الصديرة ، سلسلة من معدن قد عُلِّقت بها ساعة فضية من جنيف .

شعر الخادم ، رغم أنه صنَّف الأمير رجلاً ضعيف العقل ، شعر بأنه ليس من اللائق أن يمضي في الحديث مع الأمير الى أبعد مما مضى اليه حتى الآن . ومع ذلك نال الأمير شيئاً من رضاه ، لا يدري هو نفسه لماذا ! ولكن الأمير قد أثار فيه مع ذلك شعوراً واضحاً بالاستياء .

سأله الأمير وهو يعود يجلس في مكانه :

ـ والجنرالة متى تستقبل ؟

ـ ذلك ليس من شأني أنا . والأمر مرهون بنوع الزائر . فهي مثلاً تستقبل صانعة قبعاتها في الحادية عشرة . كما أن جبريل آرداليونتش يحق له ، هو أيضاً ، أن يدخل عليها قبل غيره ، ولو في ساعة الافطار .

قال الأمير :

ـ البيوت أدفأ في الشتاء هنا من البيوت في البلاد الأخرى . والخلاء في البلاد الأجنبية أقل برداً من الخلاء هنا . ولكن ما من روسي يستطيع أن يعيش في بيوتهم ، من شدة البرد فيها .

ـ أهم لا يدفئون اذن ؟

ـ بلى ! يدفئون ! ولكن المنازل هناك مبنية بطريقة أخرى ، أقصد النوافذ والمدافىء .

ـ هِمْ ••• وهل غبت هناك مدة طويلة ؟

ـ أربع سنين • أقصد : مكثت طول الوقت تقريباً في مكان واحد، في الريف •

ـ لا شك أنك فقدت عادة الحياة في بلادنا ، هه ؟

ـ صحيح • هل تصدّق ؟ اني لأشعر بدهشة أحياناً من أنني لم أنس اللغة الروسية نسياناً تاماً • انني أكلمك الآن فأقول لنفسي : « ان لغتي لم تسؤ كثيراً » • ولعل هذا هو السبب في انني ثرثار الى هذا الحد • هذه هي الحقيقة : انني منذ الأمس اشتهي طول الوقت أن أتكلم الروسية !

ـ هِمْ ••• قل لي : هل كنت تسكن في بطرسبرج من قبل ؟

كان الخادم رغم شدة حرصه على أن يسيطر على نفسه وأن يمسك عن الكلام ، لايستطيع أن يقطع حديثاً يبلغ هذا المبلغ من اللطف والكياسة والذوق •

أجاب الأمير :

ـ بطرسبرج ؟ لا ••• لم أكد أقيم بها ••• وانما كنت أمر بها مروراً • ثم انني حتى في ذلك الأوان لم أكن أعرف شيئاً هنا • فما بالك الآن وقد ازدادت الأمور الجديدة ازدياداً يجعل حتى العارفين مضطرين أن يتعلموا كل شيء من جديد • من ذلك مثلاً المحاكم الجديدة التي يكثر الحديث عنها في هذه الأيام * •

ـ هِمْ ••• محاكم ••• نعم ، هناك محاكم ، لا شك في هذا • ولكن قل لي : هل المحاكم هناك، في البلاد الأجنبية، أعدل من المحاكم هنا ؟

ـ لا أدري • سمعت كثيراً من الثناء على القضاء عندنا • من ذلك أن عقوبة الاعدام قد ألغيت * •••

ـ وهناك ، هل يُعدمون ؟

ـ نعم ، رأيت اعداماً في فرنسا ، بمدينة ليون * • شنايدر هو الذي قادني الى هناك •

ـ يشنقون ؟

ـ لا ••• في فرنسا يقطعون الرأس •

ـ وهل يصرخ المعد مون عندئذ ؟

ـ يصرخون ؟ هه ••• ان قطع رءوسهم يتم في لحظة • يُضجع المحكوم عليه ، فيهوى على رأسه نصل آلة يسمونها مقصلة ، نصل ثقيل قوى ، يفصل الرأس عن الجسم فورا • ولكن الشيء الأليم الفظيع انما هو الاعدادات : قراءة قرار الحكم بالاعدام ، الباس المحكوم عليه ، ايثاقه بالحبال ، اصعاده على الصقالة • تلك هي البرهة الرهيبة ! والجمهور يحتشد ، وحتى النساء تتوافد ، رغم أنهم لا يريدون للنساء هناك أن ترى هذا المشهد •

ـ فعلاً ، ليس هذا مكانهن •

ـ طبعاً ، طبعاً ! كيف يشهدن تعذيباً كهذا التعذيب ؟••• لقد كان المحكوم عليه ، في ذلك اليوم ، رجلاً يبدو عليه أنه لا يهاب ولا يخاف ، رجلاً ذكياً ، قوى الجسم ، ليس شاباً صغيراً بل هو ناضج السن ، اسمه نيجروس • ومع ذلك ، أؤكد لك ، صدقني ان شئت ، أؤكد لك أنه حين اعتلى الصقالة كان يبكي ، وكان أبيض اللون كورقة • أهذا ممكن ؟ أليس هذا فظيعاً ؟ هل يمكن حقاً أن يبكي المرء من شدة الخوف ؟ لا ، لم أكن أصدّق أن أحداً يمكن أن يبكي هذا البكاء خوفاً ••• لست أتكلم هنا عن طفل ، بل عن رجل لم يسبق له أن بكى يوماً ، عن رجل في الخامسة والأربعين من عمره ! ما الذي يحدث للنفس في تلك الدقيقة ؟ ما هذه

التشنجات التي تصير اليها ؟ هذه اهانة للنفس واساءة الى الروح • ولقد قيل مع ذلك : « لا تقتل » ، فما بالهم يقتلون رجلاً لأنه قتل ؟ لا ، هذا شيء لا يمكن أن يقبله الانسان ! لقد شهدت ذلك المنظر منذ أكثر من شهر ، وما زال يتراءى لى حتى الآن ، كأنه أمام عينى ، حتى لقد وافانى فى أحلامى خمس مرات على الأقل •

تحمس الأمير وهو يتكلم ، وتلون وجهه الشاحب بعض التلون • الا أن لهجة صوته ظلت هادئة • وكان الخادم يصغى اليه باهتمام ومحبة ومودة ، حتى لكأنه لا يستطيع أن يحول انتباهه عن القصة • لعله كان هو أيضاً انساناً من اصحاب الخيال •

قال الخادم :

ــ من حسن الحظ ، على الأقل ، أن الانسان لا يتألم مدة طويلة حين يُقطع رأسه •

فاستأنف الأمير كلامه يقول بحرارة :

ــ هذه الملاحظة التى ذكرتها أنت الآن تخطر ببال كل انسان • ولتحقيق هذه الغاية انما اخترعوا تلك الآلة ، أعنى المقصلة • أما أنا فقد خطرت ببالى فى ذلك اليوم فكرة أخرى اذ تساءلت : « ترُى ألا يمكن أن يكون هذا أسوأ ؟ » • قد تبدو لك فكرتى هذه باعثة على الضحك ، بل قد تبدو لك غريبة عجيبة ، ومع ذلك فان فكرةً كهذه يمكن أن تخطر ببال أى انسان اذا هو أعمل خياله قليلاً • فكّر فى الأمر : لننظر فى التعذيب مثلاً • ان الآلام والجروح والوجع الجسمى ، ان هذا كله يذهل النفس عن عذابها وينسيها ما قد تكابده من هول ، فلا يتألم المرء عندئذ الا من الجروح الى أن يموت منها • والألم الرئيسى ، والألم الذى هو أشد الآلام قوة قد لا يكون ألم الجروح ، بل الألم الذى ينشأ عن يقين

المرء من أنه بعد ساعة ثم بعد عشر دقائق ثم بعد نصف دقيقة ، ثم الآن فوراً ، ستترك روحه جسدها ، وأنه لن يكون بعد تلك اللحظة انساناً ، وأن هذا أكيد ، أنه « أكيد » خاصةً • فحين يضع المرء رأسه تحت المقصلة البتّارة ، وحين يسمع انزلاقها فوقه ، في ربع الثانية ذاك ، انما يشعر المرء بالخوف الاكبر • هل تعلم أن هذا الذي اقوله ليس مستمداً من الخيال فحسب ؟ لقد ذكره كثيرون • واني لأبلغ من قوة الاقتناع به أنني سأقول لك رأيي في هذا الأمر صريحاً كل الصراحة • أنا أرى أن قتل انسان بسبب ارتكابه جريمة قتل هو قصاص لا تناسب بينه وبين الجريمة نفسها • ان قتل قاتل افظع كثيراً من جريمة القتل التي ارتكبها ذلك القاتل • ان الانسان الذي يقتله القتلة ، اذ يذبحونه ليلاً في غابة أو غيرها ، يظل الى آخر لحظة يأمل أن ينجو • يروى الناس عن مقتولين أنهم ظلوا ، بعد حزّ رقابهم ، يأملون ويحاولون الفرار ويتضرعون سائلين الشفقة عليهم والرأفة بهم • أما في الاعدام فان الأمل الأخير ، الأمل الذي يجعل احتمال الموت أسهل عشر مرات يُنتزع منك «حتماً»• ان صدور الحكم واستحالة الافلات منه هما اللذان يجعلان العذاب رهيباً فظيعاً • صدقني : ليس في الدنيا عذاب أشد هولاً من هذا العذاب • لو أخذت جندياً فوضعته في قلب المعركة أمام فوهة المدفع ، ثم أطلقت عليه النار ، لظل يحتفظ بالأمل الى آخر لحظة • أما اذا قرأت لهذا الجندي نفسه قراراً يحكم عليه بموت « مؤكد » ، فان هذا الجندي سيفقد عندئذ عقله ، أو سيجهش باكياً • من ذا الذي قرر أن الطبيعة الانسانية تستطيع أن تحتمل تعذيباً كهذا التعذيب دون أن تهوى الى الجنون ؟ فيم ايقاع أذى يبلغ هذا المبلغ من السوء والعقم ؟ ربما كان يوجد في هذا العالم انسان حُكم عليه بالموت ، وشُرع في تعذيبه ذلك التعذيب ، ثم قيل له أخيراً : « امض فقد صدر عفو عنك ! » * • ان في وسع هذا الانسان أن

يحكى لكم وأن يقص عليكم. المسيح نفسه قد تكلم أيضاً عن هذا العذاب، عن هذا الخوف ! لا ، لا يجوز أن يعامل كائنٌ انساني معاملةً كهذه المعاملة !

فهم الخادم الشيء الأساسي الذي يعبّر عنه كلام الأمير ، رغم أنه ما كان له أن يستطيع التعبير عنه كما عبّر عنه الأمير . نعم ، لقد فهم ، وكان ذلك واضحاً فيما ظهر على وجهه من علائم التأثر والشفقة والحنان. وقال للأمير :

ـ اذا كنت ترغب في التدخين رغبة قوية هذه القوة ، ففي وسعك أن تدخّن ، ولكن افعل بسرعة ، اذ ما عساي أصنع اذا طُلبتَ فكنتَ غائباً ! اسمع : هناك ، تحت السلم ، هل ترى الباب ؟ افتح الباب وادخل، فترى على اليمين حجرة صغيرة ، ففي امكانك أن تدخّن في تلك الحجرة الصغيرة . ولكن لا تنس أن تفتح الطاقة ، فالتدخين هنا مخالفة ...

ولكن الوقت لم يُتح للأمير أن يمضي الى تلك الحجرة الصغيرة ، فقد دخل الى الغرفة شاب يحمل بيده أوراقاً ، فهبّ الخادم يأخذ عنه فراءه . وألقى الشاب على الأمير نظرة مواربة .

تكلم الخادم فقال بلهجة من يفضي بسر ، دون كلفة :

ـ هذا يا جبريل آرداليونتش سيدٌ يقول انه الأمير ميشكين ، قريب الجنرالة . لقد وصل من الخارج ونزل من القطار مع هذه الصرّة . ولكن ...

لم يستطع الأمير أن يسمع تتمة الكلام ، لأن الخادم أخذ يتكلم بصوت خافت جداً . وكان جبريل آرداليونتش يصغي بانتباه ، ويلقي على ميشكين نظرات تفيض استطلاعاً وفضولاً . وكفّ عن الاصغاء أخيراً ، واقترب من الأمير بسرعة ، فسأله بتحبب كبير وكياسة عظيمة :

ـ أنت الأمير ميشكين ؟

انه شاب وسيم الطلعة جداً ، في نحو الثامنة والعشرين من العمر هو أيضاً ، أشقر اللون ، رشيق القوام ، أميل الى الطول ، له لحية صغيرة جداً على طريقة نابوليون الثالث ، وجهه يدل على ذكاء ، ويمتـاز بجمال. ولكن ابتسامته مفرطة في الرقة على كونها محبَّبة لطيفة ، وهي تكشف عن أسنان منضودة كاللؤلؤ مفرطة في الكمال والاتساق . أما نظرته فانها رغم كل ما فيها من بشاشة وبراءة ظاهرة ، كانت تتميز بكثير من الالحاح ، وكان فيها كثير من التدقيق والبحث والتقصي .

« أغلب الظن أن هذا الشاب لا تكون له هذه النظرة نفسـها حين يخلو الى نفسه ، ولعله لا يضحك قط » . ذلك كان شعور الأمير .

كرر ميشكين ، بسرعة ، كلّ ما سبق أن قاله للخادم ، وما سبق أن قصَّه على روجويين قبل ذلك . فكان جبريل آرداليونتش في أثناء ذلك يبدو كمن ينبش ذكرياته . ثم سأله :

ـ ألست أنت الذى كتبت الى اليزابت بروكوفيفنا في العام الماضي ، أو في وقت أحدث ، من سويسرا ، فيما أظن ؟

ـ نعم أنا .

ـ اذن أنت هنا معروف ، ولا شك أنهم يتذكرونك . هل تريد أن تقابل صاحب السعادة ؟ سأبلغه وصولك . بعد قليل يخلو . ولكن كان ينبغي لك ... كان يليق أن تكون في الصالون ...

ـ لماذا بقي السيد هنا ؟

ـ قلت لك . هو نفسه أراد ذلك وأصرّ عليه !

وفى تلك اللحظة فُتح باب المكتب فجأة ، فخرج منه ضابط يتأبط حقيبة أوراق • كان الضابط يتكلم بصوت عالٍ ، ويكثر من التحيات •

وصاح صوت من آخر المكتب ينادى :

ـ أأنت هنا يا جانيا ؟ * تعال اذن •••

أومأ جبريل آرداليونتش للأمير بحركة خفيفة من رأسه ، وأسرع يدخل المكتب• وبعد دقيقتين فُتح الباب من جديد ، وسُمع صوت جبريل آرداليونتش ، الرنان المتودد ، يقول :

ـ تفضل فادخل يا أمير !

الفصل الثالث

كان الجنرال ايفان فيدوروفتش ايبانتشين واقفاً فى وسط مكتبه ينظر الى دخول الأمير باستطلاع شديد وفضول قوى ؛ حتى لقد خطا للقائه خطوتين ؛ واقترب الأمير وقدّم نفسه .

قال الجنرال :

ـ حسن جداً . فى أى شىء أستطيع أن أخدمك !

قال الأمير :

ـ ليس لى الآن أى أمر مستعجل . وليست غايتى من هذه الزيارة الا التعارف . لا أحب أن أزعجك . اننى لا أعرف اليوم الذى تستقبل فيه ، ولا أعرف العادات التى تأخذ نفسك بها ... وقد جئت من محطة القطار الى هنا رأساً ... وأنا قادم من سويسرا ...

ابتسم الجنرال ابتسامةً خفيفة ، لكنه فكّر فأسرع يكظمها . ثم فكّر مزيداً من التفكير ، فغضّ عينيه وعاد يتفحص الزائر من القدمين الى الرأس ، ثم أشار له الى كرسى يجلس عليه . وجلس هو نفسه متنحياً بعض التنحى ، والتفت نحو الأمير مستطلعاً نافد الصبر . وكان جانيا واقفاً فى ركن من المكتب يستل أوراقاً .

أجاب ايبانتشين قائلاً :

ـ لا يتسع وقتي عامةً للتعـارف مع أناس جـدد ، ولكن لما كان لك هدف حتماً فانني ...

قاطعه الأمير يقول :

ـ كنت أحس سلفاً أنك سوف تنسب الى زيارتي منفعة أبتغيها ، أو فـائدة ألتمســها . لكنني أحلف لك أنني لا هـــدف لي الا مسرتي بمعرفتك .

ـ المسرة متبادلة طبعاً ، ولكن المسرة ليست كل شيء دائماً ، فقد يكون هنالك أعمال ... ثم انني لم أتوصل الى ادراك الصلة التي يمكن أن تربطنا والعلاقة التي يمكن أن تجمع بيننا ... أقصد : لست أدرك السبب الذي حملك على أن ...

ـ ما من صلة أو علاقة ... ذلك أمر لا جدال فيه ... وليس هناك أشياء كثيرة تجمعنا . فلأن أكون من أسرة الأمراء ميشكين ولأن تنتمي زوجتك الكريمة الى هذه الأسرة نفسها ، فليس هذا سبباً كافياً بطبيعة الحال ... انني أدرك ذلك حق الادراك . ومع هذا فذلك هو السبب الوحيد الذي دفعني الى المجيء . لقد تركت روسيا منذ أربع سنين ، وحين رحلت لم أكن مالكاً جميع قواي العقلية. كنت لا أعرف عن الحياة شيئاً . وحتى الآن لا أعرف عنها شيئاً كثيراً . أنا في حاجة الى معرفة أناس ذوي قلوب كريمة . على سبيل المثال : هناك الآن قضية يجب أن أحلها ، ولا أدري من أي طرف أبدأ . قلت لنفسي منذ أن بلغت برلين : « هؤلاء أقرباء لي تقريباً ، فسأبدأ اذن بهم ، فلعلنا نستطيع أن ينفع بعضنا بعضاً ؛ وهؤلاء أناس ذوو قلوب كريمة » . وقد ذُكر لي ان لك قلباً كريماً عطوفاً .

قال الجنرال مبهوتاً :

ـ كلام لطيف . هل أستطيع أن أعرف أين نزلت ؟

ـ حتى الآن لم أنزل فى مكان !

ـ اذن ، حين تركت القطار ، جئت الى عندى رأساً ، هه ؟ و ... جئت مع أمتعتك ؟

ـ ليس لى الا صرة صغيرة بها بعض الملابس ، ولا شىء غير ذلك. وأنا أحملها بيدى عادةً . يتسع الوقت ، من الآن الى المساء ، لاستئجار غرفة فى فندق .

ـ فى نيتك اذن أن تستأجر غرفة ؟

ـ نعم ، طبعاً .

ـ ظننت من أقوالك أنك كنت تنوى الاقامة عندى .

ـ كان يمكن أن أفعل ذلك لو دعوتنى . ومع هذا أعترف لك بأننى ما كنت لأبقى ولو دُعيت ، ما كنت لأبقى بدون سبب . ذلك طبع فىَّ .

ـ اذن فقد أحسنت لأننى ما دعوتك ، ولا أدعوك . كلمةً أخرى يا أمير ، من أجل أن نضع الأمور فى نصابها . ما دمنا قد اتفقنا على أنه لا مجال للكلام عن قرابة بيننا ، رغم أن هذه القرابة كان يمكن أن تشرفنى طبعاً ، فانه يترتب على هذا ...

ـ يترتب على هذا أنه لم يبق لى الا أن أنهض وانصرف .

فان الأمير وهو ينهض ويضحك من قلبه ، رغم كل ما فى هذا الوضع من حرج وارتباك . وتابع كلامه يقول :

ـ وأؤكـد لك ، يا جنرال ، أنني رغم قلة خبرتي ورغم جهلي بالعادات هنـا ، كنت أعلم حق العلم أن الأمور ستجـري على هذا النحو تماماً . على كل حال ، ربما كان هذا أفضل ... ثم ان رسالتي لم يُـرَدَّ عليها ... طيب ... استودعك الله ، واغفر لي ازعاجك .

كانت نظرة الأمير في تلك اللحظة تفيض لطفاً وبشـاشة ، وكانت ابتسـامته خالية كل الخلو من أية عداوة ، وحتى من أية عـداوة خفيـة مستسرة ، فما كان من الجنرال الا أن توقف ، وأخـذ ينظر الى الأمير بعين جديدة وأصبح وجهه يعبر تعبيراً يختلف كل الاختلاف عن تعبيره قبل ذلك . وقد تحقق له هذا التحول في طرفة عين .

قال الجنرال للأمير بصوت يوشك أن يكون قد تغير تغيراً كاملاً :

ـ اسمع يا أمير : أنا في الواقع لا أعرفك ؛ وربما كانت زوجتي من جهة أخرى تحب أن ترى الرجـل الذي يحمـل اسم الأسرة الذي تحمله هي ... فانتظر اذا شئت واذا كان يتسع وقتك .

أجاب الأمير وهو يسرع فيضع قبعته المبتلة المدوَّرة على المائدة :

ـ هوه ! وقتي يتسع كل الاتساع ! وقتي خالٍ كله ! أعترف لك بأنني كنت أقدِّر فعلاً أن اليزابت بروكوفيفنا قد تتذكر أنني كتبت اليها منذ قليل ، أثناء انتظاري في حجرة المدخل ، خيِّل الى خادمك أنني جئت ألتمس بعض المسـاعدات . لاحظت ذلك واضحاً . ولا بد أن أوامرك شديدة في هذا الصـدد . أؤكد لك أنني ما جئت لهـذا ، وانني لم آت الا للتعارف حقاً . لكنني أخشى أن أكون قد ضايقتك ، وهذا يقلقني .

قال الجنرال وهو يبتسم ابتسامة فرحة :

ـ طيب يا أمير ، اذا كان باطنك كظاهرك ، اذا كنت كما تبدو فعلاً ، فربما كانت معرفتك تسر وتبهج . ولكنك ترى طبعاً أنني امرؤ مشغول .

سأضطر حالاً الى العكوف على بعض الأوراق أدرسها وأوقّعها ، وعليَّ بعد ذلك أن أذهب الى صاحب السمو ، ثم أمضي الى مكتبي . معنى ذلك أنني رغم ابتهاجي الشديد برؤية أناس لطاف محببين ... أي ... ولكن ... أقصد أنني على ثقة بأن تربيتك الممتازة لا بد أن ... ما سنُّك يا أمير ؟

ـ ستة وعشرون عاماً .

ـ حقاً ؟ كنت أحسبك أصغر سناً من ذلك بكثير .

ـ نعم ، يقال انني أبدو شاباً صغير السن . فيما يتعلق بعدم ازعاجك، سأحاول ألا أزعجك . لأنني أكره أن أزعج ... ويخيَّل اليَّ أخيراً أننا مختلفان في الظاهر اختلافاً شديداً ... لأسباب كثيرة ، وأننا ليس بيننا أمور مشتركة كثيرة ؛ رغم انني في الواقع لا أصدِّق هذا من جهتي: فكثيراً ما يكون الاختلاف ظاهرياً ، وكثيراً ما يكون ثمة في حقيقة الأمر نقاط مشتركة ... ان الكسل هو الذي يدعونا الى التسرع في تصنيف الناس والتفريق بينهم قبل أن نجد ما يحمل على ذلك أو يفرضه . أظن أنني أصبحت مضجراً مملاً ، أليس كذلك ؟ انك تبدو ...

ـ كلمةً أخرى : هل تملك بعض ثروة على الأقل ؟ لعلك تأمل أن تجد عملاً ؟ اغفر لي أنني أكلمك بهذه الفجاجة ...

ـ أرجوك ، بالعكس ... انني أفهم اهتمامك هذا وأقدره حق قدره وأشكره لك . لا أملك الآن أية ثروة ، وليس لي أي مركز ، لكنني سأحتاج الى هذا طبعاً . ان المال الذي كان معي الى الآن ليس مالي. ان شنايدر ، الأستاذ الذي كان يعالجني ويعلمني بسويسرا ، هو الذي أعطاني ذلك المال . وقد أخذت منه ما يكفيني للرحلة بلا زيادة ولانقصان،

فلم يبق معي الآن الا بضعة كوبكات • في ذهني أمر من الأمور ، وأنا في حاجة الى نصائح ، ولكن •••

قاطعه الجنرال سائلاً :

ــ قل لى : ممّ تنوى أن تعيش بانتظار ذلك ، وما هي مشروعاتك ؟

ــ أريد أن أعمل ، بطريقة أو بأخرى •••

ــ ها ••• حقاً انك لفيلسوف • قل لى : هل تعرف لنفسك موهبة من المواهب ؟ هل تعرف لنفسك كفاءات يمكن أن تهيىء لك خبز يومك ؟ مرةً أخرى أعتذر عن •••

ــ لا تعتذر ! ما أحسب أن لى موهبة أو كفاءات خاصة • بالعكس : أنا رجل مريض ، ولم أتابع تحصيلي• أما عن خبز يومى ، فيخيَّل الىَّ ••

قاطعه الجنرال مرةً أخرى ليزحمه بالأسئلة • فقصَّ الأمير قصته مرة أخرى • واتفق أن كان الجنرال قد سمع عن المرحوم بافلشتيف ، حتى لقد عرفه شخصياً • لم يستطع الأمير أن يشرح لماذا اهتم بافلتشيف بتربيته وتعليمه ، ولم يزد على أن قال : لعل ذلك لم يكن الا تكريماً لذكرى صداقته القديمة بالمرحوم أبيه • لقد تيتم الأمير منذ طفولته الغضة ، وقضى سني حياته الأولى بالريف ، لأن حالته الصحية كانت تحتاج الى فضاء واسع وهواء نقي • وعهد به بافلشتيف الى قريبات له عجائز كن يعشن فى أراضيه •

وكانت له فى أول الأمر خادم تشرف على تربيته ، ثم أصبح له بعد ذلك مرب يتولى تعليمه • ورغم أنه يتذكر كل شيء تذكراً واضحاً قوياً ، فانه لم يستطع أن يقدم تعليلات كافية وتفسيرات مقنعة ، لأنه ــ على حد تعبيره ــ لم يكن فى ذلك الأوان يدرك الأشياء ادراكاً جيداً • وقد جملته

نوبات مرضه المتكررة يصير الى البلاهة ، فهو الآن أبله (قال الأمير كلمة أبله ») •

وروى الأمير أخيراً أن بافلتشيف كان قد التقى في برلين بالأستاذ السويسرى شنايدر ، الاخصائى فى هذا النوع من الأمراض • وكان للأستاذ شنايدر فى مقاطعة فاليه بسويسرا مستوصف يداوى فيه المرضى بطريقة خاصة به ، أساسُها الرياضة البدنية وحمامات الدوش الباردة ؛ وكان أيضاً يداوى البله والمجانين ، ويعنى بتعليمهم ، ويهتم بتنشئتهم الروحية خاصةً • وقد أرسل بافلتشيف الأمير الى شنايدر منذ خمس سنين • ومات هو بعد ذلك بثلاثة أعوام ، دون أن يتخذ أىَّ تدبير • ولكن شنايدر احتفظ بالأمير وظل يعالجه طوال هذين العامين الأخيرين• ولم يتوصل الى شفائه من مرضه ، لكن العلاج كانت له نتائج حسنة • ثم قرر شنايدر ، تلبيةً لرغبة الأمير نفسه ، وعلى أثر حادث جديد ، أن يعيده الى روسيا •

ظهرت على الجنرال دهشة جديدة ، وسأله :

ـ اذن ليس لك فى روسيا أحد ؟ ليس لك فيها أى قريب ؟

ـ حتى الآن ليس لى أحد ، ولكننى آمل ••• ثم اننى قد تلقيت رسالة •

قاطعه الجنرال قائلاً دون أن يكون قد سمع الجملة الأخيرة التى تشتمل على اشارة الى الرسالة :

ـ ولكن لا بد أنك تعلمت شيئاً ما ، على الأقل ••• لا بد أنك تعلمت مهنة من المهن ••• ان مرضك لن يمنعك من أن يكون لك وظيفة ما ••• لا أقول وظيفة صعبة ••• بل وظيفة ما فى ادارة ما •

ـ طبعاً لا يمنعنى مرضى من ذلك • أما عن الوظيفة فاننى أود كثيراً

أن يكون لى وظيفة . اننى أحب كثيراً أن أعرف ما أصلح له وما أقدر عليه . لقد ظللت أدرس وأتعلم طوال السنين الأربع الماضية . صحيح أن دراستى لم تكن منتظمة مطردة ، لأن استاذى كان مضطراً أن يستعمل فى تعليمى منهجاً خاصاً ، لكننى استطعت فى الوقت نفسه أن أقرأ كتباً روسية كثيرة .

ـ كتباً روسية ؟ فأنت اذن تعرف قواعد الاملاء وتستطيع أن تكتب بدون أخطاء .

ـ آ ... طبعاً ... مؤكد ...

ـ عظيم . وخطك ؟

ـ خطى ممتاز ؟ بل أستطيع أن أقول من هذه الناحية ان لى موهبة . أنا خطاط فعلاً .

وأضاف الأمير يقول بحماسة :

ـ انتظر ... سأكتب لك شيئاً على الفور من قبيل التجربة .

ـ افعل ! افعل ! بل ان هذا سيكون مفيداً جداً . لقد أحببت فيك حسن ارادتك وهمتك يا عزيزى الأمير . حقاً انك للطيف كل اللطف .

ـ ما أجمل أدوات مكتبك ! ما أحسن هذه الأقلام ، وهذه الريش ... ما أروع هذا الورق ! ما أحسن سمكه !... ويا لها من حجرة مكتب فخمة ! اسمع : اننى أعرف هذا المنظر . هو مشهد من سويسرا . أنا على يقين من أن الرسّام الذى صوّر هذا المنظر قد نقله عن الطبيعة . أنا واثق بأننى أعرف هذا المكان : هو فى مقاطعة أورى ...

ـ جائز جداً ، رغم اننى اشتريت اللوحة من هنا . يا جانيا ، اعط الأمير ورقاً . اليك ريشاً وورقاً . تفضل اجلس الى المائدة الصغيرة .

والتفت الجنرال نحو جانيا فرآه يخرج من حقيبة أوراقه صورة فوتوغرافية كبيرة ويمدها الى ايبانتشين • فسأله الجنرال :

ـ ما هذا ؟ آ ••• هذه ناستاسيا فيليبوفنا ! أهي التي أرسلت اليك الصورة ؟

كذلك سأله متدفقاً في الكلام ، وقد بدا عليه استطلاع قوى وفضول شديد •

أجابه جانيا :

ـ أعطتنيها منذ قليل ، حين ذهبتُ أقدم اليك تمنياتك • لقد طلبتها منها منذ مدة طويلة • تُرى أليس في هذا الماع منها الى أنني جئتها خالى اليدين لا أحمل لها أية هدية في مثل هذا اليوم ؟

أضاف جانيا جملته الأخيرة هذه وهو يبتسم ابتسامة كريهة • فقاطعه الأمير بلهجة جازمة :

ـ لا ، لا ، حقاً ان لك تفكيراً غريباً ! أهي امرأة من تلك النساء التي تَلمح تلمع ، وتغمز وتلمز ؟ أنت تعرف حق المعرفة أنها ليست امرأة تنشد منفعة وتلتمس ربحاً • ثم ما عسى تكون الهدايا التي يمكن أن تهديها اليها ؟ لامرأة مثلها لا يقدِّم المرء الا آلاف الروبلات ! كان في وسعك طبعاً أن تقدم اليها صورتك أنت أيضاً • بالمناسبة : ألم تطلب منك صورتك حتى الآن ؟

ـ لا ، لم تطلبها حتى الآن ، وقد لا تطلبها في يوم من الأيام • أنت غير ناسٍ سهرةَ اليوم طبعاً يا ايفان فيدوروفتش ، أليس كذلك ؟ ذلك أنك واحد من ضيوف الشرف •

ـ طبعاً طبعاً، غير ناسٍ ••• غير ناسٍ ••• سأحضر حتماً •• هو عيد ميلادها ••• عيد ميلادها الخامس والعشرين ••• هِمْ ••• لا بأس يا جانيا ، سأفضي اليك بسر ، فأصغ اليَّ : لقد بذلتْ لي ولآتانازي

ايفانوفتش وعداً بأن تعلن قرارها هذا المساء • أكون أو لا أكون • ضع هذا فى الحساب ، ولا تنسه !

اضطرب جانيا فجأة ، حتى لقد امتقع لونه قليلاً • وسأل بشيء من اختلاج فى صوته :

ـ هل قالت هذا حقاً ؟

ـ قطعت على نفسها عهداً منذ ثلاثة أيام • لقد بلغنا كلانا من الالحاح واللجاجة أنها أذعنت آخر الأمر • لكنها رجتنا ألا نذكر لك شيئاً من ذلك قبل أن تحين الساعة •

كان الجنرال يتفرس فى جانيا بنظرة فاحصة ، وكان واضحاً أن اضطراب جانيا يسوءه •

قال جانيا مضطرباً متردداً :

ـ لاحظ يا ايفان فيدوروفتش أنها تركت لى حرية اتخاذ القرار كاملة الى أن تتخذ قراراً بنفسها • ومن المتفق عليه أن تبقى الكلمة الأخيرة وأن يبقى القول الفصل لى أنا حتى فى تلك الحالة •

صاح الجنرال يقول مروّعاً مذعوراً :

ـ ولكن هل تُراك ••• هل تُراك ذكرت أن •••

ـ لم أقل شيئاً •

ـ أرجوك ، ما الذى تريد أن تخلص اليه ؟

ـ أنا لا أرفض • لعلنى أخطأت التعبير •••

قال الجنرال غاضباً دون أن يحاول كظم استيائه وكتمان امتعاضه :

ـ لن ينقصنا الا أن ترفض ! يا صديقى ، لم تعد المسألة عندنا أن

« لا » ترفض . وانما يجب عليك أن تظهر الغبطة والامتنان والسعادة الكاملة فى اللحظة التى تعلن فيها رأيها . وما الذى يجرى فى بيتك ؟

ـ فى بيتى ؟ فى بيتى يجرى كل شىء وفق مشيئتى وارادتى . أبى وحده يُجنُّ جنونه ، على عادته . لقد أصبح فى منتهى الدناءة . وأصبحت لا أكلمه . لكنى ما زلت أقسو عليه وأغلظ له . ولولا أمى لطردته من المنزل . أمى ما تنفك تبكى طبعاً . وأختى غاضبة غضباً شديداً ، لكننى أعلنت لهما اعلاناً قاطعاً واضحاً أننى سيد مصيرى ، وأننى لا أطلب شيئاً فى البيت الا أن أُطاع . على كل حال ، هذا ما أبلغته أختى بحضور أمى .

قال الجنرال شارد الذهن وهو يهز منكبيه ويباعد قليلاً بين ذراعيه :

ـ أما أنا يا عزيزى فما زلت لا أفهم !.. لا شك أنك تتذكر أن نينا ألكسندروفنا ، حين زارتنى فى الأيام الأخيرة ، قد أخذت تنتحب وتئن ، فلما سألتها : « ماذا بك » ، فهمت أن الأمر الذى يؤلمها هو ما يهددهن من « تلطخ الشرف » بالعار فيما يبدو . فأين تلطخ الشرف فى هذا كله ؟ . وددت لو أعرف أين تلطخ الشرف فى هذا ؟ من ذا الذى يستطيع أن يأخذ على ناستاسيا فيليبوفنا أى شىء ، أو أن يروى عنها أى سوء ؟ هل يمكن أن تؤاخذ على العلاقة التى بينها وبين توتسكى؟ ألا ان هذا يكون سخفاً كاملاً ، لا سيما اذا نظرنا الى الظروف الخاصة التى تحيط بالأمر . قالت لى عندئذ : « هل تدع لها أن تقترب من بناتك ؟ » . هه ! سمعت ؟ غريب أمر نينا ألكسندروفنا ! ان الأمر مع ذلك واضح ، كيف لا تدرك ...

ـ كيف لا تدرك وضعها ؟

بهذا أكمل جانيا جملة الجنرال ليخلصه من ارتباكه .

ثم تابع كلامه فقال :

ـ انهـا تدرك وضـعها حق الادراك ٠ لا تؤاخـذها ! ثم انني قد أسرعت ألقنها درساً حتي تتعلم ألا تتدخل في شئون الآخرين ٠ على كل حال ، ما يزال يسود بيتنا شيء من الهدوء ، لأن الكلمة الأخيرة ما قيلت بعد ٠ غير أن الصاعقة ستنفجر ٠ فاذا قيلت الكلمة الأخيرة اليوم ، انطلق كل شيء من عقاله ٠

سمع الأمير ذلك الحديث كله ، رغم اكبابه في ركنه على عمله في الكتابة بالخط الجميل ٠

فلما أنجز عمله اقترب من المائدة ، ومدَّ الورقة ٠ ودمدم يقول بعد أن أنعم النظر في الصورة بانتباه وتشوق :

ـ أهذه اذن ناستاسيا فيليبوفنا ؟

ثم أضاف يقول بحرارة :

ـ انها رائعة الجمال حقاً !

كانت الصورة الفوتوغرافية تظهر قسمات امرأة ذات جمال نادر فذ في الواقع ٠ والمرأة ترتدي ثوباً من حرير أسود ، ثوباً أنيقاً رشيقاً خالياً من البهرج والزخرف ؛ شـعرها كسـتنائي واضح ، قد صفّف تصفيفاً بسيطاً في تسريحة من الداخل ؛ عيناها دكنـاوان عميقتـان ؛ في جبينها امارات تفكير ؛ وجهها يعبر عن اندفاع عاطفي ، ويعبر عن شيء من تعالٍ وكبرياء ، وهو نحيل ، ولا بد أن يكون شاحباً ٠

دُهش جانيا والجنرال من كلام الأمير ، فالتفتا نحوه ٠

وسأله الأمير :

ـ كيف ؟ ناستاسيا فيليبوفنا ! أأنت تعـرف ناسـتاسيا فيليبوفنـا ؟

فأجاب الأمير :

ـ نعم ، أنا في روسيا منذ أربع وعشرين ساعة بل أقل . ومع ذلك أعرف هذه المرأة التي لا يضارع جمالها جمال .

وأسرع يروي لقاءه مع روجوين ، وحكى القصة التي سمعها منه.

قال الجنرال قلقاً ، بعد أن أصغى الى الأمير بانتباه شديد ، قال وهو يتجه الى جانيا بنظرة مستفهمة سائلة :

ـ يا للنبأ !

وجمجم جانيا يقول مضطرباً بعض الاضطراب هو أيضاً :

ـ هي حكاية طيش لا أكثر ! ابن تاجر يلهو ويقصف ! سبق أن سمعت عنه .

عاد الجنرال يتكلم فقال :

ـ وأنا سمعت عنه أيضاً يا عزيزي ! ان ناستاسيا فيليبوفنا قد روت القصة كلها بعد حكاية القرطين تلك . ولكن الأمر الآن مختلف . ربما كان الأمر الآن أمر مليــون ... وهناك أيضــاً ذلك الوله ... هو وله خسيس طبعاً ، لكنــه وله مع ذلك . ونحن نعــرف ما قد يفعله أمثــال هؤلاء السادة بغير حرج حين يسكرون .

وختم الجنرال كلامه مفكراً حالماً يقول :

ـ هِمْ ... أرجو أن لا يؤدي هذا الى حادث ما !...

قال جانيا وهو يضحك ضحكة ساخرة :

ـ هل المليون هو ما تخشاه ؟

ـ أما أنت فلا ، طبعاً .

قال جانيا فجأة يسأل الأمير :

ـ قل لي يا أمير : ماذا كان شعورك تجـاهه ، أأحسست أنه رجل جاد أم أحسست أنه وغد حقير لا أكثر ؟ ما رأيك الشخصي ؟

أحس جانيا باحساس غريب وهو يلقى هذا السـؤال ، كأن فكرة جديدة فريدة قد أثارت ذهنه ، فأخذت عيناه تسطعان بومضاتٍ من نفاد الصبر .

وكان قلق الجنرال صادقاً ساذجاً ، فالتفت هو أيضـاً نحو الأمير ، ولكن دون أن يبدو عليه أنه يتوقع من جواب الأمير أشياء كثيرة .

أجاب الأمير :

ـ لا أدرى ماذا أقول لك . لقد بدا لى على كل حـال أنه شـاب مشبوب الهوى جامح العاطفة الى حد المرض . ثم انه هو نفسه يُشعر من يراه بأنه مريض . ومن الجائز جداً أن تنتكس صحته منذ أيامه الأولى ببطرسبرج ، ولا سيما اذا أخذ يشرب .

هتف الجنرال يقول متشبثاً بهذه الفكرة :

ـ ها ... هذا رأيك اذن ؟

ـ نعم ، هذا ما خيِّل الىَّ .

قال جانيا وهو يضحك ساخراً :

ـ على كل حال ، لا تحتاج مغامرة كهذه الى بضعة أيام لكى تنفجر ، حتى لقد نسمع جديداً قبل هذا المساء .

قال الجنرال :

ـ هِمْ ... طبعاً ... هذا جائز ... لكن كل شيء رهن اذن بما يخطر ببالها هى !

ـ انك لتعرف حق المعرفة كيف تكون هى فى بعض الأحيان !

صاح الجنرال من جديد وقد استولت عليه حيرة شديدة ، وبلبلة كبيرة :

ـ ماذا تريد أن تقول ؟ اسمع يا جانيا ، أرجوك ملحاً ألا تعاكسها وألا تعارضها اليوم كثيراً . بالعكس : حاول أن تكون ... أقصد ... كن لبقاً لطيفاً كيّساً ... هِمْ ... لماذا تلوى فمك هكذا ؟ اسمع يا جبريل آرداليونتش : آن لنا أن نضع الأمور فى نصابها ، آن لنا ذلك ! لماذا نحتمل هذا العناء كله ؟ انك لتدرك حق الادراك أننى ، فيما يتعلق بمصلحتى الشخصية فى هذه القضية كلها ، مغطًّى منذ زمن طويل . ولسوف أخرج منها بما يناسبنى ويلائمنى ، بطريقة أو بأخرى . لقد اتخذ توتسكى قراراً لا رجعة عنه ولا رادَّ له . فأنا أيضاً هادىء اذن كل الهدوء ، مرتاح كل الارتياح ، مطمئن كل الاطمئنان . واذا كنت ما أزال أرغب فى شىء ، فهو خيرك أنت . فكِّر ملياً : ألست تثق بى ؟ لا سيما وأنك رجل ... رجل ... رجل ذكى . ثم اننى قد وضعت أملى فيك . وفى الوضع الراهن ، فى الوضع الراهن ...

ـ هذا هو الشىء الرئيسى !

كذلك قال جانيا يساعد الجنرال فى اتمام جملته مرة أخرى .

والتوت شفتا الفتى على ابتسامة ساخرة مسمومة أصبح لا يحاول حتى اخفاءها . وكانت نظرته المحمومة تحدّق الى عينى الجنرال ، كأنه يريد أن يقرأ الجنرال فيها كل تفكيره . فاصطبغ وجه الجنرال بحمرة شديدة ، وغضب فاستأنف كلامه وهو ينظر الى جانيا بقسوة :

ـ نعم ، الذكاء هو الشىء الرئيسى . ألا انك لغريب الأطوار يا جبريل آرداليونتش ! لكأنك مبتهج بوصول هذا الشاب التاجر ابتهاجك بحلٍ يهبط من السماء ! كان يجب فى هذه القضية أن تبرهن على ذكاء

منذ البداية • كان يجب عليك أن تفهم الموقف فهماً سليماً ، وأن تقدر الوضع تقديراً صحيحاً ••• و ••• و ••• وكان يجب عليك أن تعمل من الطرفين ، من الجهتين ••• مع التزام الاستقامة والصراحة ••• والا فلا أقل من التنبيه والتحذير ، حتى لا يتورط الآخرون ، ولا يتعرضوا لشيء • ولقد كان في وقتك متسع لهذا • وما يزال في وقتك متسع على كل حال (هنا رفع الجنرال حاجبيه على نحو مفهوم) ، رغم أنه لم يبق الا بضع ساعات • هل فهمت عني ؟ هه ؟ أتريد أم لا ؟ اذا كنت لا تريد فعليك أن تقول ذلك ، وأن تقوله في الوقت المناسب ! ما من أحد يريدك على غير ما تحب يا جبريل آرداليونتش ، ما من أحد يدفعك الى فخ ، اذا كان حقاً أنك لا ترى في هذا الا فخاً •

قال جانيا بصوت خافت ، ولكن بلهجة ثابتة :

ـ بل أريد !

وخفض عينيه ، وصمت مظلم الوجه مربد الأسارير •

رضي الجنرال وارتاح • لقد غضب منذ قليل واندفع ، أما الآن فكان واضحاً أنه نادم على غلوه في المضي الى ذلك الحد • والتفت نحو الأمير فجأة ، وقد بدا في وجهه قلق: لقد شهد الأمير الحديث ، وسمع كل شيء••

لكن الجنرال لم يلبث أن استرد هدوءه • ان نظرة واحدة الى الأمير كانت كافية لاعادة الثقة والطمأنينة الى نفسه •

هتف الجنرال يقول وهو ينعم النظر في نمـوذج الخط الذى مدّه اليه الأمير :

ـ عظيم ، عظيم ! خط رائع ! آية من آيات الفن ! آية نادرة ! انظر يا جانيا ، انظر ! يا لها من موهبة !

كان الأمير قد كتب على الورقة السميكة الفاخرة ، بأحرف روسية من القرون الوسطى ، العبارة التالية :

« ان المطران الذليل بافنوس قد وقع هذا بخط يده » *

وقال الأمير شارحاً بحماسة كبيرة ، ولذة عظيمة :

ـ هذا توقيع المطران بافنوس نفسه ، نقلاً عن مخطوطة يرجع عهدها الى القرن الرابع عشر . كانت لهم فى الماضى تواقيع جميلة ، مطارنتنا وبطارقتنا جميعاً ! ما أعظم ما فيها من ذوق ، ومن عناية ، ومن صبر ! أليست عندك نسخة من طبعة بوجودين يا جنرال ؟ انظر : هنا قلّدت نموذجاً آخر من نماذج الخط : انه نموذج الخط المدوّر القائم الكبير ، الذى عُرف بفرنسا فى القرن الماضى ؟ حتى ان بعض الأحرف تُكتب بأشكال مختلفة . هذه هى الكتابة العادية ، كتابة عامة الكتّاب ، وهى مستمدة من كتابة الخطاطين الأصليين (اقتنيت نموذجاً منها) . اعترفْ أن لها محاسنها . أنعم النظر فى هذه « الهاء » وهذه « الطاء » المدوّرتين القائمتين . لقد قمت أنا بنقل هذا الطراز الفرنسى من الخط الى الكتابة الروسية . كان ذلك عملاً صعباً جداً ، لكننى نجحت فيه . اليك نموذجاً آخر من الكتابة ، نموذجاً أصيلاً جداً ، فيه طرافة عظيمة ورشاقة مدهشة انظر فى هذه الجملة : « الاجتهاد يذلل جميع الصعاب » . هذه كتابة روسية ، كتابة حكومية ، أو قل ان شئت انها كتابة حكومية عسكرية . بهذا الخط انما تكتب رسالة رسمية لشخصية خطيرة الشأن . وهو خط مدوّر قائم أيضاً ، على جانب عظيم من الأناقة والرشاقة ، يُطلق عليه اسم الكتابة « السوداء » . وهو خط يبدو حالك السواد فعلاً ، لكنه فى غاية الجمال . ان خطاطاً محترفاً لا يمكن أن يسمح لنفسه يوماً بهذه الزيادات الطفيفة ، هذه الذيول الصغيرة ، هل تراها ؟ ومع ذلك تستطيع أن تلاحظ أنها تضفى على الخط طابعاً خاصاً . ان المرء يقرأ فيها كل روح الكاتب

العسكرى • يحس المرء أن هذا الكاتب العسكرى يودُّ أن يرخى العنان لخياله ، وأن موهبته تناديه الى ذلك ، لكن الياقة العسكرية صلبة ، فهى تقيده تقييداً شديداً • ان النظام العسكرى يعبِّر عن نفسه تعبيراً حلواً فى الخط • لقد خطف بصرى منذ مدة قصيرة نموذج من هذا النوع • تصوَّر أننى وقعت على ذلك النمـوذج فى سـويسرا • واليك الآن مثالاً عادياً مألوفاً للخط الانجليزى ، مثالاً صافياً نقياً للخط الانجليزى • لا أرشق منه ولا أحلى ! هو سحر كله : لؤلؤة ، جوهرة ! هو الكمـال بعينـه • واليك خطاً هو تعديل لذلك الخط الانجليزى بالطريقة الفرنسية • لقد أخذته من مندوب متجول لبيت من بيوت التجارة • هو الطراز الانجليزى نفسه ، غير أن الأحرف اللأى فيه أشد بروزاً وأكثر سواداً• وهذا يبدِّل توازن النسب فوراً • لاحظ هذه الصفة أيضاً : ان الأحرف البيضـاوية قد تبدلت هنا فصارت أكثر تدوراً ، كما أن الذيول فى هذا الخط مقبولة غير مرفوضة • والذيول أشد المزالق خطراً بطبيعـة الحال ، لذلك كان لا بد للخطاط ههنا من ذوق خارق يجنبه هذه المزالق ، ولكن اذا نجح الخطاط فى هذه المحاولة فوجد الأبعاد السليمة والنسب الصحيحة ، حصل عندئذ على خط لا يضارع ، خطٍ يعشقه المرء عشقاً •

قال الجنرال ضاحكاً :

ـ عظيم ، عظيم ، انك مطلع على أدق الدقائق وألطف اللطائف ! لستِ يا صديقى خطاطاً فحسب ، بل أنت أيضـاً فنـان ، هه ؟ ما رأيك يا جانيا ؟

أجاب جانيا موافقاً :

ـ شىء مدهش !

ثم أضاف وهو يضحك ضحكة ساخرة :

ـ حتى ان هذا يدل على موهبة عظيمة ويبشّر بأن سيكون له مهنة محترمة !

قال الجنرال :

ـ اضحك ، اضحك ما شئت أن تضحك • انه يملك حقاً ما يؤهله لمزاولة مهنة ممتازة • هل تعرف ، يا أمير ، الى أية شخصية سنكلفك بالكتابة ؟ ان في الامكان أن تعطى راتباً قدره خمسة وعشرون روبلاً في الشهر ، بلا تردد •

ثم أضاف الجنرال قائلاً وهو ينظر في ساعته :

ـ ولكن الساعة أصبحت الثانية عشرة والنصف • اسمع يا أمير ، لننتقل الى جوهر الموضوع ، فأنا في عجلة من أمرى ، وقد لا تتاح لنا فرصة اللقاء مرةً أخرى اليوم • اجلس لحظة : سبق أن قلت لك انني لن أستطيع أن أستقبلك في أحيان كثيرة • ولكنني أرغب صادقاً في أن أبذل لك بعض العون ، أن أبذل لك عوناً ضئيلاً هو القدر اللازم الذى لا بد منه ولا غنى عنه • أما فيما عدا ذلك فدبّر أمرك على النحو الذى يحلو لك ، وبالطريقة التى تراها مناسبة • سأجد لك وظيفة صغيرة في المكتب ، عملاً ليس شاقاً مسرفاً في المشقة ، ولكن سيكون عليك أن تجدّ وأن تجتهد • واسمع الآن ما سأقوله لك : ان صديقى الشاب جبريل آرداليونوفتش ايفولجين ، الذى تراه ، والذى أعرّفك به الآن ، يعيش مع أسرته ؟ وقد أعدّت أمه وأخته في شقتهم غرفتين مؤثثتين أو ثلاثاً ، فهما تؤجّران هذه الغرف مع الطعام والخدمة لأناس موصى بهم مشهود لهم بحسن الخلق • وأنا على يقين من أن نينا ألكسندروفنا ستقدّر توصيتى بك وشهادتى لك • هذا كنز بالنسبة اليك يا أمير ؟ فلا تعيش وحيداً ، بل تعيش في حضن أسرة ان صح التعبير • وفى رأيى أنا أنه ليس من الخير لك أن تبقى وحيداً من اليوم الأول في عاصمة مثل بطرسبرج • ان

نينا ألكسندروفنا ، أمّ جبريل آرداليونوفتش ، وباربارا آرداليونوفا ، أختَه ، هما سيدتان احترمهما احتراماً عظيماً ، وأجلهما اجلالاً كبيراً . ان نينا ألكسندروفنا هي زوجة آرداليون الكسندروفتش ، الجنرال المحال على التقاعد ، الذي كان رفيقي في الجيش ، لكنني قطعت جميع صلاتي به لبعض الأسباب ، دون أن يمنعني ذلك من أن أكنّ له بعض الاعتبار والاحترام ، انني أشرح لك هذا كله يا أمير ، من أجل أن تفهم أنني أوصي بك وأشهد لك بنفسي ، وأنني اذن أتحمل التبعة . ان أجرة المسكن ، مع الطعام والخدمة ، معتدل جداً ، وأنا آمل أن يكون راتبك في القريب كافياً للوفاء به كفاية تامة . صحيح أن المرء يحتاج أيضاً الى بعض المال يضعه في جيبه وينفق منه عند الحاجة ، لكنني ألفت نظرك يا أمير ، دون أن أريد لك أن تغضب ، ألفت نظرك الى أن من الأفضل لك ألا يكون في جيبك مال تنفق منه ، لا ولا أن تملك أي مال تضعه في جيبك . ومع ذلك ، لما كانت حافظة نقودك خاليةً كل الخلو الآن ، فاسمح لي أن أقدِّم اليك خمسة وعشرين روبلاً لنفقاتك الأولى . وسنتحاسب في المستقبل طبعاً ؟ وأعتقد أن لن تكون بيننا أية صعوبة ، اذا كنتَ حقاً ذلك الرجل الصادق المخلص الودود الذي كشف عنه حديثك. ولئن كنت أهتم بك هذا الاهتمام كله ، فلأن هناك أموراً سأعهد اليك بها وسأعوّل عليك فيها ، أموراً ستعرفها في المستقبل . هكذا ترى أنني أكلمك ببساطة تامة وصراحة كبيرة . آمل يا جانيا ألا ترى بأساً في أن يسكن الأمير عندكم ، هه ؟

أجاب جانيا مؤكداً بلهجة فيها ظرف وترحيب وبشاشة :

ـ بالعكس . ولسوف تكون أمي سعيدة ...

ـ أظن أنكم أجرتم الى الآن غرفة واحدة يسكنها ذلك الرجل الذي يسمى فرديـ ... فرديـ ...

ـ فرديشتينكو * •

ـ نعم ، فرديشتينكو • انه يعجبني صاحبكم فرديشتينكو هذا • مهرج عفن • لا أفهم لماذا تدعمه ناستاسيا فيليبوفنا دائماً • هل صحيح أنه يمت اليها بقرابة ؟

ـ لا ، لا ! ما هذه الا مزاحة ! ما من قرابة •••

ـ طيب ••• شيطان يأخذه ••• فما رأيك اذن يا أمير ؟ أأنت مسرور أم لا ؟

ـ شكراً يا جنرال • لقد غمرتني بأريحيتك ، مع أنني لم أطلب منك شيئاً • لا أقول هذا من باب الكبرياء • حقاً كنت لا أعرف الى أين أذهب• صحيح أن روجوين قد دعاني الى داره منذ قليل ، ولكن •••

ـ روجوين ؟ ••• لا ••• كل شيء الا هذا ! انس هذا السيد روجوين ! تلك نصيحة أب لابنه ، أو قل نصيحة صديق لصديقه اذا كنت تؤثر ذلك • ومهما يكن من أمر ، فانني أوصيك عامةً بالاقتصار على الأسرة التي ستعيش معها •

قال الأمير :

ـ ما دمت طيباً نبيلاً الى هذا الحد ، فانني أريد أن أستشيرك في أمر التمس فيه نصحك • لقد تلقيت ابلاغاً •

قاطعه الأمير قائلاً :

ـ لا ، اعذرني ، لا أملك الآن دقيقة واحدة • سأكلم عنك اليزابت بروكوفيفنا حالاً • فاذا أعربت عن رغبتها في استقبالك منذ الآن (وهذا ما سأوصيها به) ، فانني أنصحك بأن تستغل الفرصة لتحظى برضاها • ان من الممكن أن تقدم لك خدمات عظيمة ، لأنك تحمل اسم اسرتها •

أما اذا لم ترغب في أن تستقبلك ، فلا يسوءنك هذا ، وارتقب فرصة أخرى • وأنت يا جانيا ، ألق نظرةً على هذه الحسابات أثناء ذلك • لقد كسَّرنا رأسها بها أنا وفيدوسيف • ينبغي أن نفكر في ادراجها ••

وخرج الجنرال ، قبل أن يستطيع الأمير أن يعرض عليه الأمر رغم محاولات عدة • وأشعل جانيا سيجارة ، وقدم للأمير سيجارة ، فقبلها الأمير ولكنه لم يحاول أن يستمر في الحديث مخافة أن يزعجه أو أن يضايقه • وأخذ يتفحص المكتب • غير أن جانيا لم يكد يلقى نظرةً على الورقة الملأى بالأرقام التي أشار اليها الجنرال • كان جانيا ذاهلاً شارد اللب • حتى ان ابتسامته ونظرته وهيئته المهمومة أصبحت أثقل وطأة على صدر الأمير وأشد ايلاماً له حين اختليا •

واقترب جانيا من الأمير فجأة بينما كان الأمير قد عاد يتأمل صورة ناستاسيا فيليبوفنا ، فقال له جانيا وهو يتفرس فيه تفرس من يخفى نيةً ويبيِّت أمراً •

ـ اذن تعجبك هذه المرأة يا أمير ؟

أجاب الأمير :

ـ وجه مدهش ، وأنا واثق بأن القدر الذي كتب عليها قدر نادر • الوجه باش ، ولكنها قاست آلاماً رهيبة ، أليس كذلك ؟ ان المرء يقرأ هذا في نظرتها ، في هذين النتوءين ، في هاتين النقطتين تحت العينين عند منبت الخدين • وجه فيه كبرياء ، كبرياء شديدة ! لكنني أتساءل هل هي خيِّرة النفس طيبة القلب ؟ ••• آمل أن تكون كذلك ! فبهذا يمكن أن يُنقَذ كل شيء !

تابع جانيا كلامه دون أن يحوِّل عن الأمير نظرته المحمومة :

ـ قل لي : هل يمكن أن تتزوج « أنت » امرأة كهذه المرأة ؟

قال الأمير :

ـ أنا لا أستطيع أن أتزوج أية امرأة • أنا مريض •

ـ وهل يمكن أن يتزوجها روجويين ؟ ما رأيك ؟

ـ هو ؟ أظن أنه يمكن أن يتزوجها ، حتى منذ الغد ! يتزوجها ثمانية أيام ، ثم قد يذبحها !

حين سمع جانيا هذه الكلمات الأخيرة التى قالها الأمير ارتجف ارتجافاً بلغ من القوة أن الأمير أوشك أن يصرخ • وأمسكه من ذراعه وقال له :

ـ ماذا بك ؟

هنا ظهر خادم فى عتبة الباب يقول :

ـ صاحبَ السمو ، ان صاحب السعادة يرجوك أن تذهب الى صاحبة السعادة ، الجنرالة •

وخرج الأمير يتبع الخادم •

الفصل الرابع

تمتاز كل من الآنسات الثلاث ايبانتشين بأنها قوية الجسم نضرة زاهرة ، وبأنها مهيبة الطلعة ، على منكبين عريضين وصدر جميل ، وذراعين لا تكادان تقلان قوة عن ذراعي رجل . وبحكم هذه الصحة وهذه القوة طبعاً ، كنّ يقدرن قيمة وجبةٍ من وجبات الطعام حق قدرها ، ولا يحاولن أن يخفين ذلك البتة .

وكانت أمهن ، الجنرالة اليزابت بروكوفيفنا ، يسوؤها في بعض الأحيان أن ترى هذه الصراحة في شهوتهن للطعام واقبالهن عليه . غير أن جزءاً كبيراً من نصائحها وتوصياتها قد فقد في الواقع ما كان لهذه النصائح وهذه التوصيات من سلطان عليهن وتأثير فيهن ، رغم أنهن ما زلن يصطنعن في قبولها مظهر الامتثال والاذعان ؛ وقد أخذ التحالف بين الأخوات الثلاث يثير الجنرالة في كثير من الأحيان ، وهي امرأة تحرص على رزانتها ووقارها أشد الحرص، وترى أن الأفضل ألا تناقش وتجادل ، بل أن تقبل وتسلِّم. صحيح أن المزاج كثيراً ما ينتصر ويتمرد على قرارات العقل ؛ حتى لقد أخذت اليزابت بروكوفيفنا تغدو ، سنةً بعد سنة ، أشد نزوة وأقل صبراً، بل وأجمح خيالاً . ولكن لما كانت ماتزال تملك زوجاً أحسنت ترويضه حتى صار طوع بنانها ، فان زوجها هذا هو الذي كانت تصب عليه مايطفح به

قلبها . فكان الانسجام يعود عندئذ الى المنزل ، وكان كل شيء يجري بعد ذلك على ما يرام .

على أن الجنرالة كانت لا تفقد شهوة الطعام . هي فى العادة تشارك بناتها وجبة الافطار الوفيرة التي تكاد تكون من وفرتها غداء ، والتي تقدَّم بعد الظهر بنصف ساعة . وتكون البنات قبل هذه الوجبة قد تناولن في أسرَّتهن عند استيقاظهن من النوم فنجاناً من القهوة في الساعة العاشرة تماماً . فهذه عادة من العادات ألفنها وترسخت فيهن منذ زمن طويل . حتى اذا أزفت الساعة الثانية عشرة والنصف فُرشت المائدة في غرفة الطعام الصغيرة المتاخمة للجناح الخاص الذي تحتله اليزابت بروكوفيفنا ؛ فاذا كان وقت الجنرال لا يضيق بحكم العمل عن المشاركة في هذه الوجبة العائلية الحميمة شارك فيها . اما ما تضمه الوجبة فهو ، عدا الشاى والقهوة والجبن والعسل والزبدة ، لحوم مشوية (أضلاع) ونوع خاص من الفطائر تحبه الجنرالة حباً خاصاً ، وربما ضمت المائدة كذلك مرقاً ساخناً مكثفاً .

فى الصباح الذى تبدأ فيه قصتنا هذه كانت الأسرة كلها مجتمعة في قاعة الطعام تنتظر الجنرال الذى كان قد وعد بالمجيء في الساعة الثانية عشرة والنصف . فلو أنه تأخر عن المجيء ولو دقيقة واحدة اذن لأسرعن يرسلن اليه من يبحث عنه . لكن الجنرال قد تقيد بالموعد تقيداً تاماً ، فها هو ذا يدنو من زوجته ليحييها وليقبِّل يدها ، فيلاحظ على وجهها تعبيراً خاصاً جداً . ورغم أنه كان في عشية ذلك النهار قد أوجس بأن شيئاً من هذا سيحدث بسبب « قصة ما » (على حد تعبيره) ، ورغم أنه حين نام في المساء قد فكر في هذا بكثير من القلق ، فقد استولى عليه خوف واعتراه رعب . وجاءت بناته فقبَّلنه . كان لا يبدو عليهن أنهن غاضبات، ومع ذلك كان ظاهراً هنا أيضاً أن ثمة شيئاً غير طبيعي . صحيح أن

ظروفا معينة كانت قد جعلت الجنرال كثير الظنون شديد الارتياب ، لكنه ، وهو رب أسرة خبير حاذق ، قد أسرع يتخذ الاجراءات اللازمة •

لعلنا نستطيع ، دون أن نُفقد قصتنا هذه بروز معالمها ، أن نتوقف هنا قليلاً ، فنقدم ببعض الشروح فكرةً أقرب الى أن تكون مباشرة ودقيقة وواضحة ، عن الأوضاع والظروف التى كانت عليها أسرة الجنرال ايبانتشين فى الوقت الذى تبدأ فيه هذه القصة •

سبق أن أشرنا الى أن الجنرال كان ـ رغم ضآلة حظه من الثقافة ـ (ولقد كان على كل حال يفتخر بأنه عصامى علَّم نفسه بنفسه) ـ كان زوجاً خبيراً وأباً بارعاً • ولقد قرر خاصةً ألا يحث بناته كثيراً على الزواج • وكان لا يحرص على أن « يعلق نفسه فوق رءوسهن بغير انقطاع » ، وأن يعذبهن دائماً بحب أبوى يسعى الى سعادتهن ، كما يحدث هذا فى كثير من الأحيان حدوثاً طبيعياً ، بغير قصد أو ارادة ، حتى فى أعقل الأسر التى عندها بنات للزواج •

حتى لقد استطاع أن يقنع زوجته بهذا المذهب ، وتلك مهمة بالغة الصعوبة ، لأنها تعارض غريزة المرأة • غير أن حجج الجنرال وأدلته قد أثمرت ، لأنها كانت تتناول وقائع محسوسة ملموسة • وكان أسلوبه هو التالى : ان البنات اذا تُركت لهن حرية التصرف ، فلا بد أن يصلن من تلقاء أنفسهن الى حل معقول ، فيجرى الأمر عندئذ سريعاً ، لأنهن يقبلن عليه بقلوبهن ، متخلّيات عن النزوات الطارئة ، وعن الغلو والمبالغة فى النقد ؛ ولا يكون على الأبوين بعد ذلك الا أن يراقباهنً بمزيد من اليقظة والتخفى، ليجنّباهنً اختياراً رديئاً أو انحرافاً سخيفاً ، حتى اذا آن الأوان ساعداهن بكل ما لهما من قدرة ، ووضعا ثقلهما كله فى الميزان، ليقوداهنً فى الاتجاه السليم • هذا عدا أن ثروة الأسرة تربو سنةً بعد سنة بتزايد هندسى ، وأن مركزها الاجتماعى يعلو ويسمق ، فكلما انقضى الزمن

جنت البنات من ذلك نفعاً ، حتى من جهة الخطبة . ولكن ذلك كله قد أضيفت اليه واقعة جديدة : هي أن البنت الكبرى قد بلغت الخامسة والعشرين في مثل الفجاءة ، كأنما على غير توقع (كما يحدث ذلك دائماً) .

وفي تلك الآونة نفسها تقريباً أعرب آتانازى ايفانوفتش توتسكى ، وهو رجل من علية القوم له علاقات رفيعة وثروة خارقة ، أعرب مرةً أخرى عن رغبته القديمة في الزواج . انه في الخامسة والخمسين من عمره تقريباً ، ذو طبع لطيف محبَّب ودود ، وذو ذوق رفيع مرهف رقيق . كان يريد لنفسه زواجاً جميلاً . انه يقدر الجمال كما لا يقدره مثله أحد . واذ ربطته منذ مدة بالجنرال ايبانتشين صداقة كبيرة كانت تعزّزها وتقوّيها مصالح مشتركة في بعض المشروعات المالية ، فقد سأله أن ينصحه كما ينصح الصديق صديقه هل يستطيع أن يخطب احدى بناته . وهكذا فان الحياة الهادئة الوادعة المنظمة المرتبة التي كانت تعيشها اسرة الجنرال ايبانتشين أصبحت موشكة على اضطراب يقلبها رأساً على عقب .

ان أجمل البنات الثلاث ، كما سبق أن ذكرنا ذلك ، انما هي الصغرى ، آجلايا ، بلا مراء ولا جدال . ولكن توتسكى نفسه ، رغم أثرته المفرطة ، قد أدرك أنه ليس له أن يعقد آمالا من هذه الناحية ، وأن آجلايا ليست له .

ومهما يكن من أمر ، سواء أكانت أختا آجلايا تحبانها حباً أعمى أم كانتا تحملان لها عاطفة مسرفة في الحماسة ، فالمهم أن أسرة ايبانتشين كانت تتوقع للأخت الصغرى آجلايا ، بصدق واخلاص ، لا مصيراً عادياً بل حياةً تقترب أكبر اقتراب ممكن من المثل الأعلى للفردوس الأرضي . فيجب أن يكون زوجها المقبل رجلاً يتمتع بجميع صفات الكمال ، وأن يحقق جميع أنواع النجاح ، فضلاً عما يجب أن ينعم به من ثراء . حتى

ان الأختين كانتا قد قررتا فيما بينهما ، دون كلام كثير لا طائل تحته ، أن تضحيا بنفسيهما فى سبيل آجلايا اذا اقتضى الأمر ذلك • وقد أعدت الأسرة للفتاة اجلايا مهرا ضخما فذا • وكان الابوان على علم بالاتفاق الذى تمَّ بين الأختين الكبريين • ولذلك حين سـال توتسـكى صاحبـه الجنرال ايبانتشين أن يسـدى اليه النصح ، فان الأبوين لم يشـكا كثيراً فى أن احدى البنتين لن ترفض تلبية رغبتهما ، لا سيما وأن توتسكى ليس من الرجال الذين تستوقفهم مسـألة المهر • والجنرال رجـل صاحب خبرة وتجربة ، لذلك قدر الخطوة حق قدرها ؟ واذ أن توتسـكى نفسـه قد فرض على نفسه ، بسبب بعض الظروف ، تكتماً كبيراً فى المباحثات حول هذا الأمر ، فاقتصر على جسٍّ النبض أو سبر الأرض ان صح التعبير ، فان الأبوين من جهتهما لم يذكرا للبنات الا افتراضات غامضة وتخمينات مبهمة ؟ فحصلا فى مقابل ذلك من البنات على تأكيد غامض مبهم هو أيضاً ، لكنه مواسٍ معزٍ ، بأن الكبرى ألكسندرا قد لا ترفض •

ان ألكسندرا ، على كونها ذات طبع صلب وخلق ثابت ، فتاة عاقلة دمثة لينة سهلة المعاشرة ؟ ولقد ترتضى أن تتزوج توتسكى ، فاذا تعهدت بأن تتزوجه برَّت بعهدها ولم تخلف الوعـد • انها لا تنشد حياة براقة ساطعة ، ولا خوف معها من مصاعب ومتاعب ، ولا خوف معها من انقلاب مباغت • بالعكس : انها تستطيع أن تجعل الحياة ناعمة وادعة يرفرف عليها الهدوء والسلام • وهى فتاة جميلة ، وان لم تكن ساطعة التألق • هل كان يمكن توتسكى أن يمنِّى نفسه بأكثر من هذا ؟

ومع ذلك ظلت القضية تتقـدم بخطى بطيئـة وتلمس متوجِّس • فكان توتسكى والجنرال ، بفضل اتفاق ودى ، يتجنبان أن يقوما الآن بأية خطوة رسمية حاسمة • وكان الأبوان نفساهما ما يزالان لا يكاشفان البنات بالأمر صراحةً • حتى لقد كان يمكن أن يلاحظ المرء أن بينهما شيئاً من

الخلاف في الرأي . فان الجنرالة ، بصفتها أماً ، قد أخذت تظهر شيئاً من عدم الرضى ، وكان ذلك أمراً على جانب كبير من خطورة الشأن . وهناك عدا ذلك ظرف معقد شائك كان يعرّض المشروع كله للاخفـاق اخفاقاً حاسماً .

ان أصل هذا الظرف « المعقد الشائك » (على حد تعبير توتسكي) يرجع عهده الى زمن بعيد ، الى ثمانية عشر عاماً خلت . فعلى مقربة من احدى الأراضي التي يملكها آثانازي ايفانوفتش ، وهي أراض تقع في أحد أقاليم وسط روسيا ، كان يعيش ملاّك صغير فقير الحال تقريباً . وكانت حياة هذا الرجل سلسلة من المصائب والنوازل ، سلسلةً تبلغ من التتابع والاتصال أنها تشبه أن تكون حكاية من الحكايات أو قصة من القصص . هو ضابط محال على التقاعد ، سليل أسرة عريقة النبالة ، لعلها تفوق في رفعة المحتد أسرة توتسكي . كان اسمه فيليب ألكسندروفتش باراشكوف . وقد استطاع أخيراً ، وهو غارق في الديون مرهق برهن عقاراته ، استطاع بالعمل الشاق والجهد المضني ، وبشغل يشبه أن يكون في قسوته ومشقته شغل فلاح ، أن يعود الى استثمار أرضه الصغيرة استثماراً مناسباً . وكان أيسر نجاح يحققه ، يبث فيه شجاعة خارقة ، ويعيد اليه أملاً كبيراً ، حتى امتلأ ثقة وطمأنينـة وتفـاؤلاً ؛ وذهب ذات يوم الى مركز الاقليم ليقابل أحد دائنيه الكبار ، وليبرم معه اتفاقاً أو ينتهي معه الى تسوية في حدود الامكان . فلما كان اليوم الثالث من اقامته بمركز الاقليم رأى عميد قريته يصل الى المركز على حصان ، محترق الخدين واللحية ، ويبلغه أن أملاكه قد شب فيها الحريق بالأمس في وضح النهار ، فهلكت امرأته ، لكن أولاده نجوا وسلموا .

لم يستطع باراشكوف أن يصمد لهذا المصاب الجديد ، رغم أنه ألف

ضربات القــدر ، ففقد عقله وجُنَّ ، ثم مات بحمى دماغيــة بعد شــهر واحد .

وقد بيعت أراضيه المحترقة وبيع فلاحوه المبعثرون لسداد ديونه . أما ابنتاه الصغيرتان ، وعمراهما ست سنين ، فقد تكرم آتانازى ايفانوفتش توتسكي فكفلهما .

تربَّت البنتان أولاً مع أولاد وكيل توتسكي ، وهو موظف محال على التقاعد ، ربُّ أسرة كبيرة العدد ، ألمانية فوق ذلك. ولم تلبث ناستاسيا أن أصبحت وحيدة ، لأن أختها الصغرى ماتت بمرض السعال الديكي. أما توتسكي الذي كان يعيش في الخارج ، فلم يلبث أن نسيهما كلتيهما. وبعد خمس سنين ، مرَّ آتانازى ايفانوفتش بالمنطقة ، فخطر بباله أن يزور أراضــيه هنــالك ، فاذا هو يلاحظ في منزله الريفى ، مع أسرة وكيله الألماني ، فتاةً حلوة عذبة لذيذة في الثانية عشرة من عمرها ، فتاةً فارهة ماهرة ، ذكية لطيفة ، تبشر بأنها ســتكون فى المســتقبل بارعة الجمــال فاتنة الحسن . لقد كان توتسكى فى هذا المجال رجلاً ذا خبرة وتجربة، لا يخطىء ظنه ولا يخيب فأله . ولم يقض فى أراضيه هذه المرة الا بضعة أيام ، لكنه قد اتسع وقته مع ذلك لأن يتخذ اجراءاته . فحدث تغير كبير فى تنشئة الفتاة وتعليمها : جيء لها بمربية سويسرية هى امرأة محترمة متقدمة فى السن ، لها خبرة فى التربية والتعليم ، مثقفة ، قادرة على أن تعلِّم ، عدا اللغة الفرنسية ، علوماً شتى .

سكنت المربية السويسرية في المنزل الريفى ، وسار تعليم الصغيرة ناستيا بخطى سريعة . فما انقضت أربع سنوات حتى انتهت دراسة ناستيا ، وسافرت المربية ، فجاءت عندئذ سيدة هى ملاّكة لها أطيان تجاور أرضاً يملكها توتسكى فى اقليم ناء . جاءت هذه السيدة فأخذت ناستيا تنفيــذاً لأوامر آتانازى ايفانوفتش ، وعملاً بسلطات خوَّلها اياها . ان فى تلك

الأرض الصغيرة التي يملكها توتسكي جناحاً ان يكن صغيراً فانه حديث البناء مؤثث تأثيثاً جميلاً فيه ذوق ، وفيه أناقة . وكان من المصادفات التي تشبه العمد أن تلك القرية نفسها كان اسمها هذا الاسم الموحى : «أوترادنويي» *

أخذت السيدةُ الفتاةَ الى ذلك المسكن الهادىء رأساً ، ولما كانت دارها هي قريبةً من ذلك المسكن ، وكانت أرملة لا ولد لها ، فقد أقامت مع الفتاة . وكان في خدمة ناستيا هنالك امرأةٌ تتولى أعمال الانفاق الانفاق والحساب ، وخادم شابة لكنها ذات تجربة وخبرة .

وكان المسكن (الشاليه) يضم أدوات موسيقى ، ومكتبة مختارة تناسب الفتيات ، ولوحات ، وصوراً محفورة على الخشب ، وأقلاماً ، ومناقش ، وألواناً ؛ وكان يضم كذلك كلبةً سلوقية جميلة .

وبعد أسبوعين وصل آتانازي ايفانوفتش بنفسه ...

ومنذ ذلك اليوم أصبح يؤثر تلك القرية الصغيرة المعزولة التائهة في السهوب ايثاراً عظيماً . فكان يأتيها كل صيف ، يقضي فيها شهرين ، أو ثلاثة أشهر في بعض الأحيان . وانقضى على هذا النحو زمن طويل هو أربع سنين هادئة وادعة سعيدة ، في جو من ترف البذخ وحسن الذوق.

وفي ذات يوم من مطالع الشتاء ، بعد نحو أربعة أشهر من احدى اقامات آتانازي الصيفية في أوترادنويي ، وهي اقامة لم تطل في تلك المرة أكثر من خمسة عشر يوماً ، جرت شائعة أو قل سمعت ناستاسيا فيليبوفنا شائعة تقول ان توتسكي على وشك أن يتزوج ببطرسبرج فتاةً جميلة غنية نبيلة المحتد ، أي أن يتزوج زواجاً يناسبه . وقد اتضح فيما بعد أن الشائعة غير صحيحة من بعض النواحي : فالزواج لم يكن الا فكرة أو مشروعاً ، وما يزال كل شيء غامضاً مبهماً . ومع ذلك ولّد هذا الحادث

اضطراباً كاملاً وبلبلةً تامة في حياة ناستاسيا فيليوفنا • وسرعان ما برهنت على أنها تملك ارادة حازمة ، وعزيمة قوية ، وصلابة لم تكن في الحسبان ؟ فاذا هي تترك مسكنها الريفي الصغير بلا تردد ، وتسافر الى بطرسبرج ، وتمضى على الفور وحيدةً الى توتسكى •

ذُهل توتسكي ، وأراد أن يوضح لها الأمور وأن ينتحل لنفسه الأعذار • لكنه أدرك منذ الكلمات الأولى تقريباً أن عليه أن يغيِّر تغييراً تاماً ، طريقة كلامه ونبرة صوته ، وموضوعات حديثه الممتعة الأخاذة التى أصابت حتى ذلك الحين نجاحاً كبيراً ، وأن يغيِّر منطقه نفسه ، أن يغير كل شيء ، كل شيء ! ان امامه الآن امرأة أخرى لا تشبه المرأة التي كان قد عرفها حتى ذلك الحين والتى تركها في شهر تموز (يوليه) بقرية أوترادنويى •

لقد اتضح قبل كل شيء أن هذه المرأة الجديدة تعرف وتفهم أشياء كثيرة ، أشياء تبلغ من الكثرة أن المرء يتساءل أين عساها حصَّلت مثل هذه المعارف وكيف استطاعت أن تكوِّن آراء واضحة هذا الوضوح كله • هل يمكن أن يكون ذلك قد تمَّ لها في مكتبتها التي هي مكتبة فتيات ؟ وكأن هذا كله لم يكن كافياً أيضاً ، فهى تفهم الشئون القضائية كذلك أكمل الفهم ، وفي ذهنها تصورات واضحة وضوحاً كبيراً ان لم يكن عن المجتمع كله ، فعن الطريقة التى تجرى بها بعض الأمور فيه • ثم ان طبعها الآن ليس طبعها فى الماضي • لقد زايلها ذلك النوع من الخشية ، لقد تحررت من ذلك الوجل المبهم الغامض الذى تتصف بمثله بنات المدارس الداخلية ، وتحررت من تلك الاندفاعات الساذجة الحلوة التى يلطفها في بعض الأحيان حزن وقلق وخوف يمضى الى حد ذرف الدموع •

لا ، ان أمام توتسكى الآن امرأة لم يسبق أن تصورها في هذه الصورة ، امرأة غريبة عجيبة ، تضحك مقهقهةً بأعلى صوتها ، وتمطره

بوابل من سخريات مسمومة ، امرأة تعلن له صراحةً بأنها لم تشعر نحوه في يوم من الأيام بعاطفة غير عاطفة الاحتقار العميق الذى يبلغ مبلغ التقزز الباعث على الغثيان ، وهو تقزز ملأ نفسها بعد انقضاء شعور الدهشة الأولى فوراً .

ان هذه المرأة الجديدة تعلن له أنها لا يهمها في شيء أن يتزوج حالاً أية امرأة ، ولكنها مع ذلك قد جاءت بدافع الشر وحده تحول بينه وبين هذا الزواج ، لا لشيء الا لأنها تجد في ذلك مسرة ، فلا يمكنها الا أن تستجيب لنداء هذه المسرة . قالت له : « هَبْ ذلك تسليةً على حسابك . لقد آن لى أخيراً أن أضحك أنا أيضاً ! » .

بهذه الألفاظ انما عبَّرت عن نفسها على الأقل . قد لا تترجم هذه العبارات كلَّ ما في قرارة فكرها . ولكن بينما كانت ناستاسيا فيليبوفنا الجديدة هذه تضحك ضحكاً مجلجلاً وهى تبسط حججها وتبدى أسبابها ، كان آتانازى ايفانوفتش يدرس الموقف بينه وبين نفسه ، ويحاول أن يضع شيئاً من النظام والترتيب في خواطره وأفكاره . ودامت هذه الدراسة مدة طويلة ، فقد أنفق فيها آتانازى ايفانوفتش قرابة أسبوعين ، ولكنه في ختام هذين الأسبوعين كان قد عزم أمره واتخذ قراره .

يجب ألا ننسى أن آتانازى ايفانوفتش كان عمره في ذلك الأوان نحو خمسين عاماً ، وكان رجلاً مهيباً رصيناً ، وكان ذا وضع اجتماعى قوى راسخ ، وكان مركزه في المجتمع الراقى يقوم على أسس متينة مضمونة .

كان آتانازى ايفانوفتش يحب ويقدر ، أكثر من أى شيء في العالم، شخصَه وراحته ورخاءه ودعته ، كما يليق ذلك برجل له مثل تلك المزايا العالية !... فأى اضطراب يعكِّر الصفو ، بل أى قلق يسير

يعترى مجرى الأمور ، كان شيئاً لا يمكن أن يقبله أو أن يحتمله تنظيمٌ للحياة ساهم عمرٌ كاملٌ فى اقامته وترسيخه .

وسرعان ما أوحت الى توتسكى تجربتُه الواسعة وحصافة رأيه وصدق حكمه أنه أمام امرأة فريدة قادرة على أن تحقق وعيدها وتنفذ تهديدها ، لا سيما وأنها لا تحرص على شىء فى هذا العالم ، وأنها لا سبيل اذن الى اغرائها . لا ، لا ! واضح أن الأمر هنا أمر آخر تماماً ! ان ههنا نوعاً من اختلاط عاطفى واستياء خيالى روائى ليس له سبب واضح ولا موضوع معيَّن ، ان ههنا رغبة فى الاحتقار لا يرتوى لها ظمأ ولا تقف عند حد ، أى ... ان ههنا شيئاً ... سخيفاً كل السخف ، شيئاً فظاً غليظاً جافياً لا يمكن قبوله فى المجتمع الراقى المهذب ، شيئاً هو بالنسبة الى رجل شريف كريم بلية من عند الله .

كان يمكن طبعاً أن تعين توتسكى ثروتُه وعلاقاته ، فتتيح له بسهولة أن يقوم بعمل من تلك الأعمال الخبيثة الصغيرة ، البريئة كل البراءة ، التى يمكن أن تخرجه من المأزق وتخلّصه من الورطة . وكان واضحاً من جهة أخرى أن ناستاسيا فيليبوفنا لا تقدر أن تفعل أى شىء ضدَّه ولو من الناحية القانونية القضائية مثلاً ؛ لا ولا تستطيع أن تثير فضيحة ذات بال ، لأن من السهل على آتانازى ايفانوفتش أن يجعلها تخفق لا محالة . ولكن ذلك كله انما يصدق اذا تصرفت ناستاسيا فيليبوفنا تصرف جميع الناس فى أمور كهذه الأمور ، ولم تبتعد كثيراً عن القاعدة. ولكن نفاذ البصيرة وسداد الرأى وحصافة الحكم انما خدمت آتانازى ايفانوفتش فى هذا المجال : فلقد استطاع أن يحزر أن ناستاسيا فيليبوفنا تدرك هى نفسها ادراكاً كاملاً أنها عاجزة من الناحية القانونية القضائية ، واستطاع أن يحزر أن فى ذهنها شيئاً آخر غير هذا ، وذلك ما كان يفضحه سطوع عينيها وبريق نظراتها . انها لعدم حرصها على شىء البتة ،

ولعدم حرصها حتى على شخصها (لا بد أن يكون توتسكى على جانب كبير من الذكاء ونفاذ البصيرة ليدرك في تلك اللحظة أن ناستاسيا أصبحت منذ مدة طويلة لا تحفل بشخصها البتة ولا تقيم لمصيرها أي وزن ؛ لا بد لتوتسكي الريبى المستهتر المستخف الذي لا يصدّق شيئاً ولا يؤمن بشيء غير مباهج الحياة الاجتماعية ، لا بد له خاصة من كثير من الذكاء ونفاذ البصيرة ليؤمن بأن عاطفة ناستاسيا تلك جدٌ لا هزل) ، أقول أن ناستاسيا فيليبوفنا ، لعدم حرصها على شيء البتة ، ولعدم حرصها حتى على شخصها كانت قادرة على ألا تحجم عن تحطيم حياتها تحطيماً لا رجعة عنه ، وعن تدمير وجودها بأسوأ الأساليب ، ولو اقتضى الأمر أن تذهب الى سيبيريا ، سجينة ، لا لشيء الا التلذذ باهانة وايذاء الرجل الذي تكرهه كرهاً يفوق طاقة الانسان على الكره .

ان آتانازى ايفانوفتش لم يُخف في يوم من الأيام أنه جبان بعض الجبن ، وكان يسمي هذا الجبن محافظة . لذلك كان لا بد أن يروّعه أن يتصور أن يُقتل أمام الهيكل ، أو أن يقع له حادث آخر من هذا النوع على مرأى من الناس ، حادث غير مستحب وغير لائق ... على أن اغتياله أو اصابته بجرح أو تلقيه بصقة في وجهه أمام الملأ أو وقوع أي حادث له آخر من هذا النوع لم يكن يهمه وقوعه بقدر ما كانت تهمه طريقة وقوعه وصورة حدوثه على هذا النحو الذي لا يمكن أن يعد طبيعياً ولا يمكن أن يعد لائقاً مهذباً ...

وبهذا نفسه انما كانت تهدده ناستاسيا فيليبوفنا ، ولو تهديداً مضمراً حتى الآن . كان يعلم أنها تعرفه معرفة عميقة ، وأنها ستعرف أين تهوى عليه بضربتها . واذ أن ذلك الزواج كان ما يزال فكرة أو مشروعاً ، فان آتانازى ايفانوفتش خضع وتراجع وأذعن واستسلم أمام ناستاسيا فيليبوفنا .

وهناك أمر آخر سهَّل عليه اتخاذ هذا القرار . ان من الصعب على المرء أن يتصور مدى الاختلاف بين ناستاسيا فيليبوفنا الجديدة وبين ناستاسيا فيليبوفنا القديمة ، حتى من ناحية الجسد . ان ناستاسيا لم تكن فى الماضى الا بنية حلوة جداً ، أما الآن ... آه ! ... ان توتسكى قد ظل مدة طويلة لا يغفر لنفسه انه نظر اليها أربع سنين دون أن يراها حق رؤيتها ! صحيح أن انقلاباً فى صلاتهما يبلغ ذلك المبلغ من المباغتة والمفاجأة لا بد أن يكون له شأن فى هذا . ولكن توتسكى قد تذكر لحظات خطرت بباله فيها أفكار غريبة حين كان ينظر الى عينيها فكأنه يوجس فى أعماقها سراً خفياً مظلماً لا يدري ما هو ! كانت تلك النظرة تحدِّق اليه ، وتثبت عليه ، وكأنها تعرض له لغزاً أو أحجية أو طلسماً . وكثيراً ما خطف بصره ، فى أثناء السنتين الأخيرتين ، انكفاء لون ناستاسيا فيليبوفنا : كانت فى بعض الأحيان تشحب شحوباً رهيباً ؛ والشيء الغريب أن هذا كان يزيدها جمالاً .

كان توتسكى ، وهو فى هذا يشبه أمثاله من السادة العجائز العابثين اللاهين القاصفين ، كان فى الماضى ينظر نظرة ازدراء الى استيلائه السهل هذا على فتاة بسيطة غير ذات خبرة ؛ ولكنه كان قد غيَّر رأيه قليلاً فى الآونة الأخيرة . ومهما يكن من أمر ، فانه قد قرر منذ الربيع الماضى أن يقف على ناستاسيا فيليبوفنا مهراً سخياً ، وأن يسرع فى تزويجها برجل محترم واسع الصدر رحب الفكر ، له مركز فى اقليم آخر (آه ... ما أفظع استهزاء ناستاسيا فيليبوفنا الآن بتلك الفكرة ، وسخرها منها !) .

أما الآن فان آتانازى ايفانوفتش ، وقد فتنته جدة الموقف وأغوته ، قال لنفسه ان فى امكانه أن يستثمر هذه المرأة الشابة من جديد ، فقرر أن يجعل اقامتها بطرسبرج ، وأن يحيطها بالترف والرخاء والبذخ . ذلك عدا أن فى وسعه أن يفتخر فى بعض الأوساط باستيلائه على امرأة

كهذه المرأة ، وأن يستمد من ذلك اعتزازاً ومباهاة وظهوراً . لقد كان آتانازى ايفانوفتش يحرص كثيراً على هذا النوع من المجد .

انقضت خمس سنين على اقامة ناستاسيا فيليبوفنا ببطرسبرج ، وتوضحت فى أثناء ذلك الوقت أمور كثيرة . ان وضع آتانازى ايفانوفتش ليس فيه مايطمئن. وأسوأ ما فىالأمر أنه وقد خاف مرةً، استبد به الخوف حتى أصبح لا يستطيع التخلص منه . كان خائفاً ، حتى دون أن يعرف كثيراً ممَّ هو خائف : كل ما هنالك أنه كان يخشى ناستاسيا فيليبوفنا. وفى خلال بعض الوقت ، أثناء السنتين الأولين ، أخذ يظن أن ناستاسيا فيليبوفنا تحاول أن تتزوجه . كان يفسِّر صمتها عن رغبتها هذه بأنه كبرياء شديدة منها ، وكان مقتنعاً بأنها تنتظر أن يفاتحها فى الأمر ، نافدةَ الصبر . ذلك تصور غريب فى الواقع . غير أن آتانازى ايفانوفتش قد أصبح كثير الظنون والهواجس . فكان اذا ساورته هذه الفكرة يتجهم وجهه ، وتأخذ تدور فى رأسه خواطر ثقيلة . حتى اذا اقتنع فجأة ، فى ذات يوم من الأيام ، بمناسبة حادث من الحوادث ، أنه لو عرض عليها أن يتزوجها لرفضت أن تتزوجه ، دُهش دهشة شديدة ، بل شعر بشىء من الأسف والحسرة (ذلك هو قلب الانسان !) ، ولم يسلِّم بهذه الحقيقة الا بعد مدة طويلة .

تفسير واحد بدا له معقولاً : هو أن كبرياء « هذه المرأة الخيالية الشاذة » قد بلغ من الحدة والغلو أنها تفضِّل أن تعبِّر عن احتقارها دفعةً واحدة برفض، على أن تضمن لنفسها وضعاً مستقراً ببلوغ مرتبة لا تأملها.

وأسوأ ما فى الأمر أن ناستاسيا فيليبوفنا أصبحت تسيطر على الموقف مزيداً من السيطرة شيئاً بعد شىء . لقد قاومت كل اغراء من نوع مادى، مهما تكن ضخامته ، وهى رغم قبولها ما أحيطت به من ترف وبذخ ،

تعيش حياة متواضعة ، ولم تكد تدّخر شيئاً من مال خلال هذه السنوات الخمس •

وقد تجرأ آتانازى ايفانوفتش فعمد الى حيلة بارعة كل البراعة لطيفة كل اللطف لتحطيم سلاسلها وفك أغلالها ، فحاول بمعاونات ذكية حاذقة ، على نحو خفى محكم لبق ، أن يفتنها بمغريات مثالية • ولكن لا الأمراء ، ولا الفرسان ، ولا سكرتيرو السفارات ، ولا الشعراء ، ولا الروائيون ، حتى ولا الاشتراكيون ، أمكن أن يؤثروا فيها أىّ تأثير• لكأن قلبها من حجر ، ولكأن عواطفها قد جفّت وماتت الى الأبد •

كانت تعيش حياة أميل الى الانزواء ، تقرأ وتطالع وتدرس وتهوى الموسيقى • كانت علاقاتها قليلة ، وكانت تنصرف بايثارها الى نساء طاعنات فى السن سخيفات من زوجات الموظفين• وكانت تعرف ممثلتين ، وتعرف عدداً من عجائز طيبات أخريات • وكانت تتردد على أسرة كثيرة الأولاد هى أسرة معلم طيب من معلمى المدارس الابتدائية، وكان أفراد هذه الأسرة يبادلونها الحب ويبتهجون بزياراتها • وكثيراً ما كان يجتمع عندها فى المساء ، خمسةُ أشخاص من معارفها أو ستة، وقلّما يزيد العدد عن ذلك• وكان توتسكى نفسه يحضر سهراتها حضوراً مطّرداً • وكان الجنرال ايبانتشين قد استطاع فى الآونة الأخيرة ، بعد شىء من المشقة ، أن يظفر بزيارة بيت ناستاسيا فيليبوفنا • وفى الوقت نفسه ، تمكن موظف صغير اسمه فردشتينكو أن يتعرف عليها بدون أى عناء • انه نوع من مهرّج سىء التربية قليل الذوق يدّعى خفة الظل وروح الدعابة ويميل الى الشراب والسكر •

وكانت ناستاسيا تستقبل كذلك شاباً غريباً اسمه بتتسين ، هو فتى متواضع مرتب يعتنى بهندامه ، كان فقيراً بائساً فلما تخلص من الفقر

والبؤس أصبح مرابياً • وفي آخر آونة تعرفت ناستاسيا على جبريل آرداليونتش •••

يجب أن نذكر أخيراً أن سمعةً عجيبة كانت تحيط بناستاسيا فيليبوفنا • ان جميع الناس يعرفون جمالها ، ولكن لا شيء غير ذلك ، وما من أحد كان يمكنه أن يتباهى بأنه حظي منها بشيء ، ولا كان هناك أحد يمكن أن يروي عنها أية قصة • فهذه السمعة وما تمتاز به ناستاسيا من ثقافة ، ومن رشاقة ، ومن فكر ، ذلك كله قد أوحى الى آتاناري ايفانوفتش خطة ما • وفي تلك الفترة من الزمن انما يقع التدخل النشيط الفعَّال الذي قام به الجنرال ايبانتشين في القصة كلها •

حين سأل توتسكي صاحبه الجنرال بكثير من اللطف والمودة أن يسدي اليه النصيحة التي يسديها صديق الى صديقه ، في أمر زواجه باحدى بناته ، فانه قد فتح له قلبه بصدق كامل وصراحة تامة ، فقال انه عزم أمره على ألا يحجم عن استعمال « أية وسيلة من الوسائل » في سبيل الحصول على حريته ، وانه لن يعدَّ نفسه في أمان ولو وعدته ناستاسيا فيليبوفنا نفسها بأنها ستدعه هادئاً في المستقبل ، وان الأقوال أصبحت لا تكفيه فلا بد له من ضمانات أكيدة وكفالات تامة • وناقش الرجلان الأمر ، فقررا أن يعملا متكاتفين •

اتفقا أولاً على أن يستعملا ألطف الأساليب ، وأن « يضربا على أنبل أوتار النفس الانسانية » ان صح التعبير • فذهبا الى ناستاسيا فيليبوفنا ، وأسرع توتسكي يتكلم عما في موقفه من سوء لا يطاق • أقرَّ بأنه آثم مذنب في كل أمر من الأمور ، ولكنه اعترف صراحةً بأنه من حيث هو رجل شديد الشبق عاجز عن السيطرة على نفسه ، لا يستطيع أن يشعر بندامة فيما يتعلق بالخطيئة الأولى التي ارتكبها • وقال ان في نيته أن يتزوج ، وانها تملك بين يديها مصير هذا الزواج المناسب الى أقصى

حد ، وانه يستنجد بشهامتها ونبل قلبها . وتكلم الجنرال هو أيضا ، بصفته أباً ، فقال كلاماً معقولاً متزناً ، تحاشى فيه أن يستدر العطف والحنان ولكنه ذكر أنه يعترف لها كل الاعتراف بحقها في تقرير مصير آتانازى ايفانوفتش ، ولم يفته مع ذلك أن يبرز مذلته في كثير من الكياسة ذاكراً أن مصير ابنته ، وربما مصير ابنتيه الأخريين ، رهن بما تتخذه هي من قرار . فلما سألت ناستاسيا فيليبوفنا مستفهمةً « عما يراد منها على وجه الدقة » ، اعترف توتسكي ، صادقاً ذلك الصدق نفسه ، بأنها قد بلغت من تخويفه وترويعه منذ خمس سنين أنه أصبح لا يستطيع أن يشعر بطمأنينة كاملة وأمان تام الا اذا وافقت ناستاسيا فيليبوفنا هي نفسها على زواجه . وأسرع يضيف الى ذلك أن هذا الذي يوحي به الآن يكون سخيفاً لولا أنه مستند الى اسباب قوية ومدعَّم ببواعث متينة . فلقد لاحظ بوضوح كامل وعرف معرفة محققة أن شاباً من أسرة طيبة جداً ومحترمة جداً ، شاباً تعرفه وتستقبله في دارها ، هو جبريل آرداليونتش ايفولجين نفسه ، مولَّه بحبها منذ مدة طويلة ، ويتمنى أن يحظى بعطفها ولو دفع نصف حياته ثمناً لذلك ؛ وهذه الاعترافات انما أسرَّ بها جبريل آرداليونتش منذ زمن طويل اليه هو ، آتانازى ايفانوفتش ، صادقاً مخلصاً ، بكل ما يحمله له من صداقة ، وبكل ما يزخر به قلبه الشاب من اندفاع وحرارة ؛ كما ان ايفان فيدوروفتش ، حامي الفتى ، يعرف الأمر منذ مدة هو أيضاً ؛ ومن حق آتانازى ايفانوفتش أن يظن ، الا اذا أخطأ ظنه ، أن عواطف الفتى لا تجهلها ناستاسيا فيليبوفنا أيضاً ، حتى لقد خيِّل اليه أنها تظهر بعض الرضى عنها وبعض الترحيب بها . وطبيعي انه يصعب عليه أن يتحدث في هذا الأمر أكثر مما يصعب ذلك على أي انسان آخر . ولكن اذا شاءت ناستاسيا فيليبوفنا أن تصدِّق أنه ، عدا مصلحته الأنانية ورغبته في تنظيم حياته ، قد يريد لها الخير ، فلا بد أن تدرك أن عزلتها

تبدو له منذ مدة طويلة غريبة وأليمة . وهو واثق بأن هذه العزلة ليست الا ظلمات كثيفة ، وأنها ناشئة عن الكفر بامكان أن يجدد المرء حياته . ولكنه مؤمن بأن حياتها يمكن أن تنبعث انبعاثاً رائعاً بالحب والأسرة اللذين سيضفيان عليها معنى جديداً .

وأضاف آتانازى ايفانوفتش يقول ان مواهب قد تكون لامعة تضيع عندها ، وان رضاها هذا عن حزنها ويأسها ، أى هذا النوع من الرومانسية، لا يتفق والحس السليم ولا يناسب ما تتحلى به نفس ناستاسيا فيليبوفنا من نبل .

وبعد أن كرر مرة أخرى أن الكلام فى هذا الأمر يشق على نفسه أكثر من أى انسان آخر ، ختم حديثه قائلاً انه لا يملك الا أن يأمل ألا تستقبل ناستاسيا فيليبوفنا بالاحتقار والازدراء رغبته الصادقة في أن يكفل لها مستقبلها بأن يقدم اليها رأس مال مقداره خمسة وسبعون ألف روبل . وأضاف معلقاً ان هذا المبلغ مكتوب لها فى وصية ، فلا داعى الى أن تعده تعويضاً ... أو شيئاً من هذا القبيل ... ولا داعى على كل حال الى ألا يصدّق المرء وألا يغفر هذه الرغبة الانسانية في تخفيف عذاب الضمير ، الخ ، الخ ، الخ .

الخلاصة أن آتانازى ايفانوفتش قال كل ما يحسن أن يقال فى مثل هذه الأحوال .

ولقد تكلم آتانازى ايفانوفتش مدة طويلة ببلاغة وفصاحة ، وأشار عرضاً ـ وهذا أمر هام جداً ـ الى أن هذه هى المرة الأولى التى يجيء فيها على ذكر مبلغ الخمسة وسبعين ألف روبل ، فما من أحد على الاطلاق ، سمع عن هذا قبل الآن ، حتى ولا ايفان فيدوروفتش .

وتكلمت ناستاسيا فيليبوفنا فأذهل جوابها الرجلين .

فلا شيء فيها الآن مما كان يسود كلامها من سخرية وعداوة وكره ، ولا شيء من تلك الضحكة التي كانت ذكراها وحدها تجمِّد توتسكي رعباً ، بالعكس : ان المرء ليحس بأنها تكاد تكون سعيدة من قدرتها أخيراً على أن تجرى مع أحد الناس حديثاً فيه اخلاص وصراحة ، وفيه مودة وصداقة . واعترفت بأنها كانت تتمنى منذ مدة طويلة أن تحصل على نصيحة من صديق ، وأن الكبرياء وحدها هي التي منعتها من طلب النصح حتى الآن . أما وقد تكسَّر الجليد ، فلا شيء يمكن أن يبهجها وأن يسعدها أكثر من ذلك .

لقد بدأت ناستاسيا فيليبوفنا كلامها وهي تبتسم ابتسامة حزينة ، ثم ضحكت من كل قلبها حين قالت انها لن تثير زوبعة كالزوبعة التي أثارتها في الماضي ؛ وانها على كل حال قد غيَّرت رأيها في أمور كثيرة منذ مدة طويلة ، وانها رغم أن قلبها لم يتغير ، لا تملك الا أن تعترف بالأمر الواقع ، فما حدث قد حدث ، وما مضى قد مضى ، حتى انها ليدهشها بقاء هذا الرعب في نفس آتانازي ايفانوفتش الى الآن .

ثم اتجهت بالكلام الى ايفان فيدوروفتش فقالت له ، باحترام عميق ، انها قد سبق أن سمعت عن بناته ، وانها تمحضهن منذ مدة طويلة أصدق الاعتبار وأعمق الاحترام ، وانها لتشعر بسعادة واعتزاز متى تصورت أن في وسعها أن تنفعهن في شيء .

ولقد كان صحيحاً كذلك أن حياتها ، في تلك الآونة ، كانت شاقة كالحة ، كالحةً الى أبعد الحدود . لقد حزر آتانازي ايفانوفتش أحلامها . نعم ، انها تودُّ لو تنبعث ، ان لم يكن بالحب فبالحياة في أسرة مع الشعور بغاية جديدة . لكنها لا تكاد تستطيع مع ذلك أن تقول شيئاً عن موضوع جبريل آرداليونتش . صحيح أنها يبدو لها أنه يحبها ، وصحيح أنها تشعر من جهتها بأنه كان يمكنها أن تحبه لو آمنت بمتانة تعلقه وقوة

ارتباطه ، ولكن حبه صادقاً ، فانه ما يزال شاباً صغيراً ، فمن الصعب اتخاذ قرار • وعلى كل حال ، فان ما يعجبها فيه أكثر من أى شىء آخر هو أنه يعمل وأنه يعول أسرةً بكاملها •

وقد سمعت عنه أنه شاب نشيط ، فعَّال ، عزيز النفس ، ذو أنفة ، طموح ، تواق الى الارتقاء • كما سمعت أن نينا ألكسندروفنا ايفولجينا ، أمَّ جبريل آرداليونتش ، امرأة جديرة بالاعجاب ، خليقة بالاحترام من جميع النواحى ، وأن أخته باربارا آرداليونوفا فتاة نشيطة فعَّالة ممتازة هى أيضاً • لقد كلمها بتسيين كثيراً عنهم ؛ وهى تعرف أن الأسرة كلها تتحمل أنواع الشقاء مرحة متفائلة ؛ وهى تود أن تتعرف الى هذه الأسرة ، ولكن بقى عليها أن تعرف هل تحسن هذه الأسرة استقبالها ، وهل ترحب بها •

الخلاصة أنها على وجه الاجمال لا تعارض فكرة هذا الزواج ، لكنها ترى أن الأمر يستحق مع ذلك تفكيراً جدياً ، فهى تتمنى لهذا ألا تُستحث على الاسراع كثيراً • أما فيما يتعلق بالخمسة وسبعين الف روبل ، فان آتانازى ايفانوفتش قد أخطأ حين تحرج من الكلام عليها • فهى تعرف قيمة المال حق معرفتها ، وهى لذلك تقبل هذه الهدية مغتبطة • وشكرت لآتانازى ايفانوفتش أيضاً أنه كان رقيق الشعور فلم يقل عن هذا الأمر كلمةً واحدة لا للجنرال ولا لجبريل آرداليونتش • ولكنها تساءلت لماذا لا يُطلعَ جبريل على ذلك سلفاً هو أيضاً ؟ فانها لن تشعر بأى خجل من هذا المال حين تصبح عضواً فى الأسرة • ثم انها لا تنتوى أن تعتذر لأى انسان عن أى شىء ، وتحرص على أن يُعرف هذا • وهى لن تقبل أن تتزوج جبريل آرداليونتش الا حين تقتنع بأنه لا يضمر أية فكرة سيئة عنها ، لا هو ولا أسرته • ومهما يكن من أمر ، فهى لا تشعر بأنها آثمة فى شىء ، وهى تود أن يطلع جبريل آرداليونتش على ظروف حياتها أثناء

هذه السنين الخمس بمدينة بطرسبرج ، وعلى صلاتها بآتانازى ايفانوفتش، وعلى الثروة التى استطاعت أن تجنيها ؟ وهى أخيراً ان قبلت هذا المال ، فلا تقبله ثمناً لعارها الذى لا تحس أنها مسئولة عنه ، وانما تقبله تعويضاً عن تحطيم حياتها .

وقد بلغت من الحماسة والحرارة والحميّا أثناء تدفق لسانها بهذا الكلام كله (وذلك طبيعى جداً على كل حال) أن الجنرال ايبانتشين شعر بارتياح كبير ، واعتبر القضية منتهية . أما توتسكى ، المروّع المذعور الى الآن ، فانه لم يصدّق هذا الكلام تصديقاً تاماً ، وظل يخشى أن يكون تحت الأزهار أفعى .

ومع ذلك بدأت المباحثات بين الصديقين . فكانت النقطة التى تعتمد عليها حيلتهما ، أعنى امكان أن تتوله ناستاسيا فيليبوفنا بحب جانيا ، كانت هذه النقطة تتوضح وتتأكد شيئاً بعد شىء ، حتى ان توتسكى نفسه كان يصل فى بعض الأحيان الى الاعتقاد بحظ من النجاح . وفى أثناء ذلك جرى حديث بين ناستاسيا فيليبوفنا وبين جانيا ، حديث لم يتبادلا فيه الا كلاماً قليلاً ، فكأن حياء ناستاسيا وخفرها كانا يصدانها عن الكلام ؟ ومع ذلك قبلت حبه وارتضته ، لكنها أصرّت على أن تعلن له أنها لا تريد أن ترتبط بأى عهد ، وأنها الى أن يتم الزواج (اذا هو تم) تحتفظ لنفسها بحرية أن تقول : « لا » ، حتى آخر لحظة ؟ ومنحت جانيا هذه الحرية نفسها على كل حال .

وسرعان ما علم جانيا علم اليقين ، بفضل مصادفة مواتية، أن اعتراض أسرته كلها على هذا الزواج ، واعتراضها على شخص ناستاسيا فيليبوفنا نفسها ، وهو اعتراض كانت تفضحه مشاجرات متكررة ، كانت ناستاسيا فيليبوفنا تعرفه بجميع تفاصيله . ومع ذلك لم تكلمه عنه فى يوم من الأيام ، مع أنه كان يتوقع أن تفاتحه فيه كلّ يوم .

على أن هنـاك أشياء كثيرة أخـرى ينبغى أن نقـولها عن الظروف والأحداث التى أثارها مشروع الزواج هذا ، والتى أثارتها المباحثات بين الصديقين ، ولكننا قد استبقنا منذ الآن أموراً كثيرة ، لا سيما وأن بعض الظروف لم تكن تبدو فى ذلك الأوان الا شائعات غامضة جداً .

من ذلك ما قيل من أن توتسكي قد علم ، لا أدرى من أين ، أن ناستاسيا فيليبوفنا أصبحت لها علاقات سرية غير محدَّدة المعالم ولا واضحة الغايات بالآنسات ايبانتشين ؛ وهى شائعة لا يمكن أن يصدقها العقل . وفى مقابل هذا صدَّق توتسكي رغم ارادته شائعة أخرى أخذت تسبب له فى الليل احلاما ثقيلة وكوابيس مرهقـة : لقد أكد له بعضهم أن ناسـتاسيا فيليبوفنا كانت على علم كامل بأن جانيا لن يتزوجها الا فى سـبيل المال وحده ، وانه امرؤ حقير النفس، أسود القلب ، شديد الطمع ، قليل الصبر، حسود ، لا يحب الا نفسـه ، ولا يسـعى الا وراء مصلحته ؛ وقيل ان ناستاسيا قد علمت كذلك أن جانيا ان كان قد سعى الى الظفر بها فى الماضى عاشقاً مولَّهاً ، فانه منذ اليوم الذى قرر فيه الصـديقان أن يستغلا غرامه لمصلحتها ببيعه ناستاسيا فيليبوفنا زوجةً شرعية له ، قد أخذ يكرهها كرهاً شديداً ويبغضها بغضاً قوياً فكأنها جاثوم أو كابوس ؛ ثم اختلطت الشهوة والكراهية فى نفسه اختلاطاً عجيباً ، حتى اذا قرر أخيراً ، بعد تردد طويل أليم ، أن يتزوج هذه « المرأة الفاسدة » ، كان فى قرارة نفسه قد حلف لينتقمنَّ منها شرَّ انتقام ، وليجعلنَّها تدفع ثمن ذلك كله غالياً باهظاً . وقيل ان ناستاسـيا فيليبوفنا كانت على علم بكل شىء ، وانها كانت تدبِّر فى الخفاء أمراً .

وقد بلغ توتسـكى من الخـوف أنه أصبح لا يطلع ايبانتشـين على هواجسـه وعلى ما يحس به من نذر الشـؤم . ومع ذلك كان فى بعض اللحظات يسترد رباطة جأشه ويستعيد تفاؤله ونشاطه وانتعاشه ، كما يقع

هذا لكل انسان . ذلك ما حدث له ، مثلاً ، حين وعدت ناستاسيا فيليبوفنا اصدقاءها أخيراً بأن تعلن لهم كلمتها الأخيرة في مساء الاحتفال بعيد ميلادها .

غير أن هناك شائعة أخرى هي أغرب الشائعات وأبعدها عن أن يصدقها العقل ، شائعة تتعلق بالمحترم ايفان فيدوروفتش نفسه ، كانت تتأكد شيئاً بعد شيء وا أسفاه !

كان ذلك كله يبدو من النظرة الأولى جنوناً محضاً . لقد كان من الصعب على المرء أن يصدق أن رجلاً مثل ايفان فيدوروفتش ، يمكنه في ختام حياته المشرفة الكريمة ، مع ما يملكه من سلامة الحس ورجاحة العقل وسعة التجربة وغنى الخبرة وما الى ذلك ، أن يقع هو نفسه في غرام ناستاسيا فيليبوفنا ، وأن تبلغ نزوته هذه حداً يشبه أن يكون حد الوله العنيف والهوى الجارف . ماذا كان يأمل ؟ ان من الصعب على المرء أن يجيب عن هذا السؤال . ولعل ايفان فيدوروفتش كان يعول على على التواطؤ مع جانيا . ولقد كان توتسكى ، على كل حال ، يشتبه في وجود نوع من الاتفاق المضمر بين الجنرال وجانيا ، وهو اتفاق قائم على فهم متبادل . ومن المعروف أن الرجل الذى يستسلم لهوى جارف ، ولا سيما اذا كان متقدماً فى السن ، قد يعمى عماوة كاملة ، فاذا هو يرى أملاً حيث لا أمل ، واذا هو يفقد سداد الرأى وصدق الحكم فقداً تاماً ، واذا هو يتصرف تصرف صبى غر مهما يكن عظيم الذكاء !

كان معروفاً أن الجنرال قد هيأ لعيد ميلاد ناستاسيا فليبوفنا عقداً من اللؤلؤ كلفه مبلغاً ضخماً ، وانه كان يعول على هذه الهدية كثيراً ، رغم علمه بأن ناستاسيا فيليبوفنا امرأة زاهدة فى المنفعة . وكان فى عشية عيد الميلاد محموماً من شدة الاضطراب ، ولكنه استطاع أن يحسن اخفاء عواطفه بحذق وبراعة .

وعن ذلك العقد من اللؤلؤ انما كانت الجنرالة ايبانتشين قد سمعت الناس يتحدثون !

صحيح أن اليزابت بروكوفيفنا قد استطاعت منذ مدة طويلة أن تدرك خفة زوجها وطيشه ، حتى لقد ألفت فيه هذه الخفة وهذا الطيش واعتادت عليهما بعض الاعتياد . ولكن لم يكن في وسعها طبعاً أن تدع لحادث خطير كهذا الحادث أن يتم . ان حكاية اللؤلؤ هذه تهمها الى أبعد حد . وقد أدرك الجنرال الأمر في الوقت المناسب . انه منذ الليلة البارحة قد سمع بضع كلمات ذات دلالة ، وهو يوجس أن مناقشة حاسمة ستقوم اليوم .

لهذا السبب كان الجنرال ، في هذا الصباح الذى تبدأ فيه قصتنا ، لا يشعر بأى رغبة في أن يتناول طعام الافطار مع الأسرة . ولذلك كان قد قرر ، حتى قبل وصول الأمير ، أن ينصرف من البيت بحجة العمل. وكانت كلمة « الانصراف » تعنى عند الجنرال في بعض الأحيان «الفرار» !

كان لا يطمع في أكثر من أن يقضى النهار ، ولا سيما السهرة ، بدون حادث ينغّص عليه صفوه .

وفجأة وصل الأمير في هذا الوقت المناسب .

قال الجنرال لنفسه وهو يدخل على زوجته : « الله أرسله » !...

الفصل الخامس

كانت الجنرالة شديدة الاعتزاز بنبل محتدها . ففى وسعك أن تتخيل انفعالها حين علمت ، دون أى تمهيد ، ان ذلك الأمير ميشكين نفسه ، الرجل الأخير من سلالة أسرتها ، الذى سبق أن سمعت عنه أشياء غامضة ، ليس الا شاباً مسكيناً أبله ، يكاد يكون معوزاً ، ويضطره فقره الى قبول مساعدة أو معونة . وقد حرص الجنرال على أن يوقظ فى نفس زوجته انفعالاً قوياً وأن يبعث فيها اهتماماً شديداً ، ليصرفها عن الموضوع الذى كان يشغل بالها ، ويتحاشى بذلك أن تخوض فى موضوع عقد اللؤلؤ .

حين تكون الجنرالة فى حالات قصوى ، فانها تحملق بعينيها ، وترد جسمها الى وراء ، وتأخذ تنظر الى أمام زائغة الهيئة لا تقول كلمة واحدة .

هى امرأة فارعة القوام ؛ فى سن زوجها ؛ شعرها أسمر قد ملأه الشيب لكنه ما يزال كثيفاً ؛ أنفها محدودب قليلاً ؛ وجهها ضامر نحيل أصفر ؛ خداها خاسفتان ؛ شفتاها رقيقتان منضمتان ؛ جبينها عال لكنه ضيق ؛ عيناها شهباوان واسعتان لهما فى بعض الأحيان تعبير لا يتوقعه المرء البتة . وقد ألفت منذ القديم أن تعتقد أن لنظرتها تأثيراً كبيراً ، ثم بقيت لها هذه القناعة الى الأبد .

ـ أن أستقبله ؟ تريد منى أن أستقبله الآن ؟ فوراً ؟

كذلك قالت الجنرالة محملقةً بكل ما أوتيت من قوة ، محدقةً الى ايفان فيدوروفتش النشيط الذى كان يتحرك حولها •

أسرع الزوج يجيبها موضحاً :

ـ لا حاجة بك الى كثير من الاحتفال ومن التقيد بالمراسم معه ، اذا كنت تريدين أن تريه يا عزيزتى • انه لطفل حقاً ، بل انه ليثير بعض الشفقة • انه مصاب بنوبات مرض لا أدرى ما هو ! لقد وصل الآن من سويسرا مرتدياً ثياباً غريبة كأنها على الزى الألمانى ، وليس معه قرش واحد ، حتى ليكاد يذرف دموعاً • أعطيته خمسة وعشرين روبلاً ، وآمل أن أجد له عملاً كتابياً صغيراً !•• وأرجوكن ، يا سيداتى ، أن تطعمنه، فانه ليخيل الىَّ أنه فوق ذلك جائع جداً •••

تابعت الجنرالة كلامها تقول بتلك اللهجة نفسها :

ـ انك لتدهشنى ! جائع وذو نوبات ؟ نوبات ماذا ؟

ـ أوه ! النوبات لا يصاب بها فى أحيان كثيرة ؛ ثم انه يكاد يكون طفلاً ، رغم أنه مثقف •

قال الجنرال ذلك ثم التفت نحو بناته مرة أخرى وأضاف :

ـ نويت يا سيداتى أن أجرى له امتحاناً صغيراً • ليس ضاراً أن نعرف ما هو عليه قادر •

قالت الجنرالة متحيِّرة أعمق التحير ، وهى لا تنفك تجيل عينيها متنقلةً بهما من زوجها الى بناتها ومن بناتها الى زوجها :

ـ امـ •• تـ •• حا •• ن ؟

ـ آه ••• عزيزتى ••• لا تولى هذا الأمر شأناً كبيراً ، ولا تقيمى

له أي وزن ! الخلاصة : افعلي ما يحلو لك • لقد قام في ذهني أن أستقبله استقبالاً لطيفاً ، وأن أدخله الى الأسرة ، لأن ذلك بدا لي عملاً حسناً وفعلاً طيباً •

ـ أن تدخله الينا ؟ آت من سويسرا ؟•••

ـ ما قيمة أن يكون آتياً من سويسرا ؟ على كل حال ، لن يكون الا ما تريدين • ولئن تكلمت في هذا الأمر ، فلأن الشاب يحمل اسم أسرتك ، وقد يكون قريباً لك ؟ هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فانه لا يعرف حقاً أين يمكنه أن يوسّد رأسه • حتى لقد اعتقدت أن أمره سيعنيك بعض الشيء ، لأنه واحد من السلالة على كل حال •

قالت البنت الكبرى ، الكسندرا :

ـ طبعاً يا ماما ، اذا كان في وسعنا أن نستقبله بلا احتفال أو كلفة أو تقيد بالمراسم ، وما دام جائعاً بعد رحلة طويلة ذلك الطول ، فلماذا لا ندعوه الى أن يطعم معنا ؟ لا سيما اذا كان لا يعرف الى أين يذهب ••

ـ وهو فوق ذلك طفل حقيقي فيما يبدو ، حتى ليمكن أن يلعب المرء لعبة « كولان مايار » !•••

ـ لعبة « كولان مايار » ؟ ما هذا الكلام ؟

قاطعتها آجلايا تقول بشيء من الحزن :

ـ أو ! ماما ! كفاك تظاهراً ، أرجوك •••

فلم تستطع البنت الثانية ، ذات الطبع الضاحك ، أن تكظم مرحها ، فاذا هي تنفجر مقهقهة •

وقالت آجلايا جازمة :

ـ أرسل اليه أن يجيء يا بابا •

فرنّ الجنرال الجرس وأصدر أمره بادخال الأمير ٠

قالت الجنرالة بحزم :

ـ ولكن على شرط أن نعقد حول عنقه منشفة حين يجلس الى المائدة ٠ نادوا فيدور أو نادوا مافرا ليكون أحد وراءه يراقبه اثناء تناوله الطعام ٠ أهو هادىء على الأقل حين توافيه تلك النوبات ؟ ألا يحرّك يديه باشارات ؟

ـ بالعكس ٠٠٠ انه مهذّب لطيف يتقن آداب المجتمع ويتقيد بهاء كل ما هنالك أنه قد يكون بسيطاً ساذجاً في بعض الأحيان ٠ ها هو ذا بنفسه على كل حال ! أقدم اليك الأمير ميشكين ، آخر من يحمل اسم هذه السلالة ، ولعله قريب لنا ، فاستقبليه بما يجب له من عاطفة ٠ سيهيأ الافطار يا أمير ، فشرّفنا بأن ٠٠٠ أما أنا فأرجوك أن تعذرني ٠٠٠ لأنني مستعجل جداً ، حتى لقد تأخرت ٠٠٠

قالت الجنرالة بهيئة وقور :

ـ لا نجهل المكان الذي تستعجل الذهاب اليه !

ـ مستعجل جداً ، مستعجل جداً يا عزيزتي ، حتى لقد تأخرت ! ناولنه دفاتركنّ ، يا سيداتي ، ليكتب لكن شيئاً ٠٠٠ انه خطاط ذو موهبة نادرة ! موهبة ! لقد خطّ لي منذ برهة في مكتبي عبارة : « ان المطران بافنوس قد مهر هذا بتوقيعه » ٠٠٠ الى اللقاء ، الى اللقاء !

قالت الجنرالة :

ـ بافنوس ؟ مطران ؟

وبينما كان زوجها يتقهقر الى وراء ، صرخت تقول ملحةً محتدةً احتداداً متزايداً يشوبه قلق :

ـ انتظر ! انتظر ! الى أين أنت ذاهب ؟ من هو بافنوس هذا ؟

ـ نعم نعم يا عزيزتى ، كان فى الزمان القديم مطران بهذا الاسم .. ولكن الكونت ينتظرنى منذ مدة طويلة ، وهو الذى حدّد لى الساعة . يا أمير ، الى لقاء قريب ...

وانسحب الجنرال مسرعاً أشد الاسراع .

قالت اليزابت بروكوفيفنا مغتاظة وهى تنقل نظرتها الحانقة نحو الأمير :

ـ أنا أعرف أى كونت يعنى !

ثم أضافت تقول محاولةً أن تتذكر وقد لاح فى وجهها تبرم واحتقار :

ـ هيه ! ما هى المسألة ؟ آ ... نعم ... من هو ذلك المطران ؟

حاولت ألكسندرا أن تتدخل (بينما كانت آجلايا تخبط بقدمها الأرض نافذة الصبر) فقالت :

ـ ماما !

فقالت الجنرالة جازمة :

ـ لا تقاطعينى يا ألكسندرا ! أنا أيضاً أريد أن أعرف ! اجلس هنا يا أمير ، على الكرسى الذى يقع قبالتى .. لا بل اجلس هنا ، فى الشمس؛ اقترب من الضوء لأراك رؤية أوضح . طيب ... والآن حدثنى عن ذلك المطران !...

بدأ الأمير يتكلم وقد ظهر فى وجهه الانتباه والجد :

ـ هو المطران بافنوس ...

ـ بافنوس ؟ عجيب ... هيه ... ثم ماذا ؟

كانت الجنرالة تلقى هذه الأسئلة نافدة الصبر دون أن تحوّل عنه بصرها ، وكانت تصاحب كل كلمة من كلمات جواب الأمير بهزّة من رأسها .

قال الأمير :

ـ عاش المطران بافنوس فى القرن الرابع عشر ، وكان يرأس صومعة للنسك على نهر الفولجا فى الاقليم الذى يسمى الآن اقليم كوستروما . وقد اشتهر بحياته التقية الورعة ، وذهب مراراً الى بلاد التتار لحل أمور مختلفة . ففى مناسبة من تلك المناسبات ذيّل احدى الوثائق بتوقيعه ، وقد رأيت أنا نسخةً منها ، فأعجبنى الخط ، فتعلمت محاكاته . ومنذ قليل حين أراد الجنرال أن يرى خطى ليجد لى عملاً ، كتبت عدة عبارات بأحرف مختلفة ، فكانت احدى هذه العبارات : « ان المطران بافنوس قد وقّع هذا بخط يده » ، وقد كتبتها على طريقة بافنوس فى الخط ، فأعجب الجنرال بها كثيراً ، والى هذا انما أشار منذ هنيهة .

قالت الجنرالة :

ـ يا آجلايا ، تذكرى : بافنوس ؟ بل سجلى ، فأنا أنسى كل شىء . لكنى أعترف بأننى كنت أتوقع شيئاً أهمَّ من هذا . أين ذلك التوقيع ؟

ـ أظن أنه بقى على المنضدة فى مكتب الأمير .

ـ هاتونى به حالاً .

ـ لكننى أستطيع أن أخطه لك مرةً أخرى اذا شئت .

قالت ألكسندرا :

ـ طبعاً يا ماما ؛ والأفضل أن نأكل الآن ، فاننا جميعاً جياع .

قالت الجنرالة :

ـ طيب • تعال يا أمير : أأنت جائع جداً ؟

ـ نعم ، بدأت أشعر الآن بجوع ؛ وانى لأشكرك أجزل الشكر •

ـ حسن جداً أنك مؤدب مهذب ؛ وانى لألاحظ أنك لست غريباً الى الحد الذى أرادوا أن يصلوا اليه فى تصوير غرابتك • تعال ، اجلس هنا ، قبالتى ، لأستطيع أن أنظر اليك (كذلك قالت له متحركة منشغلة مهتمة ، حين صاروا جميعاً فى قاعة الطعام) • ألكسندرا ، آديلائيد ، اهتما بالأمير ؟ ألا تريان أنه ليس مريضاً الى الحد الذى ••• ؟ ربما كنا فى غير حاجة الى المنشفة • قل لى يا أمير : هل كانوا يعقدون منشفة حول رقبتك ؟

ـ نعم ، أظن ، فى الماضى ، حين كان عمرى سبع سنين • أما الآن فقد تعودت أن أضع المنشفة على ركبتى •

ـ هذا ما يجب • ونوباتك ؟

قال الأمير مدهوشاً بعض الدهشة :

ـ نوباتى ؟ أصبحت الآن نادرة • مع ذلك ••• لا أدرى ! يقال ان المناخ هنا لن يكون مناسباً لحالتى الصحية •

قالت الجنرالة مخاطبةً بناتها وهى ما تزال تصاحب كل كلمة من كلمات الأمير بهزة من رأسها :

ـ انه يجيد الكلام • لم أكن أتوقع ذلك • اذن لم يكن كل ما قيل الا أكاذيب وترهات باطلة ، كالعادة !

ثم عادت تخاطب الأمير فقالت له :

ـ كُلْ يا أمير ، وقصّ علينا أين وُلدت وأين نشأت وترعرعت وتربيت • أريد أن أعرف كل شىء • ان أمرك يهمنى كثيراً •

شكرها الأمير ، وأخذ يكرر ما سبق أن رواه مراراً في تلك الصبيحة من النهار ... أخذ يكرره وهو يأكل بشهية كبيرة ..

ازداد ارتياح الجنرالة ورضاها شيئاً بعد شيء . وكانت البنات أيضاً تصغي الى حديث الأمير بانتباه . واستُعرضت القرابة ، فاتضح أن الأمير يعرف شجرة النسب معرفة جيدة ، ولكنهم رغم جميع الجهود لم يتمكنوا من العثور على أي قرابة تربط الأمير بالجنرالة . كل ما هنالك أنهم يستطيعون أن يتصوروا أن قد كان بين الأسلاف الأبعدين قرابة غامضة كالقرابة التي تكون بين أبناء الأعمام . وقد سُرَّت الجنرالة كثيراً بالخوض في هذا الموضوع الصعب ، لأنها رغم كل رغبتها ، قلَّما أُتيح لها قبل اليوم أن تتحدث عن أجدادها ، لذلك نهضت عن المائدة منتعشة انتعاشاً كبيراً .

قالت :

ـ الأفضل أن نمضي الى قاعة الاجتماع ، فستحمل القهوة الينا هناك .

وأضافت تشرح للأمير وهي تجرُّه :

ـ هي غرفة مشتركة لنا جميعاً ، بل قل هي صالوني الصغير الذي نجتمع فيه حين نكون وحيدات ، وتكون كل واحدة منا منصرفة الى شئونها : فابنتي الكبرى ، الكسندرا ، تعزف على البيانو أو تقرأ أو تخيط ؛ وابنتي آديلائيد ترسم مناظر طبيعية أو وجوهاً انسانية (دون أن تنهي أي شيء في يوم من الأيام) ؛ أما آجلايا فانها لا تعمل شيئاً البتة . وأنا أيضاً يسقط الشغل من بين يدي ، ولا أفلح في انجاز شيء . ها نحن أولاء وصلنا . اجلس يا أمير ، قرب المدفأة ، واقصص علينا . أريد أن أعرف كيف تحكي . أريد أن أتأكد من ذلك ، فاذا رأيت الأميرة العجوز بيلوكونسكايا حدثتها عنك . أريد أن تثير اهتمام الجميع . فهيا تكلم !

قالت آديلائيد التي كانت في أثناء ذلك قد ركزت حاملة لوحاتها وتناولت فراشيها وصحن ألوانها وأخذت تنقل عن صورة مطبوعة منظراً طبيعياً كانت قد بدأت تصويره منذ مدة طويلة ، قالت :

ـ ماما ، يصعب على الانسان كثيراً أن يحكي ويقص في ظروف كهذه الظروف التي تحيطين بها الأمير .

وجلست الكسندرا وآجلايا احداهما الى جانب الأخرى على أريكة صغيرة ، وقد عقدت كل منهما يديها على صدرها ، واستعدت للاصغاء الى الحديث . ولاحظ الأمير أن انتباه الجميع منصرف اليه منصب عليه .

قالت آجلايا :

ـ ما كنت لأحكي شيئاً أو لأقص شيئاً لو أُمرت بهذا أمراً على هذا النحو .

ـ فقالت الجنرالة :

ـ لماذا ؟ أي شيء خارق في هذا ؟ ما عسى يمنعه من الكلام ؟ ان له لساناً . أريد أن أعرف كيف يجيد الحديث . اقصص ما تشاء . قل لنا هل أعجبتك سويسرا ، صِفْ لنا انطباعك الأول هناك . سوف ترين : انه سيبدأ ، وسيجيد الحديث أيما اجادة .

بدأ الأمير الكلام فقال :

ـ كان انطباعي الأول قوياً جداً ...

فقاطعته الجنرالة النافدة الصبر ، متلفتةً الى بناتها قائلة لهن :

ـ هل رأيتن ؟ هل رأيتن ؟ لقد بدأ ...

فأوقفتها ألكسندرا قائلة :

ـ دعيه يتكلم على الأقل يا ماما !

وهمست تقول لأختها آجلايا :

ـ قد يكون هذا الأمير مكاراً كبيراً ، لا أبله البتة !

فأجابتها آجلايا تقول :

ـ هذه حقيقة أكيدة لاحظتها منذ مدة . وانها لدناءة منه أن يمثل دور الأبله . هل يظن أنه يجنى من ذلك نفعاً ما ؟

استأنف الأمير كلامه فقال :

ـ كان انطباعي الأول قوياً جداً . حين أخذوني من روسيا واجتزنا مدناً ألمانية ، كنت لا أزيد على أن أنظر صامتاً ، وكنت لا ألقى أى سؤال (ما زلت أذكر هذا) وقد حدث ذلك في أعقاب نوبات من مرضى عنيفة جداً أليمة جداً . وقد ألفت ، في أوان النوبات ، حين يكثر تعاقبها ، أن أُصبح في حالة انصعاق ، فأفقد ذاكرتى فقداناً تاماً ، وينقطع مجرى المنطق في أفكارى ، (رغم أن فكرى يظل يعمل) فلا يتسلسل في ذهني أكثر من فكرتين أو ثلاث . أو ذلك هو على كل حال الانطباع الذى بقى في نفسى . حتى اذا هدأت النوبة رجعت سليماً معافى ، قوياً كقوتى الآن.

« أذكر أنني أحسست حينذاك بحزن لا يطاق ، حتى لقد استبدت بى رغبة في البكاء . كنت لا أزيد على أن أشعر بدهشة وقلق . لقد فجأنى كثيراً أن كل شيء حولى كان أجنبياً. نعم، لقد أصبحت في «الخارج». فهمت ذلك . ان هذا « الخارج » كله يهوى بى الى قاع الحزن واليأس . ثم لم أخرج من تلك الظلمات خروجاً كاملاً ـ ما زلت أذكر هذا ـ الا في المساء ، بمدينة بال ، عند وصولنا الى سويسرا . وان نهقة حمار في ميدان السوق هى التى أيقظتنى من انصعاقى . لقد أثرت نهقة الحمار في نفسى تأثيراً قوياً ، وأعجبتنى اعجاباً شديداً ، لا أدرى لماذا ؟ وفي الوقت نفسه كان كل شيء في رأسى يضيء ... » .

قالت الجنرالة :

ـ حمار ؟ غريب ••• ولكن لا ••• لا غرابة • ان بيننا نحن معشر النساء من يقعن في غرام حمار •

أضافت الجنرالة هذه الجملة الأخيرة ، وهي تنظر شبه غاضبة الى الفتيات ، اللواتي كن يضحكن • وأردفت تقول :

ـ وذلك شيء تكلمت عنه أساطير اليونان الأقدمين • أكمل كلامك يا أمير •

تابع الأمير حديثه فقال :

ـ ومنذ ذلك الوقت أصبحت أحب الحمير حباً عظيماً • أصبح هذا عندي عاطفة حقيقية صادقة • وأخذت أجمع معلومات عن الحمير • لم أكن قد رأيت حماراً قبل ذلك اليوم ؟ وسرعان ما عرفت أن الحمار حيوان مفيد جداً ، وأنه قوي نشيط صبور قنوع ذو مقاومة وجلد • وبواسطة هذا الحمار أخذت سويسرا كلها تعجبني ، فأنهى ذلك حزني •

ـ هذا كله غريب حقاً ، ولكن دعنا ••• ولننتقل الى موضوع آخر • ما الذي يضحكك يا آجلايا ، وأنت يا آديلائيد ؟ لقد تحدث الأمير عن الحمار فأجاد الحديث • هو رآه بنفسه ، فماذا رأيت أنت ؟ أنت لم تسافري يوماً الى الخارج •

قالت آديلائيد :

ـ سبق أن رأيت حماراً يا ماما !

وأضافت آجلايا :

ـ وأنا قد سمعت حماراً •

وأخذت البنات الثلاث تضحك • وضحك الأمير أيضاً •

قالت الجنرالة :

ـ هذا منكن شر وسوء ! اعذرهن يا أمير ، فانهن بنات طيبات القلب ، وانى لأشاجرهن دائماً ، لكننى أحبهن • هن طائشات العقل مجنونات !•••

قال الأمير ضاحكاً :

ـ لماذا ؟ لو كنت فى مكانهن لما فوتُّ الفرصة أيضاً • على كل حال، أنا أعشق الحمار : الحمار شخص طيب مفيد •

قالت الجنرالة :

ـ وأنت يا أمير ، هل أنت طيب ؟ أسألك عن هذا من باب حب الاطلاع •

وأخذ الجميع يضحكون من جديد •

وهتفت الجنرالة تقول :

ـ أنا أقصد ذلك الحمار اللعين ، ولم يخطر الأمير ببالى • ثق يا أمير اننى لم أعقد أى •••

ـ مقارنة ؟

هكذا ساعدها الأمير فى اتمام جملتها ، وأضاف يقول وهو ما يزال يضحك :

ـ لم يساورنى أى شك فى هذا !

قالت الجنرالة :

ـ حسن جداً أنك تضحك • اننى أدرك من هذا أنك شاب طيب جداً •

أجاب الأمير :

ـ يتفق لى ألا أكون كذلك !

قالت الجنرالة على نحو غير متوقع :

ـ وأنا أيضاً طيبة ؟ بل قل ان شئت اننى طيبة دائماً ، وذلك عيبى الوحيد ، لأن على الانسان ألا يكون طيباً على الدوام • اننى كثيراً ماأغضب منهن ، ومن ايفان فيدوروفتش خاصةً ، ولكن المؤسف المحزن هو أننى لا أكون فى لحظة من اللحظات طيبةً كطيبتى أثناء الغضب ! منذ برهة ، قبل وصولك ، كنت قد غضبت فتظاهرت بأننى لا أفهم شيئاً • ذلك يحدث لى أحياناً كما يحدث للأطفال • لقد لقنتنى آجلايا درساً • شكراً لك على هذا الدرس يا آجلايا • على كل حال ، ما أسخف هذا كله ! ترهات فى ترهات !••• ما أنا بالغبية الى الحد الذى يبدو علىّ ، أو الى الحد الذى تريد أن توهم به بناتى • ان لى ارادة قوية وعزيمة صلبة ، ولست أتحرج كثيراً • تعالى الى هنا يا آجلايا وقبّلينى •••

ثم قالت الجنرالة حين قبّلتها آجلايا على شفتيها ويدها بكثير من العاطفة :

ـ وكفاك عواطف سخيفة !

ثم التفتت الى الأمير تقول له :

ـ واصل حديثك يا أمير • قد تتذكر شيئاً يشوق الحديثُ عنه أكثر مما يشوق الحديثُ عن ذلك الحمار !

قالت آجلايا :

ـ ما زلت لا أفهم كيف يستطيع المرء أن يحكى شيئاً على هذا النحو• لو طلب الىّ ما يُطلب اليه لما وجدت شيئاً أقوله •

ـ ولكن الأمير سيجد ما يقوله ، لأن الأمير ذكى الى أبعد حدود

الذكاء ؛ هو أذكى منك عشر مرات على الأقل ، أو اثنتى عشرة مـرة • أرجـو أن تدركى هذا من الآن • برهن لهن على صحـة قولى يا أمير ، وأكمل • أما الحمار فنستطيع فعلاً أن ندعه الآن وشأنه • هيه ، ماذا رأيت فى الخارج ، عدا ذلك الحمار ؟

قالت ألكسندرا :

ـ كان الحديث عن الحمار ذكياً جداً كذلك • لقد وصف لنا الأمير حالته المرضية وصفاً شائقاً ، وذكر لنا كيف استرد حبه للأشياء على أثر صدمة خارجية• لقد طالما اشتقت أن أعرف كيف يفقد الانسان عقله وكيف يمكن أن يسترده ، ولا سيما حين يتم ذلك على نحو مباغت !

صاحت الجنرالة تقول :

ـ أليس كذلك ؟ أليس كذلك ؟ أرى الآن أنه يتفق لك أيضاً أن تكونى ذكية فى بعض الأحيان • والآن كفى ضحكاً ! أظن يا أمير أنك توقفت عن الكلام حين وصلت الى وصف الطبيعة السويسرية ، فماذا عن الطبيعة بسويسرا ؟

قال الأمير :

ـ وصلنا الى لوسيرن ، وقادونى فى نزهة على البحيرة • كنت أحس أن هذا جميل ، ومع ذلك كنت منقبض الصدر •

سألت ألكسندرا :

ـ لماذا ؟

فأجاب الأمير :

ـ أنا نفسى لا أفهم علة ذلك • انى أشعر دائماً بانقباض فى صدرى،

وتمتلىء نفسى قلقاً حين أرى منظراً من هذا النوع أول مرة . على كل حال ، كان هذا يحدث أيام كنت ما أزال مريضاً ...

ـ أما أنا فكان يسعدنى أن أرى ذلك كله . انى لأتساءل هل سنعزم أمرنا على السفر الى الخارج فى يوم من الأيام . لقد أصبحت منذ عامين لا أجد موضوعاً للوحة ٍ أرسمها :

« وُصف الجنوب والمشرق منذ زمن طويل ... » * .

يا أمير ، هلاّ وجدت لى موضوع لوحة ارسمها !

قال الأمير :

ـ لست فى هذا المجال على شىء من خبرة . يخيَّل الىَّ أنه ليس على الرسام الا أن ينظر ويرسم .

ـ أنا لا أُحسن النظر .

قاطعتهما الجنرالة قائلة :

ـ ما بالكما تتكلمان فى ألغاز ؟ لست أفهم مما تقولان شيئاً ! ما هذا الذى تزعمينه ؟ « لست أحسن النظر » ! ان لك عينين فما عليك اذن الا أن تنظرى ! واذا لم تستطيعى أن تنظرى هنا ، فلن تتعلمى فى الخارج أن تنظرى . الأفضل أن تقول لنا يا أمير كيف كنت تنظر أنت ؟

قالت آديلائيد :

ـ هذا أفضل . ان الأمير قد تعلم فى الخارج كيف يحسن النظر !

ـ لا أدرى كثيراً ! أنا لم أزد هنالك على أن أسترد صحتى. لا أدرى هل تعلمت أن أنظر . على كل حال ، كنت سعيداً طوال الوقت !

هتفت آجلايا :

ـ كنت سعيداً ؟ أنت تعرف كيف تكون سعيداً ؟ فكيف تستطيع أن

تقـول اذن انك لم تتعلم أن تنظر ؟ لا بد أن تكون قادراً على أن تعلمنـا ما تعلمت !

قالت آديلائيد وهي ما تزال تضحك :

ـ نعم ، علـّمنا ما تعلمت !

قال الأمير وهو يشاركهن الضحك :

ـ لا أستطيع أن أعلـّم أحداً شيئاً • انني طوال الوقت الذى قضيته فى الخارج تقريباً ، قد عشت فى تلك القرية السويسرية الصـغيرة ، ولم أكن أتركها الا فى القليل النادر لأقوم برحلة قصيرة • فماذا أستطيع أن أعلمكن ؟ كل ما ظفرت به فى البداية هو أننى استطعت ألا أشعر بملل وسأم • وتحسنت صحتى تحسناً سريعاً • وبعد ذلك أصبح كل يوم من الأيام ثميناً فى نظرى ، أثمن فأثمن ، وكنت أدرك ذلك ادراكاً تاماً • كنت أرقد فى المساء سعيداً جداً ، وأستيقظ فى الصـباح أشـد سـعادة أيضاً • أما سبب ذلك فأمر لا أدرى كيف أعبـّر عنه !

سألته ألكسندرا :

ـ هل بلغت من السعادة أنك أصبحت لا تتوق الى شىء فى غير ذلك المكان ؟

ـ بلى ! فى البداية شعرت بذلك النوع من النداء ، فكنت أحس من ذلك بقلق وغم • كنت أفكـّر فى المستقبل ، وأتمنى أن أستشرف مصيرى• وكنت فى بعض اللحظات اضطرب اضطراباً كبيراً • ان هناك لحظات من هذا النوع كما تعلمين ، ولا سيما فى العزلة • كان فى تلك القرية الصغيرة شلال صغير نحيل يشبه أن يكون خيطاً من ماء ، يسقط من علو شاهق ، ويكاد يكون عمودياً ، وهو أبيض مزبد مرغٍ صاخب • انه يسقط من علو شاهق جداً ، ولكن المرء لا يشعر بالارتفاع الذى يسقط منه • ان

المسافة تبلغ نصف فرسخ علواً ، ولكن المرء يحسبها خمسين خطوة . كنت أحب أن اسمع صوت سقوط الماء ليـلاً . وفي تلك اللحظات انمـا كان يزداد اضطرابي .

« وفي بعض الأحيان أيضاً ، أثناء النهار ، على مكان ما من الجبل ، كنت أتوقف وحيداً بعد صعود طويل . من حولي أشجار صنوبر ضخمة قديمة تفوح منها رائحة الراتينج . وفي بعيد ، على مستوى أدنى ، تلوح قريتنا الصغيرة التي لا تكاد تُرى . والشمس تسطع . والسماء زرقاء . والصمت مطلق . فهناك انما كنت أحس أحياناً ذلك النداء نحو المجهول، وأقدّر أنني لو مضيت الى أمام قُدُماً ، وأوغلت الى بعيد ، الى بعيـد ، وتجاوزت ذلك الخط الذي تلتقي عنده الأرض بالسماء ، فسأجد جواباً عن كل شيء ، وسرعان ما تنكشف لي حياة جديدة ، أكثف كثافة وأعنف عنفاً وأحرّ حرارة من الحياة عندنا ألف مرة . وكنت أحلم بمدينة كبرى مثل نابولي ، ملأى بالقصور ، وبالصخب ، وبالحركة ، وبالحياة ... ما أكثر الأشياء التي حلمت بها !.. ليس هناك شيء لم أحلم به ! وبعد ذلك خيّل اليّ أن المرء يستطيع حتى في السجن أن يجد حياة عريضة واسعة » .

قالت آجلايا :

ـ هذه الفكرة الأخيرة المحمودة سبق لي أن قرأتها في كتاب مختارات حين كنت في الثانية عشرة من عمري .

وقالت آديلائيد :

ـ هذا كله فلسفة . أنت فيلسوف جئت تعلمنا الحكمة !

قال الأمير مبتسماً :

ـ قد تكونين على حق . ربما كنت فيلسوفاً بالفعل ؟ ومن يدري ؟ لعلني أنوي أن أعلمكن الحكمة أيضاً ... هذا جائز ، جائز جداً .

استأنفت آجلايا كلامها فقالت :

ـ فلسفتك لا تختلف ، على كل حال ، عن فلسفة أولامبي نيقولا يفنا، أرملة الموظف التي تجيء الينا من حين الى حين متطفلة . ان المشكلة الكبرى عندها هي السعر الرخيص والقدرة على العيش بأقل نفقة ، فهي لا تحسن الكلام الا عن كوبكات . لاحظ أنها تملك مالاً : انها ماكرة جداً . ذلك بعينه هو شأن حياتك العريضة الواسعة في السجن ، ولعله أيضاً شأن سني سعادتك الأربع التي قضيتها في تلك القرية بائعاً مدينة نابولي ، ربما مع تحقيق شيء من ربح ، وان لم يتجاوز الربح كوبكات.

قال الأمير :

ـ أما عن الحياة في السجن ، فمن الجائز ألا يكون كلامي صحيحاً كل الصحة . فانما أنا سمعت هذا الكلام من رجل قضى في السجن قرابة اثنتي عشرة سنة . انه أحد المرضى الذين كان يعالجهم طبيبي . كان هذا الرجل يُصاب أحياناً بنوبات ، وكان كثير الحركة والاضطراب والتخبط، حتى لقد حاول أن ينتحر . كانت حياته في السجن حزينة ، أؤكد لكنّ ذلك ... ولكن لا شك أنها كانت تساوي أكثر من كوبكات ، مع أنه لم يكن له الا علاقات الا بعنكبوتة وبشجرة صغيرة نبتت تحت نافذته ... على انني أفضل أن أقص عليكن قصة لقاء آخر تم لي في العام الماضي . ان في الأمر الذي سأحكيه لكنّ الآن شيئاً غريباً جداً ، غريباً بندرة حدوثه. هو رجل اقتيد مع رجال آخرين محكوم عليهم بالاعدام ، اقتيد معهم الى المكان الذي سيتم فيه تنفيذ الحكم * ، وقرىء عليهم قرار المحكمة باعدامهم رمياً بالرصاص لجريمة سياسية . وبعد نحو عشرين دقيقة تلي عليهم قرار آخر يعفو عنهم ، فيلغي حكم الاعدام ويبدله بحكم بالسجن مع الأشغال الشاقة . ولكن في الفترة التي انقضت بين تلاوة الحكم الأول وتلاوة الحكم الثاني ، أي خلال العشرين دقيقة أو الربع ساعة على الأقل ، عاش الرجل

في يقين مطلق بأنه ميت لا محالة بعد بضع لحظات • ما كان أشد رغبتي الرهيبة في أن اسمعه يصف المشـاعر التي أحس بها أثنـاء ذلك ! حتى لقد أخذت ألقي عليه الأسئلة تلو الأسئلة مراراً ! كان يتذكر كل شيء بوضوح خارق ، ويؤكد أنه لن يستطيع نسـيان تلك الدقائق في يوم من الأيام • على مسـافة عشرين خطوة من صقالة الاعدام التي وقف قربها الناس والجنود ، كانت قد دُقَّت في الأرض أعمدة ثلاثة ، اذ كان هنالك عدة رجال محكوم عليهم بالاعدام • اقتيد الثلاثة الأول نحو تلك الأعمدة ، وشُدُّوا اليها ، وأُلبسوا لباس المحكوم عليهم بالاعدام (وهو نوع من جلباب طويل أبيض) ؛ وعُصبت أعينهم حتى لا يروا البنادق • وبعد ذلك جاءت تقف ، قبالة كل عمود ، زمرة الجنود التي ستطلق رصاص الاعدام • ان الرجل الذي أحدثكنَّ عنه هو الثامن في الترتيب • فكان عليه اذن ان يذهب الى العمود في الفـوج الثـالث • وجاء كاهن يبارك الرجال المحـكوم عليهم بالاعـدام . ولم يبق لهم من الحيـاة الا خمس دقائق يعيشونها • قال لي الرجل ان هذه الدقائق الخمس قد بدت له طويلة طولاً لا نهاية له ، غنيةً غنى لا ينضب • بدا له أنه خلال هذه الدقائق الخمس سيعيش حيوات تبلغ من الكثرة أنه ليس في حاجة ، بعد ، الى التفكير في اللحظة الأخيرة• حتى لقد رتَّب أموره واتخذ اجراءاته على هذا الأساس ، فحدَّد الزمان الذي سيودِّع فيه رفاقه ووقف عليه دقيقتين ، وعيَّن دقيقتين أخريين للتجمع على نفسه مرة أخيرة ، وترك الوقت الباقي لالقاء نظرة على ما حـوله • وانه ليتذكر تذكراً واضحاً أنه تقيـد بهـذا التوزيع للوقت تقيداً تاماً • كان سيموت وهو في السابعة والعشرين من عمره * ، مليئاً بالصحة والعافية ، زاخراً بالنشاط والقوة • وانه ليتذكر انه حين ودَّع رفاقه ألقى على كل منهم سؤالاً لا علاقة له بالحالة الراهنة، حتى انه اهتم اهتماماً كبيراً بسماع أجوبتهم • حتى اذا فرغ من التوديع،

جاء دور الدقيقتين اللتين نذرهما « للتجمع على نفسه » من أجل التأمل. كان يعلم سلفاً ما الذى سيفكر فيه • كان يريد أن يتصور بأقصى سرعة ممكنة وبأكبر وضوح ممكن ما سيحدث : هو الآن هنا ، هو الآن حى ؛ وبعد ثلاث دقائق سيصبح « شيئاً آخر » ، سيصبح شخصاً آخر أو شيئاً آخر ، ولكن ماذا يصبح ؟ وأين يصبح ؟ كان يقدّر أنه سيعرف ذلك كله خلال هاتين الدقيقتين ! وفى مكان غير بعيد ، كانت تقوم كنيسة تلتمع قبتها المذهبة تحت أشعة الشمس • انه يتذكر الآن شدة تحديقه الى تلك القبة والى الأشعة التى كانت تنعكس عليها حينذاك • كان لا يستطيع أن ينتزع نفسه من تأمل تلك الأشعة : كان يتراءى له أن تلك الأشعة هى طبيعتــه الجديدة ، وأنه بعد ثلاث دقائق سيندمج فيها وينصهر معها ••• ان تلك الحالة من عدم اليقين ومن النفرة تجاه المجهول الذى سيحين حينه كانت رهيبة فظيعه • ولكنه قال انه لا شىء كان أشقّ على نفسه عندئذ من هذه الفـكرة التى كانت تدور فى خاطره : « ليتنى أستطيع ألا أموت ! ليت الحياة تُردُّ الىَّ ! ما أعظم الأبدية التى سأنعم بها اذا أمكن ذلك ! لأحيلنَّ كل دقيقة دهراً ، ولأحصينَّ جميع الدقائق لا أضيع منها واحدة ، ولا أبدد منها واحدة ! » • وقال ان هذه الفكرة قد صارت آخر الأمر الى نوع من جنون حتى أصبح لا يتمنى الا أن يُطلق عليه الرصاص •

صمت الأمير فجأة • وكان الجميع يتوقعون أن يستمر وأن يستخرج من كلامه نتيجةً يختمه بها •

سألته آجلايا :

ـ هل انتهيت ؟

فقال الأمير وكأنه يخرج من حلم :

ـ نعم ••• انتهيت !

ـ ولكن لماذا رويت هذا كله ؟

ـ هكذا ... تذكرته ... في سياق الحديث !

قالت ألكسندرا :

ـ ولكنك أنهيت الكلام انهاءً مباغتاً جداً . لعلك كنت تنوى يا أمير أن تستخرج منه نتيجةً هى أنه ليس فى الحياة لحظة تقاس قيمتها بكوبكات، وان خمس دقائق من الحياة تساوى كنوز الأرض كلها فى بعض الأحيان ؟ هذا كله كلام محمود ... ولكن اسمح لى : ان ذلك الصـــديق الذى روى لك تلك الأهوال قد خُفِّف الحكم عليه من حكم بالاعدام الى حكم بالسجن مع الأشغال الشاقة ، أليس كذلك ؟ معنى هذا أنه قد وُهبت له تلك « الحياة التى لا نهاية لها » ، فكيف استعمل ذلك الغنى كله من بعد ؟ هل عاش يحسب الدقائق فلا يضيِّع منها دقيقة واحدة ؟

ـ لا ... لقد ذكر لى الحقيقة هو نفسه ... لأننى سألته فى هذا الموضوع . انه لم يعش بهذه الطريقة أبداً ، بل بدَّد دقائق كثيرة .

ـ هذه اذن تجربة قاطعة : ليس فى وسع الانســان حقاً أن يعيش حياته « حاسباً » . ولا بد أن لهذا علةً وسبباً .

قال الأمير :

ـ طبعاً ، لا بد أن يكون لهذا علة وسبب . ويخيَّل الىَّ أيضاً ... لكنى لا أستطيع مع ذلك أن أصدِّق ...

سألته آجلايا :

ـ هل معنى هذا أنك تتصور أن تحيا حياة فيها من الذكاء والحكمة ما ليس فى حياة الآخرين ؟

ـ نعم ... خطر ببالى هذا فى بعض الأحيان .

ـ ولا يزال يخطر ببالك ؟

ـ نعم ••• أقدّر أنني أستطيعه •

بهذا أجاب الأمير وهو يبتسم تلك الابتسامة الخجلى العذبة نفسها ، ناظراً الى آجلايا • ولكنه لم يلبث أن أخذ يضحك وهو ينظر اليها من جديد مرحاً •

قالت آجلايا منزعجة بعض الانزعاج :

ـ يا له من تواضع !

قال الأمير :

ـ ما أعظم شجاعتكن ! أنتن تضحكن بينما أنا قد أقلقتني هذه القصة اقلاقاً بلغ من القوة انني حلمت بها فى نومى ، ولا سيما تلك الدقائق الخمس •••

ونظر الأمير الى البنات مرةً أخرى بانتباه وجد •

وسألهنّ مضطرباً على حين فجأة ، مع استمراره فى التحديق الى أعينهن :

ـ أأنتن غاضبات منى ؟

فصاحت الفتيات الثلاث يسألنه مدهوشات :

ـ ولماذا نغضب ؟

ـ لأن طريقتى فى الكلام تشبه طريقة القاء درس •••

فأخذن يضحكن •

قال الأمير :

ـ اذا كنتن قد غضبتن ، فلا تغضبن بعد الآن ! أنا أعرف أننى عشت أقل مما عاش الآخرون ، واننى أفهم الحياة أقل مما يفهمها الآخرون • ولا بد أن طريقتى فى الكلام غريبة !••

واضطرب الأمير اضطراباً تاماً .
قالت آجلايا بقسوة والحاح :

ـ ما دمت تقول انك كنت سعيداً ، فلقد عشت أكثر من الآخرين لا أقل منهم . فعلام الاعتذار والمواربة ؟ ولا يقلقنك خاصةً أنك تبدو كمن يلقى درساً ؛ فان هذا لم يكن فيه أى انتصار . ان المرء يستطيع بمثل تصوفك أن يملأ بالسعادة حياةً طولها مائة سنة . وسواء أأروك تنفيذ حكم بالاعدام أم مدُّوا اليك اصبعاً صغيرة ، فانك تستخرج من الأمرين كليهما فكرة فلسفية وتظل راضياً سعيداً . فما أسهل الحياة هكذا !

تدخلت الجنرالة التى ظلت تدرس وجوه المتحادثين مدة طويلة فقالت :

ـ ما لى أراك غاضبة حانقة دائماً ؟ ثم اننى لا أفهم أيضاً عمَّ تتكلمين ! أية اصبع صغيرة تقصدين ؟ ما هذا الهذر كله ؟ ان الأمير يقول كلاماً حسناً ، وان يكن حزيناً بعض الشيء . فلماذا تحاولين أن تثبطى همته وتدخلى اليأس الى قلبه ؟ لقد كان يضحك حين بدأ يتكلم ، ثم هاهو ذا الآن مبهوت مصعوق .

ـ لا بأس يا ماما ! وانها لخسارة يا أمير أنك لم تشهد تنفيذ حكم بالاعدام فى يوم من الأيام ، والا لسألتك عن بعض الأمور .
أجاب الأمير :

ـ شهدت تنفيذ حكم بالاعدام .

صاحت آجلايا :

ـ رأيت اعداماً ؟ كان علىَّ أن أقدِّر ذلك ! هذا يزيد الطين بلة ! فما دمت قد شهدت اعداماً فكيف تستطيع أن تدعى أنك كنت سعيداً طوال ذلك الوقت ؟ ألم أكن على حق ؟

وسألت آديلائيد :

ـ أكانت تُنفَّذ فى قريتكم أحكام بالاعدام اذن ؟

ـ شهدت اعداماً بمدينة ليون . كنت قد سافرت الى ليون مع شنايدر . وتم الاعدام يوم وصولنا .

عادت آجلايا تقول مصرَّة ملحة :

ـ فماذا ؟ هل أعجبك المشهد كثيراً ؟ هل استخرجت منه تعاليم نافعة ؟

قال الأمير :

ـ بل لم يعجبنى البتة ، حتى اننى مرضت بعده قليلاً . لكننى أعترف بأننى كنت أنظر الى المشهد مشدوداً اليه شداً قوياً فكأننى لا أستطيع أن أحوّل بصرى عنه .

قالت آجلايا معترفة :

ـ أنا أيضاً ما كان لى أن أستطيع أن أحوّل عنه بصرى لو أتيح لى أن أشهده !

ـ الناس هنالك لا يحبون للنساء أن تجىء لترى هذه المشاهد ، حتى انهم يتحدثون عن أمثال هاته النساء فى الجرائد .

ـ ذلك لأنهم يرون أن هذا ليس من شأن النساء ، فكأنهم يريدون أن يقولوا ان هذا من شأن الرجال وحدهم وأن يبرروه . يا للمنطق العجيب ! لا شك أنك تشاطرهم رأيهم .

قالت آديلائيد مقاطعة :

ـ اقصص علينا حادثة تنفيذ الحكم بالاعدام !

قال الأمير مضطرباً :

ـ ما كنت لأتمنى أن أفعل هذا ، اليوم .

واكفهر وجهه .

فتدخلت آجلايا اللاذعة مرة أخرى تقول :

ـ لكأن حديثك الينا فى هذا الأمر يشق على نفسك ويحدث لك ألماً .

ـ لا بل لأننى عن ذلك الاعدام نفسه انما تحدثت منذ هنيهة .

ـ الى من تحدثت عنه ؟

ـ الى خادمكم ، بينما كنت أنتظر أن أُستقبل ...

قالت النساء الأربع تسأله :

ـ أى خادم ؟

ـ ذلك الذى يمكث فى حجرة المدخل ... رجل شائب أحمر الوجه ، كنت فى حجرة المدخل أنتظر أن يستقبلنى ايفان فيدوروفتش .

قالت الجنرالة :

ـ غريب !

وقالت آجلايا :

ـ الأمير رجل ديموقراطى . ولكن ما دمت قد قصصت الأمر على ألكسى ، فانك لا تستطيع أن تضنّ به علينا .

وعادت آديلائيد تقول :

ـ اننى أحرص على سماع هذه القصة حرصاً مطلقاً !

قال الأمير وهو يلتفت اليها وينتعش قليلاً (الحق أن الأمير كان يتحمس بسرعة واضحة وثقة تامة) :

ـ منذ قليل ، خطر ببالى فعلاً ، حين سألتنى عن موضوعٍ للوحةٍ ترسمينها ، خطر ببالى فعلاً أن تصوّرى وجه رجل محكوم عليه بالاعدام،

وذلك في الدقيقة التي تسبق سقوط النصل القاطع على عنقه ، أى بينما هو ما يزال واقفاً على المقصلة قبل أن يضطجع على اللوح •

سألت آديلائيد :

ـ كيف ؟ الوجه ؟ الوجه وحده ؟ ان هذا ليكون موضوعاً غريباً شاذاً !••• أين اللوحة في هذا ؟

قال الأمير مصراً بحرارة :

ـ لا أدرى ، ولكن لم لا ؟ لقد رأيت في مدينة بال ، منذ مدة غير طويلة ، لوحة مماثلة * • وددن كثيراً لو أحدثك عنها • وسأفعل ذلك في يوم من الأيام • لقد أثرت في نفسي تأثيراً كبيراً •

قالت آديلائيد :

ـ ستحدثنا حتماً عن اللوحة التى رأيتها بمدينة بال ، ولكن فيما بعد • أما الآن فاشرح لى لوحة الاعدام تلك • هل تستطيع أن تصفها كما تتخيلها ؟ كيف يُرسم ذلك الوجه ؟ أيُرسم الوجه وحده ، هكذا ؟ وكيف هو ، ذلك الوجه ؟

بدأ الأمير يتكلم فقال بكل ما يملك من سلامة الطوية وحسن الارادة ، تقوده ذكرياته وكأنه نسى كل ما عدا ذلك فوراً :

ـ حدث ذلك قبل الموت بدقيقة • ففى اللحظة التى وضع فيها قدمه على المقصلة بعد أن اجتاز السلّم ، في تلك اللحظة التفت نحوى ، فرأيت وجهه وفهمت كل شيء•••••ولكن كيف السبيل الى وصف هذا بكلمات؟ انني لأتمنى كثيراً أن يتاح لك أنت أو أن يتاح لرسام آخر تصوير ذلك الوجه ! الأفضل أن تكوني قد رأيت بعينيك ! ولقد قدّرت أنا منذ تلك اللحظة أن هذه اللوحة يمكن أن تكون مفيدة • ويجب على المرء أن يطلع على كل ما سبق ذلك ، كل ما سبقه ، كله ! كان الرجل يعيش في

السجن ، وكان يقدّر أنه سعيش أسبوعاً على الأقل ، قبل أن ينفّذ فيه الحكم : كان يعوّل على أن الاجراءات الشكلية طويلة ، وعلى أن الأوراق ستُرسل الى جهة أخرى فلا تعود منها قبل انقضاء أسبوع ، ولكن اتفق أن اختصرت الاجراءات لسبب من الأسباب . كان نائماً في الساعة الخامسة من الصباح . الوقت نهاية تشرين الأول (اكتوبر) . وفي الساعة الخامسة من الصباح يكون ظلام ويكون برد . دخل رئيس السجّانين مع الحرس بغير ضجة ولا ضوضاء ، ولمس كتفه لمساً خفيفاً . نهض الرجل على كوعه ورأى النور ، فقال يسأل : « ماذا جرى ؟ » فقيل له : « الاعدام في الساعة العاشرة » . كان لا يزال النوم في عينيه ، ولم يشأ أن يصدّق أذنيه ، وحاول أن يناقش ، فقال ان الأوراق لا يمكن أن تصل قبل أسبوع آخر . ولكنه حين استيقظ تماماً كفّ عن النقاش وصمت. ذلك ما رُوي هناك . وقال الرجل : « ولكن هذه قسوة ، هكذا ، على حين فجأة ، دفعة واحدة ! » . ثم صمت من جديد ، وأصبح لا يريد أن يقول شيئاً . انقضت ثلاث ساعات أو أربع في الاستعدادات : الكاهن ، الافطار الذي يشتمل على خمرة ولحم وقهوة (أليس هذا استهزاءً ؟ لو فكرنا في الأمر ملياً لرأينا أنه قسوة ! ومع ذلك يفعله هؤلاء لبساطة قلوبهم موقنين يقيناً تاماً من أنه رأفة انسانية !) . ثم بدأ تنظيف الرجل (هل تعلمين ما هو التنظيف الذي يؤخذ به رجل محكوم عليه بالاعدام ؟) ثم اقتيد خلال المدينة الى المقصلة ... أظن أن المرء ، هناك أيضاً ، حين يُقتاد الى المقصلة ، لا بد أن يعتقد أن حياة لا نهاية لطولها ما تزال أمامه . يخيّل اليّ أنه لا بد أن يقول لنفسه أثناء الطريق حتماً : « ما زالت حياة طويلة أمامي . بقيت ثلاثة شوارع . ثم ذلك الشارع الآخر الذي فيه دكان خبّاز على اليمين ... ما يزال هناك وقت قبل أن نصل الى دكان الخبّاز ! » . وفي كل جهة من حوله جمهور وصرخات وضوضاء وآلاف

الوجوه وآلاف النظرات . ان عليه أن يحتمل ذلك كله ، وأن يحتمل خاصة هذه الفكرة : « هؤلاء ألوف من الناس لن يُعدم منهم واحد ، أما أنا فأُعدم ! » . على كل حال ، هذا كله يسبق الدقيقة الفاصلة . ولكن ها هو ذا السلَّم الذى يؤدى الى المقصلة ، وها هو ذا الرجل يقف أمام هذا السلَّم فيأخذ يبكى فجأة . انه مع ذلك رجل يزخر فحولة وقوة . هو واحد من قطاع الطرق فيما يظهر . كان الكاهن يجلس قربه طوال الطريق على العربة ، ولا ينفك يكلمه . أغلب الظن أن الرجل لا يسمع من كلام الكاهن شيئاً . لقد بدأ يصغى اليه فى البداية ، ولكنه منذ سمع الكلمات الأولى أصبح لا يفهم . نعم ، لا بد أن الأمور جرت على هذا النحو . وها هو ذا يصعد السلَّم أخيراً (ان أرجلهم موثقة فهم لا يستطيعون أن يتقدموا الا بخطى صغيرة) . كان الكاهن ، ولعله رجل ذكي ، قد كفَّ عن تكليمه ، فهو لا يريد الآن أن يمدَّ اليه الصليب ليقبِّله . كان الرجل منذ وصل الى السلم قد اصفرَّ اصفراراً شديداً ، أما الآن ، على المقصلة ، فقد أصبح اصفراره كالبياض .

« لعل ساقيه كانتا لا تستطيعان حمله ؟ انهما متصلبتان كالخشب ؛ ولا بد أنه كان يشعر بغثيان ، كأن شيئاً كان يعبث بحلقه . هل أحسست بشيء من هذا يوماً حين كنت تخافين ، أو فى لحظات مرعبة يحتفظ فيها المرء بوعيه كاملاً ، ولكنه يصبح بغير قدرة البتة ؟ يخيَّل الىَّ أن الانسان ، حين يداهمه هلاكٌ لا سبيل الى تحاشيه ، كانهيار منزل فوقه مثلاً ، انما يشعر عندئذ برغبة لا تقاوم فى أن يقعد مغمضاً عينيه ، وليحدث ما يحدث !...

« فى مثل هذه اللحظات من الضعف والوهن انما كان الكاهن يبادر ، بحركة سريعة ودون كلام ، فيقرِّب الصليب من شفتى الرجل لتقبيله ، وهو صليب صغير من فضة ، ذو أربعة أفرع ، يقرِّبه مراراً

كثيرة ، في كل لحظة ... فمتى لامس الصليب الشفتين فتح الرجل عينيه وارتد الى الحياة لحظات قليلة واستأنفت ساقاه السير . كان يقبّل الصليب في نهم وشراهة ، بسرعة شديدة ، كأنه يستعجل التزود بشيء ما ، كيفما اتفق ، ولكنني لا أصدّق أن يكون قادراً في تلك الدقيقة على أن يشعر بعاطفة دينية .

« وظل الحال على هذا المنوال الى أن رقد الرجل على لوح الخشب الذي تسقط عليه سكين المقصلة ... هناك أمر غريب : ان من النادر أن يغمى على المرء أثناء هذه الثواني الأخيرة ! بالعكس : الدماغ يحيا عندئذ حياة أشدّ ، وأنشط ، بل وأقوى ، كآلة مندفعة في عملها . انني أتخيّل قرعات الخواطر التي تقرع الرأس وتظل ناقصة ، وربما كانت غريبة بل ومضحكة : « هذا الرجل الذي ينظر اليّ ... ان له ثؤلولاً في جبينه . والجلاّد : ان أحد أزرار سترته صدىء ... » . وفي مثل هذه اللحظات يعرف المرء كل شيء ، ويتذكر كل شيء . هناك نقطة وحيدة لا يمكن نسيانها ولا يمكن تجنبها بأغماء ، وحول هذه النقطة انما يدور كل شيء . تصوري أن الأمر يظل على هذا النحو الى آخر ربع ثانية ، حين يكون الرأس قد أصبح تحت السكّين ، فالرجل ينتظر .. و «يعلم» . انه يسمع انزلاق الحديد فجأة فوقه . ذلك أنه يسمعه حتماً ، ولا يستطيع الا أن يسمعه . لو كنت أنا الشخص الذي ينفّذ فيه الاعدام لتعمدت أن أتنصت ، ولسمعت صوت انزلاق الحديد! قد لايدوم هذا الا معشار ثانية ، ولكن المرء يسمع الصوت حتماً ! تصوري أن هناك من يدّعون أن الرأس ، بعد انقطاعه وسقوطه ، ربما ظل يعلم خلال ثانية أنه انقطع وسقط !.. يا له من احساس !... وماذا لو دام هذا الاحساس خمس ثوان ؟... ارسمي المقصلة بحيث لا يرى الناظر على المستوى الأول ، الا تلك الدرجة الأخيرة

التي يضع عليها الجاني قدمه • انه يضع قدمه على هذه الدرجة ، فنرى في اللوحة رأسه ، ووجهه الأصفر ، والصليب الذي يمده اليه الكاهن • وهو ينظر ، وهو « يعرف كل شيء » • ان اللوحة هي ذلك الصليب وذلك الرأس • نعم تلك هي اللوحة • أما رأس الكاهن ، ورأس الجلاّد ، ورأسا مساعديه ، ورءوس بعض المشاهدين ، تحت ، وكذلك أعينهم ••• أما كل ذلك فيمكن أن يُضاف الى اللوحة خلفيةً أو ملحقات أو نوعاً من ضباب ••• هكذا أتخيَّل أنا تلك اللوحة » •

صمت الأمير ، ونظر الى المستمعات •

قالت الكسندرا وكأنها تخاطب نفسها :

ـ ليس في هذا شيء من تصوف طبعاً !

واقترحت آديلائيد :

ـ والآن اقصص علينا كيف وقعت في الغرام !

فنظر اليها الأمير مدهوشاً ؛ فقالت آديلائيد بنوع من التسرع :

ـ اسمع • يجب عليك أيضاً أن تحدثنا عن لوحة مدينة بال تلك ؛ أما الآن فأريد أن أسمعك تقص علينا حكاية وقوعك في الغرام • لا تدافع عن نفسك ، فلقد وقعت في الغرام • ثم انك متى قصصت شيئاً ، كففت عن أن تكون فيلسوفاً •

وسألته آجلايا فجأة :

ـ انك متى فرغت من حكاية شيء تشعر فوراً بالخزي والعار مما قلته • فلماذا ؟

قالت الجنرال مقاطعةً بلهجة حازمة وهي تلقي على آجلايا نظرة استياء :

ـ هذا غباء منك أخيراً !

فقالت ألكسندرا مؤيدة :

ـ نعم ، هذا خروج على العقل !

فقالت الجنرالة ملتفتةً نحو الأمير :

ـ لا تصدِّقها يا أمير . انها تفعل ذلك عامدةً بدافع الخبث والمكر . ليست قليلة الأدب الى هذا الحد ! لا تذهبن بك الظنـون كل مذهب اذا رأيتهن يناكدنك هذه المناكدة ! لا شك أن فى رءوسـهن أفكاراً ميتة ، ولكنهن يحببنك منذ الآن ! أنا أعرف وجوههن !

قال الأمير ملحاً على هذه الأقوال :

ـ أنا أيضاً أعرف وجوههن .

قالت آديلائيد باستطلاع وفضول :

ـ كيف ؟

وقالت البنتان الأخريان مشوقتين أيضاً :

ـ ماذا تعرف من وجوهنا ؟

لكن الأمير ظل صامتاً جاداً . وانتظرت البنات جميعاً جوابه . ثم قال فى رفق وجد :

ـ سأحكى لكن هذا فيما بعد !

صاحت آجلايا :

ـ أنت تريد حتماً أن تستثير فضولنا وأن تدعنا فى بلبلة ! يا للتعاظم والتفاخم !

وأسرعت آديلائيد تقول :

ـ طيب . ولكن ما دمت من علماء الفراسة ، فلا بد أنك كنت فى

يوم من الأيام عاشقاً مغرماً . لم يخطيء اذن ظني . فاقصص علينا قصة عشقك !

قال الأمير بذلك الصوت العذب الرصين نفسه :

ـ أنا لم أكن عاشقاً . وانما ... وانما كنت سعيداً بطريقة أخرى .

ـ كيف ؟ بماذا ؟

ـ طيب . سأحكي لكن .

بذلك تمتم الأمير وقد بدا عليه شرود الفكر .

الفصل السادس

بدأ الأمير يتكلم فقال :

ـ فى نظراتكن الىَّ من شدة الاستطلاع ما يدل على أنكن قد تغضبن اذا أنا لم ألبِّ رغبتكن فى ارواء هذا الاستطلاع •

ثم أسرع يقول مبتسماً :

ـ لا ، لا ، كنت أمزح ! كان هناك ••• كان هناك أطفال ، وكنت أقضى وقتى كله مع الأطفال ، معهم وحدهم • هم أطفال القرية ، هم كل العصبة التى تذهب الى المدرسة • ليس معنى هذا أننى عُنيت بتعليمهم ، فلقد كان يعلمهم معلم هو جول تيبو • جائز اننى كنت أعلمهم قليلاً ، ولكن المهم أننى كنت أقضى وقتى كله معهم ، وفى ذلك انما أنفقت السنين الأربع التى أمضيتها هناك • لم أكن فى حاجة الى أى شىء آخر • وكنت أقول لهم كل شىء ، ولا أخفى عنهم شيئاً • وقد أصبح آباؤهم وأمهاتهم وأسرهم يحقدون علىَّ آخر الأمر ، لأن الأولاد أصبحوا لا يستغنون عنى ، فهم دائماً حولى • أما المعلم فقد أصبح عدوِّى الأكبر • كان لى أعداء كثيرون ، بسبب الأطفال • حتى ان شنايدر نفسه أخذ يلومنى • فما الذى كانوا يخشونه هذه الخشية كلها ؟ ان فى وسع المرء أن يقول للطفل كل شىء ، كل شىء • لشد ما أدهشنى دائماً مدى جهل الكبار بالصغار ، بل ومدى جهل الآباء بأبنائهم أنفسهم • ما ينبغى أن نخفى عن

الأطفال شيئاً بحجة أنهم صغار ، وأنهم لم يأزف الحين الذي يجب فيه أن يعلموا . يا لها من فكرة مؤسفة ضارة ! ان الأطفال يدركون بسهولة عظيمة أن آباءهم يرونهم أصغر سناً من أن يستطيعوا الفهم ، مع أنهم في الواقع يفهمون كل شيء ! (ان الكبار يجهلون أن الطفل يستطيع حتى في أخطر ظرف أن يسدي بنصيحة رائعة) . وحين ينظر اليك هذا الطائر الصغير الجميل ، حين ينظر اليك سعيداً واثقاً ، فهل تستطيع أن تغشه دون أن تشعر بالخزي ؟ انني اسميهم طيوراً صغيرة ، لأن الطيور خير ما في العالم !

« أريد أن أقول ان الناس حقدوا عليَّ في القرية ، بسبب شيء معيَّن على وجه التخصيص ... أما المعلم تيبو ، فقد كان حقده غيرة وحسداً . كان في أول الأمر لا يزيد على أن يهز رأسه ويدهَش حين يرى أن الأطفال يفهمون عني فهماً واضحاً ذلك الوضوح كله ، مع أنهم لا يكادون يفهمون شيئاً مما كان يعلمهم . ثم أخذ يسخر مني ويتهكم عليَّ ، حين قلت له اننا لا نملك ، لا أنا ولا هو ، أي شيء نعلمهم اياه ، وأنهم هم الذين يستطيعون بالأحرى أن يعلمونا شيئاً ما . كيف أمكنه أن يغار مني وأن يشهِّر بي مع أنه كان يعيش هو نفسه مع الأطفال ؟ ان المرأ لتبرأ نفسه وتشفى حين يعيش مع الأطفال !... كان يوجد في مصحِّ شنايدر مريض من المرضى كان انساناً شقياً كل الشقاء بائساً كل البؤس . ان شقاءه يبلغ من الهول والفظاعة أنه قد لا يكون له شبيه أو نظير . كان يعالَج هناك معالجة مجنون . ولكنني أعتقد أنه لم يكن مجنوناً ، وانما كان انساناً يتألم ألماً رهيباً لا أكثر ... فذلك هو مرضه كله . ليتكنَّ تعلمن ماذا أصبح الأطفال عنده آخر الأمر ! ولكن الأفضل أن أحدثكن عن هذا المريض فيما بعد . أما الآن فسأحكي لكنَّ كيف بدأ هذا كله . كان الأطفال في البداية لا يحبونني . ذلك أنني كنت كبيراً

جداً ، وكنت أخرق جداً • وأنا أعلم أنني لست وسيم الطلعة • وهنالك عامل آخر هو أنني أجنبي • كان الأطفال في البداية يستهزئون بي ، بل انهم رموني بالحجارة حين رأوني أقبّل ماريا • ولم أكن قد قبّلتها من قبل الا مرةً واحدة على كل حال •

وهنا لاحظ الأمير ابتسامات تلمُ بأفواه الفتيات اللواتي كن يصغين الى حديثه ، فأسرع يوقف التبسم قائلا :

ـ لا ، لا تضحكن • لم يكن ذلك حباً • ليتكن تعرفن مدى تعاسة تلك المخلوقة ، اذن لرثيتن لحالها مثلي • كانت من قريتنا • وكانت أمها امرأة عجوزاً دبّت فيها الشيخوخة وأضناها الهرم • وقد أذن لها عمدة القرية بأن تحوّل احدى نوافذ كوخها الحقير الى بسطة تعرض عليها ما تبيعه من بريم وخيط وتبغ وصابون بقروش قليلة تكاد تقيم بها أودها وتمسك عليها رمقها • كانت الأم مريضة متورمة الساقين دائماً ، فهي تظل قابعة وراء النافذة طول الوقت • وكانت ابنتها ماريا ، وهي في نحو العشرين من عمرها ، ضعيفة هزيلة نحيلة • لقد أضواها مرض السل منذ مدة طويلة ، ولكن ذلك لم يكن يمنعها من القيام بأعمال الخدمة المضنية القاسية طوال اليوم في دور مختلفة • كانت تغسل الأرض وتنظف أواني المطبخ ، وتكنس الأحواش ، وتعتني بالبهائم في الحظائر • وقد أغواها فرنسي هو مندوب محل تجاري كان ماراً بالقرية فأخذها معه ثم لم يلبث أن تركها في عرض الطريق بعد أسبوع واحد ، ومضى في سبيله • فعادت الى البيت ، بعد أن تسوّلت واستجدت طوال الطريق ، عادت رثة الأسمال ، قذرة الهيئة ، مثقبة الحذاءين • لقد ظلت تسير على قدميها أسبوعاً كاملاً ، وتنام حيث يتاح لها أن تنام ، فأصابها أثناء ذلك برد ، وكانت قدماها مجرحتين مقرّحتين ، وكانت يداها متورمتين متشققتين • ثم انها لم تكن جميلة في يوم من الأيام ، باستثناء عينيها الطيبتين المذنبتين البريئتين • وكانت تصمت

صمتاً رهيباً . ذات مرة ، في الماضي ، أخذت تغني فجأة أثناء عملها . اني لأتذكر الآن أن جميع الناس قد دهشوا عنـدئذ وسخروا منها : « هه ! ماريا تغني ؟ » . فخجلت ماريا خجلاً شديداً واضطربت اضطراباً كبيراً ، ومنذ ذلك اليوم صمتت الى الأبد . في ذلك الأوان كان الناس ما يزالون يعاملونها معاملة لطيفة ، ولكنها حين عادت مريضة ممزقة لم يشعر أحد نحوها بأي عطف أو شفقة . ما أقساهم في مثل هذه الظروف ! ما أفظع ما تتصف به آراؤهم الراسخة وأفكارهم السابقة من عنف لا رحمة فيه ولا رأفة ! أمها نفسها كانت أول من استقبلها بغضب واحتقار . قالت لها : « لقد لطخت شرفي بالعار ! » . كانت الأم أول من أسلمها للناس يعيّرونها ويخزونها . فحين عرف سكان القرية أن ماريا رجعت ، تواعدوا جميعهم تقريباً على أن يلتقوا في البيت الحقير الذي تسكنه العجوز : شيوخ وأطفال ونسـاء وفتيـات : جمهـور كبير شره متعجل ! كانت ماريا مسـتلقيه على الأرض ، عند قدمي العجوز ، جائعةً ، رثة الثياب . وكانت تبكي . فلما رأت جميع هؤلاء النـاس أخفت وجهها في شـعرها المنفوش وتسطحت مزيداً من التسطح . كان الجميع ينظرون اليها نظرتهم الى بهيمة نجسة دنسة . العجائز يقرّعونها ويشتمونها ، والشباب يسخرون منها ، والنساء يحقّرنها ويؤنبنها وينظرن اليها باشـمئزاز وتقـزز نظـرتهم الى دودة عنكبوت . لقد سمحت الأم بهـذا كله ، وكانت تهـزُّ رأسـها مؤيّدة محبذة . كانت منذ ذلك الحين قد تفاقم مرضها تفاقماً شديداً حتى لكأنها تحتضر . وقد ماتت فعلاً بعد شهرين . كانت تعلم أنها ستموت قريباً ، ولكنها الى أن ماتت لم تفكر في أن تصـالح ابنتها . حتى انهـا أصبحت لا تكلمها ، وصارت تجبرها على أن تبيت عند المدخل ، ولا تكاد تطعمها. وكانت الأم في حاجة دائمة الى وضع قدميها المريضتين في ماء ساخن ، فكانت ماريا تهيىء لها ذلك كل يوم ، وتعتني بها ، والعجوز تقبـل هذه العناية صامتةً ، فلم تقل لماريا كلمة لطيفة في لحظة من اللحظات .

« لكن ماريا كانت تتحمل كل شيء . وبعد ذلك ، حين تعرفت الى ماريا ، لاحظت أنها هي نفسها كانت تؤيد وتحبذ المعاملة التي عوملت بها ، وتعد نفسها أحقر الناس طراً . وحين أصبحت الأم لا تستطيع أن تنهض، أصبحت عجائز القرية تأتي اليها لتعتني بها واحدة بعد واحدة ، كما جرت العادة بذلك . ومنذ ذلك الوقت أصبح لا يطعم أحد ماريا قط ، وأصبح الناس في القرية يطردونها ، وأصبح الجميع يرفضون أن يعهدوا اليها بعمل ، حتى لكأنهم يبصقون عليها ، وصار الرجال كأنهم لا يعدُّونها امرأة فهم ينطقون في حضورها كلمات بذيئة فاحشة . ولكنهم في بعض الأحيان، في القليل النادر ، حين يكونون سكارى يوم الأحد ، يرمون لها على الأرض دريهمات قليلة ليضحكوا ، فتجمعها ماريا صامتة . وكانت منذ ذلك الحين قد أخذت تبصق دماً . وصارت أسمالها آخر الأمر قطعاً ممزقة ، حتى أصبحت تستحي أن تظهر للناس في القرية . وكانت منذ عودتها قد أخذت تمشي حافية القدمين . وفي ذلك الأوان خاصةً انما اندفع الأطفال ــ وهم عصبةٌ يبلغ عددهم قرابة أربعين طفلاً ــ اندفعوا يهاجمونها بضراوة ، حتى ليرمونها بالوحل . طلبت ماريا من الراعي أن يسمح لها بحراسة الأبقار ، ولكن الراعي طردها . ومع ذلك أخذت تتبع القطيع الى المرعى كل صباح ، من تلقاء نفسها دون أن يأذن لها الراعي بذلك . واذ لاحظ الراعي أنها تنفعه في عمله كثيراً ، أصبح لا يطردها، حتى انه أصبح يعطيها بقايا غدائه من الجبن والخبز أحياناً . وكان يعد ذلك احساناً منه ونعمةً كبرى يمنُّ بها عليها .

« وحين ماتت أمها لم يخجل الكاهن من أن يذلَّ ماريا وأن يهينها على مسمع ومرأى من جميع الناس . كانت ماريا واقفةً وراء التابوت باطمارها البالية تبكي . وكان الناس قد توافدوا ذرافات لينظروا اليها سائرين وراء النعش . ففي تلك اللحظة قال الكاهن ، وهو رجل ما يزال

شـاباً ولا يطمح الى شيء الا أن يكون واعظاً كبيراً ، قال وهو يومىء الى ماريا : « هذه هي التى كانت سبب وفاة تلك المرأة المحترمة (وهذا خطأ ، فالعجـوز مريضة منذ سـنتين) • ها هي ذى أمامكم لا تجرؤ أن ترفع عينيها لأن الله قد دمغهـا الى الأبد ، ها هي ذى حافيـة القـدمين ممزقة الأسمال ، عبرةً لجميع أولئك الذين يفقدون الفضيلة ! ومن هي ؟ هي ابنتها نفسها ! » ، وهلمّ جراً وهلمّ جرا !•••

« تصوَّرْنَ أن هذا الصغار من جهة الكاهن قد أرضى جميع الناس تقريباً • الا أن شيئاً قد حدث في تلك اللحظة ، هو أن الأطفال قد تحزبوا لماريا ، لأنهم في ذلك الأوان كانوا قد انحازوا جميعاً الى صفي وأخذوا يحبون ماريا • اليكن تفصيل ما حدث :

« كنت قد أردت ان أصنع شيئاً لماريا • كانت ماريا فى حاجة ماسة الى شيء من مال ، ولكنني لم أكن أملك هنالك قرشاً واحداً • لم أكن أملك الا دبوساً له فص من ماس • فلما مرَّ بالقرية بائع مقايض يتنقل من قرية الى قرية ، بعته الدبوس بثمانية فرنكات • لا شك أن الدبوس تسـاوى قيمته أربعين فرنكاً • وأخذت أبحث عن ماريا ، وحدى ، مدة طويلة • فالتقيت بها أخيراً وراء سـور القـرية فى ممر بين الجبـال قرب شجرة • فأعطيتها الثمانية فرنكات ، وأوصيتها بأن تحرص عليهـا لأنني لن أملك غيرها • ثم قبَّلتها وطلبت منهـا ألا يذهب بها الظن الى أنني أطمع منهـا فى سوء ، ولم أقبِّلها لأنني مغرم بها ، بل لأنني أرثى لحالها وأرأف بها كثيراً ، وقلت لها انني لم أعدها في يوم من الأيام آثمة بل تعيسة • كنت أرغب رغبةً قوية فى مواساتها وتعزيتها ، وفى اقناعها بأنها يجب عليها ألا تشعر بالمذلة تجاه الآخرين ، ولكنها لم تفهم عنى حتماً ؛ وقد أحسست أنا بذلك على الفور ، رغم انها ظلت صامتةً طول الوقت تقريباً ، مطرقة الى

الأرض ، خافضةً عينيها ، خجلى الى أبعد حدود الخجل . فلما فرغت من كلامي قبّلت يدي ، فأردت أن أقبّل يدها تواً ، لكنها انتزعت يدها بقوة.

« وفي تلك اللحظة انما فاجأتنا عصبة الأطفال . وقد علمت فيما بعد أنهم كانوا يراقبونني منذ مدة طويلة . أخذ الأطفال يصفرون صفيراً عالياً ويصفقون بأيديهم تصفيقاً قوياً ، ويضحكون ضحكاً مجلجلاً ، بينما كانت ماريا تهرب راكضة . حاولت أن أكلمهم ، لكنهم رموني بالحجارة . وفي ذلك اليوم نفسه علم جميع الناس بالنبأ ، علمت به القرية كلها . وسقط هذا كله مرةً أخرى على رأس ماريا . فأخذوا يحتقرونها مزيداً من الاحتقار ؛ حتى لقد سمعت أنهم يريدون معاقبتها ، ولكن الأمر لم يتجاوز حدود الكلام ولله الحمد ! غير أن الأولاد لم يتركوا لها بعد ذلك اليوم راحة . أصبحوا يطاردونها أكثر مما كانوا يطاردونها في أي يوم من الأيام قبل ذلك ، وأخذوا يرمونها بالوحل . وصارت حين يلاحقونها تحاول أن تهرب منهم ، ولكن سرعان ما كانت أنفاسها تنقطع بسبب مرض السل الذي يعيث في صدرها . صاروا لا يتركونها ، وأخذوا يقذفونها بأنواع السباب والشتائم . حتى لقد اضطررت مرةً أن أقتتل معهم . وحاولت بعد ذلك أن أكلمهم . وصرت أحدثهم كل يوم ، في كل مناسبة. فكانوا يقفون ليصغوا الى كلامي مع استمرارهم في اطلاق الشتائم صراخاً عالياً . حدثتهم عن مدى الشقاء الذي تعانيه ماريا . فما هي الا فترة قصيرة حتى أخذوا يكفون عن اهانتي ، وتعودوا أن ينصرفوا صامتين . وتوصلنا أخيراً الى أن نتبادل الحديث . لم أُخفِ عنهم شيئاً ، بل حكيت لهم كل شيء . فكانوا ينصتون اليَّ بكثير من الاهتمام ، وسرعان ما أخذوا يرثون لحال ماريا ، ويشفقون عليها . حتى لقد صار بعضهم يحيونها تحية لطيفة اذا التقوا بها عابرين . تلكنَّ عادة هناك : يحيي الناس بعضهم بعضاً اذا تلاقوا ، سواء أكانوا متعارفين أم غير متعارفين . تخيّلن دهشة ماريا . في

ذات يوم حملت اليها طفلتان طعاماً ، ثم جاءتا ترويان لى ذلك • قالتا ان ماريا أخذت تبكى ، وانهما الآن تحبانها كثيراً • ولم تنقض مدة قصيرة حتى أخذ جميع الأطفال يحبونها ، وحتى أخذوا يحبوننى أنا أيضاً فى الوقت نفسه • اصبحوا يجيئون الى أحياناً كثيرة ، ويطلبون منى دائماً أن أحكى لهم شيئاً ما • أظن اننى كنت أجيد الحكى ، فانهم كانوا يحبون كثيراً أن يستمعوا لى • ثم أصبحت لا أدرس ولا أقرأ الا لأستطيع أن أحكى لهم بعد ذلك ما درست وما قرأت • وعلى هذا النحو انما انقضت السنين الثلاث الأخيرة من حياتى هناك • وفيما بعد ، حين أخذ علىَّ الناس — ومنهم شنايدر — أننى أكلم الأطفال الصغار كما لو كانوا أشخاصاً كباراً ، دون أن أخفى عنهم شيئاً ، كنت أجيبهم جميعاً بأن من العار أن نكذب على الأطفال ، وبأن الأطفال يعرفون كل شىء حتى دون أن نحدثهم عنه ، مهما نحاول اخفاءه عنهم ، وبأن ما نخفيه عنهم قد يتعلمونه تعلماً فاسداً ، أما أنا فأطلعهم عليه بطريقة مناسبة • وحسبُ الانسان أن يتذكر طفولته هو حتى يدرك صحة ما أقول • لكننى لم أفلح فى اقناعهم •••

« كنت قد قبَّلت ماريا قبل موت أمها بنحو خمسة عشر يوماً • ولكن حين ألقى الكاهن خطبته ، كان جميع الأطفال قد انحازوا الى صفى • وأسرعت أقصُّ عليهم وأشرح لهم ما فعله الكاهن • فغضبوا جميعاً عليه ، حتى ان بعضهم بلغوا من غضبهم عليه أنهم كسروا له زجاج بيته بالحجارة وقد أوقفتهم عن ذلك ، مبرهناً لهم على أن عملهم هذا شر • ولكن أهل القرية كانوا قد علموا بكل شىء ، وعندئذ انما أخذوا يتهموننى بأننى أُضلُّ الأولاد عن الطريق القويم ؛ وعلموا بعد ذلك أن الأولاد أصبحوا يحبون ماريا ، فقلقوا قلقاً شديداً • ولكن ماريا كانت قد سعدت كثيراً •.

« وبلغ أهل القرية من القلق أنهم حظروا على أولادهم أن يقابلوا

ماريا ، ولكن الأولاد كانوا يلحقون بها خفيةً الى حيث توجد مع القطيع في مكان بعيد يقع على مسافة نصف فرسخ من القرية تقريباً ، فبعضهم يحمل اليها حلوى ، وبعضهم يجيء لا لشيء الا أن يعانقها ويقول لها : « أحبك يا ماريا » ، ثم يعودون الى القرية راكضين ركضاً سريعاً . غير أن ماريا أوشكت أن تصبح مجنونة من هذه السعادة المباغتة . فانها ماكانت لتجرؤ أن تحلم بمثل هذا الانقلاب في يوم من الأيام . والحق أنها أصبحت مضطربة فرحة في آن واحد . أما الأطفال ، ولا سيما البنات ، فقد كانوا يحبون خاصةً أن يذهبوا اليها ليقولوا لها انني أحبها ، وانني أحدثهم عنها كثيراً . وحكوا لها أنهم مني انما علموا كل شيء عنها ، وانهم الآن يحبونها ويرثون لحالها ويشفقون عليها ، وانهم سيظلون كذلك دائماً ؛ وكانوا بعد ذلك يجيئون اليَّ بوجوه فرحة وهيئات منهمكة ليقولوا لي انهم رأوا ماريا وان ماريا تسلّم عليَّ .

« وكنت أذهب في المساء الى الشلال . ان هناك ركناً تخفيه أشجار الحور عن القرية اخفاءً تاماً . فالى هناك كان يجيء الأطفال في المساء ليلتقوا بي ، حتى ان بعضهم كان يجيء خفيةً وسراً . أعتقد أن حبي لماريا كان يسعدهم أكبر السعادة ؛ وكان هذا في الواقع هو الأمر الوحيد الذي كذبت عليهم فيه طول مدة اقامتي هناك . فانني لم أحاول أن أبدّد أوهامهم شارحاً لهم انني لا أحب ماريا ، أي انني لست عاشقاً لها مغرماً بها ، وانما أنا أرثي لحالها ، وأرأف بها . كنت ألاحظ أنهم يفضلون أن يكون الأمر على نحو ما تصوروا وقرروا . كذلك سكتُ وتركت لهم أن يظنوا أنهم حزروا الحقيقة !

« وكانت قلوب هؤلاء الصغار تبلغ من رقة العاطفة والحنان أنهم بدا لهم ، فيما بدا لهم من أمور ، أنه اذا كان صديقهم ليون يحب ماريا هذا

الحب كله ، فلا يجوز أن تظل ماريا رثة الثياب الى هذا الحد ، ولا أن تمشي حافية القدمين .

« تصورْنَ أنهم جاءوها بحذاءين وجوربين ، بل جاءوها ايضاً بثوب . أما كيف استطاعوا ذلك ، فهذا ما لا أفهمه . لقد تكاتفت العصبة كلها على انفاذ الأمر . فاذا سألتهم لم يزيدوا على أن يضحكوا ، وكانت البنات تصفّق بأيديها وتقبّلني . وكان يتفق لى فى بعض الأحيان ايضاً أن أرى ماريا خفيةً . لقد تفاقم مرضها تفاقماً شديداً ، فلا تكاد تستطيع أن تمشي . ثم أصبحت أخيراً لا تنفع الراعى فى شىء ، لكنها ظلت تتبع القطيع كل صباح ، وتجلس منتحيةً منزوية . كان هنالك صخرة تهبط هبوطاً عمودياً وفيها ما يشبه أن يكون مصطبة ناتئة ، فكانت ماريا تجلس فى القاع على الصخرة مختفيةً من جميع الجهات ، وتلبث على هذه الحال لا تكاد تتحرك ، من الصباح حتى ساعة عودة القطيع الى القرية . لقد أوهنها السلُّ حتى صارت فى أغلب الأحيان تغمض عينيها وتستند الى الصخرة وتغفو غفواً ضعيفاً وهى تتنفس بكثير من العناء . وقد بلغ وجهها من الهزال أنه أصبح أشبه بهيكل عظم ؛ وكان العرق يتصبب على جبينها وصدغيها .

« على هذه الحال كنت أجدها دائماً . وكنت لا أجيئها الا للحظة قصيرة ، فقد كنت أنا أيضاً أحرص على أن لا يرانى أحد . فما ان أظهر لها حتى تنتفض وتفتح عينيها وتهرع تقبّل يدىَّ . أصبحت لا أسحب يدىَّ حين تقبلهما ، فقد لاحظت أن تقبيل يدىَّ يسعدها . وكانت ترتجف وترتعش وتبكى ما ظللت قريباً منها هناك . صحيح أنها حاولت أحياناً أن تتكلم ، ولكن كان يصعب على المرء أن يفهم عنها . كانت فى بعض الأوقات كالمجنونة ، من فرط انفعالها الرهيب وانشداهها المذهل .

« وكان الأطفال يصحبوننى أحياناً . وقد ألفوا فى مثل تلك الأحوال

أن يقفوا غير بعيد ، ليقوموا بمهمة الحراسة ويحمونا مما لا أدري ! كأن ذلك يبهجهم كثيراً ! حتى اذا انصرفنا بقيت ماريا وحيدةً من جديد ، لا تتحرك ، مغمضة العينين ، مسندةً رأسها الى الصخرة . لعلها كانت تحلم ...

« وفي ذات صباح لم تقو على أن تتبع القطيع ، ولبثت في بيتها الصغير الخالي . وسرعان ما علم الأطفال بذلك ، فجاءوا يزورونها في النهار ، كلهم تقريباً . كانت مستلقية على سريرها وحيدةً تماماً . وانقضى يومان لا يعتني بها أثناءهما الا الأطفال مناوبةً . حتى اذا عرف أهل القرية بعد ذلك أن ماريا تحتضر ، جاءت عجائز تسهر عليها . يبدو أن الناس في القرية قد أخذوا يشفقون على ماريا آخر الأمر . أو هم أصبحوا ، على الأقل ، لا يحرّمون على أولادهم أن يروها ، ولا يؤنبونهم اذا هم رأوها. وكانت ماريا طوال الوقت في حالة غفو ، الا أن نومها كان مضطرباً ، وكان يمزّق صدرَها سعال رهيب . وكانت العجائز تطرد الأولاد ، الا أن الأولاد يهرعون الى النافذة ولو لحظة قصيرة ليقولوا : « تحيةً ياصديقتنا الطيبة ماريا ! » فكانت ماريا ما ان تراهم أو تسمعهم حتى تنتعش ، فاذا هي تحاول أن تنهض على كوعها دون أن تستجيب لنهي العجائز ، واذا هي تحييهم بهزّ رأسها وتشكرهم . واستمر الأولاد على أن يأتوها بحلوى ، لكنها أصبحت لا تكاد تأكل من حلواهم شيئاً .

« أؤكد لكنّ أنها بفضل الأولاد انما ماتت سعيدة . وبفضل الأولاد انما نسيت شقاءها الأسود ، كأنها حصلت على غفران خطاياها ، ذلك أنها ظلت الى النهاية تعتقد أنها آثمة كبيرة . كان الأولاد يتدافعون على نافذتها تدافع العصافير تلطم الزجاج بأجنحتها ، ويصيحون قائلين لها كل صباح : « نحن نحبك يا ماريا ! » . وماتت ماريا بسرعة . وكنت أظن أنها ستعيش زمناً أطول من ذلك كثيراً .

« عشية موتها ، عند غروب الشمس ، ذهبت أعودها . لا بد أنهـا تعرفتني . صافحتها مرةً أخيرة . ما كان أشد يبوسة يدها ! وفي الغداة جاء من يقول لي ان ماريا ماتت !

« أصبح يستحيل عندئذ ضبط الأطفال . غمروا تابوتها بالأزهار ، ووضعوا على رأسها اكليلاً . وفي الكنيسة ، امتنع الكاهن في هذه المرة عن ذكر سـوءاتها . ومهمـا يكن أمر ، فان الذين حضروا الدفن كانوا قلة قليلة هم عدد من الفضوليين . ولكن الأطفال هرعوا جميعاً حين وجب حمل النعش . واذ كانوا لا يقوون على حمله فقد حاولوا أن يساعدوا وأن يعاونوا . وركضوا وراء النعش ، وكانوا جميعاً يبكون . ومنذ ذلك الحين أصبح قبر ماريا ضريحاً يحج اليه الأطفـال . فهم في كل سنة يغمـرونه بالأزهار ، وقد زرعوا حوله أشجار ورد .

« ولكن منذ دُفنت ماريا أخذ أهـل القـرية يضطهدونني في أمر الأولاد . وكان الكاهن والمعلم أكبر المحرِّضين على اضطهادي . حرَّموا على الأولاد أن يروني ، وحتى شنايدر وعد بأن يسهر على تنفيذ ذلك . لكننا كنا نستطيع أن يرى بعضنا بعضاً ، فنتخاطب بالاشارات من بعيد . ثم سوِّيت الأمور من بعد ، غير أن ما حدث كان حسـناً جدا : فبفضل تلك الاضطهادات ، اقتربت من الأطفـال مزيداً من الاقتراب . حتى انني في السنة الأخيرة تصالحت تقريبـاً مع المعلم والكاهن . أما شـنايدر ، فكان يكلمني كثيراً ، ويناقش «مذهبي» المشئوم في معاملة الأولاد . أي مذهب؟ لقد أطلعني شنايدر أخيراً على فكرة غريبة جداً كانت قد خطرت بباله — حدث هذا قبيل سفري مباشرةً — فقـال لي انه مقتنع اقتناعاً تاماً بأنني أنا نفسي طفل حقـاً ، طفل من جميع النواحي ، وانني ليس لي من صـفات الرجل البالغ الراشد الا القـامة والوجه ، أما من ناحيـة النفس والطبع والتكوين وربما الذكاء ، فما أنا بالرجل البالغ الراشد ، وانني قد أظل

على هذه الحال ولو عشت ستين عاماً . ضحكتُ من كلامه ذاك . فلا شك أنه لم يكن على حق . والا ففى أى شىء يمكن أن أُعدَّ طفلاً ؟ هناك شىء واحد صحيح ، هو اننى لا أحب صحبة الكبار فعلاً ؛ لقد لاحظت هذا فى نفسى منذ مدة طويلة . وما زلت لا أحب صحبة الكبار ، ولا أُحسن أن أكون معهم . ومهما يظهروا لى من طيب ونبل ، فاننى أظل أشعر بضيق ما بقيت معهم ، حتى اذا استطعت أن أتركهم وأن أمضى الى رفاقى أحسست بارتياح وغبطة ؛ ورفاقى هم دائماً أطفال ، لا لأننى أنا نفسى طفل ، بل لأنهم يجتذبوننى لا أكثر !

« اننى منذ بداية اقامتى فى تلك القرية ، أثناء نزهاتى التى أقوم بها فى الجبل وحيداً حزيناً ، كنت اذا التقيت أحياناً ، ولا سيما عند الظهر ، ساعة الخروج من المدرسة ، بتلك العصبة الصاخبة من الأطفال الذين يركضون حاملين حقائبهم وألواحهم ، صارخين ، ضاحكين ، لاعبين ، كنت أشعر بنفسى كلها تتجه اليهم وتندفع نحوهم على حين فجأة . لا أدرى كيف أفسِّر هذا وكيف أعلِّله ، ولكننى ما التقيت بهم مرةً الا شعرت بسعادة قوية تملأ قلبى وتغمر نفسى . كنت أتوقف وأضحك سعادةً حين أرى الى سيقانهم الصغيرة المتحركة النشيطة المتواثبة دائماً ، وحين أرى هؤلاء الصبية والبنات يركضون ، وحين أراهم يضحكون أو يبكون (ذلك أن بعضهم يكونون قد اتسع وقتهم أثناء الطريق من المدرسة الى المنزل ، لأن يتضاربوا ويبكوا ، ثم يتصالحوا ويستأنفوا لعبهم) . كنت عندئذ أنسى حزنى . وبعد ذلك ، طوال تلك السنين الثلاث ، أصبحت لا أستطيع حتى أن أفهم كيف ولماذا يمكن أن يشعر البشر بالضجر والسأم ، أو بالحزن والأسى ! لقد كان مصيرى كله مع الأطفال .

« لم أفكر يوماً فى أن أترك تلك القرية ، ولا خطر ببالى ساعةً أننى أستطيع أن أعود الى روسيا فى يوم من الأيام . كان يخيَّل الىَّ أننى

مقيم هناك الى الأبد ، لكننى فهمت أخيراً أننى لا أستطيع أن أكون عالةً على شنايدر ؛ وفى ذلك الأوان انما حدث أمر يبلغ من خطورة الشأن ، فيما يظهر ، أن شنايدر نفسه استحثنى على الرحيل ، وكتب الى هنا باسمى . سوف أرى ما هو الأمر ، وسوف أطلب النصح . ولعل مصيرى يتغير بذلك تغيراً تاماً ، ولكن المسألة ليست هنا ، وليس هذا أهم شىء . فانما الشىء الهام أن حياتى قد تغيرت تغيراً كاملاً منذ الآن . لقد تركت هناك أشياء كثيرة ، أشياء كثيرة جداً . لقد زال كل شىء . قلت لنفسى وأنا فى القطار : « أنا الآن ذاهب الى الناس . وربما كنت لا أعرف شيئاً . غير أن حياةً جديدة قد بدأت » . قررت أن أنفذ مهمتى بشرف واستقامة، وثبات وصلابة . اننى أقدِّر أن حياتى مع الناس ستكون شاقة ومملة . فقررت أن أكون مهذباً مع الجميع ، وأن أكون صريحاً . لا شك فى أنهم لن يطالبونى بأكثر من ذلك ! وربما عدُّونى طفلاً هنا أيضاً . لا بأس ! ثم ان جميع الملأ يعدوننى أبله ! انى لأتساءل لماذا يعدوننى كذلك ؟ صحيح اننى مرضت فى الماضى حتى صرت أشبه بأبله . ولكن فى أى شىء أنا الآن أبله ، ما دمت أدرك أنهم يعدوننى ابله ؟ حين أدخل الى مكان ما ، أحدث نفسى قائلاً : « انهم يعدوننى ابله ، وأنا مع ذلك ذكى ، ثم هم لا يخطر لهم هذا على بال ! » . كثيراً ما تدور هذه الفكرة فى رأسى .

« حين تلقيت بمدينة برلين الرسائل الصغيرة التى استطاعوا أن يرسلوها الىَّ من هناك ، أدركت أخيراً مدى ما يحملونه لى من حب . ان الرسالة الأولى تثير كثيراً من الألم دائماً ! ما كان أشد حزنهم حين صحبونى الى محطة القطار . كانوا قد بدأوا يستعدون لرحيلى منذ شهر قائلين : « ليون مسافر، ليون مسافر الى الأبد ». أصبحنا نلتقى قرب الشلال

فى كل مساء ، ونأخذ نتحدث عن فراقنا المرتقب ، ونكون أحياناً مرحين كمرحنا في السابق ، لكنهم تعودوا حين يتركونني ليذهبوا الى النوم ، أن يضمونى بأذرعهم ضماً قوياً فيه كثير من المحبة والحنان ، وذلك أمر لم يكونوا يفعلونه من قبل • وكان بعضهم يجيئون فرادى ، خفيةً عن الآخرين ، ليقبّلونى على مهلهم دون رقيب • وفى يوم رحيلى ، جاءوا جمهرةً واحدة ليصحبونى الى المحطة • ان المحطة تبعد عن القرية مسافة فرسخ • كانوا يكبحون شعورهم ويكظمون عاطفتهم فيمسكون عن البكاء ، غير أن بينهم من كانوا لا يفلحون في ذلك فاذا هم ينشجون بأصوات عالية ، ولا سيما البنات • سرنا بخطى سريعة حتى لا نصل متأخرين ، لكن واحداً منهم انفصل عن الآخرين فجأة ، وارتمى علىّ فى منتصف الطريق ، وطوقنى بذراعيه الصغيرتين ، وأخذ يقبلنى ، فاستوقف بذلك موكبنا كله • وحين ركبت وتحرك القطار صاحوا يودعونى بصوت واحد ، ولبثوا فى أماكنهم الى أن اختفى القطار عن أبصارهم اختفاءً تاماً • وكنت أنا أيضاً أنظر اليهم •••

« اسمعننى ••• حين دخلت الى هنا منذ قليل ، فرأيت وجوهكن اللطيفة ـ أنا الآن انعم النظر في الوجوه كثيراً ـ شعرت بفرح فى قلبى لأول مرة منذ الكلمات الأولى • ولا أكتمكن اننى قلت لنفسى منذ برهة : لعلنى خُلقت انساناً محظوظاً بالفعل • اننى أعرف أن المرء لا يلتقى كثيراً بأناس يمكن أن يحبهم من أول وهلة • ومع ذلك ما كدت أترك القطار حتى التقيت بكن • أنا أعلم أن على الانسان أن يخجل من التحدث عن عواطفه الى جميع الناس ؛ ومع ذلك أرانى أحدثكن عن عواطفى ؛ اننى لا أحس تجاهكن أى شعور بالخجل أو العار • اننى غير اجتماعى ، وقد لا أزوركن مرةً أخرى الا بعد مدة طويلة • فلا تسئن تفسير ذلك ، ولا يذهبن بكن الظن خاصةً الى اننى لا أحرص عليكن ، أو أن شيئاً قد

صدر عنكن فآذاني. لقد طلبتن منى أن أصف لكن ما رأيته فى وجوهكن. يسرنى أن أفعل هـذا . فأما أنت يا آديلائيد ايفانوفنـا ،فان لك وجهـاً سعيداً هو أقرب وجوهكن أنتن الثـلاث الى القلب . وعـدا أنك جميلة جداً ، فان المرء يقول لنفسه حين ينظر اليك : « ان لها وجه أخت طيبة ». انك تواجهين الناس ببساطة ومرح ، لكنك تـُحسنين أيضاً سبر القلوب. ذلك ما يوحيه الىّ وجهك . وأما وجهك أنت يا ألكسندرا ايفانوفنا ، فانه هو أيضاً جميل محبب الى القلب ، ولكن ربما كنت تخفين حزناً مستسراً. ليس هناك أى شـك فى أنك طيبـة القلب ، لكنك لست فرحة . ان فى وجهك شيئاً يذكـّر بوجه « مادونا » هولباين بمدينة درسدن * هذا عنك أنت . ترُى هـل حزرت ؟ أنت التى تعتقدين اننى أحـزر . وأما أنت يا أليزابت بروكوفيفنا (قال ذلك وهو يلتفت فجأة نحو الجنرالة) ، فاننى لا أحس احساساً بل أوقن يقيناً أنك طفلة حقيقية ، طفلة فى كل شىء ، طفلة فى الخير وفى الشر على السواء ، وذلك رغم كل سنك . هل غضبت لأننى أقول لك هذا ؟ انك لتعرفين رأيى فى الأطفال وشعورى نحوهم . ولا يذهبن بكن الظن الى اننى حدثتكن عن وجوهكن بمثل هذه الصراحة لأننى بسيط ساذج فحسب ، فربما كانت لى فكرة أبيّتها . » .

الفصل السابع

حين صمت الأمير ، كان الجميع ينظرون اليه فرحين ، حتى آجلايا ، ولكن الفرح كان واضحاً فى وجه اليزابت بروكوفيفنا خاصة ٠

هتفت تقول :

ـ هذا هو الامتحان ! فيا أيتها الآنسات ، أنتن اللواتي كنت تقدّرن أن تحمينه حمايتكن لفتى صغير مسكين ، ها هو ذا قد تكرّم عليكن فأبهجكن ، ثم تحفّظ فلم يعد بالمجيء اليكن الا نادراً ٠ ها نحن أولاء جميعاً غبيات ٠ وانه ليسعدني ذلك ٠ لكن أغبانا وأدعانا الى الضحك منه والسخرية به انما هو ايفان فيدوروفتش ٠ مرحى يا أمير ! منذ حين، كان قد صدر أمرٌ بامتحانك !٠٠٠ أما ما قلته عني من النظر فى وجهى ، فهو الحقيقة بعينها ٠ أنا طفلة ٠ وأنا أعرف ذلك ٠ وكنت أعرف ذلك قبل أن تعرفه أنت ٠ لقد أحسنت الافصاح عن رأيى بكلمة واحدة ٠ اننى أجد طبعك شبيهاً بطبعى من جميع النواحى ، وانى لسعيدة بهذا ٠ نحن كقطرتى ماء تشابهاً ، مع فرق واحد هو أنك رجل وأننى امرأة ، وأننى لم أكن بسويسرا يوماً ٠ ذلك هو الفرق كله ٠

هتفت آجلايا تقول :

ـ لا تتعجلى كثيراً يا ماما . لقد قال الأمير منذ هنيهـة انه فى جميع ما أسر به الينا كان يبيت فكرة ، وانه لم يتكلم عبثاً ولهواً !

وقالت الأختان ضاحكتين .

ـ نعم ، نعم .

ـ لا تسخرن يا عـزيزاتى . قد يكون أمكر منكن أنتن الثـلاث مجتمعات . لسوف ترين . ولكن لماذا لم تقل شيئاً عن آجلايا يا أمير ؟ ان آجلايا تنتظر ، وأنا أيضاً أنتظر .

ـ لن أقول شيئاً الآن . سأقول فيما بعد .

ـ لماذا ؟ يخيل الى أنك لاحظتها ملاحظة كافية !

ـ آ ... نعم نعم ... لاحظتها كثيراً . أنت آية من آيات الجمال يا أجلايا ايفانوفنا . انك تبلغين من الجمـال أن المرء لا يجـرؤ أن ينظر اليك .

قالت الجنرالة ملحة :

ـ أهذا كل شيء ؟ وطبيعتها ؟

ـ يصعب على المرء أن يقضى فى الجمال برأى . لم أتهيأ لهذا بعد. الجمال لغز .

تدخلت آديلائيد قائلة :

ـ معنى هذا أنك تلقى على آجلايا لغـزاً أو أحجيـة . حاولى أن تحزرى يا آجلايا . ولكن أليست جميلة يا أمير ؟

أجاب الأمير بحرارة وهو ينظر الى آجلايا معجباً :

ـ جميلة جمـالاً خـارقاً . تكاد تكون فى مثل جمـال ناسـتاسيا فيليبوفنا ، رغم أن وجهها مختلف جداً ...

نظرت النساء الأربع بعضهن الى بعض مدهوشات .

وسألته الجنرالة :

ـ مَنْ ؟ ناستاسيا فيليبوفنا ؟ أين رأيت ناستاسيا فيليبوفنا ؟ أية ناستاسيا فيليبوفنا ؟

ـ منذ قليل كان جبريل آرداليونتش يُرى ايفان فيدوروفتش صورتها .

ـ كيف ؟ حمل الى ايفان فيدوروفتش صورتها ؟

ـ ليريه الصورة . ان ناستاسيا فيليبوفنا قد أهدت اليوم صورتها الى جبريل آرداليونتش ، فجاء بها هذا الى الجنرال ليريه اياها .

صاحت الجنرالة تقول :

ـ أريد أن أرى الصورة ! أين هي تلك الصورة ؟ اذا كانت قد أهدتها اليه هو ، فلا بد أنه محتفظ هو بها ، ولا بد أنه الآن فى حجرة المكتب . انه يأتى للعمل هنا فى جميع أيام الأربعاء ولا ينصرف قبل الساعة الرابعة . احضروا جبريل آرداليونتش حالاً ! بل لا تحضروه ! فلست أموت شوقاً الى رؤيته ! يا أمير ، يا صديقى ، هلاّ تلطفت فذهبت الى حجرة المكتب ، فأخذت تلك الصورة منه ، ثم جئتنى بها الى هنا . قل له ، من فضلك ، اننى أريد أن أرى الصورة !

قالت آديلائيد بعد أن خرج الأمير :

ـ لا بأس به ! لكنه بسيط مسرف فى البساطة قليلاً !

فقالت ألكسندرا مؤيدة :

ـ نعم ، مسرف فى البساطة قليلاً ، حتى ليصبح من ذلك مضحكاً بعض الشىء !

لا الأولى ولا الثـانية كان يبدو عليها أنها تفصح عن كل رأيها ، وتعبـِّر عن كل ما يخالج نفسها •

قالت آجلايا :

ـ ومع ذلك عرف كيف يحسن التصرف حين تحدث عن وجوهنا• مدحنا جميعاً وسرَّنا جميعاً ، حتى ماما •

صاحت الجنرالة تقول :

ـ لا تتخابثي ! هو لم يمدحني ، ولـكن أنا التي شـــعرت بأنني مُدحت •

سألت آديلائيد :

ـ هل تظنين أنه كان يحاول أن يحسن التصرف ويصل الى الهدف؟

ـ يخيَّل اليَّ أنه ليس بسيطاً الى الحد الذي يُظن فيه •

قالت الجنرالة غاضبة :

ـ ها هي ذي تعيد الكرة ! في رأيي أنا أنكن أدعى منه الى الضحك عليكن ! صحيح أنه ساذج قليلاً ، لكنه يعـرف ماذا يريد ـ أقول هذا بأنبل معاني هذا التعبير • هو مثلي تماماً •

قال الأمير يحدث نفسه نادماً وهو ذاهب الى حجرة المكتب : «لاشك أنني أخطأت اذ جئت على ذكر تلك الصورة • ولكن لعلني أحسنت اذ تكلمت عنها مع ذلك ••• » •

ان فكرةً غريبة قد أخـذت تومض في ذهنـه ، وان لم تكن بعدُ واضحة كل الوضوح •

ان جبريل آرداليونتش ما يزال في حجرة المكتب ، غارقاً في أوراقه• كان يبدو عليه أنه يستحق فعـلاً الرواتب التي كان يتقاضاها من شركة الأسهم •

واضطرب الى أقصى حدود الاضطراب حين طلب منه الأمير الصورة، وروى له كيف علموا هناك بوجودها . وصاح يقول غاضباً حانقاً مقهوراً :

ـ آه ... آه ... ما كانت حاجتك الى تلك الثرثرة كلها ؟

ثم تمتم يقول من بين أسنانه :

ـ أنت لا تعرف شيئاً ... أنت أبله !

قال الأمير :

ـ متأسف . قلت ما قلته دون تفكير ، أثناء الحديث . قلت ان آجلايا تكاد تكون فى مثل جمال ناستاسيا فيليبوفنا .

سأله جانيا أن يقصَّ عليه الأمر بالتفصيل ، ففعل الأمير . فألقى عليه جانيا نظرة ساخرة .

ودمدم يقول :

ـ أنت مغرم بناستاسيا فيليبوفنا طبعاً ...

ولكنه لم يكمل كلامه ، وشرد فكره .

كان واضحاً أنه قلق . وذكَّره الأمير بأن الجنرالة تطلب منه الصورة .

قال جانيا فجأة ، كأن فكرة مباغتة قد وافته :

ـ اسمع يا أمير . هناك معونة ضخمة أحب أن أطلبها منك ... ولكننى ... حقاً ... لا أدرى ...

اضطرب جانيا ولم يكمل كلامه . كان يبدو نهباً لصراع داخلى ، وكان يلوح عليه التردد فى اتخاذ قرار .

انتظر الأمير صامتاً . وعاد جانيا يروز الأمير بنظرة ثابتة فاحصة متفرسة . ثم بدأ يتكلم ثانية فقال :

ـ يا أمير ••• انني الآن ••• لسبب من الأسباب ••• سبب غريب كل الغرابة ••• بل سبب مضحك ••• لست مسئولاً عنه ••• وهذا على هامش المسألة على كل حال ••• أقول انني الآن •• فيما أظن •• مؤاخذ قليلاً هناك ••• لذلك قررت أن أغيب مدة من الوقت الا اذا دُعيت • لكنني مع ذلك في حاجة قصوى الى أن أُكلِّم آجلايا ايفانوفنا • لقد كتبت بضعة أسطر (كان جانيا يحمل بيده ورقة مطوية) ، ولكني لا أدري كيف أوصلها اليها • فهل لك يا أمير أن تحمل هذه الورقة الى آجلايا ايفانوفنا فوراً ، ولكن الى آجلايا ايفانوفنا وحدها ، أي دون أن يرى أحد ذلك ؟ هل تفهمني ؟ ليس الأمر أمر سرٍ كبير ••• ليس هناك أي شيء يمكن أن ••• ولكن هل تصنع لي هذا ؟

أجاب الأمير :

ـ لا يسرني هذا كثيراً !

فألحَّ جانيا قائلاً :

ـ آه ••• أمير ••• المسألة بالغة الخطورة بالنسبة اليَّ ••• وقد تجيبني آجلايا •• صدِّقني ••• اذا كنتُ أتجه اليك واستعين بك فلأن المسألة بالغة الخطورة ••• من ذا الذي يمكنني أن أكلفه بايصال الرسالة اليها سواك ! ان المسألة ذات خطورة ••• خطورة رهيبة ، بالنسبة اليَّ •

كان وجه جانيا يعبِّر عن خوف بلغ من الفظاعة والهول أن الأمير لم يرفض وأجاب يقول وهو ينظر الى جانيا نظرة اشفاق :

ـ طيب ••• سأنقلها •

فقال جانيا ضارعاً وقد اطمأن روعه :

ـ ولكن يجب ألا يلاحظ أحد ••• واني لأعتمد على عهد الشرف الذي تقطعه على نفسك يا أمير ، أليس كذلك ؟

قال الأمير :

ــ لن أُرى الرسالة أحداً .

أفلت من جانيا لفرط تعجله قولُه :

ــ ليست الورقة مختومة ، ولكن ...

ثم أمسك عن اتمام كلامه خجلاً مضطرباً .

فأجابه الأمير ببساطة :

ــ لن أقرأها .

وأخذ الصورة ، وخرج من حجرة المكتب .

فلما أصبح جانيا وحيداً ، أمسك رأسه بيديه ، وقال يحدث نفسه: « كلمة واحدة منها تكفى ... فربما أقطع عندئذ صلتى بـ ... » . كان من شدة انفعاله أثناء الانتظار ، لا يستطيع أن يعود الى أوراقه ، وأخذ يذرع الغرفة من ركن الى ركن ..

وكان الأمير يمشى شارد اللب . لقد أدهشه ادهاشاً مزعجاً أن يكلف بهذه المهمة . بل ان مجرد تصوره رسالةً يبعث بها جانيا الى آجلايا كان يسوءه . لكنه قبل أن يصل الى الصالون قاطعاً اليه حجرتين ، توقف فجأة كمن تذكر شيئاً ما ، وألقى نظرة على ما حوله ، ثم اقترب من النافذة التماساً لمزيد من الضوء ، وأخذ ينعم النظر فى صورة ناستاسيا فيليبوفنا .

كان كمن يحاول أن يحزر شيئاً يختبىء فى هذه الصورة وقد خطف انتباهه منذ قليل . لم يتركه ذلك الشعور الذى قام فى نفسه حينئذ ، ولكنه يحاول الآن أن يتثبت منه ، فيما يظهر .

ان هذا الوجه الخارق بجماله وبشىء آخر ، يخطف الآن انتباهه بمزيد من القوة . ان فيه كبرياء وعجباً ، وان فيه احتقاراً وازدراء ، بل

يكاد يكون فيه كره وبغض ، غير أنه يعبر فى الوقت نفسه عن ثقة وبراءة وسذاجة غريبة . حتى ان هذا التضـاد نفســه يوقظ فى النفس شيئاً من العطف والشفقة . ثم ان هذا الجمال الذى يبهر الأبصار لا يكاد يطاق : جمال الوجه الشاحب ذى الخدين الخاسفين قليلاً ، والعينين الساطعتين.. انه جمال غريب ! تأملها الأمير لحظة ، ثم ثاب الى نفسه ، فألقى نظرة حواليه ؟ وها هو ذا يقرب الصورة من شفتيه بحركة سريعة فيقبّلها !

حين دخل الأمير الصالون بعد قليل كان وجهه هادئاً كل الهدوء . ولكنه قبل ذلك ما ان صار فى قاعة الطعام (قبل الصالون بحجرتين) حتى كاد يصطدم عند الباب بآجلايا ، داخلةً .

لقد كانت وحيدة .

قال لها وهو يمد اليها الرسالة :

ـ رجانى جبريل آرداليونتش أن أنقل اليك هذا .

فتوقفت آجلايا ، وتناولت الورقة ، وألقت على الأمير نظرة غريبة . لم يكن فى هذه النظرة أى اضطراب أو خجل . كل ما هنالك شىء قليل من دهشة ؛ حتى ان هذه الدهشـــة هى دهشـــة من الأمير وحده . فكأن آجلايا كانت بهذه النظرة تطالب الأمير بأن يشرح لها كيف وجد نفســه مُقْحماً فى هذه القضية ، وتطالبه بذلك فى هدوء وتعالٍ . وارتســم على وجهها أخيراً شىء من سخرية ، وابتسمت ابتسامة خفيفةً ومرّت .

تأملت الجنرالة صورة ناستاسيا فيليبوفنا خلال مدة من الوقت صامتة، مع شىء من الاحتقار ؛ وكانت ممســكة بالصــورة أمامها مادةً ذراعها الى مسافة بعيدة مسرفة فى البعد .

ودمدمت تقول أخيراً :

ـ نعم ، هى جميلة ، بل هى جميلة جــداً . لقــد رأيتها مرتين ، ولكن من بعيد .

ثم اتجهت الى الأمير فقالت له :

ـ اذن هذا هو نوع الجمال الذى تحبه ؟

فأجاب الأمير بشيء من الجهد :

ـ نعم ... هذا هو ...

ـ أقصد ... هل هو هذا بعينه ؟

ـ نعم ... هو بعينه ؟

ـ لأى سبب ؟

دمدم الأمير يقول رغم ارادته تقريباً ، كأنه يكلم نفسه ولا يجيب أحداً :

ـ في هذا الوجه ألم كبير وعذاب عظيم ...

قالت الجنرالة :

ـ على كل حال قد لا يكون هذا عندك الا هذياناً ...

ورمت الصورة على المائدة بحركة كبيرة متعالية . فتناولت ألكسندرا الصورة ، واقتربت منها آديلائيد ، وأخذت البنتان تنعمان النظر فيها معاً. وفى تلك اللحظة عادت آجلايا .

هتفت آديلائيد تقول فجأة وهى تنظر الى الصورة بشراهة من فوق كتف أختها :

ـ يا لها من قوة !

فسألتها اليزابت بروكوفيفنا بخشونة :

ـ أين ؟ أية قوة ؟

فقالت آديلائيد بحرارة :

ـ ان جمالاً كهذا الجمال لهو قوة . ان جمالاً كهذا الجمال يمكن أن يقلب العالم !

وعادت الى مسند لوحتها شاردة الذهن مفكّرة .

لم تُلق آجلايا على الصورة الا نظرة عابرة ، فجعّدت عينيها ، ومطت شفتها السفلى ، ومضت تجلس منزوية عاقدةً ذراعيها على صدرها.

دقت الجنرالة الجرس ، فدخل خادم فقالت له :

ـ ادع جبريل آرداليونتش . هو فى حجرة المكتب .

فهتفت ألكسندرا تقول :

ـ ماما !

فقالت الجنرالة حاسمةً ، مانعةً كل جواب :

ـ أريد أن أقول له كلمة ! كفى !

كان واضحاً أنها مهتاجة . والتفتت الى الأمير فقالت له :

ـ هل ترى يا أمير ؟ لم يبق عندنا هنا الا أسرار ، لا شيء الا الأسرار ! يظهر أن هذا لا غنى له ... يا للغباوة ! وذلك فى أمر يقتضى منتهى الصراحة والوضوح والصدق والاستقامة ! هناك مشروعات زواج ... وليست تعجبنى هذه المشروعات !...

أسرعت ألكسندرا توقفها عن الكلام من جديد قائلة :

ـ ماما ! ماذا جرى لك ؟

ـ ماذا تريدين يا ابنتى العزيزة ؟ أهى ترضيك أنت ، هذه المشروعات ؟ لا مانع أن يسمع الأمير ... فنحن أصدقاء !... أنا وهو ، على الأقل صديقان ... ان الله يبحث عن الأخيار أما الأشرار وأصحاب النزوات ، فما أكرهم ! ولا سيما أصحاب النزوات أولئك الذين يقررون

اليوم شيئاً ويفعلون في الغد شيئاً آخر . هل تفهمين عني يا ألكسندرا ايفانوفنا ؟ هنّ يقلن ، يا أمير ، انني غريبة الأطوار ، في حين أنني أستطيع أن أميِّز الأمور . ذلك أن العبرة بالقلب ، أما ما عدا ذلك فسفاسف ! صحيح أن الذكاء لازم أيضاً ، بل قد يكون الذكاء أهمّ شيء.. لا تضحكي ساخرة يا آجلايا ، فأنا لا أتناقض . فان الحمقاء التي لها قلب وليس لها ذكاء ، لا تقلُ شقاء عن حمقاء لها ذكاء وليس لها قلب . هذه حقيقة قديمة . فأنا الحمقاء التي لها قلب وليس لها ذكاء ؛ وأنت الحمقاء التي لها ذكاء وليس لها قلب ؛ وذلك هو السبب في أننا كلتينا شقيتان ، وفي أننا كلتينا نتألم ونتعذب .

لم تستطع آديلائيد أن تكبح جماح نفسها ، بعد أن كانت بين جميع الحاضرات أكثرهن احتفاظاً بمزاحها المرح الفرح ، فقالت :

ـ ما الذي يشقيك ياماما ؟

فقالت الجنرالة حاسمة :

ـ يشقيني أولاً أن لي بنات متفيهقات كثيراً ... ولما كان هذا كافياً فلا داعي الى أن أفيض في الكلام على ما عداه ! كفى ثرثرة ! سنرى كيف تحسنان التصرف كلتاكما (ولست أعد آجلايا) بما تملكان من قوة فكر وسنرى هل ستستطيعين ، أنت يا ألكسندرا ايفانوفنا المدهشة ، أن تكوني سعيدة مع صاحبك السيد النبيل !...

واذ رأت جانيا داخلاً ، صاحت تقول :

ـ آ ... وهذا عرس آخر ...

وحيَّا جانيا ، فأجابته دون أن تدعوه الى الجلوس :

ـ صباح الخير . هيه ... اذن ستزف ؟

فتمتم جبريل آرداليونتش يقول مبهوتاً مصعوقاً :

ـ أزف ؟ كيف هذا ؟... كيف أزف ؟

لقد اضطرب اضطراباً فظيعاً .

ـ أقصـد ستتزوج ؟ ذلك ما أسـألك عنـه ، اذا كان هذا التعبير يرضيك أكثر !

فكذب جبريل آرداليونتش قائلاً وقد احمر وجهه من الخجل :

ـ ل ... ل ... لا ... لن .. لن ..

وألقى نظرة سريعة على آجلايا التى كانت ما تزال منتحية ، ثم أشاح وجهه بسرعة . كانت آجلايا تنظر اليه بهـدوء وبرود ، دون أن تحوّل عنه بصرها ، وكانت تراقب اضطرابه .

ألحت اليزابت بروكوفيفنا اللجوج تسأله :

ـ لا ؟ تقول لا ؟ يكفى . سأتذكر أنك فى صباح يوم الأربعاء قد أجبت عن سـؤالى بقولك : « لا » . فى أى يوم نحن ؟ ألسـنا فى يوم الأربعاء ؟

أجابت آديلائيد :

ـ أظن أنه يوم الأربعاء يا ماما .

ـ لا أحد يعرف الأيام والتواريخ . فى أى يوم من أيام الشـهر نحن ؟

قال جانيا :

ـ فى اليوم السابع والعشرين .

ـ فى السابع والعشرين ؟ هذا تاريخ مناسب من بعض النواحى . طيب . استودعك الله ! عندك أعمال كثيرة فيما أظن ، وأنا يجب علىّ أن أرتدى ثيابى لأخرج . استرد هذه الصـورة . وانقل تحيتى الى أمك المسكينة نينا ألكسندروفنا ! الى اللقاء يا أمير ، يا صديقى ، يا صديقى !

زرني كثيراً . أما أنا فانني ذاهبة الى العجوز بيلوكونسكايا خصيصاً لأكلمها عنك . واسمع يا عزيزي : انني أومن صادقة بأن الله انما أرسلك من سويسرا الى بطرسبرج من أجلي أنا . قد تعمل شيئاً آخر ، ولكنك بعثت الى هنا من أجلي أنا خاصة . الله هو الذي شاء ذلك . الى اللقاء يا عزيزاتي . ألكسندرا ، تعالى الىّ يا صديقتي .

وخرجت الجنرالة . وتناول جانيا الصورة من على المائدة مضطرباً طائش العقل ممتلىء النفس حقداً ، ثم التفت نحو الأمير وهو يبتسم ابتسامة مصطنعة :

ــ أنا عائد الى بيتي يا أمير . فاذا كنت ما تزال تنوي أن تقيم عندنا ، فسأقودك الى هناك ، فانك لا تعرف العنوان .

قالت آجلايا وهي تنهض عن مقعدها :

ــ لحظة يا أمير . عليك أن تكتب شيئاً في دفتري (الألبوم) . بابا يدعي أنك خطاط . سأجيئك بالدفتر .

قالت آديلائيد :

ــ الى اللقاء يا أمير . أنا أيضاً منصرفة .

وصافحت الأمير مصافحة قوية ، وابتسمت له ابتسامة فيها لطف ومودة ومحبة ، وخرجت دون أن تلقي على جانيا نظرة واحدة .

قال جانيا وهو يصرف بأسنانه ويهرع نحو الأمير :

ــ أنت الذي ثرثرت فجئت على ذكر زواجي ... يا لك من ثرثار وقح !

بهذا جمجم جانيا متعجلاً بصوت خافت ، وقد استعر وجهه سخطاً وحنقاً ، والتمعت عيناه خبثاً وشراً .

أجابه الأمير بأدب هادىء :

ـ أؤكد لك أنك مخطىء . لقد كنت أجهل كل الجهل أنك ستتزوج .

ـ لقد سمعتَ ايفان فيدوروفتش يقول منذ قليل ان كل شيء سيتقرر هذا المساء في منزل ناستاسيا فيليبوفنا ، وهذا ما نقلته اليهن . أنت كاذب! أنىَّ لهنَّ أن يعلمن النبأ بغير ذلك . من ذا الذى كان يمكن أن يبلغهن النبأ سواك ؟ ألم تشر العجوز الى هذا اشارة مباشرة ؟

ـ أنت أقدر منى على أن تعرف من عساه أطلعهن على النبأ ، اذا كنت تحس حقاً أن قد كان ثمة اشارة . أما أنا فلم أقل كلمة واحدة .

قاطعه جانيا يسأل محموماً :

ـ هل نقلت رسالتي ؟ ماذا كان الجواب ؟

ولكن آجلايا دخلت في تلك اللحظة نفسها ، فلم يتسع وقت الأمير لأن يجيب .

قالت آجلايا وهي تضع دفترها على المائدة :

ـ اليك الدفتر يا أمير . فاختر منه صفحةً واكتب لى شيئاً . هذه ريشة جديدة كل الجدة . لا ضير في أن تكون من معدن ؟ لقد سمعت أن الخطاطين لا يستعملون ريشة من معدن .

كانت وهي تكلم الأمير كأنما لا تلاحظ حتى وجود جانيا . ولكن بينما كان الأمير يهيىء الريشة ويختار صفحة ويستعد للكتابة ، دنا جانيا من المدفأة التى كانت تقف آجلايا قربها على يمين الأمير ، وتمتم يقول فى أذنها تقريباً ، بصوت مختلج متقطع :

ـ كلمة ، كلمة واحدة منك ، فأنجو !

التفت الأمير بحركة سريعة ونظر اليهما كليهما . كان يُقرأ في وجه جانيا كرب كبير ويأس هائل . لكأنه نطق بتلك الكلمات دون تفكير، كمن يلقي بنفسه في الماء .

تأملته آجلايا بضع لحظات بتلك الدهشة الهادئة نفسها التي ظهرت عليها منذ قليل أمام الأمير ؟ فكانت هذه الدهشة ، وهذه البلبلة اللتان يبدو أنهما ناشئتان عن أن الفتاة لا تفهم شيئاً البتة مما يقال لها ، كانتـا أشـد هولاً وأفظع وقعاً في نفس جانيا من أعمق احتقار وأكبر ازدراء !

سأل الأمير :

ـ ماذا يجب أن أكتب ؟

فقالت آجلايا وهي تلتفت اليه :

ـ سأملي عليك. أأنت مستعد ؟ اكتب : « أنا لا أصلح للمساومات ». والآن ضع التأريخ ، وأرني الكتابة .

مدّ الأمير اليها الدفتر . فنظرت فيه وقالت :

ـ عظيم ! ان لك خطاً رائعاً . هذا جميل حقاً . شكراً . الى اللقاء يا أمير !

ثم أضافت وقد تذكرت شيئاً ما :

ـ لحظة أخرى . تعال . سأهدي اليك تذكاراً .

فتبعها الأمير ، ولكن آجلايا وقفت منذ صارت في حجرة الطعام ، فمدت اليه رسالة جانيا وقالت له :

ـ اقرأ هذا !

تناول الأمير الرسالة ، ونظر الى آجلايا متحيراً . فقالت آجلايا :

ـ أنا أعرف على وجه اليقين أنك لم تقرأها ، وانك لا يمكن أن تكون نجيّ هذا الرجل وحامل أسراره . اقرأ . انني أصر على أن تقرأ .

كان يبدو أن الرسالة كُتبت على عجل . قرأ الأمير :

« اليوم يتقرر مصيرى ، تعلمين كيف . اليوم سأُضطر أن أقطع على نفسي وعداً لا نكول عنه . ليس لى أى حق في اهتمامك بى ، ولست أحمل أى أمل . غير أنك نطقت كلمةً في ذات يوم ، كلمةً واحدة ، فأنارت تلك الكلمة ظلام حياتى الحالك ، وأمست منارةً لى . قولى لى كلمة أخرى كتلك الكلمة ، فتنقذينى من الضياع ! قولى فقط : « اقطع كل صلة » ، فأفعل ذلك فى هذا اليوم نفسه . آه ... هل يكلفك باهظاً أن تقولى لى ذلك ؟ اننى اذ أطلب منك هذه الكلمة لا ألتمس الا علامة اكتراث وشفقة ، لا شيء غير ذلك ، لا شيء ، لا شيء ! اننى لا أجرؤ أن اسمح لنفسى بأى أمل ، لأننى « لا أستحق » . لكننى بعد كلمة واحدة منك سأرتضى فقرى من جديد ، وسأحتمل حالتى اليائسة فرحاً . سأستأنف الكفاح ، وسيسعدنى أن أكافح ، وسأُبعث بالكفاح بعثاً آخر ، فأزخر بقوى جديدة .

« ابعثى الىَّ بكلمة الشفقة تلك وحدها (« لا شيء الا الشفقة » أحلف لك !) . ولا يغضبنْك تهور رجل يائس ، رجل يغرق فيتجرأ أن يقوم بجهد أخير ليتقى الهلاك .

« ج. اى. »

فلما فرغ الأمير من القراءة قالت آجلايا بلهجة قاسية :

- يزعم هذا الرجل أن كلمة « اقطع كل صلة » لا يمكن أن تعرضنى لشيء ولا يمكن أن تلزمنى بشيء ؛ وما هذه الرسالة ، كما رأيت، الا نوع من تأكيد مكتوب . لاحظ مدى سذاجته فى الاسراع الى وضع خط تحت بعض الكلمات ، ومدى الفلظة فى ظهور فكرته المبيتة ونيته

المخبأة وراء ذلك • وهو يعلم على كل حال أنه لو قطع كل صلة من تلقاء نفســه ، بمحض ارادته ، دون أن ينتظر تشجيعــاً مني ، وحتى دون أن يكلمني في هذا الأمر ، ودون أن يستطيع أن يعقد عليّ أيّ أمل ، لكان من الممكن أن تتحسن عواطفي نحوه ، ولكان من الممكن أن أغدو صديقة له • وهو يعلم ذلك حق العلم على كل حال ! لكنه رجل دنس النفس • هو يعلم ذلك لكنه يطلب ضمانا • انه لا يستطيع أن يبني عمله على الثقة انه يريد أن أعطيه أملاً ، في مقابل المائة ألف روبل ! أما عن الكلمه التي يزعم في رسالته أنني نطقت بها فأنارت حياته ، فذلك كله كذب واختلاق وقح • كل ما هنالك أنني شـعرت نحوه بشيء من الشـفقة في يوم من الأيام • لكنه رجل وقح لا حيـاء فيه ، فسرعان ما قدّر أن في وسـعه أن يعقد أملاً • لقد فهمت أنا ذلك فوراً • وهو منذ ذلك اليوم يحاول أن يوقعني في الفخ ، وهذا بعينه ما حاوله في هذا النهار أيضاً • ولكن كفى الآن ! خذ رسالته هذه ، وأعدها اليه متى خرجتما من الدار ، لا قبل ذلك•

ـ وما هو الجواب الذي ينبغي أن أحمله اليه ؟

ـ لا جواب ، طبعاً ! ذلك خير جواب • اذن أنت تنوي أن تقيم في بيتهم ؟

قال الأمير :

ـ ان ايفان فيدوروفتش نفسه هو الذي نصحني بهذا منذ قليل •

ـ فكن منه اذن على حذر ! انني أنبّهك • لن يغفر لك ارجاع هذه الرسالة التي سترجعها اليه !

صافحت آجلايا يد الأمير مصافحة خفيفة ، وخرجت • كان وجهها مقطباً مكفهراً • حتى انها لم تبتسم له وهي تحييه برأسها مودّعة •

قال الأمير يخاطب جانيا :

ـ لحظة ، آخذ صرتي فوراً ثم ننصرف •

قرع جانيا الأرض بقدمه من نفاد الصبر • لقد اسودّ وجهه حنقاً• وأخيراً خرج الاثنان الى الشارع ، والأمير يحمل بيده صرّته •

سأله جانيا وهو يكاد يرتمي عليه :

ـ هيه ، الجواب ؟ ماذا قالت لك ؟ هل أعطيتها رسالتى ؟

فمدّ اليه الأمير الرسالة صامتاً • فتصلب جانيا كالمتجمد ، وهتف يسأل :

ـ كيف ؟ رسالتي ؟ آه ••• لم يعطها الرسالة ! كان عليّ أن أقدّر ذلك ! آه ••• لعنة الله عليه ••• الآن يتضح لى كيف أنها لم تفهم اذن شيئاً منذ قليل !••• ولكن كيف ، كيف أمكنك ألا تعطيها الرسالة ؟ آه ••• لعنة الله على •••

ـ عفوك • ان ما حدث هو عكس هذا تماماً • لقد سهّلت لى الظروف أن أعطيها رسالتك بعد أن أعطيتنيها أنت بلحظة واحدة ، مع أدق الالتزام بما أوصيتنى به • واذا كانت الرسالة بين يديّ الآن ، فلأن آجلايا قد ردّتها اليّ منذ هنيهة •

ـ متى ؟ متى ردّتها اليك ؟

ـ منذ أنهيت الكتابة فى دفترها فدعتنى الى أن أتبعها (هل سمعتها ؟)• فلما صرنا فى قاعة الطعام مدّت اليّ هذه الرسالة وطلبت منى أن أقرأها ثم أرجعها اليك •

زأر جانيا قائلاً :

ـ أن تقرأها ؟ أن تقرأها ؟ وقرأتها ؟

تجمّد جانيا في وسط الرصيف وقد بلغ من الشدّه أن فمه ظل فاغراً •••

قال الأمير :

ـ نعم ، قرأتها .

ـ وهى التى أقرأتك الرسالة ، هى نفسها ؟ هى نفسها ؟

ـ نعم ، هى نفسها . صدِّقنى : ما كان لى أن أقرأها قط لولا أننى أُمرت بذلك .

لبث جانيا صامتاً خلال لحظة ، يبذل جهوداً كبيرة من أجل أن يفهم شيئاً ، ولكنه صاح يقول فجأة :

ـ مستحيل ! لا يمكن أن تكون قد طلبت منك قراءة الرسالة ! أنت تكذب ! أنت قرأت الرسالة من تلقاء نفسك .

قال الأمير بتلك اللهجة الهادئة نفسها :

ـ لقد قلت لك الحقيقة . صدِّق أننى آسف أشد الأسف لما أحدث هذا الأمر فى نفسك من انزعاج وضيق .

ـ ولكن ، أيها الشقى ، لا بد أنها قالت لك شيئاً على الأقل ، حين أعادت اليك الرسالة ؟ فهل حمَّلتك جواباً ما ؟

ـ نعم ، طبعاً !

ـ فما بالك لا تتكلم اذن ! ما بالك لا تتكلم !

وقرع جانيا أرض الرصيف مرتين بقدمه اليمنى المنتعلة جرموقاً من مطاط فوق الحذاء .

قال الأمير :

ـ ما ان أنهت قراءة الرسالة حتى قالت لى انك تحاول أن توقعها فى الفخ ؟ فأنت تريد أن تحصل منها على وعدٍ بأمل ، فاذا قويتَ بهذا الوعد ، أمكنك أن تقطع الصلة دون خسرانٍ ، وذلك بأمل مقداره

مائة ألف روبل ؟ وأضافت أنك لو فعلت دون أن تساومها ، أي لو قطعت تلك الصلة من تلقاء نفسك بمحض ارادتك دون أن تطلب منها أية ضمانة سلفاً ، لكان من الجائز أن تفوز بصداقتها لك . أظن أن هذا هو كل ما قالته . آ ... نعم ... هناك شيء آخر : فحين سألتها بعد استرداد رسالتك ما جوابها ، قالت ان خير جواب هو ألا تعطي جواباً . أظن أن هذا هو ما قالته . سامحني اذا نسيت الألفاظ التي استعملتْها هي نفسها نصاً ، فانا أنقل اليك ما أظن أنني فهمته .

استولى على جانيا غضب لا حدود له ، وانفجر حنقه دون أي سيطرة على نفسه ، فقال وهو يصرف بأسنانه :

ـ ها ... هكذا !... تُرمى رسائلي من النافذة ! آ ... هي لا تصلح للمساومات ! طيب ... طيب ... ولكنني سأصلح لها أنا .. ولسوف نرى !... أنا لم أقل بعد كل شيء ... لسوف ترى !... لتصلنّها أخباري ! » ..

كان يصعّر وجهه ، وكان يشحب لونه ، وكان يرغي ويزبد ، ويهدد بقبضة يده ويتوعد . وسارا بضع خطوات وهما على هذه الحال . لم يتحرج جانيا أمام الأمير أي تحرج ، حتى لكأنه خال الى نفسه في غرفته ، لأنه لم يكن يعده شيئاً مذكوراً . ثم توقف وقد فجأته فكرة مباغتة ، فقال يسأل الأمير :

ـ ولكن كيف أمكنك (وأضاف جانيا يقول بينه وبين نفسه : كيف امكن هذا الأبله) ... كيف أمكنك أن تدخل الى خفايا أمورهن وأن تصبح محل سرّهن ولمّا ينقض على معرفتك بهن أكثر من ساعتين ؟ كيف هذا ؟

لم يكن ينقصه لاكتمال أنواع عذابه الا أن تضاف اليها الغيرة . وها هي ذي الغيرة تعض الآن قلبه على حين فجأة .

أجابه الأمير قائلاً :

ـ هذا لا أستطيع أن أعلّله لك !

فرشقه جانيا بنظرة خبيثة شريرة ؟ وقال له :

ـ أمن أجل أن تهدى اليك تقتها انما دعتك اذن الى قاعة الطعام ؟ لقد قالت انها تريد أن تهدى اليك شيئاً ، أليس كذلك ؟

ـ لا أفهم الأمر على غير هذا الوجه !

ـ ولكن لماذا ؟ حقاً انه لأمر عجيب !... ماذا فعلت هناك ؟ كيف استطعت أن تحظى باعجابهن ؟ اسمع ...

كان جانيا يضطرب بكل قواه . وكان كل شيء في نفســه مشوشاً يغلي ويفور ، فهو لا يســتطيع أن يفلح في جمع شــتات أفكاره . وتابع كلامه فقال :

ـ اسمع ... ألا تستطيع أن تحاول أن تتذكر كل ما تحدثت فيه وأن تعيده مرتباً منظماً متسلسلاً ، وأن تذكر كل ما قيل من البداية الى النهاية ؟ ألم تلاحظ شيئاً يمكنك أن تتذكره ؟

أجاب الأمير :

ـ أوه ... هذا ســهل ! منذ البـداية ، منذ دخلت وتم التعارف ، تحدثنا عن سويسرا .

ـ دعنا من سويسرا ... فلتذهب سويسرا الى جهنم !...

ـ ثم تحدثنا عن عقوبة الاعدام ...

ـ عن عقوبة الاعدام ؟

ـ نعم ، عرضاً ... ثم وصفت لهن الســنين الثلاث التى عشــتها هناك ، وقصصت عليهن قصة القروية المسكينة .

ـ فلتذهب القروية المسكينة الى جهنم ! أكمل …

كان جانيا يدبدب بقدميه من نفاد الصبر وشدة التململ . وتابع الأمير كلامه فقال :

ـ ثم ذكرت لهن كيف أن شنايدر أطلعنى على رأيه فى طبعى ، ودفعنى الى …

ـ فليذهب شنايدر الى جهنم ! لا تهمنى آراؤه ! وبعد ذلك ؟

ـ بعد ذلك أخذت أتكلم عن الوجوه ، لا أدرى بأية مناسبة ، أقصد … عن تعبير الوجوه ، فقلت لآجلايا ايفانوفنا انها فى مثل جمال ناستاسيا فيليبوفنا تقريباً . وعندئذ انما أفلتت من لسانى كلمات عن الصورة …

ـ لكنك لم تنقل اليهن ما كنت قد سمعته فى حجرة المكتب ، أليس كذلك ؟ لم تنقله اليهن ، أليس كذلك ؟ أليس كذلك ، لم تنقله اليهن ..

ـ أكرر لك أننى لم أنقله اليهن …

ـ ولكن … عجيب … ألم تطلع أجلايا أمها على الرسالة ؟

ـ أستطيع أن أضمن لك أنها لم تطلعها عليها . اننى لم أتركهن لحظة . ثم انها لو أرادت أن تطلعها عليها لما اتسع الوقت لهذا .

ـ ولكن لعل شيئاً حدث ولم تلاحظه …

ثم صاح جانيا يقول وقد خرج عن طوره تماماً :

ـ يا لأبله النحس !… انه عاجز حتى عن أن يروى الأمور على نحو مناسب !

واذ شتم مرةً فلم يلق مقاومة ، أخذ يفقد كل تحفظ شيئاً بعد شىء ، كما يحدث ذلك دائماً لبعض الأشخاص . حتى لقد كان من الممكن وقد بلغ ذروة حنقه أن يمضى الى حد البصق . لكن هذا الحنق نفسه قد أعماه . والا لكان قد لاحظ منذ مدة طويلة أن هذا « الأبله » الذى

يعامله هو هذه المعاملة يفهم فى بعض الأحيان كل شيء بسرعة عظيمة ، ودقة شديدة ، ويجيد الرواية اجادة تامة • غير أن شيئاً لم يكن في الحسبان قد حدث على حين فجأة •

قال الأمير بغتة :

ـ يجب أن ألفت نظرك يا جبريل آرداليونتش أننى فى الماضى كنت مريضاً بالفعل ، حتى لقد أصبحت كالأبله ، ولكننى شُفيت منذ مدة طويلة ، وانه ليؤلمنى أن أسمع أحداً يصفنى بأننى أبله • ورغم أن المرء قد يعذرك بسبب ما أنت فيه من خيبة الآمال وسقوط الأمانى ، فقد شتمتنى حتى الآن مرتين أو ثلاث مرات ، وهذا ما لا أرضى عنه البتة ، لا سيما وانه لا سبب له ، وانما أنت تندفع فيه اندفاعاً وتسترسل فيه استرسالاً بغير داعٍ منذ أول لقاء بيننا • أفلا ترى والحالة هذه ، ما دمنا الآن عند مفترق طرق ، أن نفترق هنا ، فتذهب يمنةً وأذهب يسرة ؟ ان معى خمسة وعشرين روبلاً ، ولا شك أننى واجد فندقاً أبيت فيه •

أحس جانيا بخجل شديد واضطراب كبير ، حتى لقد احمر وجهه من شعوره بالعار لأنه أُخذ هذا الأخذ بغتةً على وجه لم يكن يتوقعه البتة •

قال معتذراً بحرارة ، منتقلاً من الشتم المقذع الى التهذيب الرقيق:

ـ سامحنى يا أمير ، ناشدتك الله ••• انك لترى ما أنا فيه من شقاء• أنت لا تعرف بعد شيئاً ، فلو عرفت كل شيء لغفرت لى بعض الغفران حتماً ، وان يكن سلوكى هذا لا يغتفر طبعاً •••

أسرع الأمير يطمئنه قائلاً :

ـ لا أطلب كل هذه الاعتذارات • انى لأدرك أنك قلق مضطرب ،

وأن هـذا هو السبب في شتمي • طيب • فلنـذهب الى بيتـك • أنا من جهتي يسرني هذا •

كان جانيا يقول لنفسه أثناء السير وهو يلقي على الأمير نظرات كره وبغض : « لا ، يستحيل أن أتركه الآن • لقد أخـذ مني هذا الوغد كل ما كان يريد ، وها هو ذا يرمي عن وجهه القناع ••• ان في الأمر شيئاً مختفياً • سوف نرى • سوف يتقرر كل شيء ، كل شيء ، في هذا اليوم نفسه » •

وكانا قد وصلا الى الدار •

الفصل الثامن

يقع بيت جانيا فى الطابق الثانى ، ويوصل اليه سلّم نظيف فسيح نيِّر ، ويتألف من ست غرف أو سبع تتفاوت سعة ؛ واذا كان هذا البيت عادياً فى الواقع ، فلا شك أن أجرته فوق طاقة موظف متواضع يقع على كاهله عبء أسرة ، ولو بلغ مرتبه ألفى روبل . لكن هذا البيت كان مهيأً كذلك لاستقبال مستأجرين مع الطعام والخدمة ، ولم يسكنه جانيا وأسرته الا منذ شهرين فى أكثر تقدير ، على استياء من جانيا نفسه ، وبالحاح من نينا ألكسندروفنا وباربارا آرداليونوفنا اللتين كانتا ترغبان فى أن تكونا نافعتين هما أيضاً ، وأن تساهما فى زيادة دخل العائلة ولو قليلاً . كان جانيا يظهر امتعاضه ويعدُّ هذا التدبير سقوطاً . وهو منذ أقاموا فى هذا المنزل يشعر بحرج فى المجتمع ، حيث ألف حتى ذلك الحين أن يظهر فتى لامعاً يبشر بأن يكون له مستقبل فكانت هذه التنازلات كلها وهذا الشيوع المزعج كله بمثابة جروح عميقة فى نفسه . حتى أصبح منذ بعض الوقت يثيره أبسط أمر من الأمور اثارة شديدة تخرجه عن طوره ؛ واذا كان لا يزال يرتضى أن يرضخ وأن يصبر ، فما ذلك الا لأنه عقد النية بثبات وقوة وصلابة على أن يغير هذا الوضع كله فى أقصر مدة . ومع ذلك فان هذا التغيير نفسه ، والحلّ الذى انتهى الفتى اليه

وعزم أمره عليه ، قد أصبحا مسألة خطيرة ، مسألة يهدد حلها بأن تكون متاعبه وهمومه أوفر عدداً وأشد ايلاماً مما سبق .

كانت الشقة مشطورة شطرين بدهليز يبدأ من المدخل . ففى احدى الجهتين تقع الغرف الثلاث الموقوفة على المستأجرين « الموصى بهم توصية خاصة » ؛ وفى تلك الجهة نفسها ، عند آخر الدهليز ، قرب المطبخ ، توجد حجرة صغيرة هى أضيق سائر الحجرات ، يعيش فيها وينام فيها ، على ديوان عريض ، ربُّ الأسرة نفسه ، الجنرالُ المتقاعد ايفولجين، الذى كانوا يضطرونه أن يكون خروجه ورجوعه من المطبخ وسلَّم الخدم. وفى تلك الغرفة الصغيرة نفسها يسكن أيضاً الفتى الصغير كوليا *، أخو جبريل آرداليونتش ، وهو تلميذ فى المدرسة الثانوية عمره ثلاثة عشر عاماً . كان هذا الفتى الصغير مضطراً هو أيضاً الى أن ينكمش حتى يستطيع أن يعيش فى هذه الغرفة وأن يطالع دروسه فيها ؛ فهو ينام على ديوان ثان ، متداع ، ضيق ، قصير ، مثقب الأغطية . وكان عليه عدا ذلك أن يعتنى بالجنرال وأن « يسهر عليه » ، لأن الجنرال كانت تزداد حاجته اليه يوماً بعد يوم .

أُعطى الأمير غرفة الوسط ، فأما التى على يمينها فكان يسكنها فردشتينكو ؛ وأما التى على شمالها فما تزال خالية لم يقطنها أحد . ولكن جانيا قاد الأمير فى أول الأمر الى ذلك الجزء من الشقة ، الذى تقيم فيه الأسرة . ان الجزء يتألف من غرفة استقبال يحيلونها عند الحاجة الى غرفة طعام ، ومن صالون ليس فى الحقيقة صالوناً الا فى الصباح حتى اذا حلَّ المساء أمسى حجرة مكتب فغرفة نوم لجانيا ؛ وهناك أخيراً غرفة ثالثة ، صغيرة مقفلة الباب دائماً ، هى غرفة نوم نينا ألكسندروفنا وباربارا آرداليونوفنا .

الخلاصة أن جميع الأشياء وجميع الأشخاص كانت فى هذه الشقة

محشورة متراصة تعيش في مكان أضيق من أن يتسع لها • فكان جانبيا لا يكف عن الصريف بأسنانه غيظاً ، وكان لا يفوت من يراه منذ أول نظرة أنه في هذه الأسرة طاغية مستبد ، رغم حرصه على أن يظهر بمظهر من يحترم أمه ويوقّرها •

لم تكن نينا ألكسندروفنا وحيدة في الصالون ، بل كانت تجالسها باربارا آرداليونوفنا • وكانتا كلتاهما منهمكتين في النسج بالابرة ، على تحدثهما مع زائر كان معهما هو ايفان بتتسين • ان نينا ألكسندروفنا تبدو في الخمسين من العمر • وجهها نحيل شاحب اللون ؛ وتحت عينيها هالتان زرقاوان • مظهرها كله يدل على المرض ، ويدل على شيء من الألم ، غير أن في وجهها ونظرتها شيئاً من جاذبية • والمرء يدرك من أولى كلماتها أن لها طبعاً جاداً وخلقاً رصيناً ووقاراً صادقاً ؛ وأنها رغم الألم الذي يعبر عنه وجهها ، تملك جناناً ثابتاً ، بل وعزيمة قوية • ثيابها متواضعة جداً ، فهي سوداء ، وهي على الزيّ الذي ترتديه العجائز ؛ ولكن حركاتها وآدابها وحديثها وسلوكها ، كل هذا يدل على أنها انسانة عرفت كذلك بيئة أرفع من هذه البيئة وأرقى •

أما باربارا آرداليونوفنا فهي فتاة في الثالثة والعشرين من العمر ، متوسطة القامة ، نحيلة الجسم ، ان لم يكن وجهها جميلاً حقاً ، فان فيه سرّ الفتنة بغير جمال ، وآية الجذب الى درجة الهوى • انها تشبه أمها كثيراً ، وتكاد ترتدي ما ترتديه أمها ، فلا أثر في ثيابها لتبهرج أو تغندر • نظرة عينيها الشهباوين يمكن أن تكونا في بعض الأحيان مرحتين كل المرح ، ملاطفتين كل الملاطفة ، لكن هذه النظرة هي في الغالب الأعم رصينة مفكّرة ، مفرطة في الرصانة مسرفة في التفكير أحيانا؛ ولا سيما في هذه الآونة الأخيرة • ومن يرها يقرأ في وجهها ثبات الجنان وقوة العزيمة أيضاً ، ولكنه يحس أن هذا الثبات وهذه العزيمة يمكن أن

يتجليا عندها بأكثر مما يتجليان عند أمها طاقةً دفاقة ومبادهة أصيلة أيضاً . ان لباربارا آرداليونوفنا طبيعة مندفعة ، حتى لقد كان أخوها يخاف اندفاعاتها بعض الخوف أحياناً . وكان الزائر الذى تحدثانه ، يخاف اندفاعاتها بعض الخوف هو أيضاً . انه رجل ما يزال شاباً ، فى نحو الثلاثين من عمره ، يرتدى ثياباً متواضعة لكنها أنيقة . فى آدابه رقة ولطف ، وان يكن متصنعاً بعض التصنع . تدل لحيته الصغيرة القاتمة الشقرة على أنه رجل غير مقتصر على حياة الوظيفة ، أو قانع بها . اذا تحدث كان حديثه ذكياً شائقاً ، لكنه فى أكثر الأحيان صموت . وهو على وجه الاجمال يُحدث فى النفس شعوراً بالارتياح .

كان واضحاً أن باربارا آرداليونوفنا تهمه وتمنيه ، وهو لا يحاول أن يخفى عواطفه . وكانت هى تعامله بمودة وصداقة ، لكنها ما تزال تتأخر فى الاجابة عن عددٍ من أسئلة كان يظهر على باربارا أنها لا تعجبها . ولكن بتسين لا تثبط من ذلك عزيمته ولا ييأس . وكانت نينا ألكسندروفنا تظهر له حفاوة وبشاشة ، حتى لقد تعودت فى الآونة الأخيرة أن تسرَّ اليه بما فى نفسها . وكان معروفاً من جهة أخرى أن بتسين قد وجد لنفسه اختصاصاً هو أن يقرض مالاً بفوائد ، لآجال قصيرة ، على رهون مضمونة . وكانت تربطه بجانيا صداقة قوية .

قام جانيا بواجب التقديم والتعريف ، ولكن على نحو متقطع . حيَّا أمه بكثير من الخشونة ، ولم يسلِّم على أخته ، ثم سرعان ما خرج مقتاداً بتسين .

وجَّهت نينا ألكسندروفنا الى الأمير بضع كلمات ترحيب ، ثم أمرت كوليا ، الذى ظهر فى العتبة ، بأن يقود الأمير الى الغرفة الوسطى. ان كوليا فتى مرح بشوش ، فى طبيعته ثقة وبساطة .

سأل كوليا الأميرَ وهو يدخله غرفته :

ـ أين أمتعتك ؟

ـ لى صرة وضعتها فى حجرة المدخل ٠

ـ سأجيئك بها حالاً ٠ ليس عندنا خدم الا الطباخة وماتريونا ، لذلك تراني أساعد في العمل ٠ ان فاريا تراقب كل شيء وتغضب ٠ قال جانيا انك وصلت اليوم من سويسرا ، هه ؟

ـ نعم ٠

ـ هل سويسرا جميلة ؟

ـ جداً ٠

ـ فيها جبال ؟

ـ نعم ٠

ـ طيب ٠ سأجيئك بحزمك ٠

دخلت باربارا آرداليونوفنا ٠ وقالت :

ـ ستهيىء لك ماتريونا سريرك ٠ هل معك حقيبة ؟

ـ لا شيء الا صرّة ٠ ذهب أخوك ليجيئني بهـا ٠ لقد تركتها فى حجرة المدخل ٠

عاد كوليا الى الغرفة وقال يسأل :

ـ لم أجد شيئاً الا هذه الصرة الصغيرة ، فأين وضعت الأخرى ؟

فأجابه الأمير وهو يتناول منه الصرة :

ـ ليس لى صرّة أخرى ٠

ـ ها ٠٠٠ خشيت أن يكون فردشتينكو قد استولى عليها ٠

قالت له أخته بقسوة :

ـ لا تقل سخافات !

كانت باربارا تكلم حتى الأمير بلهجة خشنة تكاد تكون غير مهذّبة.
قال لها أخوها :

ـ « يا بنتى العزيزة » ! يمكنك أن تكلمينى بلهجة أرق . أنا لست بتسين !

ـ بل يمكننى أن أجلدك يا كوليا ؛ انك غبى جداً .
وعادت تكلم الأمير فقالت :

ـ فى كل ما قد تحتاج اليه تستطيع أن تتجه الى ماتريونا . نحن نتغدى فى الساعة الرابعة والنصف . ولك أن تختـار : تأكل معنـا ، أو يُحمل اليك الطعام فى غرفتك .

وعادت تخاطب كوليا فقالت :

ـ تعال يا كوليا ، لا تزعج السيد !

ـ هلمى بنا يا شديدة البأس !

وفيما كانا يخرجان اصطدما بجانيا .

قال جانيا يسأل كوليا :

ـ هل بابا هنا ؟

فلما أجابه كوليا بأن بابا هنا ، همس فى أذنه ببضع كلمات . فهزّ كوليا رأسه ملبياً ، وخرج يتبع باربارا آرداليونوفنا .

ـ كلمة أخرى يا أمير ... نسيت أن أقولها لك فى زحمة هذه .. القصص كلها ! لى رجاء أتوجه به اليك : قدّم لى هذه الخدمة ـ اذا كان ذلك لا يكلفك جهـداً كبيراً لا طاقة لك به ـ وهى ألا تثرثر هنـا عمّا جرى بينى وبين آجلايا ، ولا أن تثرثر « هناك » عما ستراه هنا . ذلك أن الأمور هنا أيضاً ليست جميلة كلها ، وان يكن هذا كله لا يعنينى .. حاول على الأقل أن تحفظ لسانك اليوم .

أجاب الأمير متضايقاً من ملامات جانيا هذه :

ـ أؤكد لك أني نرنرت أقلَّ كثيراً مما تظن •

كان واضحاً أن العلاقات بينهما تزداد سوءاً •

ـ على كل حال ••• لقد تحملت اليوم بسببك ما فيـه الكفـاية ! الخلاصة : ذلك هو الرجاء الذي اتوجه به اليك •

قال الأمير :

ـ لاحظ أيضـاً يا جبريل آرداليونتش أنني لم أكن مرتبطاً بشيء هناك ، لم أكن قد بذلت لك أي وعد ، لم تكن قد طلبت مني أي أمر : ما الذي كان ينبغي أن يمنعني عن الاتيان على ذكر تلك الصورة ؟ انك لم تسألني هذا •

قال جانيا وهو يلقي على ما حوله نظرة احتقار :

ـ اف • يا لها من غرفة رديئة ! هي مظلمة ، مع هذه النوافذ التي تطل على الفناء ! من كل النواحي ، لم يحالفك التوفيق حين وقعت في هذا المكان • على كل حال ، ذلك أمر لا شأن لي به ، ولا يهمني في قليل أو كثير • لست أنا الذي أتولى هذه التأجيرات !

ظهر بتسين في البـاب ونادى جانيـا • فأسرع جانيا يودّع الأمير وخرج ، رغم ما يبدو عليه من أن هناك أشياء أخرى كان لا يزال يريد أن يقولها • ولكن كان واضحاً أنه لا يعرف من أين يبدأ ، وأنه متحرج مرتبك ؛ حتى ان انتقاده للغرفة لم يكن له من غرض الا أن يخفي ما هو فيه من تشوش واضطراب وبلبلة •

ما ان فرغ الأمير من غسل وجهه ويديه ، ومن ترتيب زينته بعض الشيء ، حتى شُقَّ الباب مرةً أخرى ، فدخل عليه قادم جديد •

هو رجل في نحو الثـلاثين من العمـر ، طويل القـامة ، عريض المنكبين ، يغطي رأسـه الضخم شعرٌ أحمر مجعّد ، وجهه سمين زاهر

اللون ، شفتاه سميكتان ، أنفه قصير عريض ، عيناه صغيرتان غائرتان في الشحم تعبِّران عن سخرية وكأنهما تطرفان بغير انقطاع • في جملة شخصه شيء من وقاحة • ملابسه أدنى الى الاهمال •

لقد شق الباب في أول الأمر شقاً ضيقاً يتيح له أن يطل برأسه فحسب ؛ وأخذ هذا الرأس يفحص الغرفة خلال بضع ثوان ، ثم أخذ الباب ينفتح ببطء الى أن ظهرت قامة الشخص كلها في العتبة ، ولكن الزائر لم يدخل مع ذلك ، فانما هو يكتفي الآن بالتفرس في الأمير طارفاً بعينيه ، الى أن أغلق الباب وراءه آخر الأمر ، واقترب ، فتناول كرسياً ، وأمسك يد الأمير امساكاً قوياً فأجلسه على الديوان قبالته •

قال وهو ينظر الى الأمير بهيئة انتباهٍ واستفهام :

ـ أنا فردشتينكو •••

فقال الأمير وهو يوشك أن ينفجر ضاحكاً :

ـ طيب ، ثم ماذا ؟

دمدم فردشتينكو وهو ما يزال ينظر تلك النظرة نفسها :

ـ مستأجر هنا •

ـ تريد أن نتعارف ؟

ـ هيه !•••

بهذا نطق الزائر وهو يشعِّث شعره ، ثم أخذ يحدق بنظره الى الزاوية المقابلة من الغرفة وهو يتنهد ؛ ثم عاد يلتفت نحو الأمير ويسأله فجأة :

ـ هل معك شيء من مال ؟

ـ قليل •

ـ كم بالضبط ؟

ـ خمسة وعشرون روبلاً •

ـ أَرنيها •

أخرج الأمير من جيب صديرته ورقةً مالية بخمسة وعشرين روبلاً ، ومدَّها الى فردشتينكو • ففضَّها هذا ، وفحصها ، وقلبها ، ثم نظر اليها من جهة الشفافية ، ثم قال مفكِّراً :

ـ غريب ! لماذا يقتم لونها هكذا ؟ ان أوراق الخمسة والعشرين روبلاً يقتم لون بعضها كثيراً ، على حين أن بعضها الآخر يحول لونها تماماً • خذها •

استرد الأمير ورقته المالية • ونهض فردشتينكو عن كرسيه • وقال للأمير :

ـ جئت لأحذِّرك أولاً من اقراضي مالاً ، لأنني سوف أطلب منك أن تقرضني ، فاياك أن تلبي طلبي •••

ـ سمعاً وطاعة •

ـ هل تنوي أن تدفع هنا أجراً ؟

ـ نعم ، أنوي ذلك •

ـ أما أنا فلا • شكراً • غرفتي الى جانب غرفتك • هي الأولى على اليمين • هل رأيتها ؟ حاول ألا تجيء اليَّ كثيراً• ولكن اطمئن : سأزورك أنا • هل رأيت الجنرال ؟

ـ لا •

ـ ولا سمعته ؟

ـ ولا سمعته طبعاً !

ـ فسوف تراه اذن وسوف تسمعه • ثم انه يطلب حتى مني أنا أن

أقرضه بعض المال • هأناذا نبهتك • « تنبيه للقارىء ! » ••• استودعك الله • هل يستطيع المرء أن يحيا اذا كان يسمى فردشتينكو ؟ هه ؟

ـ لم لا ؟

ـ استودعك الله •

واتجه الزائر الى الباب •

لقد علم الأمير ، فيما بعد ، أن هذا السيد قد أخذ على عاتقه أن يذهل الناس بمرحه وغرابته وشذوذه ، ولكنه كان لا يفلح في ذلك كثيراً، حتى ان بعض الناس كانوا يضيقون به وينزعجون منه ، فكان يتألم من ذلك صادقاً ، ولكن دون أن يكف عن القيام بمهمته •

عند عتبة الباب ، استطاع فردشتينكو أن يضفي على نفسه شيئاً من خطورة الشأن ، حين اصطدم بقادم جديد : فانه اذ تنحى أمام هذا الزائر الجديد الذي يجهله الأمير ، ليفسح له مجال المرور ، قد غمز بعينه عدة مرات مومئاً اليه ، فأتاح له ذلك أن يخرج محتفظاً بشيء من الثقة بالنفس•

القادم الجديد رجل طويل القامة ؛ يبدو في الخامسة والخمسين من عمره أو يزيد ؛ بدين بعض البدانة ؛ وجهه محمر سمين مسطح قليلاً تحيط بعارضيه لحيتان كثيفتان شهباوان ؛ له شاربان ؛ عيناه واسعتان جاحظتان بعض الجحوظ • كان يمكن أن يكون لمنظره كله مهابة ، لولا أن فيه شيئاً من سقوط واهتراء بل ومن اتساخ • انه يرتدي ردنجوتاً عتيقاً يكاد يكون مثقوباً عند الكوعين ؛ وفي قميصه اهمال وبقع ؛ ومن فمه تفوح رائحة فودكا خفيفة تشمها من قرب • ومع ذلك لا تعدم أوضاعه وحركاته أن تحدث في النفس بعض الأثر الحسن ، رغم أنها محسوبة مدروسة ، فهي تدل على رغبة واضحة عنده في أن يخطف البصر بوقاره•

اقترب الشخص من الأمير بغير تعجل ، وهو يبتسم ابتسامة باشة

هاشة ، وتناول يده صامتاً ، وظل ممسكاً بها يتأمل وجهه في انتباه كأنه يتعرف ملامح لا يجهلها •

ودمدم يقول برفق ولكن بوقار :

ـ انه هو ، هو • هو كما لو كان حياً • لقد سمعتهم ينطقون هذا الاسم المعروف العزيز ، فاستيقظ في نفسي ماض كامل ••• أنت الأمير ميشكين ؟

ـ نعم •

ـ أنا الجنرال ايفولجين ، متقاعد بائس • هل يمكنني أن أسألك عن اسمك واسم ابيك ؟

ـ ليون نيقولايفتش •

ـ نعم ، نعم ، هو بنفسه ! انت ابن صديقي ، بل استطيع أن أقول انك ابن صديق طفولتي ، نيقولا بتروفتش !

ـ كان اسم أبي نيقولا لفوفتش •

ـ لفوفتش ، نعم ، لفوفتش •••

كذلك صحّح الجنرال ، ولكن دون تعجل ، بل بثقة تامة ، كأنه لم ينس قط ، وانما زل لسانه بغلطة •

وجلس ، وأمسك الأمير بيده هو أيضاً ، وأجلسه قربه •

ـ لقد حملتك بذراعيّ !

قال الأمير :

ـ أهذا ممكن ؟ لقد انقضى على موت أبي عشرون عاماً •

ـ نعم ، عشرون عاماً ، عشرون عاماً وثلاثة أشهر • لقد كنا في المدرسة معاً ، وما لبثت أن التحقت أنا بالسلك العسكري •••

ـ أبي أيضـــاً خـدم في الجيش ، كان ملازمـاً ثانيـــاً في لـواء فاسيلكوفسكي •

ـ بل في لواء بيلوميرسكي • لقد نقل الى لواء بيلوميرسكي عشية وفاته تقريباً • وكنت أنا هناك ، وباركته الى الأبد • وأمك •••

هنا صمت الجنرال برهةً قصيرة كأنما أوقفته عن الكلام ذكرى حزينة •

فقال الأمير :

ـ ماتت هي أيضاً بعد ستة أشهر ، من اصابة ببرد •

ـ لا ، لم تمت من اصابة ببرد ، أبداً ، صدّق كلام رجل عجوز • كنت أنا هناك • وقد شهدت جنازتها هي أيضاً • لقد ماتت من حزنها على فقد أبيك ، لا من اصابتها ببرد • نعم ، انني أتذكرها هي أيضاً ، الأمير ! آه ••• يا لعهد الشباب ! بسببها انما أوشكنا ، أنا والأمير ، مع أننا صديقا طفولة ، أوشكنا أن يقتل كل منا صاحبه •

أخذ الأمير يصغي الى الجنرال بشيء من الشك والارتياب •

ـ كنت مولّهاً بحب أمك منذ أن كانت خطيبة ، منذ أن كانت خطيبة صديقي • ولاحظ الأمير ذلك ، فاضطرب اضطراباً شديداً ، وجاءني ذات صباح في الساعة السابعة ، فأيقظني من نومي • ارتديت ثيابي مذهولاً ، وساد صمت ••• صمت منه وصمت مني !••• أدركت كل شيء • أخرج أبوك من جيبه مسدسين • مبارزة من خلال منديل • دون شهود • فيم الشهود ما دام كل منا سيرسل صاحبه الى الآخرة بعد قليـل • حشـونا المسدسين • نشرنا المنديل • اتخذنا مكانينا • أطبق كل منا بفوهة مسدسه على قلب صاحبه ، وأخذ ينظر اليه محدّقاً في عينيــه • وفجـأة انبجست الدموع من العينين ، وارتجفت اليد : انبجست الدموع من عينيه وعينيّ

في آن واحد ، وارتجفت يده ويدي معاً ! ثم اذا كل منا يرتمي بين ذراعي صاحبه طبعاً ، واذا نحن نتبارى في الكرم ، فالأمير يصرخ قائلاً : « هي لك » ، وأنا أصرخ : « بل هي لك » ... الخلاصة ... الخلاصة ... سوف تسكن معنا ، أليس كذلك ؟

قال الأمير مدمدماً بشيء من السرعة :

ـ نعم ، ربما بعض الوقت ...

صاح كوليا يقول وقد ألقى نظرة من الباب :

ـ ترجوك ماما يا أمير أن تجيء اليها .

فهمَّ الأمير أن ينهض ، ولكن الجنرال وضع يده اليمنى على كتفه ، وعاد يجلسه على الديوان بحركة صداقة ؛ وقال له :

ـ لما كنت صديقاً وفياً لأبيك فانني أحرص على أن أنبّهك : أنا كما ترى قد سقطتُ ضحيةً لظروف فاجعة ، ولكن دون أن يصدر عليَّ حكم . ان نينا الكسندروفنا امرأة نادرة . وان باربارا آرداليانوفنا ، ابنتي ، فتاة نادرة ! والظروف تجبرنا على أن نؤجر غرفاً مفروشة ، وهذا سقوط لا أعرف كيف أسميه ... سقوط يصيبني أنا ، أنا الذي كنت أوشك أن أعيَّن حاكماً عاماً . وسنكون سعداء باستقبالك على كل حال . غير أن في بيتي مأساة !

ألقى عليه الأمير نظرة استفهام في كثير من الاستطلاع .

قال الأمير :

ـ يُدبَّر هنا زواج ، زواج نادر . زواج بين امرأة مشبوهة وشاب يمكن أن يصبح فتى مرموقاً في البلاط الامبراطوري . يريدون أن يدخلوا تلك المرأة الى بيتي ، قرب ابنتي وزوجتي . ولكنني لن أدع لها

أن تدخل الى هذا البيت ما ظللت أتنفس ! سوف أتمدد على عتبة الباب ، فلا تستطيع أن تدخل الا اذا مررت فوق جسدى • أصبحت لا أكلم جانبا ، بل صرت أتحاشى أن ألقاه • اننى أنبهك الى هذا عامداً ، لأنك لا بد أن تلاحظه على كل حال ، ما دمت ستقيم معنا • ولكنك ابن صديقى، ومن حقى أن آمل •••

قالت نينا ألكسندروفنا منادية ، وقد جاءت الى الباب بنفسها هذه المرة :

ـ هلاّ تفضلت يا أمير فأدركتنى فى الصالون •

هتف الأمير يقول :

ـ تصورى يا عزيزتى • لقد اتضح أننى قد هدهدت الأمير بذراعىّ !

ألقت نينا ألكسندروفنا على الجنرال نظرة لوم ، ثم ألقت على الأمير نظرة استفهام ؛ لكنها لم تقل شيئاً • وتبعها الأمير • فما ان وصلا الى الصالون وجلسا ، وما ان أخذت نينا ألكسندروفنا تقول للأمير شيئاً بصوت خافت وعلى عجل ، حتى دخل الجنرال نفسه الى الصالون فجأة • فسرعان ما صمتت نينا ألكسندروفنا ، وعكفت على حياكتها متضايقة تضايقاً واضحاً ، ولعل الجنرال قد لاحظ تضايقها ، لكن ذلك لم يمنعه من الاستمرار فى اظهار مرح مزاجه • وهتف يقول مخاطباً نينا ألكسندروفنا :

ـ ابن صديقى ! وعلى نحو لم أكن أتوقعه ! لقد كففت حتى عن أن أحلم بهذا الأمر منذ مدة طويلة ! ولكن هل من الممكن ، يا عزيزتى ، أنك أصبحت لاتتذكرين المرحوم نيقولا لفوفتش ؟ انك قد عرفته مع ذلك ••• بمدينة تفير ! *

قالت نينا الكسندروفنا :

ـ لا أتذكر نيقولا لفوفتش .

ثم التفتت الى الأمير تسأله :

ـ أهو أبوك ؟

قال الأمير :

ـ نعم ، هو أبى .

ثم أضاف يقول للجنرال مصححاً على خجل :

ـ لكن يخيَّل اليّ أنه لم يمت بمدينة تفير ، بل بمدينة اليزابتجراد. لقد قال لى بافلتشيف ...

قال الجنرال مصراً :

ـ بل مات بمدينة تفير . فانه قد نقل الى تفير قبيل وفاته بقليل ، بل حتى قبل أن يتطور مرضه ذلك التطور المشئوم . كنت أنت صغيراً جداً فى ذلك الوقت ، فلا تستطيع أن تتذكر النقل ولا السفر . أما بافلتشيف فمن الجائز جداً أنه أخطأ ، رغم أنه كان رجلاً ممتازاً .

ـ هل عرفت بافلتشيف أيضاً ؟

ـ كان انساناً نادر المثال . لكننى أنا كنت شاهد عيان ، باركت أباك وهو على فراش الموت .

قال الأمير مرة أخرى :

ـ لكن أبى مات متهماً ، وان كنت لم أستطع أن أعرف السبب فى يوم من الأيام . لقد مات فى المستشفى .

ـ أوه ! السبب هو قضية الجندى كولباكوف ، وليس هناك أى شك فى أن أباك كان سيخرج من المحاكمة بريئاً .

سأله الأمير بشوق شديد واستطلاع قوى :

ـ صحيح ؟ أأنت متأكد ؟

هتف الجنرال يقول :

ـ طبعاً طبعاً • لقد انفضت المحكمة دون أن تصدر حكماً • قضية مستحيلة ! بل يمكن أن يقال انها قضية محفوفة بالسر • مات قائد حاميتنا ، النقيب لاريونوف ، فكُلِّف الأمير بأن يكون قائداً للحامية بالنيابة • وفي ذلك الحين ارتكب الجندي كولباكوف عمل سرقة ، اذ سطا على مواد حذائية لرفيق من رفاقه ، ثم باع المسروقات وشرب بثمنها خمرة • طيب • هنا قرَّعه الأمير وهدَّده بالجلد، وذلك بحضور الرقيب والعريف• طيب• عاد كولباكوف الى الثكنة ، واستلقى على مضجعه ، فما انقضى ربع ساعة حتى كان ميتاً • طيب • ولكن هذه الحالة لا يتوقعها أحد ، وتكاد تكون مستحيلة • ودُفن كولباكوف على كل حال• وكتب الأمير تقريراً بالواقعة، فشطب اسم كولباكوف من قائمة الجنود • هل هناك ما هو خير من هذا؟ ولكن ما ان انقضت على هذا الحادث ستة أشهر ، بعد أن كان الجنود يُستعرضون كلَّ يوم ، حتى رئي الجندي كولباكوف من جديد في السرية الثالثة من الكتيبة الثانية من فوج مدفعية نوفوزمليانسك * ، وهو الفوج الذي ينتمي الى ذلك اللواء نفسه والى تلك الفرقة نفسها !

هتف الأمير متعجباً وقد بلغ ذروة الدهشة :

ـ كيف هذا ؟

فتدخلت نينا ألكسندروفنا فجأة فقالت وهي تنظر الى الأمير نظرة حزن تقريباً :

ـ لا ، ليس الأمر كذلك ! هذا خطأ ! « زوجي مخطىء » •

ـ « مخطىء » ؟ هذا تسرع في الحكم ! اجهدي أن تحلي بنفسك سراً كهذا السر ! لم يفهم أحد من الأمر شيئاً • لقد كان يمكن أن أكون أول القائلين : « هذا خطأ » • ولكنني شهدت الأمر بعيني رأسي ، وعُيِّنت

عضواً فى اللجنة . فدلّت جميع المواجهات على أن الرجل هو ذلك الجندى نفسه كولباكوف الذى دُفن قبل ستة أشهر على النحو الذى توجبه الأنظمة العسكرية ، من قرع الطبول وما الى ذلك . أنا أسلّم بأن هذه الحالة نادرة جداً ، حتى لتكاد تكون مستحيلة ، ولكن ...

هنا دخلت باربارا آرداليونوفنا ، فقالت تعلن لأبيها :

ـ غداؤك مجهز يا بابا .

ـ آ ... عظيم ... لقد أخذت أشعر بالجوع حقاً . ولكن يمكن أن يقال ان هذه الحالة سيكولوجية ...

قالت فانيا متململة :

ـ حساؤك سيبرد !

فجمجم الجنرال يقول وهو يترك الغرفة :

ـ حالاً ، حالاً ...

وسُمع يتم كلامه وهو فى الدهليز: « وذلك رغم جميع التحريات !»
قالت نينا ألكسندروفنا للأمير :

ـ سيكون عليك أن تغض الطرف عن أمور كثيرة فى آرداليون الكسندروفتش اذا بقيت عندنا . ومع ذلك آمل أنه لن يزعجك كثيراً . انه يتناول وجبات طعامه وحيداً . أظن أنك تسلّم معى بأن لنا جميعاً عيوبنا و ... خصالنا التى قد تكون غريبة شاذة ، حتى أن لبعض الناس من هذه العيوب وهذه الخصال أكثر مما لأولئك الذين يشار اليهم بالاصبع. أريد أن أطلب منك هذا الطلب ملحة : اذا اتفق أن كلمك زوجى عن أجرة الغرفة فقل له انك دفعتها لى . اذا دفعت له مبلغاً فسيحسب طبعاً ، ولكننى أرجوك أن تتقيد بهذه القاعدة التى ذكرتها لك . ماذا يا فاريا ؟

كانت فاريا قد دخلت الغرفة، ومدت الى أمها صورة ناستاسيا فيليبوفنا دون أن تقول شيئاً • فارتعشت نينا ألكسندروفنا ، ارتعشت أول الأمر بنوع من الرعب ، ثم أخذت تنعم النظر في الصورة خلال بعض الوقت وقد ظهر على وجهها شيء من مرارة• وأخيراً ألقت على فاريا نظرة استفهام فقالت فاريا :

ـ هذه هدية أرسلتها اليه اليوم • وسيتقرر كل شيء في هذا المساء•

قالت نينا ألكسندروفنا مكررةً جملة ابنتها بصوت خافت ولهجة يائسة :

ـ هذا المساء ! اذن لم يبق مجال لأي شك ، ولا محل لأي رجاء • انها باهداء هذه الصورة اليه قد أعلنت كل شيء • ولكن أهو الذي أراك الصورة ؟

أضافت نينا ألكسندروفنا هذه الجملة الأخيرة مدهوشة •

أجابت الفتاة :

ـ تعلمين أننا أصبحنا منذ شهر لا نكاد نتخاطب • ان بتسين هو الذي رو لي كل شيء • أما الصورة فقد رأيتها ملقاة على الأرض قرب المائدة فلممتها •

قالت نينا ألكسندروفنا للأمير وهي تلتفت اليه فجأة :

ـ كنت أريد أن أسألك يا أمير ••• والحق انني من أجل هذا انما رجوتك أن تأتي الى هنا ••• كنت أريد أن أسألك : أأنت تعرف ابني منذ مدة طويلة ؟ يخيَّل اليّ أنه قال انك اليوم وصلت من مكان ما ، أليس كذلك ؟

قدَّم الأمير شروحاً موجزة ، مسقطاً أكثر من نصف الوقائع ، فكانت نينا ألكسندروفنا وفاريا تصغيان اليه باتنباه •

قالت نينا ألكسندروفنا :

ـ أنا لا أحاول أن أعرف شيئاً عن جبريل آرداليونتش حين ألقى عليك هذه الأسئلة • فما ينبغى أن تخطىء الظن فى هذا المجال • واذا كان هناك ما لا يريد ابنى أن يعترف لى به من تلقاء نفسه ، فاننى لا أحرص على أن أعرفه من غيره • واذا كنت أكلمك فى هذا الموضوع فلأنه قال منذ قليل ، بحضورك ، ثم قال بعد انصرافك : « انه مطلع على كل شىء ، فلا داعى الى التكلف والتصنع ! » • فما معنى هـذا ؟ أى ••• أود لو أعرف مدى •••

فى تلك اللحظة دخل جانيا وبتسين • فسرعـان ما صمتت نينـا ألكسندروفنا • وظل الأمير جالساً الى جانبها ، بينما ابتعدت فاريا قليلاً • وكانت صورة ناستاسيا ما تزال ظاهرةً على منضدة نينا ألكسندروفنا ، أمامها تماماً • فلما لمح جانيا الصـورة قطب حاجبيه ، واكفهر وجهه ، وتناولها غاضباً ، فرماها على مكتبه الذى يوجد فى أقصى الغرفة •

سألته نينا ألكسندروفنا فجأة :

ـ هل فى هذا اليوم يا جانيا ؟

ـ ماذا فى هذا اليوم ؟

بهذا أجاب جانيا منتفضاً ، ثم هجم على الأمير فجأة يقول :

ـ آ ••• فهمت ••• عدتَ تثرثر ! أهـذا مرض فيك يا صاحب السمو •••

قاطعه بتسين يقول :

ـ أنا المذنب يا جانيا ، أنا وحدى دون غيرى •

فألقى عليه جانيا نظرة استفهام • فجمجم بتسين يقول :

ـ هذا أفضل يا جانيا ، لا سيما وأن القضية قد سوِّيت ، بمعنى من المعاني •

قال هذا ثم ابتعد ، وجلس قرب المائدة ، وأخرج من جيبه ورقة ملأى كتابةً بالقلم الرصاص ، وأخذ يدرسها •

ظل جانيا واقفاً ، مكفهر الهيئة مربد الوجه ، ينتظر انفجار مشكلة عائلية ، بكثير من القلق • حتى انه لم يخطر بباله أن يعتذر للأمير •

قالت نينا الكسندروفنا :

ـ ما دام كل شيء قد سوِّي ، فان ايفان بتروفتش على حق طبعاً • أرجوك أن لا تقطِّب يا جانيا وألا تهتاج • لن أسألك عمَّا لا تريد أن تقوله له من تلقاء نفسك ، وأؤكد لك أنني مذعنة كل الاذعان • فلا تقلق•

قالت ذلك دون أن تترك حياكتها ، وقالته بهدوء ظاهر • فدهش جانيا ، لكنه صمت حذراً مترويا ، وأخذ ينظر الى أمه منتظراً أن تفصح بمزيد من الوضوح • ان المشاجرات العائلية قد أبهظته حتى الآن كثيراً ، وكلفته ثمناً غالياً • ولاحظت نينا ألكسندروفنا هذا الحذر وهذا التروي من جانبه ، فأضافت تقول وهي تبتسم ابتسامة مرة :

ـ ما زلت تشك ، فلا تصدقني • اهدأ بالاً • لن ترى دموعاً ولا ضراعات ، مني على الأقل • ان رغبتي الوحيدة هي أن تكون سعيداً• أنت تعرف ذلك جيداً • انني مذعنة لقدري ، لكن قلبي سيظل معك دائماً ، سواء أبقينا معاً أم افترقنا • وأنا مسئولة عن نفسي وحدها فأتحدث بلساني وحده ؟ أما أختك فلا تستطيع أن تطالبها بمثل هذا •

هتف جانيا يقول راشقاً أخته بنظرة سخر وكره :

ـ آه ••• هي أيضاً ! أماه : انني أكرر على مسامعك اليمين التي سبق أن حلفتها لك : ما دمت حياً فلن يجرؤ أحد في يوم من الأيام أن

ينتقص من احترامك . أياً كان الشخص المقصود ، أيةً كانت الانسانة التى ستجتاز عتبة بابنا ، فاننى سأعرف كيف أفرض عليها توقيراً كاملاً وكيف ألزمها باحترام مطلق .

لقد بلغ جانيا غاية السرور والحبور . كان ينظر الى أمه بهيئة تعبر عن المصالحة ، وتكاد تزخر رقة وحناناً .

ـ ما كنت أخشى عليك من شيء يا جانيا ، فأنت تعرف ذلك حق المعرفة . وما من أجل نفسي قلقت وتعذبت طوال هذه المدة . يقال ان كل شيء سيسوّى بينكم هذا المساء ؟ فما الذى سيسوّى ؟

أجاب جانيا :

ـ لقد وعدت بأنها ستعلن رأيها هذا المساء فى بيتها . فاما أن توافق واما أن ترفض .

ـ لقد تحاشينا أن نتكلم فى هذا الأمر منذ ما يقرب من ثلاثة أسابيع، وحسنا فعلنا . أما الآن وقد تقرر كل شيء ، فاننى لا أجد بدا من أن ألقى عليك هذا السؤال : كيف أمكنها أن تعلن لك موافقتها بل وأن تهدى اليك صورتها بينما أنت لا تحبها ؟ هل يمكن لامرأة لها مثل هذه .. هذه ال ..

ـ هذه التجربة أو الخبرة ...

ـ ليس هذا ما كنت أريد أن أقوله . هل يمكن أن تكون قد استطعت أنت أن تخدعها الى هذا الحد ؟

ان سخطاً شديداً وحنقاً رهيباً قد داخلا هذا السؤال بغتةً . فظل جانيا صامتاً ، وفكّر لحظة ، ثم أجاب دون أن يحاول اخفاء سخريته :

ـ ها قد انقدت للاندفاع والاهتياج من جديد يا ماما ! انك لم تستطيعى حتى الآن أن تسيطرى على نفسك وأن تتحكمى بمشاعرك ؟ وعلى هذا النحو انما كانت تبدأ الأمور عندنا دائماً ، فتشب النار فى البارود .

لقد قلت انك لن تلقى لا أسئلة ولا ملامات ، وها هي ذي الأسئلة والملامات تُستأنف ! لندع هذا الأمر ، فذلك خير وأبقى ... أؤكد لك ! حسبك أنك أظهرت حسن النية وطيب الارادة . لن أتركك في يوم من الأيام ، بأى حال من الأحوال ! غيرى كان يفرُ من أخت كهذه الأخت . انظرى كيف تحدجنى ببصرها ! حسبنا هذا ! لقد كنت مبتهجاً أشد الابتهاج .. ولكن كيف عرفت اننى أحاول خداع ناستاسيا فيليبوفنا ؟ أما فاريا ، فلتفعل ما تشاء . وكفانا هذا الآن !

كان جانيا يزداد حرارة وحماسة عند كل كلمة جديدة ، وكان يسير فى الغرفة بلا هدف . ان أمثال هذه المحادثات سرعان ما تصبح هى النقطة الحساسة لدى جميع أفراد الأسرة .

قالت فاريا :

ـ قلت اننى سأترك هذا البيت متى دخلت هى ، هذا عهد أقطعه على نفسى ولن أخلفه .

هتف جانيا يجيبها :

ـ عناداً ! وعناداً انما ترفضين زواجك أيضاً . لماذا تلوين شفتيك على هذا النحو احتقاراً واشمئزازاً ؟ لست أعبأ بشيء يا باربارا آرداليونوفنا ... فى وسعك أن تنفذى مشروعاتك منذ الآن اذا شئت . لقد بدأت أسأم منك وأضيق بك !

واذ لاحظ جانيا أن الأمير ينهض صاح يقول له :

ـ كيف تقرر أخيراً أن تتركنا يا أمير ؟

كانت تداخل صوت جانيا منذئذ ، تلك الدرجة من الاهتياج التى يكاد يكون الانسان فيها مسروراً من غضبه ، فهو ينقاد له بدون أى تحفظ، بل يسترسل فيه بتلذذ متزايد ، وليكن ما يكون !

وكان الأمير قد التفت ليردّ عليه ، لكنه اذ أدرك فى تعبير وجهه المتشنج أنه لم يبق ثمة الا القطرة التى يطفح بها الكيل ، أشاح وجهه وخرج دون أن يقول كلمة واحدة . وفهم بعد لحظات ، من الأصداء التى كانت تصل اليه من الصالون ، أن الحديث قد أصبح منذ انصرافه أشد صخباً وأكثر انفلاتاً .

اجتاز القاعة الكبيرة حتى حجرة المدخل ليصل الى الدهليز فالى غرفته . فلما بلغ الباب المفضى الى فسحة السلم سمع أحداً وراء الباب يحاول أن يشدّ حبل الجرس . ولكن الجرس كان معطلاً فيما يظهر ، فهو لا يزيد على أن يتحرك تحركاً ضعيفاً دون أن يُسمع له أى صوت. فسحب الأمير المزلاج ، وفتح الباب ، فاذا هو يتقهقر مذهولاً مرتعشاً بجسمه كله : كانت ناستاسيا فيليبوفنا واقفةً أمامه ، وسرعان ما عرفها من معرفته صورتها. فلما لمحته ناستاسيا ومضت عيناها بمعنى الضيق والانزعاج، وأسرعت تلج حجرة المدخل ، فتصدم الأمير بكتفها عند دخولها ، وتقول له بلهجة حانقة وهى تنضو عنها معطفها :

ـ اذا كنتَ من الكسل بحيث لا تحمّل نفسك عناء اصلاح الجرس، فلا أقل من أن توجد فى حجرة المدخل حين يقرع الباب قارع ! ها هو ذا يُسقط معطفى ، مذهولاً !

كان المعطف قد رقد على الأرض فعلاً . فان ناستاسيا فيليبوفنا لم تنتظر أن يساعدها الأمير فى خلع المعطف ، فرمته على ذراعيه بحركة من كتفها دون أن تنظر اليه ، ولم يتسع وقت الأمير لأن يتلقاه .

ـ كان عليهم أن يطردوك من الخدمة . أبلغهم وصولى .

أراد الأمير أن يقول شيئاً ، لكنه كان قد بلغ من الاضطراب أنه لم يستطع أن ينطق بكلمة واحدة ؛ وها هو ذا يتجه نحو الصالون وعلى ذراعه المعطف الذى رفعه من الأرض .

ـ الآن يأخذ معطفى ! ما بالك تأخذ المعطف ؟ هأ هأ هأ ! قل لى : ألست مجنوناً بعض الشيء ؟

قفل الأمير راجعاً ، وحدّق اليها كالمتجمد . فلما ضحكت ابتسم هو أيضاً ، ولكنه ما يزال عاجزاً عن تحريك لسانه بكلمة . فى اللحظة الأولى، حين فتح لها الباب ، اصفر لونه . أما الآن فان الدم يزدحم فى وجهه .

هتفت ناستاسيا فيليبوفنا ممتعضة وهى تقرع الأرض بقدمها :

ـ ما هذا الأبله ؟ الى أين تذهب هكذا ؟ ستبلغ عن وصول من ؟

تمتم الأمير :

ـ عن وصول ناستاسيا فيليبوفنا .

فسألته بقوة :

ـ لماذا تعرفنى ؟ أنا لم أرك يوماً ! هيَّا أبلغ عن وصولى ... ما هذه الصرخات ؟

أجاب الأمير وهو يتجه نحو الصالون :

ـ يتشاجرون .

ودخل عليهم الأمير فى لحظة حاسمة : كانت نينا ألكسندروفنا متأهبة لأن تنسى نسياناً كاملاً أنها « مذعنة لكل شيء » . كانت تدافع عن فاريا، والى جانب فاريا يقف بتسين الذى كان قد ترك ورقته المطروسة كتابة . أما فاريا فلم يكن يبدو عليها كثيراً أنها فقدت سيطرتها على نفسها . ليست هذه الآنسة من النوع الخواف . ومع ذلك كانت فظاظات أخيها تصبح فى كل كلمة أشد غلظة وأثقل وطأة ، فهى لا تطاق . ولقد اعتادت الفتاة فى مثل هذه الأحوال أن تكف عن المناقشة ، فهى لا تزيد على أن تنظر الى

أخيها صامتةً معبِّرة بوجهها عن السخرية ، دون أن تحول بصرها عنه لحظةً واحدة . انها تعرف هذا التكتيك ، وهي قادرة على أن تمضي فيه الى أقصى حدوده .

في تلك اللحظة بعينها انما دخل الأمير الى الغرفة معلناً :

ـ ناستاسيا فيليبوفنا !

الفصل التاسع

خيم صمت شامل . نظر الجميع الى الأمير كأنهم لا يفهمون ، ولا يريدون أن يفهموا . تجمَّد جانيا رعباً .

ان زيارة ناستاسيا فيليبوفنا ، ولا سيما فى مثل هذه اللحظة ، هى فى نظر كل واحد منهم أدعى حدث الى الدهشة والعجب ، وأبعث حدث على الحيرة والارتباك ، على الأقل لأن ناستاسيا فيليبوفنا تجيء أول مرة . لقد ظلت حتى الآن متكبرة متعالية ، فلم تعرب فى أحاديثها مع جانيا عن أية رغبة فى معرفة أسرته ، بل لقد أصبحت لا تجيء على ذكرها كأنها لا وجود لها . ورغم أن جانيا قد سرَّه بمعنى من المعانى ارجاء مثل هذا الحديث الذى يزعجه ويحرجه كثيراً ، فانه فى قرارة نفسه قد حقد على ناستاسيا وحمل لها ضغينة . ولقد كان على كل حال يتوقع منها وخزات وسخريات فى حق أهله أكثر مما كان يتوقع منها زيارة . كان يعلم علم اليقين أنها مطَّلعة على كل ما كان يجرى فى بيته عن خطوبته لها ، وعلى كل ما كان يراه ذووه من رأى فيها . فقيامها بهذه الزيارة « الآن » ، بعد اهداء الصورة ، فى يوم عيد ميلادها ، فى اليوم الذى سبق أن وعدت بأنها ستقرر فيه مصيرها ، ان قيامها بهذه الزيارة الآن يشير الى قرارها ويدل عليه .

لم تطل البلبلة التى أحدثها دخول الأمير : فها هى ذى ناستاسيا

فيليبوفنا بشخصها تظهر فى اطار الباب ، ثم تدخل الغرفة فتصدم الأمير مرة أخرى صدمة خفيفة .

ـ أخيراً ظفرت بأن أدخل ... لماذا تربطون جرسكم ؟

كذلك قالت ناستاسيا فيليبوفنا مرحةً وهي تمد يدها الى جانيا الذى صار الى جانبها بوثبة واحدة .

وأردفت تسأله :

ـ مالى أرى وجهك منقلباً ؟ قدِّمني الى الحضور من فضلك .

كان جانيا قد فقد كل سيطرة له على نفسه ، فقدَّمها الى أخته فاريا ، فتبادلت المرأتان نظرة غريبة قبل أن تمد كل منها يدها الى الأخرى . كانت ناستاسيا فيلبوفنا تضحك وتختبىء وراء قناع من المرح المصطنع ، أما فاريا فلم تحاول أن تخفي شيئاً ، فنظرتها ظلت مظلمة ثابتة ولم يظهر فى وجهها حتى طيف ابتسامة مما توجبه أبسط مبادىء الأدب والتهذيب. فاغتاظ جانيا من ذلك حتى كادت تنقطع أنفاسه . ولكن أوان ردِّها الى الصواب قد فات ؛ لذلك اقتصر على أن رشقها بنظرة تبلغ من امتلائها بالتهديد والوعيد أنها قرأت فيها عنفاً شديداً فأدركت قيمة هذه اللحظة عند أخيها ، فبدا عليها أنها أرادت أن تتساهل فاصطنعت لناستاسيا فيليبوفنا ما يشبه أن يكون ابتسامة (ما يزال أهل هذا البيت يسرفون في حب بعضهم بعضاً) .

وجاء دور نينا ألكسندروفنا فأصلحت الحال بعض الاصلاح ، رغم أن جانيا ، من فرط اضطرابه طبعاً ، قد قدَّم ناستاسيا فيليبوفنا اليها بعد تقديمها الى اخته ، ثم زاد على ذلك فذكر اسم امه قبل أن يذكر اسم ناستاسيا .

ولكن ما ان بدأت نينا ألكسندروفنا كلامها فقالت : « يسرنى جداً

أن ... » حتى التفتت ناستاسيا فيليبوفنا نحو جانيا بحركة سريعة دون أن تدع للأم أن تكمل جملتها ، وصرخت تقول له بعد أن استقرت على كنبة صغيرة قرب النافذة ، دون أن تُدعى الى الجلوس :

ـ أين حجرة مكتبك ؟ و ... وأين السكان الذى يستأجرون عندكم غرفاً مع الطعام والخدمة ؟ عندكم مستأجرون ، أليس كذلك ؟

احمر وجه جانيا احمراراً رهيباً ، وهمَّ أن يتأتىء بجواب ؛ لكن ناستاسيا فيليبوفنا كانت قد تابعت كلامها تقول :

ـ أين يمكنكم أن تُسكنوا مستأجرين ؟ ليس لك حتى حجرة مكتب !

ثم التفتت فجأة نحو نينا ألكسندروفنا فقالت لها :

ـ هل التأجير يدر ربحاً على الأقل ؟

حاولت نينا ألكسندروفنا أن تجيب فقالت :

ـ التأجير يورث متاعب كثيرة . وكان ينبغى أن يدر ربحاً بطبيعة الحال ، غير أن ...

ولكن ناستاسيا فيليبوفنا كانت قد انقطعت عن الاصغاء اليها ، لأنها التفتت الى جانيا وصاحت تقول له :

ـ ما لى أرى وجهك منقلباً هذا الانقلاب ! رباه ! ما هذا الوجه الذى له الآن ؟

كان وجه جانيا قد تشوه فعلاً بعد بضع لحظات من ذلك الضحك . لقد بارحه فجأةً ما أحسه فى أول الأمر من ذهول ، وما بدا على وجهه فى أول الأمر من شَدهٍ مضحك مبعثه الخوف . ان شفتيه الآن منعقفتان متشنجتان ، وقد أخذ يحدّق بنظرة ثابتة خبيثة شريرة ، دون أن ينطق

بكلمة واحدة ، ودون أن يحول بصره لحظة واحدة ، أخذ يحدّق الى وجه هذه الزائرة التى ما تزال تضحك .

غير أن ملاحظاً آخر كان موجوداً هناك ، ملاحظاً لم يكن هو أيضاً قد استطاع أن يتحرر من حالة البكم التى أغرقته فيها رؤية ناستاسيا فيليبوفنا . لكنه رغم أنه بقى مغروساً فى مكانه من اطار الباب كأنه «وتد»، قد استطاع أن يلاحظ اصفرار جانيا وأن يرى ما طرأ على وجهه من تغير ينذر بشر . ان ذلك الملاحظ هو الأمير . وها هو ذا يتقدم الى الأمام خطوةً على غير ارادة منه ، حتى لكأنه آلة ، وكان مروَّعاً بعض الروع ، وقال لجانيا :

ـ اشرب قليلاً من ماء ، واكفف عن النظر هكذا ...

كان واضحاً أنه قال ذلك كله دون أي حساب ، بل ودون أية نية خاصة ، وانما هو انقاد لاندفاعة أولى . لكن أقواله هذه كان لها أثر خارق ، فكأن كل ما كان يعتمل في نفس جانيا من حنق وغيظ وسخط قد انصب على الأمير دفعة واحدة ، فها هو ذا يمسكه من كتفه ، ويحدق اليه بنظرة فيها انتقام وحقد وكره ، صامتاً كأنه عاجز عن أن ينطق بكلمة . فسرى فى الجمع كله انفعال شامل ، حتى ان نينا ألكسندروفنا اطلقت صرخة صغيرة . وقلق بتسين فتقدم خطوةً الى أمام . وكان كوليا وفردشتينكو قد ظهرا فى الباب فوقفا مذهولين مشدوهين ؛ وظلت فاريا وحدها خافضة رأسها ، ولكنها تراقب الأحداث بانتباه . كانت قد لبثت واقفةً الى جانب أمها ، عاقدةً ذراعيها على صدرها .

لكن جانيا لم يلبث أن عاد الى صوابه تقريباً ، فأطلق ضحكة عصبية، ثم استرد وعيه كاملاً ، وصاح يقول بصوت حاول أن يجعله مرحاً طبيعياً :

ـ ماذا دهاك يا أمير ؟ أتراك طبيباً ؟ لقد كدتَ تخيفني .

والتفت الى ناستاسيا فيليبوفنا ، وأضاف يقول :

ـ ناسـتاسيا فيليبـوفنا ، اسمحي لي أن أقدّمه ... هو من أثمن الناس ، وان كنت لا أعرفه أنا نفسي الا منذ هذا الصباح ...

نظرت ناستاسيا فيليبوفنا الى الأمير محتارة . وقالت :

ـ أمير ؟ أهو أمير ؟ تصوروا انني منذ قليل ، حين رأيته في حجرة المدخل ، قد ظننته خادماً ، فأرسلته الى هنا ليبلغ عن وصولي ! هأ هأ هأ !.

قال فردشـــتينكو وقد اقترب مسرعـاً ، مبتهجـاً بأن الضحك قد استؤنف :

ـ لا بأس ! لا بأس ! حصل خير على كل حال ...

ـ كدتُ أُسيء معاملتك يا أمير ، فاغفر لي ، أرجوك !.. فردشتينكو، ماذا تفعل هنـا في مثل هذه السـاعة ؟ كنت آمل على الأقل ألا أصادفك أنت هنا ..

قالت ناستاسيا فيليبوفنا ذلك ، ثم سألت جانيا ثانيةً ، وهو ما يزال ممسكاً كتف الأمير يقدّمه اليها ويعرّفها به :

ـ ماذا تقول ؟ أي أمير ؟ ميشكين ؟

فقال جانيا :

ـ هو مستأجر عندنا .

واضح أن الأمير قد قُدّم على أنه شخص طريف نادر (جاء في الوقت المناسب جداً ليخرجهم من وضع خطأ) ، حتى لقد كاد يُدفع نحو ناستاسيا فيليبوفنا دفعاً ؛ بل ان الأمير سمع كلمة « أبله » سـمعاً واضحاً يدمدم بها أحدهم وراءه على سبيل الشرح والتفسـير ، ولعل قائلهـا هو فردشتينكو .

تابعت ناستاسيا فيليبوفنا كلامها وهى تفحص الأمير من قمة الرأس الى أخمص القدمين بدون تحرج :

ـ قل لى : لماذا لم تصحح لى خطئى منذ قليل ، حين ارتكبت فى حقك ... تلك الغلطة الرهيبة ؟

كان يبدو على ناستاسيا توق شديد الى سماع جوابه ، لاقتناعها سلفاً بأن هذا الجواب سيبلغ من الحماقة أنها لن تستطيع الا أن تضحك منه .

تمتم الأمير يقول :

ـ لقد دُهشت من رؤيتك فجأة أمامى ...

ـ وكيف عرفتَ أننى أنا ؟ أين التقيت بى قبل اليوم ؟ عجيب ... يخيَّل الىَّ حقاً أننى سبق أن رأيته فى مكان ما !... واسمح لى أن أسألك أيضاً لماذا جمدت فى مكانك لا تتحرك ... ماذا وجدت فىَّ من شىء يبلغ هذا المبلغ من ... الفتنة ؟

قال فردشتينكو مجعِّداً وجهه :

ـ هيَّا ... أجب ... لماذا لا تجيب ؟ آه ... حين أفكِّر فيما كان يمكن أن أجيب به على مثل هذا السؤال لو كنت فى مكانك !... طيب يا أمير ... ما أنت فى الحقيقة الا عبيط !...

قال الأمير لفردشتينكو ضاحكاً كذلك :

ـ ولكن أنا أيضاً كان يمكننى أن أقول أشياء كثيرة لو كنت فى مكانك .

ثم تابع كلامه مخاطباً ناستاسيا فيليبوفنا :

ـ فى هذا الصباح خطفت صورتك بصرى . وبعد ذلك تحدثت عنك مع آل ايبانتشين ، و ... فى ساعة مبكِّرة من هذا الصباح ، حين كنت

بالقطار ، حتى قبل وصولى الى بطرسبرج ، حدثنى عنك بازفيون روجوين كثيراً • وفى اللحظة التى فتحت لك فيها الباب ، فى تلك اللحظة نفسها كنت بخاطرى ، فاذا أنا أراك أمامى •

ـ ولكن كيف عرفت أننى أنا ؟

ـ عرفت ذلك من رؤيتى للصورة ، و •••

ـ وماذا ؟

ـ ولأننى انما كنت أتخيَّلك هكذا ؛ وأيضاً لأننى كنت كمن سبق أن رآك فى مكان ما •

ـ ولكن أين ؟ أين ؟

ـ يخيَّل الىَّ أننى سبق أن رأيت عينيك ••• ولكن هذا مستحيل ! ••• لم يكن ذلك الا ••• أنا لم أعش هنا قط • لعل ذلك حدث فى حلم أثناء النوم •••

هتف فردشتينكو قائلاً :

ـ مرحى أمير ! لا ، لا ، اننى أسحب جملتى التى قلتها، أسحبها !• أحسنت •••

ثم أضاف :

ـ رغم أن هذا كله انما هو فى الحقيقة سذاجة وبراءة من جانبه !

كان الأمير قد نطق تلك العبارات القليلة بصوت مختلج متقطع مشوه، حتى لقد كان يتوقف عن الكلام فى كثير من الأحيان ليسترد أنفاسه • كان كل شىء فيه يدل على انفعال شديد • وكانت ناستاسيا فيليبوفنا تتأمله باستطلاع قوى ، لكنها كفَّت عن الضحك •

وفى تلك اللحظة نفسها جلجل صوت قادمٍ جديد من وراء الجمهور

الكثيف الذى كان يحتشد حول الأمير وناستاسيا فيليبوفنا ، فشطر الجمهور شطرين ان صح التعبير • انه رب الأسرة ، الجنرال ايفولجين بشخصه ، يقف الآن أمام ناستاسيا فيليبوفنا • كان يرتدى بدلة « فراك » تحتها قميص نظيف ، وكان شارباه مدهّنين مطيَّبين •

كان هذا فوق ما يستطيع جانيا أن يطيق وأن يحتمل •

ان جانيا شاب مغرور مفتون بالظهور ممتلىء حباً لنفسه الى درجة الهوس • وقد عمد خلال هذين الشهرين الأخيرين الى جميع الوسائل ليضفى على شخصه شأناً خطيراً وليحلها منزلة هامة • واذ شعر أنه ما يزال مبتدئاً فى الطريق الذى رسمه لنفسه ، واذ كان غير واثق من قدرته على المضى الى آخر الشوط ، فقد قرر مستميتاً أن يتصف سلوكه فى بيته بأكبر الوقاحة ، فكان فى بيته طاغية مستبداً ، ولكنه لا يجرؤ أن يفعل هذا أمام ناستاسيا فيليبوفنا التى تركته فى بحران الشك الى آخر دقيقة ، وكانت تسيطر عليه بلا رحمة ، حتى لقد خلعت عليه لقب «الشحاذ النافد الصبر»، وهو لقب نُقل اليه أنها وصفته به ، فآلى على نفسه ليجعلنها تدفع ثمن ذلك فى المستقبل غالياً ، مع احتفاظه بذلك الأمل الصبيانى وهو أن يحل كل المشكلات وأن يصالح جميع المتناقضات •

وهو الآن ما يزال مضطراً أن يشرب هذه الكأس المرة حتى الثمالة؟ والأنكى من ذلك أن عليه فى مثل هذه اللحظة أن يتحمل تعذيباً يُعدُّ أقسى أنواع التعذيب عند انسان مغرور ، ألا وهو أن يحمر خجلاً ومذلة أمام أهله فى بيته • فسرعان ما خطر بباله هذا الخاطر : « هل يستحق الثوابُ كلَّ هذا العذاب فى آخر حساب ؟ » •

ان ما يحدث الآن أمام عينيه لم يكن قد تخيله أثناء هذين الشهرين الأخيرين الا ليلاً ، وكان ذلك كابوساً يجمِّده رعباً ويحرقه خجلاً ! ان اللقاء فى داخل أسرته بين أبيه وناستاسيا فيليبوفنا يتم الآن أخيراً • لقد كان

يحاول في بعض الأحيان ، ليزعج نفسه ، ويعذب نفسه ، أن يتخيّل الجنرال أثناء حفلة العرس ، ولكنه لم يستطع في يوم من الأيام أن يُكمل رسم هذه اللوحة الأليمة ، فسرعان ما كان يتركها . لعله كان يبالغ في تضخيم هذه البلية تضخيماً كبيراً ، ولكن هذا ما يحدث دائماً للأشخاص المغرورين . لقد اتسع وقته خلال هذين الشهرين لأن يفكر ولأن يتخذ قراراً ؛ وآلى على نفسه ليردنّ أباه الى الصواب مهما كلف الأمر ، ولو الى حين ، حتى لقد يبعده عن بطرسبرج اذا اقتضت الحال ذلك ، سواء أوافقت أمه أم رفضت . وهو قبل هذه اللحظة بدقيقتين ، أى عندما دخلت ناستاسيا فيليبوفنا ، قد بلغ من البهت والشدّه أنه نسي نسياناً تاماً احتمال ظهور آرداليون ألكسندروفتش ، فلم يحتط للأمر أى احتياط ، ولم يتخذ أى تدبير !

وها هو ذا الجنرال يظهر الآن أمام جميع الناس ؛ وأكثر من ذلك أنه يجيء كالمتهيىء لاحتفال فخم فهو يرتدى بدلة « فراك » ، وذلك كله في اللحظة التي لا تحاول فيها ناستاسيا فيليبوفنا الا أن « تتحين فرصةً للاستهزاء به والتهكم على أسرته » (كان هو من هذا على يقين تام) . والا فما عسى أن يكون مغزى زيارتها ؟ أجاءت تلتمس صداقة أمه وأخته ، أم جاءت لتهينهما في عقر دارهما ؟

ثم ان الشك ينتفي انتفاءً تاماً متى رأى المرء موقف كلٍ من المعسكرين . فأما أمه وأخته فقد جلستا متنحيتين كمن أدركهما اذلال ، وأما ناستاسيا فيليبوفنا فقد كان يبدو عليها أنها نسيت حتى وجودهما في الغرفة !... ولئن استمرت في اتخاذ هذا الموقف ، ان ذلك يدل حتماً على أنها تخفي فكرة وتبيّت نية !

استولى فردشتينكو على الجنرال ليقدّمه فقال الجنرال وهو ينحني بوقار ويبتسم برصانة :

ـ آرداليون الكسندروفتش ايفولجين . جندى قديم جار عليه الدهر ، أب لأسرةٍ يسعدها أن تأمل أن تدخل في عدادها سيدة تبلغ هذا المبلغ من الروعة ...

ولم يكمل كلامه . فان فردشتينكو قد أسرع يدس تحته كرسياً ؛ واذ أن الجنرال يكون ضعيفاً على ساقيه بعد وجبات الطعام في العادة ، فقد تهالك على الكرسى ، بل قل انه انهار عليه انهياراً ، ولكن دون أن يشعر من ذلك بأى اضطراب أو خجل . جلس أمام ناستاسيا فيليبوفنا تماماً ، وتناول يدها ، ثم حمل أصابعها الى شفتيه بحركة بطيئة مدروسة مع اصطناع هيئة اللطف والبشاشة والتودد . كان الجنرال ، بوجه عام ، امرأً يصعب احراجه أو ارباكه أو بلبلته . وليس يخلو مظهره الخارجى ، اذا استثنينا شيئاً من الاهمال في ملبسه ، ليس يخلو من مهابة ، وكان هو لا يجهل ذلك . حتى لقد استطاع في الماضى أن يُستقبل في أرقى مجتمع ، ثم لم يطرد من المجتمع الراقى طرداً نهائياً الا منذ سنتين أو ثلاث سنين . ومنذ ذلك الحين انما أخذ ينقاد لبعض مواطن الضعف فيه بدون تحفظ . ولكنه حافظ على شىء من الطلاقة والجاذبية .

بدا على ناستاسيا فيليبوفنا سرورعظيم بظهور آرداليون ألكسندروفتش الذى كان واضحاً أنها سبق أن سمعت عنه .

وأراد آرداليون أن يتكلم فقال :

ـ علمت أن ابنى ...

ـ آ ... نعم ... ابنك !... أنت أيضاً ظريف لطيف ! لماذا لا تجىء الىّ أبداً ؟ أأنت الذى تختبىء أم أن ابنك هو الذى يخبئك ؟ أنت على الأقل تستطيع أن تزورنى دون أن تعرّض سمعة أحد لخطر ...

استأنف الجنرال الكلام فقال :

ـ أبناء القرن التاسع عشر وآباؤهم ...

وصاحت نينا ألكسندروفنا تقول بصوت عال :

ـ ناستاسيا فيليبوفنا ، تفضلي فأذني لآرداليون ألكسندروفتش بالانصراف لحظة ، فانهم يطلبونه ...

ـ آذن له ؟ أرجوك .. لقد سمعت عنه كثيراً فأنا أرغب في معرفته منذ مدة طويلة ! ما هي الأعمال التي تناديه ؟ أليس محالاً على التقاعد ؟ لن تتركني يا جنرال ، لن تنصرف ، أليس كذلك ؟

ـ أتعهد لك بأن يزورك شخصياً ، أما الآن فهو في حاجة الى شيء من الراحة .

هتفت ناستاسيا فيليبوفنا تسأله وهي تلوي شفتها استياءً كطفلة مغناج انتُزعت منها لعبتها :

ـ آرداليون ألكسندروفتش ، يزعمون أنك في حاجة الى راحة ..

فأسرع الجنرال يتكفل بجعل وضعه أدعى الى الاضحاك أيضاً ، اذ قال يخاطب زوجته بلهجة متفخمة ونبرة لائمة ، وهو يحمل احدى يديه الى موضع القلب من صدره :

ـ عزيزتي ، عزيزتي ...

فسألت فاريا أمها بصوت عالٍ :

ـ ألا تريدين أن تخرجي يا ماما ؟

فأجابتها أمها :

ـ لا يا فاريا ، سأبقى الى النهاية !

لا يمكن الا أن تكون ناستاسيا فيليبوفنا قد سمعت السؤال والجواب، ولكن مرحها لم يزدد من ذلك الا شدة وقوة . وأخذت تمطر الجنرال

بالأسئلة ، فما انقضت خمس دقائق حتى كان الجنرال يفيض فى الهذر وسط ضحكات الحفل كله .

شدّ كوليا حافة سترة الأمير ، وقال له :

ـ أنت على الأقل ، أخرجه الى مكان ما ! ألا تستطيع أن تفعل ذلك؟ أرجوك ...

وكانت تلمع فى عيني الصبى المسكين دموع استياء . وأضاف الصبى يقول بينه وبين نفسه :

ـ لعنك الله يا جانيا !

استرسل الجنرال في الاجابة عن أسئلة ناستاسيا فيليبوفنا ، فقال :

ـ نعم ، كنت صديقاً حميماً لايفان فيدوروفتش ايبانتشين فى الواقع. فأنا وهو والمرحوم الأمير ليون نيقولايفتش ميشكين الذى أتيح لى اليوم أن أفرح بضمّ ابنه الى صدرى بعد فراق عشرين عاماً ، كنا لا نفترق ، كنا أشبه بالفرسان الثلاثة : آتوس ، وبورتوس ، وآراميس . ولكن ... واحزناه !... واحد منا هو الآن فى القبر ، مضى ضحية النميمة ورصاصة لئيمة ؛ والثانى يمثُل أمامك وما يزال يصارع النمائم والرصاصات ...

هتفت ناستاسيا فيليبوفنا تسأله متعجبةً :

ـ الرصاصات ؟

ـ هى هنا ، فى صدرى ، أصابتنى أثناء حصار كارس * ، وما زلت أحسُّها حين يسوء الجو . ثم اننى أحيا كما يحيا فيلسوف : أتجول ، أتنزه ، ألعب « الضاما » بمقهى كبورجوازى اعتزل العمل ، وأقرأ جريدة « الاستقلال » * . ولكننى قطعت صلتى بصاحبنا بورتوس ـ ايبانتشين قطعاً تاماً ، منذ ثلاث سنين ، فى أعقاب حادث وقع فى القطار بصدد كلب صغير ...

سألته ناستاسيا فيليوفنا باستطلاع شديد :

ـ كلب صغير ؟ ما تلك القصة ؟ كلب صغير ؟ فى القطار ؟...

وكانت كأنها تحاول أن تتذكر شيئاً ما .

ـ أوه ! هى قصة سخيفة لا تستحق أن تُروى ، حدثت لى مع مسز سميث ، صاحبة الأميرة بيلوكونسكايا ... لا تستحق أن تُحكى .

هتفت ناستاسيا فيليوفنا تقول فرحة :

ـ بل اقصصها علىَّ ، يجب أن تقصها علىَّ حتماً !

قال فردشتينكو :

ـ أنا أيضاً لا أعرفها بعد . « هذا من الأمور الجديدة » .

قالت نينا الكسندروفنا بصوتها الضارع مرة أخرى :

ـ آرداليون ألكسندروفتش !

وصرخ كوليا يقول :

ـ بابا ، انهم يطلبونك ...

بدأ الجنرال يحكي القصة مسروراً فقال :

ـ قصة سخيفة تُحكى بكلمتين . منذ سنتين تقريباً ، بعد تدشين خط السكة الحديدية بين ... ، كنت مسافراً بالقطار لأعمال هامة جداً تتعلق بتسليم منصبى (وكنت قد ارتديت الثياب المدنية منذ ذلك الحين) . قطعت تذكرة سفر بالدرجة الأولى ، فلما صرت فى حجرة القطار جلست أدخّن ، بل قولى اننى استمررت أدخّن ، لأننى كنت قد بدأت أدخّن قبل ركوب القطار ؛ وكنت وحيداً فى الحجرة . ولئن لم يكن التدخين ممنوعاً ، انه ليس مباحاً على كل حال . وانما جرى العرف بالتسامح فى أمره ، وذلك يختلف باختلاف الأشخاص . وكان زجاج النافذة مخفوضاً .

وفجأة ، قبل انطلاق رنة الايذان بتحرك القطار ، دخلت الحجرة سيدتان وصلتا فى آخر لحظة ، ومعهما كلب صغير ، وجلستا قبالتى • ان احداهن ترتدى ثياباً تبلغ غاية الأناقة ، لونها أزرق سماوى • والثانية أقل أناقة من الأولى ترتدى ثوباً من حرير أسود فوقه كاب • والسيدتان كلتاهما على شيء من الجمال ، ولكنهما متعاليتان متكبرتان • وكانتا تتحدثان باللغة الانجليزية • استمررت أنا فى التدخين • ولقد فكرت فى الأمر طبعاً ، لكننى قررت مع ذلك ألا أكف عن التدخين ، على أن أدير وجهى نحو زجاج النافذة الذى ظل مخفوضاً • كان الكلب الصغير فوق ركبتى السيدة التى ترتدى ثوباً أزرق بلون السماء ، وهو كلب صغير جداً جداً ، لا يكاد يتجاوز حجمه حجم قبضة اليد ، جسمه أسود ، وقوائمه بيضاء ••• كلب نادر كل الندرة • وكان فى رقبته طوق من فضة عليه نقوش • بقيت أنا ساكناً صامتاً • لكننى لاحظت أن السيدتين تبدوان مستاءتين ، بسبب السيجار طبعاً • فاحداهما تتفرس فى وجهى من خلال نظارة تمسكها بيدها • ظللت لا أردُ بشيء ، ما دامتا لا تقولان لى شيئاً ! لو كلمّتانى على الأقل ، لو طلبتا منى ألا أدخّن ، اذن لكان يمكن أن أ'لام ••• ان للبشر لغة يتخاطبون بها ، ان لهم لساناً يتكلمون به • لكن السيدتين لبثتا صامتتين !••• وفجأة ••• بدون أى انذار ••• أؤكد لك أن ذلك تمّ بدون أى انذار ••• كأن السيدة قد فقدت عقلها ••• انتزعت السيدة ذات الثوب الأزرق ••• انتزعت من يدى السيجار ، ورمته من النافذة • واستمر القطار يسير ، بينما أنا أنظر اليها مبهوتاً مصعوقاً • انها امرأة وحشية ، وحشية فعلاً ، وحشية تماماً ، رغم أنها جميلة ، بضة ، طويلة ، شقراء ، زاهية اللون ، (بل زاهية اللون كثيراً) • صعقتنى بنظرتها صعقاً • وهأناذا ، دون أن أقول كلمة واحدة ، وبأدب كامل ، بل بأدب يبلغ غاية الرقة ، أمدُ اصبعىَّ الى الكلب ، فاحمله بهما من جلد رقبته

حملاً لطيفاً ... و ... أرميه من النافذة ليلحق بسيجاري . لم يكد يتسع وقته لأن يعول اعوالة صغيرة !... واستمر القطار يسير .

هتفت ناستاسيا فيليبوفنا تقول وهى تنفجر ضاحكة وتصفق بيديها كصبية صغيرة :

ـ أنت شيطان !

وزأر فردشتينكو يقول :

ـ مرحى ! مرحى !

وابتسم بتتسين هو أيضاً ، رغم أنه كان هو أيضاً قد دُهش واستاء من دخول الجنرال . وحتى كوليا أخذ يضحك ، حتى لقد صرخ يقول « مرحى ! » .

واصل الجنرال كلامه يقول متحمساً ، ظافراً :

ـ كنت على حق ، كنت على حق جداً . فاذا كان السيجار ممنوعاً فى حجرة القطار ، فالكلاب أوْلى أن تكون ممنوعة أيضاً .

صرخ كوليا يقول متحمساً :

ـ مرحى ، بابا ! عظيم ، رائع ! او كنت فى مكانك لفعلت مثل الذى فعلت أنت حتماً !

سألت ناستاسيا فيليبوفنا نافدة الصبر :

ـ وماذا فعلت تلك السيدة ؟

أظلم وجه الجنرال ، ثم قال :

ـ هى ؟ هنا جرت الأمور مجرى سيئاً : فبدون أن تقول كلمة واحدة ، بدون أى تمهيد ، صفعتنى ! قلت لك : انها امرأة وحشية ، وحشية تماماً !

ـ وأنت ؟

خفض الجنرال عينيه ، ورفع حاجبيه ، وأعلى كتفيه ، وزمّ شفتيه ، وباعد ذراعيه ، وقال أخيراً بعد صمت :

ـ لم أستطع أن أكبح جماح نفسي ؟

ـ هل ضربتها ضرباً شديداً ؟

ـ لا ، أحلف لك ! لقد أحدث الأمر يومئذ فضيحة ، لكنني لم أضربها ضرباً شديداً . لم يكن ذلك مني الا ردّ فعل ، لا لشيء الا أن أبعدها . غير أن الشيطان دبَّر لي هنا « مقلباً » لعيناً ! فالسيدة التي تلبس ثوباً أزرق بلون السماء اتضح انها انجليزية ، وأنها مرافقة الأميرة بيلوكونسكايا ، بل وتكاد تكون صديقتها . تخيَّلي الدراما : اغماءات ، دموع ، حداد (كان الكلب الصغير أثيرهما) ، صيحات الأميرات الست والسيدة الانجليزية ! ولقد ذهبت أعرب عن أسفي وأقدم اعتذاري طبعاً ، حتى لقد كتبت رسالةً ، غير أني لم أُستقبل ، لا أنا ولا الرسالة ، ونشأ عن ذلك شقاق بيني وبين ايبانتشين بطبيعة الحال . فهأنذا الآن مشنَّع عليّ ، منفيٌّ عنهم ، مبعد من صحبتهم !

سألت ناستاسيا فيليبوفنا فجأة :

ـ ولكن اسمح لي ، كيف يمكن هذا ؟ لقد قرأت منذ خمسة أيام أو ستة ، في « الاستقلال » (وأنا أقرؤها بانتظام) ، قرأت هذه القصة نفسها تماماً ! حدث هذا على خط السكة الحديدية الذي يحاذي شاطيء نهر الراين ، بين رجل فرنسي وامرأة انجليزية : هي انتزعت منه سيجاره على النحو الذي وصفت ، وهو رمى كلبها الصغير القزم من النافذة بالطريقة التي ذكرت ؛ وكل شيء جرى على نحو ما جرى لك دون أي اختلاف ، فحتى ثوب السيدة كان أزرق بلون السماء !

احمر وجه الجنرال احمراراً شديداً . واحمر وجه كوليا أيضاً ، وأمسك رأسه بيديه . وأسرع بتسين يشيح وجهه . فكان فردشتينكو وحده ما يزال يضحك ملء حلقه . أما جانيا ، فالأفضل ألا نتكلم عنه . لقد ظل هنالك يعاني ألماً أخرس لا يطاق !

تمتم الجنرال يقول لناستاسيا فيليبوفنا :

ــ أؤكد لك أن هذا الشيء نفسه قد حدث لي ...

وصاح كوليا :

ــ فعلاً وقع لأبي حادث مزعج مع مسز سميث ، خادم بيلوكونسكايا . أنا أتذكر هذا .

عادت ناستاسيا فيليبوفنا تلح مصرةً في غير رحمة ولا شفقة :

ــ كيف يحدث لك هذا الشيء نفسه ؟ أتتكرر قصة واحدة في طرفي أوروبا ، بجميع تفاصيلها ، حتى الثوب الأزرق الذي لونه كلون السماء ؟ سوف أرسل اليك العدد الذي قرأت فيه قصة تلك الحادثة من جريدة « الاستقلال البلجيكي » .

وتابع الجنرال كلامه ملحاً :

ــ لاحظي مع ذلك أن الحادث الذي وقع لي عمره سنتان !

ــ آ ... اذا كان الأمر كذلك ، ف ... طبعاً ...

قالت ناستاسيا فيليبوفنا هذا وهي تضحك كأنما قد اعترتها نوبة هسترية .

قال جانيا بصوت مرهق ، وهو يمسك أباه من كتفه :

ـ بابا ، أرجوك أن تخـرج معى قليـلاً ··· أريد أن أقول لك كلمتين ·

كان كره لا نهاية له يسطع فى نظرته ·

وفى تلك اللحظة دوّى فى المدخل صوت الجرس قوياً عنيفاً يكاد ينخلع له الجرس انخلاعاً ، فكان يدل على زيارة غير عادية · فأسرع كوليا يفتح الباب ·

الفصل العاشر

سرعان ما سُمعت ضوضاء جمهور آتية من حجرة المدخل • ان من كان فى الصالون يدرك أن عدة أشخاص قد دخلوا ، وأن آخرين ما يزالون يدخلون • كانت أصوات كثيرة تتكلم فى آن واحد ، وتصرخ عند المدخل وعند السلّم الذى ظل بابه مفتوحاً• واضح أنهم زوار غريبون عجيبون • أخذ جميع من فى الصالون ينظر بعضهم الى بعض متحيراً • واندفع جانيا الى الصالون الكبير ، غير أن عدداً من الأشخاص كانوا قد دخلوا الى هناك •

صاح صوت يعرفه الأمير ، صاح يقول :

ـ آ ••• هأنت ذا يا يهوذا ، يا خائن ! سلامٌ جانيا ، يا وغداً عريقاً !

وصاح صوت آخر يقول مؤيداً :

ـ نعم ، انه هو ، هو نفسه !

لم يبق لدى الأمير أى شك• ان أحد الصوتين هو صوت روجويين، وان الصوت الآخر هو صوت ليديف •

تجمّد جانيا على العتبة مبهوتاً مصعوقاً ، وأخذ ينظر صامتاً ، دون أن يحاول اعتراض دخول هؤلاء الأشخاص العشرة أو الاثنى عشر الذين كانوا يجتاحون الغرفة وراء بارفيون روجويين •

كانت هذه العصبة خليطاً عجيباً ، يتميز أفرادها لا بتنوعهم فحسب، بل بفوضاهم كذلك ، حتى ان بعضهم دخلوا كما هم ، بفرواتهم ومعاطفهم وكانوا يبدون جميعاً سكارى بعض الشيء ، رغم أن أحداً منهم لم يكن سكران فعلاً . وكان يظهر عليهم جميعاً أن كلاً منهم في حاجة الى الآخرين يشدُ بهم أزره ، ويستمد منهم شجاعته . ما كان لواحد منهم أن يجرؤ على أن يدخل لو كان وحيداً ، ولكنهم كانوا كمن يدفع بعضهم بعضاً الى الدخول دفعاً . حتى روجويين الذى كان على رأسهم ، انما كان يدخل محاذراً ؛ فكان يبدو مظلم الوجه مشغول البال مهموم النفس الى درجة الهياج . أما الآخرون فلم يكونوا الا « كورس » هو فيه المغنى أو قل لم يكونوا الا عصبةً عليها أن تساعده قليلاً . كانت العصبة تضم ، عدا ليبديف ، كانت تضم زاليوجيف الذى عنى بتجعيد شعره عناية كبيرة، وترك فروته في حجرة المدخل ، ودخل طلقاً متبختراً ، ووراءه شخصان أو ثلاثة أشخاص من هذا الطراز نفسه كان واضحاً أنهم أبناء تجار ؛ وكان فى العصبة كذلك رجل يرتدى معطفاً على الزى العسكرى ، ورجل قصير سمين مفرط في السمنة ما ينفك يضحك بغير انقطاع ؛ ورجل ضخم، بدين هو أيضاً ، بدانةً غير عادية ، يكاد يبلغ طوله مترين ، متجهم الوجه شديد الصمت ، لابد أنه كان يعوّل على قبضتي يديه كثيراً ؛ وطالب من طلاب الطب ؛ وبولندى مرح . وعلى فسحة السلّم سيدتان تنظران الى حجرة المدخل ولا تجرؤان أن تدخلا . فأغلق كوليا الباب أمامهما وشدّ المزلاج .

ـ سلام جانيا الوغد ! انك لم تكن تتوقع أن ترى بارفيون روجويين، أليس كذلك ؟

هكذا ردّد بارفيون روجويين حين وصل الى باب الصالون فوقف أمام جانيا . ولكنه فى تلك اللحظة نفسها ، لمح فى الصالون ، قبالته تماماً ،

على حين فجأة ، لمح ناستاسيا فيليبوفنا . واضح أنه كان أبعد ما يكون عن تخيل امكان أن يراها هنا . فما ان رآها حتى أحدثت رؤيتها في نفسه تأثيراً خارقاً ، فاذا هو يبلغ من الشحوب وانكفاء اللون أن شفتيه أصبحتا زرقاوين .

قال في رفق بصوت خافت ، كأنما هو يحدث نفسه ، وقد شُلَّ فلا يدري ماذا يفعل :

ـ ما يقال صحيح اذن . انتهى الأمر !...

ثم قال مخاطباً جانيا من بين أسنانه ، وهو ينظر اليه نظرة تفيض بغضب حانق لا يُغالب :

ـ طيب ... سنتحاسب !...

لقد انحبست أنفاس روجوين ، فلم يكد يستطيع أن ينطق بهاتين الكلمتين مقطعتين الا بكثير من العناء . وتقدم في الصالون ، ولكنه حين أبصر نينا ألكسندروفنا وفاريا على حين فجأة ، توقف شاعراً ببعض الخجل رغم كل انفعاله . ودخل ليديف وراءه ، يتبعه كظله ، وقد نال منه السكر . ثم دخل الطالب ، فالعملاق ذو القبضتين الهائلتين؛ ودخل وراءهما زاليوجيف يحيي ذات اليمين وذات الشمال ؛ ثم دخل الرجل القصير السمين يحاول أن يشق لنفسه طريقاً . ان وجود السيدات قد كبحهم قليلاً ، وكان واضحاً أنه يربكهم ارباكا كبيرا ، ولكن المرء يحس أن هذا الارباك سيزول متى حانت لحظة « البدء » ... فان وجود السيدات لن يحول دون الفضيحة متى تُطلق اشارة « البدء » .

قال روجوين في ذهول ، ولكن مع شيء من الدهشة :

ـ كيف ؟ أأنت أيضاً هنا يا أمير ؟ وما تزال اللبادتان على حذاءيك ؟

وتنهّد . لكنه كان قد نسي الأمير وعاد ينقل بصره الى ناستاسيا

فيليبوفنا ، وهو يقترب منها مزيداً من الاقتراب ، كأنما يجذبه اليها مغناطيس •

وكانت ناستاسيا فيليبوفنا ، هي أيضاً ، تتفرس في الدخلاء قلقةً مستطلعة •

وأخيراً ثاب الى جانيا صوابه • فقال بصوت عال وهو يلقي على الدخلاء نظرة قاسية ، مخاطباً روجوين بخاصة :

ـ اسمحوا لي ! ما معنى هذا ؟ أأنتم هنا في اسطبل أيها السادة ؟! أمامكم هنا أمي وأختي •••

قال روجوين من بين أسنانه :

ـ نرى أنهما أمك وأختك •

وزاد ليبديف يقول :

ـ واضح أنهما أمك وأختك •

وأغلب الظن أن صاحب القبضتين القويتين قدَّر أن الحين قد حان ، فاذا هو يهمهم •

فصاح جانيا رافعاً لهجته الى درجة الانفجار ، قائلاً :

ـ كفى ! أرجوكم أولاً أن تنتقلوا الى الغرفة الأخرى ، واسمحوا لي بعد ذلك أن أسألكم •••

ضحك روجوين ضحكة شريرة ساخرة دون أن يتحرك من مكانه وقال :

ـ عجيب ! لم يتعرفني ! ألم تتعرف روجوين ؟

ـ هبني التقيت بك في مكان ما ، فانني •••

ـ هه ! التقيت بي في مكانٍ ما ! أنسيت اذن أنك منذ أقل من ثلاثة

أشهر قد سلبتني بالقمار مائتي روبل هي ملك أبي ؟ لقد مات الشيخ المسكين قبل أن يتسع وقته لمعرفة ذلك . أنت جررتني الى اللعب ، وصاحبك كنيف تولى الغش . أفلا تعرفني اذن ؟ في وسع بتسين أن يشهد . على كل حال ، يكفي أن أخرج من جيبي ثلاثة روبلات ، وأن أريكها حتى تركع وتسير على أربع الى فاسيلفسكي أملاً في الحصول عليها. هذا أنت ! تلك هي نفسك الخسيسة ! وانما جئت الآن أيضاً لأشتريك كلك بالمال ! لا تنظر الى حذاءي فأنا أملك يا صاحبي مالاً كثيراً ، وفي وسعي أن أشتريك أنت وجميع ذويك ... لو شئت اشتريتكم جميعاً ، جميعاً !...

كان روجوين يزداد اندفاعاً ، ويبدو أشد سكراً لحظة بعد لحظة . وهتف يقول :

ـ لا ، لا تطرديني يا ناستاسيا فيليبوفنا ! قولي لي كلمة واحدة لا أكثر : أأنت مقبلة على الزواج به أم لا ؟

ألقى روجوين هذا السؤال كما يلقيه انسان يشعر بأنه هالك ، وخاطب ناستاسيا فيليبوفنا كما يخاطب انسان الهه المعبود ، ومع ذلك كان في لهجته جرأة هي جرأة من حكم عليه بالاعدام فلم يبق هنالك ما يخاف أن يضيع منه .

وراح ينتظر الجواب بقلق قاتل !

شقلته ناستاسيا فيليبوفنا بنظرة ساخرة متعالية . ولكنها حين ألقت بصرها على فاريا ونينا الكسندروفنا ثم على جانيا ، غيّرت موقفها ، وقالت تجيبه في رفق وجد ، بصوت تلوح فيه الدهشة :

ـ لا ، أبداً ، ماذا دهاك ؟ ثم كيف خطر ببالك أن تلقي عليّ هذا السؤال ؟

هتف روجوين يقول كمن جُنّ فرحاً :

ـ لا ؟ لا ؟ أصحيح أنك لن تتزوجيـــه ؟ لقـد زعمـــوا لى أنك ستتزوجينه ••• آه ••• طيب • يا ناستاسيا فيليبوفنا ! هم يدّعون أنك وعدت جانيا بأن تتزوجيه •• كيف تتزوجين هذا ••• هذا الـ •• أذلك ممكن ؟ لقد قلت لهم هذا • ان فى وسعى أن اشتريه كله بمائة روبل، فاذا أعطيتـه ألف روبل أو قولى ثلاثة آلاف روبل فى سـبيل أن يعـدل عن الزواج ، لهرب عشية الزواج تاركاً خطيبته • أليس هذا صحيحاً ياجانيا ، يا سافل ؟ ألن تقبل الثلاثة آلاف روبل ؟ خذ ! اليك هى ! من أجل هذا انما جئتُ اليوم ! لقد جئت لأحصل على توقيع منك بالعدول عن الزواج• قلت سأشتريك ، ولسوف اشتريك فعلاً !

صرخ جانيا يقول وهو يحمرُ ثم يصفرُ ، ثم يصفر ثم يحمر :

ـ اذهب من هنا ! أنت سكران !

أحدثت هذه الصرخة انفجارات أصوات • كانت عصبة روجوين لا تنتظر منذ مدة طويلة الا أول استفزاز • وها هو ذا ليبديف يهمس فى أذن روجوين ببعض الكلام مهتماً أشد الاهتمام •

أجاب روجوين :

ـ أصبتَ يا سيادة الموظف ! أصبتَ يا أيها السكّير ! ولمَ لا ، أخيراً ؟

ثم هتف يقـول وهو ينظر الى ناسـتاسيا فيليبوفنا كالمجنون ، فتارةً برعب وتارةً بجرأة تشبه أن تكون وقاحة :

ـ ناستاسيا فيليبوفنا ! اليك ثمانية عشر ألف روبل ! و ••• وهناك مبالغ أخرى !•••

قال ذلك ووضع أمامها ، على منضدة صغيرة ، حزمةً ملفوفة بورق أبيض ، ومربوطة بخيط .

ولم يجرؤ أن يكمل فكرته ، لم يجرؤ أن يتمَّ ما كان يريد أن يقوله .

همس ليديف في أذنه مرة أخرى يقول مرتاعاً :

ـ لا ، لا هذا ...

كان واضحاً أن ضخامة المبلغ قد روَّعته ، وأنه يقترح تخفيضه . فأجابه روجوين :

ـ لا يا صاحبي ، هنا أخطأت ... هنا أنت غبى ..

واذ رأى شرراً يقدح فى نظرة ناستاسيا فيليبوفنا ، ثاب اليه صوابه ، وأخذ يرتجف ، وأضاف يقول :

ـ بل نحن كلانا غبيان ، أنت وأنا ... آه ... ما كان أشد حماقتى حين سمعت لك .

أضاف روجوين هذه الجملة الأخيرة بلهجة فيها ندم عميق .

فبعد أن لاحظت ناستاسيا فيليبوفنا بكثير من الانتباه كيف انقلب وجه روجوين وتشوَّه ، انفجرت تضحك فجأة ، ثم أضافت تقول بلهجة خالية من الكلفة ، طافحة بالوقاحة ، وهى تنهض عن الكنبة كأنما لتنصرف :

ـ ثمانية عشر ألف روبل ، لى أنا ؟

وكان جانيا يراقب المشهد منقبض القلب .

صاح روجوين يقول :

ـ بل أربعون ألفاً ، أربعون ألفاً ، لا ثمانية عشر !... لقد وعدنى بتسين وبسكوب بأن يدفعا لى أربعين ألف روبل فى الساعة السابعة ! أربعون ألف روبل غداً ونقداً !...

أصبح المشهد دنيئاً حقاً ، ولكن ناستاسيا فيليبوفنا ظلت تضحك ، ولم تعزم أمرها على الانصراف ، كأنها تتعمد أن يطول المشهد • وقد نهضت نينا ألكسندروفنا وفاريا ، هما أيضاً ، ووقفتا تنتظران صامتتين مروَّعتين ما عسى أن ينتهي اليه الأمر • فأما فاريا فعيناها تلتمعان ؛ وأما نينا ألكسندروفنا فقد هزَّها تعاقب الأحداث هذا هزاً قوياً كل القوة فهي ترتجف حتى لتكاد تسقط مغشياً عليها •

ـ اذا كان الأمر كذلك ، فانني أرفع المبلغ الى مائة ألف • نعم ، في هذا اليوم نفسه سأدفع مائة ألف روبل • بتسين ، ساعدني في جمع هذا المبلغ ، ولك حسابك !

همس بتسين قائلاً وهو يقترب منه بحركة نشيطة ويمسك ذراعه:

ـ أنت سكران : سوف نستدعي الشرطة ! أين تظن نفسك ؟

قالت ناستاسيا فيليبوفنا كأنما تثيره وتحرِّضه :

ـ الخمرة هي التي تتكلم !

فأخذ روجوين يصرخ قائلاً وقد ازدادت حماسته ازدياداً كبيراً :

ـ لا ، أنا لا أكذب ! سوف تقبضين مائة ألف روبل ! هذا المساء ! سوف أبرهن على أنني لا أتباخل !

هنا أرعد صوت آرداليون ألكسندروفتش على حين فجأة يقول غاضباً مهدداً وهو يتقدم نحو روجوين :

ـ ما معنى هذا كله أخيراً ؟

ان هذه الاندفاعة المباغتة التي لم يكن يتوقعها أحد من العجوز بعد أن ظل صامتاً حتى ذلك الحين ، قد أحدثت أثراً مضحكاً ، فانطلقت ضحكات هنا وهناك •

قال روجوين وهو يضحك ساخراً :

ـ من أين خـرج لنـا هذا ؟ تعال معنا أيها العجـوز فنشرب حتى تسكر !

فصرخ كوليا الذى كان يبكى عاراً وغضباً :

ـ هذه دناءة !

وصاحت فاريا فجأة وهى ترتعش غضباً من قمة رأسها الى أخمص قدميها :

ـ هل يُعقل ألا يكون بينكم واحد يُخرج هذه الوقحة من هنا ؟

فأجابت ناستاسيا فيليبوفنا تقول بمرح فيه احتقار :

ـ أأنا أوصف بأننى وقحة ؟ ما كان أغبانى حين جئت لأدعوهم الى سهرتى ! انظر كيف تعاملنى أختك يا جبريل آرداليونتش !

ظل جانيا بضع لحظات كالمصـعوق من اندفاعة أختـه ، ولكنه حين لاحظ أن ناستاسيا فيليبوفنا عازمة فى هذه المرة فعلاً على أن تتصرف ، هجم على فاريا كالمجنون فأمسك يدها بحنق شديد .

وهتف يسألها وهو ينظر اليها كمن يريد أن يحيلها الى رماد على الفور :

ـ ماذا فعلت ؟

كان قد خرج عن طوره ، وأصبح لا يدرى ماذا يصنع .

صرخت فاريا تقول وهى ترشق أخاها بنظرة انتصار وتحد :

ـ ماذا فعلت ؟ وأنت الى أين تجـــرنى ؟ أتراك تريد منى ، أيهـا الرجل الساقط ، أن أقدِّم اليها اعتذارى هى التى أهانت أمك ، وغطَّت بيتك كله بالعار ؟

ولبثا على هذه الحال بضع لحظات ، وجهاً لوجه .

كان جانيا ما يزال ممسكاً يد أخته بيده . وحاولت فاريا أن تخلِّص

يدها مرةً أو مرتين بكل ما تملك من قوة ، لكنها لم تفلح ، فاذا هي بعد ذلك تخرج عن طورها فتبصق في وجه أخيها .

صرخت ناستاسيا فيليبوفنا تقول :

ـ هذه فتاة حقاً ! يا بتتسين ! أهنئك !

زاغ بصر جانيا ، ونسي نفســه تماماً ، فرفع يده يريد أن يضرب أخته بكل قواه . وكان يمكن أن تســقط يده على وجهها ، لولا أن يداً أمسكت ذراع جانيا بانطلاقة سريعة فأوقفتها . لقد وقف الأمير بين الأخ وأخته .

قال الأمير حازماً ، ولكنه كان يرتعش بجميع أعضائه هو أيضاً ، كما يحدث في اثر اضطراب شديد :

ـ ما هذا ؟ أما كفاكم ؟!...

فزأر جانيا قائلاً وهو يترك يد فاريا :

ـ أأظل أجدك دائماً في طريقي ؟

وكانت يد جانيا قد أصبحت طليقة ، وكان قد بلغ ذروة السخط ، فاذا هو يُنزل بيده على وجه الأمير صفعةً قوية .

صاح كوليا يقول وهو يرفع ذراعيه :

ـ آه ... آه ... رباه !...

وانطلقت هتافات التعجب من كل جهة . كان الأمير أصفر اللون ، يحدّق الى عيني جانيا بنظرة غريبة مثقلة لوماً ، وكانت شفتاه المختلجتان تحاولان أن تنطقا بشيء ما ، وكانت ابتسامة عجيبة غير مألوفة تشنّجهما فما تستطيعان أن تقولا شيئاً . واستطاع أخيراً أن يتلفظ فقال :

ـ أنا ، لا ضير ان ضربتني ... أما هي ... فلن أسمح لك بأن تضربها !...

ولكنه فقد سيطرته على نفسه فجأة ، فترك جانيا ، وأمسك رأســه بيديه ، واتجه نحو الحائط ، وقال بصوت متقطع :

ـ آه ... لشد ما ستشعر بالخزى والعار من فعلتك !

وكان جانيا كالمصعوق فعلاً .

هُرع كوليا الى الأمير يقبِّله ويواســيه ، وتبعـه روجويين وفاريا وبتسين ونينا ألكسـندروفنا ... تبعـه الجميع ، حتى الشيخ آرداليــون ألكسندروفتش .

تمتم الأمير قائلاً وهو ما يزال يبتسم تلك الابتسامة غير المألوفة :

ـ ليس هذا بشيء ! ليس هذا بشيء !

وصرخ روجويين :

ـ لسوف يندم على ما فعل . لسوف تخجل يا جانيا من أنك أسأت الى مثــل ... هذه النعجة (لم يجد كلمةً أخــرى) . دعهم يا أمير ، يا صديقى ؛ وتعال ... فسوف ترى كيف يعرف روجويين أن يحب !

تأثرت ناستاسيا فيليبوفنا ، هى أيضاً ، أشد التــأثر من فعلة جانيــا وموقف الأمير . ان وجهها الذى يكون فى العادة شــاحب اللون والذى يعبر فى العادة عن شرود الذهن ، وذلك ما لا يتفق كثيراً مع ضحكها الذى كانت تصطنعه اصطناعاً منذ قليــل ، قد غيَّرته الآن عاطفــة جديدة . هذا واضح كل الوضوح . ومع هذا يحس المرء أنها لا تحرص على اظهار ذلك ، فهى تحاول أن تحافظ على ما كان يعبِّر عنه وجهها من سخرية .

وفجأة تذكرت السؤال الذى أثاره الأمير منذ قليل ، فدمدمت تقول على حين بغتة ، ولكن بشىء من الجد والرصانة منذ الآن :

ـ حتماً ، سبق أن رأيت هذا الوجه قبل الآن !

فهتف الأمير فجأة يقول بلهجة عتاب عميق ، لكنه عتـاب فيه مودة وصداقة :

ـ وأنت ، ألا تشـعرين الآن بخجل ؟ أنت لست تلك المرأة التى حاولوا أن يصفوها بما وصفوها به !...

دُهشت ناستاسيا فيليبوفنا ، وحاولت أن تبتسم كأنما لتخفى شيئاً ماء وبعد أن ألقت نظرةً على جانيا اتجهت نحو باب الصالون مضطربة . لكنها حتى قبل أن تصل الى حجرة المدخل ، عادت أدراجها فجأة ، فاقتربت من نينا ألكسندروفنا فتناولت يدها وحملتها الى شفتيها . ودمدمت تقول بصوت سريع ، وبحرارة ، وقد اشتعل وجهها واحمرّ :

ـ لقد حزر . صحيح أننى لست هكذا ...

ثم استدارت وخرجت ، ولكنها بلغت من السرعة في هذا كله أن أن أحـداً لم يتسـع وقته لأن يعـرف لماذا هى رجعت أدراجهـا ؟ كل ما هنالك أنهم رأوها تكلّم نينا ألكسندروفنا ببضع كلمات همساً ، ولعلهم رأوها تقبّل يدها . غير أن فاريا رأت كل شيء ، وسـمعت كل شيء ، وتابعتها بنظراتها مدهوشة .

عاد الى جانيا رشده ، فاندفع ليصحب ناستاسيا فيليبوفنا ، لكنها كانت قد خرجت ، فأدركها فى السلّم .

صرخت تقول له :

ـ لا تصحبنى ! الى اللقاء فى هذا المساء ! لا تتخلف ! هل سمعت ؟

فعاد جانيا مضطرباً ، مفكراً ، واجماً . ان لغـزاً ثقيلاً يجثم الآن على قلبـه ، بل هو الآن أثقل ممـا كان . وطافت صـورة الأمير أيضـاً بخاطره ...

وقد بلغ من عمق الاستغراق أنه لم يكن يرى انسحاب عصبة روجويين التي كان أفرادها يصدمونه في المدخل متدافعين متعجلين ترك المنزل في اثر رئيسهم • كانوا جميعاً يتناقشون بحرارة شديدة وصوت عال • وكان روجويين نفسه يمشي الى جانب بتسين ، ويكلمه ملحاً في شيء لا بد أنه خطير ولا يحتمل أي تأخير • حتى اذا مرَّ أمام جانيا قال له:

ـ خسرت يا جانيا !

فتابعهم جانيا بنظرة قلقة •

الفصل الحادي عشر

ترك الأمير الصالون وحبس نفسه فى غرفته • فسرعان ما أسرع اليه كوليا ليواسيه • كان يبدو على الصبى المسكين أنه أصبح لا يستطيع الانفصال عنه • قال له :

ـ أحسنت اذ انصرفت • ستسوء الأمور مزيداً من السوء هناك • يحدث هذا فى جميع الأيام • كل ذلك بسبب ناستاسيا فيليبوفنا تلك •

قال الأمير :

ـ فى أسرتك ، يا كوليا ، آلام كثيرة متراكمة •

ـ نعم ، هذا صحيح • والحق أننا ليس لنا أن نشكو • فالذنب كله ذنبنا • ولكن لى صديقاً هو أشقى منا أيضاً • هل تريد أن أعرّفك به ؟

ـ بسرور كبير • أهو أحد رفاقك ؟

ـ نعم ، تقريباً • سأشرح لك الأمر فيما بعد • انها جميلة ، ناستاسيا فيليبوفنا ، أليست كذلك ؟ لم يسبق لى أن رأيتها حتى الآن ، رغم كل ما بذلت فى سبيل ذلك من جهود • كانت اليوم باهرة حقاً ، باهرة ! كان يمكننى أن أغفر لأخى جانيا كل شىء لو كان يتزوجها عن حب • أما أن يأخذ مالاً فهذا هو العيب !

ـ نعم ، أخوك لا يعجبنى كثيراً •

ـ أفهم ذلك جيداً ، ولا سيما بعد الذى فعله بك ... هل تريد أن أقول لك رأيى ؟ هناك مواضعات اجتماعية وأحكام شائعة لا أطيقها البتة . يكفى أن يقوم مجنون أو معتوه أو حتى وغد مجرم ، يكفى أن يقوم وهو فى حالة هذيان بصفع أحد الناس حتى يتلطخ شرف الرجل الذى تلقى الصفعة ، الى الأبد ، فاذا هو لا يستطيع أن يغسل الاهانة الا بالدم ! اللهم الا أن يمشوا أمامه ركّعاً ضارعين اليه أن يصفح ويغفر . فى رأيى أن هذا طغيان واستبداد ، وأنه سخف ! وذلك هو موضوع الدراما التى كتبها ليرمونتوف بعنوان : « الحفلة المقنعة » * ، والتى أجد أنها تافهة بلهاء ، بل وأنها مخالفة للطبيعة . يجب أن نذكر على كل حال أن تلك الدراما هى من الأعمال التى كتبها ليرمونتوف فى طفولته تقريباً ...

ـ أعجبتنى أختك كثيراً .

ـ أرأيت كيف بصقت فى وجه جانيا ؟ شجاعةً فاريا ! ومع هذا فانك أنت لم تبصق ، وما أظن أن مردّ ذلك الى نقص فى شجاعتك . هه ! ها هى ذى بنفسها . صدق المثل : اذكر الذيب وحضّر القضيب . كنت أعلم أنها لا بد أن تجيء ! ان فيها نبلاً وشهامة ، وان تكن لها عيوب ونواقص أيضاً .

كانت أول حركة من فاريا أنها قالت :

ـ أنت لا عمل لك هنا ولا شأن . اذهب الى أبيك . لا بد أنه يُضجرك يا أمير ؟

ـ لا ، بالعكس .

ـ ها هى ذى الأخت الكبرى تندفع وتثور ! ذلك هو عيبها . ولكن، بالمناسبة ، لقد ظننت أن أبانا سيتبع روجويين . لا بد أنه نادم الآن على أنه لم يفعل .

وأضاف كوليا يقول وهو يخرج :

ـ يستحسن فعلاً أن أذهب اليه فأرى ما هنالك !

قالت فاريا :

ـ الحمد لله ! استطعت أن أقود ماما وأن أرقدها ، ولم يحدث انفجار جديد . جانيا غارق في خجله وهمومه . هناك ما يدعوه الى ذلك على كل حال !... يا له من درس !... لقد جئت لأشكرك ، ولأسألك أيضاً ألم تكن تعرف ناستاسيا فيليبوفنا قبل اليوم ؟

ـ لا ، لم أكن أعرفها .

ـ فلماذا قلت لها اذن ، وجهاً لوجه ، انها ليست « تلك » المرأة ؟ ألا ان من الجائز أن تكون قد حزرت الواقع !... على كل حال ، طاش عقلي ، وتاه فكري ، فأصبحت لا أفهم من الأمر شيئاً ! لا شك فى أنها كانت تنوى أن تهيننا . ذلك واضح . وقد سبق أن سمعت عنها أشياء كثيرة غريبة . ولكن اذا صدق أنها جاءت لتدعونا أنا وماما ، فكيف نفسّر أنها بدأت بمعاملة ماما تلك المعاملة الغريبة ؟ ان بتتسين يعرفها جيداً . وقد قال انه لم يستطع أن يعلل سلوكها منذ قليل . وموقفها ذاك من روجوين؟ ان من يحترم نفسه لا يسمح لنفسه بمثل هذه اللغة ، فى منزل ... وأمى قلقة عليك كل القلق أيضاً .

قال الأمير وهو يحرك يده بحركة عدم الاكتراث :

ـ ما هذا بشيء !

ـ انه لغريب مع ذلك أنها أطاعتك ...

ـ كيف ... أطاعتنى ؟

ـ حين قلت لها ان عليها أن تشعر بالخجل ، فاذا هي تتغير وتتبدل دفعةً واحدة .

ثم أضافت فاريا وهى تبتسم ابتسامة خفيفة :

ـ ان لك عليها نفوذاً وسلطاناً يا أمير !

وفُتح الباب ، ودخل جانيا من حيث لم يكن يُتوقع دخوله البتة • وحتى رؤية فاريا لم تحمله على التردد • تلبث عند العتبة لحظةً ، ثم دنا من الأمير وقد بدا في وجهه الحزم والثبات ، وقال فجأة بانفعال قوى :

ـ يا أمير ، لقد كنت أنا دنيئاً ، فاغفر لى يا عزيزى !

كانت قسمات وجهه تعبر عن ألم كبير وعذاب شديد • فتأمله الأمير مشدوهاً ولم يجب فوراً • فأسرع جانيا يكرر قوله نافد الصبر :

ـ اغفر لى ، أرجوك ، اغفر لى • هل تريد أن أقبِّل يدك ؟

فما كان من الأمير ، وقد تأثر تأثراً شديداً ، الا أن عانقه بذراعيه دون أن يقول كلمة واحدة • وتبادل الرجلان القبلات صادقة •

قال الأمير أخيراً وهو يسترد أنفاسه بكثير من العناء :

ـ ما كان ليخطر ببالى أنك قادر على هذا ••• كنت أظن أنك غير قادر عليه •••

ـ على الاعتراف بأخطائى ؟•• انى لأتساءل كيف أمكننى أن أعدَّك أبله ، أنت الذى ترى ما لا يستطيع الآخرون أن يلاحظوه فى يوم من الأيام • انه ليكون مفيداً أن أجرى معك حديثاً ••• ولكن ••• ربما كان السكوت أفضل !••

قال الأمير وهو يومىء له الى فاريا :

ـ وهذه انسان آخر يجب عليك أن تستغفره !

فصاح جانيا قائلاً وهو يشيح بوجهه عن أخته :

ـ لا ، لا ، هؤلاء جميعاً أعداء لى • تأكد يا أمير أننى قمت بمحاولات كثيرة وبذلت جهوداً كبيرة • لا ، هنا لا يغفرون غفراناً صادقاً قط !

فقالت فاريا فجأة :

ـ بل سأغفر لك !

ـ وهل تذهبين هذا المساء الى بيت ناستاسيا فيليبوفنا ؟

ـ أذهب ، اذا أمرتنى بأن أذهب . ولكن احكم فى الأمر بنفسك : هل يمكننى الآن أن أظهر هناك ؟

ـ ما دامت ليست « تلك » . انك ترين الألغاز التى تقوم فى أذهاننا عنها ؟ ألا انها لتجيد التمثيل !...

قال جانيا ذلك وضحك ضحكة ساخرة خبيثة .

ـ أنا أدرك أنها ليست ما يتراءى لنا ، وأن فى جعبتها « مقالب » أخرى . ولكن ما هى تلك « المقالب » ؟ ثم انتبه يا جانيا ! أأنت تعرف رأيها فيك على الأقل ؟ صحيح أنها قبَّلت يد ماما ، ولنفرض أن سائر الأمور تمثيل ، ولكنها مع ذلك قد سخرت منك وتهكمت عليك ! هذه مذلات لا تساويها خمسة وسبعون ألف روبل ! لا يا أخى ! عهدى فيك أنك قادر على الشعور بعواطف نبيلة ، لذلك ترانى أقول لك هذا الكلام. صدِّقنى . أنت نفسك لا تذهب اليها هذه الليلة ! حذار أن تذهب ! لسوف يجرى الأمر كله مجرى سيئاً !

قالت فاريا ذلك ، وأسرعت تخرج من الغرفة منفعلة أشد الانفعال..

قال جانيا وهو يضحك مستهزئاً :

ـ كذلك هنَّ جميعاً ! هل يتخيَّلن أننى أنا نفسى لا أعرف ؟ لا شك أننى أعرف أكثر مما يعرفون !

وهنا جلس جانيا على الديوان ، فكان واضحاً أنه ينوى اطالة زيارته.

تجاسر الأمير فقال خجلاً وجلاً :

ـ اذا كنت تعرف ، فلماذا اخترت اذن هذا التعذيب عالماً أن خمسة وسبعين ألف روبل لا تساويه ؟

فدمدم جانيا يقول :

ـ ليس هذا هو الأمر . ولكن قل بالمناسبة ، فأنا أحرص على أن أعرف رأيك : هل هذا « التعذيب » تساويه خمسة وسبعون ألف روبل أم لا تسويه ؟

ـ أعتقد أنها لا تساويه .

ـ مفهوم . وعارٌ أن يتزوج الرجل على هذه الشروط .

ـ عار جداً !

ـ طيب ... فاعلم انني سأتزوج مع ذلك ، واعلم أنني الآن أشد ثقة ويقيناً مما كنت من قبل . فمنذ قليل ، كنت ما أزال متردداً ، أما الآن فقد انتهى الأمر ! لا تقل شيئاً ! أنا أعرف ماذا تريد أن تقول...

ـ لا أريد أن أتكلم عمّا ظننتَ أني سأتكلم عنه . كل ما هنالك انني مدهوش من ثقتك ويقينك .

ـ مِمَّ ؟ من ثقتي ويقيني ؟

ـ من ثقتك أولاً بأن ناستاسيا فيليبوفنا ستتزوجك حتماً ، وأن هذا أمر مفروغ منه ؛ ومن ثقتك ثانياً بأن هذه الخمسة وسبعين ألف روبل ستُلقى في جيبك رأساً . أقول هذا رغم أنني أجهل أشياء كثيرة على كل حال .

اقترب جانيا من الأمير بحركة نشيطة . وقال :

ـ طبعاً ، أنت لا تعرف كل شيء . والا فلماذا كان يمكن أن أقبل احتمال هذا الثقل كله ؟

ـ يخيّل الىّ أن ذلك يحدث فى كثير من الأحيان : يتزوج الرجل طمعاً فى مال ، ولكن المرأة هى التى تستولى على المال !

دمدمجانيا يقول واجماً مفكراً قلقاً :

ـ لـ ... لا ! لن تجرى الأمور هذا المجرى فى زواجنا !.. هناك ... ظروف معنية ...

ثم أسرع يضيف :

ـ أما عن جوابها فلم يبق ثمة أى شك فيه ! ما الذى يدعوك الى افتراض أنها قد ترفضنى ؟

ـ لا أعرف أكثر مما رأيت . وقد قالت باربارا آرداليونوفنا ، هى أيضاً ، منذ قليل ...

ـ هيه ! هن يقلن هذا الكلام ، لأنهن لم يبق لهن ما يقلنه ! أما روجويين فقد كانت تسخر منه ، ثق بهذا . ذلك شيء ميّزته واضحاً ، ذلك شيء لا يخفى عن البصر . عانيت منذ قليل لحظة قلق ، لكننى أرى الآن رؤية واضحة . اللهم الا أن يكون حكمك مبنياً على سلوكها مع أمى وأبى وفاريا ؟

ـ وعلى سلوكها معك .

ـ هب ملاحظتك صحيحة. ولكن هذا ليس الا روح الانتقام الأبدية لدى النساء . ان ناستاسيا فيليبوفنا امرأة سريعة الاهتياج ، شديدة التأذى، كثيرة الأنانية : لكأنها موظف من الموظفين المنسيين فى كشوف الترقيات ! لقد حرصت على أن تثبت لهم قوة شخصيتها ، وعلى أن تظهر لهم احتقارها لهم ... ولى أنا أيضاً ، ان شئت . هذا صحيح . لست أنكره ... لكنها ستتزوجنى مع ذلك . انك لا تستطيع أن تتخيل الألاعيب التى يمكن أن تدفع اليها الكبرياء . ان هذه المرأة تعدنى شخصاً جديراً بالاحتقار ،

لأنني على علمي بأنها خليلة رجل آخر ، أرضى أن أتزوجها في سبيل المال صراحةً . ولكنها لا يخطر ببالها أن شخصاً آخر كان يمكن أن يخدعها بطريقة أحقر وأدنأ ، كأن يأخذ يحدثها مفيضاً مسهباً عن الأفكار اللبرالية والآراء التقدمية وتحرير المرأة وما الى ذلك ، ليجرّها بعد ذلك من أنفها ! ان في وسعه بمثل هذه الأساليب أن يقنع هذه المجنونة اقناعاً سهلاً كل السهولة بأنه لا يختارها الا « لنبل قلبها ، وكثرة محنها » ، مع أنه في حقيقة الأمر لا يفكر الا في مالها . أما أنا فلا أحظى بالقبول والرضى ، لأنني أكره المواربة ... ولكن كان عليّ في الواقع أن ألجأ الى ذلك الأسلوب ! ثم قل لي : ما الذى تفعله هي ؟ ألا تفعل هذا الشيء نفسه ؟ فلماذا اذن تحتقرني ، وتمثّل هذا التمثيل كله ؟ السبب بسيط : هو أنني أرفض أن أرضح ، وأظهر العزة والكبرياء أنا أيضاً ! على كل حال ، سوف نرى ...

ـ أتراك أحببتها من قبل ؟

ـ نعم ، في بداية الأمر . ولكن كفى ! هناك نساء لا يصلحن لأن يُتخذهن الا خليلات . لا أدعي بهذا القول أنها كانت خليلتي . فاذا رضيت أن تكون عاقلة وأن تعيش هادئة ، رضيتُ بذلك أنا أيضاً ، أما اذا أخذت تتمرد وتثور ، فسرعان ما سأتركها فاراً بالمال . لا أريد أن أكون أضحوكة ، ذلك أهم شيء عندي !

قال الأمير بحذر :

ـ يخيّل الىّ أن ناستاسيا فيليبوفنا ذكية ، فكيف تقع في الفخ اذا كانت توجس هذا الشقاء كله سلفاً ؟ في وسعها أن تتزوج رجلاً آخر . ذلك ما يثير دهشتي ...

ـ هنا يكمن الحساب كله ! انك لا تعرف كل شيء يا أمير .. ان

ههنا .. ثم انها مقتنعة على كل حال بأنني أحبها حباً يبلغ الجنون .. أؤكد لك ذلك ... وأغلب الظن عندي أنها هي أيضاً تحبني على طريقتها ، فكما يقول المثل : « من يحب حباً قوياً يعاقب عقاباً شديداً » . طوال حياتها ستظل تعدني أسيراً تعذّبه (ولعل ذلك هو ما تحتاج اليه) ، مع حبها اياي على طريقتها في الوقت نفسه . انها تهيىء نفسها لهذا ، فذلك هو طبعها . انها امرأة روسية الى أقصى حد ، أؤكد لك هذا . أما أنا فانني أخبىء لها أيضاً مفاجأة . ان ما حدث بيني وبين فاريا منذ قليل كان طارئاً عرضياً ، لكنه يفيدني : لقد استطاعت أن تتأكد من تعلقي بها ، ومن أنني سأقطع جميع الصلات في سبيلها . هأنت ذا ترى أنني أنا أيضاً لست غبياً الى ذلك الحد . لا شك أنك تجدني كثير الثرثرة . جائز جداً يا أمير أنني أخطىء اذ أفضي اليك بهذه المسارّات كلها . ولكني ما هجمت عليك هذا الهجوم الا لأنك أول انسان نبيل ألقاه في حياتي ! لا تأخذ كلمة «الهجوم» هذه بمعنيين : لستَ حاقداً عليَّ لما حدث منذ قليل، أليس كذلك؟ لعل هذه أول مرة أتكلم فيها مفتوح القلب منذ سنتين. الشرفاء هنا قليل : أشرفهم بتسين . ولكن يخيَّل اليَّ أنك تضحك ؟ ألا تضحك ؟ ان الأوباش يحبون الشرفاء كثيراً . ألم تكن تعرف هذه الحقيقة ؟ واذ انني ... ولكن قل لي حقاً : فيم أنا وبَشٌ ؟ هلاَّ قلت لي هذا صريحاً صادقاً ! لماذا يقلدونها جميعاً فيعدونني وَبَشاً ؟ تصوَّرْ فوق ذلك انني حين أسمع كلامها وأسمع كلامهم آخذ أعدُّ نفسي وبشاً مثلما يعدونني كذلك ! ذلك هو الصغار وتلك هي الحقارة في الواقع !

قال الأمير :

ـ أما أنا فلن أعدك بعد اليوم وبشاً . الحق أنني منذ قليل كنت على وشك أن أعدّك وغداً بالفعل . ولكنك أفرحتني الآن كثيراً ! هذا درس سأنتفع به في المستقبل ، وهو ألا أحكم على الناس قبل أن تكون لي خبرة

بهم • أنا الآن أرى أنك لست وغداً ، بل أذهب الى أبعد من ذلك فأقول انك لست حتى رجلاً فاسداً • في رأيي انك انسان عادي جداً ، وربما على شيء من ضعف الارادة وقلة الأصالة •

ابتسم جانيا ابتسامة مريرة ، ولكنه لزم الصمت • ولاحظ الأمير أن رأيه لم يحظ برضى جانيا • فخجل من ذلك كثيراً ، وصمت هو أيضاً •

سأله جانيا فجأة :

ـ هل طلب منك أبي مالاً ؟

ـ لا •

ـ سيطلب ، فلا تعطه • أما أنه كان انساناً لائقاً جداً ، فهذا أمر أتذكره كل التذكر • لقد كان يُستقبل في أرقى مجتمع • ما أسرع ما يترددون ويسقطون ، هؤلاء الناس اللائقون جميعاً ! أمر غريب ! يكفي أيسر تغير في ظروف حياتهم حتى يهووا الى الدرك الأسفل ، ثم لا يبقى منهم شيء ، فكأنهم بارود اشتعل فاستحال كله دخاناً ! أؤكد لك أنه كان في الماضي لا يكذب أبداً كما يكذب الآن ! كل ما هنالك أنه كان شديد التحمس ، فانظر كيف صار الآن ! هذا ذنب الشراب طبعاً • هل تعلم أنه يعول خليلة ؟ ثم انه الآن ليس كذاباً بغير أذى • انني لا أفهم كيف تصبر عليه ماما هذا الصبر كله ، وكيف تتسامح معه هذا التسامح كله ! هل روى لك قصة حصار « كارس » ؟ أو قصة حصانه الأبلق الذي طفق يتكلم ؟ انه يصل الى هذا الحد أحياناً •

قال جانيا ذلك وانفجر يضحك ضحكاً مجلجلاً • ثم سأل الأمير :

ـ ما بالك تنظر اليّ هكذا ؟

ـ أدهشني ما في هذا الضحك من صراحة وصدق • أرى أنك ما تزال قادراً على أن تضحك كما يضحك طفل • ومنذ قليل ، حين دخلت

لتصالحني ، سألتني : « هل تريد أن أقبّل يدك ؟ » • هذا بعينه هو ما يفعله طفل حين يستغفر من ذنب • ما زلت قادراً اذن على هذا النوع من الكلام الطيب والاندفاع الصادق ! فما بالك تنساق هذا الانسياق في تلك القصة المشبوهة ، قصة الخمسة وسبعين ألف روبل • حقاً ان ذلك ليبدو لي مستحيلاً لا يصدَّق •

ـ فما هي النتيجة التي تستخرجها من هذا كله ؟

ـ انني أتساءل ألستَ تتسرع في سلوكك كثيراً ؟ أليس الأفضل أن تفكر أولاً ؟ قد تكون باربارا آرداليونوفنا على حق •••

قاطعه جانيا قائلاً :

ـ ها ••• درس في الأخلاق !••• أما أنني ما زلت صبياً صغيراً فذلك أمر أعرفه أنا نفسي • وأكبر دليل على ذلك أنني أثرت معك مثل هذا الحديث •

وتابع جانيا حديثه فاضحاً نفسه كفتى جُرحت كبرياؤه :

ـ لكنني لا أرتضي هذا الزواج بدافع الحساب وحده يا أمير • والا لكان من الممكن أن تخطيء حساباتي ، فما زلت لا أملك لهذا الأمر كل عدته من دماغ قوي وعزيمة صلبة • وانما أنا أقبل هذا الزواج مدفوعاً بهوى عنيف جامح ، وميلٍ عارم لا يغالَب ، لأن لي هدفاً رئيسياً • لعلك تظن أنني متى قبضت هذه الخمسة وسبعين ألف روبل ، فسأشتري لنفسي مركبة فخمة • فاعلم اذن أن الأمر ليس كذلك • لسوف آخذ عندئذ في ابلاء سترة عتيقة عمرها ثلاث سنين ، ولسوف أعدل عندئذ عن جميع علاقاتي بالمنتدى • ما أقل القادرين في بلادنا على المضي في طريقهم قدماً لا يحيدون عنه ، وان تكن نفوسهم جميعاً نفوس مرابين ! أما أنا فسأصمد وسأتابع السير الى النهاية • فانما المهم أن يسير المرء الى النهاية • تلك هي

المشكلة ! كان بتسين ، فى السابعة عشرة من عمره ، يبيت فى الشارع ويبيع سكاكين . بدأ كفاحه ببضعة كوبكات . وهو يملك الآن ستين ألف روبل. ولكن ما أقسى الجهود التى بذلها والمصاعب التى قاساها فى سبيل ذلك ! أما أنا فأستطيع أن أتخطى جميع تلك المصاعب فأبدأ برأس مال كبير على الفور . فما ان تمض خمس عشرة سنة حتى يشير الىّ الناس بالبنان قائلين : « هذا ايفولجين ، ملك اليهود ! » . أنت تصفنى باننى خالٍ من الأصالة . فاعلم يا عزيزى الأمير أن أكبر اهانة يمكن أن تلحقها بانسان فى عصرنا ومن جنسنا هى أن تنعته بأنه محروم من الأصالة والارادة والمواهب الخاصة ، وأن تقول عنه انه رجل عادى . انك لم ترض حتى أن تعدّنى وبشاً ذا قيمة ؟ وانى لأعترف لك بأننى أوشكت منذ قليل أن التهمك التهاماً بسبب ما قلته فى حقى ! لقد آلمتنى أكثر مما آلمنى ايبانتشين ذاك الذى يظن أننى لن أتورع عن أن أبيعه امرأتى (لم يصرح بهذا ، ولكنه يضمره ، وهذه سذاجة منه ، فانه لم يحاول حتى أن يسبر ما بنفسى) . هذا كله يثيرنى منذ مدة طويلة يا صديقى ، وذلك هو السبب فى اننى محتاج الى مال . فمتى حصلت على المال ، أصبحت على جانب كبير من الأصالة ، ثق بهذا ! من هذه الناحية خاصةً انما يجب أن يوصف المال بأنه حقير وبغيض ، لأنه يضفى على صاحبه حتى الموهبة ! وسيستمر الحال على هذا المنوال الى نهاية العالم . قد تقول لى ان هذا الكلام كله صبيانى ، أو قد تقول لى انه كله شعر . لا ضير ... ليزدد الأمر بذلك سخفاً ، ولكنه سيتحقق. سأسير الى نهاية الشوط ، وسأصمد. صدق المثل : « يضحك جيداً من يضحك آخراً » . لماذا يعاملنى ايبانتشين هذه المعاملة ؟ أعن خبث وشر ؟ لا ... وانما هو يعاملنى هذه المعاملة لأننى شخص يمكن اهماله تماماً ، فليس له قيمة أو وزن . أما حين أصبح ... على كل حال ، كفى الآن كلاماً . لقد أزف الوقت ... ثم ان

كوليا قد أطلّ بأنفه مرتين ، ربما ليناديك الى الغداء . أما أنا فأخرج .. سآتي اليك أحياناً . لن تتضايق كثيراً عندنا ، فلسوف يتبنونك الآن جميعاً ! حذار أن تفضحني . يخيَّل اليَّ أننا لا نستطيع أن نكون الا أصدقاء أو أعداء . قل لي يا أمير : لو أنني قبَّلت يدك منذ قليل (كما اقترحتُ ذلك صادقاً) أكنت أصبح بعد ذلك عدوّك لهذا السبب ؟

قال الأمير وهو يضحك بعد لحظة من تفكير :

ـ حتماً ! ولكن لا الى الأبد ، بل الى حين ، فانك ما كنت لتستطيع أن تصمد طويلاً ، فلا بد أن تغفر لي أخيراً .

قال جانيا :

ـ هيه ... هيه !... أرى أن على المرء أن يكون حذراً كل الحذر معك . انك حتى في هذا الجواب قد استطعت أن تدسّ شيئاً من سم . من يدري ! لعلك عدو ! بالمناسبة : هأ هأ هأ !... لقد نسيت : خيِّل اليَّ منذ قليل أن ناستاسيا فيليبوفنا أعجبتك كثيراً ، هل هذا صحيح ؟

ـ نعم ، تعجبني !

ـ أأنت مغرم بها ؟

ـ لـ ... لا !

ـ ومع ذلك احمرّ لونك ، وظهر العذاب في وجهك . طيب ليس هذا بشيء . لن أسخر منك . الى اللقاء . هل تعلم أنها امرأة متمسكة بالفضيلة ؟ هل تستطيع أن تصدّق ذلك ؟ لعلك تظن أنها خليلة الآخر ، توتسكي ؟ أخطأ اذن ظنك ! ما هي خليلته ، وذلك منذ زمن طويل ! هل لاحظت خراقتها وخجلها في بعض اللحظات ؟ تلك هي الحقيقة . ان أصحاب أمثال هذه الطباع هم الذين يحبون أن يسيطروا . طيب . استودعك الله !

انسحب جانيا بكثير من اليسر والطلاقة والسهولة ، فكان عند خروجه أحسن حالاً وأصفى مزاجاً منه عند دخوله .

أما الأمير فقد لبث جامداً نحو عشر دقائق ، لا يتحرك .

وأطل كوليا برأسه من الباب من جديد . فقال له الأمير :

ـ لن أتغدى يا كوليا ، فقد أفطرت عند آل ايبانتشين منذ قليل فأصبت حظاً كبيراً من الطعام .

فدخل كوليا ، ومدّ الى الأمير رسالة . انها ورقة مطوية ممهورة بتوقيع الجنرال . يستطيع من ينظر الى كوليا أن يقرأ في وجهه مدى الألم الذي يشعر به وهو يناول الأمير الرسالة . وقرأ الأمير الرسالة ، فنهض وتناول قبعته .

قال كوليا خجلان مضطرباً :

ـ ليس المكان بعيداً ، هو على مسافة خطوتين من هنا . بابا جالس الى مائدة أمام زجاجة . انى لأتساءل كيف استطاع أن يقنعهم بأن يسقوه ديناً . أرجوك يا عزيزى الأمير ألا تذكر لأحد اننى نقلت اليك هذه الرسالة . لقد حلفت ألف مرة ألا أعود الى فعل هذا أبداً ، ولكننى أشعر بشفقة عليه . ثم أرجوك أن لا تصانعه وتجامله ؟ اعطه بضعة نقود واكتف بهذا !

ـ كنت أنوى أنا نفسى يا كوليا أن ... اننى فى حاجة الى أن أرى أباك ... لسببٍ ما ... هيّا بنا !...

الفصـــل الثـاني عشر

قاد كوليا الأمير الى « مقهى ـ بليـاردو » قريب من المنزل ، قبل شـارع ليتاينـايا ، يقع فى قبو على الطريق . فالى اليمين ، فى حجرة صغيرة خاصة، كان آرداليون ألكسـندروفتش جالسـاً الى مائدة كما يجلس زبون قديم ، وقد وُضعت أمامه زجاجة ، وكان يقرأ جريدة « الاستقلال البلجيكى » فعلا . كان ينتظر الأمير . فما ان أبصره حتى ترك جريدته وشرع يفيض فى شرحٍ طويل حار لم يفهم الأمير منه شيئاً كثيراً على كل حال ، لأن الجنرال كان فى الواقع قد ثمل . وقاطعه الأمير يقول :

ـ ليس معى ورقـة عشرة روبلات ، ولكن اليـك ورقة خمسـة وعشرين روبلاً ، فبدّلها ورُدّ الىّ خمسة عشر روبلاً ، والا بقيت بغير كوبك واحد !

ـ آ ... طبعاً ... طبعاً .. تأكد أن هذا سيتم فوراً .. فوراً !..

ـ ثم ان هناك شيئاً أريد أن أسألك عنه يا جنرال : ألم تزر ناستاسيا فيليبوفنا فى يوم من الأيام ؟

صاح الجنرال يقول فى نوبة اختيال وغطرسة وسخريه :

ـ أنا ؟ لم أزرها فى يوم من الأيام ؟ أتسألنى أنا هذا السؤال ؟ مراراً

يا عزيزى مراراً !... لكننى انقطعت عن زيارتهـا آخـر الأمر حتى لا يكون فى ذهابى اليها تشجيع على مصاهرة غير لائقة . لقد رأيت بعينيك وكنتَ شاهداً على ما حدث منذ قليل : انى فعلت كل ما يستطيع أن يفعله أب ليِّن متسامح . لكن أباً من نوع آخر سـيدخل المشـهد بعد الآن ، ولسوف نرى عندئذ : هل المحارب القـديم المظفر هو الذى سينتصر على المؤامرة ويحبطها ، أم أن « غادة كاميليـا » وقحة هى التى ستسـتطيع أن تدخل أسرة نبيلة كريمة المحتد !

ـ انما أردت أن أسألك ألا تستطيع ، بصفتك من رواد منزلها ، أن تدخلنى هذا المساء الى بيت ناستاسيا فيليبوفنا ؟ ولا غنى لى عن أن يتم هذا فى المساء نفسـه . أنا فى حاجـة الى أن أراها ، لكننى لا أعرف كيف أدخل عليها . صحيح أننى قُدِّمت اليها منذ قليل ، ولكننى غير مدعو . هى تقيم فى هذه الليلة حفلة . على اننى مستعد أن أخالف بعض الأصول، ولو تعرضت لأن أكون أضحوكة ، فى سبيل أن أدخل اليها بطريقة أو بأخرى .

هتف الجنرال يقول بحماسة :

ـ ذلك يطابق فكرتى كل المطابقة يا صديقى الشاب .

ثم أردف يقول وهو يأخذ المال ويضعه فى جيبه :

ـ أنا لم أزعجك بالمجيء الى هنا من أجل هذا الأمر التافه (يقصد المال) ، وانما استدعيتك لاقترح عليك أن تصحبنى فى هجوم على ناستاسيا فيليبوفنا ! الجنرال ايفولجين والأمير ميشكين ! ما أقوى الوقع الذى سيحدثه هذا التحالف فى نفسها ! سـأتظاهر بأننى أزورها مهنئـاً بعيد ميلادها ، فأعرف عندئذ كيف أفرض ارادتى أخيراً ، لا بطريقة مباشرة ، بل بطريقة غير مباشرة ، ولكن الأمران واحد . وسيعرف جانيا عندئذ ما الذى يجب عليه أن يعمله : فاما أن يختار أباً أحـقّ بالاعتبار وأجدر بالاحترام واما ..

ان صح التعبير ••• الى آخره ••• وليكن ما يكون ! ان فكرتك خصبة جداً • سنتحرك فى الساعة التاسعة ، ما يزال فى الوقت متسع •

ـ أين تقيم ناستاسيا فيليبوفنا ؟

ـ فى مكان بعيد عن هنا ، قرب « المسرح الكبير » ، فى عمارة ميتوفتسوف ، المطلة على الميدان تقريباً ، بالطابق الأول ••• ولن يكون عندها ناس كثير ، رغم أن الليلة عيد ميلادها ، وسيتفرق الحفل فى ساعة مبكّرة •

تقدم المساء كثيراً ، وما يزال الأمير جالساً يصغى الى الجنرال وينتظره ، والجنرال ما ينفك يشرع فى سرد حكايات جديدة لا ينهى أية واحدة منها • كان ، حين وصل الأمير ، قد أمر بزجاجة جديدة لم ينته من شربها الا بعد ساعة • • ثم طلب زجاجة أخرى ، فكان مصيرها مصير سابقتها • ومن حقنا أن نفترض أن الجنرال قد اتسع وقته لأن يقص على الأمير سيرة حياته كلها تقريباً • ونهض الأمير أخيراً ، وأعلن أنه لا يستطيع أن ينتظر أكثر مما انتظر ••• فسكب الجنرال لنفسه آخر قطرات الزجاجة ، ونهض متجهاً نحو باب الخروج مترنح الخطو بعض الترنح • كان الأمير فى حالة كرب شديد ، وكمد قوى • لم يستطع أن أن يشرح لنفسه كيف أمكنه أن يعتمد على الجنرال وأن يركن اليه بمثل هذه الغباوة وهذه البلاهة • والحق أنه لم يكن قد اعتمد عليه أو ركن اليه قط ، وانما هو عوّل عليه ليستطيع الدخول الى بيت ناستاسيا فيليبوفنا ، ولو دفع ثمن ذلك فضيحة صغيرة • غير أنه لم يتصور أن تقع فضيحة ضخمة •

كان الجنرال قد أخذ منه السكر كل مأخذ ، فانطلق لسانه فصيحاً فصاحةً متدفقةً لا ينضب معينها ، فهو لا ينفك يتكلم بغير انقطاع أو مهادنة ، وهو لا ينى يتحدث بانفعال وقد « امتلأ قلبه دموعاً » • وكان مدار

حديثه على ما أصاب أسرته من انهيار ودمار نتيجةً لسوء سلوك أفرادها ، وعلى أنه قد آن الأوان لأن يضع لهذا التدهور حداً آخر الأمر .

ووصل الرجلان الى شارع ليتانيانا . ما يزال الثلج يذوب . وهذه ريح باردة رطبة عفنة تصفر فى خلال الشوارع. العربات تهدر فى الوحل، والخيول المترفة والأفراس الخسيسة تضرب الأرض بحوافرها المنعَّلة . والمشاة يطوِّفون على طول الأرصفة جمهوراً مبتلاً بالماء ، بينه سُكارى .

قال الجنرال :

ـ هل ترى الطوابق الأولى المضيئة من هذه العمارات ؟ انها جميعاً يسكنها رفاقى القدامى ، وأنا ... أنا الذى خدمت أكثر منهم وتألمت أكثر منهم ، أمشى على قدمىَّ فى اتجاه « المسرح الكبير » ، الى بيت امرأة سيئة السمعة مشبوهة الأخلاق ! رجل فى صدره ثلاث عشرة رصاصة ... ألا تصدقنى ؟ ومع ذلك فمن أجلى وحدى انما ارسل بيروجوف * برقية الى باريس ، وترك سياستوبول المحاصره الى حين ، ثم حصل نيلاتون ، كبير أطباء البلاط بباريس ، باسم العلم ، اذناً بالمرور الى سياستوبول المحاصرة ليفحصنى . وكانت القيادة العليا على علمٍ بما حدث . « آه ان ايفولجين هو الذى أصيب بثلاث عشرة رصاصة !.. » كذلك كانوا يتحدثون عنى . هل ترى ، يا أمير ، ذلك المنزل ، هناك ؟ فى ذلك الطابق الأول يسكن رفيقى القديم الجنرال سوكولوفتش مع ذريته النبيلة المحتد ، الغفيرة العدد . ان ذلك المنزل ، وثلاثة منازل أخرى فى شارع نفسكى ومنزلين آخرين بشارع مورسكايا ، هى الآن كل حلقة علاقاتى ، أقصد علاقاتى الشخصية . لقد أذعنت نينا ألكسندروفنا للظروف منذ مدة طويلة . أما أنا فما أزال أتذكر ... بل أتجرأ فأقول ما أزال أذوق بعض الراحة فى صحبة رفاقى القدامى ومرءوسىَّ الذين ما يزالون يعبدوننى عبادةً ان صح التعبير . ذلك الجنرال سوكولوفتش مثلاً ... على اننى منذ

مدة طويلة لم أزره ولا رأيت آنا فيدوروفنا ••• أنت تعلم يا أمير : حين يصبح المرء عاجزاً عن استقبال أحد فى بيته ، فانه يُضطر أخيراً الى الانقطاع عن زيارة الآخرين ••• ومع ذلك ••• همْ !••• يخيَّل اليَّ أنك لا تصدقنى ••• ولكن ، بالمناسبة ، لماذا لا أدخل على هذه الأسرة اللطيفة ابن خير اصدقاء طفولتى ؟ الجنرال ايفولجين والأمير ميشكين ! سوف ترى هنالك فتاةً رائعة ، ماذا ! بل فتاتين ، بل ثلاث فتيات ، هن زينة المجتمع وزينة عاصمتنا : جمال ، ثقافة ، فكر •• قضية المرأة ، قصائد ، ذلك كله ستراه هناك وقد انصهر فى تنوع موفق منسجم ! ناهيك عن أن كل واحدة منهن تملك مهراً مقداره ثمانون الف روبل عداً ونقداً ، على الأقل ، وهذا لا يفسد شيئاً بطبيعة الحال ، رغم جميع قضايا المرأة والقضايا الاجتماعية ••• الخلاصة : يجب عليَّ حتماً أن أدخلك الى هذه الأسرة ، يجب عليَّ ذلك حتماً ، هذا واجب يقع على عاتقى ! الجنرال ايفولجين والأمير ميشكين ! تصور وقع ذلك فى النفوس !

قال الأمير يسأله :

ـ الآن ؟ حالاً ؟ فهل نسيت اذن أن •••

ـ لم أنس شيئاً البتة ! ادخل من هنا ! اصعد هذا السلَّم الرائع ! يدهشنى أن السويسرى غائب • ولكن هذا اليوم عطلة ، والسويسرى يغيب فى يوم العطلة • لم يطردوا ذلك السكِّير حتى الآن • ان سوكولوفتش هذا مدين لى بكل سعادة حياته ، وبكل نجاحه وارتقائه فى عمله ، مدين بذلك لى وحدى دون غيرى • ولكن ••• ها نحن وصلنا •

كفَّ الأمير عن الاعتراض على هذه الزيارة، فكان يتبع صاحبه طائعاً حتى لا يثير حنقه ، وهو يأمل أن يتبدد الجنرال سوكولوفتش وأسرته كلها رويداً رويداً كما يتبدد سراب ، وأن يتضح أن هذا الجنرال لم يوجد

في يوم من الأيام ، فيعودا يهبطان السلم بهدوء وأمان وسلام • فما كان أشد ذعر الأمير حين أخذ يفقد ذلك الأمل : ذلك أن الجنرال كان يقوده على السلّم قيادة رجل واثق بأنه سيجد أصدقاءه ، وهو ما ينفك يذكر للأمير مزيداً من التفاصيل عن سيرة حياتهم وأوصاف أشخاصهم بوضوح شديد ودقة رياضية • حتى اذا بلغا « الطابق الأول » ، توقفا يمنةً ، أمام باب شقة غنية ، فأمسك الجنرال قبضة الجرس ، فهمّ الأمير أن يهرب ، ولكن ظرفاً خاصاً أوقفه عن الهرب لحظة • قال الأمير :

ـ لقد أخطأتَ يا جنرال ، فانني أرى على الباب صفيحةً كتب عليها اسم كولاكوف ، وأنت تريد أن تقرع جرس سوكولوفتش •

قال الجنرال :

ـ كولاكوف ••• كولاكوف لا يدل على شيء • البيت بيت سوكولوفتش ، وأنا أقرع جرس بيت سوكولوفتش • لا يهمني كولاكوف ولا أعبأ به ولا اكترث له ••• ثم ها هم يفتحون الباب •

فُتح الباب فعلاً ، وظهر خادم أعلن أن « سادته قد خرجوا » •

أخذ آرداليون ألكسندروفتش يكرر بصوت فيه حزن عميق :

ـ خسارة ، خسارة حقاً أن يخرجوا في هذا اليوم بعينه !

ثم قال يخاطب الخادم :

ـ قل لهم اذن يا صاحبي ان الجنرال ايفولجين والأمير ميشكين قد قد جاءا يؤكدان لهم احترامهما ، ويعبران لهم عن شديد أسفهما •••

وفي تلك اللحظة ، ظهر وراء الباب المفتوح شخص آخر لعله الناظرة أو المربية • انها سيدة في نحو الأربعين من العمر ، ترتدي ثوباً قاتم اللون ، اقتربت مستطلعةً محاذرة ، حين سمعت اسمي الجنرال ايفولجين والأمير ميشكين •

قالت وهى تتفرس فى الجنرال بانتباه :

ـ ان ماريا ألكسندروفنا ليست فى البيت • لقد ذهبت مع الآنسه ألكسندرا ميخائيلوفنا الى منزل جدتها •

ـ ألكسندرا ميخائيلوفنا أيضاً ؟ يا لسوء الحظ • أرجوك أن تتفضلى فتنقلى الى ألكسندرا ميخائيلوفنا تحيتى واحترامى ، آملاً أن تتذكرنى •• الخلاصة : أبلغيها أننى أرجو لها من كل قلبى أن تتحقق تمنياتها التى أعربت عنها مساء يوم الخميس أثناء سماعها موسيقا شوبان • سوف تتذكر ••• انقلى اليها أخلص مودتى وأصدق أمانىّ ! الجنرال ايفولجين والأمير ميشكين !

قالت السيدة وقد اطمأنت :

ـ لن أنسى أن أنقل اليها ذلك !

وبينما كانا يهبطان السلّم استمر الجنرال يعبّر بحماسة لم تفتر عن أسفه وحزنه لأنه لم يجد أحداً فى المنزل ، فحُرم الأمير بذلك من عقد صلة جميلة رائعة •

ـ هل تعلم يا عزيزى ؟ اننى لأكاد أكون شاعراً ؟ هل لاحظت ذلك؟

ثم ختم كلامه يقول فجأةً على نحو لا يمكن توقعه :

ـ ولكن ••• ولكن يخيّل الىّ أننا أخطأنا تماماً • لقد تذكرت الآن أن آل سوكولوفتش يسكنون فى عمارة أخرى ، وأعتقد أنهم الآن بموسكو • نعم ، لقد أخطأت بعض الخطأ ، ولكن ••• لا قيمة لهذا !

قال الأمير مبهوتاً :

ـ أودُّ أن أعرف شيئاً واحداً • هل يجب أن أعدل عدولاً تاما عن الاعتماد عليك ؟ أليس الأفضل أن أذهب اليها وحدى ؟

ـ تعدل ؟ تعتمد ؟ وحـدك ؟ ولكن لماذا ؟ لماذا والامر عنـدى امر رئيسى تتوقف عليه أشياء كثيرة ، ويرتبط به مصير أسرتى ؟ لا ياصديقى! انك لا تعـرف ايفـولجين حق معـرفته • من قال « ايفولجين » فقـد قال «صخرة» • « اعتمد على ايفولجين اعتمادك على صخرة » • ذلك ما كان يُقال عنى منذ أن كنت فى فصيلة الفرسان أولَ عهـدى بالجيش • وانما ينبغى لى ، قبل أن نذهب الى هناك ، أن أمر مروراً عابراً بمنزل ألفت منذ بضع سنين أن أريح فيه نفسى قليلاً بعد الشدائد والمحن •••

ـ أتريد أن تمر اذن بمنزلك ؟

ـ لا بل أريد أن أذهب الى الكابتينة تيرنتيف ، الى أرملة الكابتن تيرنتيف ، مرءوسى القديم ••• بل وصديقى ••• فعند الكابتينة انما تنبعث نفسى ، وهناك انما أرمى نوائبى وأحزانى العائلية •• واذ كنت أجد نفسى اليوم أرزح تحت وطأة عبءٍ روحى ثقيل ، فاننى •••

دمدم الأمير يقول :

ـ أظن اننى قد ارتكبت حماقة كبرى حين أزعجتك ••• ثم انك الآن ••• استودعك الله !

صاح الجنرال يقول :

ـ مستحيل ، لا يمكننى أن أدعك تمضى هكذا يا صديقى الشاب ! هى أرملة ، هى ربة أسرة تعرف كيف تجد فى نفسها أوتاراً تهز كيـانى كله ! لن تطول زيارتى لها أكثر من خمس دقائق • أنا أُستقبل فى هذا البيت بغير كلفة أو حرج ، حتى لكأننى فى بيتى • سأرتاح بعض الراحة، وسأرتب زينتى قليلاً ، ثم نمضى بعربة الى ميدان « المسرح الكبير » • ثق بأننى فى حاجة اليك طوال السهرة • انظر • هذا هو المنزل • لقد وصلنا• آه ••• كوليا ••• أوصلت منذ الآن ؟ هل مارتا بوريسوفنا هنا ، أم أنت وصلت فى هذه اللحظة ؟

أجاب كوليا وقد اصطدم بهما عند باب الفناء :

ـ أوه ! لا ! أنا هنا منـذ مدة طويلة ، عند هيبوليت • لقد ساءت صحته مزيداً من السـوء ، واضطر أن يرقد فى الفراش هذا الصـباح • كنت قد نزلت لأشترى أوراق لعب •

واذ لاحظ كوليا حالة أبيه ، صـاح يقـول وهو يتفحص وضـعه ومشيته :

ـ ولكن ما هذا يا بابا ! الله الله ! الخلاصة ••• هلمَّ نصمد !

ان لقاء كوليا هذا دفع الأمير الى أن يتبع الجنرال فى دخوله الى بيت مارتا بوريسوفنا ، على ألا يمكث هنالك الا دقيقة واحدة • لقد كان الأمير فى حاجة الى كوليا • أما عن الجنرال فقد قرر الأمير أن يتركه على كل حال ، وأصبح لا يغفر لنفسه أنه فكَّر فى الاعتماد عليه • وطال الصعود حتى الطابق الثالث على سلم الخدمة •

سأل كوليا أباه أثناء صعود السلَّم :

ـ هل تنوى أن تعرِّف بالأمير ؟

ـ نعم يا عزيزى ، سـوف أعرِّف به : الجنرال ايفـولجين والأمير ميشكين ••• ولكن ••• كيف ••• هى مارتا بوريسـوفنا ؟

ـ هل تعلم يا بابا ؟ الأفضل ألا تذهب اليها • لسوف تلتهمك التهاماً ! انقضت على غيـابك ثلاثة أيام ، وهى تنتظر أن تحمـل اليها مالاً • لماذا وعدتها بذلك ؟ هكذا أنت دائماً ، دبِّر أمرك الآن !

وقفوا فى الطابق الثالث أمام باب واطىء • كان الجنرال قد خارت عزيمته وبارحته شجاعته ، فهو يدفع الأمير الى أمام ، محتمياً به • دمدم يقول له :

ـ أنا سأبقى وراءك • أحب أن أُحدث لها مفاجأة !

دخل كوليا أول الداخلين . وظهرت على الباب سيدة مثقلة الوجه بالخضاب ، ترتدي نعلين باليين وقميصاً فضفاضاً ، قد ضفرت شعرها غدائر صغيرة ، وهي في نحو الأربعين من العمر ، فما ان ظهرت حتى انعدمت المفاجأة التي أرادها الجنرال انعداماً . فانها ما كادت تلمحه حتى طفقت تشتم وتلعن قائلة :

ـ هذا هو ! هذا هو الوغد النجس الوقح ! قلبي حدثني بأنه آتٍ ..

تمتم الجنرال قائلاً وهو يصطنع ابتسامة بريئة :

ـ فلندخل ، لا قيمة لهذا !

ولكن هذا لم يكن غير ذي قيمة . فما ان قطعوا حجرة المدخل المظلمة الواطيء سقفها ، فصاروا في غرفة ضيقة أثاثها نصف دستة من كراسي القش ، ومائدتان للعب ، حتى استأنفت ربة البيت بكاءها تقول بلهجة دامعة مدروسة يبدو أنها مألوفة لها معهودة فيها :

ـ ألا تخجل أيها الهمجي ، أيها الطاغية المستبد الذي يسوم أسرتي سوء العذاب ، ايها الشرير الزنديق الكافر ؟ لقد نهبتني ومصصت دمي ، أفلا يكفيك هذا ؟ الى متى أظل أتحملك ، يا رجلاً بلا حياء ولا شرف ؟

جمجم الجنرال يقول مرتعشاً محتاراً مفلول السلاح :

ـ مارتا بوريسوفنا ، مارتا بوريسوفنا ! هذا ... هذا هو الأمير ميشكين . الجنرال ايفولجين والأمير ميشكين !

قالت الكابتينة فجأة تخاطب الأمير :

ـ هل تصدقني اذا قلت لك ان هذا الرجل الوقح لم يرحم أولادي اليتامى ، لم يرأف بهم ، لم يشفق عليهم ؟ لقد سلب كل شيء ، أخذ كل شيء ، باعه أو رهنه ، ولم يترك لي شيئاً . ما عساي صانعة بايصالات الدين هذه كلها أيها المحتال الماكر الذي لا ضمير له ؟ أجبني أيها الوغد ، أجبني

أيها الجشع الذى لا يشبع : بم أطعم أولادى اليتامى ؟ هكذا يجيء دائماً : سكران حتى لكأنه ميت من فرط السكر ، عاجزاً عن الوقوف على ساقية ! ماذا فعلتُ أنا حتى استحققت غضب الله ، أيها اللص الدنيء السافل ! أجبنى !

ولكن الجنرال كان عاجزاً عن الصمود أمام العاصفة . قال :

ـ مارتا بوريسوفنا ، خذى ... هذه خمسة وعشرون روبلاً .. هى كل ما أستطيعه الآن بفضل صديقى النبيل جداً ! يا أمير ! لقد أخطأ ظنى خطأ قاسياً ! هذه هى الحياة ...

ثم ثأثأ يقول بمشقة ، واقفاً فى وسط الغرفة ، مترنحاً الى جميع الجهات :

ـ ولكن ... اعذرنى الآن ... اننى أشعر بضعف ... أرجو أن تعذرنى ! لينوتشكا ، عزيزتى ... الىَّ بوسادة !

أسرعت لينوتشكا * ، وهى صبية فى الثامنة من عمرها ، فجاءت بوسادة وضعتها على الديوان المهترىء القاسى المنجَّد بقماش مشمَّع . فجلس الجنرال، وكان واضحاً أنهناك أشياء كثيرة مايزال يريد أنيقولها. لكنه ما ان مس الديوان حتى مال الى جانب والتفت نحو الحائط ونام نوماً عميقاً . وبحركة فيها كثير من الاحتفال والتألم أشارت مارتا بوريسوفنا للأمير الى كرسى قرب مائدة اللعب ، فجلس الأمير عليه ، وجلست هى قبالته ، وأسندت خدها الأيمن الى يدها ، وأخذت تتنهد وهى تتأمل الأمير صامتة . واقترب من المائدة ثلاثة أولاد ، بنتان وصبى ، كبراهم لينوتشكا، فوضعوا أيديهم على المائدة جميعاً ، وأخذوا يلاحظون الأمير بانتباه هم أيضاً . وظهر كوليا ، خارجاً من الغرفة المجاورة .

قال له الأمير :

ـ يسعدني جداً أنني وجدتك هنا يا كوليا • فلعلك تستطيع أن تساعدني • انني في حاجة الى أن أذهب الى ناستاسيا فيليوفنا حتماً • وقد طلبت من آرداليون ألكسندروفتش منذ حين أن يقودني الى بيتها ، ولكن ها هو ذا قد نام • فهل لك أن تصحبني الى هناك ، لأنني لا أعرف الشوارع ولا الاتجاه ؟ لكنني أعرف العنوان : ميدان « المسرح الكبير » ، عمارة ميتوفزيفا •

ـ ناستاسيا فيليوفنا ؟ انها لم تقطن ميدان « المسرح الكبير » في يوم من الأيام • ثم ان أبي لم يضع قدمه في بيتها قط ، اذا أردت أن تعرف الحقيقة • غريب أنك ظننت أن في وسعك أن تعتمد عليه • انها تسكن غير بعيد عن فلاديميرسكايا ، بشارع « الأركان الخمسة » • ان بيتها أقرب كثيراً من ميدان « المسرح الكبير » • الساعة الآن هي التاسعة والنصف • وانه ليسرني أن أقودك الى مسكنها •

وسرعان ما خرج كوليا والأمير • واضطرا أن يمضيا سيراً على الأقدام ، لأن الأمير لم يكن قد بقي معه ما يدفع منه كراء عربة ، مع الأسف !

ـ كنت أود لو أعرّفك بهيبوليت • انه الابن الأكبر لهذه الكابتينة ذات القميص الفضفاض • لقد كان في الغرفة المجاورة • انه مريض ، وقد ظل راقداً طوال هذا اليوم • لكنه فتى غريب الأطوار • هو سريع التأذي• وقد خيّل الىّ أنه قد يخجل اذا أنت جئت في مثل هذا الوقت ••• أنا أقل شعوراً بالحرج منه• لأن الرجل أبي، على حين أن المرأة أمه ، ولا عار يلحق بالذكر كالعار الذي يلحق بالأنثى • قد يكون هذا خطأً من الأخطاء التي يرتكبها المجتمع في أحكامه ، اذ يجعل لأحد الجنسين غلبةً على الجنس الآخر • ان هيبوليت فتى رائع ، لكنه مستعبد لبعض الآراء الاجتماعية السائدة •

ـ قلتَ انه مريض بالسل ؟

ـ نعم ، وأعتقد أن من الخير له أن يموت بسرعة • لو كنت في مكانه لتمنيت أن أموت حتماً • انه يرثى لحال أخيه وأختيه • لو كان في وسعنا أن نستأجر شقة مستقلة ، لو كنا نملك مالاً ندفعه أجراً لشقة مستقلة ، لتركنا أسرتينا وعشنا معاً • هذا حلم لنا • هل تعلم انه غضب غضباً شديداً حين قصصتُ عليه حالتك ؟ هو يزعم أن من الجبن والحقارة أن يتلقى المرء صفعةً ثم لا يدعو خصمه الى مبارزة • يجب أن نذكر أنه في درجة من الحنق كان لا بد لي معها من الانقطاع عن التحدث اليه • اذن دعتك ناستاسيا فيليبوفنا الى بيتها أنت أيضاً على الفور ؟

قال الأمير :

ـ لا ، لم تدعني •

فصاح كوليا قائلاً وهو يقف في وسط الرصيف :

ـ فكيف تستطيع اذن أن تذهب اليها ؟ لا سيما و ••• أنت ••• ترتدي مثل هذا اللباس ، بينما هي تقيم حفلة فخمة ذات أبهة ؟

ـ حقاً لا أدري كيف سأستطيع أن أدخل • ان استُقبلت كان بها ، والا فلا • أما عن ملابسي ، فليس في يدي حيلة •

ـ ولكن هناك سبب يدعوك الى الذهاب ؟ أم تراك لا تبغي الا أن « تقضي بعض الوقت » * في صحبة مجتمع محترم ؟

ـ لا ••• الواقع أن ••• أعني ••• هناك سبب يدعوني الى الذهاب اليها حقاً • يصعب عليَّ أن أوضح ما بنفسي ، ولكن •••

ـ أما ما هو ذلك السبب ، فهذا أمر يخصك أنت ولا شأن لي به • غير أن الشيء الذي يهمني هو ألا تدعو نفسك ، بغير سبب ، الى سهرة تضم هذه النخبة الفاتنة من « غادات كاميليا » ، وجنرالات ، ومرابين •

فلولا أن هناك سبباً يدعوك الى الذهاب ، اذن لسخرت منك واحتقرتك يا أمير ! معذرة ! ليس ثمة الا قلة من أناس شرفاء ، ولا يكاد يوجد أحد يستحق الاحترام . ان المرء مضطر أن ينظر اليهم من فوق ، ومع ذلك تراهم جميعاً يطالبون بالاحترام . وفي طليعتهم فاريا . هل لاحظت يا أمير أن جميع الناس في عصرنا هذا مغامرون ؟ ولا سيما عندنا ، في روسيا ، في وطننا الحبيب ! أما كيف أمكن أن يحدث هذا كله ، فذلك ما لا أفهمه ! لقد كان كل شيء يبدو متين القواعد راسخ الأسس ، والآن ... ان جميع الناس يقولون هذا الكلام ويكتبونه في كل مكان ، ان جميع الناس يتهمون. والآباء يتراجعون أول المتراجعين ، ويحمرون خجلاً من عاداتهم القديمه وأخلاقهم الماضية . اليك هذا المثال : أبٌ بمدينة موسكو يوصي ابنه بأن « لا يصدَّه شيء » في سبيل الحصول على مال * . تحدثوا عن هذا في الجرائد . انظر أيضاً الى أبي الجنرال ! انظر الى أين وصل ! ولكن هل تعلم ؟ يخيَّل اليَّ أن الجنرال رجل شريف مع ذلك . أحلف لك ! الفوضى والشراب هما وحدهما أفسداه ! الأمر كذلك ، أؤكد لك ! خسارة ! انني أخاف أن أعلن هذا الرأي ، لأن الجميع يضحكون عليه ويسخرون منه . شيء مؤسف حقاً ! وبماذا يفضله أولئك الأذكياء ؟ هم جميعاً مرابون ، جميعاً بغير استثناء ! ان هيبوليت لا يؤاخذ المرابين ولا يستنكر عملهم . هو يزعم أن الربا ضرورة ، ويتكلم عن ايقاع اقتصادي ، وعن مد وجزر ، وما لا أدري أيضاً ! شيطان يأخذهم ! هذا يضايقني كثيراً من هيبوليت ، ولكن هيبوليت حانق ! تصور ان أمه الكابتينيه تأخذ مالاً من الجنرال ، ثم تقرضه من هذا المال نفسه بالربا لأسبوع ! يا للعار ! وهل تعلم أن أمي ، أمي أنا ، أقصد نينا ألكسندروفنا ، الجنرالة ، ترسل الى هيبوليت أمتعةً ومالاً ، بل وتساعد بواسطته اخوته الصغار لأن أمهم تهملهم ؟ وكذلك تفعل فاريا أيضاً .

ـ هأنت ذا ترى بعينيك اذن يا كوليا ! أنت تزعم أن لم يبق هناك أناس شرفاء أقـوياء ، وأن لم يبق هنـاك الا مرابون . فمـا قولك بأمك وما قولك بفاريا ؟ أليستا قويتين ؟ أليس دليلاً على قوة الخلق عند الانسان أن يساعد الناس فى مثل هذه الظروف ؟

ـ ان فاريا تفعل ما تفعله حبـاً للظهور وميـلاً الى التفاخر ، حتى لا تكون دون أمها . أما أمي ... فقولك عنها صحيح ... انني احترمها ؟ نعم انني احترمها وأبرر سلوكها . حتى ان هيبوليت نفسه يشعر شعوري، رغم أن عواطفه قد قست قسوة تامة . كان فى أول الأمر يسخر من أمي ويعد ذلك منها صغاراً وحطة ، أما الآن فقد أخذ يتأثر بعض التأثر أحياناً.

ـ هِمْ ... أنت تعد ذلك اذن قوة . سأسجل هذا . ان جانيا يجهله . ولو سُئل لوصفه بأنه تشجيع على الرذيلة .

أفلت من الأمير قولُه رغم ارادته ، بينما كان غارقاً فى أفكاره :

ـ ها ... جانيا يجهله ؟ يخيَّل الىَّ أن جانيا يجهل أشياء كثيرة أخرى !

قال كوليا :

ـ هل تعرف أنك تعجبنى كثيراً يا أمير ؟ ان الحادث الذى وقع منذ ذلك الحين لا يبارح ذهنى .

ـ أنت أيضاً تعجبنى كثيراً يا كوليا .

ـ اسمع : على أى نحو تقدِّر أن تعيش هنا ؟ أنا سوف أجد لنفسى عملاً بعد حين ، فاكسب بعض المال ، فاذا عشنا معاً ، أنت وهيبوليت وأنا ، كان في وسعنا أن نكترى شقة وأن نستقبل الجنرال فى بيتنا ، فما رأيك ؟

ـ أقبل ذلك بسرور عظيم . على كل حال سوف نرى فىالمستقبل. أما الآن فأنا مضطرب ... مضطرب جداً . ماذا ؟ وصلنا ؟ فى هذا المنزل ؟

... ما أفخمه مدخلاً ! حتى أن هناك سويسرياً . طيب !... لا أدرى يا كوليا كيف يمكن أن تجرى الأمور .

كان الأمير مضطرباً حائراً ، حقاً !

قال كوليا يشجعه :

ـ سوف تقص علىّ كل شيء غداً ! لا تدع للوجل سبيلاً الى نفسك. اسأل الله أن يمدك بعونه ، لأننى أشاركك جميع آرائك . استودعك الله. أنا عائد الى هناك ، وسأروى هذا كله لهيبوليت . أما أنهم سيستقبلونك ، فكن من ذلك على يقين ، لا تخش شيئاً ! انها امرأة غريبة الطبع متفردة ! اصعد هذا السلم . البيت فى الطابق الأول . سيدلك عليه السويسرى .

الفصل الثالث عشر

كان الأمير أثناء صعوده السلم يشعر بقلق شديد ، ويحاول أن يستجمع شجاعته بكل ما يملك من قوة . وكان يحدث نفسه قائلاً : « اسوأ الاحتمالات ألا أُستقبل ، وأن يأخذوا عني فكرة سيئة ، أو أن يستقبلوني ليستهزئوا بي ويتهكموا عليّ ... ... طيب ... لا بأس ! » . والواقع أن ذلك ليس ما كان يخشاه أكثر من أي شيء آخر . غير أنه لم يكن يجد جواباً مطمئناً عن هذا السؤال : « ماذا جاء يعمل هنا ، ولماذا جاء ؟ » . ذلك أنه حتى لو أتيح له أن يقول لناستاسيا فيليبوفنا : « لا تتزوجي هذا الرجل ، لا تضيّعي نفسك ، فهو لا يحبك ، وانما يحب مالك وحده ، وانه قال لي ذلك هو نفسه ، وان آجلايا ايبانتشين قالته لي كذلك ، وانني جئت لأنقل اليك هذه الحقيقة » ، فان من المشكوك فيه أن يكون هذا صحيحاً صادقاً من جميع الوجوه . وكان الأمير يلقي على نفسه سؤالاً آخر لا سبيل الى حله ، سؤالاً يبلغ من الخطورة أنه كان لا يجرؤ حتى على أن يفكر فيه ، ولا يستطيع أن يسلّم به ، ولا يعرف كيف يصوغه . ولكن أيةً كانت شكوكه وأنواع قلقه ، فقد دخل أخيراً ، وطلب ناستاسيا فيليبوفنا .

ان ناستاسيا فيليبوفنا تشغل شقةً ان لم تكن واسعة جداً فهي مجهزة أحسن تجهيز . انها أثناء اقامتها ببطرسبرج مدة هذه السنين الخمس ، قد أغدق عليها آتاناژي ايفانوفتش اغداقاً كبيراً خلال فترة معينة في أول

الأمر . كان لا يزال يأمل أن يحافظ على حبها ، وكان لا يزال يعوّل على أن يفتنها بالرخاء والترف ، لعلمه بأن الانسان يألف الرخاء والترف بسهولة كبيرة ، فيصعب عليه بعد ذلك أن يستغنى عنهما متى أصبحا ضرورة من الضرورات شيئاً بعد شيء . ولقد كان توتسكى وفياً للعادات القديمة لا يغير منها شيئاً ، وظل يؤمن بأن للحواس سلطاناً لا يُقهر ، فهو لذلك يحترم هذا السلطان احتراماً لا حدود له . وكانت ناستاسيا فيليبوفنا لا تكره الترف بل وتحبه ، لكنها ــ وهذا هو الشيء الغريب ــ لم تستعبد له ، حتى لكأنها قادرة على أن تستغنى عنه فى كل لحظة ؛ بل انها حاولت عدة مرات أن تعلن ذلك ، فدُهش توتسكى وانزعج . على أن هناك أشياء كثيرة فى ناستاسيا فيليبوفنا كانت تدهشه وتسوؤه (حتى لقد بلغ بعد ذلك حدَّ احتقارها) . فالى جانب عامية الناس الذين كانت تحيط نفسها بهم أحياناً ، وهذا يكشف عن ميل طبيعى فيها ، أخذت تظهر لديها ميول أخرى غريبة كل الغرابة ، هى خليط وحشى عجيب من أذواق شتى تجعلها قادرة على أن تحب وتستعمل أشياء أو وسائل لا يمكن أن يقبل استعمالَها انسانٌ أوتى حظاً من رقى النفس وعلو الثقافة . لعل آتانازى ايفانوفتش كان يمكن أن يفتنه مثلاً أن يراها تتظاهر أحياناً بأنها تجهل جهلاً ساذجاً بريئاً أن الفلاحات الروسيات لا يلبسن ملابس داخلية من قماش الباتيستا مثلما تلبس هى ؛ فلو فعلت لكان ذلك منها شيئاً جميلاً أخاذاً . ان جميع الجهود التى بذلها آتانازى ايفانوفتش فى المرحلة الأولى من تربيتها وتعليمها انما كانت تهدف الى بلوغ مثل هذه النتيجة ، وفقاً للبرنامج الذى وضعه على أساس خبرته الواسعة العميقة . لكن ثمرات جهوده خيبت آماله وا أسفاه ! ومع ذلك فقد بقى فى ناستاسيا فيليبوفنا شيء يفرض نفسه على آتانازى ايفانوفتش ، هو تفرد نادر يفتنه ويغريه ويغويه،

وظل متسلطاً عليه مستبداً به ، حتى بعد أن تداعت جميع الآمال التى عقدها على هذه المرأة الشابة •

استقبلت الأمير خادمةٌ (كانت ناستاسيا فيليبوفنا لا تستخدم الا نساء) فأصغت الى كلامه وهو يطلب منها أن تبلغ عنه ناستاسيا فيليبوفنا ، أصغت الى كلامه دون أن تظهر عليها أية حيرة ، فدُهش الأمير من ذلك دهشةً كبيرة • فلا حذاءاه المتسخان ، ولا قبعته العريضة حوافها ، ولا معطفه الذى ليس له أكمام ، ولا هيئته المضطربة ، لا شىء من ذلك كله أحدث فى نفسها أى تردد • وقد ساعدته فى خلع معطفه ، ورجته أن ينتظر فى حجرة المدخل ، وأسرعت تبلغ عنه فوراً •

كان المدعوون عند ناستاسيا فيليبوفنا هم أصحابها المألوفين • حتى لقد كان عدد الناس فى عيد ميلادها هذا أقل مما كان فى أعياد ميلادها السابقة • فمنهم أولاً وقبل كل شىء آتانازى ايفانوفتش توتسكى ، وايفان فيدوروفتش ايبانتشين ، وكانا يُظهران كلاهما كثيراً من التودد والبشاشة ، ولكن كان يبدو عليهما مع ذلك نوع من قلق ثقيل سببُه توقهما الواضح المحرق الى أن يعرفا أخيراً ما وعدت به ناستاسيا فيليبوفنا من اعلان اجابتها فى موضوع جانيا • وكان هناك جانيا بطبيعة الحال • كان يبدو هو أيضاً قاتم المزاج كثير التفكير ، حتى انه من فرط ذلك يوشك أن يكون «قليل الأدب» ، فهو فى أكثر الأحيان معتزل منزوٍ صامت• وهو لم يجرؤ أن يصطحب فاريا ، ولكن ناستاسيا فيليبوفنا لم تلمع الى ذلك ولم تشر اليه ، بينما هى ، فى مقابل ذلك ، ما ان سلَّمت عليه حتى ذكَّرته بالحادثة التى وقعت له مع الأمير • ولم يكن الجنرال ايبانتشين قد علم بالأمر بعد ، لذلك أظهر اهتماماً وأصغى منتبهاً • فطفق جانيا عندئذ يقص ، بلهجة جافة وأسلوب متحفظ ولكن بصراحة مطلقة ، ما قد جرى بعد الظهر ، واضاف الى ذلك أنه قد مضى الى الأمير يستغفره•

وذكر فى هذه المناسبة ، بحرارة وحماسة ، الرأى الذى ذهب الى أن الامير أبله ، فاستغرب ذلك الرأى استغراباً شديداً ، وقال انه يؤمن بنقيض هذا الرأى تماماً ، ويعتقد اعتقاداً جازماً بأن الأمير « رجل يعرف ماذا يريد » . وقد أصغت ناستاسيا الى هذا الرأى بكثير من الانتباه ، وكانت تلاحظ جانيا مستطلعة مستغربة .

لكن الحديث سرعان ما انحرف نحو روجويين الذى شارك فى الحادث مشاركة رئيسية هو أيضاً ، وأثار هو أيضاً اهتمام آتاناز ايفانوفتش وايفان فيدوروفتش اثارة كبيرة . وقد اتفق أن استطاع بتسين أن ينقل بعض المعلومات الخاصة عن روجويين الذى ظل حتى الساعة التاسعة من المساء تقريباً يسعى هنا وهناك لتنفيذ غرضه وتحقيق مأربه . لقد كان روجويين يصر اصراراً شديداً على أن تُجمع له المائة ألف روبل فى ذلك المساء نفسه .

قال بتسين أثناء حديثه :

ـ صحيح أنه سكران ، ولكن يبدو أن المائة ألف روبل ستُجمع له أخيراً ، مهما تكن المصاعب . كل ما هنالك اننى لا أدرى هل يتم ذلك فى هذا اليوم نفسه ، ولا أدرى هل يكون المبلغ كاملاً . غير أن الذين يعملون فى الأمر كثيرون ، فهناك كنيدر ، وهناك تريبالوف ، وهناك بيسكوب .

وختم بتسين كلامه قائلاً :

ـ ان روجويين مستعد لدفع أية فائدة عن هذه القروض ، وذلك لأنه فى سكرين ، سكر الخمرة وسكر فرحته الأولى .

هذه الأنباء كلها قد استقبلها الحضور باهتمام مكفهر بعض الشىء . وكانت ناستاسيا فيليبوفنا صامتة ، وكان واضحاً أنها لا تريد أن تفصح عن رأيها ؛ وكذلك جانيا من جهة أخرى .

لعل الجنرال ايبانتشين كان في قرارة نفسه أشد قلقاً من أي شخص آخر : ان اللآليء التي قدَّمها في النهار قد استُقبلت بأدب فاتر وكياسة جامدة حتى لكأن شيئاً من سخرية كان يخالط ذلك الأدب وتلك الكياسة. وبين جميع المدعوين كان فردشتينكو مشرق المزاج مرحاً ، فكان يضحك ضحكاً مجلجلاً ، كما يحسن ذلك في يوم عيد ، وكان ضحكه في بعض الأحيان بغير مناسبة تدعو الى الضحك ، لا لشيء الا لأنه قد فرض على نفسه هذا الدور ، دور المهرِّج . أما آتانازي ايفانوفتش الذي اشتُهر هو نفسه بأنه محدث بارع لبق ، والذي كان في السهرات الماضية هو الذي يمسك زمام الحديث ويوجه دفته ، فانه في حالة اضطراب ليست معهودة فيه .

وأما المدعوون الآخرون ، وعددهم قليل على كل حال ، فهم : معلم مدرسةٍ عجوز يرثى المرء لحاله ، ولا يدرى الا الله لماذا دُعي الى هذه الحفلة ؛ وشاب في ريعان الصبا لا يعرفه أحد من الحضور ، خجول خجلاً رهيباً ، صموت صمتاً عنيداً ؛ وسيدة جريئة في نحو الأربعين من عمرها كانت في الماضي ممثلة ؛ وسيدة شابة جميلة جمالاً رائعاً ، ترتدي ثياباً أنيقة أشد الأناقة غنية كل الغنى ، لكنها قليلة الكلام جداً .

كان هؤلاء جميعاً لا عاجزين عن تنشيط الحفلة فحسب ، بل كانوا عاجزين حتى عن العثور على موضوعٍ لحديث .

لذلك كان ظهور الأمير في هذه الظروف أمراً مناسباً جاء في محله وفي أوانه . ولئن أحدث الابلاغ عن وصوله شيئاً من الحيرة والبلبلة ، ورسم على الشفاه ابتسامات دهشة ، لا سيما وأن الحضور قد أدركوا من امارات الاستغراب التي لاحت في وجه ناستاسيا فيليبوفنا أنها لم تكن قد خطر ببالها أن تدعوه قط ، فان ناستاسيا فيليبوفنا ما لبثت بعد بادرة الاستغراب الأولى هذه أن أظهرت على حين فجأة رضى وارتياحاً بلغا من

القوة أن أكثر المدعوين أسرعوا يتهيأون لاستقبال الزائر الذى قادته المصادفة استقبالاً فرحاً مرحاً •

قال ايفان فيدوروفتش يختم كلامه :

ـ رغم أن براءته الساذجة هي التي تتحمل تبعة ذلك ، ورغم أن تشجيع ميول من هذا النوع أمر خطر على كل حال ، فليس سيئاً أن خطرت بباله فكرة المجيء الآن ، وان يكن ذلك شذوذاً ؛ حتى لقد يحمل الينا شيئاً من مرح ، اذا صدق ما أعرفه عنه •

وأسرع فردشتينكو يقول :

ـ ولا سيما أنه دعا نفسه بنفسه !

قال الجنرال يسأل بخشونة ، لأنه يكره فردشتينكو :

ـ أى ضير فى هذا ؟

ـ عليه أن يدفع رسم الدخول !

ـ ما أمير اسمه ميشكين كرجل اسمه فردشتينكو !

بهذا أجاب الجنرال مندفعاً ، ولم يكن قد استطاع أن يعتاد أن تضمه هو وفردشتينكو سهرة واحدة يكونان فيها ندّين •

أجاب فردشتينكو وهو يضحك ضحكة ساخرة :

ـ على مهلك يا جنرال ! عليك أن تراعى فردشتينكو وأن تداريه • ان لى هنا حقوقاً خاصة •

ـ ما هى هذه الحقوق الخاصة ؟

اتيح لى فى المرة الماضية شرف شرحها للحفل • ومع ذلك يسرنى أن أكرر لسعادتك ما سبق أن شرحته • ان جميع الناس هنا يا صاحب

السعادة ، كما تستطيع أن تلاحظ ذلك ، يملكون فكراً ، أما أنا فمحروم من الفكر . ومن باب التعويض عن ذلك حصلت على اذن بأن أقول الحقيقة ، لأن كل انسان يعلم أن الحقيقة لا تنتمي الا الى المحرومين من الفكر . أضف الى ذلك انني أحب الانتقام ، ومرد هذا أيضا الى انني محروم من الفكر . فأنا أحتمل الاساءات والاهانات مذعناً ، ما ظل الرجل الذي أساء الىّ وأهانني محتفظاً بما له من حظوة ، حتى اذا بدت أولى علائم فقده الحظوة ، تذكرت الاساءة أو الاهانة التي ألحقها بي ، فثأرت لنفسي ، فرفست ولبطت ، على حد التعبير الذي استعمله في وصفي ايفان بتروفتش بتتسين ذات يوم ، وهو رجل لا يرفس أحداً ولا يلبط أحداً قط . هل تعرف حكاية كيرلوف * « الأسد والحمار » ياصاحب السعادة ؟ هما نحن ، أنت وأنا ، يا صاحب السعادة ! لقد كتبت الحكاية عنا نحن .

قال الجنرال غاضباً :

ـ أراك تفرط مرة أخرى !

وكان فردشتينكو لا ينتظر الا هذا ليستمر في كلامه ، وليمضي الى أبعد من ذلك ، فاستأنف كلامه يقول :

ـ ما بك يا صاحب الساعدة ؟ لا تقلق ! أنا أعرف مكاني يا صاحب السعادة . فاذا قلت اننا ، أنت وأنا ، الأسد والحمار اللذان تحدثت عنهما الحكاية ، فمن المفهوم انني أحتفظ لنفسي بدور الحمار ، بينما أنت الأسد يا صاحب السعادة ، كما ورد في حكاية كيرلوف * :

أسد قوي يرهب الغابات
فقد القوى اذ دب فيه الهرم

فأنا الحمار يا صاحب السعادة .

أفلت من لسان الجنرال قوله بغير تروٍ ولا تبصر :

ـ فى هذه النقطة ، أوافقك على رأيك !

ذلك كلـه كان فظاظة وغلظـة طبعـاً ؛ وكان واضحـاً أنه مبيَّت ومقصـود . غير أن فردشـتينكو كان قد ملك الى الأبد حقَّ أن يكون مهرِّجاً . حتى لقد صاح يقول فى ذات يوم : « ثم اننى انما أُستقبل هنا لهذا الغرض ، وانما يُحتفظ بى هنا لهـذا الغـرض ، أعنى من أجل أن أتكلم بهذه الطريقة . والا فهل يمكن أن يُستقبل رجل مثلى ؟ أنا أفهم ذلك وأدركه ... هيَّا ! ... هل من المقبول أو من المعقول أن أوضع ، أنا فردشتينكو ، جنباً الى جنب مع سيد نبيل مرهف الفكر والشعور مثل آتانازى ايفانوفتش ؟ لا بد لى اذن أن أخلص من ذلك الى هذه النتيجة ، وهى أننى لا يتيسر لى هذا الا لأنه غير مقبول وغير معقول ! » .

ولكن فردشتينكو كان رغم عاميته وابتذاله يفلح أحياناً فى أن يكون لاذعاً جداً ؛ فكان ينبغى للذين يريدون أن يُستقبلوا فى دار ناستاسيا أن يتحملوا فردشتينكو . ولعل فردشتينكو قد أدرك منذ البداية أن ناستاسيا فيليبوفنا اخذت تستقبله لأنه استطاع أن يزعج توتسكى منذ أول يوم . كما أن جانيـا قد تحمـَّل منـه عذاباً لا نهـاية له . فبهذا المعنى عـرف فردشتينكو أن يكون ذا نفع كبير وفائدة عظيمة لناستاسيا فيليبوفنا .

قال فردشتينكو وهو يراقب بطرف عينه أثر كلامه فى ناسـتاسـيا فيليبوفنا :

ـ أما الأمير فسيأخذ يغنى لنا أغنية على الموضة .

فقالت ناستاسيا فيليبوفنا بخشونة :

ـ لا أظن ذلك يا فردشتينكو ، وأنا أنصحك بأن لا تندفع كثيراً .

ـ آ ... اذا كان ينعم بحماية خاصة ، فلم يبق عليّ الا أن أكون رقيقاً لطيفاً ، وأن ...

لكن ناستاسيا فيليبوفنا كانت قد نهضت دون أن تصغي الى كلامه ، ومضت تستقبل الأمير .

قالت وهي تظهر أمام الأمير فجأة :

ـ يؤسفني انني نسيت من تعجلي أن أدعوك منذ قليل . وانني ليسرني جداً أن تهيىء لي بنفسك فرصة شكرك وتهنئتك على ما تملك من روح التصميم .

كانت وهي تتكلم تنظر الى الأمير بانتباه ، محاولةً أن تفسّر لنفسها سبب مجيئه .

ولقد كان يمكن أن يردّ الأمير على كلماتها اللطيفة ، لكنه كان مبهوراً مبهوتاً فلم يستطع أن ينطق بكلمة واحدة .

وقد لاحظت ناستاسيا فيليبوفنا ذلك مسرورةً مبتهجة . لقد كانت في ذلك المساء في أبهى حلة وأجمل زينة ، وكان منظرها يحدث في النفس أثراً قوياً .

أمسكت الأمير من يده ، وقادته الى حيث كان المدعوون . وقد توقف الأمير على حين فجأة قبل دخول الصالون وأسرع يهمس في أذنها منفعلاً انفعالاً شديداً :

ـ كل شيء فيك رائع كامل .. حتى نحولك وشحوبك .. لا يمكن أن يتمنى لك المرء غير هذا ... لقد بلغت من قوة الرغبة في المجيء اليك أنني ... معذرة ... سامحيني ...

قالت ناستاسيا فيليبوفنا ضاحكةً :

ـ لا تعتذر ، والا أفقدت بادرتك غرابتها وطرافتها . كانوا على

صواب حين قالوا ان فيك غرابة وتفرداً • اذن أنت تعدنى رائعة كاملة ؟

ـ نعم •

ـ هنا أنت تخطىء ، رغم أنك تعدُّ أستاذاً فى فن الحزر والتنبؤ • سأذكرك بذلك فى هذا المساء نفسه •••

وقد مت الأمير الى ضيوفها الذين كان أكثر من نصفهم قد عرفه من قبل • وسرعان ما وجد توتسكى شيئاً لطيفاً يقوله • وبدا على الحفل شىء من الانتعاش ، وأخذوا جميعاً يتكلمون ويضحكون • وأجلست ناستاسيا فيليبوفنا الأمير الى جانبها •

صرخ فردشتينكو يقول وقد طغا صوته على جميع الأصوات :

ـ أى غرابة حقاً فى مجىء الأمير ؟ ان المسألة واضحة جلية •

فقال جانيا فجأة بعد أن ظل أخرس حتى ذلك الحين :

ـ بل المسألة واضحة كل الوضوح ، جلية كل الجلاء ! لقد ظللت أراقب الأمير هذا اليوم بلا انقطاع تقريبـاً ، منـذ اللحظة التى رأى فيها صورة ناستاسـيا فيليبـوفنا على مكتب ايفان فيدوروفتش • وانى لأتذكر تذكراً واضحاً أن فكرة قد قامت فى ذهنى حينذاك ، وترسخت الآن فى نفسى قوية ، حتى أن الأمير نفسه قد أسرَّ الىَّ باعترافات عنها ، أقول هذا عابراً •••

نطق جانيا تلك العبارة كلها بجد كبير لا يخالطه أى مزاح ، حتى أن وجهه كان مكفهراً ، فأثار ذلك شيئاً من الدهشة •

أجاب الأمير يقول وقد احمر وجهه :

ـ أنا ما أسررت اليـك بأى اعتراف ، ولم أزد على أن أجبتُ عن سؤال ألقيته أنت علىَّ •

أعول فردشتينكو يقول :

ـ مرحى ! مرحى ! هذا كلام فيه صدق على الأقل ، فيه صدق وحذق •

وضحك الجميع مقهقهين • فقال بتسين بصوت خافت فيه اشمئزاز :

ـ لا تصرخ هذا الصراخ يا فردشتينكو !

وقال ايفان فيدوروفتش :

ـ لم أكن أتوقع منك ، يا أمير ، « لمحات » من هذا النوع ، لمحات لا يجيد مثلها الا ••• الا ••• لقد كنت أتصورك فيلسوفاً لا أكثر ! ألا ان على المرء أن يخشى الماء الساكن !

ـ حين رأيت كيف يحمر الأمير احمرارَ فتاة بريئة لمزاحة بريئة ، انتهيت الى أن هذا الشاب النبيل يضمر قلبه أشرف النيات ويضم أجمل المشاعر !

كذلك قال بل زأزأ يقول على دهشة من الحضور كافة، معلم المدرسة الأهتم الذى يبلغ من العمر نحو سبعين عاماً ، والذى لبث صامتاً خلال ذلك الوقت ، وكان لا يتوقع أحد منه أن ينطق بكلمة واحدة طوال السهرة• فانطلقت الضحكات مجلجلة مزيداً من الجلجلة • وظن العجوز المسكين ان الناس تضحك لنكتته الفكهة فأخذ يشاركهم الضحك وهو ينظر اليهم ، حتى ألمت به نوبة سعال شديد • وكانت ناستاسيا فيليبوفنا تحب هذا النوع من الرجال الشيوخ والنساء العجائز الذين يتصفون بشيء من الغرابه والتفرد والشذوذ ، بل كانت تحب حتى ضعاف العقول ، فأخذت تلاطفه وتدلله ، حتى لقد قبلته ، ثم أمرت بأن يُصبَّ له فنجان آخر من الشاى• وطلبت من الخادمة أن تجيئه بخمارها فدثرته به وأمرت باضافة حطب الى الموقد •

وحين سألت الخادمةَ عن الساعة ، أجابتها الخادمة بأن الساعة هى العاشرة والنصف • فقالت ناستاسيا فيليبوفنا تخاطب الحفل •

ـ ألا تشربون شمبانيا أيها السادة ؟ لقد حضّرت الشمبانيا ، فعسى أن تجعلكم الشمبانيا أكثر مرحاً ؟ فارفعوا التكليف ، أرجوكم ...

ان هذه الدعوة الى الشراب ، ولا سيما بعبارات تبلغ هذا المبلغ من السذاجة ، قد بدا صدورها عن ناستاسيا فيليبوفنا غريباً كل الغرابة . ان الجميع يعرفون التقيد بالقواعد الصارمة والآداب الدقيقة التى كانت تسود حفلاتها السابقة . لقد اخذت السهرة تنتعش ولكنها فاقت في انتعاشها المألوفَ في أمثالها . لم يرفض أحد الشمبانيا : قبلها الجنرال أولاً ، ثم السيدة المتبرجة ، فالشيخ المسكين ، ثم فردشتينكو ، ثم قبلها الجميع آخر الأمر . لقد قبل توتسكى ، هو أيضاً ، كأساً من الشمبانيا ، بغية أن يسغ شيئاً من روح الدعابة اللطيفة على المجرى الجديد الذى جرت فيه السهرة. لكن جانيا وحده لم يشرب شيئاً . أما ناستاسيا فيليبوفنا التى تناولت كأساً كذلك ، وأعلنت أنها ستشرب اثناء السهرة ثلاث كئوس على الأقل ، فقد كان من الصعب على المرء أن يفهم شيئاً من حركاتها المفاجئة العنيفة ، وضحكها العصبى الذى لا موضوع له ، والذى تتخلله فترات تفكير متجهم صامت . قدّر بعضهم أنها تعانى من حمى . وبدءوا يلاحظون أخيراً أنها تنتظر هى نفسها شيئاً ما ، فهى تلقى نظرات كثيرة متكررة على ساعة الجدار ، وهى قد أخذ يظهر عليها نفاد الصبر وشرود الفكر .

سألتها السيدة الجريئة قائلة :

ـ كأنك تعانين شيئاً من حمى !

فأجابتها ناستاسيا فيليبوفنا ، مصفرّة الوجه فعلاً ، جاهدةً أن تكبح ارتعادها :

ـ بل اننى اعانى حمى شديدة ، لذلك تدثرت بخمارى .

فقامت من حولها حركة اضطراب وقلق .

اقترح توتسكى قائلاً وهو ينظر الى ايفان فيدوروفتش :

ـ ماذا لو تركنا مضيفتنا ترتاح ؟

فهتفت ناستاسيا فيليبوفنا تقول بالحاح ذى دلالة :

ـ لا ، أبداً أيها السادة ! أنا أصر على أن تبقوا • اننى لا أستطيع الاستغناء عن وجودكم هذا المساء •

واذ كان جميع الضيوف تقريباً يعلمون سلفاً أن قراراً يبلغ مبلغاً كبيراً من خطورة الشأن سيُتَّخذ فى أثناء هذه السهرة ، فقد بدت لهم هذه الكلمات مثقلة بالمعانى • وتبادل الجنرال وتوتسكى نظرة جديدة • وسرت فى جانيا رعشة •

قالت السيدة الجريئة :

ـ يستحسن أن ننظّم « لعبة صغيرة » •

فصاح فردشتينكو يقول متحمساً :

ـ أنا أعرف لعبة جديدة رائعة • هى على كل حال لعبة لم تُجرَّب الا مرة واحدة ، ثم لم تنجح !

سألته السيدة الجريئة :

ـ ما هى هذه اللعبة ؟

ـ اجتمعنا فى ذات يوم لفيفاً من الأصحاب • فلما شربنا قليلاً ـ والحق يقال ـ اقترح أحدهم أن يقصّ كل واحد منا ، دون أن ينهض عن المائدة ، قصة عن نفسه ، على شرط أن يكون فى قرارة ضميره مقتنعاً بأن القصة التى سيرويها هى أسوأ فعل ارتكبه فى حياته ، وعلى شرط أن يكون صادقاً كل الصدق ، خاصة أن يكون صادقاً كل الصدق فلا يكذب البتة !

قال الجنرال :

ـ فكرة عجيبة !

ـ ليس هناك فكرة أعجب منها يا صاحب السعادة ، ولكن هذا نفسه سرُّ حسنها .

قال توتسكى :

ـ شيء مضحك ! لكنه مفهوم ! نوع مقلوب من التباهى والمفاخرة !

ـ لعل هذا بعينه هو ما كانوا ينشدونه يا آتانازى ايفانوفتش .

قالت السيدة الجريئة :

ـ امثال هذه اللعب تبكى أكثر مما تضحك !

قال بتسين :

ـ لعبة سخيفة !

سألت ناستاسيا فيليبوفنا :

ـ وهل نجحت اللعبة ؟

ـ لم تنجح ! جرت الأمور مجرى سيئاً ! صحيح أن كل واحد روى حكاية ، وذكر أموراً صادقة كثيرة ، حتى أن بعضهم كان يجد فى رواية قصته لذة ـ تصوروا ! ـ ولكنهم جميعاً شعروا بالخزى والعار آخر الأمر ، ولم يقووا على متابعة اللعبة الى نهايتها ! يمكن أن نقول بوجه عام ان اللعبة كانت مسلّيه ، ولكن فى بابها طبعاً !

قالت ناستاسيا فيليبوفنا وقد تحمست فجأة :

ـ يحسن حقاً أن نجرب ! حقاً يجب علينا أن نجرِّب هذه اللعبة أيها السادة ! اننى ألاحظ أننا لم نستطع حتى الآن أن نخلق جواً مرحاً فى هذا المساء ، ليت كل واحد منا يقبل أن يقصَّ شيئاً ما ... من هذا النوع طبعاً ، اذا هو أراد ... فكل واحد حر ، هه ؟ ولعلنا نستطيع أن نمضى فى هذا الى آخر الشوط . على كل حال ، اللعبة طريفة جداً !..

قال فردشتينكو :

ـ فكرة عبقرية ! غير أن السيدات معفيات ... السادة وحدهم هم الذين سيقصون !... وسنحدد دور كل واحد بالقرعة ، كما فعلنا فى المرة السابقة ، هذا لا بد منه ! والذى لا يريد أن يروى حكاية ، له أن يمتنع طبعاً ... ولكن لا بد انكم توافقون على أن هذا لن يكون لطيفاً منه ! ليكتب كل واحد اسمه على ورقة أيها السادة ، ولنضع الأوراق كلها فى قبعة ، هنا ! وسيتولى الأمير سحب الورقة واحدة بعد واحدة بالقرعة . مهمتكم بسيطة جداً . على كل واحد منكم أن يقصَّ قصة أسوأ فعل ارتكبه فى حياته . وهذا سهل جداً أيها السادة ! سوف ترون ! حتى اذا لاحظت فى ذاكرة أحدكم توانياً ، توليت أنا تنشيطها !

كانت الفكرة مستهجنة فلم ترض أحداً . فبعضهم تقطبت حواجبهم واكفهرت وجوههم ، وبعضهم رسموا على شفاههم ابتسامات ساخرة . واحتج بعضٌ آخر ، ولكن دون الحاح شديد ، مثل ايفان فيدوروفتش الذى كان لا يريد أن يُسخط ناستاسيا فيليبوفنا والذى كان قد لاحظ مدى افتتانها بهذه الفكرة الغريبة ، ربما لما تتصف به هذه الفكرة من غرابة توشك أن تكون استحالة . ولقد كانت ناستاسيا فيليبوفنا امرأة لا يثنى عزمها ولا تتراجع عن رغباتها متى قررت أن تظهر هذه الرغبات، ولو كانت نزوات شاذة وبدوات لا تجديها نفعاً . وانها الآن لفى حالة تكاد تكون هسترية ، فهى تتحرك كثيراً وتضطرب اضطراباً شديداً وتضحك ضحكاً تشنجياً ، ولا سيما فى الرد على ما كان يبديه توتسكى من احتجاج قلق . كانت عيناها القاتمتان تسطعان ، وقد ظهرت على خديها الشاحبين بقعتان حمراوان . ولعل ما فى وجوه بعض المدعوين من تجهم

واشمئزاز كان يزيد ضرام رغبتها الساخرة في ازعاجهم ؟ ولعل ما كان يرضيها في تلك الفكرة التي اقترحها فردشـــتينكو انما هو استخفافهـا واستهتارها وقسوتها . حتى لقد أيقن بعضهم أن ناستاسيا فيليبوفنا تبيّـت نيةً ما . على أن الحضور قد قبلوا الاقتراح أخيراً ، فالفكرة طريفة شائقة على كل حال ، وهي بالنسبة الى بعضهم مغرية أشـــد الاغـراء ، وكان فردشتينكو أكثر الحضور نشاطاً وحركة .

قال المراهق الصموت سائلاً في خجل :

ـ فماذا لو كانت القصة يستحيل على المرء أن يرويها ... بحضور سيدات ؟

فأجابه فردشتينكو قائلاً :

ـ ما عليك في هذه الحـالة الا أن تمتنع عن روايتها . يا للشـباب الساذج ! لكأنه لا يوجد أفعال أخرى سيئة كثيرة !

قالت السيدة الجريئة صائحة :

ـ أما أنا فلا أدري ماذا أختار من بين أفعالي السيئة !

فعاد فردشتينكو يكرر :

ـ النساء معفيات من ضرورة رواية شيء . لكنهن معفيات فحسب. أما من شاءت منهن أن تذكر شيئاً من وحي ذاتها ومن تلقاء نفسها ، فلها أن تفعل ذلك مشكورة . والرجال أيضاً معفون اذا أزعجتهم هذه اللعبة كثيراً .

سأل جانيا :

ـ ولكن كيف أبرهن على أنني لا أكذب ؟ اذا كذبت فقدت اللعبة كل معناها . ومن ذا الذي يمكن ألا يكذب ؟ ان كل واحد سوف يكذب، هذا أكيد !

صاح فردشتينكو يقول فى نوبة من حماسة شديدة :

ـ يكفي أن نرى أحد الأشخاص يكذب حتى نشعر من هذا وحده بمتعة • أما أنت يا جانيتشكا فليس لك أن تخشى الكذب حقاً ، لأن الفعل الذي هو أسوأ ما ارتكبت في حياتك من أفعال سيئة يعرفه الجميع منذ الآن • تصوروا كذلك أيها السادة ، تصوروا بأى عين سينظر كل منا الى الآخر غداً بعد جميع القصص التى سنرويها !

سأل توتسكى بوقار ورصانة :

ـ أهذا ممكن ؟ أهذا جدٌ حقاً يا ناستاسيا فيليبوفنا ؟

قالت ناستاسيا فيليبوفنا ساخرة :

ـ من يخشى الذئب لا يذهب الى الغابة ! *

وعاد توتسكى يقول ملحاً ، بينما كان قلقه يزداد ويشتد شيئاً بعد شيء :

ـ لكن اسمح لى يا سيد فردشتينكو : كيف يمكن أن تجعل من هذه اللعبة لعبة مجتمع ؟ أؤكد لك أن الألعاب التى من هذا النوع لا تنجح أبداً • ولقد قلت أنت نفسك ان هذه اللعبة لم تنجح مرة •

ـ كيف لم تنجح ؟ ألم أقصص في المرة الأخيرة كيف اتفق لى أن سرقت ثلاثة روبلات ؟ ألم أقصص ذلك ؟

ـ صحيح • ولكن لم يكن في وسعك أن تقص القصة على نحو يظهرها صادقة ، فيصدقك المستمعون ، أليس كذلك ؟ لقد ذكر جبريل آرداليونتش منذ هنيهة ـ وهو فى ذلك على صواب ـ أنه يكفى أن يشم المستمع رائحة كذب فى القصة حتى تفقد اللعبة معناها • ان الحقيقة غير ممكنة هنا الا بالمصادفة ، أو بنوع فاسد من حب الظهور لا يمكن قبوله ولا يمكن تصوره فى هذا المكان •

صاح فردشتينكو قائلاً :

ـ يا لك من رجل مرهف الفكر لطيف الحس حقاً ! انك لتثير دهشتي يا آتانازي ايفانوفتش . انظروا ايها السادة : انه حين نبّه الى انني لم أستطع أن أتحدث عن سرقتي على النحو الذي يجعلها تشبه الحقيقة قد أفهمنا بألطف أسلوب وأنعم طريقة أنني في الواقع لم يكن في امكاني أن ارتكب جريمة السرقة (اذ ليس من اللائق أن يتحدث المرء عن مثل هذه الأمور) ، رغم أنه ربما كان في قرارة نفسه مقتنعاً كل الاقتناع بأن فردشتينكو يمكن أن يسرق ! ولكن هلموا يا سادتي هلموا : أصبحت الأسماء في القبعة ، ومنها اسمك أنت يا آتانازي ايفانوفتش ، فالجميع اذن موافقون . ابدأ يا أمير !

أغطس الأمير يده في القبعة دون أن يقول شيئاً ، وأخرج منها أول ورقة فكانت ورقة فردشتينكو ، ثم سحب الثانية فكانت ورقة بتسين، ثم سحب باقي الأوراق واحدة بعد واحدة ، فكانت الثالثة ورقة الجنرال ، وكانت الرابعة ورقة آتانازي ايفانوفتش ، وكانت الخامسة ورقته هو ، وكانت السادسة ورقة جانيا ، الخ . ولم تكن السيدات قد وضعت في القبعة أوراقاً .

هتف فردشتينكو يقول :

ـ يا لسوء حظي ! لقد كنت آمل أن يخرج اسم الأمير أول اسم ، وأن يخرج اسم الجنرال بعده ! من حسن الحظ على كل حال أن اسم ايفان بتروفتش يأتي بعد اسمي ، فهذه مكافأة لي أو تعويض عليّ . واضح اذن يا سادة أنني أنا الذي يجب ان أكون القدوة الحسنة في هذه اللعبة ، ولكن ما يؤسفني أكثر من أي شيء آخر في هذه اللحظة هو انني امرؤ تافه كثيراً وأنني لا أتميز بشيء ، فحتى رتبتي ليس لها أي شأن . ما قيمة أن يكون فردشتينكو قد ارتكب عملاً سيئاً في الواقع ؟ وماهو أسوأ أعمالي؟

حقاً انه ليصعب عليّ الاختيـار ! اللهم الا أن أقص حـكاية السرقة تلك نفسها ، فأبرهن لآتانازى ايفانوفتش أن من الممكن أن يسرق المرء دون أن يكون لصاً .

ـ لقد استطعت أن تقنعنى أيضاً يا سيد فردشتينكو أن من الممكن أن يجد المرء متعة ولذة فى أن يروى قصص أعمـال قذرة ، حتى دون أن يكون أحـد قد طلب منه ذلك . على كل حال ... معـذرةً يا سـيد فردشتينكو !

قالت ناستاسيا فيليبوفنا تحسم الموقف بلهجة فيها تململ وانزعاج :

ـ ابداً يا فردشتينكو ! لقد أسرفت فى التطريز والتوشية حتى لتكاد لا تفرغ من ذلك !

ولاحظ الجميع أنهـا بعد نوبة الضحك الأخيرة التى انتابتهـا ، قد ارتدت فجأة الى نوع من الحـذر المتجهم ، وانها أصبحت أسهل استثارة وأسرع اهتياجاً . ولكنها ما تزال تصرُّ على تنفيذ نزوتها بالحـاح عنيـد مستبد . كان آتانازى ايفانوفتش فى مثل الجحيم عـذاباً . وقد أحنقـه كذلك موقف ايفان فيدوروفتش الذى كان يحتسى كأس الشمبانيا هادئاً ، ولعله كان عازماً على أن يقصّ قصةً متى جاء دوره .

الفصل الرابع عشر

هتف فردشتينكو يقول :

ـ أنا انما أثرثر كثيراً لأننى يعوزنى الفكر . ولكنى سأبدأ . لو كان لى فكر كفكر آتاناژى ايفانوفتش أو ايفان فيدوروفتش ، للبثت أنا أيضاً صامتاً ساكناً طوال السهرة كلها . يا أمير ، اسمح لى أن أسالك هل توافقنى على هذا الرأى : يخيَّل الىَّ أن عدد اللصوص فى العالم أكبر من عدد غير اللصوص ، حتى لقد يمكن القول انه ما من انسان لم يسرق طوال حياته شيئاً ما . هذا انطباع شخصى ، لا أستنتج منه مع ذلك أن ليس فى العالم الا لصوص ، رغم أن القول بهذا الرأى كثيراً ما أغرانى ، أعترف لك بذلك . فما رأيك أنت ؟

قالت داريا ألكسيفنا (السيدة النشيطة الجريئة) :

ـ ما أسخف هذا الكلام ! ما أغبى هذا الهذر ! ليس ممكناً أن يكون جميع الناس قد سرقوا شيئاً ما . أنا لم أسرق شيئاً فى يوم من الأيام .

ـ أنت لم تسرقى فى يوم من الأيام يا داريا ألكسيفنا ، ولكن ماقول الأمير الذى أرى أنه احمر وجهه ؟

قال الأمير وكان قد احمر وجهه فعلاً :

ـ يخيَّل الىَّ أنك على حق فيما تقول ، ولكنك تبالغ كثيراً .

ـ ولكن ألم تسرق أنت نفسك شيئاً ما فى يوم من الأيام يا أمير ؟

تدخل الجنرال يقول :

ـ كلام مضحك سخيف ! هلاّ فكرت فيما تقول يا سيد فردشتينكو؟

وقالت داريا ألكسيفنا حاسمة :

ـ أمرك بسيط : انك حين أُحرجت خجلت أن تروى شيئاً ، لذلك تحاول أن تجر الأمير معك ، لأنه لا يملك عن نفسه دفاعاً .

قالت ناستاسيا فيليبوفنا بشدة وقسوة :

ـ فردشتينكو ! لك أن تقصّ أو أن تسكت . ولكن لا تهتمّ الا بنفسك ؟ لقد أخذتَ تفقدنى صبرى !

ـ حالاً يا ناستاسيا فيليبوفنا . ولكن ما دام الأمير قد اعترف (وانى لألح على هذه النقطة ، لأن ما قاله انما هو اعتراف حقاً) ، فأنا أتساءل عما عسى أن يقصه علينا شخص آخر (لا أسمّيه) اذا هو أراد أن يقول الحقيقة يوماً . أما أنا أيها السادة ، فالحق أن ما سأرويه لكم ليس شيئاً كثيراً ، فهو بسيط غاية البساطة ، وهو عدا ذلك غبى وبشع . لكننى أؤكد لكم مع ذلك اننى لست لصاً ، واننى ارتكبت فعل السرقة ذاك دون أن أدرى لماذا ! لقد حدث ذلك منذ ثلاث سنين ، فى فيللا صديق من الأصدقاء ، هو سيمون ايفانوفتش اشتينكو، يومَ أحد. كان عنده ضيوف. فلما انتهى الغداء بقى الرجال يتجاذبون أطراف الحديث أمام كأس . وخطر ببالى أنا أن أطلب من ماريا سيمونوفنا ، ابنة صاحب الدار ، أن تعزف لنا شيئاً على البيانو . فلما اجتزت احدى الغرف لمحت على منضدة عمل ماريا ايفانوفنا ورقة نقدية خضراء بثلاثة روبلات لا شك أنها كانت قد أخرجتها لحاجة من حاجات الدار . لم يكن فى الغرفة أحد . تناولت الورقة ودسستها فى جيبى . لماذا ؟ لا أدرى ! اننى لا أعرف السبب الذى

لعله دفعني الى ذلك . ولكنني أسرعت أعود الى المائدة . ولبثت هنالك أنتظر ، منفعلاً بعض الانفعال . كنت أثرثر بلا توقف ، وأروى فكاهات ، وأضحك . ثم جلست قرب السيدات . وبعد انقضاء قرابة نصف ساعة ، لوحظ اختفاء الورقة النقدية ، فسُئل عنها الخدم . وحامت الشبهة حول داريا ، الخادمة . أظهرت كثيراً من الاهتمام والاستطلاع ، وشاركت في الاستجوابات ، حتى لأتذكر انني ، حين ارتبكت داريا ارتباكاً تاماً ، أخذت أقنعها بضرورة الاعتراف، وحلفت برأسى لأضمنن لها تسامح ماريا ايفانوفنا ، وذلك على مسمع ومرأى من جميع الحضور . فكان هؤلاء ينظرون الىَّ ، وكنت أشعر بلذة عظيمة من تدفقى فى الكلام والوعظ بينما الورقة النقدية فى جيبى . وفى مساء ذلك اليوم نفسه شربت بالمال خمرة فى أحد المطاعم : دخلت فأمرت لنفسى بزجاجة من خمر «لافيت». لم يحدث قبل ذلك أن طلبت زجاجةً على هذا النحو دون أن آكل شيئاً. ولكننى كنت أستعجل انفاق ذلك المال . على أننى لم أشعر بأى ندم خاص، لا فى ذلك الحين ، ولا بعده . ولا أعتقد أن فى امكانى أن ارتكب ذلك الفعل مرةً أخرى . صدِّقونى : ان الأمر لا يهمنى . انتهت القصة . هذا كل شىء .

قالت داريا الكسيفنا مشمئزة :

ـ لكنى أعتقد أن هذا العمل ليس أسوأ عمل ارتكبته فى حياتك طبعاً !

وعقّب آتانازى ايفانوفتش :

ـ بل ليس هذا عملاً وانما هو حالة نفسية مرضية .

وسالت ناستاسيا فيليبوفنا دون أن تحاول اخفاء تقززها :

ـ وماذا جرى للخادمة ؟

ـ طردوها منذ الغد طبعاً . ذلك بيت شديد لا يتهاون في أمر كهذا الأمر !

ـ وتركت لهم أن يطردوها ؟

ـ هه ! فهل كنتم تريدون اذن أن أشي بنفسي واعترف بفعلتي ؟

بذلك أجاب فردشتينكو ، وقد دُهش ، على كل حال ، من الأثر السيء الذي أحدثته قصته في نفوس الحضور .

هتفت ناستاسيا فيليبوفنا تقول :

ـ ما أقذر هذا العمل !

ـ هوه ! أتطلبون من انسان أن يروي أسوأ فعل ارتكبه في حياته ثم تريدون أن يكون هذا الفعل ناصعا متألقاً ؟ ان أسوأ الأفعال قذر دائماً يا ناستاسيا فيليبوفنا . لسوف يثبت لنا ذلك ايفان بتروفتش بعد قليل . ثم ان كثيراً من الناس يظهرون بمظهر باهر ، ويوهمون بأنهم مثال الفضيلة لأنهم يملكون الثراء ! وما أكثر الذين يملكون الثراء في هذه الأيام ! ولكن ليتنا نعرف الوسائل التي استعملوها للوصول الى ذلك ... انهم لا يتورعون عن شيء ، ولا يتحرجون من شيء !

الخلاصة أن فردشتينكو قد خرج عن طوره ، وأصبح سليط اللسان ناسياً نفسه متجاوزاً كل حد . ان كشرة خبيثة تجعّد الآن وجهه . لعله كان يتوقع أن تحدث قصته في نفوس سامعيه أثراً غير هذا الأثر تماماً ، مهما يبدُ توقعه هذا غريباً . ان هذا النوع من « الزلات » الرديئة و « التباهي الخاص » ، على حد تعبير توتسكي ، أمر مستمر مألوف عند فردشتينكو ، وهو يناسب طبعه ، ويعبّر عن خلقه .

ارتعدت ناستاسيا فيليبوفنا غضباً ، وحدّقت اليه بنظرة ثابتة ، فسرعان

ما استولى عليه رعب شديد ، فصمت وقد جمَّده الخوف من أن يكون قد أسرف قليلاً .

قال آتانازى ايفانوفتش يقترح متهكماً :

ـ ألا نحسن صنعاً اذا نحن اكتفينا بهذا ؟

فقال بتسين :

ـ هذا دورى أنا ، لكننى أستعمل حقى فى الرفض، فلا أروى شيئاً .

ـ ترفض ؟

ـ لا أستطيع يا ناستاسيا فيليبوفنا . ثم اننى اعد مثل هذه اللعبة غباوة وحماقة !

قالت ناستاسيا فيليبوفنا وهى تلتفت نحو ايبانتشين :

ـ يا جنرال ، أعتقد أن الدور دورك الآن . فاذا امتنعت أنت أيضاً فقد انهارت لعبتنا كلها ، ولسوف يؤسفنى ذلك كثيراً ، لأننى أنوى أن أقصَّ فى الختام قصة عمل مأخوذ « من حياتى أنا » . لكننى لا أريد أن أفعل ذلك قبلك وقبل آتانازى ايفانوفتش ، اذ لا بد أن تشجعانى .

قالت ناستاسيا فيليبوفنا جملتها الأخيرة هذه ضاحكةً . فهتف الجنرال يقول بحرارة وحماسة :

ـ أوه ! اذا كنت أنت تعدين بذلك ، فاننى مستعد أن أروى لك قصة حياتى كلها . وأعترف لك باننى قد هيأت قصةً أحكيها متى جاء دورى..

تجرأ فردشتينكو فقال وهو ما يزال خَجلاً بعض الشىء ، لكنه يبتسم ابتسامة وقحة مع ذلك :

ـ يكفى أن يراك المرء يا صاحب السعادة حتى يحزر ما شعرت به من لذة أدبية فى سبك قصتك .

وألقت ناستاسيا فيليبوفنا على الجنرال ، هى أيضاً ، نظرةً خاطفة ،

وابتسمت • ومع ذلك كان يستطيع المرء أن يرى أن أعصابها كانت تزداد توتراً ، وأن اضطرابها كان يزداد شدة • وارتعش آتانازى ايفانوفتش حين علم أنها ستقص ، هى أيضاً ، حكاية ما •

بدأ الجنرال كلامه فقال :

ـ لقد اتفق لى ، أيها السادة ، كما يتفق لكل انسان ، أن ارتكبت فى حياتى أفعالاً لا توصف بأنها أنيقة جداً ، ولكن أغرب ما فى الأمر أننى أعد القصة القصيرة التى سأرويها لكم الآن هى أسوأ فعل اقترفته فى حياتى • صحيح أن خمسة وثلاثين عاماً على وجه التقريب قد انقضت على حدوث تلك القصة ، ولكننى لم أستطع قط أن أحرّر ذاكرتى من ذلك الانطباع الذى يقبض صدرى • هى حكاية غبية جداً على كل حال • كنت لا أزال أيامئذ فى الجيش برتبة مرشح ؛ وانكم لتعرفون ما المرشح : دمٌ يغلى ويفور ، وجيب خالٍ الا من قروش معدودة • وكان لى تابع اسمه نيكيفور يهتم بالقيام بأعباء البيت اهتماماً شديداً ؛ فهو يوفّر ويقتصد ، ويرتق ويرقّع ، ويمسح الأرض ويلمّع البلاط ، بل هو يسرق من كل مكان كلَّ ما يتاح له أن يسرقه خلسةً ليزيد به رزقى • كان يمتاز بأمانة تامة واستقامة نادرة وشرف لا يضارع • أما أنا فكنت فى معاملته الرجلَ الذى يوصف بأنه قاس ، ولكنه عادل• ولقد بقينا فى الحامية مدة من الوقت بمدينة صغيرة • كنت قد أُعطيت بطاقة سكنى فى ضاحية من الضواحى ، عند أرملة ملازم ثانٍ محال على التقاعد • هى عجوز قصيرة فى الثمانين من عمرها أو فى نحو ذلك • وكان بيتها الخشبى يشبهها بلىً وتداعياً وتهدماً ، وكانت تبلغ من الفقر أنها ليس عندها حتى خادمة تساعدها فى أعمال البيت • غير أن الشىء الذى تتميز به خاصةً هو أنها كان لها فى الماضى أسرة كبير العدد وأقرباء كثيرون • وتعاقبت السنون فبعضهم ماتوا وبعضهم سافروا أو نسوها • أما زوجها فكانت قد دفنته منذ ما يقرب من

خمسة وأربعين عاماً . وقد احتفظت خلال مدة طويلة بفتاة حدباء هي بنت أختها ، وكانت الفتاة فيما يروى عنها شريرة خبيثة كساحرة ، حتى لقد عضّت خالتها فى اصبعها ذات يوم ، لكن الفتاة ماتت آخر الأمر هى أيضاً ، فأصبحت العجوز تدبر أمورها بنفسها وحيدةً منذ ثلاث سنين . وكنت أشعر عندها بضجر شديد وسأم قوى ، فليس ثمة ما يمكن أن أعقد عليه أملاً . وأخيراً سرقت من دجاجي فى ذات يوم ديكاً . وظل الأمر غامضاً ، ولكن لا يمكن أن يكون السارق أحداً غيرها . وقد تشاجرنا تشاجراً عنيفاً فى موضوع الديك ، واستطعت بعد ذلك بمدة قصيرة أن أحصل على اذن بتغيير مسكنى تلبيةً لطلبى ، فأُرسلت الى ضاحية أخرى عند بائع طويل اللحيــة غفير الذرية . اننى أتذكر هذا كأننى أراه اليـوم . انتقلنـا أنا ونيكيفور فرحين ، وتركنا العجوز لحزنها وعارها . وبعد ذلك بثلاثة أيام، عدت الى البيت من التدريب فبادرنى نيكيفـور بقـوله : « لقد أخطأت ، سيادتك ، اذ تركت للعجوز وعاء الحساء ، فاننى لم يبق عندى وعاء أصب فيه الحساء » . فتجمدت من الدهشة طبعاً وقلت : « كيف تركنا لها وعاء الحساء ؟ » ، وأخذ نيكيفور يشرح لى الأمر ، فتبيّن أن العجوز قد رفضت عند رحيلنا أن تردّ اليه وعاءنا ، زاعمةً أنها تحتفظ به بديلاً عن آنيـة كنت قد كسرتها لها ، وأننى أنا الذى اقترحت عليها ذلك . فلما شرح لى نيكيفور ذلك ، فار دم « المرشح » فى عروقى طبعاً ، بسبب حقارة هذه المرأة وصغارها ، فاذا أنا أثب وأطير ؛ فما وصلت الى العجوز حتى كنت خارجاً عن طورى ، ووجدتها جالسةً فى المدخل وحدها ، لا طيةً فى ركن من الأركان كأنما لتحتمى من الشمس ، مسندةً خدها الى يدها . فنزلت عليها نزول الصاعقة ، وأخرجت لها كل ذخيرتى من الشتم والسب: « يا كيت وكيت ! » ... على الطريقة الروسية ... هل لاحظتم ؟ لكنها بدت لى غريبة عجيبة : فهى ما تزال جالســةً أمامى تحـدّق الىَّ بعينيها

الجاحظتين دون أن تجيبني بكلمة واحدة ، وما تزال نظرتها غريبة غرابة شديدة ، وكأنها كانت تترجح قليلاً . وهدأت أخيراً ، ونظرت اليها ، وسألتها ، فظلت صامتة لا تجيب . فلبثت متحيراً من هذا الصمت ، في جو هذه الشمس الغاربة وهذا الذباب المدندن ؛ ثم اضطربت أخيراً فقفلت راجعاً . وقبل أن أصل الى داري استُدعيت الى القيادة ، واضطررت أن أمرّ بسريتي ، ثم لم أعد الى بيتي الا في الليل . فكانت الكلمات الأولى التي بادرني بها نيكيفور هي : « هل تعلم ، سيادتك ، أن صاحبة البيت ماتت منذ قليل ؟ » فسألته : متى ؟ فقال : اليوم في هذا المساء ، ربما منذ ساعة ونصف ساعة . اذن فقد ماتت لحظة كنت أغرقها بالشتائم والسباب ! بلغتُ من قوة الشدّة انني لم أثب الى رشدي الا بعد وقت . أصبحت العجوز لا تفارق فكري ، حتى لقد حلمت بها في الليل . صحيح انني امرؤ لا أومن بالخرافات ولا أتطيّر ، ولكنني ذهبت في اليوم الثالث أشيّع جنازتها واحضر دفنها . وصرت مع مضي الزمن أفكّر في هذه القصة مزيداً من التفكير . لا أزعم أن هذه القصة قد احتلت فكري كله ، ولكنني أقول انها كانت تنبثق في ذهني على حين فجأة ، فأشعر بانزعاج واضطراب. وفهمت أخيراً ما الذي كان يفجؤني أكثر من أي شيء آخر : هذه امرأة ، أو قل بلغة هذا العصر ذي النزعة الانسانية : هذه كائن حي ، عاشت زمناً طويلاً حتى نسيها الموت . ولقد كان لها في الماضي أولاد ، وزوج ، وأسرة ، وأقرباء . وكان ذلك كله يغلي ويفور من حولها ان صح التعبير، وكانت تحوطها ابتسامات من كل صوب ؛ وفجأة لم يبق من ذلك كله شيء ، وغاب بما يشبه أن يكون ضربة سحر ، فاذا هي تبقى وحيدة مثل ... مثل ذبابة خريف ، كأنها تحمل على ظهرها لعنة العصر . وقادها الله أخيراً الى نهايتها ، فطارت هي أيضاً في ذات مساء لطيف من أماسي الصيف عند غروب الشمس . هذه فكرة زاخرة بالعبر طبعاً . ولكن

المرشح الشـاب ، بدلاً من أن يغمـرها بالدعوات وبدلاً من أن يذرف العبرات ، يضـع يديه على خاصرتيه ، وينفخ صـدره ، ويمطر العجوز المحتضرة بوابل من الشتائم المقذعة ثأراً لنفسه ، لأنها سلبته وعاء الحساء • لا شك في أنني أثمت ، ذلك أمر لا جدال فيه • ورغم انني أصبحت منذ زمن طويل أعدّ ذلك الفعل غريباً عنى ، لتقادم العهد أولاً ، ولتغير طبعى ثانياً ، فما زلت أشعر بأسف وحسرة ، حتى انني أدهش من ذلك، لا سيما وانني ان كنت آثماً ولا شك ، فلست آثماً كل الأثم : فما الذي حملها على أن تموت في تلك اللحظة نفسها ؟ من الواضح على كل حال أن عذر ذلك العمل السيء أن له بواعث نفسية ، وأنه ثمرة حالة سـيكولوجية • ومع ذلك لم يهدأ بالى هـدوءاً تاماً ولم تطمئن نفسي طمأنينـة كاملة ، الا حين قررت ، منذ نحو خمسة عشر عاماً ، أن أقف مبلغاً من المال على ملجأ من الملاجيء لايواء امرأتين عجـوزين ، لتكون أيامهما الأخيرة من حيـاتهما الأرضية أخف وطأةً على نفسيهما بفضل ظروف معاشية أفضـل • حتى انني أنوى أن استمر في وقف هذا المال ارثا • تلكم هي القصـة كلها • أعود فأقول : لعل في حياتي آثاماً أخرى ، ولكن هذا الفعل الذي رويت لكم الآن قصته هو الذي يبدو لي اسوأ عمل ارتكبته في حياتي •

فما ان انهى الجنرال كلامه حتى انبرى فردشتينكو يقول :

ـ انك ، يا صاحب السعادة ، بدلاً من أن تروى لنا قصة أسوأ عمل ارتكبته في حياتك ، رويت قصة أفضل عمل قمت به في حياتك ، فخيّبت بذلك فأل فردشتينكو •

وقالت ناستاسيا فيليبوفنا بهدوء واهمال :

ـ حقاً يا جنرال ••• ما كنت أتصـــور أن يكون لك قلب طيب ! خسارة •••

فسألها الجنرال وهو يضحك ضحكة تحبب وتلطف :

ـ خسارة ؟ لماذا ؟

وشرب جرعة من الشمبانيا ، بشيء من الاعتزاز ٠

جاء الآن دور آتانازي ايفانوفتش الذي هيأ نفسه لرواية قصة هو أيضاً ٠ كان الحضور يقدّرون أنه ، كما فعل ايفان فيدوروفتش ، لن يرفض أن يروي قصة ، وكان بعضهم ، لأسباب معينة ، ينتظرون قصته بكثير من الشوق واللهفة، وهم يلقون على ناستاسيا فيليبوفنا نظرات مختلسة٠

وبوقار عظيم يتفق ومهابته ، أخذ آتانازي ايفانوفتش يسرد واحدة من « قصصه اللطيفة » بصوت هاديء عذب ٠ (يجب أن نذكر عابرين أن آتانازي ايفانوفتش رجل طويل القامة مهيب الطلعة ، على شيء من الصلع والشيب ؛ بدين بعض البدانة ، خداه زاهيتان رخوتان خاسفتان قليلاً ٠ أسنانه صناعية ٠ يرتدي ثياباً أنيقة فضفاضة ، ويلبس قميصاً ناصع البياض٠ يداه البضتان البيضاوان تخطفان الانتباه ٠ في بنصر يده اليمنى خاتم ثمين من ماس) ٠ فكانت ناستاسيا فيليبوفنا طوال مدة سرده قصته لا تنفك تنعم النظر في شريط الدانتيلا الذي يزدان به كمها والذي كانت تقرصه باصبعين من يدها اليسرى ، فلم يُتح لها أن تنظر الى القصّاص ولو مرةً واحدة٠

بدأ آتانازي ايفانوفتش كلامه فقال :

ـ ان الشيء الذي يسهّل مهمتي هو انني مضطر اضطراراً مطلقاً أن أروي أسوأ فعل ارتكبته في حياتي ٠ فلا مجال في مثل هذه الحالة لأي تردد ، فالضمير وذاكرة القلب يمليان عليّ اختيار القصة ويفرضانها فرضاً٠ يجب عليّ أن اعترف ، وأنا أشعر بغير قليل من المرارة ، أن بين الأعمال الطائشة و ٠٠٠ الصبيانية التي ارتكبتها والتي قد يكون عددها لا نهاية له ، أن بين تلك الأعمال عملاً نُقشت ذكراه في نفسي عميقةً فلا سبيل الى نسيانها ٠ حدث ذلك منذ قرابة عشرين عاماً ٠ كنت عندئذ في اقامة قصيرة بالريف عند أفلاطون أوردتنسيف الذي انتخب منذ برهة وجيزة ماريشالاً

للطبقة النبيلة ، وكان يقضي أعياد آخر العام في أراضيه مع امرأته الشابة • وكان عيد ميلاد آنفيسا ألكسيفنا يقع في تلك الفترة نفسها ، فكانت تُهيّأ لهذه المناسبة حفلتا رقص • وفي ذلك الأوان كانت الرواية التي ألّفها الكسندر دوما الابن « غادة الكاميليا » رائجة رواجاً عظيماً في المجتمع الراقي ، وكانت قد أحدثت في ذلك المجتمع ضجةً كبيرة • وهي في رأيي عمل أدبي لا يمكن أن يموت ، بل ولا يمكن أن يشيخ• كانت جميع السيدات في الريف متحمسة له أشد التحمس ، ولا سيما اللواتي قرأنه • فجمال القصة ، وطرافة الموقف ، وأصالة الشخصية الرئيسية ، والتصوير المرهف لبيئةٍ ملأى بالأمور الجذابة ، وجميع تلك التفاصيل الأخّاذة المنثورة في الكتاب (كاستعمال باقات من أزهار الكاميليا بيضاء وحمراء على التناوب) ، الخلاصة أن الكتاب ، في جملته وتفصيله ، كان قد أحدث أثراً كبيراً هزّ نفوس الناس هزاً قوياً • وأصبحت أزهار الكاميليا موضةً يتهافت عليها الناس تهافتاً شديداً ، ويسعون اليها سعياً محموماً ، ويريدون شراءها مهما يكن الثمن • واني لأسألكم : هل يمكن أن يوجد كثير من أزهار الكاميليا في مقاطعة صغيرة حين يريد جميع الناس أن يشتروا أزهار الكاميليا لحفلات الرقص ، ولو لم تكن حفلات الرقص هذه كثيرة • وكان بطرس فورخوفسكي في ذلك الأوان يموت حباً وهياماً بآنفيسا ألكسيفنا • لست أدري حتى هذه اللحظة هل كان بينهما شيء ، أقصد هل كان يمكن أن يساوره أمل جدي • وانما المهم أن المسكين أخذ يسعى هنا وهناك كالشيطان المسعور بغية الحصول على أزهار كاميليا لحفلة الرقص التي ستقام بمناسبة عيد ميلاد آنفيسا ألكسيفنا • • وكان قد عُرف أن الكونتيسة سوتسكي (من بطرسبرج) وهي صديقة زوجة الحاكم ، وصوفيا بسبالوفا ، ستجيئان حتماً ومعهما باقات من أزهار الكاميليا البيضاء • فكانت آنفيسا ألكسيفنا ترغب في أن يهدي أحد اليها أزهار كاميليا حمراء ليكتمل

بها تأثيرها وسحرها، فكان أفلاطون التعيس فى أشد الضيق وأكبر الحرج. انكم تعلمون ما واجبات الزوج : لقد تورط فوعد بباقة من أزهار الكاميليا الحمراء . ولكن ما العمل ؟ ان كاترين ألكسندروفنا ميتستشيفا ، التى هى أرهب منافسة لآنفيسا ألكسيفنا فى كل شىء ، والتى يمكن أن توصف العداوة بينهما بأنها عداوة تبلغ درجة الطعان ، كانت قد نشلت من المنطقة كلّ ما فيها من أزهار الكاميليا قبل حفلة الرقص بيوم واحد . فماذا كانت النتيجة ؟ كانت النتيجة أن آنفيسا ألكسيفنا انتابتها نوبات بكاء ، وأغمى عليها ، الخ ! لقد هلك أفلاطون ! ان من الواضح أن بطرس اذا استطاع فى هذه اللحظة الحاسمة أن يحصل على الباقة المطلوبة ، فستحقق أموره تقدماً كبيراً . ان العرفان بالجميل والشعور بالامتنان لا حدود لهما فى حالات كهذه الحالات . أخذ بطرس يسعى هنا وهناك كمن مسّه جن ، ولكن الأمر كان مستحيلاً ، حتى انه لا مجال للتفكير فيه ! وهأنا ذا ألقى بطرس، عشية عيد ميلاد آنفيسا ، عند جارةٍ منجيران أسرة أوردنتسيف، فأراه مشرق الوجه متهلل الأسارير .

سألته :

« ــ ماذا حدث ؟

« ــ وجدت ، أوريكا ! *

« ــ انك لتدهشني حقاً ! كيف وجدت ؟ وأين ؟

« ــ بمدينة ايكايسك (مدينة صغيرة بالمقاطعة المجاورة تقع على مسافة لا تكاد تبلغ عشرين فرسخاً) . يوجد هناك تاجر طويل اللحية واسع الثراء ، اسمه تريبالوف . يعيش مع امرأته وحيدين ويتخذان عصافير الكنارى بمثابة أولاد ، ويهويان الأزهار هوى عظيماً ، وعندهما أزهار كاميليا .

« ــ ولكن هذا أمر غير مضمون . ماذا لو منعها عنك ؟

« ـ سأركع عندئذ أمامه ، وأظل قابعاً على قدميه الى أن يوافق ، ثم لا أنصرف قبل أن يعطيني الأزهار !

« ـ متى تسافر اليه ؟

« ـ غداً فى الفجر ، الساعة الخامسة .

« ـ طيب . أسأل الله أن يمدك بعون من عنده !

شعرت حقاً بسعادة كبيرة له . وعدت الى دار أسرة أوردنتسيف . وفيما كنت أهمُّ أن أمضى الى السرير لأنام ، خطرت ببالى على حين فجأة فكرةٌ من أطرف الفِكرَ . فسرعان ما ذهبت الى المطبخ ، فأيقظت سافيلى ، الحوذى ، ووعدته بخمسة عشر روبلاً اذا هو قرن الخيل بالعربة فى خلال نصف ساعة . فما انقضى نصف ساعة حتى كانت العربة تنتظرنى عند الباب طبعاً . وقد أُبلغت فى أثناء ذلك أن آنفيسا ألكسيفنا قد انتابها صداع ، وألمت بها حمى ، وأنها تهذى .

ركبت العربة ، وانطلقنا . وتوقفت بعد الساعة الرابعة بقليل أمام نزل ايسايسك أنتظر طلوع الفجر ، فما ان طلع الفجر حتى استأنفت المسير ؛ وفى الساعة السابعة كنت عند تريبالوف أحدثه فى أمرى . قلت له :

ـ هل عندك أزهار كاميليا ؟ كن أباً رحيماً ، ساعدنى ، أنقذنى ، فانحنى لك حتى الأرض محيياً شاكراً .

ورأيت الشيخ طويل القامة ، مبيضَّ الشعر ، قاسى الهيئة ، رهيباً مخيفاً . وسمعته يقول :

ـ ل ... لا ... لا ! لا تحاول ! عبثاً تحاول ! اننى أرفض !

وهأناذا أسقط على قدميه ، وأنبطح ... نعم أنبطح انبطاحاً تاماً كاملاً . فخاف الرجل ، وقال ينادينى :

« ـ ما هذا الذى تفعله يا بنى ؟ ما هذا الذى تفعله ؟ رباه !

فصحت أقول له :

« ـ ان حياة انسان هي المعرَّضة للخطر !

« ـ طيب .. طيب ... خذ أزهار الكاميليا ... وكان الله معك !

فأخذت أجني أزهار كاميليا حمراء ! كانت أزهاراً رائعة ، فتانة ! جنيت كل ما ضمته منها حديقتـه . وتنهد الشيخ . فأخـرجت من جيبي ورقة نقد بمائة روبل . فقال :

« ـ لا يا بني ، لا تلحق بي هذه الاهانة !

فقلت له :

« ـ طيب ، اذا كان الأمر كذلك ، فتفضل بدفع هذه المائة روبل لمستشفى المدينة ترفيهاً عن المرضى .

قال :

« ـ هذا ، هذا شيء آخر يا عزيزي ! هذا عمل طيب نبيل ، عمل يرضي الله . سأقدم هذه الهبة نيابةً عنك .

أعجبني ذلك الشيخ ، ذلك الشيخ الروسي الأصيل ، الأصيل حقاً ، الأصيل حتى الأرومة ، ذلك الشيخ الذي ينتمي الى ما يسمى باسم « الطبقة الكريمة حقاً » .

وعدت أدراجي مفتوناً بالنجاح الذي حققته ، ولكنني سلكت طرقاً ملتوية ، حتى لا ألتقي ببطرس . فما ان وصلت حتى أرسلت البـاقة الى آنفيسـا ألكسيفنا لتفاجأ بها متى اسـتيقظت من نومها . وفي وسـعكم أن تتصـوروا دهشـتها ، وامتنانها ، والدموع الذي ذرفتها اعترافاً بالجميل ! وهذا هو أفلاطون الذي كان أمس متهدماً مدمَّراً ميتاً ، ها هو ذا يرتمي على صدري ناشجاً . وا أسفاه ! ذلك هو شأن جميع الأزواج دائماً منذ ابتدع ... الزواج الشرعي ! لا أجرؤ أن أضيف شيئاً الى ما قلت ، عدا

أن جميع آمال ذلك المسكين بطرس انهارت منذئذ انهياراً لا قيام لها بعده ! ولقد قدّرت في أول الأمر أنه سيذبحني اذا عرف الدور الذي قمت به في هذه القضية ، حتى لقد تأهبت للأمر واستعددت ، ولكن حدث ما لم يكن في وسعي حتى أن أتصور أن في الامكان أن يحدث : لقد أغمي عليه ، وفي المساء أخذ يهذي ، وفي الغد كانت قد انتابته الحمى الدماغية ، فهو يجهش باكياً مع تشنجات شديدة كطفل . حتى اذا أبلّ من مرضه بعد شهر ، طلب نقله الى القوقاز * . قصة كأنها رواية من الخيال . وانتهى به المطاف الى ان قُتل في القرم ؛ وكان أخوه ستيفان فورجوفسكي قد اشتهر في ذلك الأوان قائداً متفوقاً لاحدى كتائب الجيش .

لا أنكر أنني ظللت خلال سنين طويلة أعاني من عذاب الضمير : لماذا طعنته تلك الطعنة ؟ ولقد كان يمكن أن يهون الأمر في نفسي لو أنني كنت هائماً مثله بحب آنفيسا ألكسيفنا . ولكن الأمر ليس كذلك ، وانما كان « شطارة » مني أو « شيطنة » لا أكثر . ومن يدري ؟ فلولا أنني سلبت الفتى باقة الزهر تلك ، لجاز أن يكون الى الآن حياً ، سعيداً ، بل مغموراً بسعادة طافحة ، ولما خطر بباله أن يمضي الى مقاتلة الأتراك » .

أنهى آتانازي ايفانوفتش سرد قصته وقوراً رصيناً كما بدأها . ولاحظ الحضور أن عيني ناستاسيا فيليبوفنا قد قدحتا شرراً ، وأن شفتيها قد اختلجتا حين ختم آتانازي ايفانوفتش كلامه . فأصبحتا محطّ الأنظار المستطلعة .

هتف فردشتينكو يقول بصوت دامع ، اذ أدرك أنه أصبح يحسن بل يجب أن يقول كلمته :

ـ ضحكوا على فردشتينكو ! خدعوه ! غشوه ! ذلكم هو ما يسمى خداعاً وغشاً !

ـ لم يجبرك أحد على شيء ! كان عليك أن تفهم اللعبة فهماً أصحّ • كان عليك أن تتعلمها من أناس أذكياء •

ان داريا ألكسيفنا هي منذ مدة طويلة الصديقة الوفية والشريكة الدائمة للسيد توتسكي •

قالت ناستاسيا فيليبوفنا باهمال وفتور :

ـ أنت على حق يا آتانازي ايفانوفتش • ان هذه اللعبة مضجرة مملة تبعث السأم في النفس ، وقد آن لنا أن ننتهي منها • سأقص عليكم الآن ما وعدتكم به ، ثم ننتقل جميعاً الى اللعب بالورق •

قال الجنرال مؤيداً بحرارة :

ـ ولكن يجب أن نسمع القصة التي وعدتنا بها قبل كل شيء !

قالت ناستاسيا فيليبوفنا بصوت واضح دون أن تتحرك ، قالت تخاطب الأمير :

ـ يا أمير ، ان صديقيّ العزيزين ، الجنرال وآتانازي ايفانوفتش ، يصران كثيراً على أن أتزوج • فقل لي رأيك : أيجب أن أتزوج أم لا ؟ سوف أقرر لنفسي ما تقرره أنت لي •

اصفرّ وجه آتانازي ايفانوفتش ، وجمد الجنرال ، والتفت جميع الرءوس نحو الأمير ، وحدّقت اليه جميع الأعين • وتجمّد جانيا في مكانه •

سألهما الأمير بصوت يضعف وينطفيء :

ـ تتزوجين ••• من ؟

فأجابته ناستاسيا فيليبوفنا بذلك الصوت نفسه ، الثابت القاطع الواضح :

ـ جبريل آرداليونتش ايفولجين •

ساد الصمت بضع لحظات • كان الأمير كمن يجهد أن ينطق بكلمة

واحدة دون أن يستطيع ذلك ، وكأن حملاً ثقيلاً كان يجثم على صدره فيسحقه سحقاً . ثم همس يقول أخيراً وقد استرد أنفاسه بكثير من المشقة والعناء :

ـ لـ ... لا ... لا تتزوجيه !

فقالت ناستاسيا فيليبوفنا تخاطب جبريل آرداليونتش بصوت فيه سلطة واضحة وفيه شيء من أبهة :

ـ ذلك ما سيكون . هل سمعت قرار الأمير ؟ انه يتضمن جوابي أنا أيضاً . فلنفرغ من هذه القضية دفعةً واحدة الى الأبد !

تمتم آتانازى ايفانوفتش يقول بصوت مرتجف :

ـ ناستاسيا فيليبوفنا !

وأضاف الجنرال بصوت مؤثر لكنه قلق :

ـ ناستاسيا فيليبوفنا !

وسرت في الحضور همهمة ، وظهرت بينهم حركات انفعال .

فقالت ناستاسيا فيليبوفنا وهي تتفرس في وجوه ضيوفها مدهوشة :

ـ ماذا أيها السادة ؟ علام هذا الانفعال ؟ وفيم استطالت وجوهكم هذه الاستطالة ؟

تاتا توتسكي متلعثما متعثراً في الكلام :

ـ ولكن ... تذكري يا ناستاسيا فيليبوفنا أنك وعدت ... من تلقاء نفسك ... دون ضغط أو اكراه ... وكان في وسعك .. الى حد ما .. أن تداري وتراعي ... لا أكاد أستطيع أن .. ربما كنت مضطرباً ... لكن ... على كل حال ... الخلاصة : الآن ... في لحظة كهذه اللحظة ، وأمام هذا الحفل كله من الناس ، وبهذه الطريقة ... نختم

بهذه « اللعبة الصغير » قضية هي على هذا الجانب العظيم كله من خطورة الشأن ، قضيةً هي قضية شرف وقلب ... قضيةً يتوقف عليها ...

ـ حقاً لا أفهمك يا آتانازى ايفانوفتش . انك تخبط فى كلامك خبط عشواء ! أولاً : ما معنى قولك هذا : « أمام هذا الحفل كله من الناس » ؟ ألسنا هنا أصحاباً حميمين ؟ وما اعتراضك على هذه « اللعبة الصغيرة » ؟ لقد نويت حقاً أن أروى حكاية . وهأنا ذا فعلت . أليست حكايتى جميلة ؟ ما الذى يجرّدها فى نظرك من الجد ، ويضفى عليها طابع اللعب ؟ ألم تسمعنى أقول للأمير : « سأقرر لنفسى ما تقرره أنت لى » ؟ فلو قد قال « نعم » لوافقت فوراً ، أما وأنه قال « لا » ، فقد رفضت . فكيف تستطيع أن تصف ذلك بأنه خال من الجد ، بينما كان مصيرى كله مرهوناً بكلمة واحدة . هل يمكن أن يكون هناك جدٌ أكبر من هذا الجد ؟

دمدم الجنرال يقول وهو لا يستطيع أن يكظم غيظه من هذه السلطة المهينة التى مُنحت للأمير :

ـ ولكن لماذا الأمير ؟ ثم ، ما مجىء الأمير الى هنا ؟ ماذا جاء يعمل ؟

ـ انا انما استشرت الأمير ، لأنه أول شخص آمنت بأنه مخلص لى اخلاصاً تاماً كاملاً . لقد آمن هو بى منذ أول نظرة ألقاها علىّ ، وأنا أومن به أيضاً .

وأخيراً نطق جانيا فقال بصوت مرتجف وقد شحب لونه وانعقف فمه بجمدة عجيبة :

ـ لم يبق لى الا أن أشكر لناستاسيا فيليبوفنا ما عمدت اليه من لطف عظيم ورهافة قصوى ... فى حقى . طبعاً كان لا بد أن تجرى الأمور هذا المجرى . ولكن ... الأمير ... فى هذه القضية ... انما ...

ـ ... يسعى الى الحصول على الخمسة وسبعين ألف روبل ، أليس كذلك ؟

بهذا قطعت ناستاسيا فيليبوفنا كلام جانيا فجأة . وتابعت تقول :
ـ أهذا ما كنت تريد أن تقوله ؟ لا تدافع عن نفسك ! هذا ما كنت تريد أن تقوله حتماً ! يا آتاناژى ايفانوفتش ، لقد نسيت نسياناً تاماً أن أضيف ما يلي : استردّ الخمسة وسبعين ألف روبل ، واعلم أنني أُعتقك مجاناً ! يكفي هذا ! أنت أيضاً محتاج الى أن تتنفس ! تسع سنين وثلاثة أشهر ! غداً تبدأ الحياة الجديدة ! أما اليوم فنحتفل بعيد ميلادي ، وهذه أول مرة أستقل فيها بنفسي ، وأتحرر من غيري ! يا جنرال ، استردّ أنت أيضاً لآلئك ، واهدها الى زوجتك ! اليك اللآلىء ! خذها ! وسوف أترك هذه الشقة منذ غد ، فلا سهرات بعد اليوم أيها السادة !

قالت هذا الكلام ونهضت كأنما لتخرج .

فارتفعت أصوات من كل صوب تناديها :

ـ ناستاسيا فيليبوفنا ! ناستاسيا فيليبوفنا !

واضطرب الجميع ، وبارحوا أماكنهم ، وأحاطوا بها ، وأخذوا يصغون في قلق شديد الى أقوالها المتقطعة المحمومة الهاذية . كانوا يشعرون جميعاً بأن في هذا نوعاً من اختلال ، أو من جنون ، دون أن يفهموه ، أو أن يستطيعوا تعليله لأنفسهم .

وفي تلك اللحظة دقّ جرس الباب على حين فجأة دقةً قوية تشبه من جميع النواحي الرنة التي ترجّعت في بيت جانيا بعد الظهر من ذلك اليوم .

فهتفت ناستاسيا فيليبوفنا تقول :

ـ ها ... جاءت الخاتمة ! أخيراً ! الساعة هي الحادية عشرة والنصف . أرجوكم أن تجلسوا أيها السادة . لقد حان موعد الخاتمة !

قالت ذلك وعادت تجلس. وكانت تنبض على شفتيها ضحكة غريبة. وصمتت تنتظر انتظاراً محموماً وهي تنظر الى الباب .

دمدم بتسين يقول لنفسه :

ـ لا شك في أنه روجوين قد جاء بالمائة ألف روبل !

الفصل الخامس عشر

دخلت الخادمة كاتيا * مرتاعة أشد الارتياع ، وقالت :

ـ حدث ما لا يعلمه الا الله يا ناستاسيا فيليبوفنا ! هناك نحو عشرة أشخاص اجتاحوا حجرة المدخل سُكارى يطلبون الدخول . وقد سألونى أن أبلغ عن وصول روجويين ، وزعموا أنك على علم بالأمر .

ـ صحيح يا كاتيا ، أدخليهم فوراً !

ـ حقاً ؟ أُدخلهم جميعاً ... يا ناستاسيا فيليبوفنا ؟ ان حالتهم فظيعة، انهم مخيفون !

ـ جميعاً ، أدخليهم جميعاً يا كاتيا ، لا تخشى شيئاً ، أدخليهم حتى آخرهم ، والا دخلوا دون أن تأذنى لهم بالدخول . هل تسمعين الضجة التى يحدثونها منذ الآن ؟ انها عين الضجة التى أحدثوها بعد الظهر من هذا اليوم !

ثم قالت ناستاسيا فيليبوفنا ملتفتةً الى ضيوفها :

ـ أيها السادة ، ربما أزعجكم أن أستقبل عصبةً كهذه العصبة بحضوركم . أنا آسفة . سامحونى . ولكن لا بد من ذلك . اننى أرغب كثيراً فى أن توافقوا على أن تكونوا شهودى فى هذه الخاتمة ، ولكن لكم ما تشاءون طبعاً !

استمر الحضور في دهشتهم يتهامسون ويتبادلون النظرات • لقد أصبح واضحاً كل الوضوح أن ذلك كله كان محسوباً مرتباً مهيأً ، وأنه بات من المستحيل اكراه ناستاسيا فيليبوفنا على ترك فكرتها ، رغم أنها قد جنَّت طبعاً ! وكان حب الاطلاع قد استبد بهم جميعاً ، ولم يكن هناك ما يدعو أحداً منهم الى أن يرتاع ارتياعاً شديداً على كل حال • لم يكن بين الحضور الا سيدتان اثنتان : داريا ألكسيفنا ، وهي امرأة محنكة سبق أن رأت في حياتها أموراً كثيرة ، وليس ترويعها بالأمر السهل • تلك هي السيدة الأولى • أما الثانية فهي تلك المرأة المجهولة الصموت التي كانت على جانب عظيم من الجمال • لكن المجهولة البكماء كانت في أغلب الظن عاجزة عن ان تفهم أي شيء • انها ألمانية كانت مارةً ببطرسبرج ، وهي تجهل الروسية • ورغم أنها لم تصل الا منذ مدة قصيرة ، فقد جرت العادة أن تُدعى الى بعض الحفلات • انها ترتدي ثياباً جميلة فاخرة ، وتصفِّف شعرها كأنها متأهبة لدخول مسابقة ، فالناس يدعونها الى الحفلات صورة فاتنة تزين السهرة ، تماماً كما يُزيَّن البيت بلوحة أو آنية خزف أو تمثال أو قطعة أثاث ثمينة تُستعار من الأصدقاء في المناسبات •

وأما عن الرجال فان بتتسين ، مثلاً ، صديق للفتى روجوين • وفردشتينكو يشعر بأنه أشبه بسمكة في الماء • وجانيا الذي لم يستطع بعدُ أن يثوب الى رشده ، كان يشعر شعوراً لا يقاوَم ، رغم انه شعور مبهم ، بحاجة الى أن يبقى حتى النهاية مسمَّراً في مكانه أمام الناس • ومعلم المدرسة العجوز الذي لم يفهم شيئاً كثيراً مما كان يحدث ، قد أوشك أن يجهش باكياً ، وكان يرتجف من الخوف ارتجافاً ، لشعوره بجو القلق والخشية حول ناستاسيا فيليبوفنا التي يحبها كما يحب حفيدته ؟ ولكنه يؤثر أن يموت على أن يترك ناستاسيا فيليبوفنا في لحظة كهذه اللحظة • وفيما يتعلق بآتانازي ايفانوفتش ، فانه كان لا يستطيع طبعاً أن يعرِّض

نفسه لأحداث من هذا النوع تسيء اليه والى سمعته ، ولكنه كان مرتبطاً بهذه القضية ارتباطاً شخصياً قوياً ، فهو مشدود اليها لا يستطيع منها فكاكاً ، رغم المجرى الجنوني الذى أخذت تجرى فيه ! لذلك قرر أن يبقى حتى النهاية ، صامتاً مع ذلك ، مكتفياً بالمشاهدة كما يقتضي وقاره ، وكما تقتضي كرامته ومهابته ! والجنرال ايبانتشين الذى سبق أن أهين قبل لحظات بتلك الطريقة السخيفة فى ردّ هديته اليه ، كان هو الشخص الوحيد الذى يحق له أن يزداد غضبه ، لما يراه من هذه الأنواع الجديدة من الشذوذ ، كظهور روجويين مثلاً . ان من كان فى مثل رتبته ، حسبه تساهلاً وتنازلاً أن يرضى المشاركة فى سهرة تضم أشخاصاً مثل بتسين أو فردشتينكو . لقد غلبه الهوى على أمره ، فسقط تلك السقطة . ولكن الشعور بالواجب واعتبار الرتبة والمركز ، واحترام الذات ، قد انتصرت أخيراً ، فأصبح لا يطيق وجود روجويين وعصبته . لذلك التفت نحو ناستاسيا فيليبوفنا يريد أن يعبّر لها عن ذلك ، ولكن ما ان فتح فمه وهمّ بالكلام حتى قاطعته تقول :

ـ آ ... جنرال ... لقد نسيتك . ولكن ثق اننى قد تنبأت باعتراضك . فاذا كنت متضايقاً تضايقاً شديداً ، فاننى لا ألح عليك ولا أحب أن احتجزك ، رغم أنك أنت من أرغب أقوى رغبة فى أن يكون بقربى هذه اللحظة . مهما يكن من أمر ، فأنا أشكر لك المتعة التى هيأتْها لى معرفتى بك ، وأشكر لك التفاتاتك الكريمة التى أعتز بها ، ولكن اذا كنت تخشى أن ...

فهتف الجنرال يقول وقد استولت عليه نوبة من روح الفروسية السمحة السخية :

ـ عفوك يا ناستاسيا فيليبوفنا ! لمن تقولين هذا الكلام ؟ لأبقينّ بقربك ولو لمجرد الاخلاص لك والتفانى فى سبيلك ، فاذا وُجد خطر من

الأخطار مثلاً ••• ثم انني متعجب أشد التعجب ، اعترف لك بذلك • أريد ان أقول ان من الممكن أن يفسدوا السجاد ، حتى لقد يكسرون شيئاً من الأشياء ••• فالحق أنه ما ينبغي أن يُسمح لهم بالدخول أبداً ياناستاسيا فيليبوفنا !

قال فردشتينكو معلناً :

ـ هذا روجويين بشخصه !

وهمس الجنرال يسأل آتاناژی ايفانوفتش مسرعاً :

ـ ما رأيك ؟ ألا تظن أنها جُنَّت ؟ لا أقصد بالجنون معناه المجازى بل معناه الطبى ، الطبى ••

فأجابه توتسكى قائلاً بشىء من المكر والخبث :

ـ قلت لك منذ زمان طويل ان بها استعداداً للجنون •••

ـ تضاف الى ذلك الآن حالة الحمى هذه •••

كانت عصبة روجويين تتألف تقريباً من أولئك الأفراد أنفسهم الذين كانت تتألف منهم بعد الظهر من ذلك اليوم ؛ وانما أضيف اليها الآن شيخ ضئيل فاسق كان فى زمانه مديراً لصحيفة حقيرة من الصحف التى تقدَّم اليها الرشوات خوفاً من التشهير ويُروى عنه أنه رهن أسنانه الذهبية ليشرب بثمنها خمراً ؛ وقد أضيف الى العصبة أيضاً ملازم ثان محال على التقاعد ، يشبه ذلك الذى رأيناه بعد الظهر متميزاً بقبضتى يديه القويتين ؛ وهو فى الحق ندٌّ له ومنافس ، بالمهنة والوظيفة معاً ! ان جميع افراد عصبة روجويين كانوا لا يعرفونه ، ولكنهم التقطوه فى الطريق على رصيف شارع نفسكى ، الذى تغمره أشعة الشمس ، حيث كان يستوقف المارة ليطلب منهم مساعدة ، بأسلوب يشبه أسلوب مارلنسكى * ، زاعماً لهم أنه « كان هو نفسه فى الماضى يهب لكل سائل من السائلين عشرة

روبلات أو خمسة عشر روبلاً » . ولم يلبث الندّان المتنافسان أن شعرا بعداوة متبادلة ، فالسيد ذو القبضتين يرى أنه قد أهين اهانة مباشرة حين ضُمَّ هذا « السائل » الى الجماعة ، ولكنه بحكم طبعه الصموت كان لا يزيد على أن يصدر همهمات كهمهمات دب ، ويقابل بأشد الاحتقار محاولات التودد الكثيرة ، والانحناءات اللطيفة التي كان يقوم بها «السائل» اظهاراً لأدبه ورقيه . كان واضحاً أن الملازم الثاني هو من أولئك الذين يؤثرون ، من أجل أن يشقوا لأنفسهم طريقا ، يؤثرون حسن التصرف وبراعة التدبير على استعمال القوة والعنف؛ هذا الى أن قامته أقل ضخامة من قامة السيد ذي القبضتين القويتين . وقد أشار عدة مرات ، بطريقة مرهفة، دون أن يثير نقاشاً صريحاً ، ولكن بشيء من التفاخر والتباهي ، الى أفضلية الملاكمة الانجليزية (البوكس) ، مفصحاً بذلك عن أنه رجل غربي المذهب والاعتقاد . فكان السيد ذو القبضتين الضخمتين ، حين يسمع كلمة «البوكس» ، لا يزيد على أن يبتسم ابتسامة تهكم وغضب ، وكان لاحتقاره كل مجادلة ، يقتصر بين الفينة والفينة ، في صمت وبما يشبه المصادفة ، على أن يُظهر أو يمدّ الى أمام ذلك الشيء الوطني جداً ، الروسي جداً : قبضةً ضخمة نامية العضلات كثيرة العقد مغطاة بشعر أحمر . فكان يتضح للجميع حينذاك أن هذا الشيء الوطني جداً اذا هو هوى على هدفه باحكام ، استطاع أن يهشّمه تهشيماً .

وكما لوحظ بعد الظهر من ذلك اليوم ، لم يكن أحد من عصبة روجوين سكران سكراً شديداً ، وذلك بفضل جهود روجوين الذي ظل طوال النهار لا تغيب عن فكره زيارة ناستاسيا فيليبوفنا في بيتها . وقد اتسع وقته هو نفسه لأن يصحو من السكر صحواً شبه كامل . ولكنه في مقابل ذلك ، بعد جميع تلك المشاعر التي عاناها في ذلك اليوم العجيب ، والتي لا تشبه في شيء كلّ ما سبق أن عرفه طوال حياته ، كان مرهقاً مخبولاً .

ان شيئاً واحداً قد ظل ماثلاً في ذهنه وفي ذاكرته وفي قلبه بغير انقطاع. ومن أجل ذلك كان قد قضى وقته كله ، منذ الساعة الخامسة بعد الظهر حتى الساعة الحادية عشرة من المساء ، وهو في حالة هم وغم وقلق لا حدود لها ، قضى وقته كله ساعياً وهناك عند أمثال كندر وأمثال بيسكوب اللذين شارفا على الجنون هما أيضاً من كثرة ما تحركا في سبيل قضاء حاجته وتدبير أمره . المهم على كل حال أن المائة ألف روبل ، عداً ونقداً ، التي ألمعت اليها ناستاسيا فيليبوفنا الماعاً خاطفاً ساخراً ، وغامضاً كل الغموض ، قد أمكن جمعها قروضاً بفوائد باهظة تبلغ من الفداحة أن بيسكوب نفسه كان يستحي أن يتحدث فيها مع كندر الا همساً .

وكما حدث بعد الظهر من ذلك اليوم ، كان روجوين يتقدم عصبته ويسير في طليعتها ، وكان رجاله يمشون وراءه ، مدركين لتفوقهم ، شاعرين مع ذلك بشيء من الخشية . وكانت ناستاسيا فيليبوفنا هي التي يخشونها خاصةً ، لا يدري الا الله لماذا ! حتى لقد كان بعضهم يتصور أنهم « سوف يُرمون الى أسفل السلّم » . وكان زاليوجيف ، المغوى الأنيق ، واحداً من هؤلاء . غير أن بينهم رجالاً آخرين ، ولا سيما صاحب القبضتين الجبّارتين ، كانوا في قرارة أنفسهم يحتقرون ناستاسيا فيليبوفنا احتقاراً مطلقاً ، بل وكانوا يكرهونها كرهاً شديداً ، وكانوا يشعرون أنهم انما ذهبوا الى بيتها ذهابهم الى مدينة محاصرة . ومع ذلك فان الترف العظيم الذي رأوه في الحجرتين الأولين ، وجميع هذه الأشياء التي لم يتح لهم طوال حياتهم حتى أن يحلموا بمثلها ، والأثاث النادر واللوحات الجميلة وتمثال فينوس الكبير ، كل هذا قد أحدث في نفوسهم احتراماً لا سبيل الى مغالبته ، بل وأحدث في نفوسهم ما يشبه الخوف . على أن هذا لم يمنعهم طبعاً من أن يتسللوا الى الصالون وراء روجوين قليلاً قليلاً ، بفضول وقح ، رغم ما شعروا به من خوف . ولكن حين

رأى صاحب القبضتين الضخمتين و « السائل » وبضعة أشخاص آخرين ، حين رأوا الجنرال ايبانتشين بين المدعوين ، خارت قواهم حتى همُّوا أن ينسحبوا الى الغرفة المجاورة ، الا واحداً منهم هو ليبديف الذى لم يتزعزع ، حتى لقد كان يمشى مع روجوين جنباً الى جنب تقريبا ، لادراكه قيمة مبلغ هو مليون واربعمائة ألف روبل يحمل روجوين بيده منه مليوناً كاملاً . يحسن أن نلاحظ مع ذلك أن الجميع ، ومنهم ليبديف العارف بالقانون ، كانوا لا يدركون حدود سلطتهم على وجه الدقة ، ولا يعلمون هل كل شىء مباح لهم الآن حقاً أم هو غير مباح . ففى بعض اللحظات كان ليبديف مستعداً لأن يحلف أن كل شىء مباح ، وفى لحظات أخرى كان ينتابه قلق ويشعر بالحاجة الى أن يتذكر بعض مواد القانون ـ استعداداً للطوارىء ـ ولا سيما المواد التى تشجع وتطمئن .

أما الأثر الذى أحدثه صالون ناستاسيا فيليبوفنا فى نفس روجوين فكان مختلفاً عن الأثر الذى أحدثه فى نفوس أصحابه كل الاختلاف. فانه ما ان أزيحت الستارة أمامه ، فأبصر ناستاسيا فيليبوفنا ، حتى أصبح كل ما عداها لا وجود له فى عالمه ، كما حدث له هذا بعد الظهر ، غير أنه حدث الآن على نحو أتم وأكمل . واصفرَّ وجهه وتوقف لحظةً من الوقت . ان المرء يستطيع أن يتصور شدة خفقان قلبه . حدَّق الى ناستاسيا فيليبوفنا بضع لحظات ، وجلَ الهيئة زائغ العقل ، لا يحوِّل عنها بصره . ثم اقترب من المائدة فجأة كمن فقد عقله وهو يكاد يترنح ، فاصطدم أثناء خطوه بكرسى بتسين وداس بحذاءيه الوسخين شريط الدانتيلا الذى يزيِّن حافة الثوب الأزرق المترف الباذخ الذى ترتديه الألمانية الصموت الرائعة الجمال . فلم يعتذر عن ذلك ، بل ولم يلاحظه . فلما دنا من المائدة وضع عليها شيئاً غريباً كان قد دخل به ممسكاً اياه بيديه كلتيهما. هو حزمة سميكة من ورق ، يبلغ علوُّها نحو اثنى عشر سنتيمتراً ويبلغ

طولها نحو ستة عشر؛ قد لُفّت بعدد من أعداد جريدة «أنباء البورصة» *، وأحكم ربطها بخيط متين . وضع روجويين الحزمة على المائدة ، ووقف، ولبث على هذه الحال متهدل الذراعين لا ينطق بكلمة واحدة ، كالمتهم الذي ينتظر صدور حكم المحكمة . لم تتغير ثيابه التي كان يرتديها بعد الظهر ، فيما عدا منديل من حرير أخضر وأحمر معقود حول عنقه بدبوس ضخم من الماس على شكل فراشة ، وفيما عدا خاتم كبير له فص ضخم من ماس تزدان به اصبع متسخة من أصابع يده اليمنى .

وكان ليبديف قد توقف على مسافة بضع خطوات من المائدة . أما الآخرون فكانوا ، كما سبق أن ذكرنا ذلك ، يتسللون الى الصالون قليلاً قليلاً . وقد هرعت كاتيا وباشا * ، خادمتا ناستاسيا فيليبوفنا ، هرعتا هما أيضاً ، وأخذتا تلقيان من وراء الستارة نظرات مبهوتة قلقة .

قالت ناستاسيا فيليبوفنا تسأل روجويين بعد أن تفرست فيه محدّقة مستطلعة ، قالت تسأله وهي تومىء بعينها الى « الشيء » :

ـ ما هذا ؟

فأجاب روجويين يقول بما يشبه أن يكون زفرة :

ـ مائة الف !

ـ وفى بوعده مع ذلك ... هل رأيتم ؟ اجلس من فضلك ، هنا ، على هذا الكرسي . سأقول لك شيئاً بعد قليل . من هؤلاء الذين جئت بهم؟ كل العصبة التي كانت معك بعد الظهر ؟ طيب ، فليدخلوا . يستطيعون أن يجلسوا على ذلك الديوان هناك ، وعلى هذا الديوان الآخر ، وعلى هذين المقعدين ... ماذا ينتظرون ؟ ما بالهم لا يدخلون ؟ ألا يريدون أن يدخلوا ؟

كان بعضهم قد شعروا بالوجل فعلاً ، فانسحبوا الى الغرفة المجاورة

واستقروا بها ينتظرون الأحداث ، ولكن بعضاً آخر بقوا فجلسوا حيث دعوا الى الجلوس ، مؤثرين مع ذلك أن يظلوا بعيدين عن المائدة ، ولا سيما في الأركان ، فمنهم من لا يزال يرغب في الامحاء فعلاً ، ومنهم من كان يسترد جرأته بسرعة تفوق الحد الطبيعي .

وجلس روجوين على الكرسي الذى عينته له هو أيضاً ، لكنه لم يبق جالساً مدة طويلة ، فما لبث أن عاد ينهض ولم يجلس بعد ذلك . وشيئاً فشيئاً أخذ يميز المدعوين ويتصفح وجوههم . فلما رأى جانيا ابتسم ابتسامة مسمومة ودمدم يقول بينه وبين نفسه : « هه ! » . ولاحظ وجود الجنرال ووجود آتاناذى ايفانوفتش فلم يضطرب أى اضطراب ، بل ولم يشعر بأى استغراب . ولكنه حين أبصر الأمير الى جانب ناستاسيا فيليبوفنا لبث مدةً طويلة لا يستطيع أن يحوّل عنه نظرته المدهوشة ، وكأنه عاجز عن أن يعلل لنفسه هذا اللقاء . ان من يراه يحس فى بعض اللحظات أنه يعانى نوبة هذيان حقاً . فهو ، عدا الانفعالات التى كابدها طوال هذا اليوم ، كان قد قضى الليلة الماضية كلها فى القطار ، ولم يكن قد نام خلال ثمان وأربعين ساعة تقريباً .

قالت ناستاسيا فيليبوفنا وهى تلتفت نحو ضيوفها وقد ظهر فى وجهها تحدٍ زاخرٌ بتململ محموم :

ـ يا سادة ، هذه مائة ألف روبل ! هنا ، فى هذه الحزمة القذرة ! ان هذا الرجل الذى ترون قد صرخ يقول كالمجنون بعد الظهر من هذا اليوم انه سيجيئنى فى المساء بمائة ألف روبل ، وقد انتظرته . انه يجيئنى بالمال ليشترينى . بدأ بثمانية عشر ألف ، ثم ارتفع بوثبة واحدة الى أربعين ألفاً ، ثم ارتفع أخيراً الى المائة ألف التى ترون . لقد وفى بوعده على كل حال ! هيه .. ما أشد اصفرار وجهه !.. حدث هذا كله منذ مدة قصيرة فى بيت جانيتشكا . ذهبت الى الأسرة التى كانت ستصير أسرتى ، ذهبت

أزور أمَّه ، فاذا بأخته تصرخ في وجهي قائلة : « هل يمكن ألا يكون هناك أحد يُخرج هذه الوقحة ؟ » • ورمت وجه أخيها بصفة في الوقت نفسه • قوية الشكيمة !

قال الجنرال بلهجة العتب ، وقد أخذ يفهم القضية قليلاً على طريقته:

ـ ناستاسيا فيليبوفنا !

فقالت ناستاسيا :

ـ ماذا يا جنرال ؟ أتراك تعدُّ كلامي هذا غير لائق ؟ كفاني تمثيلاً ! لقد ظللت سنين ، في شرفتي من « المسرح الفرنسي » ، أعرض نفسي مثالاً للفضيلة التي لا سبيل الى الاقتراب منها ، وظللت أفرُّ كالمتوحشة من جميع أولئك الذين كانوا يلاحقونني ويطاردونني ، وظللت اصطنع هيئة البراءة المتكبرة المتعالية ، فما كان ذلك كله الا سخافة وجنوناً ! انظر ••• لقد جاء رغم ذلك ، رغم تلك السنين الخمس التي قضيتها متمسكةً بأهداب الفضيلة ، جاء يضع المائة ألف روبل على المائدة ؟ ولا شك في أنهم أعدوا عربات الترويكا ، وأن العربات تنتظرني • لقد قدَّر لي سعراً هو مائة ألف روبل ! يا جانيتشكا ، أرى أنك ما تزال غاضباً مني • ولكن هل صحيح أنك أردت أن تدخلني في أسرتك ، أنا التي « أصلح لأمثال روجويين » ! ألم تسمع ما قاله الأمير منذ قليل ؟

تمتم الأمير بصوت مختلج :

ـ أنا لم أقل انك تصلحين لروجويين ؟ أنت لم تُخلقي لمثل روجويين •

انفجرت داريا ألكسيفنا تقول فجأة :

ـ ناستاسيا فيليبوفنا ! كفى يا عزيزتي ! كفى يا يمامتي ! اذا صحَّ أنك أصبحت لا تطيقينهم ، فما الذي يحملك على مداراتهم ؟ ولكن هل من الممكن أن تقبلي الرحيل مع هذا الرجل ، ولو في سبيل مائة ألف

روبل ؟ صحيح أن مائة ألف روبل ليست شيئاً يسيراً ! ولكن ما عليك الا أن تأخذيها ، هذه المائة ألف روبل ، ثم تتخلصى من الرجل الذى قدمها اليك . ذلك ما يجب فعله مع أمثال هـؤلاء النـاس . لو كنت فى مكانك لعرفت كيف أسيّرهم جميعاً ...

كانت داريا ألكسيفنا قد بلغت حدّ الغضب . انها امرأة طيبة القلب، سريعة التأثر .

قالت لها ناستاسيا فيليبوفنا مبتسمة :

ـ لا تغضبى يا داريا ألكسيفنا ! لقد كلمت جانيا دون غضب . هل وجهت اليه أى لوم ؟ صحيح أننى لا أستطيع أن أفهم الآن كيف أمكن أن أبلغ من الغباء حدّ الطمع فى الدخول الى أسرة كريمة شريفة . لقد رأيت أمه ، وقبلت يدها . أما عن سلوكى فى بيتك يا جانيتشكا فقد تعمدته تعمداً ، من أجل أن أدرك ، مرةً أخيرة ، المدى الذى يمكن أن تمضى اليه : وانى لأعترف لك بأنك أثرت دهشتى . كنت أتوقع أشياء كثيرة . لكننى لم أتوقع هذا ! كيف تريد أن تتزوجنى وأنت تعلم أنه قـدّم الىّ لآلىء كتلك اللآلىء عشية زواجك تقريباً ، واننى قبلت أخذها ؟ وروجوين؟ انه فى بيتك نفسه ، أمام أمك وأختك ، انما ساوم علىّ . ورغم ذلك جئت تطلبنى للزواج ، حتى لتكاد تصطحب اختك . أصحيح اذن ما قاله عنك روجوين من أنك مستعد فى سبيل ثلاثة روبلات أن تزحف منبطحاً على بطنك حتى جزيرة فاسيلفسكى ؟ *

قال روجوين فجأة بصوت خافت ، ولكن بلهجة فيها اقتناع كامل :

ـ انه مستعد أن يفعل ذلك !

وتابعت ناستاسيا فيليبوفنا كلامها تقول :

ـ لو كنت تموت جوعاً لعذرتك . ولكن يظهر أنك تقبض رواتب طيبة ! ثم انك ، عدا العار ، لا ترفض أن تتزوج امرأة تكرهها (ذلك أنك

تكرهني ، فأنا أعرف ذلك حق المعـرفة) . لا ، لا ، انني مسـتعدة لأن أصدّق الآن أن رجلاً مثلك يمكن أن يقتل في سـبيل أن يحصـل على مال ! هذا شأن جميع الناس الآن . انهم ظامئون الى المال ظمأً يفقدهم عقـولهم ! حتى الأطفـال يحلمون بأن يكونوا مرابين ؟ أو هم يأخذون سكيناً فيلفونها بحرير ، ويتسللون بهدوء ورفق وراء رفيق لهم ليذبحوه كما يُذبح خروف * . قرأت عن هذا حديثاً . يمكن أن توصف بأنك رجل لا حياء له. وأنا أيضاً امرأة بغير حياء ، ولكنك أسوأ مني. أما صاحب باقة الأزهار ، فلا أتكلم عنه الآن ...

هتف الجنرال يقول آسفاً أشد الأسف :

ـ أأنت من أسمع ياناستاسيا فيليبوفنا ؟ أتقولين مثل هذا الكلام ، أنت ذات الشعور الرقيق ، والفكر المرهف ؟ ما هذه اللغة ؟ ما هذه التعابير ؟

أخذت ناستاسيا فيليبوفنا تضحك قائلة :

ـ أنا الآن سـكرى يا جنرال ، أحب أن ألهو وأقصف ! ان هذا اليـوم يومي ، هو يوم عيـدي ، هو يوم فرحي الذي انتظرته طويلاً ! يا داريا ألكسيفنا ، انك ترينه ، ذلك السيد ، « صاحب أزهار الكاميليا » ، الذي يضحك هناك ، الذي يضحك منا ...

ـ أنا لا أضحك يا ناستاسـيا فيليبـوفنا . أنا لا أزيد على أن أصغي بأكبر انتباه .

كذلك ردَّ توتسكي على ناستاسيا فيليبوفنا بوقار ورصانة . وتابعت ناستاسيا كلامها تقول :

ـ انك ترينه . لماذا عذبتـه طوال خمس سـنين دون أن أردَّ اليه حريته ؟ هل كان يستحق مني ذلك العناء كله ؟ انه ما يجب أن يكون ، لا أكثر من ذلك ولا أقل ... ولسوف يحكم عليَّ بأنني أنا المذنبـة في حقه . لقد ضمن لي تنشئةً راقية وتربيـة عاليـة ... وعالني كما تُعال

كونتيسة ، وما أكثر ما أنفق في سبيلي من مال ! حتى لقد عثر لي هناك على رجل شريف ليتزوجني ، وعثر لي هنا على جانيتشكا . وفوق ذلك كله ، هل تصدقين أنني لم أعاشره خلال تلك السنين الخمس كلها ، وانما كنت آخذ ماله وأظنني صاحبة حق فيه ؟ الى هذا الحد اختلطت في عقلي الأمور! تقولين لي ان عليَّ أن آخذ المائة ألف روبل وأن أطرد هذا الشاب الذي يهديها اليَّ اذا كنت أشمئز منه . الحق أنني أشمئز ... لقد كان في وسعي أن أتزوج ، منذ زمن طويل ... وكان في وسعي أن أتزوج رجلاً خيراً من جانيا ، ولكن ذلك أيضاً كان يثير اشمئزازي . لماذا قضيت اذن هذه السنين الخمس أشحذ كرهي وأغذي بغضي ؟ هل تصدقين أنني بلغت حدَّ التساؤل أحياناً منذ أربع سنين: « لماذا لا أتزوج صاحبي آتانازي ايفانوفتش ؟ » . كان ذلك يخطر ببالي من قبيل الحقد والشر . الله يعلم ما الذي كان يجول في فكري حينذاك ! وكنت أستطيع طبعاً أن أجبره على أن يتزوجني ! هو نفسه كان لا يرجو خيراً من ذلك ، هل تصدقين ؟ صحيح أنه كان يكذب ولكنه كان ملتهباً فلا يطيق صبراً . أحمد الله على أنني قد أتيح لي أن أفكّر فانتهيت الى أنه لا يستحق مني كل ذلك الكره! فبلغت عندئذ من شدة الاشمئزاز منه أنني لو طلب أن يتزوجني لرفضت. واستمر ذلك التمثيل خمس سنين ! لا ، لا ، من الأفضل أن أنزل الى الشارع ، فهناك مكاني ! أو أن ألهو وأقصف مع روجوين ، أو أن أعمل غسّالة منذ الغد ! ذلك أن كل ما أحمله ليس ملكي ، فاذا انصرفت رميت له كل شيء ، كل شيء ، حتى آخر خرقة ، ومن ذا الذي يمكن أن يريدني بعد ذلك ، بعد أن أصبح فقيرة معدمة ؟ اسألي جانيا هل يريدني بعد أن أفعل هذا ؟ حتى فردشتينكو لن يقبل ! ...

قاطعها فردشتينكو قائلاً :

ـ جائز ألا يرغب فيك فردشتينكو ! انني رجل صريح ! ولكن في

مقابل ذلك ، يمكن أن يتزوجك الأمير فى هذه الحالة . انك الآن تشتكين، فهلاّ نظرت الى الأمير ! انني أراقبه منذ مدة طويلة ...

التفتت ناستاسيا فيليبوفنا الى الأمير مستطلعة ، وسألته :

ـ أهذا صحيح ؟

فقال الأمير لاهثاً :

ـ صحيح .

ـ أتتزوجنى كما أنا ، بدون شيء ؟

ـ نعم يا ناستاسيا فيليبوفنا ...

دمدم الجنرال يقول :

ـ وهذا شيء جديد !... كان يمكن أن نتوقع ذلك !

وحدّق الأمير بنظرة قاسية أليمة نافذة الى وجه ناستاسيا التى ماتزال تتفرس فيه .

قالت وهى تلتفت نحو داريا ألكسيفنا من جديد :

ـ هذا شخص آخر يتقدم ! وانه ليفعل راضياً ، أنا أعرف ذلك . لقد وجدت محسناً ، وان يكن صحيحاً فى أغلب الظن ما يقال من أنه .. قليلاً ! ولكن بأى مورد تقدّر أن تعيش يا أمير اذا بلغ بك الحب مبلغ اتخاذى زوجةً لك ، أنا التى أصلح لمثل روجوين ؟...

قال الأمير :

ـ أنا أعدك امرأة صالحة شريفة يا ناستاسيا فيليبوفنا ، وأنت لا تصلحين لروجوين ولا خُلقت لمثله .

ـ أنا ؟ انا امرأة صالحة شريفة ؟ أنا ؟

ـ أنت .

ـ أوه !... هذا كلام خيالي مستمد من الروايات !.. هذه حكايات قديمة يا أمير ، يا صديقي . لقد أصبح النـاس في هذه الأيام أعظم ذكاء وأشـد فطنة ، وما ذلك كله الا سـفاسف وترهات ! ثم ... أيّ زوج عساك تكون أنت الذي ما تزال في حاجة الى مربية تُعنى بأمرك ؟

نهض الأمير وقال بصوت مختلج وجل ، ولكن بلهجة تعبر في الوقت نفسه عن اقتناع عميق :

ـ أنا لا أعرف شيئاً يا ناستاسيا فيليبوفنا ... أنا لم أر شيئاً ... انك على حق .... ولكنني ... أعتقد أنك أنت التي تسبغين عليّ شرفاً اذا ارتضيتني زوجـاً . أنا لست شـيئاً . أما أنت فأنت قد تألمت ، وأنت قد خرجت طاهرة نقيـة من جحيم كهـذا الجحيم . وذلك شيء كثير . لماذا تشعرين بالعار وتريدين أن ترحلي مع روجوجين ؟ انها الحمى ... لقد رددت الى السيد توتسكي السبعين ألف روبل، وأنت تقولين انك سـتتركين له كل شيء ، كل ما هو موجود في هذا المكان . ما من أحد هنا قادر على أن يفعل ما تفعلين . انني ... يا ناستاسيا فيليبوفنا ... انني أحبك . أنا مستعد لأن أموت في سبيلك يا ناستاسيا فيليبوفنا . لن أسـمح لأحد أن يقول فيك كلمة سوء يا ناستاسيا فيليبوفنا ... واذا كنا فقيرين ، فلسوف أعمل يا ناستاسيا فيليبوفنا ...

هنا سُمع صوت فردشتينكو وليبديف يضحكان ساخرين . واستاء الجنرال نفسه فأصدر هذا الصوت « هِمْ » ! ولم يستطع بتسين وتوتسكي أن يمتنعا عن التبسم ، ولكنهما لم يلبثا أن كبحا ابتسـامتهما . أما سـائر الحضور فكانوا فاغري الأفواه من الدهشة .

وتابع الأمير يقول بذلك الصوت الوجل نفسه :

ـ ولكن من الجائز ألا نكون فقيرين البتة ، بل غنيين جداً يا ناستاسيا فيليبوفنا . على أنني لست متأكداً من شيء . يؤسفني انني لم أستطع حتى الآن أن أعرف شيئاً طوال هذا اليوم ، ولكنني تلقيت وأنا بسويسرا رسالةً من موسكو بعث بها اليَّ رجل اسمه السيد سالازكين، وفيها يبلغني أن عليَّ أن أطالب بحقي في ميراث يظهر أنه ضخم جداً . اليك الرسالة ...

وأخرج الأمير من جيبه رسالةً بالفعل .

دمدم الجنرال يقول :

ـ أليس هذا هذياناً ؟ أترانا في مستشفى مجانين ؟

وخيم الصمت لحظة .

سأل بتسين :

ـ هل قلت ان الرسالة قد بعثها اليك سالازكين يا أمير ؟ هذا رجل معروف جداً في بيئتنا ، هو رجل مشهور من رجال الأعمال ، فاذا صحَّ أنه هو الذي بعث اليك بهذه الرسالة ، فان في وسعك أن تثق به كل الثقة ، وأن تطمئن اليه كل الاطمئنان . من حسن الحظ أنني أعرف توقيعه ، فقد كان لي عمل معه في الآونة الأخيرة . فاذا سمحت لي أن ألقي على الرسالة نظرة فقد أضيء لك الأمر .

مدَّ الأمير اليه الظرف صامتاً ، بيد مرتعشة .

وانتفض الجنرال قائلاً وهو يلقي على الحضور نظرة مبهوتة :

ـ ماذا ؟ ماذا ؟ أميراثٌ حقاً ؟

وانصبت جميع الأنظار على بتسين بينما هو يقرأ الرسالة . لقد ألهبت الرسالة فضول الحاضرين بنار جديدة . أصبح فردشتينكو لا يستطيع

الاستقرار فى مكانه • وصعق روجويين فهو يلقى نظرات حائرة مضطربة قلقة على الأمير تارة وعلى بتسين تارة أخرى ، وينقل بصره بينهما بغير توقف • وأصبحت داريا ألكسيفنا أثناء هذا الانتظار كالجالسة على ابر • ونفد صبر ليبديف نفسه فترك ركنه ، وحنى جسمه نصفين يحاول أن يقرأ الرسالة من فوق كتف بتسين ، وكأنه يتوقع أن يُصفع صفعة قوية من لحظة الى أخرى معاقبةً له على فضوله •

الفصل السادس عشر

أعلن بتسين أخيراً وهو يطوى الرسالة ويردها الى الأمير ، أعلن يقول :

ـ هذه قضية مؤكدة . سوف ترث ، دون القيام بأى مسعى خاص ، ثروة طائلة جداً ، الت اليك من خالتك في وصية لا مجال للطعن فيها على الاطلاق .

صاح الجنرال يقول :

ـ غير معقول !

وكان انطلاق صيحته أشبه بدوى انفجار .

ولبث الآخرون فاغرى الأفواه من التعجب .

عندئذ أخذ بتسين يشرح الأمر ، مخاطباً ايفان فيدوروفتش خاصة ، فقال ان للأمير خالة ماتت منذ خمسة أشهر ، هى الأخت الكبرى لأمه ، ولكن الأمير لا يعرفها معرفة شخصية ولم يرها فى يوم من الأيام ؛ وهى من أسرة بابوشين ، وكان أبوها تاجراً من الطبقة الثالثة بموسكو ، أفلس ثم مات فقيراً معوزاً ؛ وكان الأخ الأكبر لهذا الرجل ، وقد مات منذ مدة قصيرة ، يحتل مكاناً عالياً فى عالم التجارة . فلما مات ابناه منذ سنة فى غضون شهر واحد ، مرض من شدة الحزن مرضاً شديداً ومات . وكان أرمل ، وليس له الا وريث واحد هو ابنة أخيه ، خالة الأمير ، التى كانت امرأة فقيرة جداً تعيش فى بيت أناس غرباء . وحين آل اليها هذا الميراث

كانت مصابة بداء الاستسقاء وكانت تُحتضر . لكنها أسرعت تكلف سالازكين بأن يبحث عن الأمير ، حتى لقد اتسع وقتها لأن تكتب وصيتها. ويبدو أنه لا الأمير ولا الطبيب الذى كان ضيفاً عليه بسويسرا أرادا أن ينتظرا الابلاغ الرسمى أو أن يعمدا الى التثبت من الأمر : وانما وضع الأمير الرسالة فى جيبه وقرر أن يجيء الى روسيا ...

وختم بتسين كلامه مخاطباً الأمير فقال :

ـ الشيء الوحيد الذى أستطيع أن أقوله لك هو أن هذا الأمر كله لا بد أن يكون ثابتاً لا جدال فيه لا من جهة الواقع ولا من جهة الحق ، وان فى امكانك أن تعد أقوال سالازكين فى هذا الموضوع بمثابة مال فى جيبك . أهنئك يا أمير . من الجائز أن تنال أنت أيضاً مليوناً ونصف مليون ، ان لم يكن أكثر من ذلك . لقد كان بابوشكين واسع الثراء .

جأر فردشتينكو يقول :

ـ مرحى لآخر رجل من سلالة الأمراء ميشكين .

وأعول ليديف يقول بصوت مخمور أبحّ :

ـ مرحى !

وقال الجنرال مصعوقاً من الدهشة :

ـ وأنا الذى أقرضته خمسة وعشرين روبلاً كما يُقرض رجل بائس !... هأ هأ هأ !... أمر أغرب من الخيال !... طيب !... تهانيّ يا عزيزى ، تهانيّ !...

قال الجنرال ذلك ونهض متجهاً نحو الأمير ليقبّله . واقتدى به آخرون فاسرعوا يحدقون جميعاً بالأمير . وحتى أولئك الذين كانوا قد انسحبوا الى الغرفة المجاورة أخذوا يظهرون فى الصالون من جديد . وقامت ضوضاء مضطربة ، فمن أحاديث مبهمة ، الى صيحات تعجب ، بل

والى صرخات نداء تطالب بشامبانيا . وأخذ الحضور يتزاحمون ويصدم بعضهم بعضاً كأنما أصابتهم جميعاً حمى . حتى لقد كادوا ينسون ناستاسيا فيليبوفنا خلال برهة من الوقت ، وكادوا ينسون أنها سيدة في بيتها رغم كل شيء . ولكنهم تذكروا شيئاً بعد شيء ، في وقت واحد على وجه التقريب ، أن الأمير قد عرض عليها منذ هنيهة أن يتزوجها . فاذا بهذا التذكر يفاقم الحالة ويجعل الوضع أشد امعاناً في الجنون . وقد دُهش توتسكي أعمق الدهشة ، لكنه كان لا يزيد على أن يرفع كتفيه ، حتى ليكاد يكون الشخص الوحيد الذي ظل جالساً . أما الآخرون فقد كانوا جميعاً يحتشدون حول المائدة فوضى . ولقد أكدوا فيما بعد أن ناستاسيا فيليبوفنا انما فقدت عقلها في تلك البرهة .

كانت ناستاسيا فيليبوفنا قد لبثت جالسة ، وظلت بعض الوقت تجيل على الحضور نظرة غريبة مدهوشة ، كأنها لم تفهم ما حدث ، فهي تبذل جهوداً كبيرة من أجل أن تدركه . ثم التفتت الى الأمير فجأة ، فحدقت اليه باتنباه ، عابسة مهددة . ولكن ذلك لم يدم الا لحظة قصيرة . فلعلها قد ظنت أن الأمر لم يكن الا مزاحاً أو سخرية ، حتى اذا رأت الأمير تخلصت من ذلك الوهم بسرعة ، وعادت الى الوجوم والتفكير ؟ وها هي ذي الآن تبتسم وكأنها لا تعرف كثيراً لماذا تبتسم ...

ودمدمت تقول بلهجة ساخرة :

ــ اذن سأصبح أميرة حقاً !

وألقت نظرة على داريا ألكسيفنا دون ارادة منها ، ثم انفجرت تضحك . وتابعت كلامها فقالت :

ــ هذه خاتمة لم تكن في الحسبان ... ليس ... ليس هذا ما كنت أتوقعه ... هيه أيها السادة ! ما بالكم تظلون واقفين ، هلا تفضلتم فجلستم وهنأتمونا أنا والأمير ! يخيل الي أن أحداً قد طلب شامبانيا .

هلاَّ أصدرت أوامرك يافردشـتينكو ؟ يا كاتيـا ، ويا باشا (هكذا نادت خادمتيها حين لمحتهما فجأة على الباب) تقدَّما الىَّ ! سوف أتزوج ، هل سمعتما ؟ سوف أتزوج الأمير ، انه يملك مليوناً ونصف مليون ؛ هو الأمير ميشكين ، وسوف يتزوجني !

هتفت داريا ألكسيفنا تقول وقد هزتها هذه الأحداث هزاً عميقاً :

ـ وليكن الله معك ! لقد آن الأوان ...

تابعت ناستاسيا فيليبوفنا كلامها :

ـ طيب يا أمير ... اجلس بقربي ، هنا ، واليك الشمبانيا . وهيَّا يا سادة ، اشربوا نخب صحتنا !

أعولت أصوات كثيرة تهتف :

ـ مرحى !

واحتشد عدد كبير من الحضور حول زجاجات الشمبانيا ، واحتشد حولها خاصةً جميع أفراد عصبة روجوين على وجه التقريب . غير أن كثيراً من الحضور قد أحسوا ، رغم صراخهم ، ورغم استعدادهم لمزيد من الصراخ ، أن الجو قد أخذ يتغير ، على ما كان في الأحداث من غموض وابهام ؛ واضطرب بعضهم فبدأ ينتظر التتمة مرتاباً قلقاً ؛ وتهامس بعضهم يقول ان الحالة عادية جداً ، وان الأمراء كثيراً ما يتزوج احدهم أية امرأة، حتى لقد يتزوج فتاة غجرية يختطفها اختطافاً .

أما روجوين فقد كان جامداً ساكناً يراقب المشهد وقد انعقف وجهه بتجعيدة حيرى .

وجاء الجنرال الى الأمير خلسةً من جانب ، وهمس يقول له مرتعباً وهو يشده من كمه :

ـ يا أمير ، يا عزيزي ، ثب الى رشدك !

فرأته ناستاسيا فيليبوفنا وسمعت كلمـاته ، فاذا هي تنفجر ضاحكةً ضحكاً مجلجلاً ، وتقول :

ـ لا يا جنرال ، أنا نفسي الآن أميرة ، سمعتَ ذلك بأذنيك ، ولن يسمح الأمير الآن بأن أُهان. يا آتانازى ايفانوفتش، أنت على الأقل هنئني. سـوف أسـتطيع بعد الآن أن أجلس في كل مكان الى جانب زوجتك . ما رأيك ؟ أليس لمثل هذا الزوج نفع ؟ مليون ونصف مليون ... وهو عدا ذلك أمير ... وفوق هذا كله يقال انه أبله ... فهل هناك ما هو خير من ذلك ؟ الآن انما سـتبدأ الحيـاة حقاً ! فات الأوان يا روجوين ، جئتَ متأخراً ! خذ حزمتك . سوف أتزوج الأمير . أنا أغنى منك .

لكن روجوين كان قد أدرك أخيراً ما يجرى . فارتسمت على وجهه علامات ألمٍ لا سبيل الى مغالبتـه ، وضمَّ يديه احـداهما الى الأخـرى متضرعاً ، وأفلتت من صدره أنة توجع ، ثم هتف يقول للأمير :

ـ تنازل عن طلبك !

فأخذ الحضور يضحكون من حوله .

وانبرت داريا ألكسيفنا تجيب منتصرةً :

ـ يتنازل لك أنت طبعـاً ، أليس كذلك ؟ انظروا الى هذا الفـلاح الذى يُلقى ماله على المائدة ! ان الأمير يتخذها زوجة له ، أما أنت فتجيء لفضيحة !

ـ أنا أيضاً أتزوجها . فوراً . في هذه اللحظة . وسوف أدفع كل شيء ...

قالت داريا ألكسيفنا مستاءةً :

ـ انظروا الى هذا السكران الخارج من الخمَّارة ! يجب أن يُطرد !

واشتد الضحك .

فقالت ناستاسيا فيليبوفنا وهي تلتفت نحو الأمير :

ـ هل تسمع يا أمير ؟ انظر كيف يساوم فلاح ليشتري خطيبته !

قال الأمير :

ـ انه سكران ، وهو يحبك كثيراً .

ـ ألن تخجل من أن خطيبتك قد أوشكت أن تهرب مع روجوين ؟

ـ كنت تعانين من حمى ً وما تزالين ، فكأنك كنت تهذين .

ـ ألن تخجل أيضاً حين يقال لك في المستقبل ان زوجتك كان يعولها توتسكي خليلة ً له ؟

ـ لا ، لن أخجل !... ان ذلك لم يحدث بارادتك !

ـ ألن تأخذ علي ّ هذا الأمر في يوم من الأيام ؟

ـ أبداً !

ـ انتبه ! لا تور ّط نفسك على مدى الحياة !

قال الأمير برفق وهدوء ، وبعاطفة تشبه أن تكون شفقة :

ـ ناستاسيا فيليبوفنا ، لقد قلت لك منذ لحظة انني أعد موافقتك شرفاً لي ، وانك أنت التي تشرفينني ، لا العكس ! وقد ابتسمت أنت لأقوالي هذه ، وسمعت ُ من حولي ضحكات. جائز ٌ أن تعبيري كان مضحكاً جداً ، وأنني كنت أنا نفسي مضحكاً جداً ، لكنني أعتقد بأنني أفهم أين هو الشرف ، وأنا على يقين من أنني قلت الحقيقة . منذ قليل ، كنت تريدين أن تضيّعي نفسك تضييعاً لا عودة منه ولا رجعة عنه ، لأنك لو فعلت لما غفرت لنفسك ذلك السلوك في يوم من الأيام . وأنت مع ذلك لم تأثمي في شيء . يستحيل أن تكون حياتك قد ضاعت ضياعاً تاماً . ما قيمة أن يكون روجوين قد سعى اليك ، وما قيمة أن يكون جبريل آرداليونتش قد حاول أن يخدعك ؟ علام العودة الى هذا بغير انقطاع ؟ ان ما فعلته أنت

لا يقدر عليه الا قليل من الناس ، أكرر لك هذا . أما الرحيل مع روجويين فقد اتخذت فيه قرارات وأنت مريضة . وانك ما تزالين مريضه الى الآن ، وما تزالين تعانين من حمّى ، وخير ما يمكن أن تفعليه في هذه اللحظة هو أن تمضى الى فراشك فتنامي . ولو قد تبعت روجويين لتركه منذ الغداة ومضيت تعملين غسّالة . انك ذات كبرياء وشمم يا ناستاسيا فيليبوفنا ؟ ولسوف أعتنى بك وأسهر عليك . في هذا الصباح ، حين رأيت صورتك ، أحسست أنني أرى وجها أعرفه . لقد شعرت فوراً بأنك قد سبق أن ناديتني ... سوف ... سوف أحترمك كثيراً يا ناستاسيا فيليبوفنا .

بهذا ختم الأمير كلامه بغتةً على غير توقع ، واحمر وجهه حين تذكر نوع الناس الذين كان يتكلم أمامهم .

وكان بتسين قد خفض رأسه حياءً ، وأطرق الى الأرض . وقال توتسكى بينه وبين نفسه : « هو أبله ، نعم ، لكنه يعرف أن لا شيء يساوى المديح . يعرف هذا بالفطرة ! » . ولا حظ الأمير أيضاً ما كان من شرر في نظرة جانيا الذى كان يحدجه من ركنه حانقاً كأنه يريد أن يحيله رماداً .

وهتفت داريا ألكسيفنا تقول وقد فاضت نفسها عاطفة وحناناً :

ـ هذا ما يسمى قلباً طيباً !

ودمدم الجنرال يقول بصوت خافت :

ـ رجل مثقف ، لكنه ضائع !

وقالت ناستاسيا فيليبوفنا :

ـ شكراً * يا أمير ؟ ما من أحد قال لى مثل هذا الكلام حتى الآن. كانوا يضعون لى سعراً ويحدّدون لى ثمناً ، ولكن ما من رجل شريف

طلبني للزواج في يوم من الأيام . هل سمعته يا آتانازى ايفانوفتش ؟ ماهو الأثر الذى أحدثته فى نفسك كلمات الأمير ؟ أغلب الظن أنك تجد هذا كله يكاد يكون بعيداً عن اللياقة والحشمة ؟.. يا روجويين ، انتظر لحظة ! على كل حال ، لا أرى أنك تنوى الانصراف . ما يزال من الجائز أن أرحل معك . الى أين كنت تريد أن تأخذني ؟

فقال ليبديف من الركن الذى هو فيه :

ـ الى ايكاتيرنهوف * .

بينما لم يزد روجوبين على أن ارتعش ، وكان ينظر بكل عينيه وكأنه لا يصدّق أذنيه . كان مصعوقاً كمن ضرب على رأسه بغتةً .

وهتفت داريا ألكسيفنا تقول مروّعة :

ـ ما هذا الذى تقولينه يا عزيزى ؟ أتراك جُننت ؟

فصاحت ناستاسيا فيليبوفنا تقول وقد انفجرت ضاحكة ونهضت واثبه:

ـ هل أخذت كلامى مأخذ الجد اذن ؟ أأنا أرضى أن أضيّع حياة برىء ؟ ذلك أمر خليق بأن يفعله آتانازى ايفانوفتش . فهو امرؤ يحب أن يفسد على الأبرياء حياتهم . هلمّ نرحل يا روجويين . هيىء حزمة الأوراق المالية ! ليس أمراً هاماً أن تريد أن تتزوجنى . حسبك أن تدفع مالاً . ومن الجائز ألا أقبل أن أتزوجك . هل تصورت أن تقدم لى الزواج وأن تحتفظ لنفسك بالمال ؟ لست غبيةً الى هذا الحد . أنا أيضاً قليلة الحياء خالعة العذار ! لقد كنت خليلة توتسكى أعاشره سفاحاً !.. يا أمير ، أنت الآن فى حاجة الى آجلايا ايبانتشين لا الى ناستاسيا فيليبوفنا. ولو ارتكبت هذه الحماقة لأصبحت مضغةً فى الأفواه ، ولأشار اليك باصبعه حتى رجلٌ مثل فردشتينكو ! أأنت لا تخشى ذلك ؟ ولكننى أنا أخاف أن أكون سبب ضياعك ، وأخاف أن تلومنى على هذا فى المستقبل . أما ما تقوله عن الشرف الذى أُسبغه عليك اذا أنا تزوجتك ، فان توتسكى

يعرف من أمر هذا الشرف ما يجب أن يُعرف ! أما أنت يا جانيتشكا فقد خسرت آجلايا ايبانتشين . هل تعلم ذلك ؟ لولا أنك ساومت معها ، لتزوجتك حتماً . هكذا أنتم جميعاً . ينبغي لكم أن تختاروا بين المرأة الشريفة والغانية البغي ، وليس ثمة خيار آخر ! فان لم تفعلوا ذلك تحيرتم وارتبكتم واختلطت أموركم ... انظروا الى الجنرال كيف ما يزال فاغراً فاه !

قال الجنرال مردّداً وهو يرفع منكبيه :

ـ هذه مدينة سدوم ، هذه مدينة سدوم !..

كان الجنرال قد نهض هو أيضاً . وكان جميع الحضور قد وقفوا على كل حال . وكانت ناستاسيا كمن جُنّ جنونها .

قال الأمير في أنين وهو يلوى يديه حسرةً ولوعة :

ـ أهذا ممكن ؟

فردّت ناستاسيا فيليبوفنا تقول :

ـ أكنت تظنه مستحيلاً ؟ قد أكون أنا نفسى ذات كبرياء وشمم ، مهما أكن قليلة الحياء خالعة العذار ! لقد قلتَ منذ هنيهة انني امرأة كاملة. يا لهذه المرأة الكاملة التى تلقى بنفسها فى الوحل لا لشىء الا أن تفخر بأنها ركلت بالقدمين مليوناً ولقب أمير ! أأنا أصلح لك زوجةً بعد هذا ؟ يا آتانازى ايفانوفتش ، لقد رميتُ المليون من النافذة فعلاً ، فكيف أمكنك أن تتصور أننى سأعد نفسى سعيدة بأن أتزوج جانيتشكا مدفوعةً الى ذلك باغراء الخمسة وسبعين ألف روبل التى تدفعها ؟ خذها ، خذ روبلاتك البالغة خمسة وسبعين ألفاً يا آتانازى ايفانوفتش (انك لم توصلها حتى الى مائة ألف ، فتفوّق عليك روجوين). أما جانيتشكا فسوف أتولى مواساته بنفسى . لقد خطرت ببالى فكرة . والآن أريد أن ألهو وأقصف.

ألست من بنات الشوارع ؟ قضيت عشر سنين في سجن . وقد آن لى أن أصبح سعيدة . هلمَّ يا روجوين ، هيء نفسك ! لنرحل !

فزأر روجوين يقول وقد كاد يُجنُّ فرحاً :

ـ لنرحل ! هيه ! أنتم ... نريد خمراً ! أف !...

ـ هيء خمراً . سوف أشرب . وهل سنسمع موسيقا ؟

ـ نعم ، سنسمع موسيقا ، سنسمع موسيقا ...

كذلك أجاب روجوين ، فلما رأى داريا الكسيفنا تتقدم نحو ناستاسيا فيليبوفنا ، جأر يتابع كلامه قائلاً :

ـ لا تقتربى ! لا تقتربى ! انها لى أنا ! كل شيء لى أنا ! هى ملكتى! انتهى الأمر !

كان يختنق فرحاً . وكان يدور حول ناستاسيا فيليبوفنا صارخاً يقول لكل واحد : « لا تقترب ! » . وقد تجمعت عصبته كلها فى الصالون . فبعضهم يشرب ، وبعضهم يصرخ ويضحك ضحكاً صاخباً ، وجميعهم مهتاج يشعر بفرح غامر . وكان فردشتينكو يحاول منذ ذلك الحين أن يجد له مكاناً بينهم .

وتحرك الجنرال وتوتسكى مرةً أخرى يريدان أن يسحبا . وكان جانيا قد حمل قبعته بيده هو أيضاً ، لكنه ظل أخرس لا ينطق بحرف ، وظل جامداً لا يتحرك ، كأنه عاجز عن انتزاع نفسه من المشهد الذى يجرى أمامه .

ـ لا تقترب !

كذلك كان يجأر روجوين .

فانفجرت ناستاسيا تضحك وتقول له :

ـ مابالك تعول هذا الاعوال؟ أنا ما زلت فىداري سيدة نفسى. تكفى

اشـارة واحدة منى حتى تُطرد شر طردة . أنا لمَّا آخـذ مالك بعد . ما يزال المال فى مكانه . هاته الى هنا . أعطنى الحزمة كلها . أهذه الحزمة هى التى تضم مائة ألف روبل ؟ فظاعة ! ولكن ماذا بك يا داريا ألكسيفنا ؟ أكان يجب علىَّ حقاً أن أفسد حياته ؟ (سألت هذا السؤال وهى تومىء الى الأمير) . كيف يمكنه أن يتزوج وهو ما يزال فى حاجة الى مربية أطفال ؟ سوف ينوب الجنرال عن مربية أطفـال ، سـوف يقـوم له بهذا الدور . انظرى كيف يحوم حوله ويدلّله ! انظر يا أمير : ان خطيبتك قد أخذت المال لأنها مومس ، وأنت كنت تريد أن تتزوجها ! ولكن ما بالك تبكى ؟ أتجد فى هذا مرارة شديدة ؟ أضحك مثلى ...

كذلك تابعت ناستاسيا فيليبوفنا كلامها وقد تلألأت على خديها ، هى أيضاً ، دمعتان كبيرتان . وواصلت تقول :

ـ اتكل على الزمن . سوف ينقضى كل شىء . لأن يغيِّر المرء رأيه الآن خير من أن يغيِّره فى المسـتقبل ... ولكن ما بالكم تبكون جميعاً ؟ هذه كاتيـا قد أخـذت تذرف الدموع هى أيضـاً . لماذا تبكين يا كاتيا ، يا صغيرتى ؟ سوف أترك لكما أنت وباشا أشياء كثيرة . لقد اتخذت لهذا الأمر ما يجب اتخاذه من تدابير . والآن ، وداعاً ! أنت الفتاة الشريفة ، كنت أجبرك على أن تخدمينى أنا العاهرة ! هذا أفضل يا أمير ! حقاً هذا أفضل ! والا فسوف تحتقرنى فى النهاية ، فلا تتحقق لنا سعادة. لا تحلف الأيمـان المغلَّظـة ، فلن أصـدِّقك . ما كان أسخف أن أوافق على أن نتزوج !... لا يا أمير ، ان الأفضـل أن نفترق على صـداقة ، لأننى أنا أيضاً حالمة ، فلو تزوجنا لما كان فى ذلك أى خير ! ألم أحلم بك أنا أيضاً ؟ انك على حق : لقد حلمت بك زمناً طويلاً ، منذ أن كنت بالريف ، عنده. قضيت هناك خمس سنين ، وحيدة تمـاماً . فكنت أنتقل من خواطر الى خواطر ، ومن أحلام الى أحلام ، حتى وصلت الى تصور رجل مثلك ،

طيب ، شريف ، رقيق ، غبي بعض الغباء أيضاً ، يأتيني على حين فجأة فيقول لي : « ما أنت بآثمة يا ناستاسيا فيليبوفنا . انني أحبك وأعبدك ! ».
نعم كنت استرسل في الأحلام أحياناً الى درجة الجنون ! فاذا بهذا الرجل يصل ، ليقضي شهراً أو شهرين كلَّ عام ، ثم يتركني مهانةً ملطخة الشرف بالعار مهتاجةً مدنَّسة . أردت ألف مرة أن ألقي بنفسي في الغدير ، لكنني كنت جبانة ، فأعوزتني الشجاعة ... والآن ، أأنت مستعد يا روجوين ؟

ـ كل شيء مهيأ !

ورددت عدة أصوات تقول :

ـ كل شيء مهيأ !

ـ وعربات الترويكا تنتظر تحت ، مع أجراسها .

تناولت ناستاسيا فيليبوفنا حزمة الأوراق المالية بيديها . وقالت :

ـ يا جانيا ، خطرت ببالي فكرة . أريد أن أعوِّض عليك خسارتك لماذا ينبغي أن تفقد كل شيء ؟ يا روجوين ، هل تعتقد أنه مستعد أن يزحف منبطحاً حتى فاسيلفسكي في سبيل ثلاثة روبلات ؟

ـ نعم ، انه مستعد أن يزحف منبطحاً .

ـ فاسمع اذن يا جانيا . أريد أن أتأمل نفسك مرةً أخيرة . لقد عذبتني طوال ثلاثة أشهر . وجاء الآن دوري أنا . هل ترى هذه الحزمة ؟ انها تضم مائة ألف روبل ! سوف أرميها في الموقد ، على مرأى من جميع الحضور ، ليكونوا كلهم شهوداً . فمتى أمسكت النار بها من كل جهة ، فأسرعْ أنت الى الموقد ، ولكن بدون قفازين ، بل عاري اليدين ، واشمر كمَّك واستلَّ الحزمة من النار . فاذا أفلحت في ذلك كانت المائة ألف روبل لك أنت ! لن يكون عليك الا أن تتحرق أصابعك قليلاً ، ولكن

المكافأة مائة ألف روبل، فكّر في الأمر! هل يستغرق استلالها وقتاً طويلاً؟ لا ... وفي أثناء ذلك سيتاح لي أن أعجب بنبل نفسك وعلوّ همتك، بينما أنت تنشل مالي من النار! الجميع شهود على أن المال سيكون مالك أنت! أما اذا لم تنشل أنت الحزمة من النار فسوف تحترق الحزمة. لن أسمح لأحد بأن ينتشلها. ابتعدوا جميعاً الى وراء، الى وراء! المال مالي أنا! هو ثمن ليلتي مع روجوين! هل هذا المال مالي أنا يا روجوين؟

ـ لك أنت يا فرحتي، لك أنت يا ملكتي!

ـ فابتعدوا اذن الى وراء، ابتعدوا كلكم، أنا أفعل ما أشاء، لا تضايقوني! يا فردشتينكو، حرّك النار لتوريها!

فأجابها فردشتينكو يقول مصعوقاً:

ـ لا تطاوعني يداي يا ناستاسيا فيليبوفنا!

فهتفت ناستاسيا فيليبوفنا تقول:

ـ طيب، طيب.

وأمسكت الملقط، فحرّكت الجمر، حتى اذا ارتفعت ألسنة اللهب، رمت الحزمة في الموقد.

صرخ الجميع، حتى أن كثيرين منهم رسموا على أنفسهم اشارة الصليب. وارتفع من جميع الجهات صياح يهتف:

ـ مجنونة، مجنونة!

وهمس الجنرال في اذن بتسين قائلاً:

ـ أليس الأفضل أن نوثقها بالحبال؟ أو أن نستدعي ... هي مجنونة، أليس كذلك؟ مجنونة حقاً؟

فأجابه بتسين بصوت خافت، شاحبَ الوجه مرتعش الجسم عاجزاً عن تحويل بصره عن الحزمة التي أخذت النار تمسك بها:

ـ لـ ... لا ! ليس هذا بالجنون تماماً .

فاتجه الجنرال عندئذ الى توتسكى يسأله :

ـ مجنونة ، أليست مجنونة ؟

فدمدم ايفانوفتش يقول شاحبَ الوجه هو أيضاً :

ـ ألم أقل لك انها امرأة « طريفة » ؟

ـ مائة ألف روبل !

وسمعت من جميع الجهات صيحات تقول :

ـ يا لطيف يا رب !

احتشد الحضور جميعاً قرب الموقد ، يحاولون جميعاً أن يروا ، ويطلقون جميعاً صيحات الدهشة ... حتى لقد اعتلى بعضهم كراسيَّ وراح ينظر من فوق رءوس الآخرين . وكانت داريا ألكسيفنا قد أسرعت الى الغرفة المجاورة مروّعة الهيئة توشوش كاتيا وباشا . وكانت الألمانية الجميلة قد ولّت هاربة .

جأر ليديف قائلاً وهو يزحف على ركبتيه أمام ناستاسيا فيليبوفنا ، ويمد ذراعيه نحو الموقد :

ـ ماتوشكا ! ايتها الملكة القادرة على كل شيء.. هذه مائة ألف روبل! مائة ألف ! رأيتها بعينى ، حُزمت أمامى ! ماتوشكا الرحيمة ! مرينى فأرمى جسمى كله فى الموقد ، وأضع فى النار رأسى الأشيب !... ان عندى امرأة مريضة ... فاقدة الساقين ... وثلاثة عشر طفلاً هم جميعاً يتامى . لقد دفنت أبى فى الأسبوع الماضى . انهم يتضورون جوعاً . ناستاسيا فيليبوفنا !

كذلك زأزأ ليديف ، وأخذ يزحف نحو الموقد .

فصرخت ناستاسيا فيليبوفنا تقول وهى تدفعه :

ـ الى وراء ! ابتعدوا جميعاً ! ماذا تنتظر يا جانيا ؟ لا تستح ! هلمّ ! هذه فرصتك !

لكن جانيا كان قد تحمل كثيراً خلال ذلك النهار وتلك الليلة ، ولم يكن قد تهيأ لهذا الامتحان الأخير الذى لا يُتوقع ! انشطر الحشد أمامه شطرين ، فاذا جانيا يصبح قبالة ناستاسيا فيليبوفنا وجهاً لوجه ، على مسافة ثلاث خطوات • كانت واقفة عند الموقد تنتظر ، دون أن تحوّل عنه نظرتها الملتهبة الثابتة • ان جانيا يقف الآن برداء « الفراك » ، حاملاً قبعته بيديه، صامتاً لا يجيب ولا يتحرك ، عاقداً ذراعيه على صدره ، يتأمل اللهب •

وكانت ابتسامة تائهة تطوف بوجهه الشاحب شحوباً شديداً •

صحيح أنه كان لا يستطيع أن يحول عينيه عن النار ، وعن الحزمة التى أخذت تسود ، غير أن شيئاً جديداً كان يبدو أنه اجتاح نفسه واستولى عليها • لكأنه حلف ليحتملنّ التعذيب حتى النهاية ، فهو لا يبدى حراكاً؛ حتى أصبح واضحاً للجميع بعد بضع لحظات أنه لن ينتشل الحزمة من النار ، أنه لا يريد ذلك •

وكانت ناستاسيا فيليبوفنا تصرخ قائلة له :

ـ ستحترق الحزمة ، فتكون أنت الملوم ؟ ولتشنقنّ نفسك حزناً وكمداً بعد ذلك • لست أمزح !

ان النار التى نبعت فى أول الأمر من بين حطبتين خامدتين قد بدا عليها بعد ذلك أنها اخذت تنطفىء تحت وطأة الحزمة • غير أن لهباً رقيقاً أزرق ما يزال عالقاً بطرف من الحطبة • وأخيراً جاءت شرارة دقيقة طويلة تمس الحزمة ، ثم تجرى على طوال الورقة التى تلفها حتى زواياها، ثم اذا بالنار تمسك الحزمة كلها فجأة ، فيخرج منها لهب ساطع • واذا بالحضور جميعاً يصيحون !

عاد ليبديف يعول قائلاً وهو يتجه نحو الموقد من جديد :

ـ ماتوشكا !

ولكن روجوين أمسكه ودفعه .

ولم يكن روجوين نفســه الا نظرة جامدة . كان لا يســتطيع أن يحوّل بصره عن ناستاسيا فيليبوفنا . وكان يشعر من ذلك بنشوة وسكر. كان فى السماء السابعة .

كان يهتف قائلاً وقد جُن جنونه ثملاً :

ـ هذه ملكة حقاً ! هذه من بلدنا فعلاً ! من منكم ، يا عصابةً من أوغاد ، يستطيع أن يفعل مثل الذى تفعل ؟

وكان الأمير يراقب المشهد حزيناً صامتاً .

قال فردشتينكو مقترحاً :

ـ أنشلها بأسنانى اذا كوفئت بورقة واحدة قيمتها ألف روبل .

فجأر الرجل ذو القبضتين الضخمتين الذى كان واقفاً وراء الجميع، جأر يقول وقد اعترته نوبة كرب هائلة :

ـ أنا مستعد أن أنتشلها بأسنانى أيضاً .

ثم صاح يقول وقد رأى اللهب :

ـ انها تحترق ! سوف يحترق كل شىء !

وهتف الجميع بصوت واحد :

ـ أخذت تحترق ! أخذت تحترق !

واندفع الجميع تقريباً نحو الموقد . قالت ناستاسيا :

ـ جانيا ! لا داعى الى التحــرج ! لا تستح ! أقول لك هذا اخــر مرة !

أعول فردشتينكو قائلاً وهو يهجم على جانيا كالمسعور ويشده من كمه .

ـ هلمّ أيها المتبجج ! سوف يحترق المال ! أوه ! نحس !

تصدى جانيا لفردشتينكو فدفعه عنه بكل قواه ، واستدار ، ومشى نحو الباب ، لكنه ما ان خطا خطوتين حتى ترنح وسقط على الأرض . فصاح الحضور يقولون :

ـ اغماء !

وعاد ليبديف يزعق ضارعاً :

ـ ماتوشكا ! سوف تحترق !

وزأر الحشد من كل جهة :

ـ سوف تحترق بلا سبب !

وصرخت ناستاسيا فيليبوفنا منادية :

ـ يا كاتيا ، يا باشا ، جيئاه بماء ، وجيئاه بخمرة !

ثم أمسكت الملقط ، وانتشلت الحزمة . كانت الورقة التي تلف الحزمة قد احترقت كلها تقريباً وهلكت ، ولكن أمكن أن يُرى فوراً أن ما بداخلها لم يمسسه أذى . كانت الحزمة ملفوفة بثلاث صحائف من ورق الجرائد ، وكان المال سليماً . تنفس الجميع الصعداء .

قال ليبديف بحنان :

ـ لعل ورقة واحدة بألف روبل قد فسدت ، ذلك في أكثر تقدير . أما الباقي فسليم لم يمسسه سوء .

هتفت ناستاسيا معلنةً وهي تضع الحزمة قرب جانيا :

ـ هذه الأموال كلها له ! الحزمة كلها له ! هل تسمعون كلامي

يا سادة ؟ لقد ملك من القوة ما أتاح له ألا يأخذها • لقد صمد ! هذا دليل على أن كبرياءه ما تزال أكبر من جشعه • لا تقلقوا ، سوف يفيق من اغمائه ! ولولا أنه قد أغمي عليه لكان من الممكن أن يقتلني !••• هه ، ها هو ذا يفيق منذ الآن ! يا جنرال ، يا ايفان بتروفتش ، يا داريا ألكسيفنا ، يا كاتيا ، يا باشا ، يا روجوين ، هل سمعتموني ؟ ان الحزمة كلها له ، له هو ، لجانيا ! أهديها اليه وأملكه اياها ، تعويضاً له ••• عما لا أدري ! قولوا له ذلك ! فلتبق الحزمة بقربه • يا روجوين هلمَّ ، سرْ ! وداعاً يا أمير ، هذه أول مرة أرى فيها كائناً انسانياً ! وداعاً ، آتانازي ايفانوفتش ! و « شكراً » •

وسارت عصبة روجوين كلها نحو باب الخروج بضجة وصخب وضوضاء وصراخ يدوي في البيت كله ، سارت تتبع روجوين وناستاسيا فيليبوفنا •

وفي القاعة ألبستها كاتيا وباشا معطفها ؛ وهرعت الطباخة مارتا من مطبخها • فقبلتهنَّ ناستاسيا فيليبوفنا جميعاً • سألنها وهنَّ يبكين ويقبِّلن يديها :

ـ هل يمكن يا ماتوشكا أن تتركيني حقاً ؟ والى أين عساك تذهبين؟ وفي يوم عيد ميلادك ، في يوم كهذا اليوم ؟

ـ أذهب الى الشارع يا كاتيا ، سمعت ذلك • هناك مكاني • الا أن أعمل غسَّالة • سئمت آتانازي ايفانوفتش • أبلغنه سلامي ، ولا تظنُنَّ بي سوءاً •••

وهرع الأمير نحو باب الخروج • كان الجميع قد أخذوا يستقرون في عربات الترويكا الأربع التي كانت أجراسها تتحرك بغير انقطاع • واستطاع الجنرال أن يدركه في السلَّم • قال له وهو يمسك ذراعه :

ـ ما هذا يا أمير ؟ ثب الى عقلك . اتركها ! لقد رأيتَ كيف هي، أقول لك هذا قولة أب ...

نظر اليه الأمير ولكن دون أن يقول كلمة واحدة . ثم انتزع ذراعه منه ، وهبط السلّم راكضاً .

واستطاع الجنرال وهو واقف على درجات المدخل الذى بارحته عربات الترويكا منذ هنيهة ، استطاع أن يرى الأمير يثب الى أول مركبة ويصيح مهيباً بالحوذى : « الى ايكاترنهوف ! اتبع عربات الترويكا ! » . ثم وقفت مركبة الجنرال الفخمة أمام درجات المدخل ، فركبها ، ومضى الى منزله بآمال جديدة وحسابات جديدة ، وبعقد اللآلىء الذى حاذر أن ينساه ! وفى وسط تلك الحسابات ، تراءت له صورة ناستاسيا فيليبوفنا الفتانة الأخاذة مرةً أو مرتين فتنهد يقول : « خسارة ، خسارة حقاً ! امرأة ضائعة ! مجنونة ! نعم ... ولكن ما أصبح الأمير يحتاج اليه الآن ليس امرأة مثل ناستاسيا فيليبوفنا ... فلعل من الخير أن جرت الأمور هذا المجرى » .

وان أقوالاً فيها عبر كهذه العبر تقريباً قد نطق بها شخصان آخران من ضيوف ناستاسيا فيليبوفنا قررا أن يسيرا معاً بضع خطوات . فقد قال ايفان بتروفتش بتسين يخاطب آتانازى ايفانوفتش :

ـ هل تعلم يا آتانازى ايفانوفتش ؟ يظهر أن فى بلاد اليابان تقاليد من هذا النوع : يذهب الشخص المهان الى الشخص الذى أهانه فيقول له: « أنت أهنتنى فلذلك جئتك الآن أبقر بطنى أمامك » ، ثم يبقر بطنه على مرأى من الشخص الذى أهانه ، ولعله يشعر بارتياح كبير ورضى عظيم كأنه انتقم لنفسه فعلاً . ما أكثر الطبائع العجيبة فى هذا العالم يا آتانازى ايفانوفتش !

فأجابه آتانازى ايفانوفتش مبتسماً :

ـ فأنت ترى اذن أن شيئاً من هذا القبيل هو ما حدث الآن • هم ٠٠ أمر فكه على كل حال ••• وتشبيه بديع ! ولكنك رأيت بنفسك ياصديقي العزيز جداً ايفان بتروفتش انني قد فعلت من جهتي كل ما كان في وسعي أن أفعله • لا يمكنني أن أفعل المستحيل على كل حال ! يجب أن توافقني على هذا • ولكن يجب أن توافقني أيضاً على أن هذه المرأة كانت لها مواهب رفيعة ، وميزات ساطعة ! لو استطعت ، منذ قليل ، أن أجيز لنفسي ، وسط مدينة سدوم تلك ، أن أفصح عمّا يدور في خاطري ، لوددت أن أجيبها بقولي انها هي نفسها أكبر مبرِّر وأعظم مسوِّغ لي تجاه جميع تلك التهم ! من ذا الذي يمكنه ألا تغويه هذه المرأة في بعض الأحيان الى حد يفقد معه عقله ••• وسائر ما عدا ذلك ؟ انظر الى ذلك الجلف روجوين الذي أتاها بمائة ألف روبل ! هَبْ كل ما حدث هناك منذ قليل عرضاً طارئاً ، واندفاعاً رومانسياً لا داعي اليه ، لكنه في مقابل ذلك غني بالألوان ، طريف أعظم الطرافة ! عليك أن تعترف بهذا ! آه ••• حين أفكر فيما كان يمكن أن يخرج من اجتماع طبع كهذا الطبع وجمال كهذا الجمال !••• لكن كل شيء ضاع ، رغم جميع جهودي ، بل ورغم كل ما هيأته لها من أسباب التربية والثقافة ! هي ماسة لم يمكن صقلها • قلتُ ذلك غيرَ مرة •

قال آتاناز ايفانوفتش ذلك ، وزفر زفرة عميقة •

الجزء الثاني

الفصل الأول

بعد يومين اثنين من أحداث السهرة التى شهدناها فى بيت ناستاسيا وختمنا بها الجزء الأول من قصتنا ، أسرع الأمير ميشكين يسافر الى موسكو ليعنى بأمر الميراث المفاجىء الذى آل اليه على غير توقع. وقد زعم بعضهم فى ذلك الأوان ان هناك أسباباً دعت الأمير الى الاسراع فى السفر . ولكننا لا نستطيع فيما يتعلق بهذا الأمر ، وكذلك فيما يتعلق بجميع الأحداث التى وقعت للأمير بموسكو ، أو التى وقعت له طوال مدة غيابه عن بطرسبرج عامة ، لا نستطيع أن نقدم الا معلومات قليلة . لقد دام غياب الأمير ستة أشهر تماماً . ومع ذلك فحتى الذين كانت تحضهم أسباب معينة على أن يهتموا بمصيره ، لم يستطيعوا أن يعلموا عنه الا أشياء قليلة جداً طوال تلك المدة . صحيح أن هناك شائعات كانت تصل الى مسامع بعضهم فى أحيان نادرة ، ولكن تلك الشائعات كان أكثرها غريباً عجيباً ، وكانت متناقضة فى جميع الأحيان على وجه التقريب . وكان أفراد أسرة ايبانتشين التى لم يتسع وقت الأمير حتى لتوديعها قبل سفره ، أكثر الناس اهتماماً به وتقصياً لأنبائه . ثم ان الجنرال قد التقى به أثناء تلك الفترة ، حتى انهما تناقشا نقاشاً جاداً مرتين أو ثلاث مرات . غير أن الجنرال لم يذكر لأسرته شيئاً عن لقائه بالأمير . والواقع أن السكوت عن ذكر الأمير فى الآونة الأولى التى أعقبت سفره ، أى خلال شهر كامل تقريباً ، كان قاعدة فى منزل الجنرال ايبانتشين . الجنرالة اليزابت

بروكوفيفنا وحدها أعلنت في البداية أنها « قد أخطأ ظنها فيه خطأ قاسياً ». ثم أضافت بعد شهرين أو ثلاثة أشهر قولها : « ان أبرز سمة في حياتها هي أنها تُخدع في أمر الناس دائماً » ، ولكنها في هذه المرة لم تذكر اسم الأمير ، وأطلقت حكمها غامضاً مبهماً . واغتاظت من بناتها بعد عشرة أيام فختمت كلامها بهذه العبارة : « كفاني أخطاء ! لا خطأ بعد الآن ! »

لا نستطيع الا أن نذكر في هذه المناسبة أنه قد ساد المنزل خلال مدة طويلة نوعٌ من اعتكار المزاج ، شيء من الثقل والتوتر ، جوٌ مليء بأمور غير معلنة يمكن أن يثير الشقاق في كل لحظة . كان جميع من بالمنزل مكتئباً مظلم النفس . والجنرال مشغول بمساعيه وأعماله ليلاً ونهاراً : انه ما رئي في حياته كلها أكثر انهماكاً بالعمل وأكثر جداً ونشاطاً منه في هذه الفترة ، ولا سيما في وظيفته . ان ذويه لا يكادون يرونه . أما الآنسات ايبانتشين فكنّ لا يعبّرن عما يدور في أذهانهن بصوت عالٍ . ولعلهن كنّ لا يتحدثن فيما بينهن الا قليلاً . انهن فتيات فيهن كبرياء وأنفة ، بل فيهن أيضاً حياء وخفر حتى حين يخلو بعضهن الى بعض ؛ ولكن هذا لا ينفي طبعاً أنهن يفهم بعضهن عن بعض لا من أول كلمة فحسب ، بل من أول نظرة أيضاً . فلا يكون ثمة داعٍ الى كلام كثير في بعض الأحيان.

الشيء الوحيد الذي كان يمكن أن يلاحظه ملاحظ غريب عن البيت، لو أمكنه أن يوجد فيه ، هو أن الأمير ، كما تدل على ذلك بعض العلامات، وهي قليلة على كل حال ، وقد أشرنا اليها من قبل ، أن الأمير قد استطاع أن يحدث في أسرة ايبانتشين انطباعاً خاصاً ، رغم أن الأمير لم يظهر في منزل هذه الأسرة الا مرة واحدة كانت من جهة أخرى طارئة عارضة . قد لا يكون ذلك الانطباع الا حبّ اطلاع ، تعلله وتفسّره ما وقع للأمير من أحداث غريبة ، وما عرف في حياته من مغامرات عجيبة . غير أن ذلك الانطباع قد بقي في نفوس أفراد الأسرة .

وشيئاً فشيئاً ، غابت الشائعات التى انتشرت فى المدينة أول الأمر ، غابت هى نفسها فى ظلام المجهول. صحيح أن بعض الناس كانوا يتحدثون عن أمير صغير ساذج (لم يكن يستطيع أحد أن يعيِّن اسمه على وجه الدقة) قد ورث ثروة طائلة على حين فجأة ، وتزوج امرأة فرنسية كانت مارةً بالبلاد مروراً عابراً ، فهى راقصة معروفة من فرقة « الكانكان الفرنسى » التى تعمل فى « قصر الأزهار » بباريس . غير أن ناساً آخرين كانوا يؤكدون أن الذى ورث تلك الثروة الطائلة انما هو جنرال ، وأن تاجراً روسياً شاباً ، ثرياً ثراءً لا يُحصى ، هو الذى تزوج راقصة الكانكان الفرنسية ؛ وأن هذا الشاب قد أحرق على لهب شمعة ـ لا لسبب غير التباهى ـ سبعين ألف روبل من الأوراق المالية على وجه التمام والكمال.

ولكن انتشار الشائعات سرعان ما انقطع بفضل بعض الظروف . لقد لبث روجوين مع أفراد عصبته أسبوعاً فى محطة ايكاترنهوف ، غارقين فى مجون رهيب يوماً بعد يوم ، وهو مجون شاركت فيه ناستاسيا فيليبوفنا . حتى اذا انتهى الأسبوع سافر روجوين على رأس أفراد عصبته الى موسكو (ولعل بين هؤلاء من كان يمكن أن يروى شيئاً) ؛ وعلم العدد القليل من الناس الذين يمكن أن يهتموا بهذا الأمر ، علموا من شائعات أخرى ، أن ناستاسيا فيليبوفنا قد هربت واختفت غداة يوم الرحيل الى ايكاترنهوف ، وأمكن أن يُعرف أنها سافرت الى موسكو . فأدرك الناس أن هناك صلةً بين هروبها وبين سفر روجوين .

وسرت شائعات أيضاً عن جبريل آرداليونتش ايفولجين الذى كان معروفاً فى بيئته هو أيضاً . غير أن حادثاً وقع له فسرعان ما أبرد حرارة ألسنة السوء ، بل انتهى الى وقف جميع الأقاويل السيئة فى حقه وقفاً تاماً : لقد مرض مرضاً شديداً ، وانقطع عن الظهور فى المجتمع ، وغاب حتى من مكتبه . ثم أبلَّ من مرضه بعد شهر ، غير أنه لسبب من الأسباب

ترك عمله في شركة الأسهم ، وحل محلَّه موظف آخــر • ولم يظهر كذلك في منزل أسرة ايبانتشين ، واضطر الجنرال ، هو أيضاً ، أن يتخذ لنفسه سكرتيراً آخر • ولقد كان في وسع أعداء جبريل آرداليونتش أن يفترضوا أنه قد بلغ من الشعور بالعار مما حدث له أنه أصبح يستحي أن يظهر في الشارع • ولكن الحقيقـة هي أنه كان مريضــاً حقاً : كانت تعتريه نوبات وسواس ، وكان كثير الوجوم ، شديد السوداوية ، سريع الاهتياج •

وفي ذلك الشتاء نفسه تم زواج باربارا آرداليونوفنا وبتسين • فرأى جميع الذين يعرفونهما أن هناك علاقة مباشرة بين هذا الزواج وبين تصميم جانيا على ألا يعود الى عمله ، فهو الآن ليس عاجزاً عن مسـاعدة أسرته فحسب ، بل هو نفسه أصبح في حاجة الى مساعدة ، بل يكاد يحتاج الى أنواع خاصة من العناية •

ولنذكر ، مسـتطردين ، ان اسـم جبريل آرداليونتش أصبح هو أيضاً لا يُلفظ أبداً في منزل أسرة ايبانتشين ، فكأن جبريل آرداليونتش لم يوجد في يوم من الأيام ، لا في هذا المنزل ولا في العالم• ومع ذلك عرف جميع أفراد الأسرة (بل عـرفوا ذلك بسرعة كبيرة) أمراً هـاماً يتعلق به : ففي تلك الليلة التي كانت ليلةً حاسمة في حياته ، بعد الحادث الأليم الذي وقع له في بيت ناستاسيا فيليبوفنا ، لم ينم جانيا حين عاد الى بيته ، بل ظل ينتظر عودة الأمير كالمحموم من نفاد الصبر • وكان الأمير قد سافر الى ايكاترنهوف هو أيضاً ، فلم يعد منها الا بعد الساعة الخامسة من الصباح • فدخل عليه جانيا عنـدئذ غرفتـه ، ووضع أمامه على المائدة حزمة الأوراق المالية التي تجففت أطرافهـا من نار الموقد ، والتي كانت ناستاسيا فيليبوفنا قد وهبتها له أثناء اغمائه • ورجا الأمير ملحاً أن يتولى ردَّ هذه الهدية الى ناستاسيا فيليبوفنا في أول مناسبة • ولقد كان جانيا ،

حين دخل على الأمير ، فى حالة نفسية عدائية ساخطة • ولكن يظهر أن الرجلين قد تبادلا أقوالاً مكث بعدها جاثيا عند الأمير ساعتين كاملتين لم ينقطع فى أثنائهما عن البكاء ناشجاً نشيجاً مريراً • وافترقا أخيراً على مودة وصداقة •

هذا النبأ الذى وصل الى جميع أفراد أسرة ايبانتشين كان صحيحاً كل الصحة ، كما ثبت ذلك فيما بعد • انه لعجيب طبعاً أن يمكن وصول هذا النوع من الأنباء الى علم أناس آخرين بمثل تلك السرعة الشديدة• من ذلك مثلاً أن كل ما حدث فى بيت ناستاسيا فيليبوفنا قد عُرف فى منزل أسرة ايبانتشين منذ الغد بتفاصيل كثيرة • وفيما يتعلق بالأنباء الخاصة بجبريل آرداليونتش كان يمكن أن نفترض أن باربارا آرداليونوفنا هى التى نقلتها الى أفراد أسرة ايبانتشين ، لأنها جاءت الى الآنسات ايبانتشين فسرعان ما قامت بينها وبينهن صلات عميقة ، وهذا أمر أثار أشد الدهشة فى اليزابت بروكوفيفنا • ولكن باربارا آرداليونوفنا رغم أنها وجدت أن من الضرورى ــ لا ندرى لماذا ؟ ــ أن تعقد تلك الصلات الوثيقة بأسرة ايبانتشين ، لم تحدث الآنسات عن أخيها حتماً • فانها هى أيضاً امرأة ذات كبرياء ، على طريقتها الخاصة ، وان تكن قد قبلت أن تربطها صداقة بأولئك اللواتى طردن أخاها طرداً على وجه التقريب • فى الماضى ، رغم أنها قد عرفت الآنسات ايبانتشين ، كانت لا تراهن الا نادراً • وهى حتى الآن، على كل حال ، لا تكاد تظهر فى الصالون قط ، وانما تأتى من مدخل الخدمة كأنها عابرة عبوراً • ان اليزابت بروكوفيفنا لم تُظهر لها فى يوم من الأيام بشاشة أو ترحيباً ، لا فى الماضى ولا فى الحاضر ، وان تكن تحمل لأمها نينا ألكسندروفنا كثيراً من الاعتبار ، وتقدرها قدراً كبيراً • فكانت تُدهش وتغضب ، وتعزو تلك العلاقات الجديدة التى قامت بينهن وبين فاريا الى النزوة وحدها ، والى استبداد بناتها اللواتى أصبحن على حد تعبيرها

« لا يعرفن حقاً ماذا يخترعن من أساليب لمضايقتها » • ولكن ذلك كله لم يمنع باربارا آرداليونوفنا من مواصلة زياراتها ، سواء قبل زواجها وبعد زواجها •

بعد سفر الأمير بشهر أو يزيد قليلاً ، تلقت الجنرالة ايبانتشين رسالة من الأميرة العجوز بيلوكونسكايا التى سافرت قبل خمسة عشر يوماً الى موسكو لزيارة ابنتها الكبرى المتزوجة هناك • فأحدثت تلك الرسالة فى نفس الجنرالة بعض الأثر ؛ ورغم أنها لم تنقل من مضمون هذه الرسالة شيئاً الى بناتها أو الى زوجها ، فقد أدرك ذووها من علامات كثيرة أن فى نفسها غلياناً بل واضطراباً • انها تُجرى مع بناتها أحاديث غريبة ، فى موضوعات غير مألوفة • كان واضحاً انها تريد أن تفضى بما فى نفسها ، لكنها تلجم لسانها لسبب من الأسباب • انها ، يومَ تلقت الرسالة ، قد أظهرت للجميع عاطفة رقيقة، حتى انها قبّلت آجلايا وآديلائيد، واعترفت أمامهما بأخطائها وعيوبها فلم تعرف البنتان ماذا كانت تلك الأخطاء ولا ماهى طبيعة تلك العيوب• وقد أصبحت العجوز متسامحة متساهلة على حين فجأة حتى فى معاملة ايفان فيدوروفتش الذى ظلت غاضبةً منه ساخطة عليه مدة شهر كامل • ولكن العجوز عادت منذ الغد تندم على الرقة والحنان اللذين أظهرتهما بالأمس ، ووجدت السبيل الى مشاجرة الجميع حتى قبل أن يحين موعد العشاء • ثم عاد الجو يصفو فى المساء من جديد ، فبقيت الجنرالة هادئة المزاج طوال أسبوع ، وذلك أمر لم يحدث لها منذ زمن بعيد •

ولكن الجنرالة تلقت رسالةً أخرى من الأميرة بيلوكونسكايا بعد أسبوع ، فقررت فى هذه المرة أن تتكلم • فأعلنت أن « العجوز بيلوكونسكايا » (كانت الجنرالة لا تسمى الأميرة أثناء غيابها الا بهذا الاسم) قد بعثت اليها بمعلومات مطمئنة جداً عن ذلك « الشاب الغريب

الأطوار .. الأمير » . لقد استطاعت العجوز أن تهتدى الى الأمير بموسكو، وحصلت على معلومات عنه ، حتى لقد اطلعت على أشياء حسنة جداً فى حقه. وقد زارها الأمير ، فأحدث فى نفسها أثراً يكاد يكون خارقاً . « ذلك أمر يراه المرء من مجرد أنها دعته أن يزورها كل يوم ساعةً أو ساعتين ، وأنه يزورها فعلاً بانتظام ، وأنها لم تضجر منه حتى الآن » . بهذا ختمت الجنرالة كلامها وأضافت اليه أن الأمير أصبح بفضل « العجوز » يُستقبل فى أسرتين أو ثلاث من أرقى الأسر . « حسنٌ أنه لا يبقى معتكفاً فى بيته كناسك ، وأنه لا يظهر خجولاً كغبى » .

حين اطلعت الأم بناتها على هذه الأمور ، لاحظن أنها أخفت عنهن مع ذلك كثيراً من فقرات الرسالة . ولعلهن عرفن هذا من باربارا آرداليونوفنا التى تستطيع أن تعرف بل تعرف حتى كل ما يعرفه بتتسين عن الأمير بموسكو ؛ وبتتسين لا بد أن يعرف أكثر مما يمكن أن يعرف أى شخص آخر . لكنه رجل متكتم أشد التكتم فى شئون الأعمال ، وان يكن يُطلع فاريا على بعض الأمور طبعاً . هكذا سرعان ما تفاقم شعور العداوة الذى تحمله الجنرالة لباربارا آرداليونوفنا .

ومهما يكن من أمر ، فقد تكسرَّ الجليد وأصبح يمكن التحدث عن الأمير جهاراً على حين فجأة .

وعدا ذلك تأكد تأكداً واضحاً ، مرةً جديدة ، أن مرور الأمير بمنزل أسرة ايبانتشين قد أحدث انطباعاً خارقاً وولَّد اهتماماً شديداً . حتى الجنرالة أدهشها الأثر الذى خلفته فى بناتها أنباء موسكو . أما البنات فقد أدهشهن أن أمهن التى سبق أن أعلنت لهن جهاراً أن « أبرز سمة فى حياتها هى أنها تخدع فى أمر الناس دائماً » ، لم يمنعها ذلك من أن تعهد بالأمير فى موسكو الى حسن رعاية العجوز بيلوكونسكايا ، ذات

السلطة الكبيرة » ، لا سيما وأنها قد اضطرت حتماً أن تتضرع اليها ، لأن « العجوز » امرأة ليس اقناعها بالأمر السهل .

ولكن ما ان تكسَّر الجليد، وما ان دارت الريح حتى أسرع الجنرال، هو أيضاً ، يذكر ما كان يعلم . ولكنه اقتصر على « جانب الأعمال من الأمر » ، اقتصر على هذا الجانب وحده دون غيره . فاتضح أنه ، فى سبيل مصلحة الأمير ، قد كلف شخصين من موسكو ، هما أهل للثقة ومن أصحاب النفوذ الكبير فى الوقت نفسه ، بأن يسهرا على الأمير ، وأن يسهرا خاصةً على وكيله سالازكين . ان كل ما قيل عن الميراث أو قل عن « أن هناك ميراثاً » قد اتضح أنه صحيح ، لكن مقدار الميراث أصبح فى الحساب الأخير أقل كثيراً مما ظُن فى بداية الأمر . فلقد كانت التركة مضطربة متشابكة ، وكانت مثقلة بالديون ، كما أن ورثةً أدعياء تقدموا يطالبون بحقوقهم فى الميراث ؛ والأمير نفسه تصرَّف تصرفاً بعيداً عن تصرف رجل من رجال الأعمال ، رغم جميع النصائح التى أسديت اليه . « كان الله فى عونه ، طبعاً » . لقد أصبح الجنرال ، بعد أن انكسر جليد الصمت ، يسعده أن يقول هذا الكلام باخلاص كامل ، ذلك أن هذا الشاب « رغم أنه ... قليلاً » يستحق كل خير . لكنه قد ارتكب بعض الحماقات . من ذلك مثلاً أن الذين ادعوا أن لهم على التاجر المتوفى ديوناً قد أبرزوا للمطالبة بحقوقهم مستندات يمكن انكارها أو اهمالها * ، حتى ان بعضهم لم يبرزوا أية وثائق على الاطلاق ، لأنهم أدركوا حقيقة الأمير وحزروا طبيعته . فهل تصدقون ماذا حدث ؟ لقد أرضاهم الأمير كلهم تقريباً ، رغم ملاحظات أصدقائه الذين برهنوا له على أن هؤلاء الناس ليس لهم أى حق شرعى . ولكنه فعل ذلك لأنه ظهر أن بعضهم قد أصابه ضرر بالفعل .

وقد أكدت الجنرالة أن الأميرة بيلوكونسكايا قد كتبت اليها شيئاً بهذا المعنى ، وأن ذلك « غباء طبعاً ، غباء شديد ، ولكن لا سبيل الى شفاء رجل

أبله » • هذا ما أضافته الجنرالة بلهجة قاطعة ، وان يكن وجهها قد فضح رضاها عن سلوك « الأبله » المزعوم ، وارتياحها له • الخلاصة أن الجنرال لاحظ أن امرأته مهتمة بالأمير حتى لكأنه ابنها ، وأنها من جهة أخرى تبدى لابنتها آجلايا عاطفة كبيرة وحناناً عظيماً • فلما رأى ذلك اتخذ الوضع الذى يليق اتخاذه فى الأمور الهامة ، الى حين •

لكن هذه الحالة النفسية الحسنة لم يطل عمرها أيضاً • فما ان انقضت خمسة عشر يوماً حتى حدث تغير مفاجىء آخر • فأظلم وجه الجنرالة من جديد ، أما الجنرال فانه بعد أن هزّ منكبيه مرتين أو ثلاثاً عاد يرضخ « لجليد الصمت » • وجلية الأمر أن الجنرال كان قد تلقى قبل أسبوعين خبراً سرياً مقتضباً لكنه مؤكد ، يقول ان ناستاسيا فيليبوفنا التى كانت قد اختفت فى موسكو ثم عثر عليها روجوجين ، قد اختفت مرة أخرى ثم اهتدى اليها روجوجين مرة ثانية فوعدته بأن تتزوجه • وها هو ذا الجنرال يعلم بعد ذلك بأقل من أسبوعين أن ناستاسيا فيليبوفنا قد هربت مرة ثالثة، قبيل مثولها مع روجوجين أمام الكاهن فى الكنيسة للزواج ، وأنها الآن مختبئة بمكان ما فى الأقاليم ؛ وأن الأمير ميشكين قد اختفى هو أيضاً ، تاركاً جميع شئونه لوكيله سالازكين ، « فاما انه سافر معها واما أنه مضى يلاحقها، فذلك أمر مجهول ، ولكن لا بد أن هناك شيئاً »• ذلك مااستنتجه الجنرال • وقد تلقت اليزابت بروكوفيفنا ، هى أيضاً ، أنباء مزعجة • الخلاصة أن الناس بمدينة بطرسبرج أصبحوا بعد سفر الأمير بشهرين لا يجيئون على ذكره الا لماماً ، أما أسرة ايباتتشين فان « جليد الصمت » لم يتكسر فيها بعد ذلك • ولكن باربارا آرداليونوفنا واصلت زياراتها للآنسات •

واذا تركنا الآن جميع تلك الشائعات وجميع تلك الأنباء ، وجب علينا أن نذكر أن سلسلةً من التغيرات قد حدثت فى أسرة ايباتتشين عند

اقتراب فصل الربيع ، وهي تغيرات لم تسمح للأسرة كثيراً أن تفكر في الأمير ، لاسيما وأن الأمير لم يدلّ على وجوده ، ولعله لم يشأ أن يدل على وجوده . ففي أثناء الشتاء تقرر شيئاً فشيئاً أن تسافر الأسرة لقضاء الصيف في الخارج ، أعني أن تسافر اليزابت بروكوفيفنا وبناتها ، لأن الجنرال لا يستطيع طبعاً أن يجيز لنفسه تضييع وقته في « تسليات لا طائل فيها ولا جدوى منها » . وقد تم اتخاذ هذا القرار بعد الحاح شديد واصرار مستمر من قبل الاخوات الثلاث اللواتي كن على يقين من أن أبويهما اذا لم يوافقا على قيامهن برحلة الى الخارج ، فانما يكون مرد ذلك الى اهتمامهما الدائم بتزويجهن والبحث لهن عن عرسان .

ولعل الأبوين قد اقتنعا من جهتهما بأن العرسان يمكن أن يتقدموا في الخارج أيضاً ، وبأن رحلة يقمن بها في الصيف لا تعطّل شيئاً ، حتى لقد « تسهّل الأمور » .

ويحسن أن نذكر هنا أن الزواج الذي كان مزمعاً أن يتم بين آفانازى ايفانوفتش توتسكي وكبرى بنات ايبانتشين قد انفسخ من تلقاء نفسه ، وأن توتسكي لم يتقدم بأي طلب رسمي في خطبة الفتاة . ولقد تم ذلك على نحو طبيعي جداً ، دون مناقشات كثيرة ، ودون أي صراع في داخل الأسرة ؛ كل ما هنالك أن أحداً أصبح لا يجيء على ذكر هذا الموضوع بعد سفر الأمير ، لا من هذا الطرف ولا من ذاك . ولا شك أن هذا كان أحد أسباب الجو الثقيل الذي خيّم على منزل أسرة ايبانتشين ، وان تكن الجنرالة قد أعلنت منذ تلك اللحظة أنها مستعدة أن « ترسم اشارة الصليب بكلتا يديها حمداً لله وشكراً » . أما الجنرال فانه رغم اعترافه بصحة المآخذ التي كانت تأخذها عليه امرأته ، ورغم اعترافه بأنه مخطيء مذنب ، قد ظل معتكر المزاج متجهم النفس مدة طويلة ، لأنه

كان آسفاً على آتانازى ايفانوفنا حقاً : « ثروة طائلة كهذه الثروة ، ورجل بارع هذه البراعة ! » • وعلم الجنرال بعد ذلك بمدة قصيرة أن آتانازى ايفانوفتش قد أغوته امرأة فرنسية من المجتمع الراقى كانت مارّة بالبلاد ، وهى مركيزة من أنصار الشرعية ، وأن الزواج قد حُدِّد موعده ، وأن المركيزة ستأخذ آتانازى ايفانوفتش الى باريس أولاً ، ثم الى مكان بمقاطعة بروتانيا بعد ذلك • قال الجنرال : « يتزوج فرنسية ؟ لقد ضاع اذن ! » •

كان آل ايبانتشين يهيئن اذن رحلة الصيف • غير أن حدثاً جديداً جاء يغير كل شيء على حين فجأة ، فيتأجل السفر مرة أخرى ، ويفرح الجنرال وزوجته من ذلك فرحاً كبيراً • ان أميراً اسمه « شتش •• » *، وهو شخصية معروفة ، معروفة بأحسن الصفات ، قد وصل الى بطرسبرج قادماً من موسكو • انه واحد من أولئك الرجال المثقفين ثقافة حديثة ، الفعالين النشيطين ، الشرفاء المستقيمين ، المتواضعين الذين يريدون أن يكونوا نافعين بكل صدق واخلاص ، والذين يعملون بغير انقطاع ، ويتميزون بذلك الاستعداد النادر الثمين لأن يستعملوا نشاطهم دائماً • انه لا يحاول أبداً أن يضع نفسه فى مقدمة الناس ويتحاشى ما يقوم بين الاحزاب من اضطراب عقيم وبلاغة لا طائل تحتها ؛ ولا يعد نفسه بين رجال الصف الأول ، ولكنه كان مع ذلك يدرك دلالة الأحداث الجارية والتبدلات القائمة ادراكاً سليماً • كان فى أول الأمر موظفاً بالدولة ، ثم شارك فى جهاز الحكم المحلى (زمتوف *) • وكان الى ذلك عضواً مراسلاً فى عدة جمعيات علمية روسية ، وكان له فى هذا المجال شأن محترم• وقد ساهم ، متعاوناً مع مهندس من أصدقائه ، فى رسم مسارٍ سليم لواحدٍ من أهم خطوط سككنا الحديدية التى كان تنفيذها مزمعاً فى ذلك الحين • ان عمره خمسة وثلاثون عاماً • وهو ينتمى الى أرقى طبقة فى المجتمع ،

ويملك ثروة « ممتازة ، متينة ، لا يمكن جحودها » على حد تعبير الجنرال نفسه الذى أتيح له بمناسبة عمل من الأعمال الهامة أن يلتقى بالأمير عند الكونت ، رئيسه فى سلم الوظيفة .

ومن غرائب طبع الأمير أنه كان لا يتحاشى أبداً أن تكون له اتصالات « برجال الأعمال » الروس . وقد اتفق أن تعرف أيضاً الى أسرة الجنرال. فأحدثت فيه آديلائيد ايفانوفنا ، البنت الوسطى من بنات الجنرال ، أثراً قوياً . فلما كان مطلع الربيع أعلن رغبته فى زواجها . وقد أعجبت به اليزابت بروكوفيفنا ورضيت عنه . وكان طبيعياً أن تأجلت الرحلة . وعيِّن للزواج موعد فى الربيع .

وكان يمكن أن تتم الرحلة فى وسط الصيف أو فى نهايته ، ولو نزهةً تقوم بها الأم اليزابت بروكوفيفنا وابنتاها اللتان تبقيان لها ، لولا أن شيئاً جديداً آخر قد حدث . ففى نهاية الربيع (وكان زواج آديلائيد قد تأخر وتأجل الى منتصف الصيف) . أدخل الأمير « شتش ... » الى منزل أسرة ايبانتشين شاباً يمت اليه بقرابة بعيدة ، لكن بينه وبينه معرفة قوية . هو شاب اسمه يوجين بافلوفتش ر ... * ، فى نحو الثامنة والعشرين من العمر ، ضابط من ضباط الامبراطور*، يتمتع بحظ كبير من الجمال ، ينتمى الى « سلالة شهيرة » ، وينعم عدا ذلك بأنه مرهف الفكر ، مرح الطبع ، لامع ، « عصرى » ، « مثقف ثقافة نادرة » ، ويملك ثروة طائلة . ولكن الجنرال ريَّاب دائماً فيما يتعلق بهذه النقطة الأخيرة. لذلك راح يستطلع حقيقة الأمر ، فانتهى « الى أن الى الشاب غنى حقاً فيما يظهر ، ولكن لا بد من مزيد من التحقق والتثبت » . وعدا ذلك فان هذا الضابط الذى يُنتظر له «مستقبل عظيم» قد كتبت العجوز بيلوكونسكايا من موسكو توصى به خيراً ، وتكيل له مديحاً كبيراً . كل ما هنالك أن سمعته كانت

تشوبها شوائب صغيرة : علاقات غرامية و « غزوات » قام بها الشاب فحطَّم بعض القلوب الحساسة ، فيما يقال •

فحين رأى الشاب آجلايا أصبح يلازم منزل آل ايباتشين ملازمة شديدة • ولئن لم يقل شيئاً حتى الآن ، ولو فى صورة تلميح ، فان الأبوين أصبحا يعتقدان أنه لا مجال للتفكير فى السفر الى الخارج هذا الصيف • أما آجلايا ، فلعلها كانت ترى رأياً آخر •

ذلك كله حدث قبيل عودة بطل قصتنا الى المسرح • كانت الظواهر الخارجية تدل على أن الأمير المسكين ميشكين كان قد نسيه أهل بطرسبرج فى تلك الفترة نسياناً يكاد يكون تاماً ، فلو خطر بباله أن يعود الى الظهور بين أولئك الذين كانوا يعرفونه ، لبدا كالهابط من السماء •

بقى علينا مع ذلك أن نروى واقعة من الوقائع قبل أن نفرغ من هذه المقدمة •

بعد سفر الأمير ، بقى كوليا ايفولجين يعيش كما كان يعيش فى الماضى ، فهو يذهب الى المدرسة ، ويتردد على صديقه هيبوليت ، ويعتنى بأبيه ، ويساعد فاريا فى أعمال البيت أى يشترى لها ما يجب شراؤه من السوق• غير أن المستأجرين قد تبعثروا بسرعة: فردشتينكو ترك المنزل بعد أحداث سهرة ناستاسيا فيليبوفنا بثلاثة أيام ، وسرعان ما غاب عن الأعين ، فليس يراه أحد ، وليس يسمع عنه أحد شيئاً • كل ما هنالك أنه كان يقال عنه ، ولكن بغير جزم أو قطع ، انه كان يسكر فى مكان ما • وبرحيل الأمير رحل عن البيت آخر مستأجر • فلما تزوجت فاريا بعد ذلك مضت نينا ألكسندروفنا ومضى جانيا يسكنان عندها فى منزل بتسين بحى اسماعيلوفسكى *• أما الجنرال ايفولجين فقد حدث له فى تلك الفترة نفسها تقريباً حادث لم يكن فى حسبانه قط : لقد أودع السجن بسبب ديون عليه • ذلك أن صديقته أرملة الكابتن طالبت بسداد سندات تصل قيمتها

الى ما يقرب من ألفي روبل ، وهي سندات كان الجنرال قد وقّعها لهـا في فترات مختلفة . وقد دُهش الجنرال من ذلك دهشة هائلة. لا شك أن الجنرال المسكين قد وقع « ضحية ايمانه العظيم بنبل القلب الانساني » . لقد ألف تلك العادة المطمئنة ، وهي أن يوقع سـندات كيفما اتفق ، فلم يخطر بباله أن في الامكان أن تُستعمل هذه السندات في يوم من الأيام. كان يظن أن الأمور تقف عند حدود توقيع السندات . ولكن هذا الحادث خيب آماله وبدّد أوهـامه . فكان يهتف قائلاً وقد جلس الى مائدة مع أصدقاء جدد في سجن تاراسـوف أمام زجاجة خمر وهو يحـدثهم عن حصار كارس ، وعن قصـة الجنـدي الذي بُعث من الموت حيـاً ، كان يهتف قائلاً : « فكيف يثق المرء بالنـاس بعد هذا ، كيف يحضهم ثقتـه النبيلة ؟ » .

والحق أنه كان يعيش في السجن حياة مريحة ممتعة جداً . حتى لقد كان بتتسين وفاريا يقولان انه وجد هنالك مكانه الملائم له ، وكان جانيا يشاطرهما هذا الرأي تماماً . ان المسكينة نينا ألكسندروفنا وحدها كانت تبكي بكاءً مراً على غير مرأى من أحـد (وكان ذلك يثير دهشـة أفراد أسرتها) ، وكانت رغم مرضها المستمر تجرُّ نفسها كلما أمكنها ذلك ، فتخرج من حيّ اسماعيلوفسكي ، وتمضي تزور زوجها .

ولكن منذ « حادثة الجنرال » (على حد تعبير كوليا) ، أو منذ زواج فاريا على وجه العموم ، أفلت كوليا من سـلطة أسرته افلاتاً يكاد يكون تاماً ، حتى لقد بلغ من ذلك أنه أصبح لا يعود الى البيت للمبيت الا نادراً. كان يقال انه قد عقـد صـلات جديدة كثيرة ، وأنه عـدا ذلك اكتسب شهرة كبيرة في سجن المدنيين. فكانت نينا ألكسندروفنا لا تستطيع الاستغناء عنه أثناء زياراتها لزوجها في السجن . وكفّ أهله في البيت عن مساءلته

ولو من باب حب الاطلاع . ان فاريا التي كانت من قبل قاسية في معاملته أشد القسوة ، أصبحت لا تلقي عليه الآن أي سؤال عن غيابه . أما جانيا فكان في بعض الأحيان (وهذا ما أثار دهشة ذويه) يثرثر معه بمودة كبيرة ، رغم كآبته وسوداويته ، وذلك أمر لم يسبق أن حدث في الماضي قط ، لأن جانيا المعتز بعمره البالغ سبعة وعشرين عاماً كان لا ينتبه أي انتباه بشوش الى أخيه الذي لا تتجاوز سنه الخامسة عشرة ، بل كان يعامله معاملة خشنة ، ولا يطلب من الأسرة كلها الا أن تكون قاسية معه ، ولا يفتأ يهدد بأنه « سيشدُّ له أذنيه » ، فكان هذا يخرج كوليا عن « حدود قدرة الانسان على الصبر والاحتمال » . أما الآن ففي وسعنا أن نقول ان كوليا يكاد يكون في بعض الأحيان حاجةً ماسةً لأخيه لا غنى له عنها . وكان كوليا قد فاجأه من جانيا انه ردَّ المال ، وكان لذلك مستعداً لأن يغفر له أشياء كثيرة .

بعد سفر الأمير بثلاثة أشهر ، عرفت أسرة ايفولجين أن كوليا قد تعرَّف على أسرة ايبانتشين ، بل وأن الآنسات يحسنَّ استقباله كثيراً . لقد علمت فاريا النبأ بسرعة ، رغم أن كوليا لم يعتمد على وساطتها للتعرف على أسرة ايبانتشين وانما تولى تقديم نفسه بنفسه . وشيئاً فشيئاً أحبته الآنسات ايبانتشين . ونظرت اليه الجنرالة في أول الأمر نظرة شزراء ، لكنها أخذت تحبه هي أيضاً حين عرفت « أنه صريح وأنه لا يداهن ولا يتملق » . فأما أن كوليا كان لا يحاول أن يتملق أحداً فذلك أمر صحيح كل الصحة . وقد عرف كيف يضع نفسه في موضع الند ، وفي موضع المستقل ؛ ولئن كان يقوم أحياناً بقراءة بعض الروايات أو المجلات للجنرالة ، فما ذلك الا لأنه كان فتى خدوماً على الدوام . على أنه قد تشاجر مع اليزابت بروكوفيفنا تشاجراً قاسياً ، مرةً أو مرتين ، فنعتها بأنها مستبدة طاغية ، وأعلن لها أنه لن يضع قدمه في منزلها بعد الآن .

فأما المرة الأولى فكانت بسبب « قضية المرأة » ، وأما المرة الثانية فكانت بمناسبة هذه المشكلة : أى الفصول أنسب لاصطياد البلابل . ومهما يبد لكم الأمر غريباً ، فان الجنرالة قد أرسلت اليه غداة غدٍ خادماً يحمل اليه منها رسالةً ترجوه فيها أن لا يتخلف عن المجيء اليها . فلم يعاند كوليا ، وجاء اليها فى الحال . كانت آجلايا وحدها لا يسرها وجوده كثيراً ـ لا يدرى أحد لماذا ؟ ـ وكانت تنظر اليه من علٍ . ومع ذلك كان مكتوباً عليها أن تحدث لها على يديه هو مفاجأة . ففى ذات يوم ـ وكان ذلك فى أسبوع عيد الفصح ـ انتهز كوليا فرصة اختلائه بها لحظةً ، فمدَّ اليها رسالةً كان قد طُلب منه أن ينقلها اليها بنفسه دون واسطة ، فتسلمتها منه بيدها ذاتها . ألقت آجلايا نظرة تهديد على هذا « الفتى الوقح » ، ولكن كوليا خرج دون أن ينتظر حدوث شيء آخر غير ذلك . وفضت الفتاة الرسالة فقرأت ما يلى :

« لقد أوليتنى شرفاً عظيماً فى ذات يوم ، حين وثقت بى واطمأننت الىَّ . ولعلك نسيتنى الآن نسياناً تاماً . فلا أدرى كيف تجرأت على أن اكتب اليك هذه الكلمة . لكننى أحسست برغبة لا تقاوم فى أن أذكركِ بى ، أن أذكركِ أنت خاصةً . مراراً كثيرة كان يمكن أن تنفعنى كثيراً أنت وأختاك ، لكنك كنت أنت الوحيدة التى أراها بخيالى منكن . اننى فى حاجة ماسة اليك . أنت لى ضرورة لازمة ، لازمة جداً . ليس هناك ما أطلبه منك ، ولا ما أرويه لك عنى . وليس هذا ما كان يمكن أن يحضنى على الكتابة اليك . ولكن أقوى رغبة تجيش فى نفسى هى أن أعلم أنك سعيدة ، فهل أنت سعيدة ؟ ذلك هو كل ما أردت أن أقوله لك .

ابن عمك : الأمير ل . ميشكين

بعد أن قرأت آجلايا هذه الرسالة القصيرة المضطربة الخالية من

الانسجام ، احمرّت فجأة ، ولبثت مطرقة تفكر . يصعب علينا أن نتابع مجرى خواطرها . لقد طرحت على نفسها هذا السؤال ، فيما طرحت من أسئلة أخرى : هل أطلع أحداً على هذه الرسالة ؟ وأخيراً رمت الرسالة في درج منضدتها ، بينما انثنت شفتاها على ابتسامة ملغزة ساخرة .

وفي الغد تناولت الرسالة مرة أخرى ودسّتها في كتاب ضخم مجلد تجليداً سميكاً . هذا ما كان تفعله دائماً بالأوراق التي تحب أن تهتدي اليها بسرعة . وانقضى أسبوع قبل أن يخطر ببالها أن تنظر في عنوان الكتاب : « دون كيشوت دولامانش » *. لا ندري لماذا جعلها هذا العنوان تنفجر ضاحكة . لا ولا ندري هل أطلعت أختاً من أختيها على الرسالة .

ولكنها حين أعادت قراءة الرسالة ومض في ذهنها سؤال : هل يُعقل أن يختار الأمير هذا الصبي الوقح المتغطرس رسولاً ، وربما رسولاً وحيداً ؟ وسألت عن هذا الأمر كوليا ، مع استمرارها على مخاطبته بتعالٍ وخيلاء . ولكن « الصبي » ، على سرعة تأذيه في العادة ، لم يلق بالاً الى هيئة الاحتقار التي ظهرت على آجلايا . وشرح لها باختصار ، وبشيء من الجفاف أو الخشونة ، أنه قد أعطى الأمير عنوانه استعداداً للمصادفات ، وأنه عرض عليه خدماته ، وذلك قبل أن يغادر الأمير بطرسبرج ، ولكن هذه المهمة هي مع ذلك المهمة التي كلفه بها الأمير ، وأن هذه الرسالة هي الرسالة الأولى التي تلقاها منه . ومن أجل أن يبرهن كوليا على صحة قوله ، أظهرها على الرسالة التي وجهها الأمير اليه شخصياً . فلم تتحرج آجلايا أي تحرج من قراءة هذه الرسالة التي كان نصها ما يلي :

« عزيزي كوليا ، أرجو أن تسلم اجلايا ايفانوفنا الرسالة المختومة المرفقة . وأتمنى لك صحة جيدة »

ولك أخلص العاطفة من صديقك :

الأمير ل . ميشكين

قالت آجلايا بلهجة الأسف وهى ترد الرسالة الى كوليا :

ـ انه لشيء مضحك مع ذلك أن يمنح مثـل هذا الصبى كلّ هذه الثقة .

ثم ابتعدت وقد لاحت في وجهها علامات احتقار .

كان ذلك أكثر مما يستطيع أن يطيق كوليـا الذى استعار لهـذه المناسبة من جانيا منـديله الأخضر الجـديد دون أن يشرح له السبب . فأحس بالاهانة احساساً قاسياً .

الفصل الثاني

نحن الآن فى مطلع حزيران (يونيه) : الجو فى بطرسبرج رائع منذ أسبوعين . ان اسرة ايبانتشين تملك فى بافلوفسك* فيللا مترفة أنيقة. أخذت اليزابت بروكيفوفنا تتحرك وتسعى بكل قوة على حين فجأة لتذهب الى هناك . فما انقضى يومان الا وقد تم الانتقال.

وبعد هذا السفر بيوم أو يومين وصل الأمير ليون نيقولايفتش ميشكين من موسكو بقطار الصباح . لم يجىء الى المحطة أحد لانتظاره واستقباله ، لكنه حين نزل من حافلة القطار خيِّل له فجأة أنه يميِّز فى الجمهور المحتشد حول المسافرين عينين ملتهبتين كانتا تتفرسان فيه تفرساً غريباً . حاول أن يعرف مصدر تلك النظرة ، لكنه لم يميز بعدئذ شيئاً . لعل ذلك لم يكن الا وهماً ، لكن هذا الوهم قد ترك فى نفسه أثراً مزعجاً ، ولم يكن الأمير فى حاجة الى هذا ليكون حزيناً مهموماً مغموماً. كان ثمة شىء يبدو أنه يشغل باله ويقلق نفسه .

ركب عربة أقلَّته الى فندق غير بعيد عن شارع ليتانيايا . فاستأجر فى ذلك الفندق الذى لم يكن باهر المنظر ، استأجر غرفتين صغيرتين معتمتين سيء أثاثهما . وأسرع يغسل يديه ووجهه ، ويبدل ثيابه دون أن يطلب شيئاً ، وخرج متعجلاً كمن يخشى أن يضيع وقتاً أو أن تفوته زيارة .

لو أن شخصاً من الأشخاص الذين عرفوه قبل ستة أشــهر ، يوم وصوله الى بطرسبرج ، لو أن شخصاً من أولئك الأشخاص رآه فى تلك البرهة ، للاحظ تحسناً ملحوظاً واضحاً فى مظهر الأمير • ولكن ذلك لم يكن من الامر الا ظاهره فحسب • ان ملابســه وحدها قد تغيرت تغيرا كاملاً : ان رداءه الآن قد أعدَّه له خياط من أحسن الخياطين بموسكو • ومع ذلك كان يعيب هذا الرداء أنه مسرف فى الانقيــاد للموضــة (ذلك دائماً شــأن الخياطين الذين يملكون من حسن الارادة أكثر مما يملكون من رهافة الذوق) ، ولا سيما بالنسبة الى شخص لا يفهم من أمور الزينة شيئاً • فلو رآه ملاحظ ميَّال الى السخرية لاستطاع اذا هو أنعم النظر فى الأمير أن يجــد فيه ما يبعث على الضحك والاستهزاء • ولكن ما أكثر الأشياء التى يمكن أن تبعث على الضحك والاستهزاء !

ركب الأمير عربة وأمر الحوذى بأن يقوده الى حى « الرمال » *• وسرعان ما اهتدى هنالك فى أحد شوارع مجمــوعة رودجستفنسكى الى العنوان الذى كان يبحث عنه ويســعى اليه : انه بيت صغير من خشب ، بيت لطيف المظهر ، أدهشته نظافته والعناية به ، تحيط به حديقة مزروعة أزهاراً ، نوافذه المطلة على الشارع مفتوحة ، ومن خلالها يُسمع صوت حاد يكاد يكون صارخاً هو صوت رجل يبدو أنه يقــرأ كتــاباً أو يلقى خطاباً • والصوت تقطّعه انفجارات ضحك من حين الى حين • دخل الأمير فناء البيت ، وصعد درجات المدخل ، ودقّ الباب ، ففُتح له ، فسأل عن « السيد ليبديف » •

قالت طبَّاخة مشمورة الأكمام الى الكوعين ، وهى تومىء بيدها الى مدخل الصالون :

ـ هو ذا !

ان هذا الصــالون ، المغطاة جــدرانه بورق أزرق قاتم ، كان معتنى

بنظافته ، بل كان فيه شيء من اسراف في التأنق : يتألف أثاثه من مائدة مستديرة ؛ وديوان ؛ وساعة برونزية ذات نواس ، تحت غطاء من زجاج؛ ومرآة ضيقة مثبتة في الحائط ؛ وثريا صغيرة قديمة تتدلى فيها قطع الكريستال ، معلقة بالسقف بسلسلة من برونز •

في وسط تلك الغرفة كان يقف السيد ليديف بنفسه ، مديراً ظهره الى الباب الذى دخل منه الأمير ، مرتدياً قميصاً بغير سترة من شدة الحر ، متدفقاً في حديث مسهب بلهجة عاطفية وهو يلطم صدره • وكان سامعوه: فتى في الخامسة عشرة من عمره يقظ الهيئة فطناً ذكياً ، قد أمسك بيده كتاباً ؛ وفتاةً في نحو العشرين من عمرها ترتدى ملابس الحداد وعلى ذراعها طفل صغير ؛ وبنيةً في الثالثة عشرة ترتدى ثياب الحداد أيضاً وتضحك ملء حلقها ؛ ثم شخصية غريبة مستلقية على الديوان : انه فتى في نحو العشرين من عمره ، حسن الهيئة وسيم الطلعة اسمر اللون طويل الشعر كثيفه ، واسع العينين أسودهما ، وعلى وجهه زغب خفيف بمثابة لحية وعارضين • وكان يبدو على هذا الفتى أنه ما ينفك يقاطع خطاب ليديف ليعارضه ، وعن ذلك انما كانت تنشأ نوبات الضحك لدى جمهور المستمعين في أغلب الظن •

- لوكيان تيموفئتش! لوكيان تيموفئتش ! عجيب أمرك ! هلاّ نظرت من هنا !••• آه ••• على كل حال ، افعل ما يحلو لك !•••

وخرجت الطباخة محمرّة الوجه غضباً ، وهي تحرك ذراعيها بحركة العجز •

والتفت ليديف ، فلما رأى الأمير ، ظل مبهوتاً خلال بضع لحظات، ثم أسرع نحوه مبتسماً ابتسامةً ذليلة ، لكنه توقف عند العتبة من جديد ، متجمداً من الدهشة ، وتمتم يقول :

ـ صا .. صاحب السمو الأمير ! * .

وفجأة ، وكأنه ما يزال عاجزاً عن السيطرة على نفسه وامتلاك زمام ارادته ، استدار على عقبيه واندفع نحو الفتاة التى ترتدى ملابس الحداد وتحمل على ذراعيها طفلاً صغيراً ، اندفع نحوها بلا سبب ظاهر ، فتقهقرت الفتاة الى وراء ، أمام هذه الهجمة التى لم تكن فى الحسبان . لكنه سرعان ما تحول عنها ، وأخذ يتهجم على البنية التى عمرها ثلاثة عشر عاماً ، والتى ما تزال عاجزة عن أن تسيطر على ضحكها أو أن تلجمه ؛ فلم تملك أن تحتمل صراخه ففرّت الى المطبخ بوثبة واحدة . وخبط ليديف الأرض بقدمه ليروّعها مزيداً من الترويع ، ولكنه حين التقت نظرته بنظرة الأمير الذى كان خجلاً أشد الخجل ، قال شارحاً :

ـ ذلك .. للاحترام ! هىء هىء !...

فبدأ الأمير يقول :

ـ انك لتخطىء جداً اذ ...

لكن ليديف لم يمهله لاتمام كلامه ، بل قاطعه يقول :

ـ حالاً ، حالاً ... ، بسرعة الريح ...

وغاب ليديف من الغرفة مسرعاً .

أخذ الأمير يتأمل الفتاة والصبى والشخصية المضطجعة على الديوان مدهوشاً . لقد كانوا جميعاً يضحكون . فأخذ يضحك مثلهم .

قال الفتى :

ـ ذهب يرتدى « الفراك » .

قال الأمير :

ـ ما أكثر ما يضايقنى هذا كله !... لقد كنت أعوّل على ... ولكن قل لى : أهو مثلاً ...

ـ سكران ؟ تريد أن تسأل أهو سكران ؟ لا ، ما هو بالسكران البتة ! كل ما فى الأمر أنه أنه شرب ثلاث كئوس ، أو أربعاً ، وربما خمساً ، حتى لا يخل بالقاعدة لا أكثر !

كذلك صاح صوت انطلق من على الديوان .

وقد همّ الأمير أن يجيب المتكلم ، ولكن سبقته الفتاة التى كان وجهها الحلو الجميل يعبّر عن أكبر الصراحة . قالت :

ـ انه لا يشرب كثيراً فى الصباح قط . فاذا أردت أن تكلمه فى أعمال ، فافعل . هذا هو الوقت المناسب . أما حين يعود الى البيت مساءً ، فانه يكون ثملاً فى بعض الأحيان . وقد أصبح يتفق له الآن ، ولا سيما فى الليل ، أن يطفق يبكى ، ثم يأخذ يقرأ لنا فى الكتاب المقدس بصوت عال ، لأن أمنا ماتت منذ خمسة أسابيع .

قال الفتى الراقد على الديوان :

ـ لئن هرب فلأنه يصعب عليه أن يجيبك . أراهن أنه الآن يحاول أن يخدعك ويضللك ، وأنه الآن بسبيل اجترار الضربة التى يهيئها لك .

ـ منذ خمسة أسابيع ماتت ، منذ خمسة أسابيع فقط ...

كذلك صاح يقول ليديف وقد عاد الى الصالون مرتدياً « الفراك »؛ وطرفت عيناه ، وأخرج من جيبه منديلاً يجفف به دموعه. وأردف يقول:

ـ يتامى ! انهم يتامى !

قالت الفتاة :

ـ ما هذا يا بابا ؟ لماذا ارتديت رداءً مهترئاً منقباً ؟ ان عندك هناك ، وراء الباب ، ردنجوتاً جديداً . أما رأيته اذن ؟

ـ اسكتى يا جرادة ! أهذه أنت ؟

قال ليديف ذلك وخبط الأرض بقدمه ليخيفها ، لكنهـا في هذه المرة لم تزد على أن ضحكت ، وقالت :

ـ لماذا تحاول أن تخيفني ؟ أنا لست تانيا * • لن أهرب • اسمع • سوف توقظ ليوبوتشكا *، وسوف تعاودها تشنجات• علام هذا الصراخ ؟

صاح ليديف يقول بحركة رعب مفاجئة :

ـ دعى لسانك ملتصقاً بسقف حلقك ، فلا تحركيه !

ثم اسرع نحو الطفلة التي كانت نائمة على ذراعي الفتاة ، فرسم عليها اشارة الصليب عدة مرات وهو زائغ الهيئة • وقال :

ـ احفظها يا رب ! صنها يا رب ! احمها يا رب !

ثم أضاف يقول متجهاً الى الأمير :

ـ هذه الطفلة هي ليوبوف ، ابنتي اناه وُلدت لى بزواج شرعي جداً من امرأتى هيلينا التي ماتت أثناء الوضع • وهذه الطائر اللقلق هي ابنتي فيرا ، ترتدى ملابس الحداد •• أما هذا •• أما هذا •• أوه •• فهذا ••

ـ لماذا تقطع كلامك ؟ أكمل ! لا تضطرب !

هتف ليديف قائلاً بحماسة :

ـ ياصاحب السمو ، هل‌تابعت فى‌الجرائد أنباء قاتل أسرة جيرامين ؟*

فأجابه الأمير مدهوشاً :

ـ نعم •

ـ فهذا هو قاتل أسرة جيرامين بنفسه ! هذا هو بعينه !

قال الأمير :

ـ ما معنى هذا الكلام ؟

فأجاب ليديف :

ـ لنتفاهم : أنا أتكلم بطريقة الرمز والكناية • أريد أن أقول أنه هو القاتل المقبل لأسرة جيرامين أخرى ، اذا وُجدت أسرة جيرامين أخرى • انه يستعد لهذه الجريمة •••

أخذ الجميع يضحكون ، وخطر ببال الأمير أن ليديف لعله كان يسترسل في هذه التهريجات لأنه كان يتنبأ بأسئلة يلقيها عليه الأمير فلا يعرف بماذا يجيب عنها ، فهو اذن يريد ارجاء الأمر وكسب الوقت•

صرخ ليديف يقول بلهجة رجل أصبح لا يسيطر على نفسه :

ـ ان هذا الفتى ثائر متمرد مدبر مؤامرات • هل في وسعي أنا أن أعدّ لسان الأفعى هذا ، أن أعدّ هذا الزاني ، أن أعدّ هذا الشيطان الرجيم ، ابناً لأختي آنيسيا ؟ ابناً وحيداً لأختي آنيسيا ؟

ـ اخرس ايها السكير ! هل تصدق يا أمير أنه قد وضع في رأسه الآن أن يصبح محامياً • انه يريد أن يتعلم مهنة المماحكة ، ويتمرن على على البلاغة والفصاحة ، حتى اذا كلم أولاده كلمهم بلهجة الخطابة ! منذ خمسة أيام ترافع في محكمة الصلح * • ترافع لمصلحة من ؟ ان امرأة عجوزاً كانت قد ناشدته أن يحامي عنها ضدّ مراب نذل سلبها خمسمائة روبل هي كل ما تملك • فهل دافع عن المرأة العجوز ؟ لا ••• وانما ترافع لمصلحة المرابي ، وهو يهودي اسمه سايدلر ، لأن هذا المرابي وعده بخمسين روبلاً •••

صحّح ليديف كلام ابن اخته قائلاً بصوت تبدل الآن تبدلاً تاماً ، فكأنه لم يصرخ منذ هنيهة :

ـ خمسين روبلاً اذا ربحت القضية ؛ أما اذا خسرتها فخمسة روبلات فحسب !

ـ وقد أخفق طبعاً ! ان القضاء اليوم غير ما كان بالأمس • انهم لم

يزيدوا على أن ضحكوا منه . هذا لا ينفى أنه ظل معتزاً بمرافعته اعتزازاً كبيراً . اسمع ماذا قال في المرافعة : « سادتى القضاة النزيهين ، تصوروا أن موكلى ، وهو شيخ مسكين كسيح يعيش من عمل شريف ، تصوروا أن موكلى هذا هو الآن بسبيل أن يفقد آخر لقمة خبز . تذكروا الأقوال الحكيمة التى قالها المشرِّع : « واحكمـوا بين الناس بالرحمـة » * فهل تتصور أنه يلقى على مسامعنا هذه المرافعة فى كل صباح كما ألقاها هناك ؟ اننا نسمعها اليوم خامس مرة . كان يرددها لحظةَ وصولك منذ برهة . فالى هذه الدرجة هو مفتون بها . يتلوها ويتلمظ . وهو يستعد الآن للدفاع عن موكلٍ آخر من هذه الطينة نفسها . أنت الأمير ميشكين ، فيما أظن ، ألست الأمير ميشكين ؟ لقد حدثنى عنك كوليا كثيراً ، وقال انه لم يرَ فى حياته رجلاً أذكى منك .

فقال ليبديف مؤيداً :

ـ نعم نعم ، ليس فى العالم رجل أذكى منه !

ـ هذا كاذب . كوليـا يحبك صـادقاً ، أما هذا فهو يمسح ظهرك لينال حظوتك . وأنا لا انتوى البتة أن أتملقك ، تستطيع أن تصدِّقنى . ولكنك لا يعوزك الحس السليم : فاحكم بينى وبينه .

واتجه الشاب المستلقى على الديوان الى خاله يسأله :

ـ هيه ... ما رأيك فى أن يفصل فى قضيتنا الأمير ؟ لقد أراحنى جداً أنك جئت يا أمير !

قال ليبديف بلهجـة قاطعـة ، وهو يلقى نظرة بغير ارادة منه على « الجمهور » الذى عاد يتحلق حوله :

قال الأمير مقطباً حاجبيه :

ـ ما المسألة ؟

لقد كان الأمير مصاباً بصداع فعلاً ، ولكنه كان عـدا ذلك يزداد اقتناعاً ، لحظة بعد لحظة ، بأن ليديف يخادعه ويسعى الى مهرب ويحاول التملص •

قال ابن الأخت :

ـ هأنا ذا أعرض لك المسألة • انا ابن اختـه • ففي هذه النقطة ، خلافاً لعادته ، لم يكذب • وأنا لم أتمم دراستي ، لكنني أريد اتمامها ، وسوف أتمها لأنني أملك قوة الارادة • وبانتظار ذلك أريد ، لأعيش ، أن أُعيَّن موظفاً في السكة الحديدية براتب قدره خمسة وعشرون روبلاً • انني اعترف ، على كل حال ، بأنه ساعدني مرتين أو ثلاثاً • ولقد كان معي عشرون روبلاً ، فخسرتها في القمـار • نعم يا أمير ! هل يمكنـك أن تصدّق ذلك ؟ لقد بلغت من الحطة والدناءة والصغار انني خسرتها في القمار !

صاح ليديف يقول :

ـ خسرتَها مع رجل نذل ، رجل نذل كان ينبغي لك أن لا تدفع له شيئاً •

تابع الشاب كلامه فقال :

ـ أما أنه نذل فهذا صحيح ، ولكن كان من واجبي أن أدفع• وأما أنه وغد حقير ، فهذا ما أسلّم به ، ولكن لا لأن الرجل قد ضربك ضرباً مبرحاً فحسب ، بل لأسباب أخرى كثيرة أيضاً• يا أمير ، الرجل ضابط مطرود من الجيش ، ملازم محال على التقاعد ، كان أحـد أفراد عصـبة روجويين ، وكان يعطي دروساً في الملاكمة • ان جميع أفراد تلك العصبة هائمون الآن على وجوههم منذ تخلص منهم روجويين • على أن أنكى مافي الأمر أنني كنت أعلم أنه وغد دنيء ، ووبش حقير ، وتافه لايصلح لشيء ،

ومع ذلك غامرت بآخر روبلات أملكها مقامراً معه (لعبنا لعبة البالكى) * قلت لنفسي : اذا خسرت ذهبت الى الخال لوكيان ، فما زلت أثقل عليه حتى يساعدني . تلك هي الدناءة ، ذلك هو الصغار ! الصغار المحض ! لقد كان ذلك حقارة واعية !

قال ليديف مؤيداً :

ـ نعم ، حقارة واعية !

أجاب ابن الأخت يقول بحرارة وهمة :

ـ لا تسرع الى التباهي بالانتصار ! انه يتعجل كثيراً في الابتهاج ! وقد جئت الى خالي ـ يا أمير ـ واعترفت له بكل شيء . تصرفت تصرفاً نبيلاً ، لم أدار نفسي ولا دافعت عن خطئي . بالعكس : اتهمت سلوكي أقسى الاتهام ، ونعته بأبشع النعوت ، وأدنته أشد الادانة . الجميع هنا يشهدون بذلك . ومن أجل أن أدخل الوظيفة التي أهدف الى دخولها ، لا بد لي حتماً من الارتفاع بمستوى ملابسي ، ذلك أنني ارتدي اسمالاً بالية وخرقاً رثة . بل انظر الى حذاءي ! انني لا أستطيع أن أتقدم الى وظيفتي الجديدة بهذه الثياب . واذا أنا لم أتقدم خلال المهلة المحددة ، فسيُعيَّن للوظيفة شخص آخر ، فأبقى عندئذ عاطلاً عن العمل ، ولا يدري الا الله متى أجد وظيفة أخرى ! أنا الآن لا أطلب منه أكثر من خمسة عشر روبلاً . وله عليّ عهدٌ أن لاألجأ اليه بعد اليوم قط ، وأن أردّ اليه آخر قرش له عليّ في غضون ثلاثة أشهر . ولسوف أفي بوعدي . أنا أعرف ما هو العيش على الخبز و « الكفاس » * طعاماً وشراباً خلال أشهر بكاملها ، ولكنني قوي الارادة قادر على الاحتمال. في غضون ثلاثة أشهر أكون قد كسبت خمسةً وسبعين روبلاً . فاذا أضفنا الى القرض الذي اطلبه منه الآن ما سبق أن أقرضني من مبالغ أخرى يكون مجموع الدين الذي له عليّ خمسة وثلاثين روبلاً . فسأملك اذن من المال

ما ابرىء بعضه ذمتى • أما الفوائد فليطلب من الفوائد ما يشاء ، وليأخذه الشيطان ! أهو لا يعرفنى ؟ اسأله يا أمير : أرددتُ اليه المال الذى ساعدنى به أم لا ؟ هو غاضب عليّ لأننى دفعت لذلك الملازم • ليس هنـاك سبب آخر • ذلك هو شأنه : لا شىء له ، اذن لا شىء لغيره !

صاح ليبديف يقول :

ـ وهـو لا ينصرف ! انه مضطجع هنـا حيث تـراه ، لا يريد أن يتحرك !

ـ سبق أن قلت لك : لن أنصرف قبل أن تعطينى ما أطلبه منك • لماذا يبدو عليك التبسم يا أمير ؟ كأنك لا تستحسن فعلى •

قال الأمير كأنما على مضض :

ـ لست ابتسم ، ولكننى أرى أنك مخطىء قليلاً •

ـ بل قل صراحـة اننى مخطىء تمـاماً • لا توارب • لماذا كلمـة «قليلاً» هذه ؟

ـ اذا شئتَ : لنقل انك مخطىء خطأً تاماً •

ـ اذا شئتُ ! انك لمضحك حقاً ! أتظن اننى لا أدرك أن طريقتى هذه خالية من الكياسة ؟ أنا أعلم أن المال ماله ، وأنه يستطيع التصرف فيه على ما يريد له هواه ، وأننى أبدو كمن يريد أن يسـلبه اياه • ولكنك لا تعرف الحياة ••• أنت يا أمير ! اذا لم يلقّن المرء أمثال هؤلاء النـاس درسـاً فلا يجب أن ينتظر منهم شـيئاً • فلا بد من تلقينهم درسـاً • ان ضميرى طاهر نقى : أقول لك ذلك صادقاً كل الصـدق ، مخلصـاً كل الاخلاص ؛ لن ألحق به أى ضرر ، لن أصيبه بأى أذى ، سأردُّ اليه ماله ، مع الفوائد أيضـاً • فماذا يريد أكثر من ذلك ؟ لأى شىء يصلح اذا لم

يقدم خدمة ؟ بل انظر كيف يتصرف هو نفسه . اسأله عن سلوكه مع الآخرين وعن فنه في خداع الناس . بأية وسائل أصبح مالكاً لهذا المنزل؟ انني مستعد لأن أقطع رأسي اذا ثبت أنه لم يغششك حتى الآن ، وأنه ليس بسبيل التفكير في أسلوب يخدعك به مزيداً من الخداع . أتبتسم؟ ألا تصدّق ما أقول ؟

قال الأمير :

ـ يخيّل اليّ أن هذا كله ليس له كبير صلة بقضيتك .

ـ أنا مضطجع هنا منذ ثلاثة أيام ، فما أكثر ما رأيت خلال هذه المدة !

بهذا هتف الشاب دون أن يصغي الى كلام الأمير ؛ وتابع يقول :

ـ هل تتصور أن عنده شكوكاً وشبهات حول هذه الملاك ، حول هذه الفتاة التي أصبحت اليوم يتيمة ، حول ابنة خالتي التي هي بنته ؟ انه يبحث في كل ليلة عن عشيق لعلها خبأته في غرفتها ، ويتسلل الى هنا بخطى كخطى الذئب ينظر تحت ديواني الذي أرقد عليه عسى أن يجد شيئاً . لقد أطاش الشك صوابه . انه يرى لصوصاً في جميع الزوايا والأركان . يثب عن سريره في الليل كلّ لحظة ، ويمضي يتثبت من أن الأبواب والنوافذ قد أُحكم اغلاقها ، حتى انه يذهب الى الموقد يفتشه . ويتكرر ذلك في ليلة واحدة سبع مرات أحياناً. في المحكمة يترافع عن أوغاد وأوباش . وهنا ينهض في كل ليلة ثلاث مرات أيضاً ليصلي وليتجه الى الله بدعائه. يجثو على ركبتيه في الصالون ويظل يلطم جبهته بالأرض ويرتل ويتضرع مدة نصف ساعة . لا شك أن هذا ثمرة السكر . لقد صلّى على روح كونتيسة باري * . سمعته بأذنيّ هاتين . وسمعه كوليا أيضاً . الخلاصة : لقد فقد العقل تماماً !

هتف ليديف يقول وقد احمر وجهه احمراراً شديداً وغضب غضباً قوياً :

ـ هل رأيت يا أمير ، هل سمعت كيف يتهكم عليّ ويستهزىء بي. قد أكون سكّيراً ، وقد أكون زير نساء ، وقد أكون لصاً ، وقد أكون انساناً مسيئاً من جميع النواحي ، غير أن هناك شيئاً لا يعرفه هذا الرجل الذي يحقّرني الآن ، وهذا الشيء هو أنني أنا الذي كنت أقمّطه وأنظفه حين كان في المهد صبياً . كنت أقضي ليالي بكاملها ساهراً عليه مع أمه أختي آنيسيا التي توفي عنها زوجها وهوت الى حضيض الفقر والبؤس . رغم أنني كنت لا أقل عنهما فقراً وبؤساً ، فقد كنت أعتني بهما اذا مرضا ، وأمضي أسرق حطباً من عند البواب ؛ وكان بطني خاوياً في أكثر الأحيان ، لكنني كنت أغني وأصفق بأصابعي لينام الطفل . لقد دللته وأسرفت في تدليله ، ثم ها هو ذا الآن يضحك عليّ ويسخر مني. ثم أي ضير يلحق بك أنت ، اذا أنا رسمت اشارة الصليب مصلياً على روح كونتيسة باري ؟ يا أمير ، منذ ثلاثة أيام ، قرأت سيرة حياتها لأول مرة في موسوعة من الموسوعات . ولكن هل تعلم أنت من هي كونتيسة باري ؟ تكلم : أتعلم أم لا ؟

دمدم الشاب يقول رغم ارادته تقريباً ، ولكن بلهجة ساخرة :

ـ لكأنك الانسان الوحيد الذي يعلم ذلك !

قال ليديف يجيبه :

ـ هي كونتيسة خرجت من حمأة العار فأصبحت شبه ملكة ، حتى ان امبراطورة كبيرة خاطبتها بقولها « يا ابنة عمي » * في رسالة كتبتها بخط يدها . وحين تنصيب الملك (هل تعرف ما هو تنصيب الملك ؟) تطوّع كاردينال هو سفير البابا ليلبسها جوربيها الحريريين :

كان يعد ذلك شرفاً له ، رغم علو مقامه ، وقداسة منصبه ! هل تعلم ذلك؟ أرى في وجهك أنك تجهل هذا . فكيف ماتت هذه الكونتيسة ؟ أجب ان كنت تعلم !

ـ دعني وشأني ! انك تضجرني !

ـ اسمع كيف ماتت . بعد جميع تلك الأمجاد ، وبعد تلك المكانة التي جعلتها نصف ملكة ، جرّها الجلاد سامسون الى المقصلة ، رغم أنها كانت بريئة ، وذلك ليدخل المسرة والبهجة الى نفوس العاميات من نساء باريس . وقد بلغت من الذعر والرعب أنها لم تفهم شيئاً مما كان يُراد أن يُفعل بها ، فلما أحست أن الجلاد يحني رقبتها ليضعها تحت سكين المقصلة ، ويدفعها الى أمام ركلاً بقدميه ، بينما الناس من حولها يضحكون مقهقهين ، أخذت تصرخ قائلة : « لحظة واحدة أخرى يا سيدي الجلاد ، لحظة واحدة أخرى ! » * . اذن لعل تلك اللحظة هي التي ستشفع لها عند الله فيغفر لها ، ذلك أنه لا يمكن أن يتخيل المرء عذاباً للنفس الانسانية أكبر من ذلك العذاب ! هل تعلم ماذا تعني كلمة « عذاب » ؟ * انها تعني تلك اللحظة بعينها ! حين قرأت الفقرة التي تذكر صرخة الكونتيسة ضارعةً أن تُمهل لحظةً واحدة ، انقبض قلبي كأنما أمسك بها فكاً كماشة . أي ضير يصيبك أنت ، أيها التافه ، اذا أنا خطر ببالي أن أدعو الله لتلك الخاطئة الكبيرة أثناء صلواتي قبيل الرقاد ؟ لئن فعلت ذلك ، فربما لأن أحداً لم يدر في خلده حتى الآن أن يصلي على روحها أو أن يدعو لها أو حتى أن يرسم من أجلها اشارة الصليب . لسوف يبهج قلبها حتماً ، في الحياة الآخرة ، أن تحسّ أنه قد وُجد على هذه الأرض خاطئ مثلها صلّى على روحها ولو مرة واحدة ! ما بالك تضحك ساخراً ؟ ألست تؤمن بهذا أيها الملحد ؟ وما مدى علمك بهذه الأشياء أنت ؟ ثم انك قد سمعت كلامي فنقلته محرّفاً أو ناقصاً : أنا لم

أصلِّ على روح كونتيسة بارى فحسب ، وانما قلت : « اللهم هَبْ راحة النفس للخاطئة الكبيرة الكونتيسة بارى ، ولجميع أولئك اللواتى يشبهنها ! » . وهذا يختلف كثيراً عما نقلته أنت ، ذلك أن فى العالم الآخر كثيراً من الخاطئات الكبيرات اللواتى عرفن تقلب الحظ ، وقاسين من ظروف الحياة ، وتوجعن من عذاب الاحتضار والانتظار . ولقد دعوت أيضاً لك ولأمثالك ، أمثالك من الوقحين الذين طلقوا الحياء وخلعوا العذار ! هكذا صليت أنا ، ما دمت تقحم نفسك فى التنصت على صلواتى !.

قاطع ابن الأخت خاله قائلاً :

ـ طيب طيب ... كفى هذا ! صلِّ كما تشاء ، وليأخذك الشيطان ! لا حاجة الى الصراخ ...

ثم التفت الى الأمير فأضاف يقول بلهجة اصطنع فيها السخرية :

ـ ويجب أن نقول لك يا أمير ان عندنا عالماً هو خالى هذا ! أكنت لا تعرف ذلك ؟ انه يقضى وقته الآن عاكفاً على قراءة جميع أنواع الكتب والمذكرات التى من هذا النوع !

قال الأمير وقد بدأ يشعر نحو الشاب بكره :

ـ مهما يكن من أمر ، فان خالك رجل لا يخلو ... من قلب !

قال الشاب :

ـ أماديحك هذه ستصعد الى رأسه ، فتطيش عقله . انظر كيف يتلذذ بمذاقها منذ الآن ، واضعاً يده على صدره ، مضيّقاً فتحة فمه ! صحيح أنه ليس خالياً من الاحساس ! لكنه رجل خدّاع ، وهو فوق ذلك سكّير ، فهذه هذه البلية ! لقد اختل عقله كسائر أولئك الذين أدمنوا على السكر زمناً طويلاً . لذلك ترى كل ما فيه يتفكك .

أنا أسلّم بأنه يحب أولاده ، وأنه كان يعامل المرحومة معاملة فيها احترام .. بل انه يحبني أنا أيضاً ، والحمد لله على أنه لم ينسني في وصيته .

صاح ليبديف يقول غاضباً :

ـ لن أورثك شيئاً !

قال الأمير بصوت جازم وهو يتحول عن الشاب :

ـ اسمع يا ليبديف ، انني أعرف بالتجربة أنك رجل جد في شئون الأعمال متى شئت ... ولست أملك من الوقت الا قليلاً جداً ... فاذا كنت ... معذرة ... نسيت اسمك واسم نسبتك الى أبيك ، فهلاَّ ذكرتني بهما ؟

ـ تي ... تي ... تيموفئي .

ـ ثم ؟

ـ لوكيانوفتش .

فانفجر الجميع ضاحكين من جديد . وهتف ابن الأخت يقول :

ـ لقد كذب ! كذب حتى في ذكر اسمه . يا أمير ، ليس اسمه تيموفئي لوكيانوفتش بل لوكيان تيموفئفتش ! قل لنا لماذا كذبت ؟ لوكيان أو تيموفئي ، ألا يستوى الأمران ؟ وأى فرق بالنسبة الى الأمير أن يكون اسمك لوكيان أو تيموفئي ؟ يميناً انه يكذب للكذب ... لأنه تعود أن يكذب !

سأل الأمير وقد نفد صبره :

ـ هل صحيح ما يقول ؟

ـ صحيح . اسمى لوكيان تيموفئفتش .

بهذا اعترف ليبديف ذليلاً خافضاً عينيه طائعاً واضعاً يده على قلبه من جديد .

ـ ولكن لماذا كذبت اذن ؟ يا رب السماء !

تمتم ليديف يقول وهو يخفض رأسه مزيداً من الخفض :

ـ من المذلة !

ـ لا أرى أين المذلة في هذه الكذبة ! آه ... ليتني أعرف فقط أين أجد كوليا .

أضاف الأمير هذه الجملة الأخيرة وقد بدا عليه أنه يهمُّ أن ينصرف. فقال الشاب :

ـ سأقول لك أين كوليا .

فأسرع ليديف يقاطعه قائلاً :

ـ لا ، لا !

وتابع الشاب كلامه فقال :

ـ بات كوليا الليلة عندنا ، ومضى في الصباح يبحث عن الجنرال الذي أخرجته أنت من سجن الديون يا أمير ، لا يعلم الا الله لماذا ! أمس وعد الجنرال أن يأتي الى هنا ليبيت ، ولكنه لم يظهر . ولعله ذهب يسكن على بعد خطوتين من هذا المكان في « فندق الميزان » . فلا بد اذن أن يكون كوليا هناك . الا أن يكون قد ذهب الى بافلوفسك يزور أسرة ايبانتشين . كان يريد أن يذهب اليهم منذ أمس ، اذ كان معه مال . فستجده اذن اما في « فندق الميزان » واما في بافلوفسك .

هتف ليديف يقول :

ـ في بافلوفسك ، في بافلوفسك ! أما الآن فلنذهب الى الحديقة ، من أجل أن .. .نشرب هناك القهوة ...

قال ليديف ذلك وأمسك الأمير من ذراعه فجرَّه الى الخارج ، الى فناء يفضي الى الحديقه من باب صغير .

الحديقة صغيرة ، لكنها جميلة . وبفضل حسن الجو كانت الأشجار جميعها في تفتح كامل .

أجلس ليديف الأمير على دكة من خشب مدهون بلون أخضر ، أمام مائدة مثبتة في الأرض ، خضراء اللون هي أيضاً . وجلس أمامه وجيء بالقهوة بعد لحظة ، فلم يرفضها الأمير . وظل ليديف يحدّق الى عيني الأمير بشراهة ، مفرطاً في الاكرام والمراعاة .

قال الأمير وهيئته هيئة انسان يفكر في شيء آخر لا صلة له بما يقول البتة :

ـ لم أكن أعرف أن لك ملكاً .

قال ليديف كأنما ليستأنف شكاواه :

ـ يتامى !

ولكنه سرعان ما كفّ عن ذلك .

كان الأمير ينظر الى أمام ، ذاهلاً ، فلا شك أنه قد نسي العبارة التي قالها منذ لحظة عن مِلْك ليديف . وانقضت دقيقة . ان ليديف مايزال يحدّق الى محدّثه منتظراً شرحاً أوسع .

قال الأمير وكأنه عاد الى شعوره :

ـ طيب ، ماذا ؟ ها ... نعم ... أنت تعلم الأمر حق العلم يا ليديف . لقد جئتُ اليوم عقب الرسالة التي تلقيتها منك . فتكلم !

اضطرب ليديف ، وأراد أن يقول شيئاً ، لكنه لم يزد على أن نطق بأصوات غير مفهومة . فكان الأمير يصبر عليه ، ويبتسم ابتسامةً حزينة.

ـ يخيَّل اليّ أنني أفهمك جيداً يا لوكيان تيموفئتش . كنتَ لا تتوقع مجيئي طبعاً. كنت تقدّر أنني لنأترك عزلتي عند تلقي أول رسالة لم تبعثها اليّ الا من باب تبرئة الذمة . ولكن هأنت ذا ترى انني جئت .

هلمّ ... لا تحاول أن تخدعني • انقطع عن خدمة اثنين في آن واحد• لا يجب أن يكون لك سيدان• ان روجويين موجود هنا منذ ثلاثة أسابيع• أنا أعرف كل شيء • هل استطعت أن تبيعه هذه المرأة كما فعلت في المرة الماضية ؟ قل الحقيقة •

ـ بل اكتشفها بنفسه ، هذا الشيطان الخبيث !

ـ لا تشتمه : يظهر أنه أساء معاملتك •

ـ قال ليبديف مهتاجاً :

ـ أشبعني ضرباً ، نعم ، أشبعني ضرباً • وفي قلب موسكو حرّض عليّ كلبه الفظيع ، كلبه السلوقي الرهيب ، فظل الكلب يطاردني من أول الشارع الى آخره •

ـ انك تعدني طفلاً يا ليبديف • قل لي : أهي تركته جادةً حين تركته بموسكو منذ مدة قصيرة ؟

ـ جادةً ، جادةً ، بل انها قد تركته هذه المرة قبيل الاحتفال بالزواج ... كان يعدُّ الدقائق بانتظار أن يحين موعد الاحتفال بالزواج• هربت من موسكو الى بطرسبرج ، فجاءت اليّ رأساً تقول : « انقذني ، هيء لي عندك مأوى يا لوكيان ، ولا تذكر للأمير شيئاً • انها تخشاك أكثر مما تخشاه أيضاً يا أمير ، وذلك هو السر !

قال ليبديف ذلك وحمل اصبعه الى جبينه متخابثاً • سأله الأمير :

ـ والآن ، هل قرّبت بينهما من جديد ؟

ـ يا سمو الأمير العظيم ... هل كان يمكنني أن أعارض هذا التقارب بينهما ؟

ـ طيب • سأستطلع الأمر بنفسي • ولكن قل لي : أين هي الآن؟ عنده ؟

ـ لا ، لا . انها ما تزال تعيش وحدها . وهي تقول : « أنا حرة ». اعلمْ يا أمير انها تلح كثيراً على هذه النقطة. انها ماتنفك تكرر : « ما أزال أملك حـريتي كاملة » . ما تزال تقيم في شـارع بطرسبرجسكايا ، عند زوجة أخي ، كما ذكرت لك هذا في رسالتي .

ـ أهي الآن هناك ؟

ـ نعم . اللهم الا أن تكون في بافلوفسك ، فلعلها انتهزت فرصـة جمال الجو ، فمضت تصطاف عند داريا ألكسيفنا . انها تكرر دائماً قولها : « أنا أملك حـريتي كاملة » . أمس تباهت باسـتقلالها أمـام نيقـولا آرداليونوفتش * (كوليا) . هذه علامة سيئة .

وأخذ ليديف يبتسم .

ـ هل يزورها كوليا في أحيان كثيرة ؟

ـ صبي طائش ، صبي لا أفهمه ، عاجز عن المحافظة على سر .

ـ هل كان ذهابك اليها منذ مدة طويلة ؟

ـ انني أذهب اليها كل يوم ، بلا تخلف !

ـ اذن ذهبت اليها أمس ؟

ـ لا . منذ ثلاثة أيام لم أرها .

ـ خسارةً أنك سكران قليلاً يا ليديف ! ولولا ذلك لألقيت عليك سؤالاً آخر .

أجاب ليديف وهو ينصب أذنه :

ـ لا ، لا ، لم أشرب شيئاً البتة .

ـ قل لي : على أي حال تركتها ؟

ـ هِمْ ... تركتها على حال امرأة تبحث .

ـ امرأة تبحث ؟

ـ نعم ، امرأة تبحث بغير انقطاع ، كأنما هي فقدت شيئاً . أما زواجها المرتقب ، فان مجرد تفكيرها فيه يثير اشمئزازها ، وهي تغضب اذا حُدِّثت فيه . وقد أصبحت لا تعبأ « بصاحبنا » أكثر مما تعبأ بقشرة برتقالة ، بل قل انه أصبح لا يوقظ في نفسها الا شعوراً بالهول . انها تمنع أي انسان من أن يأتي على ذكره ... وهما لا يلتقيان الا في حالات الضرورة القصوى ... وهو يدرك ذلك حق الادراك . ولكن لا بد لها من الاذعان أخيراً ، فلن تفلت منه !... انها قلقة ، ساخرة ، ملتبسة ، سريعة الاهتياج !

ـ ملتبسة سريعة الاهتياج ؟

ـ نعم ، سريعة الاهتياج . من ذلك أنها أوشكت أن تشد شعري اثناء حديث بسيط قام بيني وبينها في زيارتي الأخيرة لها .

سأله الأمير وقد قدَّر أنه لم يسمع كلام ليبديف سماعاً واضحاً :

ـ كيف ؟

ـ سأقول لك . لقد حدث هذا بينما كنت أقرأ لها رؤيا القديس يوحنا . ان للسيدة خيالاً مضطرباً قلقاً . هيء هيء ! وقد لاحظتُ لديها، عدا ذلك ، ميلاً بارزاً الى المناقشات الجدية والموضوعات الخارقة. انها تؤثر هذه الموضوعات ، وترى أن محادثتها فيها دليل على احترامها . هذا هو الواقع . وأنا متمكن جداً من تأويل رؤيا القديس يوحنا التي أدرسها منذ خمس عشرة سنة ، وقد وافقتني على رأيي حين قلت لها اننا وصلنا الى العهد الذي يمثله الحصان الثالث ، الحصان الأسود الذي يمسك راكبه ميزاناً بيده . ذلك أن كل شيء في عصرنا هذا يُزان بميزان وينظم بعقد ، وليس لأحد من هم الا أن يبحث عن حقه ويسعى اليه . « ثمنية قمح بدينار ،

وثلاث ثمنيات شعير بدينار » * • وهم فوق ذلك يريدون جميعاً أن يحتفظوا بحرية الفكر وطهارة القلب ، وصحة الجسم ، وجميع ما وهب الله • لكنهم لن يصلوا الى هذا بطرق الحق وحدها • لأن الحصان الشاحب لونه سيظهر هو وراكبه الذي اسمه « الموت » والذي يتبعه « الجحيم » *• هذه هي الموضوعات التي نعالجها حين نلتقي ، فتأثر بها تأثراً قوياً •

سأله الأميرُ وهو ينظر اليه مدهوشاً :

ـ هل تؤمن أنت نفسك بهذا كله ؟

ـ أؤمن وأؤول • انني ، وأنا الفقير العاري، لست الا ذرة فيالزوبعة الانسانية • من ذا الذي يحترم ليديف ؟ ان كل واحد يجرِّب مكره فيه ، ويكاد يركله برجليه ان صح التعبير • ولكنني في مجال التأويل أساوي أكبر سيد من السادة • تلك هي ميزة الذكاء • ان فكري المتوقد قد أفزع عظيماً من العظماء ذات يوم فأخذ يرتعش على مقعده • حدث ذلك منذ سنتين ، قبل أعياد الفصح • ان صاحب السعادة نيل ألكسيفتش، حين سمع عني أيام كنت تحت امرته في الوزارة ، استدعاني الى مكتبه خصيصاً ، وسألني : « هل صحيح أنك استاذ في تأويل النبوءات الخاصة بالأعور الدجّال ؟ » ، فلم أكتمه أن هذا حق ، وأخذت أقرأ عليه وأشرح له النص المقدس • ولم أحاول أن ألطّف ما يشتمل عليه النص من تهديد بأخطار رهيبة ، بل توسعت في شرح الرموز وغصت الى أعماق معنى الأرقام • وقد أخذ يضحك في أول الأمر ، ولكنه ازاء دقة الأرقام ووضوح المقارنات ، لم يلبث أن أخذ يرتعش ، ثم رجاني أن أطوي الكتاب وأن أنصرف • وأمر لي في عيد الفصح بمكافأة • ولم ينقض على ذلك أسبوع حتى فاضت روحه وذهبت الى بارئها •

ـ ما هذا الذي تقوله يا ليديف ؟

ـ هو الحقيقة بعينها ، فقد سقط من مركبته بعد العشـاء ، فاصطدم صدغه بحجر حائط فمات على الفور . ان سجلات وظيفته تدل على أن عمره كان ثلاثة وسبعين عاماً. وهو رجل يضرب لونه الى حمرة ، أبيض الشعر ، معطَّر دائماً ، مبتسم بغير انقطاع ، كطفل . وقد تذكَّر بطرس زاخارتش عندئذ زيارتي له فقال : « تنبأت أنت بما حدث له » .

نهض الأمير لينصرف . فدُهش ليديف ، حتى لقد آلمه أن يراه متعجلاً هـذا التعجل . فجـازف وقال له بلهجـة فيها كثير من الاكرام والمداراة والمراعاة :

ـ أرى أنك أصبحت لا تكترث !

فأجاب الأمير يقول منزعجاً :

ـ الحق أن صحتي سيئة . انني أشعر بثقل في رأسي . قد يكون مردُّ هذا الى مشقة السفر .

قال ليديف على وجل واستحياء :

ـ تحسن صنعاً اذا مضيت ترتاح وتستجم في الريف .

فظل الأمير واقفاً واجماً . وتابع ليديف كلامه يقول :

ـ أنا مثلاً ، سأذهب الى الريف مع جميع أفراد الأسرة بعد يومين أو ثلاثة أيام . هذا أمر لا غنى عنه لصحة الطفل الوليد ؛ وسيتيح لي السفر اجراء جميع الاصلاحات اللازمة هنا . والى بافلوفسك انما سأذهب أيضاً.

قال الأمير يسأله فجأة :

ـ وأنت أيضاً ستذهب الى بافلوفسك ؟ ها ... اذن يذهب جميع الناس هنا الى بافلوفسك ! وتقول ان لك هنـالك منزلاً ريفيـاً ، أليس كذلك ؟

ـ لا يذهب جميع الناس الى بافلوفسك • ولكن ايفان بتروفتش بتسين قد تنازل لى عن احدى الفيللات التى حصل عليها هناك بثمن بخس• المكان جميل ، مرتفع ، مخضوضر• وتكاليف المعيشة غير باهظة ، والمجتمع راق ، وسوف نستمتع هناك بالموسيقى *• ذلك هو السبب فى أن بافلوفسك يرتادها الناس كثيراً • على أننى سوف أكتفى بجناح صغير ، أما الفيللا••

ـ هل أجَّرتها ؟

ـ ل ••• لا ••• لم أؤجرها تماماً •

قال الأمير يقترح عليه فجأة :

ـ أنا أستأجرها •

واضح أن ما كان ليديف يريد أن يقود اليه انما هو هذا الطلب• ان هذه الفكرة تدور فى ذهنه منذ ثلاث دقائق • ولم يكن مع ذلك يبحث عن مستأجر ، فان هناك شخصاً أعلن له أنه « قد » يستأجر الفيللا • وكان هو يعلم أن كلمة « قد » هذه تعدل اليقين • لكنه تصوَّر فجأة النفع التى سيجنيه من تأجيره الفيللا للأمير ، فسمح لنفسه بهذا على أساس أن المستأجر الآخر لم يثبِّت وعده بالاستئجار • قال يخاطب نفسه : « هذا نزاع جديد يلوح فى الأفق ، وهذه هى الأمور تجرى مجرى جديداً كل الجدة ! » • لذلك استقبل اقتراح الأمير بنوع من الحماسة ، فلما سأله الأمير عن الكراء رفع يديه بحركة تعنى أنه لا يكترث بالكراء ، وأنه لا يطمع فى منفعة •

قال الأمير :

ـ طيب • سأدفع لك ما يرضيك • سوف أسأل عن السعر ، فلا تخسر شيئاً •

وكانا على وشك أن يخرجا من الحديقة . فاذا بليبديف يدندن قائلاً ، وهو يتواثب حول الأمير فرحاً :

ـ في وسعي يا أمير ، في وسعي يا أمير ، اذا أنت شئت ذلك ، أن أبلغك أمراً هاماً جداً عن المسألة التي تهمنا ...

توقف الأمير . وتابع ليبديف كلامه :

ـ ان داريا ألكسيفنا تملك ، هي أيضاً ، فيللا في بافلوفسك ...

ـ وبعد ؟

ـ ان الشخصية التي يعنينا أمرها هي صديقتها ، ويظهر أنها تنوى أن تتردد عليها كثيراً في بافلوفسك . ان لها هدفاً .

ـ أي هدف ؟

ـ آجلايا ايفانوفنا ...

ـ هوه ! كفى يا ليبديف !

لذلك قاطع الأمير ليبديف ممتعضاً امتعاض انسانٍ مُسَّت فيه نقطة موجعة . وأضاف :

ـ ليس هذا هو الأمر . الأفضل أن تقول لى متى تنوى أن تسافر. واعلم ان الاسراع في السفر يناسبنى أكثر مما يناسبنى الابطاء ، لأننى في الفندق ...

كان الرجلان قد اجتازا الحديقة وهما يتحدثان . ولم يرجعا الى المنزل ، بل عبرا الفناء متجهين نحو باب الخروج .

قال ليبديف بعد لحظة تفكير :

ـ أرى أن من الخير أن تترك الفندق في هذا اليوم نفسه ، فتأتى تقيم هنا ، ثم نسافر معاً الى بافلوفسك بعد غد .

قال الأمير شارد الذهن ، وهو يصل الى الشارع :

ـ سوف أرى .

تابعه ليديف بنظره . وقد أدهشه هذا الذهول المفاجىء فى الأمير الذى نسى أن يودّعه حين خـرج ، بل غفل حتى عن تحيتـه . ان هذا النسيان لا يتفق وما عهده ليديف فى الأمير من حسن الآداب وبشاشة المعاملة ولطف السلوك .

الفصل الثالث

الساعة

تقارب الثانية عشرة ظهراً . كان الأمير يعرف أنه لن يجد فى المدينة من آل ايبانتشين الا الجنرال الذى تمنعه أعماله من مغادرة المدينة . حتى ان هذا نفسه ليس مؤكداً .

خطر ببال الأمير أن الجنرال قد يستعجل أخذه الى بافلوفسك ؛ ولكن الأمير يحرص كثيراً على زيارة يجب أن يقوم بها قبل أن يذهب الى بافلوفسك . فقرر أن يبحث عن المنزل الذى كان لا بد أن تقوده اليه تلك الزيارة ، ولو ترتب على ذلك أن يصل الى دار آل ايبانتشين متأخراً ، وأن يؤجل رحلة بافلوفسك الى الغد .

والمسعى الذى سيقوم به الأمير يشتمل على بعض المخاطر من بعض النواحى . ومن ثم كان ارتباكه وكان تردده . وكان يعلم أن المنزل الذى يجب أن يهتدى اليه يقع فى شارع « الباسلاء » الذى لا يبعد عن شارع «الحدائق» . فقرر أن يتجه اليه من هذه الجهة آملاً أن يعزم أمره أثناء الطريق على قرار حاسم .

فلما اقترب من تقاطع الشارعين أدهشه الاضطراب الشديد الخارق الذى اجتاحه واستولى عليه . لم يكن يتوقع أن يحس بقلبه يخفق هذا الخفقان القوى . ولفت نظره أحد المنازل من بعيد . أغلب الظن أن غرابة مظهر هذا المنزل هى التى لفتت نظره . وقد تذكر بعد ذلك أنه قال عندئذ

لنفسه : « لا شك أن المنزل الذى أبحث عنه هو هذا » • وتقدم مدفوعاً بفضول شديد ليتحقق من صدق تخمينه ، مع شعوره سلفاً بأنه سيزعجه أن يصدق ظنُّه • المنزل عمارة كبيرة مظلمة ذات ثلاثة طوابق ، ليست بذات طراز ، واجهتها خضراء اللون وسخة • ان عدداً قليلاً جداً من المبانى التى من هذا النوع والتى يرجع عهدها الى نهاية القرن الماضى مايزال قائماً فى هذا الحى من بطرسبرج (حيث يتغير كل شىء بسرعة)• انها مبانٍ متينة ، سميكة الجدران ، واسعة النوافذ جداً ، تُحصَّن شبابيكها أحياناً بقضبان حديدية فى الطابق الأرضى الذى تشغله دكان صرَّاف (من ملة الخصيان *) • ان المخصى الذى يملك الدكان يسكن عامةً فى الطابق الذى يعلوها • وان ظاهر هذه المنازل كباطنها جفوة وعبوساً : فكل شىء يبدو للمرء فيها بارداً ، موصداً ، سرياً ، دون أن يستطيع المرء مع ذلك أن يحلل بواعث هذا الشعور بسهولة • لا شك ان التزاوج بين الخطوط المعمارية فى هذه المنازل يشتمل على شىء يُشعر بالسرية والخفاء • ويندر أن يسكن هذا المنازل الا تجار •

اقترب الأمير من باب الفناء ، وقرأ على لوحة معدنية : « منزل روجوين ، بورجوازى فخرى وراثى » * • وتغلب على تردده فدفع باباً ذا زجاج ، ودخل ، فانغلق الباب وراءه محدثاً ضجة • وصعد الى الطابق الأول على السلم الكبير • ان السلَّم مبنى باحجار غليظة ، غائب فى الظل بين جدران مدهونة بلون أحمر • كان الأمير يعرف أن روجوين يحتل مع أمه وأخيه كل الطابق الأول من هذا المبنى الكئيب • فتح له الخادم الباب ؛ ودون أن يُخبر بوصوله ، قاده خلال سلسلة من الغرف : دخلا أولاً الى قاعة عرض ، جدرانُها تحاكى المرمر ، وأرضها من خشب السنديان ، وأثاثها الثقيل الغليظ من طراز عام ١٨٢٠؛ ثم ولجا سلسلةً من حجرات صغيرة يقطعها المرء بلف ودوران وتعرج • ثم صعدا درجتين أو

ثلاث درجات ، ثم هبطا درجتين أو ثلاث درجات. وفى النهاية قرعا باباً. ففتح لهما بارفيون سيميونوفتش روجويين بنفسه . فلما رأى روجويين الأميرَ جمد فى مكانه ذاهلاً ، واصفر لونه ، حتى صار يشبه ، خلال بضع لحظات ، تمثالاً من حجر . ان نظرته المحدّقة الثابتة تعبر عن ذعر ورعب ، وان فمه تقلّصه ابتسامة مبهوتة . لقد بدا له حضور الأمير حادثاً لا يتصوره العقل ، بل حادثاً يكاد يكون معجزة . ود هش الزائر من هذا ، رغم أنه كان يتوقع أن يحدث حضوره أثراً من هذا النوع .

قال الأمير وهو يشعر بحرج :

ــ ربما كان مجيئى مزعجاً يا بارفيون . فاذا صحَّ هذا فسوف أنصرف .

فقال بارفيون وقد ثاب الى رشده :

ــ لا ، أبداً ! تفضل ادخل !

كان الرجلان يتخاطبان بصيغة المفرد . لقد أتيح لهما أن يلتقيا بموسكو كثيراً وطويلاً . حتى لقد اشتملت لقاءاتهما على لحظات تركت فى نفس كل منهما أثراً لا يمحى . ولم يلتقيا بعد ذلك منذ أكثر من ثلاثة أشهر .

ما يزال وجه روجويين شاحباً . وما تزال تشنجات خفيفة خاطفة تقلص هذا الوجه . ورغم أنه أدخل الزائر فانه ما يزال يشعر باضطراب لا حيلة له فى دفعه . ودعا الأمير الى الجلوس على مقعدٍ قربَ المائدة ، ولكن الأمير حين التفت نحو روجويين مصادفةً ، تجمّد فى مكانه تحت نظرة غريبة غرابة هائلة كان يلقيها عليه روجويين ، حتى لكأنها تخترقه اختراقاً ؛ وعادت الى ذهنه فى الوقت نفسه ذكرى حديثة ، أليمة ، مبهمة؛ فبدلاً من أن يجلس ، لبث واقفاً ، ساكتاً سكوناً كاملاً ، محدقاً الى عينى

روجويين بنظرة ثابتة خلال لحظات . فأخذت عينا روجويين تسطعان ببريق فيه مزيد من القوة . وابتسم روجويين أخيراً ، ولكن ابتسامته كانت تشي باضطرابه وحزنه .

وتمتم يقول للأمير :

ـ لماذا تنظر الىّ هذه النظرة الثابتة ؟ اجلس .

فجلس الأمير . وقال :

ـ بارفيون ، كلمني بصراحة. أكنت تعلم أنني سأصل الى بطرسبرج اليوم ؟

أجاب روجويين وهو يبتسم ابتسامة مرة :

ـ كنت أقدّر أنك قد تجيء ، وها أنت ذا ترى أنني لم يخطيء تقديري ، ولكن كيف كان يمكنني أن أحزر أن وصولك سيكون فى هذا اليوم نفسه ؟

كان العنف والحنق فى لهجة هذا السؤال الذى ألقاه روجويين والذى كان في الوقت نفسه جواباً ، باعثاً جديداً للأمير على الدهشة . فقال الأمير برفق ولين بينما كان الاضطراب يجتاح نفسه :

ـ وهبْك عرفت انني سأصل « فى هذا اليوم نفسه » ، فلماذا تغضب هذا الغضب ؟

ـ وأنت ، لماذا تلقى علىّ أنت ذلك السؤال ؟

ـ لأنني فى هذا الصباح ، بينما كنت أنزل من القطار ، لاحظت فى زحمة الجمهور عينين تشبهان كل الشبه العينين اللتين كنت تحدّق بهما الىّ من ورائى منذ برهة .

فجمجم روجويين يقول مرتاباً :

ـ غريب ! ترُى ، هما عينا من ؟

ولكن خيِّل الى الأمير أن روجويين قد ارتعش •

قال الأمير :

ـ لا أدرى • كان ذلك فى زحمة الجمهور • ومن الجائز على كل حال أن أكون قد توهمت • أصبحت تنتابنى أوهام كثيرة من هذا النوع فى الآونة الأخيرة • لقد صرت ، يا عزيزى بارفيون ، فى حالة قريبة من الحالة التى كنت عليها قبل خمس سنين ، أيامَ كانت تعترينى نوبات•

دمدم بارفيون قائلاً :

ـ جائز أنك كنت فريسة وهم • لا أدرى !

وتغيرت ابتسامة التلطف التى كانت مرتسمة على شفتيه فى تلك اللحظة ؛ وظهرت ابتسامة جديدة تعبر عن مشاعر متفرقة وعواطف شتى كان عاجزاً عن أن يؤلف بينها •

قال يسأل :

ـ أأنت مسافر الى الخارج مرة أخرى ؟

ثم أضاف فجأة :

ـ هل تتذكر كيف التقينا فى الخريف الماضى فى قطار بسكوف ـ بطرسبرج ••• هل تتذكر معطفك ولبَّادتى حذاءيك ؟

وأخذ روجويين فى هذه المرة يضحك بخبث صريح ومكر واضح سرَّه أن يطلق لهما العنان •

سأله الأمير وهو يلقى نظرة على الحجرة :

ـ هل استقر بك المقام هنا تماماً ؟

ـ نعم ، أنا هنا فى بيتى ؟ أين تريد لى أن أذهب ؟

ـ نحن لم نلتق منذ مدة طويلة • وقد سمعت عنك أشياء يصعب علىَّ أن أصدِّقها •

أجاب روجوين بجفاف :

ـ ما أكثر ما يقوله الناس !

ـ ولكنك طردت عصبتك كلها ، ولجأت الى منزل أهلك ، وأصبحت لا تهرب منه . هذا شيء حسن . هل المنزل لك أنت ، أم هو مشترك بين الأسرة كلها ؟

ـ هو لأمي . وشقتها تقع في الجهة الأخرى من الممر .

ـ وأين يسكن أخوك ؟

ـ أخي سيميون سيميوفتش يسكن في جناح .

ـ أهو متزوج ؟

ـ هو أرمل . ما حاجتك الى معرفة هذا ؟

نظر اليه الأمير دون أن يجيب . لقد أصبح واجماً شارد الذهن ، فكأنه لم يسمع السؤال . ولم يلح روجوين ، بل سكت ينتظر .

ولبث الاثنان صامتين برهةً من الوقت .

قال الأمير :

ـ تعرفت منزلك من أول نظرة ، من على مسافة مائة متر !

ـ كيف هذا ؟

ـ لا أدري كيف أعبّر لك . ان لمنزلك هيئةً هي هيئة أسرتك كلها ، وهيئة طراز حياتك . ولكن اذا سألتني أن أشرح لك مصدر هذا الشعور عندي ، لم أستطع أن أفعل . أغلب الظن أن هذا نوع من الهذيان . حتى انني ارتعب حين أرى مدى تأثري بهذه الأمور. لم تكن في ذهني أية فكرة عن المنزل الذي تسكنه ، ولكن ما ان رأيته حتى قلت لنفسي : « هذا بعينه نوع المنزل الذي لا بد أن يسكنه ! » .

قال روجوين وقد ارتسمت على شفتيه ابتسـامة غامضة ، دون أن يفلح فى ادراك الفكرة المبهمة التى قالها الأمير :

ـ حقاً ! وان جدى هو الذى بنى هـذا المنزل • وقد سـكنه دائماً أناس من ملة « الخصيان » ، هم آل خلودياكوف • ولا يزالون يستأجرونه حتى اليوم •

قال الأمير وهو ينظر حواليه :

ـ ظلام حالك ! انك تعيش فى غرفة معتمة جداً •

كانت الحجرة غرفة واسعةً ، عالياً سقفها، لايدخلها ضوء ، مزدحمةً بأشتات من الأثاث : مناضد، مكاتب، خزائن ملأى بالسجلات والقراطيس• وكان هناك ديوان عريض منجَّد بجلد أحمـر لا شـك فى أن روجوين يستعمله سريراً • ولاحظ الأمير على المائدة التى كان روجوين قد أجلسه بقربها ، لاحظ كتابين أو ثلاثة كان أحدها ، وهو « كتاب التاريخ » الذى ألفه سولوفيف * ، مفتوحاً على صفحة محدَّدة بشريطة • وقد عُلِّقت بالجدران بضع لوحات زيتيـة ذات أطر مزخرفة ، وقد بلغت من القتامة والتشحر أن المرء لا يكاد يميِّز فيها شيئاً البتة • غير أن هناك صورة رجل بالحجم الطبيعى لفتت نظر الأمير • هو رجل فى نحو الخمسـين من العمر، يرتدى ردنجوتاً أجنبيَّ التفصيلة ولكنه طويل الحواف ، ويتدلى على عنقه وسامان ، وله لحية متناثرة قصيرة شائبة ، ووجـه مجمَّد أصفر ، ونظرة متجهمة عابسة •

سأل الأمير :

ـ أليس هو أباك ؟

فأجاب روجوين يقول مبتسماً ابتسامةً سيئة كأنما هو يتأهب لأن يقذف بمزاحة ثقيلة فى حق أبيه :

ـ نعم ، هو بعينه !

ـ هل كان ينتمي الى ملة « المؤمنين القدامى » ؟ *

ـ لا ! كان يذهب الى الكنيسة ٠ ولكنه كان يزعم فعلاً أن الشعائر القديمة كانت أقرب الى الحق ٠ وكان عدا ذلك يحترم « ملة الخصيان » ٠ وكانت حجرة مكتبه هي هذه الحجرة التي نحن فيها الآن ٠ لماذا سألتني هل كان ينتمي الى « المؤمنين القدامى » ؟

ـ هل ستحتفلون بالعرس هنا ؟

ـ هـ ٠٠٠ هنا ٠٠٠

كذلك أجاب روجويين الذي أوشك أن يرتجف عند سماع هذا السؤال المفاجىء غير المتوقع ٠

ـ هل سيتم الزواج في القريب ؟

ـ أنت تعلم أن هذا لا يتوقف عليّ أنا ٠

ـ بارفيون ، أنا لست عدوّك ، ولست أنوي أن أعرقل أي أمر من أمورك ، أو أن أقف عقبةً في طريقك ٠ أكرر لك هذا الآن كما سبق أن أعلنته لك ذات مرة ، في لحظة شبيهة بهذه اللحظة ٠ انك لتعلم انني لست الذي منع زواجك حين كان على وشك أن يتم بموسكو ٠ ففي المرة الأولى « هي » التي هرعت اليّ لحظةَ زفافكما تقريباً لترجوني أن أنقذها منك٠ هذه كلماتها هي أكررها لك بنصّها ٠ ثم هربت مني أنا أيضاً ٠ فاهتديتَ أنت اليها وقدتها الى الكنيسة مرة أخرى للزواج ٠ والآن يُقال لي انها فرّت منك من جديد وجاءت تلوذ ببطرسبرج ٠ هل هذا صحيح ؟ ان ليديف هو الذي أبلغني النبأ ٠ وبسبب ذلك انما جئت ٠ ولقد علمت أمس ، في القطار ، من فم أحد أصدقائك القدامى ـ وهو زاليوجيف ، اذا أردت أن تعرف من هو ـ علمت أنكما عدتما فترابطتما ٠ ان رجعتي

الى بطرسبرج ليس لها الا هدف واحد : هو أن أقنعها أخيراً بأن تسافر الى الخارج لتسترد صحتها . فهي في رأيي مريضة جسماً وروحاً . رأسها، خاصةً ، مريض ؛ وحالتها تتطلب عناية كبيرة . ولا أنوي أن أصحبها ، وانما أريد أن أرتب سفرها دون أن أشاركها فيه . أقول لك الحقيقة خالصةً . ولكن اذا صدق أنكما رتبتما أموركما من جديد ، فلن أظهر أمام عينيها قط ، ولن أضع قدمي في بيتك . أنت تعلم أنني لا أخدعك ، لأنني كنت صادقاً معك على الدوام . لم أكتمك رأيي في هذا الأمر يوماً ؛ قلت لك دائماً انني أعتقد بأنها ستضيع حتماً اذا هي ارتبطت بك . ولسوف تضيع أنت أيضاً ... بل قد يكون ضياعك محتوماً أكثر من ضياعها . اذا انفصلتما من جديد ، سرّني ذلك كثيراً ، لكنني لن أساعد في تحقيق هذه القطيعة بينكما . فاطمئن اذن ، ولا يخالجنك فيّ ريب ، ولا تساورنْك شبهة . ثم انك تعلم حقيقة الأمر : أنا لم أكن منافساً « حقيقياً » لك في يوم من الأيام ، حتى حين لجأت اليّ ولاذت بي . هأنت ذا تضحك : انني أعرف سبب ضحكك . نعم لقد عشنا هناك ، أنا وهي ، منفصلين ؛ بل لقد عاش كل واحد منا في فيللا مستقلة : « أنت على علمٍ تام بهذا » . ألم أشرح لك قبل الآن « أنني أحبها لا حباً بل شفقة » . أعتقد أن التعريف صادق . ولقد صرّحت لي حينذاك بأنك تفهم ما أريد أن أقول . فهل هذا صحيح ؟ هل فهمت حقاً ؟ ما أشد هذا الكره الذي أراه في نظرتك ! أنا انما أتيت لأهدىء بالك وأطمئنك ، لأنك أنت أيضاً عزيز في نفسي. انني أحبك كثيراً يا بارفيون . أقول هذا وأرحل ثم لا أرجع قط . وداعاً !

نهض الأمير . فقال له بارفيون برقة ورفق ، ولم يكن قد نهض ، وانما هو ما يزال مسنداً رأسه الى يده اليمنى :

– ابق معي قليلاً ، فاني ما رأيتك منذ مدة طويلة .

فعاد الأمير يجلس . وساد صمت ، ثم قال روجوين :

ـ حين لا تكون أمامي يا ليون نيقولايفتش ، فانني سرعان ما أشعر بكره شديد لك ، وحقد قوي عليك . انني في خلال هذه الأشهر الثلاثة التي لم أرك أثناءها كنت أبغضك في كل لحظة من اللحظات . فلو استطعت لسرّني أن أقتلك بالسمّ حتماً ... يميناً لو استطعت لفعلت ذلك !... هذه هي الحقيقة . ولكن كرهي لك زال خلال ربع الساعة هذا الذي قضيناه معاً ، فاذا أنت عزيز في نفسي كما كنت عزيزاً فيها من قبل. ابق معي قليلاً ...

أجابه الأمير بمودة وصداقة ، محاولاً أن يخفي عواطفه تحت ستار ابتسامة خفيفة :

ـ حين أكون بقربك فانك تثق بي ، حتى اذا ابتعدت عنك بارحتك ثقتك وعدت ترتاب فيّ من جديد . انك تشبه أباك !

ـ أثق بك حين أسمع صوتك . أنا أدرك حق الادراك وأفهم كل الفهم أنني لا يمكن اعتباري مساوياً لك ، لا يمكن اعتباري نداً لك ...

قال الأمير وهو ينظر الى روجوين مدهوشاً :

ـ لماذا أضفت هذه الجملة الأخيرة ؟ هأنت ذا تغضب من جديد !

ـ نحن هنا ، يا صديقي ، لا نُسأل رأينا ، وانما تُرتَّب الأمور دون استشارتنا !

وصمت روجوين برهةً ثم أردف يقول بصوت خافت :

ـ كل واحد منا يحب بطريقته الخاصة ، أي اننا مختلفان في كل شيء . فأنت مثلاً تقول انك تحبها شفقةً ؟ أما أنا فلا أشعر نحوها في الواقع بأية شفقة . ثم انها تكرهني كرهاً عميقاً كاملاً . انني أراها الآن في

أحلامي كلّ ليلة : أراها مع شخص آخر ، وأراها تسخر مني . وهذا بعينه ما يحدث في الواقع يا عزيزي. انها ستتزوجني أنا ، ولكنها لا تفكّر فيّ أكثر مما تفكر في حذاءين أبدلتهما منذ لحظه . هل تصدقني اذا قلت لك انني لم أرها منذ خمسة أيام ، خوفاً من أن أذهب اليها ؟ فلو ذهبت اليها لسألتني لماذا جئت ... لشد ما غمرتني بالخزي والعار منذ الآن !.

ـ بالخزي والعار ؟ ماذا تقصد ؟

ـ كأنك لا تعرف ! لماذا هربت من الكنيسة حين كنا على وشك الزفاف ؟ ألم تهرب من أجل أن تفرّ معك ؟ أنت نفسك سلّمت بهذا منذ برهة .

ـ عجيب . ألا تصدقني حين أقول لك ان ...

ـ ألم تجللني بالخزي والعار حين قامت في موسكو بمغامرة مع ضابط من الضباط اسمه زمتيوجنيكوف ؟ أنا أعرف هذه الحقيقة الآن معرفة اليقين ، وقد حدث الأمر بعد أن حدّدت هي نفسها يوم العرس !

هتف الأمير يقول :

ـ مستحيل !

فقال روجويين باقتناع :

ـ أنا على يقين من هذا . قد تزعم لي أنت انها ليست كذلك . قلْ هذا الكلام لغيري يا عزيزي ! قد تتصرف معك أنت تصرفاً آخر ، حتى لقد يُشعرها مثل هذا الفعل عندئذ بهول رهيب . أسلّم لك بذلك. ولكنها معي لا يزعها وازع كهذا ، و لايساورها تورع من هذا النوع ! هذه هي الحقيقة . انها لا تعدني شيئاً مذكوراً ، انها لا تقيم لي أي وزن ! انني أعلم علم اليقين أن علاقة نشأت بينها وبين ذلك الضابط كيللر الذي

كان يمارس الملاكمة ، لا لشيء الا لتجعلني هزأة ! انك لا تعرف مدى ما لقيت منها بموسكو من عذاب ، ولا تعرف ما أنفقت بسببها من مال !..

سأله الأمير مروَّعاً :

ـ فلماذا تفكر في تزوجها الآن ؟

لم يجب روجويين بشيء في أول الأمر ، وحدج الأمير بنظرة ثابتة ثاقبة . ثم قال بعد برهة صمت :

ـ لم أذهب اليها مرةً واحدة منذ خمسة أيام . انني أخشى دائماً أن تطردني . انها ما تنفك تكرر قولها : « ما زلت حرة التصرف بنفسي . فاذا شئتُ طردتك طرداً تاماً وسافرت الى الخارج » .

وأضاف روجويين يقول كالمستطرد ، وهو يلقي على الأمير نظرةً ثابتة ملحة :

ـ سبق أن حدثتني هي عن هذا . صحيح أنها تتكلم أحياناً بغير قصد الا أن تخيفني . انها تجد فيَّ دائماً ما يمكن أن تتخذه موضوعاً للتندر والضحك . وفي أحيان أخرى تقطِّب حاجبيها ويكتسي وجهها طابع الهمِّ والغم ، وتسكت فلا تنطق بحرف : وذلك هو ما أخشاه أكثر من أي شيء آخر . قلت لنفسي في يوم من الأيام : لن أذهب اليها فارغ اليدين . فماذا حدث ؟ ان الهدايا التي حملتها اليها لم تزد على أن حرضتها مزيداً من التحريض على السخرية بل وعلى الغضب . حتى لقد أعطت خادمتها كاتيا شالاً رائعاً أهديته اليها ، شالاً لعلها ما رأت مثله في حياتها قط ، رغم الترف الذي كانت تعيش فيه . وأما أن أسألها تحديد يوم الزواج فذلك أمر لن أجازف فأفعله . ما أحلى وضع الخطيب الذي لا يجرؤ حتى أن يزور مَنْ ستكون زوجته ! لهذا تراني أقبع في بيتي ! حتى اذا نفد صبري ، ونضبت مقاومتي ، مضيت خلسةً أحوم حول منزلها أو أختبيء

فى ركن من الشارع • وفى ذا تمرة بقيت واقفاً أمام باب منزلها كالحارس الى مطلع الصبح تقريباً • كان قد تراءى لى اننى ألاحظ شيئاً ما • ولاشك أنها رأتنى من النافذة ، فها هى ذى تصرخ قائلةً : « ما عساك تستطيع أن تفعل بى اذا رأيت أننى أخونك ؟ » واذ لم أطق صبراً أجبتها قائلاً :

« أنت تعرفين » •

سأله الأمير :

ـ ما الذى تعرفه ؟

ـ أنىّ لى أن أعلم !

قال روجويين ذلك وهو يضحك ضحكة ساخرة • وواصل كلامه فقال :

ـ لم أستطع ، بموسكو ، أن أفاجئها مع أحد ، رغم اننى تجسست عليها مدة طويلة • فأخذتها مرة وقلت لها : « لقد وعدتنى بأن تتزوجينى• وستدخلين أسرة محترمة • هل تعرفين ماذا أنت ؟ انظرى ماذا أنت ! » •

ـ أقلتَ لها هذا ؟

ـ نعم ؟

ـ فماذا قالت ؟

ـ قالت : « أنا الآن لا أوافق على أن أكون زوجتك ؟ وربما كنت لا أرضاك خادماً ! » •

« فأجبتها :

« ـ وأنا لن أتحرك من هذا المكان •

« فقالت :

« ـ وأنا سأنادى كيللر ليطردك ويضعك خارج الباب •

« فهجمت عليها ، فما زلت أضربها حتى تغطى جسمها ببقع زرقاء •

صاح الأمير يقول :

ـ هذا مستحيل !

فقال روجويين مؤكداً بصوت خافت ، ولكن عينيه كانتا تلتمعان :

ـ بل هذه هي الحقيقة أقولها لك خالصةً . وظللت يوماً ونصف يوم على وجه الدقة لا أنام ولا أشرب ولا آكل ولا أغادر الغرفة . ظللت راكعاً على ركبتي أمامها أقول لها :

« سأفطس ، لكنني لن أخرج ما لم تكوني قد غفرت لي ، واذا وضعتني على الباب مطروداً ، مضيت أنتحر غرقاً ، اذ ما عساي أصبح بدونك ؟ » . وظلت هي طول النهار كالمجنونة ، فتارةً تبكي ، وتارةً تريد أن تقتلني بسكين ، وتارة تشتمني . واستدعت زاليوجيف وكيللر وزمتيوجنيكوف وسائر الآخرين ، لتريهم حالي ولتذلّني أمامهم .

« ـ هلموا نذهب الى المسرح هذا المساء عصبةً واحدة ، وليبق هو هنا اذا لم يشأ أن ينصرف ، فلست مضطرة أن أقبع بالبيت لأحرسه .. سيُقدَّم اليك الشاي دون أن أكون حاضرة يا بارفيون سميونوفتش ؟ لا بد أنك اليوم جائع .

« ورجعتْ من المسرح وحيدة . وقالت لي !

« ـ انهم جبناء رعديدون ... انهم يخافون منك ، ويريدون أن يخيفوني أنا أيضاً منك . قالوا لي : « انه لن ينصرف هكذا ... انه لا يتورع عن قتلك » ولكنني ، أنا ، حين سأمضي الى غرفتي للنوم بعد قليل ، لن أقفل الباب بالمفتاح ، فانظر الى أي حد أخاف منك ! أريد أن تعرف هذا وأن تراه . هل شربت شاياً ؟

« ـ لا ، ولن أشرب .

« ـ تريد أن تظهر أنفةً وكبرياء ، ولكن هذا لا يناسبك كثيراً .

« وفعلت ما قالت . لم تقفل الباب بالمفتاح . وحين خرجت في الصباح من غرفتها أخذت تضحك ، قالت :

« ـ أتراك جُننت ؟ أتريد أن تموت من الجوع حقاً ؟

« قلت لها :

« ـ اغفرى لى !

« ـ لا أريد أن أغفر لك . ولقد أنبأتك بأننى لن أتزوجك . هل لبثت على هذا المقعد حقاً طوال الليل بدون أن تنام ؟

« ـ نعم ، لم أنم لحظة واحدة .

« ـ ما أعظم هذا المكر ! . ألن تحتسى شيئاً من الشاى ؟ ألن تتعشى أيضاً ؟

« ـ قلت لك . لا أريد الا أن تغفرى لى .

« ـ ليتك تعلم الى أى حد لا يناسبك هذا الوضع ! انه لا يناسبك أكثر مما يناسب البقرة أن يوضع على ظهرها سرج * . أتراك تتصور أنك بهذا تخيفنى ؟ ولكن فيم يهمنى أنا أن يكون بطنك خاوياً ؟ هه !...

« وغضبتْ . لكن غضبها لم يدم طويلاً ، وعادت الى التهكم علىَّ . أدهشنى أن يزول غضبها بمثل تلك السرعة ، مع ما يتصف به طبعها من حقد وميل الى الانتقام . عندئذ خطر ببالى اننى فى نظرها أهون شأناً من أن تحقد علىَّ مدة طويلة . وكان ما خطر ببالى حقاً . فقد سألتنى :

« ـ هل تعرف ما البابا فى روما ؟

« فأجبتها :

« ـ سمعت عنه .

« قالت :

« ـ هل درست التاريخ العام يوماً يا بارفيون سيميونتش ؟

« ـ لم أدرس شيئاً .

« ـ اذن سأعطيك كتاباً تقرأ فيه قصة بابا غضب من امبراطور *، فاضطره أن يظل ثلاثة أيام لا يشرب ولا يأكل ، جاثياً على ركبتيه ، حافي القدمين ، عند مدخل قصره ، الى أن تفضل فعفا عنه وغفر له . هل تتصور ما قد دار في ذهن الامبراطور الراكع من أفكار خلال تلك الأيام الثلاثة ، وما قد حلف بينه وبين نفسه من أيمان ؟ ولكن انتظر : سأقرأ عليك هذا بنفسي .

« وركضت تجيء بالكتاب . وقالت لى : « هي أشعار » . وأخذت تقرأ عليَّ فقرة يدور الكلام فيها على مشاريع الانتقام التي آلى ذلك الامبراطور على نفسه لينفذنَّها ، بينما كان راكعاً مذلاً خلال تلك الأيام الثلاثة . وأضافت تسألني : « هل يمكن أن لا يعجبك هذا يا بارفيون سيميونوفتش ؟ » .

« قلت لها :

« ـ ان كل ما قرأته صحيح .

« ـ ها ... انك ترى هذا صحيحاً . واذن فلعلك أنت أيضاً تقول لنفسك : « حين تصبح زوجتي ، فلأذكّرنها بهذا اليوم ، ولانتقمنَّ لنفسي ! » .

« ـ لا أدري ! ذلك ممكن !

« ـ كيف لا تدري ؟

« ـ لا أدري . ليس هذا ما أفكر فيه الآن .

« ـ في أي شيء تفكر اذن ؟

« ـ اليك ما أفكر فيه : حين تنهضين ، وتمرين بقربى ، فاننى أنظر اليك ، وأتابعك بعينىَّ ، وأسمع حفيف ثوبك ، فيسقط قلبى ؛ وحين تغادرين الغرفة ، أتذكر كل كلمة من كلماتك بلهجتها ؛ وطوال الليل لم أفكِّر فى شىء ، وانما كنت أصغى الى أنفاسك ، ولاحظت أنك تحركت فى سريرك مرتين ...

« قالت ضاحكة :

« لعلك نسيت الكلمات التى هويت بها علىَّ أيضاً ؟

« ـ ربما كنت أفكر فيها ، لا أدرى ...

« ـ فماذا اذا لم أغفر لك ولم أتزوجك ؟

« ـ سبق أن قلت لك : ألقى بنفسى فى الماء فأموت غرقاً .

« قالت وقد شرد فكرها :

« ـ وقد تقتلنى قبل أن تلقى بنفسك فى الماء ؟

« ثم غضبت وخرجت . وبعد ساعة عادت فقالت لى عابسة :

« ـ سوف أتزوجك يا بارفيون سيمونوفتش . لا لأننى أخشاك ، فانه ليستوى عندى أن أهلك بهذه الطريقة أو بتلك . لكننى لا أجد مخرجاً أفضل من هذا المخرج ، اجلس . سوف تؤتى بعشائك . واذا تزوجتك فسأكون امرأة وفية ، فلا يراودنك شك فى هذا ، ولا تقلق .

وأضافت تقول بعد برهة صمت :

« ـ كنت أعدُّك من قبل خادماً حقيقياً ، لكننى كنت مخطئة .

« وهنا حدَّدت موعد زواجنا . غير أنها هربت منى بعد أسبوع ولجأت الى ليبديف . ولما وصلتُ الى بطرسبرج قالت لى : « أنا لم أعدل عن زواجك ، لكننى أريد أن أتمهل ، فما زلت حرة التصرف بنفسى ،

فانتظر أنت أيضاً ، اذا شئت أن تنتظر . » . الى هذه المرحلة وصلنا الآن ... ما رأيك فى هذا كله يا ليون نيقولايفتش ؟

فأجاب الأمير وهو ينظر الى روجويين بحزن :

ـ ما رأيك أنت ؟

فهتف روجويين قائلاً :

ـ هل لى أنا من رأى ؟

وأراد أن يضيف شيئاً ، لكنه أمسك عن الكلام ، وقد ألمَّ به كرب شديد .

نهض الأمير من جديد لينصرف . وقال بصوت خافت ولهجة حالمة، كأنما هو يجيب عن سؤال خفى يطرحه هو نفسه فى باطنه :

ـ على كل حال ، لن أخلق لك أى صعوبة ، ولن أضع أمامك أى عثرة .

قال روجويين وقد انتعش وسطعت عيناه :

ـ هل تعرف ما سأقوله لك ؟ اننى لا أفهم أن تتنازل لى عنها هذا التنازل . أتكون قد كففت عن حبها تماماً ؟ كنتَ فى السابق حزيناً مغموماً . لاحظت أنا هذا بوضوح . ولماذا جئت الى هنا مسرعاً ذلك الاسراع كله ؟ أمن باب الشفقة ؟

قال روجويين ذلك وقد تقلصت شفتاه بابتسامة ساخرة . فسأله الأمير :

ـ أتظن أننى أكذب عليك وأخدعك ؟

ـ لا . اننى أثق بك . لكننى لا أفهم موقفك . لا بد أن شفقتك أعنف من حبى .

والتمع في عيني روجوين كره تعجز الكلمات عن التعبير عنه .

قال الأمير مبتسماً :

ـ ان حبك القوي يشبه الكره الشديد . حتى ليكادان يختلطان . واذا انقضت هذه العاطفة يوماً فسيكون الأمر عندئذ أنكى وأدهى . يا عزيزي المسكين بارفيون ، أنا الذي أقول لك هذا ...

ـ ماذا ؟ أتعتقد أنني سأذبحها ؟

ارتعش الأمير . وقال :

ـ ستكرهها في يوم من الأيام كرهاً رهيباً ، بسبب هيامك بها الآن، وبسبب ما تتحمله اليوم من آلام . أما أنها يمكن أن تفكر في تزوجك ، فهذا شيء لا أفهمه حقاً ، فحين أُنبئت به لم أكد أصدّقه ، وشعرت منه بحزن . لقد سبق أن غيّرت رأيها مرتين فتركتك قبل الاحتفال بالزفاف. معنى هذا أنها كانت توجس شيئاً ... فما الذي يمكن أن يردّها الآن نحوك ؟ أهو مالك ؟ من السخف أن نفترض هذا الافتراض، لا سيما وأنك قد بدّدت منذ الآن جزءاً كبيراً من ثروتك . فهل يكون السبب هو الرغبة في الزواج لا أكثر من ذلك ؟ ولكن في وسعها أن تجد زوجاً آخر غيرك . وأي زوج آخر خير لها منك ، لأنك أنت قد تذبحها ، ولعلها توجس هي ذلك وتتنبأ به . أيكون جموح هواك ، أو عنف هيامك هو الذي يجذبها اليك ؟ قد يكون الأمر كذلك ... لقد سمعت أن هناك نساءً يعشقن هذا النوع من العشق ... ولكن ...

وأمسك الأمير عن الكلام وشرد فكره .

سأله روجوين الذي كان يرصد أيسر حركة من حركات وجهه :

ـ لماذا ابتسمت أيضاً حين نظرت الى صورة أبي ؟

ـ لماذا ابتسمت ؟ ابتسمت لفكرة خطرت ببالي ، هي أنك لولا هذا

الهيام الذي يعذبك ، لأصبحت تشبه أباك خلال فترة وجيزة من الزمن : تحبس نفسك في هذا المنزل مع زوجة مطيعة بكماء ، ولا يسمع منك أحد الا كلاماً قليلاً قاسياً ، ولا تصدِّق انساناً بل ولا تشعر بالحاجة الى أن تثق بانسان ، وتكتفي بأن تجمع المال في الظل والصمت. وفي أكثر تقدير، تهتم عند نهاية العمر بالكتب القديمة ، وترسم اشارة الصليب باصبعين ..*

ـ اسخر مني ! لقد قالت لي هذا الكلام نفسه منذ مدة غير طويلة ، حين نظرت الى هذه الصورة . ما أغرب التقاء رأيكما هذا الالتقاء !

سأله الأمير متحيراً :

ـ ماذا ؟ هل جاءت الى بيتك ؟

ـ نعم ، وتأملت الصورة طويلاً وسألتني عن المرحوم ، وختمت كلامها قائلةً : « ذلك ما كنتَ ستصير اليه بمضي الزمن . ان لك أهواء عنيفة عارمة يا بارفيون سيميونتش ، أهواء تبلغ من العنف والعرامة أنها يمكن أن تؤدي بك الى سيبيريا ، الى السجن ، لولا أنك ذكي ، ذلك أنك ذكي جداً (تلك كانت كلماتها بنصها ، صدِّق أو لا تصدِّق. وكانت هذه أول مرة تقول لي فيها ذلك) . وأضافت تقول : « كان يمكن أن تترك جميع السخافات التي تتعلق بها اليوم ؟ واذ أنك محروم من الثقافة ، فانك كنت ستنصرف عن كل شيء الا جمع المال . كنت ستبقى في بيتك ، كأبيك ، مع أصحاب ملتك « الخصيان » ، حتى لقد ينتهي بك الأمر الى اعتناق ملتهم . انك تحب مالك حباً يبلغ من القوة أنك قد تجمع لا مليونين بل ربما عشرة ملايين ، ولو اقتضى ذلك أن تموت جوعاً فوق أكياس الذهب التي تملكها ، لأنك تفعل كل شيء بهوى شديد وولع عنيف ، ولا يقودك خطاك الا الهوى الشديد والولع العنيف ! » . ذلك ما قالته لي بنصه ، كلمة كلمةً على وجه التقريب . لم تكن قد كلمتني

بهذه اللغة في يوم من الأيام . انها لا تحدثني عادةً الا في سفاسف وترّهات ، أو هي تأخذ تسخر مني وتتهكم عليَّ . وفي تلك المرة بدأت بالاستهزاء ، ثم تجهم وجهها وأظلم . واستعرضت المنزل كله كأنها كانت تشعر بخوف من شيء ما . قلت لها : « سوف أغيِّر هذا كله ، وأعيد ترتيبه ، أو سوف أشترى منزلاً آخر لزواجنا » . فأجابتني قائلة : « لا ، لا ، ما ينبغي تغيير شيء هنا . سنعيش على هذا النسق نفسه . أريد أن أقيم بقرب أمك حين أصبح زوجتك » . وعرّفتها بأمي . فأظهرت لها احتراماً كاحترام البنت أمَّها . ان أمي مريضة منذ سنتين ، وقد أصبحت لا تملك قواها العقلية كاملةً ؛ ولا سيما بعد أن مات أبي ، فكأنها ارتدت الى الطفولة منذ ذلك الحين . ساقاها مشلولتان . وهي لا تتكلم . ولا تزيد على أن تحرّك رأسها باشارة لمن يقصدونها . اذا لم تُؤت بطعامها فقد تظل يومين أو ثلاثة أيام لا تطلب شيئاً . وقد تناولتُ يد أمي اليمنى ، فضممت أصابعها لرسم اشارة الصليب ، وقلت لها : « باركيها يا أمي ، فسوف تكون زوجتي . وعندئذ قبّلتْ يد أمي بحرارة وقالت : « أنا على يقين من أن أمك تألمت كثيراً » . وحين لمحت هذا الكتاب الذى تراه سألتني : « أأخذت تقرأ تاريخ روسيا اذن ؟ » (هي التى قالت لى ذات يوم بموسكو : « يجب عليك أن تتثقف قليلاً ، فتقرأ « تاريخ روسيا » مثلاً ـ تأليف سولوفييف ـ لأنك لا تعرف شيئاً البتة !) . وأضافت تقول : « أحسنت . استمر ! سأضع لك بنفسى قائمةً بالكتب التى يجب عليك أن تقرأها قبل كل شيء ، هل تريد ؟ » . لم تكن قد كلمتنى بهذه اللهجة في يوم من الأيام ، أبداً . دُهشت دهشة شديدة .. ذُهلت ... شُدهت ... ولأول مرة تنفست كما يتنفس انسان عادت اليه الحياة .

قال الأمير بصدق :

ـ يسرني هذا كثيراً يا بارفيون ، يسرني كل السرور . من يدري؟ قد يشاء الله أن يجمع بينكما .

فصاح روجويين يقول مندفعاً :

ـ لن يكون هذا أبداً !

ـ اسمع يا بارفيون : اذا كنت تحبها هذا الحب كله ، فهل يُعقل أن لا تحرص على أن تستحق اعتبارها واحترامها ؟ واذا كنت تحرص على ذلك ، فهل يُعقل أن تيأس من الوصول اليه ؟ لقد قلت لك منذ قليل انني لا أفهم كيف قبلت أن تتزوجك . ولكن لا بد أن يكون لقبولها هذا سبب، وان كنت لا أدركه . لا يمكن أن يشك المرء فى هذا . انها مقتنعة بحبك، ولكنها مقتنعة أيضاً بأن لك مزايا معينة . لا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك ، وما ذكرته لى الآن يأتى مؤيداً ومصدقاً لاعتقادى هذا . أنت نفسك تقول انها استطاعت أن تخاطبك وأن تعاملك بطريقة مختلفة كل الاختلاف عن الطريقة التى كانت تعمد اليها من قبل فى مخاطبتك وفى معاملتك . أنت كثير الشك شديد الغيرة ، وذلك هو السبب فى أن خيالك ضخَّم الشر الذى لاحظته فيها . مما لا شك فيه أن رأيها فيك ليس سيئاً الى الحد الذى يصوِّره لك وهمك ، ويعبِّر عنه لسانك . والا كان علينا أن نسلِّم بأنها اذا تزوجتك كان تحكم على نفسها ، عامدة متعمدة ، بأن تهلك غرقى أو مذبوحة . هل هذا معقول ؟ من ذا الذى يمضى الى الموت بارادته واعياً بصيراً ؟

كان بارفيون يصغى الى كلمات الأمير المختلجة المرتعشة ، وهو يبتسم ، ولم يسع الأمير الا يقول له مغموماً :

ـ ما هذه النظرة العابسة المشئومة التى تلقيها علىَّ يا بارفيون ؟

فهتف روجويين يقول أخيراً :

ـ أن تهلك غرقى أو مذبوحة ! هيه ••• صحيح ••• اذا تزوجتنى فمن أجل أن تـُذبح بيدى حتماً ! لا ••• هل يـُعقل يا أمير أن لا تكون قد فهمت حقيقة الأمر فى هذه القضية كلها بعد ؟

ـ لا أدرك ماذا تعنى •

ـ جائز أن لا تفهمنى على كل حال !••• يزعم بعضهم فعلاً أنك على شىء من ••! انها تحب رجـلاً آخر • هل فهمت ؟ انهـا تحب الآن رجلاً آخر كما أحبها أنا • وهذا الرجل الآخر ، هل تعلم من هو ؟ انه « أنت » ! ماذا ؟ ألم تكن تعرف هذا ؟

ـ أنا !

ـ نعم ، أنت • لقد بدأت تحبك منذ حفلة عيد ميلادها • لكنها تقدِّر أنه يستحيل عليها أن تتزوجـك ، لأنهـا لو تزوجتك لجللتك بالعـار ، ولأفسدت مستقبلك • هى تقول : « الناس تعلم من أنا » • انها تؤكد هذا الكلام ، ولم تتحرج من أن تعلنه لى جهاراً • هى تخشى عليك أنت أن تضيِّعك وأن تلطخ شرفك بالعـار • أما أنا ففى وسـعها أن تتزوجنى ، فليس فى هذا ضير • تلك هى قيمتى عندها ، وذلك هو قدرى فى نظرها• احفظ هذا !

ـ ولكن كيف أمكن أن تهرب منك وأن تلجأ الىَّ ثم تهرب منى••

ـ لتعود الىَّ ؟ هه ••• هل يستطيع المرء أن يعرف ماذا يدور فى رأسها ، وماذا يجـول فى خاطرها ؟ هى الآن فى حـالة من حمى ! يوماً تصيح قائلةً لى : « اننى أتزوجك كما يلقى المرء نفسـه فى الماء • فلنتزوج بأقصى سرعة ! » ، وتمضى تتعجل الاسـتعدادات بنفسـها ، وتحدد يوم الزفاف ••• حتى اذا اقترب ذلك اليوم خافت أو راودتها أفكار أخرى أو ساورتها خواطر أخرى لا يدرى ما هى الا الله ! لقد رأيتها بعينيك :

انها تبكى ، وتضحك ، وتتخبط هنا وهناك كالمحمومة . فأى غرابة فى أنها هربت منك أنت أيضاً ؟ لقد هربت منك لأنها أدركت عنف الهوى الجارف الذى تحمله لك . كان بقاؤها بقربك فوق طاقتها . زعمت منذ قليل أننى اهتديت اليها أو عثرت عليها بموسكو . ليس هذا صحيحاً . انها هى التى سارعت الىّ هاربةً منك ، وقالت لى : « حدّد يوماً للزواج، أنا مستعدة ! أحضر شمبانيا ! وهلمّ نسمع الغجريات! ». وكانت تصرخ. لولاى لألقت نفسها فى الماء منذ مدة طويلة . أؤكد لك . واذا كانت لا تلقى بنفسها فى الماء حتى الآن ، فربما كان ذلك يرجع الى أنها ترانى أفظع من الموت غرقاً . انها تتزوجنى حنقاً وغيظاً .

هتف الأمير يقول :

ـ ولكن كيف ترضى أنت أن ... كيف ...

ولكنه لم يكمل كلامه . وكان ينظر الى روجوين مروّعاً . فسأله روجوين وهو يضحك ضحكاً ساخراً .

ـ لماذا لا تكمل سؤالك ؟ هل تريد أن أقول لك فى أى شىء تفكر فى هذه اللحظة ؟ انك تسأل نفسك : « كيف يمكن أن تتزوجه الآن ؟ كيف يمكن قبول مثل هذا الزواج والسكوت عنه » . ذلك هو شعورك وتلك هى عاطفتك حتماً ...

ـ اعود فأكرر لك يا روجوين اننى لم أجىء اليك لهذا الغرض ، وان الفكرة التى كانت فى ذهنى ليست هذه الفكرة .

ـ جائز أن لا تكون قد جئت لهذا الغرض ، وأن لا تكون الفكرة التى كانت قائمة فى ذهنك أول الأمر هى هذه الفكرة ، ولكن لا شك

فى أن هذا هو ما تفكر فيه الآن • دعك من المماحكة ! لماذا اضطربت هذا الاضطراب كله ؟ هل كنت لا تعرف شيئاً من ذلك حقاً ؟ انك لتدهشني !

تمتم الأمير يقول وقد بلغ ذروة الانفعال :

ـ ذلك كله غيرة يا روجوجين ! هذا مرض • انك تفتقد الاعتدال والقصد ••• انك تغالى وتبالغ ••• ولكن ما هذا الذى عندك ؟

فأسرع بارفيون ينتزع من يدى الأمير سكيناً صغيرة تناولها الأمير من على المائدة بقرب الكتاب دون وعى ، وقال له وهو يعيد السكين الى مكانها:

ـ دعها !

وواصل الأمير كلامه فقال :

ـ لكأننى كنت أوجس هذا كله حين وصلت الى بطرسبرج ••• لم أكن أحب أن أجيء ••• كنت أريد أن أنسى كل ما يربطنى بهذه المدنية ويشدنى اليها ، وأن استأصله من قلبى استئصالاً ! هيّا ••• استودعك الله !••• ولكن ما هذا الذى عندك ؟

كان الأمير ، أثناء الكلام ، قد تناول السكين مرة أخرى ذاهلاً • فانتزع روجوجين السكين من يده ، ورماها على المائدة • السكين ذات شكل بسيط شائع • قبضتها من قرن وعل ، ونصلها يبلغ طوله نحو خمسة عشر سنتمتراً ، وعرضها يناسب هذا الطول •

فحين لاحظ روجوجين دهشة الأمير من انتزاع السكين من يديه مرتين ، تناول السكين غاضباً ودسّها فى الكتاب ثم رمى الكتاب على مائدة أخرى •

سأله الأمير ذاهلاً مستغرقاً فى تفكيره :

ـ أأنت تستعملها قطّاعة ورق !

ـ نعم •••

ـ لكنها سكين حديقه .

ـ وهل يستحيل قطع صحائف الورق بسكين حديقة ؟

ـ لكنها ... جديدة تماماً .

ـ أي ضير في هذا ؟ ألا أستطيع أن اشترى سكيناً جديدة ؟

كذلك صاح روجوين وقد انتابه حنق شديد . وكان غضبه يزداد عند كلمة يقولها الأمير .

ارتعش الأمير وحدّق الى روجوين . ثم قال ضاحكاً وقد ثاب اليه وعيه كاملاً :

ـ ما دهانا ؟ اعذرني يا عزيزى . فانني حين يثقل رأسي ويعاودني مرضى كما حدث لى الآن ... أصبح ذاهلاً ذهولاً مضحكاً . ليس ذلك هو السؤال الذى كنت أريد أن ألقيه عليك ... نسيت ما الذى كنت أريد أن أسألك عنه . استودعك الله .

قال روجوين :

ـ ليس هذا هو الطريق .

ـ نسيت !

ـ من هنا ! سأريك الطريق !

الفصل الرابع

اجتاز الحجرات نفسها التي سبق أن قطعها الأمير . كان روجوين يتقدمه قليلاً . ودخلا الصالون الكبير الذي كانت معلقة بجدرانه لوحات هي جميعاً صور أساقفة ومناظر طبيعية لا يميّز المرء فيها شيئاً . ان فوق الباب المفضي الى الغرفة المجاورة لوحة شكلها غريب، فطولها يبلغ مترين وعلوها لا يزيد على ثلاثين سنتمتراً . انها تمثل يسوع المسيح ، المخلّص ، لحظة نزوله عن الصليب .

ألقى الأمير على الصورة نظرة سريعة وكأنه تذكر شيئاً ما ، لكنه لم يتوقف . وهمّ أن يتخطى العتبة . كان يشعر بانقباض في صدره وثقل في قلبه ، ويتعجل مغادرة هذا المنزل . لكن روجوين توقف فجأة أمام اللوحة . وقال :

ـ جميع هذه اللوحات التي تراها هنا انما اشترى المرحوم أبي كلّ واحدة منها بروبل أو روبلين في مبيعات عامة . كانت له هذه الهواية . وقد فحص اللوحات رجل خبير ، فوصفها جميعاً بأنها غير ذات قيمة ، الا هذه التي تراها فوق الباب والتي اشتراها أبي بروبلين أيضاً ... فقد وصفها بأنها ليست غير ذات قيمة . وقبل وفاة أبي ، وُجد من عرض عليه أن يشتريها منه بثلاثمائة وخمسين روبلاً ؛ حتى ان سافليف ، ايفان دمترتش سافليف ، وهو تاجر ثري من كبار هواة الصور ، قد عرض

عليه أربعمائة روبل ثمناً لها . وفى الأسبوع الماضى عرض على أخى سيمون سيمونوفتش خمسمائة روبل ؛ ولكننى رفضت واحتفظت بها لنفسى .

قال الأمير وقد اتسع وقته للتدقيق فى اللوحة ، وانعام النظر اليها :

ـ ولكن.. ولكن هذه اللوحة منسوخة عن لوحة هانس هولباين* . ويخيل الىّ أنها نسخة ممتازة ، رغم اننى لست على جانب كبير من الخبرة والدراية فى هذا المجال . لقد رأيت هذه اللوحة فى الخارج ، ولا أستطيع أن أنساها . ولكن ماذا ... ماذا بك ؟

كان روجوين قد ترك اللوحة فجأة ، واستأنف السير . صحيح أن ما كان قد اعترى روجوين من ذهول واهتياج يمكن أن يعلل تقلبات مزاجه هذه . غير أن الانقطاع المباغت عن حديث لم يكن الأمير هو الذى بدأه قد أثار دهشة الأمير ؛ كما ان امتناع روجوين عن الردّ على سؤاله بدا له غريباً كذلك .

وهذا هو روجوين يسأل الأمير على حين فجأة بعد بضع خطوات :

ـ قل لى يا ليون نيقولايفتش ... كنت أريد منذ مدة طويلة أن ألقى عليك هذا السؤال : ـ أأنت تؤمن بالله أم لا ؟

قال الأمير على غير ارادة منه :

ـ ما أغرب سؤالك ... وما أغرب نظرتك !...

ودمدم روجوين يقول بعد صمت ، كأنه قد نسى سؤاله مرة أخرى:

ـ اننى أحب أن أنظر الى هذه الصورة !

فهتف الأمير يقول وقد ساورته فكرة مباغتة :

ـ هذه الصورة ! ان هذه الصورة يمكن أن تُفقد بعض الناس ايمانهم !

فقال روجوين مؤيداً كلام الأمير على غير توقع :

ـ حقاً ... انها تفقد المرء ايمانه !...

وكانا قد بلغا باب الخروج . فقال الأمير وهو يتوقف فجأةً :

ـ كيف ؟ أنا قلت كلامى من باب المزاح تقريباً ، وأنت تأخذه مأخذ الجد ! لماذا سألتنى منذ لحظة هل أومن بالله ؟

ـ لا لشيء ... هكذا ... وكنت أريد أن ألقى عليك هذا السؤال من قبل . ان فى هذه الأيام أناساً كثيرين لا يؤمنون بالله . لقد عشتَ فى الخارج . فهل صحيح ما كان يقوله لى احد السكّيرين من أن الذين لا يؤمنون بالله هم فى بلادنا ، روسيا ، أكبر عدداً منهم فى أى بلد آخر ؟ لقد قال لى ذلك السكّير : « الالحاد أسهل علينا منه على الآخرين ، لأننا سرنا شوطاً أبعد ... » .

وابتسم روجوين ابتسامة مرة . انه حين ألقى سؤاله كان قد فتح الباب فجأة ، وانتظر خروج الأمير واضعاً يده على قبضة الباب . ودُهش الأمير ، لكنه تخطى العتبة ، وتبعه روجوين الى فسحة السلّم مغلقاً الباب وراءه نصف اغلاق . وبقى الرجلان واقفين وجهاً لوجه ، وكأنهما لا يعرفان الى أين وصلا من أمرهما ولا ما الذى يجب عليهما أن يفعلاه.

قال الأمير وهو يمد الى روجوين يده :

ـ طيب ... استودعك الله !

فدمدم روجوين وهو يشد على اليد الممدودة اليه شداً قوياً ، ولكن على نحو آلى تماماً :

ـ استودعك الله .

وهبط الأمير درجةً ثم التفت يستأنف الكلام مع روجوين . كان

واضحاً أنه لا يريد أن يتركه على تلك الحال . قال له مبتسماً ، وقد شحذت همته ، عدا ذلك ، ذكرى مباغته :

ـ فيما يتعلق بالايمان ، أذكر انني فى الأسبوع الماضى قد حدثت لى أربع مقابلات في غضون يومين . ففي ذات صباح ، أثناء سفرى على خط جديد من خطوط السكة الحديدية ، ظللت أثرثر مدة أربع ساعات مع رجل اسمه س ..* ، كنت تعرفت اليه حينذاك . كنت قد سمعت عن هذا الرجل كثيراً قبل ذلك ، فعرفت فيما عرفت أنه ملحد . انه رجل واسع الثقافة ، غزير الاطلاع ، وقد سرّنى أن أتيحت لى فرصة المناقشة مع عالم يبلغ ما يبلغه هذا الرجل من وفرة الاطلاع . وكان فوق ذلك انساناً جمّ التهذيب ، فكان يكلمنى كما يكلّم قرين قرينه ، أو كما يكلم نداً له في سعة العلم وسداد الرأى . انه لا يؤمن بالله . غير أن هناك شيئاً خطف انتباهى فى مناقشته هو أنه طوال مدة حديثنا لم يبد أنه يواجه الموضوع الحقيقى ، أو يعالج المسألة الحقيقية . ومما فاقم دهشتى أننى قبل ذلك ، كلما التقيت بزنادقة أو قرأت كتباً تذهب هذا المذهب ، كان يبدو لى دائماً أن هؤلاء الناس لا يتكلمون عن المسألة الحقيقية ، وان كانوا يتكلمون عنها فى ظاهر الأمر . وقد عرضت على الرجل شعورى هذا ، ولكن لعلنى عرضته عليه عرضاً مضطرباً مبهماً أو لعلنى لم أُحسن الافصاح ولم أُحسن التعبير ، لأن الرجل لم يفهم من كلامى شيئاً البتة .. وفى المساء حللت بنُزُلٍ للمبيت . وكانت جميع المناقشات ، عند وصولى ، تدور على جريمة ارتكبت فى الليلة السابقة ، خلاصتها أن اثنين من الفلاحين ليسا شابين ولا كانا سكرانين ، وهما صديقان منذ مدة طويلة ، قد قررا بعد احتساء الشاى أن يستأجرا غرفة يبيتان فيها . ولكن أحدهما كان قد لاحظ منذ يومين أن رفيقه يملك ساعة من فضة معلقة بحبل أصفر ومزدانة بلآلىء من زجاج ، ولم يكن الرفيق قد رأى هذه الساعة فى حوزة رفيقه

من قبل . ليس الرجل لصاً ، حتى لقد كان أميناً مستقيماً ؟ لا ولا كان فقيراً اذا قيس بغيره من الفلاحين . غير أن هذه الساعة قد أعجبته وأغرته الى حد أصبح لا يستطيع معه أن يقاوم وأن يصمد . فلما رأى رفيقه ينكفىء الى الجهة الأخرى ، استلّ سكينه ، وتسلل اليه من وراء محاذراً ، وحسب ضربته ، ورسم اشارة الصليب رافعاً عينيه الى السماء ، وتمتم يدعو الله بلهجة مرة : « اغفر لى يا رب ، باسم يسوع المسيح ! » ، ثم ذبح رفيقه بضربة واحدة ، كما يُذبح خروف ، وأخذ منه ساعته .

انفجر روجوين يضحك ضحكاً شديداً كمن اعترته نوبة عصبية. فكان هذا الضحك يثير الدهشة بعد المزاج القاتم الذى كان يستبد به منذ قليل . وأخذ روجوين يصرخ فى تشنج ، والضحك يخنقه :

ـ هذا ما يعجبنى ! هذا أجمل من كل شىء ! الأول لا يؤمن بالله البتة ، والثانى يؤمن به ايماناً يبلغ من القوة أنه يذبح الناس وهو يتلو دعاءه ... لا يا أمير ، لا يا أخى ، هذا شىء لا يمكن اختراعه اختراعاً . آ ... آ ... آ ! لا ، لا ، هذا أجمل من كل شىء حقاً !...

وما ان هدأ روجوين قليلاً ، وان كان الضحك ما يزال يُرعش شفتيه على تشنج ، حتى استأنف الأمير كلامه فقال :

ـ وفى صباح الغد خرجت أتجول بالمدينة قليلاً . فرأيت جندياً سكران ، قد اختلت ثيابه تماماً ، وراح يمشى على الرصيف الخشبى مترنحاً . وها هو ذا يقترب منى ويقول لى « اشتر منى هذا الصليب يا سيدى . انه من فضة . وأنا أبيعك اياه بعشرين كوبكاً » . رأيت فى يده صليباً مربوطاً بشريط أزرق مهترىء لا بد أنه قد انتزعه من عنقه منذ قليل. ولكن الصليب من قصدير صرف ، ذلك أمر تراه العين من أول نظرة . هو صليب كبير الأبعاد ، من الطراز البيزنطى ، ذو ثمانية أفرع.

أخرجت من جيبي عشرين كوبكاً ، وأعطيتها السكران، ولم ألبث أنعلقت الصليب بعنقي • ما كان أعظم فرحه بأنه استطاع أن يغش ماراً ساذجاً ! وانطلق علىالفور يشرب بثمن صليبه خمراً، لا شك في ذلك البتة ! كانكل ما ألاحظه في روسيا يحدث في نفسي تأثيراً قوياً • كنت في الماضي لا أفهم من أمر بلدي شيئاً ، كنت جاهلاً جهلاً مطبقاً • وفي البلاد الأجنبية ، أثناء السنين الخمس التي عشتها فيها ، لم أكن قد احتفظت عن روسيا الا بذكرى خيالية • تابعت سيري وأنا أقول لنفسي : « لا ، سأنتظر مدة أخرى قبل أن أدين هذا الخائن • الله وحده يعلم ما يحدث في قلوب هؤلاء السكارى الضعيفة ! » وبعد ساعة ، بينما كنت عائداً الى النُزُل ، صادفت امرأة طيبة تحمل رضيعاً • ان المرأة ما تزال شابة ، ولعل الطفل في الأسبوع السادس من عمره • لقد ابتسم لأمه لأول مرة منذ ولادته ، ابتسم لها منذ لحظة ، فاذا هي ترسم على نفسها اشارة الصليب بكثير من التقى • سألتها (وكنت أسائل الناس دائماً) : « لماذا رسمت اشارة الصليب أيتها الشابة ؟ » • فأجابتني قائلة : « كفرحة الأم التي ترى أول ابتسامة في ثغر ابنها هي فرحة الرب حين يرى من علياء سمائه مذنباً يدعوه دعاءً صادقاً من أعماق قلبه » • انها فلاحة بسيطة تلك التي عبَّرت لي ، بهذه الألفاظ نفسها تقريباً ، عن فكرة تبلغ هذا المبلغ من الرهافة ، فكرةٍ تنتسب هذا الانتساب الصادق الى المسيحية ، فكرةٍ تعبِّر دفعةً واحدة عن روح الديانة المسيحية كلها ، وهي أن الرب أبونا جميعاً ، وأن فرحة الرب بالانسان كفرحة الأب بابنه ! هذه فكرة أساسية من أفكار المسيح ! هي أم ، طبعاً ••• ومن يدري ؟ فلربما كانت زوجة ذلك الجندي • اسمع يا بارفيون ، لقد سألتني عن هذا الأمر منذ قليل ، فاليك جوابي : ان جوهر العاطفة الدينية مستقل عن جميع البراهين ، وجميع الأفعال السيئة وجميع الجرائم وجميع مذاهب الالحاد • ان في هذه العاطفة شيئاً لا يمكن أن تدركه ولا يمكن أن تناله

أدلـة الملحدين في يوم من الأيام • وسيظل الأمر على هذا النحـو أبد الدهر • غير أن أهمّ شيء هو أن هذا يلاحظ في النفس الروسية أسرع ما تكون الملاحظة وأوضح ما تكون الملاحظة • وتلك هي النتيجـة التي أخلص اليها • هذه قناعة من أولى القناعات التي تكونت في نفسي عن بلادنا روسيا • هناك أمور كثيرة يجب أن تُعمل يا بارفيون ، أمور كثيرة يجب أن تُعمل في عالمنا الروسي ، صدّقني ! تذكر لقاءاتنا وأحاديثنا بموسكو ••• لم أكن أرغب أية رغبة في أن أعود الآن الى هنا • ولم أكن أتصور أن أجدك على هذه الحال أبداً • وكفى هذا !••• استودعك الله ••• الى اللقاء ! أسأل الله أن يكون معك !•••

قال الأمير ذلك ثم استدار وأخـذ يهبط السلّم • فلما وصل الى الفسحة الأولى ، صرخ بارفيون يسأله من فوق :

ـ ليون نيقولايفتش ! ذلك الصليب الذي اشتريته من الجندي ، هل هو معك الآن ؟

فأجابه الأمير وقد توقف من جديد :

ـ نعم ، هو معي •

ـ أرنيه •

هذه غرابة أخرى ! تردد الأمير ، ثم صعد درجات السلم ، وأخرج الصليب من قميصه دون أن ينزعه عن عنقه • فقال له روجويين :

ـ هب لي هذا الصليب •

ـ لماذا ؟ هل أنت •••

ـ أحمله وأعطيك صليبي فتحمله •••

ـ تريد أن نتبادل صليبينا * ؟ ليكن ذلك يا بارفيون اذا شئت ! سوف يسعدني هذا • فلنكن أخوين •

انتزع الأمير صليبه القصديرى ، وانتزع بارفيون صليبه الذهبى ، وتبادلا الصليبين . كان بارفيون صامتاً لا يتكلم . فما كان آلم الدهشة التى شعر بها الأمير حين لاحظ أن الريبة والابتسامة المرة التى تكاد تكون ساخرة ما برحتا ظاهرتين في وجه أخيـه فى الصليب ، أو قل على الأقل انهما تظهران ظهوراً واضحاً فى بعض اللحظات . وأخيراً تناول روجويين يد الأمير صامتاً ، ولبث جامداً لايتحرك خلال برهة كأنما هو عاجز عن اتخاذ قرار ، ثم جرّ الأمير فى النهاية وراءه قائلاً له فى دمدمة خافتـة لا تكاد تُسمع : « تعال » . فاجتازا فسحة الطابق الأول ، وقرعا جرس الباب المقابل ، فسرعان مافتحت الباب امرأة عجوز محدودبة الظهر ترتدى سواداً وتضع على رأسها منديلاً ، فلما رأت روجويين انحنت أمامه انحناءً شديداً دون أن تتكلم . فسـألها روجويين عن أمر من الأمور مسرعـاً ، واقتاد الأمير يدخله البيت دون أن ينتظر جوابها . واجتازا مرةً أخرى حجرات كثيرة مظلمة ، نظيفة نظافة خـارقة ، أثاثهـا قديم بارد متقشف مكسو بأغطية بيضـاء ؛ ودون أن يطلب روجويين الابلاغ عن حضوره ، أدخل الأميرَ رأساً فى غرفة صغيرة لها مظهر صالون ، يقطعها حاجز من خشب الآكاجو الملمّع ، وفى طرفى الحاجز بابان صغيران ، ووراءه غرفة النوم فى أغلب الظن . فى ركن من الصـالون ، على مقعد قرب المدفأة ، كانت تجلس امرأة عجوز صغيرة ، لا يبدو أنها طاعنة فى السن كثيراً ، لكن شـعرها قد أبيض تمـاماً ، وعقلهـا قد ارتد الى الطفـولة (يقتنع المرء بذلك منذ أول نظرة) . انها ترتدي ثوباً من صوف أسود ، وتلف عنقها بمنديل كبير أسود ، وتضع على رأسها طاقية ناصعة البياض مزدانة بأشرطة سوداء . وكانت قدماها موضوعتين على دكة صغيرة . وبقربهـا تجلس عجوز أخرى ، أكبر منها سناً، شديدة النظافة، مرتدية ثياب الحداد أيضاً ، وعلى رأسها طاقية بيضاء هى الأخرى . لا شك أنها قريبة فقيرة

من قريبات العجوز الأولى • وكانت الثانية تحيك بالأبرة جورباً • لا بد أنهما تبقيان على هذه الحال طول الوقت لا تتكلمان • فحين رأت العجوز الأولى روجويين والأمير ابتسمت لهما ، وحنت رأسها عدة مرات باشارات تعبِّر عن العاطفة والرضى •

قال لها روجويين بعد أن قبَّل يدها :

ـ أماه ، هذا صديقي الكبير الأمير ليون نيقولايفتش ميشكين • لقد تبادلنا صليبينا • وكان لي بمثابة الأخ في فترة ما بموسكو ، وله عليَّ آلاء كثيرة • باركيه يا أماه ، كما لو كان ابنك • انتظري يا أماه ، سأساعدك في ضمِّ أصابعك •••

ولكن العجوز رفعت يدها اليمنى قبل أن يتسع وقت روجويين لأن يلمسها ، فضمَّت ثلاثاً من أصابعها ، ورسمت اشارة الصليب فوق رأس الأمير ثلاث مرات بكثير من التقى والخشوع • ثم حنت له رأسها من جديد باشارة ودود حنون •

قال بارفيون :

ـ تعال الآن يا ليون نيقولايفتش • فمن أجل هذا وحده انما جئت بك الى هنا •••

وأضاف يقول للأمير حين بلغا فسحة السلم :

ـ انها لا تفهم شيئاً مما يقال لها ، ولم تفهم شيئاً من كلامي ، ومع ذلك باركتك • معنى ذلك أنها أرادت من تلقاء نفسها ••• طيب ••• أستودعك الله ••• لقد آن الأوان لنا كلينا •

قال روجويين ذلك وفتح الباب • فهتف الأمير قائلاً وهو ينظر اليه نظرة فيها عتب رقيق :

ـ دعني أعانقك على الأقل قبل أن أنصرف !

وأراد الأمير أن يحتضنه بذراعيه . ولكن بارفيون ما كاد يهمُّ أن يرفع ذراعيه حتى عاد يسبلهما . انه لم يستطع أن يعزم أمره . وأشاح وجهه حتى لا يرى الأمير . وجمجم يقـول بصـوت مبهم وهو يضحك ضحكة غريبة :

ـ لا تخف ! لن أقتلك من أجـل سـاعة ، وان كنت قد أخـذت صليبك !

لكن وجهه انقلب فجأة ، فاذا هو يشحب شحوباً رهيباً ، واذا شفتاه تأخذان بالارتجاف ، واذا عيناه تسطعان . ورفع ذراعيه ، وعانق الأمير عناقاً قوياً ، وقال بصوت لاهث :

ـ خذها ما دام هذا هو القدر ! هي لك ! انني اتنازل لك عنها !.. تذكَّر روجوين !

ثم ترك الأمير دون أن يلقي عليه نظرة ، وعاد يدخل مسرعاً ويغلق الباب وراءه بقرقعة شديدة .

الفصل الخامس

الوقت متأخر ، فالساعة قاربت الثانية والنصف . لم يجد الأمير الجنرال ايبانتشين في بيته . فوضع بطاقته، وقرر أن يمضي الى فندق « الميزان » عسى أن يجد فيه كوليا ، أو يترك له كلمة اذا لم يجده. فقيل له في الفندق ان نيقولا آرداليونتش قد خرج في الضحى ، وطلب أن يُذكر لمن يسأل عنه « أنه قد يعود في نحو الساعة الثالثة ، فاذا بلغت الساعةُ الثالثةَ والنصف قبل أن يعود فيكون معنى ذلك أنه سافر بالقطار الى بافلوفسك ليزور الجنرالة ايبانتشين ، وأنه سيتغدى هناك ». بقي الأمير في الفندق ينتظر ، وانتهز الفرصة فأمر لنفسه بغداء .

ولكن كوليا لم يظهر لا في الساعة الثالثة والنصف ، ولا في الساعة الرابعة . فخرج الأمير من الفندق وأخذ يمشي على غير هدى .

ان بطرسبرج تعرف عند بداية الصيف في بعض الأحيان أياماً لذيذة مضيئة دافئة هادئة . ولقد كان ذلك اليوم واحداً من تلك الأيام النادرة ، كأنما على عمد . ظل الأمير يطوف في المدينة زمناً دون هدف أو غاية . انه لا يعرف المدينة معرفة جيدة . وكان يتوقف أحياناً عند مفارق الطرق أمام بعض المباني ، أو يتلبث في الميادين والساحات ، أو يقف على بعض الجسور . وفي لحظة من اللحظات دخل مطعم حلوى ليستريح قليلاً . لقد كان ينعم النظر في المارة باستطلاع قوي وفضول شديد أحياناً ، ولكنه

في أكثر الأحيان لا يلاحظ المارة ، ولا يعرف أين هو . انه الآن في حالة قلق عميق وتوتر أليم ، وهو في الوقت نفسه يشعر بحاجة قصوى الى العزلة . انه يريد أن يخلو الى نفسه وحيداً ، وأن يستسلم لألم ذلك التوتر استسلاماً سلبياً ، فلا يسعى الى أي مخرج منه ؛ وهو يدفع سيل الأسئلة التي كانت تغزو قلبه ونفسه، يدفعها عنه مشمئزاً ؛ ويجمجم قائلاً لنفسه دون أن يشعر تقريباً : « أأنا مسئول عن هذا كله ؟ » .

وفي نحو الساعة السادسة وجد نفسه على رصيف خط السكة الحديدية الذي يصل بين تسارسكوى وسيلو . ان العزلة قد أصبحت ثقيلة الوطأة على نفسه فهو لا يطيقها ولا يحتملها. ان اندفاعة جديدة قد استولت على قلبه بقوة وحرارة ، وان ضياءً ساطعاً قد أنار الظلمات التي كانت تملأ نفسه بالغم والقلق . اشترى تذكرة سفر الى بافلوفسك ، متعجلاً أن ينطلق بأقصى سرعة . غير أن هناك شيئاً كان يلاحقه ويطارده ولا شك ، شيئاً واقعياً لا خيالياً كما لعله كان يظن . فما ان همَّ أن يركب القطار ، حتى رمى تذكرة السفر على الأرض ، وغادر المحطة واجماً مفكراً مضطرباً . وبعد قليل ، حين صار في الشارع ، بدا كأنه تذكر شيئاً ما على حين فجأة ، كأنه أدرك شيئاً غريباً جداً كان يقلقه منذ مدة طويلة . لقد باغت نفسه مشغولاً بأمرٍ ما برح يلازمه منذ زمن ، لكنه لم يكن قد لاحظه حتى ذلك الحين . انه منذ كان في فندق « الميزان » ، وربما قبل ذلك ، قد أخذ فجأة يبحث عن شيء من حوله بين الفينة والفينة . انه كان ينسى هذا الشيء أحياناً ، حتى لقد كان ينساه مدة طويلة ، مدةَ نصف ساعة ، لكنه ما يلبث أن يلتفت بغتةً من جديد ، ليعود يبحث من حوله قلقاً .

ولكنه ما ان لاحظ في نفسه هذه الاندفاعة المرضية التي كانت حتى ذلك الحين غير شعورية والتي كانت قد استولت على نفسه منذ مدة طويلة،

حتى انبجست أمامه على حين فجأة ذكرى أخرى اهتم بها اهتماماً قوياً . تذكر أنه حين لاحظ أنه ما انفك يبحث عن شيء ما حوله ، انما كان واقفاً على الرصيف أمام الواجهة الزجاجية لاحدى الدكاكين ، وأنه كان ينعم النظر بكثير من الاستطلاع والاهتمام في الأشياء المعروضة داخل الواجهة . فأصرَّ عندئذ على أن يتحقق من أنه قد وقف أمام تلك الدكان فعلاً ، منذ ما لا يزيد عن خمس دقائق تقريباً . فاذا لم يكن ذلك وهماً من أوهام الخيال لا أكثر ، أفلا يكون من الجائز أنه خلط بين الأمور ؟ هل لتلك الدكان وتلك الأشياء المعروضة في واجهتها وجودٌ حقاً ؟ ذلك أنه كان يحس فعلاً ، منذ مطلع النهار ، أنه في حالة مرضية تكاد تكون نفس الحالة التي كان يحسها في الماضي عند بداية نوبات مرضه القديم . كان يعلم أنه يصبح في تلك الفترات ذاهلاً الى أبعد حدود الذهول ، وأنه يتفق له عندئذ أن تختلط عليه الأشياء وتتشابه عليه الوجوه ، اذا هو لم ينتبه اليها انتباهاً خاصاً مشدوداً . غير أن هناك سبباً خاصاً كان يدفعه الى التحقق من أنه وقف أمام تلك الدكان فعلاً حينذاك . لقد كان بين الأشياء المرتبة في الواجهة الزجاجية شيء نظر اليه حتى لقد قدَّر له ثمناً هو ستون كوبكاً . انه يتذكر هذا الأمر رغم ذهوله ورغم اضطرابه . فاذا كانت تلك الدكان موجودة ، واذا كان ذلك الشيء موجوداً في الواجهة بالفعل ، فانما يكون قد توقف هنالك بسبب ذلك الشيء . ويترتب على هذا أن ذلك الشيء قد همَّه في ذاته الى درجة بعيدة فلفت انتباهه حتى في حالة الاختلاط الأليمة تلك التي كان عليها حين خرج من المحطة . مشى الأمير وهو ينظر الى اليمين بما يشبه أن يكون خوفاً ، وقلبه يخفق من شدة القلق وفرط نفاد الصبر . ولكن ها هي ذي الدكان . لقد وجدها أخيراً ! كان قد ابتعد عنها قرابة خمسمائة خطوة حين بدا له أن يقفل راجعاً . وها هو ذا الشيء الذي قدَّر له ثمناً هو ستون كوبكاً . قال الأمير مؤكداً تقديره : « نعم ،

ستون كوبكاً ، انه لا يساوى أكثر من ذلك ! » • وضحك • لكن ضحكه كان هسترياً • وشعر بثقل فى قلبه ، وانقباض فى صدره ! هو يتذكر الآن تذكراً واضحاً أنه منذ قليل ، فى هذا المكان نفسه ، أمام هذه الواجهة ذاتها ، قد التفت بقوة ، كما التفت فى الصباح حين فاجأ نظرةً يلقيها عليه روجويين • فلما تأكد أنه لم يخطىء الظن (وذلك أمر كان موقناً به يقيناً مطلقاً حتى قبل أن يتحقق منه) ، ترك الدكان وابتعد مسرعاً ، ان عليه أن يفكّر فى هذا كله بأقصى سرعة • لقد وضح الآن أن ماحدث فى المحطة لم يكن وهماً كذلك ، وأن شيئاً واقعياً لا شك أنه ذو صلة بكل قلقه السابق قد حدث له فعلاً • الا أن نوعاً من نفوز داخلى لا يقاوم قد تغلب عليه أيضاً ، فلم يشأ أن يفكر • لقد عدل عن التفكير عدولاً تاماً • وها هو ذا يفكر فى أمور أخرى •

تذكر ، فيما تذكر ، أن نوبات الصرع التى كان يعانيها ، كانت تشتمل على لحظة تسبق النوبة بزمن قصير جداً (وذلك حين توافيه النوبة أثناء اليقظة لا أثناء النوم) ، لحظة يضطرم فيها ذهنه فجأةً وسط الحزن وظلمات النفس والاختناق ، وتستعر فيها جميع قواه الحيوية دفعةً واحدة ، فيتضاعف احساسه بالحياة ، ويشتد وعيه لذاته • ان الفكر والقلب يشرقان عندئذ بضياء ساطع ، فاذا باضطرابه وشكوكه وقلقه ومخاوفه تهدأ على الفور ، وتصير الى نوع من طمأنينة عليا زاخرة بوعى لعلة العلل وغاية الغايات• غير أن تلك اللحظات أو تلك الومضات ليست، بعدُ ، الا استشرافاً للهنيهة الأخيرة ، للثانية الأخيرة التى تبدأ بها النوبة• هى ثانية لا تطاق طبعاً • ولقد كان اذا فكّر فى هذا بعد أن تعود اليه صحته ، كان يقول لنفسه : ما هذه الومضات وهذه الاشراقات التى نظن أنها ومضات واشراقات « وعى أعلى » ومن ثمّ « حياة عليا » ، ما هى اذن الا مرض ، ما هى الا فساد الحالة السليمة ، فاذا كان الأمر كذلك لم يكن

ثمة حياة عليا ، بل حالة يجب أن تعدّ من أدنى الحالات !... ومع ذلك قاده هذا الى استنتاج مفارق غريب الى أبعد حدود المفارقة والغرابة فقال يحسم الأمر : « أى ضير في أن تكون هذه الحالة مرضاً ، أى ضير فى أن تكون هذه الحالة حالة توتر غير سوى ، ما دامت النتيجة ، أى ما دامت تلك اللحظة التى يتذكرها المرء ويتأملها حين تعود اليه صحته تبدو له أعلى درجة من درجات الاتساق والانسجام والجمال، وما دامت تحدث له عاطفة لا عهد له بها ولا خطرت بباله ، هى عاطفة التمام والامتلاء ، والقصد والاعتدال ، والسكينة والطمأنينة ، والاندماج بالصلاة فى أعلى مركّب للحياة ؟ » كانت هذه التعبيرات الضبابية تبدو له مفهومة تماماً ، رغم أنها ما تزال ضعيفة غير قوية . أما أن ثمة « جمالاً وتواصلاً بالصلاة » و « مركّباً أعلى للحياة » فى حقيقة الأمر ، فذلك ما لم يكن يراوده فيه ريب ، ولا يمكن أن يقبل فيه أى شك . ذلك أن ما يحسه فى تلك اللحظات ليس أخيلة سراب أو رؤى أحلام مرضية باطلة ، كتلك التى تنشأ عن الحشيش أو الأفيون أو الخمر ، مما ينحدر بالعقل ويفسد النفس. ان فى امكانه أن يحكم في هذا حكماً سليماً عند الخروج من حالته المرضية . لا ، لا ، ان تلك اللحظات انما هى جهد خارق فى سبيل الوعى ـ اذا كان لا بد من وصف تلك الحالة بكلمة ـ وهى فى الوقت نفسه التعبير المباشر عن الوعى ذاته . واذا كان يتفق له أن يقول لنفسه بوضوح وجلاء فى تلك الثانية ، أعنى فى تلك اللحظة الأخيرة التى تسبق الغيبوبة: « نعم ، ان المرء مستعد لأن يهب حياته كلها فى سبيل هذه اللحظة » ، فانه كان واثقاً كل الثقة بأن هذه اللحظة تساوى حياةً بكاملها حقاً . على أنه كان لا يحرص حرصاً شديداً على الجانب الجدلى المنطقى من استنتاجه ، فان خبال العقل واضطراب النفس وبلاهة الذهن كانت تبدو له نتيجة واضحة لتلك « اللحظات العليا » ، فلو أراد أحد أن يشرع فى مناقشة

جادة معه حول هذا الموضوع لرفض المناقشة . لا شك أن استنتاجه، أعني تقديره لتلك الثانية ، كان يشتمل على خطأ ، ولكن واقعية الاحساس ذاته كانت تفرض نفسها عليه وتقلقه . كيف يمكنه أن لا يقيم وزناً للواقع ، كيف يستطيع أن لا يعبأ بالواقع ؟ ذلك أن ما حدث له قد حدث له حقاً ، في الواقع ؛ ولقد قال لنفسه فعلاً أثناء تلك الثانية ان هذه الثانية بما تحمله اليه من سعادة غير ذات حدود ، يمكن أن تساوي حياة بكاملها.

لقد قال ذات يوم لروجين اثناء لقاءاتهما بموسكو : « في تلك اللحظة يصبح ما جاء في رؤيا يوحنا مفهوما عندي ، وهو قوله الخارق : « لن يكون يومئذ زمان » * . وقد أضاف الأمير يقول حينذاك مبتسماً : « لعل هذه اللحظة هي تلك اللحظة نفسها التي لم تتسع لأن ينسكب خلالها على الأرض ماءُ الجرة التي قلبها النبي محمد حين وافته غيبوبته ، لكنه استطاع خلالها أن يرى وأن يتأمل جميع السماوات » .

نعم ، كان يتفق له بموسكو أن يلقى روجوين في أحيان كثيرة ، وكانت تجري بينهما أحاديث في موضوعات أخرى أيضاً .

« لقد قال لي روجوين منذ قليل انني كنت له بمثابة أخ . ان روجوين يتكلم بهذه اللغة اليوم لأول مرة » . هذا ما خطر ببال الأمير. خطر بباله وهو جالس على دكة تحت شجرة في « حديقة الصيف » . كانت الساعة في نحو السابعة من المساء . الحديقة خالية . وهذه سحابة دكناء تحجب الشمس عند غروبها . الهواء خانق كأنما توشك أن تهب زوبعة . والأمير مرتاح الى حالة التأمل هذه . كان بذكرياته وفكره يتعلق بأي شيء يقع عليه بصره . ان هذا يسرُّه ويرضيه . وكان ما ينفك يشعر برغبة في نسيان شيء ما ، شيء راهن ، شيء أساسي . ولكنه ما ان ينظر حواليه حتى تعود اليه الفكرة المحاصرة التي كان يود أن يتخلص منها. لقد تذكر ، في لحظة من اللحظات ، الحديث الذي جرى بينه وبين خادم المطعم

عن جريمة القتل الغريبة كل الغرابة ، التى وقعت منذ مدة قصيرة ، وأثارت كثيراً من الصخب والمناقشات • ولكنه ما كاد يتذكر هذا حتى حدث له شىء غريب أيضاً •

ان رغبة ذات قوة خارقة لا تغالب ، رغبة توشك ان تكون غواية ، قد سلبته ارادته • فنهض عن الدكة التى كان جالساً عليها ، وخرج من الحديقة ، ومضى قُدُماً نحو الضفة اليمنى • انه منذ قليل ، حين كان على أرصفة نهر نيفا ، قد سأل أحد المارة عن ذلك الحى من أحياء بطرسبرج ، الذى يقع وراء النهر ، فدلَّه الرجل عليه ، لكن الأمير لم يذهب الى ذلك الحىّ حينذاك • ولم يكن يفيده أن يذهب اليه اليوم على كل حال • لقد حصل على العنوان منذ مدة طويلة ، وكان سهلاً عليه أن يهتدى الى منزل قريبة ليديف ، لكنه كان على شبه يقين من أنه لن يجدها فى بيتها • « لا شك أنها سافرت الى بافلوفسك ، والا لكان كوليا قد ترك كلمةً فى فندق « الميزان » ، كما اتفُق على ذلك » • فاذا كان يتجه الآن الى منزل قريبة ليديف ، فانه لا يفعل ذلك من أجل أن يراها • ان هناك شيئاً آخر يغريه بالذهاب الى هناك ، شيئاً هو فضول مظلم أليم • ان فكرة جديدة مفاجئة قد ومضت فى ذهنه •••

ولكن كان يكفى الآن أن يسير وأن يعرف الى أين هو يسير حتى يأخذ يمشى من جديد دون أن يلاحظ الى أين هو يسير • وأصبح ينفر أشد النفرة من الايغال فى تحليل «فكرته المباغتة» ، بل لقد أصبح يستحيل عليه ذلك •

وأخذ ينعم النظر فى كل ما يقع عليه بصره ، مركِّزاً انتباهه تركيزاً أليماً ••• أخذ ينظر الى السماء والى نهر نيفا • حتى لقد حاول أن يشرع فى حديث مع طفل التقى به • لعل حالته المرضيَّة كانت تتفاقم • ان

العاصفة تقترب ، ولو ببطء . ان رعداً يُسمع منذ الآن فى بعيد . وأصبح الهواء خانقاً جداً .

وبدون سبب من الأسباب ، استيقظت فى ذهن الأمير ذكرى ابن أخت ليديف ، الذى رآه منذ ساعات ، وأخذت تفرض نفسها عليه بغير انقطاع ، كما تفرض نفسها على المرء جملةٌ موسيقية تحاصره فيظل يردّدها وقد ضاق بها أشد الضيق . شىء غريب : ان ابن اخت ليديف يتراءى له الآن بملامح القاتل الذى جاء ليديف نفسه على ذكره حين عرّفه بابن اخته ، والذى كان الأمير قد قرأ قصته منذ مدة قصيرة . كان الأمير ، منذ وصوله الى روسيا قد قرأ كثيراً وسمع كثيراً عن أمثال هذه القصص ؛ وكان يتابع هذه المسائل باهتمام شديد واصرار عنيد . حتى انه أثناء حديثه مع خادم المطعم قد أظهر اهتماماً قوياً بتلك الجريمة نفسها التى كانت أسرة جيرامين ضحيتها . وهو يتذكر الآن أن الخادم فتى ليس بالغبى البتة ، فيه رصانة ووقار ، وفيه روية وتعقل ، « ولكن الله وحده يعلم ما حقيقته . ان من الصعب على المرء أن ينفذ الى أعماق أناس جدد فى بلد جديد » . وبدأ الأمير مع ذلك يؤمن بالنفس الروسية ايماناً قوياً حاراً . ألم يلاحظ ، خلال هذه الأشهر الستة ، أشياء كثيرة ، جديدةً عليه ، لا عهد له بها من قبل ، ولم تخطر له ببال ، ولا كان يتوقعها بحال من الأحوال ؟ ولكن نفس الآخر ظلمات ، والنفس الروسية ظلمات ، ظلمات فوق ظلمات ، أمام كثير من الناس . ها هو ذا قد ارتبط بروجوين ، منذ مدة طويلة ، ارتباطاً وثيقاً ، ارتباطاً «أخوياً» ، ولكن هل هو يعرف روجوين ؟ ثم ان هذا كله يشتمل فى بعض الأحيان على كثير من الغموض والفوضى والاضطراب والاختلاط والصغار ! وابن اخت ليديف ذاك ... يا له من فتى دعى دنىء كريه ! « فعلاً » ، بماذا أسأت اليه ؟ (كذلك تساءل الأمير) أهو الذى قتل أولئك الأشخاص

الستة ؟ يبدو أننى أخلط ··· شيء غريب !··· اننى أشعر بدوار ··· ولكن ما كان أجمل وألطف محيًا ابنـة ليـديف الكبرى ··· تلك التى كانت تحمل الطفل فى ذراعيها ! ··· وما كان أصفى تعبير وجهها الذى يكاد يكون وجه طفلة صغيرة ، وما كان أروع ضحكتها التى تكاد تكون ضحكة طفلة صغيرة ! » · غريب أن ينسى ذلك الوجه وأن لا يتذكره الا الآن ! ان ليديف الذى يقرع الأرض بقدميه ليروِّعهم ، لعله يحبهم جميعاً أعظم الحب ، لعلهم يعبدهم عبادة · والأمر الثابت الذى لا شك فيه ولا يقل يقيناً عن أن اثنين واثنين أربعـة ، هو أن ليـديف يحب ابن اخته كذلك حباً عظيماً ·

ثم كيف أمكنه أن يتولى اصدار حكم مبرم عليهم ، هو الذى وصل منذ مدة قصيرة ؟ كيف يحق له أن يصدر أحكاماً من هذا النوع ؟ هذا ليديف نفسه : ألم يظهر اليوم أنه لغز ، أنه مشكلة ؟ هل كان يتوقع أن يجد ليديف هكذا ؟ هل عـرفه حتى اليوم فى هذه الصورة ؟ ليديف وكونتيسة بارى ··· رباه ! اذا قتل روجـويين ، فانه لن يقتـل على هذا النحو المشوش على الأقل · لن يكون هناك فوضى كهذه الفوضى · سلاح يُطلب صنعه وفقاً لرسم معيَّن ، وستة أشخاص يُذبحون دفعةً واحدة * فى نوبة هذيان وجنون ! لا ، ان روجويين لا يطلب صنع سـلاح وفقـاً لرسم معيَّن ··· ولـكن هل ثابتٌ اذن أن روجويين سـيقتل ؟ ارتعش الأمير ، وهتف يخاطب نفسه وقد اصطبغ وجهه بحمرة شديدة من الشعور بالخجل والعار : « أليست جريمةً ، أليست حطةً منى أن افترض هذا الافتراض بمثل هذه الصراحة السفيهة ؟ » ·

وتسمَّر فى مكانه مذهولاً · لقد تذكر فجأةً محطة بافلوفسك التى كان فيها منذ حين ، ومحطة نيقولا ، والسـؤال المبـاشر الذى ألقـاه على روجويين عن « النظرة » ، وصليب روجويين الذى يحمله هو الآن معلقاً

بعنقه ، ومباركة أم روجويين التى قاده اليها روجويين من تلقاء نفسه ، والمعانقة التشنجية الأخيرة ، وتنازل روجويين له عن حبيبته تنازلاً نهائياً أعلنه روجويين منذ قليل وهو على سلّم البيت . وبعد ذلك كله يفاجىء نفسه باحثاً بحثاً متصلاً عن شيء ما حوله ... وتلك الدكان .. وذلك الشيء المعروض في الواجهة الزجاجية ، الذى قدّر له ثمناً هو ستون كوبكاً ... يا للحطة والصغار ! ... وها هو ذا الآن يسير الى « هدف خاص » تدفعه اليه تلك « الفكرة المباغتة » . كان الكمد والألم قد استوليا على نفسه استيلاءً تاماً . وأراد الأمير أن يعود الى الفندق رأساً . حتى لقد استدار وأخذ يمشي في اتجاه الفندق ، لكنه لم يلبث أن وقف بعد دقيقة واحدة ، ففكّر وعاد يسير في اتجاهه الأول .

وكان قد بلغ الضفة اليمنى وأصبح غير بعيد من المنزل . قال لنفسه مبرراً : لا شك أنه لا يذهب الآن الى هناك لتحقيق ذلك الغرض نفسه ، ولا من أجل تلك « الفكرة الخاصة » ذاتها . كيف أمكن أن يخطر بباله هذا ؟ نعم ، لقد عاوده مرضه ، ذلك أمر لا ريب فيه : ولعله نوبةً ستوافيه في هذا اليوم نفسه . فمن اقتراب النوبة انما تنشأ هذه الظلمات جميعها ، والنوبة هي التى حملت اليه تلك « الفكرة » . ولكن الظلمات تبددت ، والشيطان ولى هارباً ، ولم يبق هنالك شكوك ... ان قلبه يفيض الآن فرحاً ! وانه منذ زمن طويل لم يرها « هي » ، وهو في حاجة الى أن يراها ، و ... نعم ... انه يودُّ لو يرى روجويين . فلو رآه لأمسك يده وذهبا اليها معاً . ان قلبه طاهر نقي ... أهو منافس لروجويين ؟ ليذهبنَّ الى روجويين منذ الغد ليقول له انه رآها . ألم يهرع الى هنا ، كما قال ذلك روجويين منذ قليل ، لسبب واحد هو أنه يريد أن يراها؟ لعله سيجدها مع ذلك في بيتها ، فهو ليس متأكداً من أنها سافرت الى بافلوفسك .

نعم ، ينبغي الآن توضيح كل شيء ، حتى يستطيع هؤلاء وأولئك من الناس أن يقرأ بعضهم ما في قلوب بعض بغير التباس أو اشتباه . فلا يكون بعد اليوم تنازلات ظلماء محمومة كتنازل روجويين ، بل أفعال يقبلها المرء بحرية ووضوح . هل يعجز روجويين عن تحمل الوضوح ؟ لقد ادعى أنه يحب هذه المرأة حباً لا يشتمل لا على عطف ولا على شفقة أو رأفة . صحيح أنه أضاف الى ذلك قوله : « لعل شفقتك أكبر من حبي » . ولكنه قد تقوّل على نفسه . هِمْ !... أن يأخذ روجويين في قراءة كتاب ، أليس هذا وحده فعلاً يشتمل على عطف أو على بداية عطف ؟ أليس وجود هذا الكتاب بين يديه دليلاً على أنه أدرك ادراكاً كاملاً ما يجب أن يكون عليه موقفه ازاء هذه المرأة ؟ لا ، ان في نفسه شيئاً أعمق من الوله . « وهل وجه هذه المرأة لا يوقظ في النفس الا الوله ؟ وهل يمكن أن يوقظ وجهها ولهاً في هذه الآونة ؟ ان وجهها لا يأسر النفس كلها الا بالألم والعذاب اللذين يعبر عنهما ، انه ... » .

هنا أحس الأمير بذكرى كاوية أليمة تلسع قلبه . نعم ، ذكرى أليمة . تذكر العذاب الذى سبق أن عاناه حين لاحظ فيها علائم جنون لأول مرة . ان ذلك الاكتشاف قد رماه في هوة اليأس حينذاك . كيف أمكنه أن يتركها حين هربت منه الى روجويين ؟ كان ينبغي له أن يندفع في ملاحقتها ومطاردتها بدلاً من أن ينتظر أنباءها وأخبارها .

ولكن ... هل يمكن أن لا يكون روجويين قد لاحظ أعراض جنونها حتى الآن ؟ « هِمْ ... ان روجويين ينسب كل ما تفعله الى دوافع أخرى هي دوافع الهوى ! ان غيرته خطأ وضلال . ماذا أراد أن يقول بافتراضه ذاك الذى أفصح عنه منذ قليل ؟ » . (واحمر الأمير فجأةً وأحسَّ في قلبه بما يشبه أن يكون ارتجافاً) .

ولكن مافائدة العودة الى هذه الذكريات ؟ ان هناك جنوناً في الطرفين

كليهما . أما فيما يتعلق به هو ، فقد كان الأمير يرى أن من غير المعقول أن يحب الانسان هذه المرأة حبَّ غرام ، بل لقد كان يرى أن ذلك أمر قاس وغير انسانى . قال الأمير يحدث نفسه : « نعم ، ان روجوين قد تقوَّل على نفسه ظالماً . ان له قلباً يزخر بالعاطفة ، وهو قادر على أن يتألم وعلى أن يشعر بالشفقة . وحين سيعرف الحقيقة كلها ، حين سيقتنع بأن هذه المرأة مخلوقة بائسة مختلة العقل شبه مجنونة ، فلن يسعه الا أن يغفر لها كل الماضى ، وكل آلامها . ولسوف يصبح لها عندئذ خادماً وأخاً وصديقاً ومعيناً . سوف يردُّه العطف الى الطريق القويم ، وسوف تكون هى له تعليماً من التعاليم ، لأنها القانون الأساسى وربما القانون الوحيد الذى يحكم الوجود الانسانى » . ما أشد ندم الأمير الآن على السلوك الذى سلكه مع روجوين ، وهو فى نظره سلوك غير شريف ، سلوك لا يُغتفر . لا ، ليست النفس الروسية هى الظلمات ، ليست هى اللغز ، وانما اللغز نفسه هو ، لأنه أمكن أن يتخيل تلك الشناعة . ان روجوين قد وصفه بأنه أخ ، لا لشىء غير بضع كلمات فيها حرارة ومودة قالها له بموسكو ، فما باله هو ... ولكن ذلك كله لم يكن الا مرضاً ، لم يكن الا هذياناً ... سوف ينقضى كل هذا . ما أغرب تلك الهيئة المتجهمة الذى بدت على روجوين حين قال له منذ قليل انه « بسبيل فقد ايمانه » ! لا بد أن الرجل يعانى ألماً رهيباً . هو يدعى أنه « يحب أن ينظر الى لوحة هولباين » : ليست المسألة أنه يحب أن ينظر اليها ، بل المسألة أنه يشعر بحاجة الى ذلك . ان روجوين ليس ذا طبيعة ملتهبة فحسب ، بل هو كذلك ذو مزاج مناضل : انه يريد استرداد الايمان الذى فقده ، يريد استرداده بأى ثمن ، مهما يكلفه ذلك من عناء . انه يشعر الآن بضرورة ذلك ، وهو من هذا فى ألم شديد ... نعم ، الايمان بشىء ، الايمان بأحد ! ولكن ما أغرب تلك اللوحة ، لوحة هولباين !... آ ... هذا هو

الشارع ، وربما هذا هو المنزل الذى أبحث عنه ... نعم ، هذا هو المنزل: رقم ١٦ ، « دار زوجة الموظف فليسوف » . هذه هى الدار .

قرع الجرس ، وطلب ناستاسيا فيليبوفنا .

فأجابته صاحبة الدار بنفسها قائلة ان ناستاسيا فيليبوفنا قد سافرت منذ الصباح الى بافلوفسك ، وانها نزلت ضيفةً على داريا ألكسيفنا ، « وانها قد تمكث عندها بضعة أيام » . ان السيدة فليسوفا امرأة قصيرة فى نحو الأربعين من العمر ، مدببة الوجه حادة العينين ، لها نظرة ماكرة فاحصة. سألت الزائر عن اسمه وقد لاح فى وجهها شىء من معنى السر . فأراد الأمير فى أول الأمر أن لا يجيب عن سؤالها ، لكنه ما لبث أن عدل عن رأيه ، فعاد ليرجوها ملحاً أن تنقل اسمه الى ناستاسيا فيليبوفنا . فسجلت السيدة هذه التوصية بكثير من العناية والاهتمام ، مصطنعةً لهجة خاصة هى لهجة المسارَّة فكأنها تريد أن تقول : « لا تخف . لقد فهمت ! » . يظهر أن اسم الزائر قد أحدث فى نفسها أثراً قوياً . ألقى الأمير عليها نظرة ذاهلة ، واستدار على عقبيه ، وعاد يسير فى الطريق المؤدى الى فندقه . لكن حالته الآن لا تشبه الحالة التى كان عليها حين قرع جرس باب السيدة فليسوفا . لقد تغير مظهره كله فى طرفة عين : فهو الآن يسير شاحب الهيئة ، واهن العزم ، معذب النفس ، قلقاً مضطرباً ؛ ركبتاه ترتجفان ، ابتسامة حائرة زائغة تلمُّ بشفتيه المزرقتين : ان « فكرته الباغتة » قد جاء الآن ما يؤكدها ويبررها . وأحسَّ الأمير مرةً أخرى أن الشيطان استلمه . فما الذى حدث فأكد فكرته وبرَّرها ؟ لماذا يعتريه مرةً أخرى هذا الارتجاف ، وهذا العرق البارد ، وهذه الظلمات الكثيفة فى النفس ؟ ألأنه رأى « تينك العينين » من جديد ؟ ولكن ألم يتعمد أن يترك « حديقة الصيف » لغرض واحد هو أن يراهما ؟ تلك كانت « فكرته الباغتة » . لقد شعر برغبة قوية عنيفة فى أن يرى « تينك

العينين » اللتين رآهما منذ قليل ليقتنع اقتناعاً نهائياً بأنه سيجدهما لا محالة « هناك » ، قرب تلك الدار . فاذا كان قد رغب فى رؤيتهما تلك، الرغبة القوية الحارة كلها ، فلماذا أُرهق هذا الارهاق كله واضطرب ذلك الاضطراب كله حين رآهما ، كأنه أمام حادث لم يكن فى حسبانه ؟ نعم ، انهما نفس « تينك العينين » (لا مجال للشك فى هذا الآن) اللتين رشقتاه بنيراهما صباحاً فى محطة نيقولا * وسط الجمهور حين نزل من القطار . وهما نفس تينك العينين (تماماً) اللتين شعر بثقلهما على كتفيه ، بعد الظهر ، فى منزل روجويين ، حين كان يهمُّ أن يجلس . لقد أنكر روجويين ذلك. حتى لقد سأل وهو يبتسم ابتسامة متقلصة باردة كالصقيع: « هما عينا من ؟ » . وهاتان العينان نفسهما ، رآهما الأمير مرةً أخرى ، مرةً ثالثة فى ذلك اليوم نفسه ، قبل برهة قصيرة ، فى محطة خط تسارسكوى * ، عندما همَّ أن يركب القطار مسافراً لرؤية آجلايا . لقد راودته عندئذ رغبة محمومة مسعورة فى أن يقترب من روجويين وأن يقول له « هما عينا من ؟ » . ولكنه خرج من المحطة مسرعاً ، ثم لم يثب الى وعيه الا أمام دكان بائع سكاكين ، فقدَّر لشىء رآه فى الواجهة الزجاجية، شىء له نصاب من قرن الوعل ، قدَّر له ثمنا هو ستون كوبكاً .

ان شيطاناً عجيباً رهيباً قد استولى عليه استيلاء نهائياً ، وأصبح لا يريد أن يتركه . فذلك الشيطان هو الذى أوحى اليه أثناء تأمله جالساً تحت شجرة زيزفون فى « حديقة الصيف » ، أن روجويين يلاحق كل خطوة من خطواته منذ الصباح ، حتى اذا عرف أن الأمير لن يسافر الى بافلوفسك (وهذا وحده نبأ رهيب عنده) قرَّر أن يذهب « الى هناك » ، الى حى بطرسبرج القديمة ، ليترقب فيما حول الدار وحول ذلك الرجل الذى عاهده فى ذلك اليوم نفسه « على أن لا يزورها » ، وقال له « انه لم يجىء الى بطرسبرج لهذا الغرض » .

حينئذ هرع الأمير الى تلك الدار باندفاعة مباغتة • فأية غرابة اذن في أن يلقى هنالك روجويين ؟ انه لم ير الا رجلاً شقياً بائساً تعذبه خواطر مظلمة لكنها مفهومة • ثم ان ذلك الرجل السيء الحظ لم يحاول حتى أن يختبيء • نعم ، لا شك أن روجويين قد كذب حين أنكر أثناء الحديث الذي جرى بينهما بعد الظهر • لكنه في محطة تسارسكوى قد ظهر دون اختباء تقريباً • واذا كان قد اختبأ أحد فان الأمير هو الذي اختبأ لا روجويين الذي يقف الآن قرب الدار • لقد وقف روجويين منتظراً على الرصيف المقابل ، على مسافة خمسين متراً ، عاقداً ذراعيه فوق صدره• واضح أنه لا يحاول الاختباء ، حتى لكأنه يرغب في أن يُرى • ان موقفه هو موقف المتهم ، هو موقف القاضي ، لا موقف الـ ••• موقف مَنْ فعلاً ؟

ولكن الأمير ، بدلاً من أن يقترب منه ، مضى مبتعداً كأنه لم يلمحه، مع أن أعينهم قد التقت ، فلماذا ؟ (نعم ، لقد التقت أعينهم ، وتبادلا نظرة) • ألم يكن ينوى قبل ذلك هو نفسه أن يمسك يده وأن يذهب « الى هناك » في صحبته ؟ ألم يكن ينوى أن يمر به في الغد ليقول له انه ذهب اليها ؟ ومنذ قليل ، في منتصف طريقه الى الدار ، ألم يتحرر من من شيطانه حين غمرت نفسَه فرحةٌ مفاجئة ؟ أم تُرى كان في شخص روجويين أو قل في الوضع العام لهذا الرجل ، « طوال ذلك اليوم » ، أى في مجموع أقواله وحركاته وأفعاله ونظراته ، شيء يمكن أن يبرر توجسات الأمير الرهيبة وايحاءات شيطانه المثيرة ؟

ذلك كله كان يشتمل على ملاحظات تخطف البصر ، ولكن يصعب تحليلها وترتيبها ، ويستحيل كذلك أن يُنسب اليها أساس منطقى • ومع ذلك ، رغم هذه الصعوبة ، ورغم هذه الاستحالة ، كانت تحدث انطباعاً

اجمالياً لا يمكن التخلص منه ، انطباعاً يتحول من تلقاء نفسه الى اقتناع مطلق .

اقتنــاع ، ولكن بمــاذا ؟ آه ... لشــد ما كان السخف العجيب و «الدناءة المنحطة فى هذا الاقتناع» والصغار الشديد فى « هذا التوجس »» لشد ما كان هذا كله يعذب الأمير ؟ وما أعنف اللوم والتقريع اللذين كان الأمير يأخذ بهما نفسه لهذا كله! كان الأمير يقول لنفسه مكرراً معنفاً بلهجة الاتهام والتحدى : « أفصح عن ذلك الاقتناع بصراحة على الأقل ، ان كنت تجرؤ ! عبِّر عن فكرتك بوضوح ، بدقة ، بغير مواربة ومداورة ! أوه ! أنا انسان غير مستقيم ، غير شريف ! (هذا ما كان يضيفه وقد اعترته نوبة استياء تخضب وجهه بحمرة شديدة) . بأى عين سـأجرؤ أن أرى هذا الرجل بعد الآن طوال حياتى ؟ آه ... يا لهذا اليوم ! يا رب ! ما هذا الكابوس الثقيل !... » .

وفى ختام هذه العودة الطويلة الشاقة من حى بطرسبرج القديمة ، جاءت دقيقة استبدت بالأمير خلالها رغبة قوية لا تقاوَم فى أن يذهب الى روجوين فوراً ، وأن يعانقه ساكباً دموع الندامة ، وأن يقول له كل شىء» فيفرغ من هذه القضية دفعةً واحدة . ولكنه كان قد وصل الى الفندق..

ان الفندق ، والممرات التى فيه ، والغرفة التى نزلها الأمير ، والمبنى نفسه ، ان ذلك كله كان قد أثار انزعاج الأمير الى أقصى حد ، منذ أول وهلة . وقد شعر عدة مرات خلال ذلك النهار بنفور خاص واشـمئزاز شديد حين كان يتصور أن عليه أن يعود الى ذلك الفنـدق . وها هو ذا الأمير يقول مخاطباً نفسه : « ولكن ماذا أصابنى ؟ اننى أشبه امرأة مريضة ... فأنا أومن اليوم بجميع أنواع التوجسات ومشـاعر التنبؤ ! » . قال الأمير ذلك لنفسه بلهجة فيها غضب وسخرية . وحين وافته هذه الفكرة، توقف أمام الباب الكبير . ان حادثاً واحداً من بين جميع أحـداث النهار

يحتكر في هذه اللحظة فكره ، لكن الأمير يواجهه الآن « بهدوء وبرود »، « مالكاً كامل عقله » ، « لا من خلال كابوس ثقيل » • لقد تذكر السكين التي كانت على مائدة روجويين • وها هو ذا يتساءل مستغرباً فكرته نفسها : « ولكن أي غرابة في أن يكون على مائدة روجويين ما يشاء من سكاكين ؟ » • وتضاعف استغرابه حين تذكر ، على حين فجأة ، توقفه بعد الظهر أمام دكان بائع السكاكين • وها هو ذا يهتف قائلاً : « ولكن ! عجيب ! •• أية علاقة يمكن أن تكون بين •• » • ولم يكمل جملته • ان نوبة جديدة من الشعور بالخجل والخزي ، بل ومن الشعور بالكمد واليأس تقريباً ، قد سمَّرته في مكان أمام الباب • ولبث جامداً برهةً من الوقت لا يتحرك • انها لظاهرة تحدث كثيراً ، أن تستيقظ في ذهن المرء ذكرى لا تطاق ، ذكرى رهيبة ، فاذا هي تشلُّه عن الحركة بضع ثوان • قال الأمير يكرر لنفسه متجهم الوجه مظلم الهيئة : « نعم ، أنا انسان بلا قلب ، أنا رجل جبان ! » ، وتحرَّك الى أمام ليدخل ، ولكنه ••• توقف من جديد •

ان مدخل الفندق ، وهو في العادة قليل الضوء ، كان عندئذ مظلماً ظلاماً حالكاً ، بسبب اقتراب هبوب العاصفة التي أعتمت نهاية ذلك النهار• وقد هبَّت العاصفة في اللحظة التي عاد فيها الأمير ، وأخذت تهطل أمطار غزيرة كالسيول • فلما همَّ الأمير أن يدخل بعد وقفة قصيرة عند عتبة الباب الخارجية ، لمح في الداخل على حين فجأة ، رجلاً واقفاً في الظلام على أول السلم • كان يبدو على هذا الرجل أنه ينتظر شيئاً ، لكنه سرعان ما غاب في مثل لمح البصر سرعةً • واذ لم يميِّز الأمير قسمات وجهه ، فانه لا يستطيع أن يقول جازماً من هو على وجه الدقة لا سيما وأن ناساً كثيرين يمرون هناك ، ففي كل فندق حركة لا تنقطع ، والناس بين داخل وخارج وسائر في الممرات • غير أن الأمير قد اقتنع على الفور اقتناعاً تاماً

لا يتزعزع بأنه قد تعرّف ذلك الرجل وأن ذلك الرجل لا يمكن أن يكون أحداً آخر غير روجوبين • وها هو ذا يسرع مقتفياً أثره مطارداً خطاه على السلم• انه محطم القلب• وقال لنفسه واثقاً : « سيتضح الآن كل شيء ! »•

ان السلّم الذى اندفع فيه الأمير يفضى الى ممـرات الطابق الأول والطابق الثانى • انه سلّم من حجر ، كسلالم جميع المبانى القديمة ، وهو مظلم ضيق ، يصعد ملتفاً حول عمود ضخم • وقد جُعلت فى هذا العمود عند الفسحة الأولى فجـوة لا يزيد طولها عن قدم ولا يزيد عرضـها عن نصف قدم عمقاً ، فيستطيع رجل أن يقف فيها • فلما وصل الأمير الى هذه الفسحة لاحظ على الفور ، رغم الظلام ، أن أحداً كان مختبئاً فى الفجوة ، فأراد فى أول الأمر أن لا يكترث بالأمر وأن يتخطى الفسحـة دون أن ينظر الى يمين • ولكنه لم يكد يتقدم خطوة واحدة حتى أصبح لا يستطيع أن يسيطر على نفسه فالتفت •

عندئذ التقت بعينيه العينان اللتان التقتا بهما بعد الظهر ، « العينـان نفسهما » ، التقتا بعينيه فجأة • ان الرجل الذى كان مختبئاً فى الفجوة قد تقدم خطوةً ليخرج منها • وبقى الرجـلان واقفين وجهـاً الى وجـه ، متلامسين تقريباً ، خلال ثانية • ثم أمسك الأمير الرجل من كتفيه وجرّه فى السلم نحو الضوء ليتفرس فيه مزيداً من التفرس •

سطعت عينا روجوبين ، وتقلصت شفتاه بابتسامة حنق • ورفع يده اليمنى التى كانت تشـهر أداة من الأدوات • لم يخطر بـال الأمير أن يصده • ولكن الأمير تذكر ، فيما بعد ، أنه صرخ يقول :

ـ روجوبين ! لا أصدّق هذا !

لقد بدا للأمير عندئذ أن شيئاً ما يفغر أمامه على حين فجأة • ان ضياء «داخلياً» ذا سطوع خارق قد أثار نفسـه • لعـل الأمر لم يدم الا نصف ثانيـة • ولكن الأمير احتفظ بذكرى واضحة واعيـة عن النبرة الأولى

للصرخة الفظيعة التى انطلقت من صدره والتى تعجز جميع قواه عن كبحها • ثم انطفأ شعوره فى لحظة ، وغاب فى الظلمات •

لقد اعترته نوبة صرع ، وذلك أمر لم يحدث له منذ زمن طويل جداً • تعلمون أن هذه النوبات تباغت المريض مباغتة ، فيتشوه عندئذ وجهه وتتشوه نظرته تشوهاً سريعاً لا يُصدَّق • ان تشنجات وتقبضات تقلّص جسمه كله وقسمات وجهه جميعها • وان أنات رهيبة لا يتصورها الخيال ولا يمكن أن تشبَّه بشيء ، تخرج عندئذ من صدره • هى أنَّات ليس فيها ما يذكّر بالانسان ؛ ويصعب بل ويستحيل أن يتخيَّل المرء حين يسمعها أن هذا المسكين هو الذى يطلقها ، وانما يميل به الظن الى الاعتقاد بأنها صادرة عن كائن آخر مختبيء فى داخل المريض • هذا ، على الأقل، ما يقوله كثير من الأشخاص حين يريدون أن يصفوا شعورهم ازاء تلك الأنَّات • ان منظر المريض الذى اعترته نوبة الصرع يحدث فى نفوس كثير من الناس رعباً لا سبيل الى مغالبته •

لعل روجوين قد شعر بمثل ذلك الرعب المفاجيء • ولعل هذا الرعب المفاجيء حين أضيف الى انفعالات أخرى هو الذى جمَّده فى مكانه فأنقذ الأمير من طعنة السكين الذى كانت ستقتله لا محالة • لم يتسع وقت روجوين لأن يدرك النوبة التى جندلت خصمه • ولكنه حين رأى خصمه يترنح ويسقط منقلباً على السلّم فجأة ، مصطدماً بنقرته على احدى الدرجات ، أسرع يهبط الدرجات أربعاً أربعاً ، متحاشياً الجسم المتمدد ، وولى هارباً من الفندق كالمجنون •

وكان من شأن التشنجات والتقبضات أن دحرجت الجسم درجة درجة (وكان عدد الدرجات لا يزيد على خمس عشرة) حتى أسفل السلّم • ولم تمض خمس دقائق حتى اكتُشف فاحتشد الناس من حوله•

وكانت بركة من الدم تحيط برأسه فأثار ذلك شكوكاً وشبهات : أحادثة طارئة أم جريمةَ مقترفة ؟ غير أن عدداً من الأشخاص لم يلبثوا أن أدركوا أن الأمر أمر نوبة صرع ٠ وتعرف خادم الفندق الأمير ، فقال انه نزيل من نزلاء الفندق قدم فى هذا الصباح ٠ ثم تبددت الشكوك والشبهات تبدداً تاماً بفضل مصادفة سعيدة جاءت فى أوانها ٠

ان كوليا ايفولجين الذى كان قد وعد بأن يأتى الى فندق «الميزان» قبل الساعة الرابعة ثم عدل عن رأيه فسافر الى بافلوفسك ، قد رفض ، لسبب لم يكن فى الحسبان ، أن يتغدى عند الجنرالة ايباتشين ؛ وعاد الى بطرسبرج ، وأسرع الى « فندق الميزان » فوصله فى الساعة السابعة من المساء ٠ فلما وجد الرسالة التى تبلغه أن الأمير بالمدينة ، هرع الى العنوان المشار اليه فى الرسالة ٠ فقيل له فى الفندق ان الأمير قد خرج ٠ فنزل الى قاعة الطعام ينتظره وهو يحتسى الشاى ويصغي الى أنغام الأرغن الآلى ٠ وشاءت المصادفة أن يسمع أناساً يتحدثون عن رجل سقط على السلّم فى نوبة صرع ، فأوجس بما يشبه النبوءة أن الرجل قد يكون هو الأمير ، فأسرع الى مكان الحادث فتعرَّف الأمير فعلاً ٠ وسرعان ما اتخذت الاجراءات اللازمة فأُصعد الأمير الى غرفته ٠ وقد ثاب الى الأمير بعض شعوره ، لكنه لم يسترد وعيه كاملاً الا بعد مدة طويلة ٠ وقال الطبيب الذى استدعى لفحص جروح الرأس ان الاصابات بسيطة ليس فيها خطر ، ونصح للرضوض بكمادات ٠ وبعد ساعة من الزمن كان الأمير قد عاد يعى كل ما يحيط به وعياً كاملاً ٠ وعندئذ نقله كوليا بالعربة من الفندق الى دار ليديف٠ فاستقبله استقبالاً فيه كثير من الاهتمام والرعاية والاحترام٠ حتى لقد قدَّم فى سبيله موعد السفر الى الريف ، فبعد ثلاثة أيام كان الجميع فى بافلوفسك ٠

الفصل السادس

أن منزل ليـديف فى الريف فيللا صـغيرة لكنهـا مريحة بل وجميلة • والجزء المعدُّ للتأجير منها قد أُولى تزيينه عنـايةً خاصـة • ففى الشرفة الواسـعة المطلة على الشـارع عند مدخل الدار وضعت أحواض كبيرة من خشـب مدهون باللـون الأخضر ، فيهـا شجيرات برتقال وليمون وياسمين صُفَّت صفاً لا بد أن يكون له أجمل الأثر ، فى تقدير ليديف وفى حسابه • ان عدداً من هذه الشجيرات قد اشتُرى مع العقار نفسه ؛ وبلغ ليديف من اعجابه وافتتانه باصطفافها على الشرفة أنه انتهز فرصة بيع بالمزاد فاشترى عدداً آخر من نوعها ؛ فلمَّا نقلت الشجيرات كلهـا الى الفـيللا ووضعت فى مكانها ، أصبح ليديف يهبط درجات الشرفة عدة مرات كلَّ يوم ليتأمل منظرها من الشـارع ، حاسباً فى كل مرة الزيادة التى سيطلبها من المستأجر •

أُعجب الأمير بالفيللا كثيراً ، وكان ما يزال واهن الجسم ، خـائر القوة ، محطَّم البدن • الواقع أنه منذ وصوله الى بافلوفسك ، أى فى اليوم الثـالث الذى انقضى على نوبة الصرع ، كان قد اسـتردَّ مظهـر الصحة والعافية ، ولكنه لمَّا يشعر بأنه أبلَّ ابلالاً تاماً • وقد أسعده أن يرى من حوله ناساً خلال تلك الأيام الثلاثة : كوليا الذى لا يكاد يتركه ، وأسرة ليديف (باستثناء ابن الأخت الذى رحـل لا يدرى أحـد الى أين) ،

وليديف نفسه • حتى لقد سرَّه أن زاره الجنرال ايفوجين ببطرسبرج قبل سفره •

وفي ذلك المساء الذي وصل فيه الى بافلوفسك ، اجتمع حوله على الشرفة عدد من معارفه ، رغم أن الوقت متأخر : جاء جانيا أول من جاءوا، فلم يكد يتعرفه الأمير من شدة تغيره وفرط نحوله وهزاله ؛ ثم جاءت فاريا ومعها بتتسين ، وكانا يصطافان في بافلوفسك أيضاً • وكان الجنرال ايفوجين يلبث عند ليديف طول الوقت تقريباً ، وكأنه انتقل معه ، وكان ليديف يبذل قصاراه ليبقيه بقربه وليمنعه من مقاربة الأمير • وكان يعامله معاملة الصديق للصديق ، وكان يبدو على الرجلين كليهما أنهما صديقان منذ عهد بعيد • وقد رآهما الأمير عدة مرات فى أثناء تلك الأيام الثلاثة يندفعان فى محادثات طويلة ، فكانا يصيحان حتى ليبدو عليهما أنهما يتناقشان في مسائل علمية ، وذلك أمر كان واضحاً أنه يلقى هوى فى نفس ليديف • فمن رآهما قال ان ليديف أصبح لا يستطيع الاستغناء عن الجنرال •

وكان ليديف يتخذ هذه الاحتياطات ازاء أسرته أيضاً ، مداراةً للأمير ومراعاةً له ، منذ اقامتهم فى الفيللا • فكان بحجة عدم ازعاج الأمير لا يدع لأحد أن يدنو منه ، فمتى أظهر أولاده أنهم ماضون الى الشرفة التى يجلس فيها الأمير ، قرع الأرض بقدمه وركض وراءهم ، رغم أن الأمير قد رجا أن لا يُبعدوا عنه • وكانت فيرا نفسها ، التى تحمل الطفل بذراعيها ، لا تنجو من حركاته هذه ، وكان يردُّ على اعتراضات الأمير قائلاً :

ــ ان رفع التكليف هذا لا بد أن يؤدى الى قلة الاحترام ، اذا نحن أجزناه • هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان ذلك يكون من جانبهم مجافاةً للياقة والكياسة •••

فكان الأمير يعترض قائلاً :

ـ لماذا ؟ أؤكد لك أن رقابتك وقسوتك لا تزيدان على أن تحزناني. قلت لك مراراً انني أشعر بسأم وضجر من الوحدة ، وانك تضاعف هواجسي ومخاوفي حين أراك ما تنفك تحرّك يديك باشارات وايماءات ، وتسير على رءوس الأصابع .

كان الأمير يُلمع بذلك الى العادة التي ألفها ليديف خلال هذه الأيام الثلاثة وهي أن يدخل عليه في كل لحظة ، فيطرد جلساءه بحجة توفير الهدوء والسكينة للمريض. كان ليديف يبدأ بأن يشق الباب، فيُدخل منه رأسه ، ويتفحص الغرفة كأنما ليتحقق من وجود الأمير فيها ، ومن أنه لم يهرب ؛ ثم يدنو من المقعد خلسةً على رءوس الأصابع ، فيروّع الأمير أحياناً بظهوره المفاجيء غير المتوقع ، ويسأله بغتةً أهو في حاجة الى شيء ؟ فاذا رجاه الأمير أخيراً أن يدعه وشأنه خرج طائعاً دون أن يقول كلمة واحدة ، سائراً على رءوس الأصابع أيضاً ، محركاً يديه باشارات وايماءات كذلك ، كأنما ليوهم بأنه لم يدخل الا عابراً ، وأنه لم يبق ثمة ما يضيفه ، وأنه خارج ولن يعود . ولكن ذلك لا يمنعه من أن يظهر مرةً أخرى بعد ربع ساعة ، ان لم يكن بعد عشر دقائق .

وكان كوليا الذي يجوز له أن يلقى الأمير في كل لحظة بغير حظر وأن يبقى معه ما شاء أن يبقى ، يثير غيرة ليديف الذي كان هذا التفضيل يغيظه ويحنقه الى أبعد الحدود . وقد لاحظ كوليا أن ليديف كان يقف وراء الباب في بعض الأحيان نصف ساعة يتجسس على حديثه مع الأمير ، ولم يغب عن بال كوليا طبعاً أن ينبه الأمير الى ذلك .

قال الأمير يحتج على ليديف :

ـ انك تحجر عليّ كأنك وليُّ أمري . وأنا أفهم أن يكون الأمر

على غير هذه الحال ، على الأقل هنا فى الريف ٠ فاعلم أننى سأستقبل من أريد استقباله ، واننى سأذهب الى حيث يحلو لى أن أذهب ٠

فأجابه ليديف محركاً ذراعيه :

ـ طبعاً ، بدون أدنى شك !

فنظر اليه الأمير من الرأس الى القدمين ٠

ـ قل لى يا لوكيان تيموفئفتش : هل نقلت الى هنا الخزانة الصغيرة التى كانت عندك فى بطرسبرج ، فوق سريرك ؟

ـ لا ، لم أنقلها !

ـ كيف ؟ أتركتها هناك ؟

ـ لا سبيل الى نقلها ٠ فلو أردت نقلها لوجب انتزاعها من الجدار ٠ انها مثبتة فى الجدار تثبيتاً قوياً متيناً ٠

ـ قد يكون ثمة خزانة مثلها هنا ؟

ـ نعم ، بل ثمة خزانة أفضل منها ٠ وهذا أحد الأسباب التى دفعتنى الى شراء هذه الفيللا ٠

ـ آ ٠٠٠ ومن هو ذلك الشخص الذى حجبت عنه الوصول الى غرفتى منذ ساعة ؟

ـ هو ٠٠٠ هو الجنرال ٠ نعم ، صحيح ، لم أسمح له أن يدخل ٠ ليس هذا المكان مكانه ٠ يا أمير ، اننى احترم هذا الرجل احتراماً عميقاً ٠ انه ٠٠٠ انه رجل عظيم ، ألا تصدقنى ؟ طيب ٠٠٠ لسوف ترى !٠٠٠ ومع ذلك فان الأفضل يا سمو الأمير أن لا تستقبله فى بيتك ٠

ـ هلاَّ سمحت لى أن أسألك لماذا يجب أن لا أستقبله فى بيتى ؟ ولماذا أراك الآن ، يا ليديف ، تقف على رءوس الأصابع وتظل تدنو منى دنوَّ من يريد أن يفضى الىَّ بسر همساً فى الأذن ؟

أجاب ليبديف فجأة ، وهو يلطم صدره بيده ، قائلاً بلهجة مؤثرة :

ــ من حطتي وصغاري ! انني أحس ذلك . هذا حطة وصغار ! ولكن ألا يمكن أن يكون الجنرال مضيافاً الى حد الغلو ، بالنسبة اليك ؟

ــ مضيافاً الى حد الغلو ؟ ماذا تريد أن تقول بهذا الكلام ؟

ــ نعم ، مضيافاً الى حد الغلو ! هو أولاً يهيىء نفسه لأن يستقر في منزلي ساكناً مقيماً . هبنا قبلنا هذا على كل حال . ولكن المهم أنه لا يشعر بحرج ، فسرعان ما يحشر نفسه في الأسرة . لقد سبق أن درسنا معاً روابط القرابة التي تجمعنا ، فلاحظنا أننا أقرباء بالمصاهرة . وأنت أيضاً تمت اليه بقربى من جهة أمك . شرح لي ذلك أمس . فاذا كنت أنت قريبه ، فنحن اذن قريبان يا سموّ الأمير . على كل حال ، هذه مسألة بسيطة ... لا تعدو أن تكون نقطة ضعف يسيرة في الجنرال وليس لها نتائج ذات بال . لكنه قد أكد لي قبل لحظة أنه طوال حياته ، منذ حصل على رتبة مرشّح الى اليوم الحادي عشر من شهر حزيران (يونيه) من العام الماضي ، لم يقلّ عدد الضيوف في بيته كلّ يوم عن مائتي شخص ، فالمائدة لا تخلو في لحظة في اللحظات : فمن افطار الى غداء الى شاي الى عشاء خلال خمس عشرة ساعةً متصلة غير منقطعة . وقد قال ان هذه الحال دامت ثلاثين عاماً بلا انقطاع ، فلا يكاد يتسع الوقت أثناء ذلك لتجديد غطاء المائدة ؛ وما ان ينهض ضيف لينصرف حتى يجيء ضيف آخر فيحل محله . وفي أيام الأعياد ، ولا سيما أعياد الأسرة الامبراطورية ، كان عدد ضيوف الجنرال يبلغ ثلاثمائة . وقد بلغ عددهم سبعمائة عند الاحتفال بالذكرى الألفية لروسيا * . شيء رهيب. ان قصة كهذه القصة لا تبشّر بخير ، وانه لمن الخطر أن يستقبل المرء في بيته أناساً يبلغون هذا المبلغ من كرم الضيافة . لذلك تساءلت ألا يمكن أن يكون الجنرال مضيافاً الى حد الغلو ، بالنسبة اليك ، وبالنسبة اليّ أيضاً .

ـ ولكنني لاحظت أنكما كنتما على أتم وفاق ، فهل كان ظني خطأ ؟

ـ انني أحمل هذره على محمل المزاح ، بروح الأخوة . فأن نكون قريبين بالمصاهرة فهذا لا يضيرني ، بل هو شرف لي . انني أعدُّ الجنرال شخصاً ممتازاً رغم ضيوفه المائتين ورغم الحفلة الألفية . أعلن هذا صادقاً كل الصدق ، مخلصاً كل الاخلاص . لقد قلت لي منذ هنيهة يا أمير انني أدنو منـك دنوَّ من يريد أن يفضي اليك بسرٍ يملكه . فاعلم أن لديَّ سراً أريد أن أفضي به اليك : هناك انسانة أعلمتني منذ برهة أنها تتمنى كثيراً أن تلقاك خفيةً .

ـ لماذا خفيةً ؟ مستحيل. سأذهب اليها بنفسي ، اليوم اذا لزم الأمر.

عاد ليبديف يقول وهو يجري اشارات كبيرة :

ـ لا ، لا . ليست مخاوفها هي ما تظن أنت . بالمناسبة . ان الشيطان يأتي كل يوم سائلاً عن صحتك .

ـ أنت تصفه دائماً بأنه شـيطان . وأرى أن هذا يوجب الشـبهة والشك !

أجاب ليبديف مسرعاً :

ـ لا مجال لشبهات وشكوك . وانما أردت أن أقول انه ليس هو من تخشاه تلك الانسانة . ان مخاوفها ترجع الى غير هذا !

سأله الأمير منزعجاً من اصطناعه هيئة السر :

ـ الى ماذا ترجع مخاوفها ؟ قل بسرعة !

فأجاب ليبديف ضاحكاً :

ـ ذلك هو السر !

ـ سرُّ من ؟

ـ سرك . لقد منعتني أنت نفسك يا سمو الأمير أن أتكلم أمامك ..

بهذا تمتم ليديف . واذ لاحظ مغتبطاً مبتهجاً أنه استطاع أن يثير حب الاطلاع عند محدثه ، أضاف يقول :

ـ ان تلك الانسانة خائفة من آجلايا ايفانوفنا .

فقطب الأمير حاجبيه ثم قال بعد دقيقة صمت :

ـ يميناً لأتركن منزلك يا ليبديف ! أين جبريل آرداليونتش وأسرة بتسين ؟ عندك ؟ هل جئت بهم الى هنا أيضاً ؟

ـ سيأتون ، سيأتون . وسيأتي الجنرال أيضاً بعدهم . سأفتح أبوابي كلها ، وسأنادي بناتي جميعهن ، جميعهن في هذه اللحظة نفسها .

بهذا همس ليبديف مذعوراً وهو يحرك يديه ويركض من باب الى باب .

وفي تلك اللحظة ظهر كوليا في الشرفة آتياً من الشارع ، فأعلن أن زائرات هن اليزابت بروكوفيفنا وبناتها الثلاث واصلات وراءه .

فقال ليبديف يسأل مضطرباً لهذا النبأ أشد الاضطراب :

ـ أيجب أن أدخل أسرة بتسين وجبريل آرداليونتش أم لا ؟ أيجب أن أسمح للجنرال بالمجيء ؟

قال الأمير ضاحكاً :

ـ لمَ لا ؟ فليدخل من يشاء أن يدخل . أؤكد لك يا ليبديف أنك فهمت علاقاتي فهماً خطأً منذ أول يوم . أنت في ضلال متصل مستمر . ليس هناك أي سبب يدعوني الى أن اختبىء عن أحد .

فحين رآه ليبديف ضاحكاً اعتقد أن من واجبه أن يقلده ، فأخذ يضحك هو أيضاً . كان واضحاً أنه مسرور أشد السرور رغم اضطرابه الشديد .

كان النبأ الذي أعلنه كوليا صحيحاً : لم يكن كوليا يتقدم أفراد

أسرة ايبانتشين الا بضع خطوات ، ليبلغ عن قدومهن . وهكذا دخل زوار من جهتين في آن واحد : فأفراد أسرة ايبانتشين جئن من جهة الشرفة ، بينما جاء بتسين وجانيا والجنرال ايفولجين من شقة ليديف .

ان كوليا هو الذى أعلم أسرة ايبانتشين بمرض الأمير وبوصوله الى بافلوفسك . وكانت الجنرالة حتى ذلك الحين في حيرة أليمة . كان زوجها قد نقل الى الأسرة ، أمس الأول ، بطاقة الأمير ، فاستنتجت اليزابت بروكوفيفنا بدون أي تردد أن الأمير لن يتأخر عن المجيء الى بافلوفسك لزيارتهن . وعبثاً حاولت الآنسات أن يعترضن على استنتاجها بأن الأمير الذى لبث ستة أشهر لا يكتب اليهن قد لا يستعجل زيارتهن ، فربما كانت له ببطرسبرج مشاغل أخرى - من ذا يعرف شئونه ؟ وقد ضاقت الجنرالة بهذه الاعتراضات، وانزعجت منها ، وأعلنت أنها مستعدة لأن تراهن على أن الأمير سيجيء في الغد اذا تأخر . وانتظرته في الغد طوال الصباح ، ثم انتظرته على الغداء ، ثم انتظرته أخيراً في السهرة . فلما هبط الليل اعتكر مزاجها واشتدت شراستها ، فصارت تشاجر الجميع ، ولكن دون أن تقحم اسم الأمير في مشاجراتها طبعاً . ولم تشر اليه في اليوم التالى كذلك . ولكن آجلايا أفلتت منها هذه الملاحظة أثناء العشاء ، قالت : « ان ماما غضبى لأن الأمير لم يجيء الينا » ، فأسرعت الجنرالة تقول : « ليس هذا خطأه » ، ونهضت غاضبة وغادرت المائدة !

ووصل كوليا أخيراً في المساء ، فأبلغهن أنباء الأمير ، وحكى لهن كل ما عرفه عما وقع له . فكان هذا فرحة انتصار لأليزابث بروكوفيفنا ؛ ومع ذلك طفقت تؤاخذ كوليا ، فقالت معرّضة به : « يقضى هنا أياماً بكاملها فلا نعرف كيف نتخلص منه ، حتى اذا احتجنا اليه غاب فكأنه مات ! » . أوشك كوليا أن يغضب حين سمع قولها : « فلا نعرف كيف نتخلص منه » ، لكنه كبح شعوره وأرجأ حقده . ولقد كان يمكنه أن

يغفر كل الغفـران فى الـواقع لولا أن التعبير يبلغ هذا المبلغ من جرح الاحساس وايذاء الكرامة ، نعم كان يمكنه أن يغفر كل الغفران ، لشدة اغتباطه بما ظهر على اليزابت بروكوفيفنا من انفعال واضح وقلق بيِّن حين علمت بمرض الأمير • وألحت الجنرالة طويلاً على ضرورة ايفاد رسول الى بطرسبرج ليجيء بطبيب شـهير يعتنى بالأمير المريض ، فثنتها بناتهـا عن ذلك ، ولكنهن لم يشأن أن يقصِّـرن عن أمهن حين أعلنت فجأة أنها تريد أن تزور المريض •

قالت وهى تتحرك هنا وهناك :

ـ ما ينبغى أن تثنينا أو أن تصدنا قواعد البروتوكول اذا كان الفتى على فراش الموت ! أهو صديق للأسرة أم لا ؟

قالت آجلايا :

ـ ولكن « لا تنزل الماء ما لم تضمن المخرج ! » * •

ـ طيب • لا تذهبى أنت • وذلك أفضـل • لأن أوجين بافلـوفتش سيجيء ، فلا بد أن يكون أحدٌ فى استقباله •

وقد أسرعت آجلايا ، بعد هذا الحـوار ، تنضم الى أمهـا وأختيها طبعـاً ؛ وكانت تلك نيتها منـذ البـداية على كل حـال • ووافق الأمير « شتش ••• » الذى كان يصحب آديلائيد ، على أن يرافق السيدات تلبيةً لطلب الفتاة • وكان منـذ مدة طويلة ، منـذ أن صارت له علاقات بأسرة ايبانتشين ، قد اهتم اهتماماً شـديداً بسـماع كلامهن عن الأمير • وكان يعرف الأمير ، فقد التقى به قبل نحو ثلاثة أشهر فى مدينة صغيرة بالريف، وقضى معه خمسة عشر يوماً ؛ وقصَّ أموراً عن هذا الشـاب الذى كان يحمل له أجمـل المحبـة وأطيب المودة • لذلك رضى ، مبتهجاً ابتهـاجاً صادقاً ، أن يشارك فى زيارة صاحبه القـديم • ولم يكن الجنرال ايفـان فيدوروفتش بالمنزل فى ذلك اليوم ، ولا كان أوجين بافلوفتش قد وصل•

لا تزيد المسافة بين فيللا أسرة ايبانتشين وفيللا ليديف على ثلاثمائة خطوة •

وحين دخلت الجنرالة على الأمير كان أول شعور مزعج أحست به هو أنها وجدت حوله جمهرة كبيرة من الناس ، لا سيما وأن شخصين أو ثلاثة أشخاص منهم كانوا ممن تكرههم • يضاف الى ذلك أنها دُهشت كثيراً حين تقدم اليها الأمير فرأت شاباً يدل ظاهره على أن صحته جيدة ، ويرتدى ثياباً أنيقة ، ويبدو عليه المرح والبشر ، بدلاً من أن ترى الفتى العليل الذى كانت تتوقع أن تراه ؛ فوقفت لا تصدِّق عينيها ، فما كان أشد فرح كوليا الذى كان فى وسعه أن يطلعها على حقيقة الأمر قبل أن تخرج من دارها ، ولكنه حرص على أن لا يفعل ، لأنه تنبأ ماكراً بالغضب المضحك الذى لا بد أن تُظهره حين ترى صديقها العزيز فى صحة جيدة!

حتى لقد مضى كوليا فى الوقاحة الى أبعد من ذلك ، فأعلن انتصاره وتباهى بنجاحه ، ليجعل اليزابت بروكوفيفنا تبلغ من الغضب أقصى ذروة• لقد كان كوليا يخز الجنرالة دائماً ، وكانت وخزاته فى بعض الأحيان جارحة جداً ، رغم ما بينهما من صداقة •

ردَّت عليه الجنرالة قائلة وهى تجلس على المقعد الذى قدَّمه نحوها الأمير :

ـ صبرك يا عزيزى ، لا تعجل هذا التعجل كله ! لا تفسد انتصارك !

وأسرع ليديف وبتسين والجنرال ايفولجين يقدِّمون مقاعد للآنسات • قدَّم الجنرال كرسياً لآجلايا • وقرَّب ليديف كرسياً آخر للأمير « شنتش ••• » وهو ينحنى أمامه انحناء شديداً باحترام عظيم • وحيَّت فاريا الآنسات بكثير من الحرارة والتودد على عادتها ، وأخذت تتهامس معهن •

قالت الجنرالة :

ـ صحيح يا أمير أنني كنت أقدّر أن أجدك في السرير ، من فرط ما ضخّمت مخاوفي الأمور ؛ واني لأعترف لك ، حتى لا أكذب ، بأنني تضايقت كثيراً حين رأيتك طلق المحيَّا منذ قليل ، ولكنني أحلف لك أن هذا التضايق لم يدم الا دقيقة واحدة هي المدة التي كان لا بد منها للتفكير. انني حين أفكّر يصبح سلوكي أسلم وكلامي أعقل وأرشد . أظن أن هذه حالتك أنت أيضاً . يجب أن أقول لك انني لو كان لي ابن مريض لما سُررت بشفائه أكثر من سروري بشفائك . فاذا لم تصدق كلامي كان هذا عاراً عليك لا عليَّ . ولكن هذا الولد الخبيث يسمح لنفسه بأن يدبر لي مكائد أنكى كثيراً من هذه المكيدة . يظهر أنك ترعاه وتحميه . فاعلم اذن انني في ذات يوم قريب سأحرم نفسي من متعة وشرف صحبته ، صدّقني ...

صاح كوليا يقول :

ـ ولكن ما هو الذنب الذي ارتكبته ؟ لو قد أكّدت لك أن الأمير أبلَّ من مرضه تقريباً لما ارتضيت أن تصدقيني . لقد كنت تريدين أن تتصوريه راقداً على فراش الموت . تلك صورة تشوقك أكثر ...

قالت اليزابت بروكوفيفنا تسأل الأمير :

ـ أأنت باقٍ هنا مدة طويلة ؟

ـ الصيف كله ، وقد أزيد .

ـ أأنت وحيد ؟ ألم تتزوج ؟

أجاب الأمير مبتسماً من سذاجة الجنرالة في القاء هذا السؤال .

ـ لا ، لم أتزوج .

ـ لا تبتسم ! ذلك يمكن أن يحدث . لكنني أفكر في الاصطياف :

لماذا لم تنزل عندنا ؟ ان فی دارنا جناحاً بكامله لا يشغله أحد • على كل حال ، هذا شأنك أنت !

ثم أضافت تسأل بصوت خافت وهى تومىء بعينها الى ليديف :

ـ أأنت مستأجر عند هذا الشخص ؟ ما باله يتلوى طول الوقت ؟

وفى تلك اللحظة ظهرت فيرا فى الشرفة خارجةً من شقة ليديف• انها على عادتها تحمل الطفل بذراعيها• وكان ليديف يدور حول الكراسى لا يعرف ماذا يعمل بنفسه ولكنه لا يعزم أمره على أن ينصرف ، وها هو ذا يهجم فجأةً على ابنته ويأخذ يحرك يديه باشارات كثيرة ليبعدها ، حتى لقد نسى نفسه فقرع الأرض بقدمه •

أسرعت الجنرالة تسأل :

ـ أهو مجنون ؟

ـ لا ، ولكنه •••

ـ فلعله اذن سكران ؟•••

ثم أضافت تقول بعد أن ألقت نظرة على سائر الزوار :

ـ لست تُغبط على هؤلاء الذين يحيطون بك ويصحبونك • على كل حال ، هذه فتاة لطيفة • فمن تكون هذه الفتاة ؟

ـ هى فيرا لوكيانوفنا ، ابنة ليبديف هذا •

ـ آ ••• هى لطيفة حلوة حقاً ••• أريد أن أتعرف اليها •

ولكن ليبديف الذى سمع أقوال المديح هذه تزجيها اليزابت بروكوفيفنا ، كان قد أخذ يقود ابنته نحوها ليقدمها اليها •

قال فى أنين وهو يقترب باحترام واجلال :

ـ يتامى ! انهم يتامى • والطفل الذى تحمله بذراعيها يتيم أيضاً •

هذه أخته ليوبوف، ابنتى التى وُلدت لى من زواجى الشرعى جداً بزوجتى ايلينا التى توفاها الله أثناء الوضع منذ ستة أسابيع ... نعم ... هى للطفل بمثابة أم ، رغم أنها ليست الا أخته ، ليست الا أختـه ، ليست الا أختـه فحسب ...

ـ وأنت أيها الرجل لست الا غبياً فحسب . اغفر لى صراحتى . وكفى الآن هذا !

ثم أضافت تقول وقد اعترتها نوبة استياء مفاجئة :

ـ أحسب أنك تدرك ذلك بنفسك !

فأجاب ليديف وهو ينحنى باحترام عميق :

ـ هذه هى الحقيقة بعينها !

سألته آجلايا :

ـ قل لى يا سيد ليديف : يدعى بعضهم أنك تفسر رؤيا يوحنا ، فهل هذا صحيح ؟

ـ هذه هى الحقيقة بعينها ! ما برحت أفسرها منذ خمسة عشرة عاماً.

ـ سمعت عنك ، بل أظن أن الجرائد جاءت على ذكرك .

قال ليديف وقد أخذ يشعر بفرح :

ـ لا . الجرائد تكلمت عن شارح آخر مات فحللت محلّه .

ـ هلاّ سررتنى ، ما دمنا جيراناً ، فجئت الىّ ذات يوم لتفسّر لى بعض فقرات من رؤيا يوحنا . اننى لا أفهم منها شيئاً .

وكان الجنرال ايفولجين جالساً الى جانب آجلايا يحرقه العذاب من أنه لا يستطيع التدخل فى الحديث ، فاذا هو يقول الآن فجأة :

ـ لا أستطيع أن أعفي نفسي من واجب تنبيهك يا آجلايا ايفانوفنا الى أن هذا كله ليس الا تدجيلاً منه ، صدّقيني ...

وتابع الجنرال ايفولجين كلامه يقول :

ـ صحيح أن للحياة في الريف حقوقها ، كما أن لها مسراتها . ولأن يستقبل المرء في بيته رجلاً دخيلاً من أجل أن يشرح له رؤيا يوحنا فهذه نزوة كغيرها من النزوات ، ولعلها نزوة بارعة الذكاء ، لكنني ... مالك تنظرين اليّ مدهوشة ؟ اسمحي لى أن أقدم اليك نفسي : أنا الجنرال ايفولجين . لقد حملتك على ذراعيّ يا آجلايا ايفانوفنا .

دمدمت آجلايا تقول وهي تبذل جهوداً كبيرة من أجل أن لا تنفجر ضاحكة :

ـ سعيدة بمعرفتك . انني أعرف باربارا آرداليونوفنا ونينا ألكسندروفنا ...

غضبت اليزابت بروكوفيفنا حتى احمرت أشد الاحمرار . ان الغضب الذي كظمته في قلبها مدةً طويلة كان في حاجة الى أن ينطلق . وكانت لا تطيق احتمال الجنرال ايفولجين الذي سبق أن عرفته في الماضي منذ زمن بعيد . قالت له باندفاع :

ـ أنت تكذب ، يا عزيزي ، على عادتك ! انك لم تحمل ابنتي على ذراعيك في يوم من الأيام !

فانبرت آجلايا تؤيد كلام الجنرال فجأة فتقول :

ـ بلى يا ماما . أنت نسيت . لقد حملني على ذراعيه فعلاً . كان ذلك في مدينة تفير التي كنا نقيم بها أيامئذ . كان عمري ست سنين ، مازلت أتذكر هذا . وقد صنع لي قوساً وسهماً وعلمني الرماية فاصطدت حمامة . ألا تتذكر أننا اصطدنا معاً حمامة ؟

وهتفت آديلائيد تقول :

ـ وأعطاني خوذة من كرتون وسيفاً من خشب . أنا أيضاً أتذكر .

وزادت ألكسندرا فقالت :

ـ أنا أيضاً أتذكر . حتى لقد تشاجرتما على الحمامة الجريح ، فوُضعت كل واحدة منكما في ركن . واضطرت آديلائيد أن تتسمر في مكانها مع خوذتها وسيفها .

حين ذكَّر الجنرال آجلايا بأنه حملها على ذراعيه ، فانه لم يكن يبغي الا أن يقول شيئاً ما ليجري معها حديثاً ، كما يفعل هذا نفسه كلما أراد أن يتعرف الى شبان أو شابات .

ولكن شاءت المصادفة ، بما يشبه العمد ، أن يكون كلامه في هذه المرة صحيحاً ، لأنه ذكَّر بواقعة صادقة كان قد نسيها هو نفسه ، فلما قالت آجلايا على غير توقع انهما اصطادا حمامة معاً ، عادت اليه ذاكرته دفعةً واحدة ، فتذكر كل شيء بأدق تفاصيله ، كما يحدث ذلك في أحيان كثيرة للشيوخ حين يتذكرون ماضياً بعيداً . انه ليصعب علينا أن نقول ماهو الشيء الذي أثار انفعال الجنرال المسكين من تلك الذكرى (وكان ثملاً على عادته) ، ولكن مما لا شك فيه أنه قد انفعل انفعالاً قوياً وتأثر تأثراً شديداً . فصاح يقول :

ـ أتذكر ، نعم أتذكر كل شيء ! كنت عندئذ كابتن . وكنت أنت صغيرة جداً ، لطيفة حلوة !... يا نينا ألكسندروفنا !... يا جانيا !... كان ذلك في الزمن الذي استُقبلت فيك عندكم ...

قالت الجنرالة :

ـ فانظر الى أين صرت الآن ! على أن الشراب لم يخنق فيك

العواطف النبيلة ، ما دمت تتأثر هذا التـأثر من تلك الذكرى . ولكنك عذَّبت امرأتك عـذاب الشـهداء . وبدلاً من أن تكون قدوةً ومثالاً لأولادك أخـذت تسـتدين وتسـتدين الى أن وُضـعت فى السـجن . اذهب من هنا يا صاحبى ! انسحب الى أى مكان ، الى ما وراء الباب ، الى ركن من الأركان ، لتبكى براءتك القديمة الذاهبة ، فلعل الله أن يغفر لك ويتوب عليك ! هيَّا ، اذهب ! اننى أكلمك جادةً لا هازلة . لا شيء ينفع فى اصلاح المرء كما تنفعه ذكرى ماضيه نادماً !

لم يكن ثمـة داع الى مزيد من الكلام : لقـد كان الجنرال يملك الحساسية المفرطة التى يملكها المدمنون عادةً ، وكان يؤلمه كما يؤلم سائر السـاقطين أن يتذكر أيامه السعيدة . فها هو ذا ينهض ويتجه نحو البـاب طائعاً صاغراً ، فسرعان ما أشفقت عليه اليزابت بروكوفيفنـا ، فصـاحت تناديه قائلة :

ـ أرداليون ألكسندروفتش ، صديقى ، انتظر دقيقة ! نحن جميعاً خطاة آثمون . فمتى شعرت بأن ضميرك قد هدأ بعض الهـدوء واسـترد شيئاً من السكينة والطمأنينة ، فتعال الىَّ زائراً لنتحدث لحظةً عن الماضى . من ذا الذى يسـتطيع أن يؤكد أننى لم أرتكب من الذنوب أضـعاف ما ارتكبت أنت ؟ ولكن استودعك الله الآن ، اذهب ، انصرف ، فليس لك هنا شأن ...

أضافت تقول هذه العبارة الأخيرة فجأة وقد روَّعها أن رأته عائداً .

همَّ كوليا أن يلحق بأبيه ، ولكن الأمير قال له :

ـ الأفضل أن لا تتبعه الآن . والا اعتكر مزاجه وفسد ما ينعم به من صفاء وسعادة !

فقالت اليزابت بروكوفيفنا :

ـ صحيح ! دعه ! ستلحق به بعد نصف ساعة .

وجازف ليديف فقال :

ـ هذا تأثير قول الحقيقة للانسان مرةً في حياته : لقد تأثر حتى الدموع .

فأسرعت اليزابت بروكوفيفنا ترده الى مكانه قائلةً له :

ـ وأنت أيضاً ، يا صاحبي ، لا بد انك سيد مدهش اذا صدق ما سمعته عنك !

أخذ وضع كل واحد من الزوار المجتمعين على الشرفة يتضح شيئاً بعد شيء . واستطاع الأمير طبعاً أن يدرك حق الادراك دلائل عاطفة المودة التي تحملها له الأميرة وبناتها . فقال لهن بلهجة صادقة انه قبل زيارتهن كان قد عقد النية على أن يذهب اليهن في ذلك اليوم نفسه رغم سوء حالته الصحية ، ورغم أن الوقت متأخر . فأجابته اليزابت بروكوفيفنا ، وهي تلقي على الزوار نظرة ازدراء ، ان انفاذ تلك النية ما يزال ممكناً . فلم يلبث بتتسين ، وهو رجل مهذَّب مساير ، أن نهض على الفور وانسحب الى شقة ليديف . وقد أراد أن يقتاد ليديف ، ولكنه لم يحصل منه الا على وعدٍ بأنه سيدركه في الحال . وكانت فاريا تتحدث مع الفتيات فلم تتحرك . وقد سُرَّت هي وجانيا من انصراف الجنرال . وانصرف جانيا بعد بتتسين بقليل . انه خلال الدقائق القليلة التي قضاها على الشرفة بحضور أسرة ايبانتشين قد حافظ على موقف متواضع كريم رصين ، ولم يضطرب بتأثير نظرة السيطرة التي ألقتها عليه اليزابت بروكوفيفنا مرتين من قمة رأسه الى أخمص قدميه . ان الذين عرفوه من قبل لا بد أن يبدو لهم الآن أنه تغير تغيراً كبيراً . وقد أحدث وضعه أثراً حسناً جداً في نفس آجلايا .

ـ أظن أن جبريل آرداليونوفتش هو الذى خـــرج الآن ، أليس كذلك ؟

هكذا سألت آجلايا فجأةً ، على عادتها فى الميل الى مقاطعة حديث الآخرين أحياناً على حين بغتة ، دون أن توجه الكلام الى أحد بعينه .

فأجاب الأمير بقوله :

ـ نعم هو .

قالت آجلايا :

ـ كدت أنكره فما أعرفه . لقد تغير كثيراً ... لقد تحسَّن !

قال الأمير :

ـ سرَّنى تغيره هذا أعظم السرور .

وأضافت فاريا تقول بلهجة تعبر عن شفقة ويخالطها فرح خفى :

ـ كان مريضاً جداً .

وسألت اليزابت بروكوفيفنا بنبرة فيها غضب ويكاد يكون فيها ذعر:

ـ فى أى شىء تحسَّن ؟ من أين جئت بهذا ؟ اننى لا أرى فيه شيئاً تحسَّن ؟ ما الذى تجدينه أنت ؟

صاح كوليا يقول فجـأة وكان ما يزال واقفـاً قرب كرسى اليزابت بروكوفيفنا :

ـ لا شىء أحسن من « فارس فقير » * .

قال الأمير « شتشـ ... » وهو يضحك :

ـ هذا رأيى أيضاً .

وأعلنت آديلائيد قائلة :

ـ وهو رأيي كذلك .

فسألت الجنرالة وهي تحدّق اليهما بنظرة فيها حيرة وغضب :

ـ أي « فارس فقير » ؟

ثم أضافت تقول غاضبة حين رأت أن آجلايا احمر وجهها :

ـ لا بد أنها سخافة من السخافات ! ما « الفارس الفقير » هذا ؟

قالت آجلايا بلهجة فيها غطرسة شديدة :

ـ أهذه أول مرة يشوّه فيها هذا الصبي ، الأثير عندك ، أقوال الآخرين ؟

كانت آجلايا تعتريها نوبات غضب في كثير من الأحيان ، ولكن انقيادها لنوبات الغضب يصحبه دائماً شيء يبلغ من سذاجة الطفولة وخرافة التصرف أن المرء لا يملك أحياناً الا أن يضحك حين يراها . وكان هذا الضحك يخرجها عن طورها لأنها لا تستطيع أن تجد له تفسيراً ، وكانت تتساءل كيف يستطيع هؤلاء الناس وكيف يجسرون أن يضحكوا من سلوكها .

وحين قالت آجلايا عبارتها الأخيرة في حق كوليا ضحكت أختاها وضحك الأمير « شتشـ ... » . حتى أن الأمير ليون نيقولايفتش نفسه لم يستطع أن يحبس ابتسامة ، وان يكن وجهه قد احمر لا ندري لماذا ! أما كوليا فقد انتصر وطفق يضحك ملء حلقه . فغضبت آجلايا ، فزادها ذلك جمالاً . ان الاضطراب والغضب اللذين شعرت بهما قد ضاعفا فتنتها الأخاذة .

وعادت تتكلم فقالت :

ـ ألم يسبق لهذا الصبى أن شوّه أقوالك نفسها فى أحيان كثيرة ؟

قال كوليا :

ـ أنا لم أزد على أن كررت صيحةً من صيحات الاعجاب التى تطلقينها . فمنذ شهر ، حينما كنت تقرئين « دون كيشوت » ، قلت انه لا شىء أحسن من « فارس فقير » . لم أكن أعرف من ذا الذى كنت تقصدين حينذاك : أهو دون كيشوت ، أم أوجين بافلتش ، أم شخص آخر ؟ وانما المهم أن أقوالك كانت تعنى أحداً ما . وقد جرى حول هذا حديث طويل طويل ...

قالت اليزابت بروكوفيفنا بلهجة حادة :

ـ أرى يا صديقى أنك تسمح لنفسك بالاسراف قليلاً فيما تمضى اليه من افتراضات ...

فتابع كوليا كلامه مماحكاً :

ـ أأنا الوحيد ؟ لقد تكلم الجميع فى هذا وما زالوا يتكلمون : فمنذ لحظة واحدة قال الأمير « شتش ... » . وآديلائيد ايفانوفنا والآخرون انهم من أنصار « الفارس الفقير » . فهذا الفارس موجود اذن بالفعل ، وفى رأيى أننا كان فى وسعنا جميعاً أن نعرف من هو ، لولا آديلائيد ايفانوفنا .

سألت آديلائيد ضاحكة :

ـ ما ذنبى أنا ؟

ـ ذنبك أنك لم تقبلى أن ترسمى لنا صورة وجهه ! ان آجلايا ايفانوفنا قد رجتك أن تفعلى حتى لقد أمدّتك بجميع تفاصيل اللوحة كما تتصورها هى ، ألا تتذكرين ؟ ولكنك لم تشائى ...

ـ ولكن كيف كان في وسعي أن أفعل ، ومن ذا الذي كان يمكنني أن أصوّرها ؟ ان « الفارس الفقير » هو كما وُصف لي رجل

لم يرفع امام احد
حافة خوذته الفولاذية

فما هو الوجه الذي يجب أن أُهبه له ؟ ماذا أصوِّر ؟ أأصور حافة خوذة ؟ أأصوِّر وجهاً ليس وجه أحد ؟

صاحت الجنرالة تقول منزعجة :

ـ لست أفهم شيئاً ؟ ما حافة الخوذة هذه التي تتكلمون عنها ؟

وكانت الجنرالة في الواقع قد بدأت تحدِّد شخصية صاحب هذا اللقب (الذي لعله قد تم تخيله منذ مدة طويلة) ، اعني لقب « الفارس الفقير » .

غير أن الأمر الذي أثار استياءها خاصةً ، انما هو ما رأته في هيئة الأمير ليون نيقولايفتش من اضطراب كاضطراب طفل في العاشرة من عمره . فهتفت تقول :

ـ أما لهذه السخافات منآخر ؟ هلاَّ شرحتم لي أخيراً قصة « الفارس الفقير » هذه ؟ أهذا سرٌّ كبير فلا تجوز مقاربته ؟

ولكن الجميع لم يزيدوا على أن استمروا في الضحك .

فتدخل الأمير « شتش ... » أخيراً فقال ليحوِّل الحديث عن مجراه:

ـ الأمر أمر قصيدة روسية غريبة بعض الغرابة ، لا أكثر من ذلك. هي أبيات من قصيدة لا ذنب لها ولا رأس ، تصوِّر فارساً فقيراً . فمنذ نحو شهر ، في ذات مساء بعد العشاء ، كنا قد ضحكنا كثيراً ونحن نبحث

على عادتنا عن موضوع للوحة الجديدة التى سترسمها آديلائيد ايفانوفنا . انك لا تجهلين أن هذا البحث عن موضوع للوحات آديلائيد ايفانوفنا قد أصبح واجباً من واجبات الأسرة منذ زمن طويل . وفيما نحن نبحث ، وقعنا على موضوع « الفارس الفقير » .. ولست أدرى من ذا الذى خطرت بباله فكرته قبل الآخرين .

صاح كوليا يقول :

ـ هذه فكرة آجلايا ايفانوفنا !

وتابع الأمير « شتش ... » كلامه فقال :

ـ جائز جداً . ولكننى لا أذكر . فبعضهم ضحك من الموضوع ، وبعضهم أكد أنه ليس ثمة موضوع أرفع منه ولا أسمى ، ولكن لا بد على كل حال من أن نخلع على « الفارس الفقير » وجهاً . فأخذنا نبحث عن وجه بين وجوه جميع الناس الذين نعرفهم ، ولكن أحداً منهم لم يقع عليه الاختيار ، ووقف الأمر عند ذلك الحد . هذا كل شيء . ولا أدرى لماذا خطر ببال نيقولا آردالیونوفتش أن يعيد هذا الأمر الى الأذهان . فان ما كان مسلياً ومناسباً منذ شهر قد أصبح اليوم غير ذى قيمة .

قالت اليزابت بروكوفيفنا بلهجة قاطعة :

ـ لأن ثمة غمزاً مضمراً ، غمزاً جارحاً مؤذياً .

قالت آجلايا :

ـ لا شيء من ذلك البتة . وليس ثمة الا التعبير عن احترام عميق.

نطقت آجلايا تلك الكلمات بلهجة فيها رصانة شديدة غير متوقعة . فهى لا تسيطر على أعصابها سيطرة تامة كاملة فحسب ، بل يبدو عليها أيضاً من بعض القرائن أنها الآن مسرورة باتساع نطاق المزاح . وقد

حدث هذا الانقلاب في نفسها حين لوحظ أن اضطراب الأمير قد أخذ يشتد مزيداً من الاشتداد .

ـ يضحكون كالمجانين ، ثم اذا بهم يتحدثون فجأة عن احترامهم العميق ! جنون مطبق ! لماذا الاحترام ؟ أجيبيني فوراً : من أين جاءك هذا الاحترام العميق بغتةً بلا سبب ظاهر ؟

فقالت آجلايا تجيب عن السؤال الذى ألقته عليها أمها ثائرة ، قالت تجيب بتلك اللهجة الرصينة الوقور نفسها :

ـ تكلمت عن احترام عميق ، لأن تلك الأشعار فى القصيدة تتحدث عن رجل قادر على أن يكون له مثل أعلى ، وقادر متى حدد لنفسه ذلك المثل الأعلى على أن يؤمن به ايماناً أعمى وعلى أن ينذر له حياتها كلها . وهذا أمر ليس شائعاً في زماننا الحاضر . ان القصيدة لا تعيِّن لنا المثل الأعلى الذى يؤمن به « الفارس الفقير » ، ولكننا نرى بوضوح أن ذلك المثل الأعلى نوع من صورة مضيئة هى « آية الجمال الطاهر النقى » ؛ حتى ان الفارس العاشق يلف عنقه بمسبحة بدلاً من أن يلفه بمنديل. صحيح أن هناك أيضاً شعاراً غامضاً مبهماً ملغزاً تعبِّر عنه هذه الأحرف الثلاثة « آ.م.ب. » * التى رسمها على ترسه .

فانبرى كوليا يصحِّح قائلاً :

ـ بل « آ.م.د »

فردَّت آجلايا غاضبةً :

ـ بل « آ.م.ب. » ، ولا أتراجع . من الواضح على كل حال أن الفارس الفقير كان لا يقيم أى وزن لما هى عليه سيدته ، ولا لما كانت تفعله . حسبه أنه اختارها وآمن « بجمالها الطاهر النقى » حتى ينحنى أمامها الى الأبد . وميزته أنه ، ولو أصبحت بعد ذلك لصة ، يظل يؤمن

بها ويظل مستعداً لأن يدافع عن جمالها الطاهر النقي • يبدو أن القصيدة أرادت أن تجسِّد في صورة استثنائية فذة قوة فكرة الحب الفروسي طبعاً • ولكن هذا المثل الأعلى يصل في « الفارس الفقير » الى أعلى درجاته ، ويبلغ حدّ التقشف والنسك والزهد • يجب أن نعترف بأن القدرة على الشعور بمثل هذه العاطفة ، التي تقتضي بذاتها شكيمة قوية وطبعاً صلباً وارادة عنيدة ، هي شيء لا يُستهان به ، وهي شيء محمود جداً من جهة ما ، بصرف النظر عن دون كيشوت هنا • ان « الفارس الفقير » هو دون كيشوت ، هو دون كيشوتٌ جديٌّ لا هزلي • انني لم أفهمه في البداية ، حتى لقد ضحكت منه وتندرت عليه ، أما الآن فانني أحب « الفارس الفقير » ، وأحترم جسارته واقدامه خاصة •

صمتت آجلايا • انه ليصعب على المرء حين ينظر اليها أن يعرف أكانت جادةً فيما قالته أم كانت هازلة •

ـ فاعلمي أن هذا « الفارس الفقير » رجل غبي رغم كل ما وصفته به من جسارة واقدام • وأنت يا صغيرتي قد تدفقت تلقيننا درساً كاملاً ، فصدقيني اذا قلت لك ان هذا لا يناسبك • وهو على كل حال لا يُطاق• ما هي أشعار تلك القصيدة ؟ أنشديني أبياتها • لا بد أنك تحفظينها • انني أحرص على سماعها أشد الحرص • أنا لم أطق الشعر في حياتي • فلعل ذلك كان مني احساساً أشبه بالنبوءة• تجمل بالصبر ياأمير ، ناشدتك الله • واضح أن الصبر خير ما يمكن أن نتذرع به أنا وأنت •

أضافت الجنرالة قولها هذا تخاطب الأمير• وكان واضحاً أنها مستاءة أشد الاستياء ، ممتعضة أكبر الامتعاض •

أراد الأمير أن يقول شيئاً ، ولكنه كان قد بلغ من الاضطراب أنه لم يستطع أن ينطق بكلمة • آجلايا وحدها التي أجازت لنفسها هذه

الجــرأة كلهــا فى « تلقين درسها » ، كانت لا تُظهر أى اضطراب ، بل وكانت تبدو راضيةً عن نفسها ، مغتبطةً بما قالته . وها هى ذى تنهض على الفور بمثل ذلك الوقار نفســه وبمثل تلك الأبهة نفسها ، كأنها كانت متهيئة لانشاد تلك الأشعار ، فهى لا تنتظر الا أن يدعوها أحد الى ذلك. وها هى ذى تتقدم الى وسط الشرفة ، وتقف قبالة الأمير الذى ما يزال جالساً على كرسيه .

نظر الجميع اليها بشيء من الدهشة . كان الأمير « شتش ... » ، وأختاها ، وأمها ، وجميع الحضور تقريباً ، يشعرون بحرج وضيق ازاء هذه الاندفاع الطفولى الذى يقدرون انه سيتجاوز حدود القصد والاعتدال. ولكن كان واضحاً أن آجلايا مفتتنة أشد الأفتتان بهذه الطريقة فى التمهيد لانشاد القصيدة . وهمّت اليزابت بروكوفيفنا أن تحملها على العودة الى الجلوس فى مكانها ؛ ولكن فى اللحظة التى أوشكت فيها الفتاة أن تنشــد قصيدتها ، صعد من الشارع الى الشرفة زائران جديدان آخذان فى الحديث بصوت عال . انهما الجنرال ايفان فيدوروفتش ايبانتشــين وفتى يتبعه . فأحدث ظهورهما دهشة .

الفصل السابع

أن الشاب الذى يصحب الجنرال هو فى نحو الثامنة والعشرين من عمره ، طويل القامة ، حسن التكوين ، له وجه وسيم ذكى ، وعينان واسعتان تفيضان نشاطاً ومكراً . أبت آجلايا حتى أن تلتفت اليه واستمرت تنشد قصيدتها متظاهرةً بأنها لا تنظر الا الى الأمير ، ولا تتجه الى أحد غيره . فأدرك الأمير أنها تخفى وراء ذلك نيةً خاصة . غير أن مجىء الزائرين الجديدين خفف ارتباكه قليلاً على كل حال . فما ان رآهما حتى نهض نصف نهوض ، وحرّك رأسه من بعيد يحيى الجنرال تحيةً فيها مودة ، وأوصى باشارة من يده أن لا يُقطع انشاد القصيدة . ثم مضى يقف وراء كرسيه ، مستنداً بكوعه الأيسر على ظهر المقعد ، ليسمع تتمة القصيدة وهو فى وضع أكثر طلاقة وأقل اضحاكاً من وضع رجل غاطس فى مقعد . وانبرت اليزابت بروكوفيفنا من جهتها تهيب بالزائرين أن يتوقفا ، وذلك بحركة من يدها قامت بها مرتين .

اهتم الأمير اهتماماً شديداً بالشاب الذى يصحب الجنرال . وأحس أنه قد يكون أوجين بافلوفتش رادومسكى الذى سمع عنه كثيراً ، وفكّر فيه غير مرة . غير أن اللباس المدنى الذى كان يرتديه هذا الشاب قد حيّره ، ذلك أنه قد سمع أن أوجين بافلوفتش عسكرى لا مدنى* . وكانت ابتسامة ساخرة تطوف بشفتى الزائر الجديد طوال مدة انشاد القصيدة . فكأن الشاب كان يعرف ، هو أيضاً ، قصة « الفارس الفقير » .

قال الأمير يخاطب نفسه : « لعله هو الذى اخترع هذا » •

أما آجلايا فكانت حالتها النفسية مختلفة كل الاختلاف • ان التصنع والافتعال اللذين بدأت بهما القاء القصيدة قد حلت محلهما عاطفة رزينة ملأى بمعني الأشعار التي كانت تلقيهاه وكانت تنطق كل كلمة من الكلمات نطقاً يبلغ من قوة التعبير وجمال البساطة أنها فى آخر انشادها لم تأسر انتباه السامعين فحسب ، بل برّرت كذلك ، بابراز قوة الوحي وعمق الالهام فى هذه القصيدة ، برّرت الأبهة التي اصطنعتها منذ قليل حين نصبت قامتها فى وسط الشرفة • ان في وسع المرء أن لا يرى الآن في ذلك التصنع الا علامة احترام بالغ ذكى غير محدود تحمله الفتاة للقصيدة التى تولت القاءها • كانت عيناها تسطعان ؛ وسرت فى وجهها الجميل ، مرتين ، رعدةُ حماسة لا تكاد تدرك •

واليكم ما أنشدته :

فقيرا كان الفارس
وصموتا وبسيطا ،
ومظلما كان وجهه وشاحبا ،
وكانت نفسه جسورة وصريحة •
لاحت له رؤيا
حفرت في قلبه
اثرا عميقـــا
التهبت نفسه منذ ذلك اليوم •
حول عينيه عن النساء ،
فالى ان ووری التراب ،
لم يخاطب امرأة بكلمة •
بمسبحة لف عنقه ،
لا بمنديل لفعها

ولم يرفع امام احد
حافة خوذته الفولاذية ٠
بحب طاهر امتلأ قلبه
ظل وفيا لرؤياه ،
وبدمه على ترسه
كتب : نون ٠ فاء ٠ باء
وفي صحارى فلسطين
بينما الفرسان بين الصخور
يهبون الى القتال
ذاكرين أسماء سيداتهم
كان يصيح بحماسة عاتية قائلا :
يا ضياء السماء ، ايتها الوردة المقدسة !
وبانقضاضه كالصاعقة ،
كان يجندل الأعداء ٠
وحين عاد الى قلعته البعيدة
عاش فيها معتزلا ناسكا ،
وظل صامتا ، وحزينا ،
ومات كمجنون ٠

حين تذكر الأمير تلك اللحظات فيما بعد ، عـذّبت فكرَه مسـألةٌ لا يجد الى حلها سبيلاً : كيف أمكنهم أن يجمعوا بين عاطفة صادقة هذا الصدق ، جميلة هذا الجمال ، وبين سخرية سافرة غير محجبة ، سخرية سيئة ذلك السوء كله ؟ لم يراوده شك في أن ثمة سخرية ٠ السخرية واضحة لها ما يؤكدها : ان آجلايا قد سمحت لنفسها أثناء الالقاء أن تبدل الأحرف « ألف ، ميم ، باء » بالأحرف : « نون ، فاء ، باء » ٠ هو واثق بأنه لم يخطىء السمع (وذلك ماجاء البرهان عليه فيما بعد)٠ وكيف كان

الأمر فان مزاحة آجلايا ـ ذلك أن المسألة لا تعـدو أن تكون مزاحـة مهما تكن جارحـةً ومهما تتضـمن من خفـة وطيش ـ انما كانت مبيتة مقصودة • فالجميع ما برحوا منذ شهر يتكلمـون عن « الفارس الفقير » ويضحكون •

على أن الأمير حين رجع الى هـذه الذكريات فيما بعد ، اقتنع بأن آجلايا قد نطقت هذه الأحرف « نون ، فاء ، باء » دون أن تضفى عليهـا لهجة مزاح أو تهكم ، ودون أن تبـرزها ابرازاً يظهر معنـاها الخبىء • بالعكس ؛ لقد نطقتها برصانة تبلغ من الهدوء ، وبساطة تبلغ من البراءة والسذاجة أن المرء يمكن أن يظن أن هذه الأحرف موجودة فعلاً فى نص القصيدة المطبوع •

ومهما يكن من أمر ، فأن الأمير لم يلبث أن شعر بعد سماع القصيدة بضيق شـديد وألم قـاس • ان اليزابت بروكوفيفنـا لم تلاحظ تبديل الأحرف وما يختبىء وراء هذا التبديل من تلميح• وكل ما أدركه الجنرال ايفان فيدوروفتش هو أنهناك أشعاراً تُنشَد• أما السامعون الآخرون فقد أدرك كثيرون منهم قصد آجلايا فأدهشتهم جسارتها هـذه ولكنهم صمتوا فكأن شيئاً لم يكن • وأما أوجين بافلوفتش فانه لم يدرك فحسب (وهذا ما يراهن عليه الأمير) ، بل حاول أن يفصح أيضاً عن أنه أدرك ، فزاد مقدار السخرية فى ابتسامته •

هتفت الجنرالة تقول فى اندفاعة اعجاب صادق ، منذ انتهى انشـاد القصيدة :

ـ رائع ! لمن هذه الأشعار ؟

فصاحت آديلائيد تقول :

ـ هى لبوشكين يا ماما •• لا تُشعرينا بالخزى والعار ! كيف يمكن أن يجهل أحد أنها لبوشكين ؟

فقالت اليزابت بروكوفيفنا بلهجة مرة :

ـ ان المرء يمكن أن يصبح من معاشرتكن أشد غباوة وأكثر جهلاً ! هذا معيب ! عليكن أن تأتينني بقصيدة بوشكين هذه متى رجعنا الى البيت !

ـ أظن أننا ليس في بيتنا شيء من شعر بوشكين .

قالت ألكسندرا :

ـ بلى ! عندنا مجلّدان مهترئان ملقيان في البيت منذ عهد بعيد !

ـ يجب ارسال احد الى المدينة فوراً لشراء كتب بوشكين . فليذهب فيدور أو ألكسى في أول قطار . والأفضل أن يذهب ألكسى . آجلايا ، تعالى ! قبّليني ! لقد أحسنت القاء القصيدة ايما احسان !

ثم أضافت تهمس في أذنها قائلة :

ـ ولكن اذا كانت نبرتك في القاء القصيدة صادقة ، فانني أرثى لحالك . واذا كنت قد أردت أن تسخرى منه فانني لا أؤيد شعورك . وفي الحالين كان الأفضل أن لا تلقي هذه القصيدة . هل تفهمين عنى ؟ اذهبى الآن يا آنسة ، سنعاود الكلام فيما بعد . لقد طال مكوثنا هنا .

في أثناء ذلك كان الأمير قد سلّم على الجنرال ايفان فيدوروفتش ايبانتشين الذى قدم اليه أوجين بافلوفتش رادومسكى .

ـ لقد أدركته في الطريق . ذهب من القطار الى البيت رأساً فقيل له انني جئت الى هنا التحق بسائر الأسرة ...

قال أوجين بافلوفتش مقاطعاً :

ـ وقد علمت أيضاً أنك هنا ؟ واذ كنت أرغب منذ مدة طويلة لا في التعرف اليك فحسب ، بل وفي التماس صداقتك أيضاً ، فانني لم أشأ أن أضيّع وقتاً ... أأنت مريض ؟ انني لم أعرف هذا الا منذ لحظة ...

أجاب ليون نيقولايفتش وهو يمد اليه يده :

ـ شُفيت شفاءً تاماً ، ويسعدني أن أتعرف اليك . لقد سمعت عنك كثيراً ، حتى انني تحدثت في أمرك مع الأمير « شتش ... » .

تصافح الرجلان بعد تبادل هذه الأقوال المهذبة ، ثم حدّق كل منهما الى عيني الآخر . وسرعان ما أصبح الحديث عاماً . ولاحظ الأمير ، الذي أصبح الآن يلاحظ بسرعة ويقظة ، حتى لقد يرى أشياء لا وجود لها ، لاحظ أن الجميع قد أدهشهم أن يروا أوجين بافلوفتش مرتدياً ثياباً مدنية لا عسكرية . وقد بلغت دهشتهم من القوة أنها محت سائر ما عداها من مشاعر . لا بد أن تغيير الثياب هذا يدل على وقوع حادث هام . وتحيرت آديلائيد وألكسندرا فبادرتا الى سؤال صاحب الشأن عن الأمر. وبدا على الأمير « شتش ... » ، وهو قريب الشاب ، قلق شديد . وكان الجنرال منفعلاً انفعالاً يكاد يخالط صوته . آجلايا وحدها كانت هادئة كل الهدوء ، فألقت على أوجين بافلوفتش نظرة فضول وكأنها تتساءل هل تناسبه الثياب المدنية أكثر مما تناسبه البزة العسكرية ، وما هي الا لحظة حتى أشاحت وجهها عنه ثم لم تهتم به قط . وامتنعت اليزابت بروكوفيفنا عن سؤاله كذلك، رغم أنها لعلها شعرت ببعض القلق هي أيضاً . وأحس الأمير أن هناك شيئاً من الفتور تشعر به الجنرالة نحو أوجين بافلوفتش .

ردّد ايفان فيدوروفتش يقول مجيباً عن جميع الأسئلة :

ـ دُهشت أشد الدهشة ... لم أصدّق عينيّ حين رأيته بثياب مدنية لا عسكرية ببطرسبرج . ما هذا التغيير المفاجيء ؟ ذلك هو اللغز ! انه هو نفسه أول المنادين بأن على المرء أن لا يحطّم الكراسي * .

وخرج من الحديث الذي دار حول هذا الموضوع أن أوجين بافلوفتش كان منذ زمن طويل قد أفصح عن نيته في ترك الخدمة العسكرية . ولكنه كان ، كلما أثار هذا الموضوع ، يتكلم بلهجة تبلغ من

قلة الجد أن أحداً لم يصدِّقه • ذلك عدا أنه اعتاد أن يخلع على الأمور الهامة الخطيرة صفة الهزل ، فلا يعرف أحد أيصدقه أم لايصدقه ، ولاسيما حين يتعمد هو نفسه أن يحيِّر الناس وأن يضلّهم في شعاب الظنون !

قال رادومسكي مرحاً :

ـ لكنني لا أدع الخدمة العسكرية الا الى حين ، لا أدعها الا بضعة أشهر ، أو سنةً في أكثر تقدير •

فقال الجنرال بحرارة وهمة :

ـ لكنني لا أرى ضرورة هذا ، في حدود معرفتي بشئونك وأعمالك على الأقل •

ـ ألا يجب عليَّ أن أزور أطياني ؟ ألم تنصحني أنت نفسك بذلك ؟ ثم انني أود أن أقوم برحلة الى الخارج ••

وسرعان ما انحرف الحديث ، ولكن القلق ظل ظاهراً ، فاعتقد الأمير أن أمراً خطيراً يختبيء تحت هذا التبدل •

قال أوجين بافلوفتش سائلاً وهو يدنو من آجلايا :

ـ هل عاد « الفارس الفقير » اذن الى بساط البحث ؟

فما كان أشد دهشة الأمير حين ردَّت عليه الفتاة بنظرة مشدوهة مستفهمة ، كأنما لتفهمه بأن « الفارس الفقير » لم يكن موضع بحث بينهما في يوم من الأيام حتى انها لا تفهم ماذا يريد أن يقول ؟

وكان كوليا ما يزال في جدال مع اليزابت بروكوفيفنا ، فهو مايفتأ يردد قائلاً :

ـ فات الأوان ، فات الأوان ، لا يمكن ارسال أحد الى المدينة في

هذه الساعة ليجيء بكتب بوشكين • سأظل أكرر هذا ثلاثة آلاف مرة اذا لزم الأمر : فات الأوان !

قال أوجين بافلوفتش وهو يبتعد عن آجلايا مسرعاً :

ـ فعلاً ••• فات الأوان ••• الوقت متأخر الآن ••• أظن أن المتاجر ستغلق أبوابها ببطرسبرج بعد قليل ، فالساعة قاربت التاسعة •

قال ذلك وهو ينظر في ساعته •

وقالت آديلائيد :

ـ انتظرنا حتى الآن ، ففي وسعنا أن ننتظر الى غد •

وأضاف كوليا :

ـ لا سيما وأنه لا يليق بأبناء المجتمع الراقي أن يهتموا بالأدب كثيراً • اسألي أوجين بافلوفتش • لأن يملك المرء عربةً ذات مقاعد صفراء وعجلات حمراء ، فذلك أرقى وأميز •

قالت آديلائيد :

ـ لقد اقتبست هذا أيضاً من كتاب يا كوليا !

فقال أوجين بافلوفتش معقباً :

ـ صحيح ان كل ما يقوله مستمد من قراءات ، فهو قادر على أن يتلو عليكم صفحات بكاملها مستمدةً من مجلات نقدية ، وقد سعدت بمعرفة حديث نيقولا آرداليونتش منذ زمن طويل ؟ ولكنه في هذه المرة لا يردد جملةً قرأها ، وانما هو يلمح الى عربتي ذات المقاعد الصفراء ، التي تجري على عجلات حمراء فعلاً • ولكنني أحب أن أقول لك انني أبدلت عربتي تلك ، فجاء كلامك متأخراً عن الوقت المناسب •

أصغى الأمير الى كلام رادومسكى ... فلاحظ أن الشاب يسلك سلوكاً لا مأخذ عليه ، وأنه متواضع مرح . وأعجبه فيه خاصةً أنه يعامل كوليا معاملةً فيها مودة الند للند ، حتى حين يناكده كوليا .

ـ ما هذا الذى تجيئيننى به ؟

كذلك قالت اليزابت بروكوفيفنا تسأل فيرا ، بنت ليبديف ، التى وقفت أمامها فجأة ، مثقلة الذراعين بعدة كتب كبيرة الحجم أنيقة التجليد تكاد تكون جديدة .

قالت فيرا :

ـ هذا بوشكين ! هذا شاعرنا بوشكين ! أمرنى بابا بأن أهدى اليك كتبه .

فقالت اليزابت بروكوفيفنا مدهوشة :

ـ كيف ؟ أهذا معقول ؟

ـ لا ، لا ، ما هذا بهدية ! ما هذا بهدية ! ما كان لى أن أجيز لنفسى ذلك !

هكذا قال ليبديف محتجاً وقد ظهر وراء ابنته على حين فجأة . وتابع كلامه يقول :

ـ وانما أتنازل لك عن هذه الكتب بيعاً بسعر الشراء . انها نسخه أسرتنا من مؤلفات بوشكين ، طبعة آننكوف * ، التى أصبح العثور عليها الآن مستحيلاً . أتنازل عنها بيعاً بسعر الشراء . اننى يا صاحب السعادة أقدمها اليك باحترام ، على نية أن تبيعها اياها فتُشبع بذلك نهمها النبيل الى المباهج الأدبية .

ـ اذا كنت تبيعها فأنا أشكر لك ذلك . لا تخف ، لن تخسر شيئاً . ولكن كفاك تلوياً وتعقفاً ، أرجوك !.. سمعت عنك أنك غزير الاطلاع جم المعرفة ، فسنتحدث معاً في يوم من الأيام . هل تتولى حمل الكتب الىّ بنفسك ؟

قال ليديف وهو يظهر سروره ورضاه بحركات شتى من التلوى والتعقف :

ـ بكل احترام واجلال ...

وانتزع الكتب من يدى ابنته .

ـ حسن . ائتنى بها . انني أعفيك من الاحترام والاجلال ، ولكن لا تضيع الكتب !

ثم أضافت تقول وهي تحدّق الى عينيه .

ـ ولكنى اشترط أن لا تتخطى عتبة باب بيتى ، فانني لا أنوى أن استقبلك هذا اليوم . غير أن في وسعك أن ترسل الىّ ابنتك فيرا حالاً اذا شئت . لقد أعجبتنى كثيراً .

قالت فيرا لأبيها بلهجة تدل على نفاد الصبر :

ـ لماذا لا تقول شيئاً عن أولئك الذين ينتظرون هناك ؟ اذا لم تدخلهم فسوف يقتحمون الباب . لقد بدأوا باحداث صخب وضجة .

ثم أضافت تخاطب الأمير الذى كان قد تناول قبعته :

ـ يا ليون نيقولايفتش ، ان في بيتك أربعة أفراد ينتظرونك منذ مدة طويلة ، ويحدثون جلبةً لأن أبى لا يسمح لهم بأن يدخلوا عليك .

سألها الأمير :

ـ من هم هؤلاء الزوار ؟

ـ يدعون أنهم يجيئـون اليك لعمـل من الأعمـال ، لكنهم أناس لا يتورعون أن يستوقفوك فى الشـارع اذا لم يُسمح لهم بالدخول . فالأفضـل يا ليون نيقولايفتش أن تدخلهم وتتخلص منهم . عبثـاً حاول جبـريل آرداليونوفتش وبتسـين أن يفاوضـاهم ، انهم لا يريدون أن يسمعوا ، لا يريدون أن يسمعوا شيئاً البتة !

قال ليديف وهو يحرّك يديه باشارات كثيرة :

ـ هذا ابن بافلشتشيف ! ابن بافلشتشيف . لا داعى الى استقباله ، لا داعى .. ان هؤلاء الناس لا يستحقون أن تصغى اليهم وتسمع كلامهم، بل انه لا يليق بك يا سموّ الأمير أن تزعج نفسك من أجلهم . نعم ، لا يستحقون ...

هتف الأمير يقول بانفعال عميق :

ـ ابن بافلشتشيف ؟ آه !... أنا أعلم أن ... ولكنى عهدت الى جبريل آرداليونوفتش أن يهتم بهذه القضية . هو نفسه قال لى منذ لحظة ان ...

هنا ظهر جبريل آرداليونوفتش فى الشرفة خارجاً من شقة الأمير . وظهر بعده بتسين . ان ثمة ضجةً تُسمع من الغرفة المجاورة . وان صوت الجنرال ايفولجين المدوّى يحاول أن يطغى على أصوات عدة أشخاص آخرين . هرع كوليا يستطلع بواعث هذه الجلبة .

قال أوجين بافلوفتش :

ـ شيء شائق جداً !

فحدث الأمير نفسه بقوله : « هو اذن على علم بالأمر » .

وقال الجنرال ايفان فيدوروفتش متحيراً وهو يسأل بنظره جميع الوجوه ، كأنما يدهشه أن يكون الوحيد الذى يجهل هذه الحكاية الجديدة :

ـ ابن بافلشتشيف ؟ هل يمكن أن يكون هناك شخص هو ابن بافلشتشيف ؟

أيقظ الأمر اهتمام الجميع ، وشحذ انتباههم . فما كان أشد دهشة الأمير حين رأى أن قضية شخصية لا تتعلق بأحد غيره قد أثارت هذا الاهتمام كله لدى جميع الحضور .

قالت آجلايا وهى تقترب من الأمير برصانة ووقار :

ـ الأفضل أن تسوّى هذه القضية فوراً ، وأن تسوّيها «بنفسك». اسمح لنا بأن نكون جميعاً شهوداً لك . انهم يريدون أن يلطخوك يا أمير . فعليك أن تبرىء نفسك تبرئة ساطعة باهرة . اننى لأبتهج سلفاً حين أتصور أنك فاعل ذلك .

وهتفت الجنرالة تقول :

ـ أنا أيضاً أتمنى أن يوضع حدٌ لهذا الادعاء الدنىء ! لقّنهم درساً قاسياً يا أمير ، لا ترأف بهم ! لقد صدّعوا رأسى بهذه القضية ، ما أكثر ما زعلت لك . انه لمن الشائق أن تراهم . ادعهم الى المجىء . سنبقى هنا . فكرة آجلايا فكرة حسنة .

ثم قالت الجنرالة تسأل الأمير « شتش ... » :

ـ هل سمعت عن هذه القضية يا أمير ؟

ـ نعم ، سمعت عنها ، بل سـمعت عنها فى بيتكم أنتم . اننى أحب كثيراً أن أرى هؤلاء الشبان .

ـ هم عدميون * ، أليس كذلك ؟

قال ليديف وهو يتقدم خطوة ويكاد يرتجف من شدة الانفعال :

ـ لا ، ليسوا عدميين بمعنى الكلمة ، هم فئة أخرى ، من نوع على حدة ! ابن اختى يزعم أنهم أكثر غلواً من العدميين . تخطىء يا صاحب السعادة اذا ظننت أنك بحضورك ستربكهم وتخيفهم . هؤلاء فتية لا يهابون أحداً . ان بين العدميين أناساً مثقفين على الأقل ، حتى لقـد تجـد بينهم علماء . أما هؤلاء فهم يفوقون العـدميين لأنهم أناس عمليـون . صحيح أنهم منحدرون من العدميين ، ولكنهم منحدرون منهم على نحو غير مباشر، بطريقة مواربة . انهم لا يعبِّرون عن أنفسهم بمقالات فى الجرائد ، بل يمضون الى الوقائع رأساً . لا يعنيهم مثلاً أن يبرهنوا على أن بوشـكين لا نفع فيه ولا جدوى منه * ، ولا يعنيهم أن يبرهنوا على أن من الواجب تقسيم روسيا وتجزئتها . لا ، هذه أمور لا تهمهم . وانما هم يرون أن من حقهم ، متى رغبوا فى شىء من الأشياء ، أن لا يصدّهم عنه أى عائق وأن لا تعترضهم أية عقبة ، فاذا اقتضى الأمر أن يقتلوا ثمـانية أشخاص فعلوا دون تردد . اننى انصحك يا أمير بأن لا ...

لكن الأمير كان قد مضى يفتح الباب للزوار . وقال وهو يبتسم :

ـ انك تتجنى عليهم يا ليديف . صحيح أن ابن اختك قد سبّب لك متاعب كثيرة . لا تصدقيه يا اليزابت بروكوفيفنا . أؤكد لك أن أمثال جورسكى وأمثال دانيلوف * ليسوا الا حالات فردية استثنائية . أما هؤلاء الشبان ... فانهم مخطئون لا أكثر !... على اننى أوثر أن لا أتحدث معهم هنا أمام الجميع . معذرةً يا اليزابت بروكوفيفنا : سوف يدخلون ،

فأقدمهم اليكم وأعرّفكم بهم ، ثم أخرج معهم . ادخلوا أيها السادة ، تفضلوا ...

والحق أن الأمير كانت تشغل باله وتعذبه فكرةٌ أخرى . كان يتساءل أليست هذه مكيدة مدبرة لهذه الساعة بعينها ولهذا الاجتماع نفسه، لا من أجل أن تتاح له فرصة الانتصار ، بل من أجل أن تهيأ له أسباب التلطخ بالخزى والعار ؟ ومع ذلك كان يأخذ على نفسه انقياده لمثل هذا « الشك الشاذ الخبيث ! » ، ويشعر من ذلك بحزن شديد ، حتى لكأنه يمكن أن يموت من الشعور بالخزى والعار على الفور لو استطاع أحد أن يكتشف أن فكرة كهذه الفكرة قد خطرت بباله أو دارت فى خلده ! وحين ظهر الزوار كان مستعداً أصدق الاستعداد لأن يعد نفسه أحط الناس قاطبةً من الناحية الأخلاقية بين هؤلاء الذين يحيطون به .

دخل خمسة أشخاص : أربعة قادمين جدد ، ووراءهم الجنرال ايفولجين الذى كان يبدو منفعلاً أشد الانفعال ، وكان يبدو أن نوبة فصاحة وبلاغة قد استولت عليه واستبدت به . قال الأمير يحدث نفسه مبتسماً : « لا شك فى أن هذا معى ! » . وكان كوليا قد تسلل الى الجماعة، فهو يتحدث بحرارة الى هيبوليت ، احد أفراد العصبة ، وكان هيبوليت يصغى الى كلامه مبتسماً ابتسامة عدم التصديق .

أجلس الأمير القادمين . انهم شبان فى غضارة العمر ، يكادون أن يكونوا مراهقين ، حتى ليستغرب المرء أن يُستقبلوا بهذا الاحتفال كله وهم فى هذه السن . وحين رأى ايفان فيدوروفتش هؤلاء الصبيان الأغرار — وكان يجهل كل شىء عن هذه « القضية الجديدة » ولا يفهم منها شيئاً البتة — استاءاستياءً شديداً ، حتى لقد كان يمكن أن يعترض ويحتج لولا أن صدَّه عن ذلك ما لاحظه لدى امرأته من اهتمام عنيف بشئون الأمير الشخصية ، وهو اهتمام كان يبدو له فى الوقت نفسه غريباً عجيباً . على

أنه بقي ولم ينسحب ، مدفوعاً الى ذلك بحب الاطلاع من جهة ، وبحب فعل الخير من جهة أخرى ، فلعله يمكن أن يكون نافعاً ، ولعله يستطيع أن يفرض مهابته بما له من سلطة . ولكن التحية التى حياه بها الجنرال ايفولجين من بعيد حين دخل ، قد أضرمت استياءه من جديد ، فاكفهر وجهه وقرر أن يلوذ بالصمت فما ينطق بحرف .

بين الزوار الشبان الأربعة كان واحد منهم على الأقل فى نحو الثلاثين من عمره . انه ذلك الملاكم الليوتنان المتقاعد الذى كان أحد أفراد عصبة روجويين ، والذى كان يتباهى بأنه أعطى فى الماضى صدقةً قدرها خمسة عشر روبلاً . فى وسع المرء أن يقدِّر أنه قد انضم الى الآخرين رفيقاً يشد أزرهم ويثبِّت عزيمتهم ويهب الى مساعدتهم اذا اقتضى الأمر . وبين صحبه الثلاثة ، كانت المنزلة الأولى وكان الدور الأكبر لذلك الذى يسمى « ابن بافلشتشيف » ، رغم أنه كان هو نفسه يعرِّف نفسه للناس باسم آنتيب بوردوفسكى . انه فتى أشقر ؛ فى وجهه بثور ؛ ثيابه فقيرة قذرة ؛ يبلغ ردنجوته من الاتساخ أن كميه يلمعان ؛ تدل صدرته الوسخة المعقودة أزرارها حتى النحر على أنه لا يلبس تحتها قميصاً ؛ يلفع عنقه منديل من حرير أسود ملطخ متلفف كحبل ؛ يداه غير مغسولتين ؛ نظرته تعبِّر عن مزيج من سذاجة ووقار ؛ نحيل الجسم أميل الى الطول ؛ يبدو فى نحو الثانية والعشرين من العمر ، لا يكشف وجهه لا عن أى سخرية ولا عن أى تفكير ، لا يقرأ المرء فى هذا الوجه الا امتلاءً غبياً بليداً بما يظن أنه حقه ، والا حاجة غريبة مستمرة فى الوقت نفسه الى الشعور بأنه مساء اليه مهان ؛ يتكلم بلهجة فيها انفعال ؛ وفى كلامه المتدفق السريع المتردد الذى يضيع جزءاً من الألفاظ ما قد يوهم بأنه تأتاء أو بأنه أجنبى مع أنه روسى صرف .

وكان يصحبه ابن اخت ليديف الذى سبق أن عرفه القارىء ،

وكان يصحبه كذلك هيبوليت . ان هيبوليت فتى في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من العمر . ينم محياه عن ذكاء ، لكن وجهه دائم التقلص ، يحمل طابع المرض الرهيب الذي يأكله أكلاً . انه نحيل أشد النحول ، حتى لكأنه هيكل من عظم ؛ وهو شاحب اللون ، كالشمع اصفراراً ؛ له عينان ساطعتان متقدتان ، وعلى خديه بقعتان حمراوان ؛ وهو لا ينفك يسعل بغير انقطاع ؛ وكل كلمة من كلماته ، وكل زفرة من زفراته تصحبها حشرجة تقريباً . واضح أنه بلغ المرحلة الأخيرة من مرض السل ، فاذا رآه المرء قدّر أنه لن يعيش أكثر من أسبوعين أو ثلاثة . كان يبدو مرهقاً ، فما كاد يدخل حتى تهالك على كرسي قبل أن يجلس الآخرون.

وقد دخل رفاقه وهم يفتعلون شيئاً من الأبهة والاحتفال . كان يبدو عليهم أنهم مرتبكون بعض الارتباك ، لكنهم يصطنعون خطورة الشأن كأنهم يخشون أن يعرضوا مهابتهم للضياع . وذلك وضع يتعارض تعارضاً غريباً مع ما اشتهروا به من أنهم أناس يستخفون بالسفاسف الاجتماعية ولا يعبأون بالآداب السخيفة التافهة ، ومن أنهم لا يعرفون الا قانوناً واحداً هو مصلحتهم .

دمدم « ابن بافلشتشيف » يقول معرّفاً بنفسه :

ـ آنتيب بوردوفسكي .

وقال ابن أخت ليبديف معرفاً بنفسه ، ناطقاً اسمه بوضوح وتمييز كأنما هو يعتز به :

ـ فلاديمير دوكتورنكو :

وتمتم الليوتنان القديم قائلاً في التعريف بنفسه :

ـ كيللر .

وصاح الزائر الأخير يقول بنبرة غير متوقعة :

ـ هيبوليت تيرنتيف .

جلس هؤلاء كلهم صفاً واحداً أمام الأمير . حتى اذا فرغوا من تقديم أنفسهم وذكر أسمائهم عبسوا وقطبـوا ، وأخذوا ينقلون طاقياتهم من يد الى يد ، زيادةً في اظهار قوة البأس . كان كل منهم متأهباً لأن يتكلم ، لكنه يلتزم الصمت ، ويتخذ وضع الانتظار والاستفزاز ولسان حاله يقول : « لا يا صاحبي ، لن تخدعنا وتغرر بنا ! » . ان المرء ليحس أنهم متى قيلت الكلمة الأولى التي تحطم الجليد فسوف يندفعون في الكلام جميعاً في آن واحد يقاطع بعضهم بعضاً ما استطاع الى ذلك سبيلاً !

الفصل الثامن

بدأ الأمير الكلام فقال :

ـ لم أكن أتوقع أن أرى أحداً منكم يا سادة • ولقد كنت أنا نفسي مريضاً حتى هذا اليوم • أما قضيتك (قال الأمير ذلك متجهاً بالكلام الى آنتيب بوردوفسكي) ، فانني قد عهدت بها منذ شهر الى جبريل آرداليونوفتش ، كما أنبأتك بذلك في حينه • ثم انني لا أرفض أن أبحث معكم الأمر بنفسي • ولكن لا بد أنكم توافقونني على أن بحث هذا الأمر الآن ••• فاذا كنتم تقدّرون أن البحث لن يطول فانني اقترح عليكم أن تنتقلوا معي الى غرفة أخرى ••• ان عندي في هذه اللحظة أصدقاء ، وأرجوكم أن تصدّقوا أن •••

فقاطعه ابن اخت ليبديف قائلاً بلهجة فيها شدة وتسلط ، دون أن يرفع صوته مع ذلك :

ـ أصدقاء ••• ليكن عندك ما شئت من أصدقاء ••• ولكن اسمح لنا أن نعلن أنك كان في وسعك أن تسلك معنا سلوكاً أقرب الى الأدب والتهذيب ، وأن لا تجعلنا ننتظر في حجرة المدخل ساعتين •

فما ان قال ابن أخت ليبديف ذلك الكلام حتى اندفع آنتيب بوردوفسكي يقول فجأة وقد بلغ ذروة الانفعال :

ـ طبعاً ... طبعاً ... وأنا أيضـاً ... انظروا كيف يتصرف الأمراء !.. أنا لست خادمك ! ولكنني ... ولكنني ...

كانت شفتاه تختلجان وكان صوته يرتجف من فرط الغيظ ، وكان الزبد يخرج من فمه فقاعات تنفجـر ، وكان تدفقـه في الكلام يبلغ من السرعة أنه أصبح بعد عشر كلمات لا يُفهم البتة .

وقال هيبوليت بصوت صارخ :

ـ نعم هذه أساليب الأمراء !

ودمدم الملاكم قائلاً :

ـ لو كان هذا السلوك موجهـاً اليّ ، أعني لو أن هذا الأسـلوب استُعمل معي لا مع بوردوفسكي ، لكنت ...

قال الأمير :

ـ صدّقوا يا سادة أنني لم أعلم بوجودكم هنا الا منذ دقيقة واحدة.

وعاد ابن أخت ليديف يقول :

ـ لسنا نخشى أصدقاءك مهما يكن شأنهم يا أمير ، لأننا على حق .

واستأنف هيبوليت زعيقه فقال وقد ازدادت حرارته ازدياداً واضحاً:

ـ من ذا الذي أجاز لك ـ اسمح لي أن ألقي عليك هذا السؤال ـ من ذا الذي أجاز لك أن تعرض قضية بوردوفسكي لحكم أصدقائك ؟ قد لا نكون مستعدين لأن نقبل هذا الحكم . اننا نعرف ما عسى أن تكون قيمة هذا الحكم !

ارتبك الأمير من هذا الاستهلال أشد الارتباك ، فلم يعرف كيف يدس في زحمة هذا الكلام جواباً . قال :

ـ لكنني سبق أن قلت يا سيد بوردوفسكي ان في وسعنا ، اذا أنت

لم تشأ أن تشرح الأمر هنا ، فى وسعنا أن ننتقل ، الى غرفة أخرى على الفور . وأعود فأقول لك اننى لم أعلم بحضوركم الا فى هذه البرهة .

وعاد بوردوفسكى يغمغم وهو يلقى حوله نظرة ريب وشك ، ويزداد اندفاعاً على قدر شعوره بقلة الثقة :

ـ ولكن لا يحق لك ، لا يحق لك ، لا ... لا يحق لك ... ان اصدقاءك ... هه ! لا يحق لك ...

ثم توقف عن الكلام فجأة كأن شيئاً قد تحطم فيه ؛ ومال بجسمه الى أمام ، ثم حدَّق الى الأمير ، كما لو كان يريد أن يسأله ، حدَّق اليه بعينيه الحسيرتين اللتين تخدِّدهما أوردة صغيرة حمراء .

فبلغ الأمير من الدهشة فى هذه المرة أنه لم يجد كلمة يقولها ، ونظر هو أيضاً الى بوردوفسكى محملقاً .

وفجأة نادته اليزابت بروكوفيفنا قائلةً له :

ـ اقرأ هذا فى هذه الجلسة نفسها يا ليون نيقولايفتش : فان له علاقة مباشرة بقضيتك .

وأسرعت تمد اليه جريدة أسبوعية ساخرة * ، ودلَّته باصبعها على مقالة فى الجريدة .

ان ليديف الذى كان يريد أن تنظر اليه الجنرالة نظرة حسنة كان قد استل تلك الجريدة من جيبه لحظة دخول الزوار ، فوضعها تحت بصر الجنرالة مشيراً لها الى عمود مؤشَّر عليه بالقلم الرصاص . فاذا بالأسطر القليلة التى اتسع وقتها لأن تقرأها تحدث فى نفسها أعمق الاضطراب .

تمتم الأمير يقول خجلاً أشد الخجل :

ـ لعل الأفضل أن لا تكون القراءة جهاراً . سأطلع على المقالة وحدى ... فيما بعد ...

فما كان من اليزابت بروكوفيفنا الا أن انتزعت الجريدة من يدى الأمير بحركة تململ وتذمر ، قبل أن يستطيع الأمير أن يلقى على المقالة غير نظرة سريعة ، ثم مدّت الجريدة الى كوليا وقالت له :

ـ طيب ... اقرأ أنت ... اقرأ على الفور ... واقرأ بصوت عال ... اقرأ جهاراً ... هل سمعت ؟ جهاراً ، جهاراً !...

ان اليزابت بروكوفيفنا امرأة شديدة الاندفاع ، حتى لقد ترفع فى بعض الأحيان جميع المواسى دون تفكير ناضج ، وتقلع فى عرض البحر رغم العواصف . شعر ايفان فيدوروفتش بقلق . وبينما كان الحضور حائرين مرتبكين منتظرين ، فض كوليا الجريدة وأخذ يقرأ ، بصوت عال ، المقالة التى أسرع ليبديف يدله عليها :

كادحون واحفاد امراء

قصة سرقة وقعت اليوم وتقع كل يوم

تقدم ! اصلاح ! عدالة ! ...

« تحدث أمور غريبة فى هذه البلاد التى يسمونها روسيا المقدسة ، فى هذا الزمان ، زمان الاصلاحات والمشروعات الرأسمالية الكبرى والروح القومية ونزوح الملايين الى البلاد الأجنبية فى كل عام وتشجيع الصناعة واضطهاد العاملين ، الخ الخ . واذ أننا لن نفرغ من هذا التعداد أيها السادة فلننتقل الى الواقع :

« ان حدثاً غريباً قد وقع لواحدٍ من أبناء أرستقراطيتنا الاقطاعية المتوفاة رحمها الله !... ان أسلاف هؤلاء الأبناء قد خسروا كل شىء فى القمار بالروليت . ووجد آباؤهم أنفسهم مضطرين أن يخدموا فى الجيش مرشّحين أو ملازمين ، ثم ماتوا على وجه العموم تحت وطأة ملاحقات قضائية لمخالفات « بريئة » ارتكبوها فى حق أموال ائتمنوا عليها وعُيّنوا لها محاسبين .

« ويشبُّ أولادهم ، كبطل قصتنا ، كما يشب أولاد بلهاء ، أو يقبض عليهم لجرائم يقترفونها فيرثهم القضاء ليتيح لهم فرصة أصلاح حالهم ، أو يسببون فضيحة من تلك الفضائح التى تدهش الرأى العام ويجللون بعار جديد هذا العصر الذى أصبح يجلله العار بما فيه الكفاية منذ الآن .

« لقد عاد صاحبنا ابن سلالة الأمراء ، عاد الى روسيا من سويسرا منذ ستة أشهر بعد أن اتبَّع هنالك علاجاً لشفائه من البلاهة (كذا) ، وهو يرتجف برداً تحت معطف ليس له حتى بطانة . يجب أن نعترف بأنه كان امرءاً ذا ... فبصرف النظر هنا عن المرض اللطيف الذى سافر الى سويسرا لمعالجته (معالجة البلاهة ، تصوروا هذا !) ، فان أمره يأتى مصدقاً للمثل الروسى القائل : « لا حظّ الا لفئة من الناس » * . وسنعرض عليكم الوقائع فاقضوا فى المسألة بأنفسكم : لقد أصبح هذا الشاب يتيماً فى طفولته منذ نعومة أظفاره ، لأن أباه مات ، فيما يقال ، حين كان سيمثل أمام المجلس الحربى لتبديده فى القمار أموال سريته كضابط ملازم ، وربما أيضاً لأنه جلد بكثير من السخاء واحداً من مرءوسيه (تذكّروا الزمان القديم أيها السادة !) . وحين مات أبوه كفله وربّاه ملاّك روسى محسن غنى جداً . ان ذلك الملاّك ـ ولنطلق عليه اسم « ب ... » ـ كان يملك فى ذلك العصر الذهبى أربعة آلاف نفس ، أربعة آلاف من الأقنان (الأقنان ! هل تفهمون معنى كلمة الأقنان هذه أيها السادة ؟ أما أنا فاننى لا أفهمها ولا بد لى من الرجوع الى معجم لأدرك معنى هذه الكلمة . « فالمرء لا يكاد يصدق هذا الأمر رغم أنه قريب العهد » *) . أغلب الظن أنه كان واحداً من أولئك الروس الكسالى الطفيليين الذين يقضون حياتهم الخالية العاطلة فى الخارج ، ففى الصيف يذهبون الى مناطق المياه

المدنية وفي الشتاء ينتقلون الى « قصر الأزهار » بباريس ، فينفقون هنالك مبالغ خرافية ! نستطيع أن نؤكد أن ثلث الاتاوات التى كان الفلاحون فى عهد القنانة يدفعونه لأسيادهم انما كان ينتقل الى يدى مالك « قصر الأزهار » (الرجل السعيد !) .

« مهما يكن من أمر ، فان ذلك الرجل اللاهي قد نشأ اليتيم كما يُنشأ أمير ، فعين له مربين ومربيات (جميلات طبعاً !) كان يأتي بهن من باريس . ولكن هذا الابن الأخير من أبناء تلك السلالة الشهيرة كان أبله . فرغم جميع الجهود التى بذلتها المربيات اللواتى تم اغراؤهن فى « قصر الأزهار » ، فان تلميذنا قد بلغ العشرين من عمره دون أن يستطيع تعلم أية لغة أجنبية ، وحتى دون أن يستطيع تعلم اللغة الروسية . على أن جهل اللغة الروسية أمر يغتفر ! وأخيراً نبتت فكرة سخيفة فى ذهن ذلك السيد « ب ... » ، الذى كان يؤمن بالعبودية ، فاعتقد ان فى الامكان أن يكتسب الأهبل ذكاءً فى سويسرا . على أن هذه الفكرة لا تخلو من منطق : فان هذا الطفيلي ، هذا الملاّك ، كان لا بد أن يتصوَّر أن أى شىء يمكن أن يُشترى بالمال كسائر الأشياء ، ولا سيما فى سويسرا . وهكذا وُقفت خمس سنين على معالجة سليل الأمراء فى تلك البلاد تحت اشراف استاذ شهير ، وأُنفقت فى ذلك آلاف الروبلات . ولم يصبح الأبله رجلاً ذكياً بطبيعة الحال ، ولكن يزعم بعضهم أنه أخذ يشبه الانسان بعض الشبه .

« هنا مات « ب ... » فجأة . ولم يترك أى وصية طبعاً . وكانت أعماله وشئونه المالية فوضى ، مضطربة أشد الاضطراب . وورثه جمهور من الورثة الطامعين الشرهين الذين لا يكترث أحد منهم بأن يعول أبناء سلالة نبيلة وأن يساعدهم من باب الاحسان على الشفاء فى سويسرا من بلاهة وُلدوا بها . ولكن سليل أسرة الأمراء الذى نتحدث عنه حاول أن

يخدع البروفسور الذي يعالجه ، فأخفى عنه نبأ موت الرجل المحسن اليه ، واستطاع بذلك أن يحمله على أن يعالجه بالمجان سنتين أخريين • ولكن البروفسور نفسه كان دجّالاً بارعاً : فانه اذ أقلقه أخيراً أن لا يقبض شيئاً من مريض يلتهم الطعام بشهوة ابن الخامسة والعشرين من العمر ، ألبس قدميه لبادتي حذاءيه ، وخلع على كتفيه معطفاً مهترئاً ، ورحّله على نفقته الى روسيا في الدرجة الثالثة من القطار ليخلّص منه سويسرا •

« يمكن أن يُظن أن الحظ قد أدار ظهره لبطلنا • ولكن الحقيقة ليست هذه : ان الحظ الذي يحلو له أن يبيد بالمجاعة أقاليم بأكملها قد أغدق جميع نعمه على هذا الارستقراطي الصغير دفعةً واحدة ، مثله فى ذلك كمثل تلك السحابة التي تحدثنا عنها حكاية كريلوف *، تلك السحابة التي مرت فوق حقول يابسة من الظمأ ، ثم مضت تهطل مطراً غزيراً فوق البحر المحيط • ففي اللحظة التي كان فيها صاحبنا سليل الأمراء عائداً من سويسرا الى بطرسبرج مات رجل من أقرباء أمه (سليل أسرة من التجار طبعاً) ، هو تاجر عجوز ذو لحية لم يخلّف أولاداً وكان ينتمي الى ملة « الراسكولنيك » * ، وقد ترك ميراثاً لا يماري فيه أحد ، يقدّر ببضعة ملايين عداً ونقداً (شيء يمكن أن يسوّي قضيتنا ، أليس كذلك أيها القارىء العزيز ؟) ، ترك هذ الميراث لصاحبنا سليل اسرة الأمراء ، لصاحبنا البارون الذي كان يُعالَج في سويسرا من البلاهة !

« عندئذ تغيّرت الموسيقى • ان صاحبنا البارون الواضع على حذاءيه لبّادتين ، رأى نفسه بعد أن غازل امرأة مغناجاً شهيرة ، رأى نفسه محاطاً بجمهور من الأصدقاء والأصحاب • لقد اكتشف لنفسه أقرباء • أكثر من ذلك أن آنسات نبيلات كثيرات أصبحن يحترقن رغبةً فى أن يتزوجنه زواجاً شرعياً ، اذ هل يمكنهنّ أن يجدن عريساً أفضل من شاب ارستقراطي ، صاحب ملايين ، أبله ؟ عريساً اجتمعت فيه كافة المزايا

في آن واحد ؟ ما كان لهنَّ أن يعثرن على عريس مماثل ، ولو بحثن عنه في ضوء قنديل ، أو أوصين عليه وفقاً لمقاييس !...

صاح ايفان فيدوروفتش يقول وقد بلغ ذروة الاستياء :

ـ هذا ... أصبحت لا أفهمه !

ودوَّت صيحات تعجب في كل جهة من الجهات .

قالت اليزابت بروكوفيفنا آمرةً :

ـ فليقرأ ، فليقرأ مهما يكلف الأمر . يا أمير ، اذا كفَّ عن القراءة فسوف نزعل !

وكان واضحاً أن اليزابت بروكوفيفنا كانت أقلهنَّ سيطرة على نفسها وكبحاً لجماحها !

لم يكن ثمة مفر . تابع كوليا قراءته مختلج الصوت محمراً أشد الاحمرار من فرط الانفعال :

« وبينما كان صاحبنا المليونير الجديد يشعر انه انتقل الى السماء السابعة ان صحَّ التعبير ، حدث ما لم يكن متوقعاً قط . ففي ذات صباح جاء اليه زائر ذو وجه هادىء قاس ، يرتدي ثياباً بسيطة لكنها محترمة . وأخذ هذا الرجل الذي تتميز لغته بأنها مهذبة رضية معقولة في آن واحد ، والذي يدل تفكيره على أنه لبرالي الاتجاه ، أخذ يشرح له الغرض من زيارته بايجاز . هو محام مشهور جاء من قبل شاب وكَّله عنه في تولِّي شئونه . وليس ذلك الشاب الا ابن المرحوم « ب ... » ، رغم أنه يحمل اسماً آخر . ان المرحوم « ب ... » الذي كان في شبابه رجلاً داعراً فاسقاً قد أغوى فتاةً فقيرة شريفة كانت رغم حالة العبودية التي هي فيها قد تربَّت تربيةً أوروبية (واضح أنه استعمل ما كانت تجيزه القنانة للسادة من حقوق) . فلما لاحظ ما ستنجبه هذه العلاقة من ثمرة قريبة

لا مفرَّ منها أسرع يزوج الفتاة لرجل نبيل الخلق كان له عمل صغير بل وكانت له وظيفة رسمية ، وكان يحب الفتاة منذ عهد بعيد . وقد ساعد العروسين في أول الأمر ، ولكن الزوج لم يلبث أن رفض مساعداته أنفةً وشمماً وكبرياء . فما انقضى بعض الوقت حتى كان « ب ... » قد نسي شيئاً فشيئاً صديقته القديمة والطفل الذي وُلد له منها . ثم مات ، كما ذكرنا ، دون أن يكتب وصية .

« فهذا الابن الذي وُلد لصاحبنا « ب ... » بعد زواج أمه ، والذي تبناه الرجل الطيب القلب فحمل الولد اسمه ، أصبح بغير مورد بعد وفاة الرجل الطيب زوج أمه ، وأصبح مسئولاً عن أمه المريضة الكسيحة . كانت أمه تعيش في اقليم ناءٍ من الأقاليم . وقد استقر هو في العاصمة ، فكان يجني رزقه شريفاً باعطاء دروس خاصة في بيوت أسر من التجار ، فاستطاع بذلك أن يقيم أوده وأن يعول نفسه خلال مدة دراسته في المدرسة الثانوية ، ثم استطاع بعد ذلك أن يتابع دراسة عليا بغية التهيؤ لمركز في المستقبل . ولكن ما الذي يمكن أن تدرَّه لك دروس خاصة تعطيها في بيوت أسر من التجار الروس الذين يدفعون أجر الساعة عشر كوبكات ، ولا سيما حين يكون عليك أن تساعد أماً مريضة كسيحة ؟ وقد ماتت أمه في الاقليم النائي بعد ذلك ، فلم يكد يخرجه هذا مما هو فيه من عسر وضيق .

« والآن يُطرح سؤال : ما عسى يكون تفكير صاحبنا سليل الأمراء في هذا الأمر اذا هو أراد العدل والانصاف ؟ أغلب الظن أنك تقدِّر أيها القارىء العزيز أنه قال لنفسه : ان « ب ... » قد غمرني بفضله ونعمه طوال حياته . وقد أنفق عشرات الألوف من الروبلات على تعليمي ومربياتي وعلاجي بسويسرا . وأنا اليوم مليونير ، بينما أرى ابنه النبيل ذاك ، البريء من أخطاء أب طائش نسَّاء ، يرهق نفسه في اعطاء دروس

خاصة. ان كل ما أنفقه عليَّ أبوه انما ينبغي أن يعود اليه شرعاً وانصافاً ! ان جميع تلك المبالغ الضخمة التي ضحَّى بها أبوه في سبيلي ليست ملكي في حقيقة الأمر . فلولا خطأ ارتكبه الحظ الأعمى لكان ينبغي أن تئول الى ابن « ب ... » ، وأن ينتفع هو بها لا أنا ، لأن « ب ... » لم يقفها عليَّ الا من باب النزوة أو الخفة أو النسيان . فاذا كنت رجلاً شريفاً كل الشرف ، مرهف الشعور تماماً ، عادلاً كل العدل ، لوجب أن أهب لابن ذلك الرجل الذى أحسن اليَّ وأنعم عليَّ نصف ميراثي . ولكن لما كنت رجلاً مقتصداً قبل كل شيء ، وكنت أعلم حق العلم أن مطالبته لا تستند الى أي أساس قانوني فسوف امتنع عن مقاسمته ملاييني . على انني اذا لم أردَّ اليه الآن ، على الأقل ، عشرات الألوف من الروبلات التي انفقها عليَّ أبوه لشفائي من بلاهتي ، فانني أرتكب عملاً دنيئاً كل الدناءة، حقيراً كل الحقارة (نسي أن يضيف الى ذلك ان عمله يكون عندئذ « مفتقراً الى بعد النظر وحسن التبصر بالعواقب »). ان المسألة لا تعدو أن تكون مسألة ضمير وعدل وانصاف . اذ ما الذى كان يمكن أن أصير اليه لو أن « ب ... » لم يكفلني ولم يتولَّ تربيتي ، وانصرف باهتمامه الى ابنه لا اليَّ ؟ » .

« ولكن لا ، أيها السادة ! ان أبناء سلالات الأمراء لا يفكرون في الأمور هذا التفكير ! هل تصدِّقون أن صاحبنا سليلَ أسرة الأمراء هذا الذى نشأ بسويسرا لم يستجب أي استجابة للحجج الدامغة والأدلة القوية التي ساقها له المحامي (يجب أن نذكر هنا أن المحامي حين قبل أن يتولى شئون مصالح الشاب انما فعل ذلك من باب الصداقة ، ورغم ارادة الشاب تقريباً) موضحاً ما توجبه قواعد الشرف وأخلاق الكرم ومبادىء العدل ، بل ويوجبه أبسط احساس بالمصلحة ذاتها .

« ولو اقتصر الأمر على ذلك لهان وأمكن احتماله . ولكن اليكم

ما حدث مما لا يمكن غفرانه ولا يمكن أن يُلتمس له عذر بأى مرض من الأمراض • ان هذا المليونير الذى لم يخلع لبادتي البروفسور عن حذاءيه الا منذ برهة قصيرة ، لم يستطع حتى أن يفهم أن هذا الشاب النبيل الذى كان يضنى جسمه فى العمل حتى لكأنه يقتل نفسه به قتلاً لم يتجه اليه طالباً الرأفة به والتصدق عليه ، وانما هو يطالبه بدين صريح ، وأن هذا الدين اذا كانت تعوزه المؤيدات القانونية فهو التزام يوجبه الحق• ذلك عدا أن الشاب لم يطلب شيئاً بنفسه ، لأن أصدقاء له هم الذين كانوا يتدخلون فى الأمر نيابةً عنه • وهذا هو صاحبنا سليل أسرة الأمراء يصطنع هيئة التعاظم ، ويستل من جيبه ورقة نقدية قدرها خمسون روبلاً ، فيقدمها الى الشاب النبيل صدقةً وقحة ، وهو يشعر بكل ما يشعر به من كبر وخيلاء ، مليونير يعتقد أن كل شيء مباح • ألا تصدقون أيها السادة ؟ انكم مستاءون ثائرون ! انكم تطلقون صيحات استنكار ! ومع ذلك فان هذا هو ما حدث ! طبيعى أن المبلغ قد رُدَّ اليه فوراً ، بل أُلقى فى وجهه القاءً ان صح التعبير !

« ما عسى تكون نتيجة هذه القضية ؟ لما كانت هذه القضية تفتقر الى أساس قانونى ، فانه لم يبق الا أن تُعرض على الرأى العام • فنحن لذلك ننقل هذه القصة الى قرائنا مؤكدين لهم صحتها وصدقها • وقد نظم أحد شعرائنا الساخرين المشهورين ، نظم بهذه المناسبة أبياتاً جميلة تستحق أن يكون لها مكان فى وصف أخلاقنا وعاداتنا لا بالاقاليم وحدها بل بالعاصمة أيضاً • فاليكم هذه الأبيات :

ظل ليوفا اعواما خمسة *
يختال بمعطف شنايدر • *
يقضى وقته على عادته
فى انواع السفاسف والترهات •

حتى اذا عاد وعلى حذاءيه لبادتان ضيقتان ٠

ورث مليون روبل ٠

انه يرتل صلواته بالروسية ٠

لكنه يسرق الطلاب ٠

حين انتهى كوليا من القراءة أسرع يناول الأمير الجريدة ، ومضى يعتصم بركن من الأركان دون أن يقول كلمة واحدة ، دافناً وجهه فى يديه ٠ كان يشعر بخزى لا يطاق ، وكانت نفس الطفل التى هى نفسه لمّا تألف بعدُ حقارات الحياة ودناءاتها ، فهو مضطرب الآن اضطراباً يفوق كل وصف ٠ كل يخيَّل اليه أن شيئاً خارقاً للعادة قد حدث ، شيئاً سيعقبه انهيار كل شيء من حوله دفعةً واحدة ، وأنه سبب هذه الكارثة كلها بمعنى من المعانى ، لأنه قرأ هذه المقالة بصوت عالٍ جهاراً ٠

واتفق أن جميع الحضور قد راودهم شعور من هذا النوع ٠

أحست الفتيات بضيق وحياء ٠ وكبحت اليزابت بروكوفيفنا غضبها الذى بلغ أقصى حد ٠ ولعلها كانت تشعر بندم مر على اقحامها نفسها فى الأمر ٠ فهى الآن صامتة لا تتكلم ٠

أما الأمير فكان يعانى المشاعر التى يعانيها الأفراد الخجولون جداً فى مثل هذه الحالات : كان يحس بعار هذه الأفعال التى يقوم بها هؤلاء الزوار احساساً بلغ من القوة أنه لبث لحظةً من الوقت لا يجرؤ أن ينظر الى أحد ٠ وكان بتسين وفاريا وجانيا وحتى ليديف ، كانوا جميعاً يشعرون بخجل شديد واضطراب قوى ٠ وأغرب ما فى الأمر أن هيبوليت و « ابن بافلشتشيف» كان يبدو عليهما، هما أيضاً ، أنهما مدهوشان٠ وكان ابن أخت ليديف يصطنع هيئة عدم الرضى وقلة الارتياح ٠ واحتفظ الملاكم وحده بهدوء كامل، فكان يرفع شاربيه بوقار ويغض عينيه لا حرجاً

بل تواضعاً كريماً ، وشعوراً بانتصار صريح • كان واضحاً أنه معجب بالمقالة اعجاباً شديداً •

دمدم ايفان فيدوروفتش يقول :

ـ الشيطان وحده يعلم مصدر هذه الدناءة ! لكأن خمسين حقيراً اشتركوا في تلفيق حكاية تبلغ هذا المبلغ من الخسة !

قال هيبوليت وهو يرتجف أشد الارتجاف من فرط الغضب :

ـ اسمح لى أن أسألك ، يا سيدى العزيز : بأى حق تفترض هذه الافتراضات الجارحة ؟

وجمجم اللاكم يقول وقد ارتعش فجأة وأخذ يعقف شاربيه بينما أخذت كتفاه وجسمه تهتز بارتعادات :

ـ هذه ، هذه ، هذه اهانة ، يا جنرال ، بالنسبة الى سيد نبيل ، بالنسبة الى رجل يجب أن تسلّم بأنه سيد نبيل •

قال الجنرال بلهجة قاسية وقد اغضبه هذا الكلام أشد الغضب :

ـ أولاً أنا لست « سيدك العزيز » ؛ وثانياً ليس عندى ما أوضحه لك أو أعتذر به اليك •

ثم نهض وتحرك حركة من يريد أن ينزل من الشرفة دون أن يضيف كلمة واحدة ، ولكنه لبث واقفاً على الدرجة العليا ، مديراً للحضور ظهره • لقد أزعجه أن يرى اليزابت بروكوفيفنا لا يخطر ببالها أن تنصرف ، حتى في هذه اللحظة •

هتف الأمير يقول وقد امتلأ غماً وانفعالاً :

ـ أيها السادة ، أيها السادة ، دعوا لى أن أشرح لكم أمرى ، وأن

أبسط لكم عذرى . أرجوكم : دعـونا نتكلم على نحو يتيح لنا أن يفهم بعضنا عن بعض . ليس لدىّ ما أعقّب به على هذه المقـالة ، فلا تعودنّ اليها . ولكن اعلموا أيها السادة أن ما حوته باطل كل البطلان . أقول لكم ذلك لأنكم تعلمونه كما أعلمه . ألا ان هذا عار . لسوف يدهشنى أشد الدهشة أن أعرف أن واحداً منكم هو الذى كتب هذه المقالة .

قال هيبوليت :

ــ حتى هذه اللحظة لم أكن أعرف عن هذه المقالة شيئاً . ولست أؤيدها أو أحبذها .

وأضاف ابن أخت ليديف الى ذلك قوله :

ــ أما أنا فكنت أعلم بوجودها ... لكننى لو استُشرت لما نصحت بنشرها . ان نشرها سابق لأوانه .

فتمتم ابن « بافلشتشيف » يقول :

ــ وأنا كنت على علم بأمرها ، ولكن هذا حقى ... اننى ...

فسأله الأمير وهو يتفرس فيه مستطلعاً مستغرباً :

ــ ماذا ؟ أأنت الذى لفقت هذا كله ؟ مستحيل ...

قال ابن أخت ليديف :

ــ ليس من حقك أن تلقى أسئلةً كهذه الأسئلة .

ــ أنا لم أزد على أن عبّرت عن دهشـــتى من أن يـكون السـيد بوردوفسكى قد استطاع أن ... ولكن ... على كل حال أريد أن أقول لكم ما يلى : ما دمتم قد نشرتم هذه القضـية فى الجـرائد ، فاننى لا أرى السبب الذى أغضبكم منذ قليل حين أردت أن أتكلم فيها أمام أصدقائى .

دمدمت اليزابت بروكوفيفنا تقول مستاءة :

ــ أخيراً !...

ونفد صبر ليـديف فاسـل فجـأة بين الكراسى وهو يكاد يكون محموماً ، وقال :

ـ هنـاك شيء نسيت أن تضـيفه يا أمير : هـو أنك اذا كنت قد استقبلت هؤلاء الناس وأصغيت الى كلامهم ، فانما فعلت ذلك مدفوعاً اليه بنبل نفسك وطيب قلبك • لم يكن من حقهم أن يطالبوا بذلك ، لا سيما وأنك عهدت بالقضية الى جبريل آرداليونوفتش • فهذا دليل جديد على فرط طيب قلبك • وانك تنسى أيضاً يا سمو الأمير أنك الآن فى صحبة أصدقاء مختـارين مصطفين لا تسـتطيع أن تضحى بهم فى سـبيل هؤلاء السادة • فأنت وحـدك تملك أن تطرد هؤلاء ، وتلك مهمـة يسرنى أنا كثيراً ، بصفتى صاحب البيت ، أن •••

نادى الجنرال ايفولجين يقول من آخر الغرفة بصوت قوى :

ـ هذا صحيح كل الصحة •

وبدأ الأمير يتكلم فقال :

ـ كفى يا ليبديف ، كفى •••

غير أن صيحات استياء واستنكار تفجرت فى كل جهة فغطت كلمات الأمير •••

وصرخ ابن اخت ليبديف صرخة غلب صوتها سـائر الأصـوات ، فقال :

ـ لا يا أمير ، معذرة ؟ أصبح هذا غير كافٍ • يجب الآن أن توضع النقط على الحروف ، اذ لا يبدو أن هناك رغبةً فى فهمنا • ان بين الحضور هنا من يدلى بحجج قانونية فيهددنا بالطرد • ولكن هل تظن يا أمير أننا نبلغ من الحماقة حداً يجعلنا لا ندرك نحن أنفسنا أن قضيتنا خالية من أى أساس قانونى وأن القانون لا يجيز لنا أن نطالبك بروبل واحد ؟ انـنا

لكوننا ندرك هذه الحقيقـة انما نقف على أرض الحق الانســـانى ، الحق الطبيعي ، الحق الذى يمليه الحس السليم والضمير الصادق • ليس أمراً ذا بال أن لا يكون ذلك الحق مكتـوباً في نص قـانوني بالٍ عتيق ، لأن الانسان الذي يملك عواطف نبيلة ومشاعر شريفة ، أعنى الانسان الذى يملك سداد الرأى وسلامة الحكم ، من حقه أن يبقى وفياً لتلك العواطف والمشاعر ، حتى فى الحالات التى تغفلها نصوص القانون المكتوب ولا تتكلم عنها • واذا كنا قد جئنا الى هنا دون أن نخشى الطرد (الذى هددتنا به منذ لحظة) بسبب مطالباتنا ـ ذلك أننا « نطالب » ولا « نرجو » ـ وبسبب أن مجيئنا قد تمّ فى ساعة غير مناسبة (والحق أن مجيئنا لم يتم فى ساعة متأخرة ، وانما أنت حجزتنا في حجرة المدخل) ، فاننا لم نفعل ذلك الا لأننا قدّرنا أن نجد فيك انساناً سديد الرأى سليم الحكم أى انســاناً ذا شرف وضمير •

« نعم ، هذه هى الحقيقـة ، فنحن لم نأتك أذلاّء نستجدى نعمك وآلاءك كطفيليين ، وانما دخلنا رافعين رؤسنا ، أحراراً لا يقدمون رجاءً بل يبلّغون انداراً (هل سمعت ؟ انداراً لا رجاءً • لاحظ هذا) • اننا نلقى عليك هذا السؤال جهاراً دون لف أو دوران : أتعتقد أنك على حق أم على باطل فى قضـية بوردوفسـكى ؟ هل تعترف بأن بافلشتشيف قد أحسن اليك وأنعم عليك ، وبأنك ربما كنت مديناً له بحياتك ؟ واذا كنت تعتقد بهذه الحقيقة الواضحة فهل تنتوى وهـل تجـد أن من الانصـاف والعدل ، بعد أنأصبحت مليونيراً، أن تعوّض عنالضرر ابن بافلشتشيف الذى يعيش الآن حياة بؤس ، دون أن يصدّك عن ذلك أنه يحمل الآن اسم بوردوفسكى ؟ أنعم أم لا ؟

« فاذا قلت « نعم » ، أى اذا كنت تملك ما تســـمونه بلغتكم شرفاً وضميراً ، وما نسميه نحن سلامة الحكم ـ وهذه تسمية أصدق ـ فما عليك

الا أن تبادر الى ارضائنا ثم لا تعودنّ الى الكلام في هذا الأمر أبداً ؛ ماعليك الا أن تسوّي القضية دون أن تنتظر منا لا رجاء ولا شكراً ، لأن ما ستفعله لن تفعله من أجلنا بل من أجل العدل .

« أما اذا رفضت ارضاءنا ، أي اذا قلت « لا » ، فسننصرف فوراً ، فتقف القضية عند هذا الحد . لكننا نحرص على أن نقول لك دون تهيب ، أمام هؤلاء الناس جميعاً ، انك انسان غليظ الفكر منحط الثقافة ، وانك لن يحق لك بعد الآن أن تعد نفسك رجلاً ذا شرف وضمير . اننا نطالب ، ولا نستجدي !... » .

وتوقف ابن أخت ليديف عن الكلام . لقد تكلم مهتاجاً أشد الاهتياج .

وتمتم بوردوفسكي يقول وقد احمر وجهه احمراراً شديداً :

ـ اننا نطالب ، نطالب ، نطالب ، ولكننا لا نستجدي !...

بعد الخطبة التي ألقاها ابن أخت ليديف سرت في الجمع حركة شاملة ، وسُمعت دمدمات متصلة ، رغم أن كل واحد كان يميل ميلاً واضحاً الى أن يتحاشى اقحام نفسه في هذه القضية ، الا ليديف الذي كان مهتاجاً مضطرباً . (شيء غريب : ان ليديف ، على كونه مناصراً للأمير ، كان يبدو عليه نوع من الاعتزاز العائلي اثناء سماع كلام ابن اخته؛ فكان يُجيل على الحضور نظرات يتجلى فيها رضى خاص ومسرة واضحة)

بدأ الأمير يتكلم فقال بصوت خافت بعض الخفوت :

ـ في رأيي أن في كلامك نصف حقٍ يا سيد دوكتورنكو ، بل انني لأسلّم بأن فيه أكثر من نصف حق ، وكان يمكن أن أوافقك كل الموافقة لولا أنك أغفلت في حديثك أمراً من الأمور . وهذا الأمر لا أملك

أن أقوله لك على وجه الدقة ... المهم أن أقوالك يعوزها شيء ما حتى تكون صحيحة كل الصحة . ولكن فلنتكلم في القضية نفسها أيها السادة ، فهذا أولى . قولوا لي : لماذا نشرتم تلك المقالة ؟ ألا تعتقدون أن فيها من النمائم بقدر ما فيها من ألفاظ ؟ رأيي أيها السادة أنكم ارتكبتم عملاً منحطاً .

ـ اسمح لي ...

ـ يا عزيزي ...

ـ آه ... هذا ... هذا ...

كذلك صاح الزائرون معاً في آن واحد وقد ظهرت عليهم علائم الاهتياج .

وأجاب هيبوليت بصوته الحاد :

ـ أما عن المقالة فقد سبق أن قلت لك انني لا أؤيدها ولا أحبذها ، لا أنا ولا غيري . ان كاتبها هو هذا (قال هيبوليت ذلك وهو يومىء بيده الى الملاكم الجالس قربه) . أقر لك بأنها مقالة غير لائقة ، كتبها رجل غير مثقف ، بأسلوب هو أسلوب أمثاله من العسكريين المحالين على التقاعد . انه رجل أحمق ، وانه فوق ذلك غشاش ، أوافقك على هذا . وأنا أكرر هذا الكلام على مسامعه كل يوم . ولكنني أضيف الى ذلك انه كان على بعض الحق : ان النشر حق يملكه جميع النـــاس شرعاً ، ويملكـه اذن بوردوفسـكي . واذا تضمنت المقالة سخافات فهو مسئول عنهـا . أما الاعتراض الذي أعلنته منذ قليل باسمنا جميعاً ، وهو الاعتراض الخاص بحضور أصدقائك ، فانني أعتقد أن من الضروري أن أعلمكم أيها السادة أن ذلك الاعتراض لم يكن له من هدف الا تأكيد حقنا . فالواقع أننا كنا نريد أن يكون ثمة شهود ، حتى لقد اتفقنا نحن الأربعة على هذا قبل أن

ندخل ، فنحن نقبل الشهود أياً كانوا ، ولو كانوا أصدقاءك ، اذ ما داموا لا يستطيعون أن يجحدوا حق بوردوفسكي (وهو حق بديهي كالرياضيات» فمن الأفضل أن يكونوا أصدقاءك ، لأن ذلك يظهر الحقيقة بوضوح أكبر وجلاء أعظم •

قال ابن أخت ليبديف مؤيداً :

ـ نعم لقد اتفق رأينا على ذلك •

فاعترض الأمير يقول مدهوشاً :

ـ اذا كانت هذه نيتكم ، فلماذا أحدثتم تلك الجلبة كلها وذلك الشغب كله منذ الكلمات الأولى من الحديث بيننا ؟

كان الملاكم يحترق رغبة في أن يقول كلمة ، فتدخل يقول بلهجة فيها تودد (نستطيع أن نخمِّن أن وجود السيدات قد أثَّر في نفسه تأثيراً قوياً) :

ـ فيما يتعلق بالمقالة يا أمير ، أعترف لك بأنني كاتبها فعلاً ، رغم أن صديقي المراض قد نقدها نقداً لاذعاً ، وذلك أمر أغفره له كما أغفر له ما عداه بسبب حالة الضعف التي هو فيها . ولكني كتبتها ونشرتها على شكل رسالة صحفية في جريدة واحد من أصدقائي الخلَّص . الأشعار وحدها ليست لي ، وانما نظمها شاعر ساخر مشهور . وقد قرأت المقالة لبوردوفسكي ، حتى انني لم أقرأها كلها ، فأسرع يأذن لي بنشرها . لاحظ انني لم أكن في حاجة الى موافقته لنشرها . فالنشر حق عام ، نبيل ، مفيد ؛ واني لأرجو يا أمير أن تكون أنت نفسك أكثر لبرالية من أن تنكر حق النشر ...

ـ لست أنكر حق النشر ، ولكن لا بد لك أن تعترف بأن مقالتك تتضمن •••

ـ تتضمن أشياء قاسية بعض القسوة ... أهذا ما تريد أن تقول ؟ ولكن هذه الأشياء لها ما يسوّغها من اعتبارات المصلحة الاجتماعية بمعنى من المعاني . عليك أن تعترف أنت نفسك بذلك . ثم هل يستطيع المرء أن يفوّت فرصةً كهذه الفرصة ؟ نحن لا يهمنا الجناة ، فمصلحة المجتمع فوق كل مصلحة ! أما فيما يتعلق بما ورد في المقالة من أمور ليست صحيحة صحة تامة ، أقصد بعض المبالغات في التعبير ، فيجب عليك أن تعترف أيضاً أن العبرة بالغاية المنشودة والنية المعقودة ، والهدف المقصود. فانما المهم أن نقدِّم مثالاً مفيداً ، ثم يتسع وقتنا بعد ذلك للمناقشة في حالات خاصة . وأما فيما يتعلق بالأسلوب أخيراً ، فهو الفكاهة الساخرة طبعاً ، والناس جميعاً يكتبون بهذا الأسلوب ؛ عليك أن تعترف أنت نفسك بذلك ، هأ هأ هأ !...

صاح الأمير يقول :

ـ لكنكم ضللتم الطريق أيها السادة ، أؤكد لكم ذلك . لقد نشرتم المقالة وأنتم تتصورون أنني لا أريد أن أصنع شيئاً البتة للسيد بوردوفسكي، فحاولتم على أساس هذا الافتراض أن تخيفوني وأن تنتقموا مني. ولكن ما أدراكم ؟ لعلني أنتوي ارضاء السيد بوردوفسكي . وهأنا ذا أعلن لكم الآن بقول قاطع على رءوس الأشهاد أن تلك هي نيتي ...

صاح الملاكم يقول :

ـ أخيراً ! هذا قول حكيم نبيل يصدر عن انسان حكيم نبيل !

وتنهدت اليزابت بروكوفيفنا وهي تقول على غير ارادة منها :

ـ رباه !

ودمدم الجنرال قائلاً :

ـ هذا لا يطاق !

وتضرع الأمير يقول :

ـ اسمحوا لى يا سادة ، دعونى أبسط لكم القضية ! منذ نحو خمس أسابيع ، زارنى فى « ز » ، يا سيد بوردوفسكى ، زارنى مندوبك رجل الأعمال تشيباروف . لقد رسمت له فى مقالتك صورة أخاذة جداً ، ياسيد كيللر (أضاف الأمير ذلك ضاحكاً وهو يلتفت نحو الملاكم) ، غير أن هذا الشخص لم يعجبنى البتة فى الواقع . لقد أدركت منذ أول لحظة أن تشيباروف هذا هو المحرّض فى القضية كلها ، وأنه هو الذى ورّطك يا سيد بوردوفسكى ، مستغلاً بساطتك ... أقول لك هذا بكل صراحة.

تأتأ بوردوفسكى يقول وقد بلغ الغيظ منه كل مبلغ :

ـ لا يحق لك ... اننى ... أنا ... أنا لست بسيطاً ...

وقال ابن اخت ليديف بلهجة الواعظ الناصح :

ـ لا يحق لك أن تفترض مثل هذه الافتراضات !

وصات هيبوليت يقول بصوته الحاد :

ـ هذا شىء رهيب فظيع ! هذا افتراض جارح كاذب مهين ، وليس له بالقضية أية علاقة !

أسرع الأمير يبرىء نفسه قائلاً :

ـ عفوكم عفوكم يا سادة ! اعذرونى ، أرجوكم . لقد قدّرت أن الأفضل أن يتكلم الطرفان كلاهما بصراحة تامة . ولكن لكم ما تشاءون. أجبت تشيباروف باننى لغيابى ببطرسبرج قد أسرعت أرجو صديقاً لى بأن يتابع هذه القضية ، وقلت لتشيباروف اننى سأنقل النتيجة اليك أنت يا سيد بوردوفسكى . ولا أكتمكم أيها السادة أن تدخل تشيباروف هو الذى جعلنى أحسُ بأن فى الأمر غشاً . آه ... لا تزعلوا يا سادة ، ناشدتكم الله ! لا تزعلوا !

كذلك هتف الأمير مرتاعاً حين رأى بوردوفسكي يعود الى الاهتياج، وحين رأى اصحابه يهبون الى الاعتراض والاحتجاج . وتابع كلامه فقال :

ـ حين أقول ان المطالبة بدت لى محاولة غش ونصب ، فان قولى لا يمكن أن يتناولكم أنتم . لا تنسوا أننى كنت لا أعرف حينئذ أى واحد منكم . حتى لقد كنت أجهل أسماءكم . اننى لم أحكم على الأمر الا من خلال تشيباروف . اننى أتكلم بصورة عامة ... ليتكم تعلمون كم خُدعت منذ آل الىَّ هذا الميراث !

قال ابن أخت ليديف بلهجة السخرية :

ـ أنت ساذج سذاجة رهيبة يا أمير !

وزاد هيبوليت على ذلك فقال :

ـ وأنت عدا ذلك أمير ومليونير ! فرغم ما قد تملك من طيبة النفس وبساطة القلب ، لا يمكنك أن تخرج على القانون العام .

فقال الأمير يجيب بسرعة :

ـ جائز ، جائز جداً ، وان كنت لا أفهم عن أى قانون عام تتكلم . ولكنى أتابع كلامى ، فأرجوكم أن لا تهتاجوا فى غير داعٍ الى اهتياج ، لأننى ـ أقسم لكم ـ لا أنتوى أن أسيء الى شعوركم البتة ! ما هذا يا سادة ؟ ألا يستطيع المرء أن يقول كلمة صدق دون أن تثوروا ؟

« لقد ذُهلت حين علمت بوجود شاب يقال انه « ابن بافلشتشيف » وحين علمت بحالة البؤس التى ذكر لى تشيباروف أنه يعيش فيها . ان بافلشتشيف كان المحسن الىَّ وكان صديق أبى (آه يا سيد كيللر ، لماذا كتبت فى مقالتك عن أبى أشياء تبلغ هذا المبلغ من البعد من الحقيقة ؟ انه لم يسلب أموال سريته فى يوم من الأيام ، لا ولا أساء معاملة أحد

مرءوسيه قط . انني مؤمن بهذا كل الايمان . كيف استطاعت يدك أن تخط نميمة كهذه النميمــة ؟) . وان ما قلته عن بافلشتشيف لا يمـكن قبوله البتة . أنت تزعم أن هذا الانسان النبيل كان داعراً فاسـقاً ، وأنه كان خفيفاً طائشاً . وأنت تقول هذ االكلام بثقة كاملة كأنما أنت تذكر الحقيقة . والواقع خلاف هذا تماماً . لقد كان بافلشتشيف أعفّ انسان في العالم ! وكان عدا ذلك عالماً مرموقاً ؛ كان يراسل عدداً من الشخصيات العلمية ، وقد وهب أموالاً كثيرة في سبيل تقدم العلم . أما عن شهامته وأعماله الخيّرة ، فقد كنتَ على حق حين كتبت أنني كنت في ذلك الحين شبه معتوه أو أبله أو أهبل ، وانني كنت لا أسـتطيع أن أدرك من ذلك شيئاً البتة (ومع هذا كنت أتكلم الروسية وأفهمها) . ولكنني الآن قادر على أن أقضي برأى في كل ما أتذكره ...

صرخ هيبوليت يقول :

ــ اسمح لي ... دعك من العاطفيات . ما نحن بأطفال . لقد كنت تريد أن تمضي الى جوهر القضية . والساعة الآن قد تجاوزت التاسعة . لا تنس هذا !

فأسرع الأمير يوافق قائلاً :

ــ ليكن يا سادة ، أريد ذلك حقاً . هأنا ذا أعود الى القضية . قلت لنفسي بعد شيء من الشك والارتياب : لعلني مخطىء ، ولعل بافلشتشيف أن يكون له ابن . غير أن الشيء الذى كان يبدو لي صعب التصديق هو أن يعمد ذلك الابن ، بمثل هذه الخفة كلها ومثل هذا الطيش كله ، أن يفضح سرّ ولادته وأن يلطخ شرف أمه علانيـةً ، للنـاس قاطبـة . ذلك أن تشيباروف كان قد هدّدني باذاعة الفضيحة ونشرها ...

هتف ابن أخت ليبديف يقول :

ـ يا للحماقة !

وصاح بوردوفسكي قائلاً :

ـ لا يحق لك ، لا يحق لك !...

وانبرى هيبوليت يقول بصوته الحاد وقد اهتاج اهتياجاً شديداً :

ـ ليس الابن مسئولاً عن فجور أبيه ، وليست الأم مذنبة !

فقال الأمير خجلاً :

ـ فهذا في رأيي أدعى الى مداراة الأم والامتناع عن التشهير بها .

قال ابن أخت ليبديف وهو يضحك ضحكة ساخرة :

ـ لست ساذجاً فحسب يا أمير ، فلعلك تتجاوز حدود البساطة ..

وسأله هيبوليت بصوت لم يبق فيه شيء طبيعي :

ـ وأي حق كان لك أنت ؟

ـ لم يكن لى أي حق ، لم يكن لى أي حق ...

كذلك أسرع الأمير يضيف الى كلامه . ثم تابع فقال :

ـ أنت هنا على صواب ، أعترف لك بذلك . لكنني لم أستطع أن أمتنع عن ذلك التفكير . ثم سرعان ما قدّرت أن انطباعي الشخصي يجب أن لا يكون له في القضية أي تأثير . فمتى كان من واجبي أن أرضي السيد بوردوفسكي عرفاناً بجميل بافلشتشيف وتحيةً لذكراه ، فسيّان أن احترم السيد بوردوفسكي وأن لا أحترمه ... واذا كنت قد حدثتكم عن ترددي أيها السادة ، فانني لم أفعل ذلك الا لأنه كان قد بدا لى أنه من غير الطبيعي أن يكشف عن سرّ أمه للناس كافة ... الخلاصة : أن هذا الدليل خاصةً هو الذي أقنعني بأن تشيباروف لا بد أن يكون وغداً ورّط السيد بوردوفسكي في هذا الغش باحتيالات محسوبة .

صاح الزوار يقولون :

ـ آه .. .هذا كلام يتجاوز جميع الحدود !

حتى أن بعضهم اندفع ينهض .

ـ أيها السادة ! ان هذا الدليل نفسه هو الذى جعلنى أخمِّن أن السيد بوردوفسكى المسكين التعيس هذا لا بد أن يكون متخلف العقل محدود الذكاء ، فهو لا يحسن أن يدفع عنه مكر الماكرين وأن يحمى نفسه من أحابيل الغشاشين ، فزادنى ذلك شعوراً بواجب مساعدته ما دام « ابن بافلشتشيف » ، وذلك بثلاث طرق : أن أدرأ عنه تأثير تشيباروف أولاً ، وأن أوجهه وأرشده باخلاص ومحبة ثانياً ، وأن أدفع له عشرة آلاف روبل ثالثاً ، وهو المبلغ الذى يساوى فى حسابى ما أنفقه علىَّ بافلشتشيف .

صاح هيبوليت يسأل :

ـ ماذا ؟ عشرة آلاف روبل فقط ؟

وهتف ابن أخت ليبديف :

ـ هيَّا يا أمير ، لست قديراً فى علم الحساب ، أو قل انك قدير فى علم الحساب أكثر مما يجب ، رغم ما تصطنعه من بساطة .

وأعلن بوردوفسكى قائلاً :

ـ لا أقبل هذه العشرة آلاف روبل !

فهمس الملاكم يقول له بسرعة وهو يميل عليه من وراء كرسى هيبوليت :

ـ اقبلْ يا آنتيب !

وزأر هيبوليت يقول :

ـ اعتذر يا سيد ميشكين ! عليك أن تفهم أننا لسنا أغبياء . نحن لسنا أولئك الأغبياء المفرطين في الغباوة الذين يفترضهم ضيوفك فيما يبدو ، لسنا أولئك الأغبياء الذين تتصورهم هاته السيدات اللواتي ينظرن الينا وهنّ يتبسمن ابتسامة احتقار ، أو يتصورهم خاصةً هذا السيد الذي ينتمي الى المجتمع الراقي (قال ذلك وهو يشير الى أوجين بافلوفتش) ، هذا السيد الذي لم أتشرف بمعرفته طبعاً ، ولكنني سمعت عنه أشياء كثيرة ...

قال الأمير بحرارة مضطرمة :

ـ اسمحوا لي ، اسمحوا لي أيها السادة . لقد أخطأتم فهمي مرة أخرى . يجب أن أذكر أولاً أنك يا سيد كيللر قد قدّرت ثروتي تقديراً بعيداً عن الصحة كل البعد : فأنا لم أقبض ملايين ، ولعل ما أملكه لا يزيد على ثُمْن أو عُشْر ما تظنون . ثم ان ما أُنفق عليّ بسويسرا ليس عشرات ألوف الروبلات : لقد كان شنايدر يتلقى ستمائة روبل في السنة ؛ وهذا المبلغ نفسه لم يُدفع الا في السنين الثلاث الأولى . أما عن المربيات الجميلات ، فان بافلشتشيف لم يأت بمربية من باريس في يوم من الأيام . فهذه أيضاً نميمة . أعتقد أن المبالغ التى أُنفقت عليّ تقل كثيراً عن عشرة آلاف روبل ، لكنني وافقت على ذلك الرقم . لا بد لكم من التسليم بأنني اذا كنت أرد ديناً فلا أستطيع أن أقدم للسيد بوردوفسكي مبلغاً أكبر من ذلك الدين ، مهما تكن عاطفة المحبة التي أحملها له . ذلك أن الشعور بأبسط قاعدة من قواعد الذوق يمنعني من أن أظهر بمظهر من يتصدق عليه ، في حين أنني أرد اليه ديناً . لا أدري أيها السادة كيف يمكن أن لا تفهموا عني هذا الأمر . ولكنني أردت أن أفعل أكثر من ذلك ، فأهب للسيد بوردوفسكي هذا العاثر الحظ ، صداقتي ودعمي . لقد لاحظت أنه خُدع وأنه غُرِّر به ، فلولا ذلك لما رضي عن دناءة

كدناءة نشر ذلك المقال الذى كتبه السيد كيللر مشهـّراً فيه بأمه • ولكن ما بالكم تغضبون من جديد أيها السادة ؟ لسوف ينتهى بنا الأمر الى أن لا نفهم شيئاً البتة •

وختم الأمير كلامه قائلاً :

ـ صدق ظنى اذن ! لقد اقتنعت الآن اقتناع المشاهدة والعيان بأن تخمينى كان صحيحاً صادقاً •••

قال الأمير ذلك منتشياً ، دون أن يلاحظ أن سامعيه كانوا أثناء محاولته تهدئتهم يزدادون غضباً وغيظاً •

سألوه حانقين :

ـ ماذا ؟ بماذا اقتنعت ؟

أجاب الأمير :

ـ استطعت أن أرى السيد بوردوفسكى على مهل ، فعرفت حقيقته بنفسى ••• انه رجل برىء ، ولكن الجميع يخدعونه ويغررون به • هذا انسان لا يملك عن نفسه دفاعاً ، فيجب علىّ اذن أن أحميه • ثم ان جبريل آرداليونوفتش الذى كلفته بمتابعة هذه القضية ثم لم تصلنى أنباؤه منذ مدة طويلة بسبب سفرى وبسبب مرضى أثناء الأيام الثلاثة التى قضيتها ببطرسبرج ، اقول ان جبريل آرداليونوفتش هذا قد أطلعنى على نتائج تحرياته منذ ساعة ، فى أول لقاء بيننا ، فأبلغنى أنه كشف النقاب عن جميع مرامى تشيباروف وأهدافه، وأنه يملك البرهان القاطع على أن جميع افتراضاتى عن هذا الرجل صحيحة • أنا أعلم تماماً أيها السادة أن كثيراً من الناس يعدوننى أبله • فلما سمع تشيباروف اننى انسان مبسوط الكف ، وان انتزاع المال منى أمر يسير ، قدّر بأن فى وسعه أن يخدعنى بسهولة ، مستغلا ما أحمله للمرحوم بافلشتشف من شعور الشكر والامتنان ومن

عاطفة العرفان بالجميل • غير أن الأمر الأساسي ••• ما بالكم أيها السادة ؟ أرجو أن تصغوا الى كلامي حتى النهاية ••• أقول ان الشيء الأساسي هو أنه قد ثبت الآن بالدليل القاطع أن السيد بوردوفسكي ليس ابن بافلشتشيف ! لقد أبلغني جبريل آرداليونوفتش هذا الاكتشاف منذ هنيهة، مؤكداً أن ثمة أدلة ثابتة وبراهين قاطعة • فما قولكم ؟ انه ليصعب على المرء أن يصدّق هذا الكلام بعد جميع ما عوملت به من اهانة واذلال ! واسمعوني جيداً : ان ثمة أدلة ثابتة وبراهين قاطعة • أنا نفسي لمّا أصدّقها بعد • أؤكد لكم انني لا أستطيع تصديقها • ما زلت أشك في صحتها ، لأن جبريل آرداليونوفتش لم يتسع وقته لأن يذكر لي جميع التفاصيل • غير أن هناك واقعة أصبحت ثابتة لا مجال للشك فيها ، هي أن تشيباروف وغد ، فهو لم يقتصر على أنه أضلّ السيد بوردوفسكي المسكين ، وانما أضلكم أنتم جميعاً أيها السادة ، أنتم الذين جئتم الى هنا على نية نبيلة وغاية شريفة هي أن تدعموا صديقكم وأن تسندوه (ذلك أنه في حاجة الى الدعم والسند ، فهذا أمر أفهمه حق فهمه) • لقد ورّطكم تشيباروف ، ورّطكم جميعاً في قضية غش ونصب واحتيال ، لأن هذه القضية ليست الا غشاً ونصباً واحتيالاً •

هتف الجميع يقولون من كل جهة :

ـ كيف ؟ غش ونصب واحتيال ؟ كيف هذا ؟ ليس هو « ابن بافلشتشيف » ؟ كيف يمكن أن يكون هذا ؟

أصبحت عصبة بوردوفسكي كلها في حالة انصعاق !

قال الأمير :

ـ هي قضية غش ونصب واحتيال طبعاً ! اذا ثبت الآن أن السيد بوردوفسكي ليس ابن « بافلشتشيف » ، فان مطالبته تصبح غشاً ونصباً

واحتيالاً لا أكثر (هذا اذا كان يعرف الحقيقة طبعاً) • ولكن الواقع أنه خُدع وغُرِّر به • انني ألح على هذه النقطة لأبرئه من الجرم ، وأزعم أن بساطته تجعله جديراً بالشفقة عاجزاً عن الاستغناء عن سند يدعمه • والا كان يمكن أن يعد شريكاً في الغش والنصب والاحتيال في هذه القضية • لكنني مقتنع منذ الآن أنه لا يفهم من الأمر شيئاً ؛ ولقد كنت أنا نفسي على هذه الحال الى حين سفري الى سويسرا • كنت أتمتم بأقوال غير مترابطة ••• كنت أريد أن أعبِّر فما توافيني الكلمات ••• انني أدرك هذا ! وأنا أشفق عليه وأرثي لحاله وأتعاطف معه ، لأنني كنت في مثل وضعه تقريباً • فمن حقي اذن أن أتكلم عن هذا الأمر • واني لأعلن لكم في الختام ، رغم أنه لا وجود الآن لأحدٍ هو « ابن بافلشتشيف » ، أعلن لكم انني ما زلت متمسكاً بقراري ، ما زلت مستعداً لأن أدفع للسيد بوردوفسكي مبلغ عشرة آلاف روبل ، تحيةً لذكرى بافلشتشيف • لقد كنت أنوي ، قبل السيد بوردوفسكي ، أن أقف هذا المبلغ على انشاء مدرسة ، تمجيداً لذكرى بافلشتشيف • ولكن أصبح يستوي الآن عندي أن أقف هذا المبلغ على انشاء مدرسة أو أن أهبه للسيد بوردوفسكي ، لأنه ان لم يكن « ابن بافلشتشيف » فهو قريب من ذلك ، ما دام قد اعتقد صادقاً بأنه ابن بافلشتشيف ، نتيجةً للتضليل والخداع الذي كان ضحيته• استمعوا الى جبريل آرداليونوفتش أيها السادة • فلنفرغ من هذا الأمر دفعةً واحدة• لا تغضبوا ، ولا تضطربوا ! اجلسوا ! سيشرح لكم جبريل آرداليونوفتش القضية كلها ؛ واني لأعترف بأنني أحترق شوقاً الى معرفة التفاصيل • هو يقول انه ذهب الى بسكوف يا سيد بوردوفسكي ، وقابل أمك التي لم تمت كما زعمت المقالة ••• اجلسوا ايها السادة ! اجلسوا !

جلس الأمير هو نفسه ، واستطاع أن يُجلس أصدقاء السيد بوردوفسكي الذين كانوا يضطربون ويتحركون ولا يستقرون على حال•

لقد ظل ربع ساعة يتكلم بعاطفة حارة ، وصوت قوي ، وتدفق سريع ، واندفاع شديد ، محاولاً أن يسيطر على صيحات التعجب وصرخات الاستنكار ! وهو الآن نادم ندماً مراً على أن أفلتت منه تعبيرات وأقوال كان يتمنى أن لا تفلت . فلولا أنه استثير وأُخرج عن طوره ان صح التعبير لما أجاز لنفسه أن يفصح بمثل هذا الوضوح وهذه القسوة عن بعض تخميناته ، ولما أجاز لنفسه أن ينساق هذا الانسياق في صراحة زائدة لا داعي اليها ولا محلّ لها . فما ان جلس حتى أحسّ بندامة أليمة تقبض قلبه : انه لا يكتفي الآن بمؤاخذة نفسه على أنه «أهان» بوردوفسكي اذ وصفه على رءوس الأشهاد بأنه مصاب بالمرض الذي ذهب هو الى سويسرا لمعالجته ، بل يزيد على ذلك فيلوم نفسه على أنه عامله معاملة فظة خالية من اللطف والذوق اذ عرض عليه العشرة آلاف روبل الموقوفة على انشاء مدرسة ، عرضها عليه صدقةً أمام جميع الناس . قال الأمير يخاطب نفسه : « كان ينبغي لي أن أنتظر فأقدمها اليه غداً في خلوة بيني وبينه . هذه خرافة لا سبيل الى اصلاح ما أفسدته ! نعم ، انني أبله ، أبله حقاً ! » . بهذا ختم الأمير كلامه لنفسه وهو يشعر بأشد الخجل والخزي والعار !

بعد ذلك ، تلبيةً لدعوة الأمير ، تقدم جبريل آرداليونوفتش الذي ظل متنحياً حتى ذلك الحين ولم ينطق بكلمة واحدة ، تقدم نحو الأمير وجلس الى جانبه وأخذ يشرح ، بصوت واضح رصين ، المهمة التي عهد به اليها ، فانقطعت الأحاديث فجأة ، وأخذ جميع الحضور ، ولا سيما بوردوفسكي ، يصيخون السمع باهتمام قوي وفضول شديد .

الفصل التاسع

اتجه جبريل آرداليونوفتش بالكلام في أول الأمر الى بوردوفسكي الذي كان مضطرباً اضطراباً واضحاً وكان يحدق اليه منتبهاً أشد الانتباه ، وقد امتلأت نظرته دهشة . قال له جبريل آرداليونوفتش :

ـ لا شك في أنك لن تنكر ولن تجحد ، جاداً ، أنك وُلدت بعد انقضاء عامين على الزواج الشرعي بين أمك المحترمة وأبيك الموظف بوردوفسكي . انه لمن السهل جداً تحديد تاريخ ميلادك بواسطة وثائق ثابتة وسجلات دقيقة . أما تزوير هذا التاريخ في مقالة السيد كيللر ، ذلك التزوير الذي يهين كرامة أمك ويهين كرامتك في آن واحد ، فان تفسيره الوحيد هو خيال السيد كيللر الذي كان يظن أنه يخدم بذلك مصلحتك اذ يجعل حقك أوضح . لقد صرّح السيد كيللر بأنه قرأ لك المقالة قبل نشرها ، ولكنه لم يقرأها كاملةً ... فمما لا شك فيه أنه أسقط من قراءته تلك الفقرة ...

قاطع الملاكم يقول :

ـ فعلاً ، لم أقرأ له تلك الفقرة . ولكن جميع الوقائع انما نقلها اليّ شخص مطّلع ، وأنا ...

قال جبريل آرداليونوفتش :

ـ معذرة يا سيد كيللر ، دعني أكمل كلامي • أعدك بأننا سنتكلم عن مقالتك في الوقت المناسب ، فتقدم الينا عندئذ ما لديك من تفسيرات • أما الآن فالأفضل أن نتبع تسلسل العرض • لقد حصلت ، بمصادفة محض وبمعاونة أختي باربارا آرداليونوفنا بتسينا ، حصلت من صديقتها الحميمة فيرا ألكسيفنا زوبكوفا ، وهي أرملة صاحبة أملاك ، على رسالة كان المرحوم نيقولاي آندريفتش بافلشتشيف قد كتبها اليها منذ أربعة وعشرين عاماً حين كان في الخارج • وبعد أن اتصلت بفيرا ألكسيفنا اتجهت، عملاً باشاراتها ، الى كولونيل محال على التقاعد اسمه تيموني فيدوروفتش فيازوفكين ، وهو واحد من أقرباء المرحوم كان صديقاً حميماً له • فاستطعت أن أحصل منه على رسالتين أخريين من نيقولاي آندريفتش مكتوبتين من الخارج هما أيضاً • ان المقابلة بين التواريخ والوقائع المذكورة في هذه الوثائق الثلاث تثبت بدقة رياضية لا تدع مجالاً لأي اعتراض أو أي شك ، أن نيقولاي آندريفتش عاش في ذلك الأوان بالخارج خلال ثلاث سنين ، وأن سفره الى الخارج انما تمّ قبل ولادتك بسنة ونصف سنة على وجه الدقة يا سيد بوردوفسكي • وأنت تعلم أن أمك لم تخرج من روسيا طول حياتها ••• ولن أقرأ لك الآن تلك الرسائل لأننا في ساعة متأخرة ، ولكنني أقرر الواقعة فحسب • فاذا شئت يا سيد بوردوفسكي أن نلتقي غداً عندي ، بحضور شهودك (وليكن عددهم ما شئت !) وأن تجيء بخبراء في الخطوط ، فلسوف تضطر الى التسليم بالحقيقة البديهية التي أذكرها لك • اني من هذا لعلى يقين• ومتى سلّمت بهذه الحقيقة، سقطت القضية كلها من تلقاء نفسها طبعاً •

استولت على جميع الحضور ، من جديد ، حركة انفعال عميق • ونهض بوردوفسكي عن كرسيه فجأة • وقال :

ـ اذا كان الأمر كذلك فقد خُدعت اذن ، نعم خُدعت ، ولكن ليس

تشيباروف هو الذى خدعنى ، ويرجع هذا الى زمن بعيد ، بعيد جداً ! لا أريد خبراء فى الخطوط ، ولن أجىء اليك . اننى أصدّقك . وأتنازل عن دعواى ... وأرفض العشرة آلاف روبل ... استودعكم الله !..

قال بوردوفسكى ذلك وهو يتناول قبعته ، ويدفع كرسيّه ، ويهمُّ أن يخرج .

فقال له جبريل آرداليونوفتش بلهجة تصطنع الرقة والعذوبة :

ـ ابق قليلاً ، ولو خمس دقائق ، اذا كنت تستطيع ذلك ، يا سيد بوردوفسكى . ان هذه القضية تكشف أيضاً عن أمور خطيرة الشأن جداً ، ولا سيما بالنسبة اليك ، وهى على كل حال أمور تبلغ غاية الطرافة . وفى رأيى أنك لا تستطيع أن تستغنى عن معرفة هذه الأمور ، وقد تغبط نفسك على أنك جلوت المسألة كلها وأخرجتها الى النور ...

جلس بوردوفسكى دون أن يقول كلمة واحدة ، جلس مائلاً برأسه الى أمام ، على وضع انسان مستغرق فى التفكير أعمق الاستغراق. وجلس أيضاً ابن أخت ليبديف الذى كان قد قام ليخرج معه . لقد كان يبدو عليه الاضطراب والتشوش ، وان لم يفقد هدوء الأعصاب ولا هيئة الوقاحة . وكان هيبوليت مظلم الوجه حزين النفس ، مصعوقاً بعض الشىء ، هذا الى أن نوبة من سعال قد استبدت به فى تلك اللحظة وبلغت من القوة أن منديله تلطخ كله بالدم . وبدت على الملاكم امارات الانشداه ، وهتف يقول مخاطباً بوردوفسكى بلهجة فيها مرارة :

ـ آ ... ألم أقل لك يا آنتيب ... منذ مدة ... أمس الأول ... ان من الجائز فعلاً أن لا تكون ابن بافلشتشيف !

فاستُقبل هذا الاعتراف بضحكات مخنوقة . وعجز اثنان أو ثلاثة عن كظم شعورهما فانفجروا يضحكون فى قهقهة مجلجلة .

تابع جبريل آرداليونوفتش كلامه فقال :

ـ ان لهذا الأمر اليسير الذي كشفت لنا عنه الآن يا سيد كيللر لقيمةً كبيرة . وفي وسعي أن أؤكد مع ذلك ، بناءً على أدق المعلومات ، أن السيد بوردوفسكي ، على علمه الكامل بتاريخ ميلاده ، كان يجهل أن بافلشتشيف كان مقيماً في تلك الآونة بالخارج ، حيث قضى الشطر الأكبر من حياته دون أن يعود الى روسيا الا فترات قصاراً . ثم ان تلك السفرة كانت أهون شأناً في ذاتها من أن تحفظها ، بعد انقضاء أكثر من عشرين عاماً عليها ، ذاكرةُ أقرب المقرَّبين الى بافلشتشيف من أصدقائه ، ناهيك عن ذاكرة السيد بوردوفسكي الذي لم يكن قد وُلد في ذلك الأوان . صحيح أن تقصِّي أمر تلك الرحلة الى الخارج لا يبدو متعذراً أو مستحيلاً ، ولكن يجب أن أعترف أن جهود التقصي التي بذلتها أنا كان يمكن أن لا تؤدي الى نتيجة ، وان المصادفة هي التي يسَّرت لي جمع ما جمعته من معلومات ، بحيث كان يمكن أن لا تثمر مثل تلك الجهود ، وأن لا يكون لها أي حظ من النجاح ، لو قام بها السيد بوردوفسكي ، أو حتى تشيباروف ، هذا اذا خطر ببالهما أن يفعلا ذلك . ولكن من الجائز أن ذلك لم يخطر لها ببال ...

قاطع هيبوليت يقول في غضب :

ـ اسمح لي يا سيد ايفولجين ، علام هذا اللغو الطويل كله ؟ (معذرةً !) . لقد أصبحت القضية واضحة وعرفنا جوهر الأمر . فلماذا هذا الالحاح المؤلم الجارح ؟ أم تُراك تريد الافتخار ببراعتك فيما قمت به من بحوث ، وتريد أن تُظهر الأمير وتظهرنا على ما تملك من مواهب الباحث المتقصي والمحقق المتحري ؟ أم أنت تريد أن تعذر بوردوفسكي وأن تبرئه بالبرهنة على أن الجهل هو الذي قاده الى هذه الحالة ؟ ولكن هذه وقاحة أيها السيد العزيز ! ان بوردوفسكي ليس في حاجة الى ان

تتفضل عليه بالتبرئة ، فاعلم ذلك ! هذه اهانة له ، ما أغناه عن هذا وهو فيما هو فيه الآن من وضع مؤلم محرج . كان عليك أن تدرك هذا ، وأن تفهمه ...

قال جبريل آرداليونوفتش مقاطعاً :

ـ طيب يا سيد تيرنتيف ! كفى ! هدىء روعك ! لا تندفع كثيراً ! أعتقد أنك مريض جداً ، أليس كذلك ؟ انني أشاطرك ألمك . لقد أنهيت كلامي ، اذا كنت تريد ذلك ! أو قل انني مستعد لأن أختصر الوقائع التي كان لا يخلو من فائدة ، في رأيي ، أن تُعرف كاملةً ...

أضاف ايفولجين ذلك وقد لاحظ في الحضور حركة تشبه أن تكون رغبة في الاستماع اليه . وتابع كلامه فقال :

ـ فمن أجل أن أنير الأشخاص الذين يهتمـون بهذه القضية انما أحرص على أبيِّن ، والبراهين في يدي ، أن أمك يا سيد بوردوفسكي قد حظيت من بافلشتشيف بأنواع من الرعـاية والعنـــاية لأنها كانت أخت خادمةٍ شابة من بلد نيقولاي آندريفتش ، خادمةٍ أحبها في شبابه الأول وكان يمكن أن يتزوجها حتماً لولا أنها ماتت فجأة . انني أملك براهين ثابتة على هذه الواقعة التي لا تُعرف الا قليلاً بل قل نُسيت نسياناً تاماً . هذا وأستطيع أن أشرح لك كيف كفل السيد بافلشتشيف أمك حين لم يكن عمرها الا عشر سنين فأنفق على تعليمها ووقف لها مهراً كبيراً . ان عـلامات التعلق هـذه قد ولَّدت بعض المخـاوف لدى أقـرباء السـيد بافلشتشيف ، وهم كثيرون جداً ، حتى ظن بعضهم أن الرجل سيتزوج الفتاة التي كفلها . ولكن أمك حين بلغت العشرين من عمرها تزوجت موظفاً بمصلحة المساحة اسمه بوردوفسكي ، زواجاً قائماً على الميل، وهذا كله أستطيع أن آتي ببراهين عليه . وقد جمعت كذلك بيانات دقيقة توضح أن أباك ، السيد بوردوفسكي ، الذي لم يكن يملك أي موهبة تمكنه من

النجاح فى الأعمال الحرّة ، قد بادر الى ترك الوظيفة بعد قبض مهر أمك، وهو خمسة عشر ألف روبل ، واندفع فى مشروعات تجارية ، فخُدع وفقد رأس ماله ، ثم لم يستطع تحمل هذه الضربة فأخذ يشرب ، فدمَّر بذلك صحته ومات قبل الأوان ، بعد زواجه بسبع سنين أو ثماني سنين . وقد شهدت أمك نفسها أنها عاشت فى أعقاب موت أبيك حياة فقر مدقع وعوز شديد ، حتى لقد كان يمكن أن تضيع لولا المساعدة السخية الكريمة المتصلة التى قدَّمها اليها بافلشتشيف اذ خصَّها بايراد سنوى قد يبلغ ستمائة روبل . وهناك شهادات لا حصرَ لها تدل على أن بافلشتشيف قد محضك منذ طفولتك أشد العطف وأكبر الحنان . ويُستدل من تلك الشهادات ، وقد أيدتها أمك ، على أن سبب ذلك العطف وذلك الحنان هو فى الدرجة الأولى أنك كنت فى طفولتك الأولى عيَّ اللسان ضعيف الجسم هزيلاً نحيلاً ، وكان بافلشتشيف طوال حياته ـ وأنا أملك البرهان على ذلك ـ يشعر بعطف خاص على أولئك الذين أساءت الأقدار أو أساءت الطبيعة معاملتهم ، ولا سيما اذا كانوا أطفالاً . وفى رأيى أن لهذه الخاصة شأنها الكبير فى القضية التى تهمنا الآن . وأستطيع أخيراً أن أتباهى باننى حققت اكتشافاً رئيسياً هو الاكتشاف التالى : ان العاطفة القوية التى كان يحملها لك بافلشتشيف (والتى بفضلها دخلتَ المدرسة وتابعت تعليمك باشراف ادارة خاصة) قد جعلت أقرباءه وأصدقاءه يتصورون شيئاً فشيئاً أنك قد تكون ابنه ، وأن أباك الشرعى قد لا يكون الا زوجاً خانته امرأته. غير أن من الضرورى أن نضيف الى ذلك أن هذا التصور لم يبلغ من القوة حدَّ الاقتناع الكامل الشامل الا فى السنين الأخيرة من حياة بافلشتشيف ، حين أخذ المحيطون به يخشون أن يكتب وصيته بينما كانت الوقائع الأولى قد نُسيت وبينما كانت التحريات قد أصبحت مستحيلة . ولعل هذا الظن قد وصل الى مسامعك يا سيد بوردوفسكى ولعله استولى على فكرك .

وكانت أمك ، التى تشرفت بمعرفتها شخصياً ، على علمٍ بهذه الشائعة أيضاً ، ولكنها ما تزال تجهل أنك صدقت هذه الشائعة أنت ابنها (أخفيتُ أنا عنها ذلك) . يا سيد بوردوفسكى ، لقد وجدت أمك المحترمة ، فى بسفوك ، مريضةً معوزةً أشد العوز بعد وفاة بافلشتشيف . وقد أعلمتنى، ودموعُ الاعتراف بالجميل تملأ عينيها ، أنها اذا كانت ما تزال تعيش ، فانما هى تعيش بفضلك وبفضل مساعدتك . وهى تعقد على مستقبلك آمالاً كباراً ، وتؤمن ايماناً حاراً بأنك ستنجح ... » .

نفد صبر ابن أخت ليديف فصاح يقول :

ـ هذا يتجاوز كل حد أخيراً ! ما فائدة هذه القصة الروائية كلها ؟

وتحمس هيبوليت فقال :

ـ هذه وقاحة مثيرة !

ولكن بوردوفسكى لم يقل كلمة ، بل لم يتحرك .

وردّ جبريل آرداليونوفتش وهو يبتسم ابتسامةً ماكرة ويتهيأ لخاتمة قارصة ، فقال :

ـ ما فائدة هذا ؟ فائدته أولاً أن يستطيع السيد بوردوفسكى الآن أن يقتنع بأن بافلشتشيف قد أحبه مدفوعاً لا بغريزة الأبوة بل بعظمة النفس . فهذه الواقعة وحدها كانت تتطلب أن تُقرَّر ما دام السيد بوردوفسكى قد أكد وأيّد منذ قليل ، بعد قراءة المقالة ، مزاعم السيد كيللر . أقول هذا لأننى أعدك رجلاً مهذباً يا سيد بوردوفسكى . وفائدة ذلك ثانياً أنه قد اتضح الآن أن نية النصب والاحتيال لم يكن لها وجود حتى عند تشيباروف . اننى أحرص على الالحاح على هذه النقطة ، ذلك أن الأمير قد قال منذ لحظة ، أثناء احتدام المناقشة ، اننى أشاطره شعوره بأن فى هذه القضية المشئومة محاولة غش ونصب واحتيال . بالعكس : ان الجميع هنا كانوا صادقين . قد يكون تشيباروف محتالاً كبيراً ، ولكنه فى

الحالة الراهنة لم يكن الا رجلاً بارعاً ومحامياً محترفاً ومشاكساً لجوجاً. كان يأمل أن يربح مالاً كثيراً من حيث هو محام ، وكان حسابه لا يتصف بالبراعة فحسب ، بل يتصف كذلك بأنه يقوم على أساس قوى : لقد كان يعتمد على ما يتميز به الأمير من أنه رجل سهل العطاء ، ومن أنه يقدس ذكرى المرحوم بافلشتشيف ، ومن أنه أخيراً (وخاصةً) يفهم واجبات الشرف والتزامات الضمير فهماً فروسياً . أما السيد بوردوفسكى فيمكن أن نقول عنه انه بسبب بعض اقتناعاته ، قد انقاد لتأثير تشيباروف وتأثير المحيطين به انقياداً جعله يتورط فى هذا الأمر بدون أية منفعة شخصية تقريباً ، وانما لخدمة قضية الحقيقة والتقدم والانسانية بمعنى من المعانى . أما وقد انجلت الآن جميع الوقائع ، فمن الواضح أن السيد بوردوفسكى رجل صادق رغم جميع المظاهر ، ففى وسع الأمير أن يعرض عليه مساعدته الودية ومعونته الفعلية التى عرضها عليه منذ قليل بمناسبة كلامه عن المدارس وعن بافلشتشيف ، بل فى وسعه أن يعرضها عليه الآن بمزيد من طيب الخاطر وطوع الارادة .

صاح الأمير يقول بلهجة فيها ذعر صادق :

ـ قف يا جبريل آرداليونوفتش ! اسكت !

ولكن الأوان كان قد فات . فها هو ذا بوردوفسكى يصرخ قائلاً فى حنق شديد :

ـ قلت ... قلت ثلاث مرات اننى أرفض هذا المال . لا ... لن آخذه ... لماذا آخذه ؟ أنا لا أريده ! اننى ذاهب ...

قال ذلك وركض على الشرفة ، فأدركه ابن اخت ليبديف وأمسكه من ذراعه وهمس له ببعض الكلام . فعاد عندئذ مسرعاً ، فاستل من جيبه ظرفاً كبيراً غير مفضوض ورماه على منضدة صغيرة كانت بقرب الأمير ، قائلاً :

ـ اليك المال !... ما كان ينبغي لك أن تجرؤ على أن تقدمه الىّ ! اليك المال !...

وقال دكتورنكو شارحاً :

ـ هي الروبلات المائتان والخمسون التي أبحت لنفسك أن ترسلها اليه صدقةً بواسطة تشيباروف .

قال كوليا متعجباً :

ـ المقالة لا تشير الا الى خمسين روبلاً !

قال الأمير وهو يقترب من بوردوفسكي :

ـ أنا آثم في حقك، أنا آثم جداً في حقك يابوردوفسكي. ولكنني لم أرسل اليك هذا المبلغ صدقةً . صدّقني . وما زلت آثما في حقك حتى الآن ... أثمت في حقك منذ قليل (كان الأمير مشوشاً مضطرباً ؛ كان يبدو متعباً موهناً ، وكانت أقواله مفككة) . لقد تكلمت عن غش ونصب واحتيال .. .ولكن ذلك لا يتناولك أنت . انني أخطأت . قلتُ انك مريض مثلي ... مثلي . ولكن لا ، ما أنت مثلي . أنت تعطي دروساً ، وأنت تساعد أمك . ولقد قلت انك لطخت شرف أمك ، والحقيقة أنك تحبها . هي نفسها تقول ذلك ... لم أكن أعلم ... لم يحدثني جبريل آرداليونوفتش عن هذا كله من قبل . انني أخطأت . وقد تجرأت فعرضت عليك عشرة آلاف روبل ، فكان هذا مني اساءة . كان ينبغي لي أن أتدبر الأمر بطريقة أخرى ... وقد أصبح هذا مستحيلاً الآن ، لأنك تحتقرني ...

قالت اليزابت بروكوفيفنا :

ـ هذا مستشفى مجانين !

فقالت آجلايا مؤيدةً وقد أصبحت لا تستطيع السيطرة على نفسها وكبح جماح غضبها :

ـ هو حتماً مستشفى مجانين !

ولكن كلماتها ضاعت في خضم لغط شامل وجلبة كاملة . الجميع يتكلمون الآن ويتناقشون بصوت عالٍ . فبعضهم يتشاجرون ، وبعضهم يضحكون . وكان ايفان فيدوروفتش ايبانتشين ساخطاً حانقاً ، ينتظر اليزابت بروكوفيفنا انتظار رجل أسيء الى مهابته وأهينت كرامته . وأراد ابن أخت ليديف أن يدس كلمة أخيرة ، فقال :

ـ طيب يا أمير ! يجب أن ننصفك فنعترف لك بأنك تحسن الاستفادة ... من مرضك (اذا أردنا أن نستعمل كلمة مهذبة) . لقد بلغت من الحذق والبراعة في عرض صداقتك ومالك أنه أصبح يستحيل على رجل شريف أن يقبلهما في أية صورة من الصور ، وعلى أي شكل من الأشكال ... هذا افراط في السذاجة أو افراط في المكر ... أنت أدرى بذلك من أي انسان على كل حال .

هتف جبريل آرداليونوفتش يقول ، وكان في أثناء ذلك الوقت قد فضَّ الظرف الذي يضم المال :

ـ اسمحوا لي يا سادة : ليس في الظرف مائتان وخمسون روبلاً ، بل مائة روبل فحسب . انني أذكر هذا يا أمير تحاشياً لكل التباس قد يؤدي الى سوء تفاهم !

قال الأمير لجبريل آرداليونوفتش وهو يحرك يده باشارة تململ :

ـ دع هذا ! دع هذا !

فأسرع ابن أخت ليديف يردُّ بقوله :

ـ لا ، لا تدع هذا ! ان قولك « دع هذا » فيه اهانة لنا يا أمير ! اننا لا نتخفى ، اننا نتكاشف صراحة : نعم ، ليس فى الظرف الا مائة روبل لا مائتان . ولكن الأمرين واحد . أليس الأمران واحداً ؟

أجاب جبريل آرداليونوفتش بلهجة فيها دهشة ساذجة :

ـ لا ، ليس الأمران واحداً !

فصرخ ابن اخت ليديف يقول غاضباً حانقاً :

ـ لا تقاطعني . لسنا أغبياء الى الحد الذى تظن يا سيادة المحامى . واضح أن مائة روبل ليست مائتين وخمسين روبلاً . لكن الشيء الهام هنا انما هو المبدأ . أما أن ينقص المبلغ مائة وخمسين روبلاً فذلك أمر تفصيلي . ان الشيء الأساسي هو أن بوردوفسكي لا يقبل صدقتك وأنه يرميها في وجهك أيها الأمير العظيم ! فمن هذه الناحية ، وعلى هذا الأساس يستوى أن يردَّ مائةً وأن يردَّ مائتين وخمسين . لقد رأيت بنفسك منذ قليل أنه رفض عشرة آلاف . ولولا أنه رجل شريف لما ردَّ حتى هذه المائة روبل ! ان المائة وخمسين روبلاً الناقصة انما دُفعت لتشيباروف لقاء نفقات سفره حين مضى يلقى الأمير . لك أن تسخر من خراقتنا ومن جهلنا فى شئون الأعمال . وقد بذلت قصاراك لتتندَّر بنا وتضحك علينا فى كل حال . ولكن لا تسمحنْ لنفسك بأن تقول اننا أناس غير شرفاء ! أيها السيد العزيز ، نحن مسئولون جميعاً عن دفع المائة وخمسين روبلاً للأمير ، نعم ، سوف نرد اليه المبلغ كاملاً مع الفوائد ولو اضطررنا أن نرده روبلاً روبلاً . ان بوردوفسكي فقير . ما هو بالمليونير . وقد قدم اليه تشيباروف فاتورة الحساب بعد رحلته . وكنا نأمل أن نربح ... من ذا الذى يمكن أن لا يفعل الذى فعل ، لو كان فى مكانه ؟

صاح الأمير « شتش ... » يقول :

ـ يا له من سؤال !

وهتفت اليزابت بروكوفيفنا :

ـ أمور تدفع المرء الى الجنون !

وقال أوجين بافلوفتش ضاحكاً ، وكان قد ظل يلاحظ المشهد مدة طويلة دون أن يتحرك :

ـ هذا يذكّر بالمرافعة التى ألقـاها فى الآونة الأخيرة محامٍ شـهير كان موكّله قد قتل ستة اشخاص ليسرقهم . لقد أشار المحامى الى الفقر ليبرر الجريمة ، وختم كلامه بهذه الكلمات تقريباً : « واضح أن الفقر هو الذى أنبت فى ذهن موكّلى فكرة قتل أولئك الأشخاص الستة . من ذا الذى يمكن أن لا تنبت هذه الفكرة فى ذهنه لو كان فى مكانه ؟ » . لقد قال المحامى كلاماً من هذا النوع . ومهما يكن من أمر فقد كان استدلاله فى منتهى الطرافة والفكاهة !

قالت اليزابت بروكوفيفنا فجـأة وهى ترتعش أشـد الارتعاش من فرط الغضب :

ـ كفى كفى ! آن لنا أن نضع حداً لهذا اللغو السخيف ، والهذر التافه !

كانت اليزابت بروكوفيفنا فى حالة اهتياج رهيب . وها هى ذى ، وقد ردَّت رأسـها الى وراء ولاحت فى وجهها عـلائم التهـديد ، ترشق الحضور جميعهم بنظرة تحدٍ واستفزاز ، لا تميِّـز فيهم بين أصدقاء وأعداء. ان حنقها الذى طال كظمه ينفجر أخيراً وينطلق عارماً قوياً . كانت فى حاجة الى أن تقاتل وتعارك ، كانت فى حاجة الى أن تهوى على أى مخلوق بأقصى سرعة . فسرعان ما أدرك الذين يعرفونها أن شـيئاً خارقاً يحدث الآن فى نفسها . لقد قال ايفان فيدوروفتش فى الغد للأمير « شتش .. »

ان هذه النوبات تعتريها أحياناً ، ولكنها قلّما تكون على مثل هذه الدرجة من العنف ـ فلعلها لا تبلغ هذا الحد من القوة الا مرةً كل ثلاث سنين !

صاحت اليزابت بروكوفيفنا تقول :

ـ كفى يا ايفان فيدوروفتش ! دعنى ! لماذا تقدم الىّ ذراعك الآن ؟ انك لم تخرجنى من هذا المكان قبل هذه اللحظة ، وأنت الزوج ورب الأسرة فكان ينبغى لك أن تجرّنى من أذنىّ لو بلغتُ من الحماقة حد الامتناع عن طاعتك واتباعك . كان ينبغى لك أن تفكر فى بناتك على الأقل! لأهتدينّ الى طريقى الآن بدونك ، بعد هذه المهانة التى سأظل أحمر خجلاً منها طوال سنة بكاملها !.. انتظر، علىّ أن أشكر الأمير أيضاً !.. شكراً يا أمير على هذه البهجة العظيمة التى هيأتها لنا ! كيف ارتضيتُ لنفسى أن أبقى هنا لأصغى الى كلام هؤلاء الشبان ؟ يا لها من حطة ! يا لها من حطة !... فوضى ، فضيحة ، جرسة ، لا يرى المرء مثلها حتى فى كابوس ! هل هناك أناس كثيرون من هذا النوع ؟... اسكتى يا آجلايا ! اسكتى يا الكسندرا ! ليس هذا شأنكما !... لا تدر حولى هذا الدوران يا أوجين بافلوفتش ، انك تثير أعصابى !...

وعادت تخاطب الأمير فتقول :

ـ أهكذا اذن يا عزيزى ؟ أنت الذى تستغفرهم ؟ « لا تؤاخذونى على اننى سمحت لنفسى بأن أهدى اليكم ثروة ... هكذا يقول لهم » !..

والتفتت الى ابن أخت ليديف فقالت فجأة :

ـ وأنت أيها الوقح ، ما الذى يضحك ؟ هذا يقول : « نحن نرفض المبلغ المعروض . اننا نطالب ولا نستجدى ! » كأنه لا يعلم أن هذا

الأبله سيمضي يعرض عليهم صداقته وماله منذ الغد ! أليس هذا ما ستفعله يا أمير ؟

أجاب الأمير بصوت رقيق مغلوب :

ـ نعم !

فعادت تهتف قائلة لدكتورنكو :

ـ هل سمعته ؟ ذلك بعينه هو ما تعوّل عليه . لكأن هذا المال فى جيبك منذ الآن . فاذا كنت تتظاهر بالشمم والعظمة ، فانك لا تفعل ذلك الا لتخدعنا ... لا يا عزيزى ، اخدع غيرى ان استطعت . أما أنا فان لى عينين تبصران ... اننى أرى لعبتك !

هتف الأمير :

ـ اليزابت بروكوفيفنا !

فاقترح الأمير « شتش ... » قائلاً وهو يبتسم ويصطنع أكبر الهدوء :

ـ فلننصرف يا اليزابت بروكوفيفنا ! آن الأوان وأكثر ! ولنأخذ الأمير معنا .

كانت الآنسات متنحيات حتى لكأنهن مروّعات . أما الجنرال فكان مروّعاً بالفعل . وكانت الدهشة تُقرأ فى جميع الوجوه . وكان بعض الذين بقوا فى الخلف يضحكون خفيةً ويتهامسون . وكانت هيئة ليديف تعبر عن أقصى الوجد والنشوة .

قال ابن أخت ليديف ، وهو يشعر مع ذلك بغير قليل من الحرج :

ـ الفوضى والفضائح يا سيدتى موجودة فى كل مكان !

فأجابت اليزابت بروكوفيفنا تقول بحنق متشنج :

ـ لا الى هذا الحد ، لا الى هذا الحد !

وأضافت تقول للذين حاولوا أن يهدئوها :

ـ هلاً تركتموني وشأني ! دعوني وشأني !

واتجهت الى أوجين بافلوفتش فقالت :

ـ اذا استطاع محام أن يعلن في المحكمة ، كما ذكرت أنت نفسك منذ هنيهة يا أوجين بافلوفتش ، أنه يرى أن من الطبيعي جداً أن يقتل امرؤ ستة اشخاص بدافع الفقر ، فهذا دليل على اقتراب الساعة . لم أسمع في حياتي شيئاً من هذا القبيل . الآن أصبح كل شيء واضحاً لي . انظروا الى هذا التأتاء مثلاً (قالت ذلك وهي تشير الى بوردوفسكي الذي كان ينظر اليها مشدوهاً) : أهو يتورع عن أن يقتل ؟ أراهن على أنه سيقتل أحداً . قد لا يأخذ العشرة آلاف روبل ، قد يرفضها بشرف واباء، ولكنه ما يلبث أن يعود في الليل ، فيذبحك ويسرق المال من صندوقك بشرف واباء أيضاً ! لن يعدّ ذلك عملاً اجرامياً . سوف يعدّه « نوبة يأس نبيل » ، أو يعدّه « بادرة انكار ورفض » ، أو ما لا أدري أيضاً !.. هه ... العالم مقلوب ، الناس يسيرون على رءوسهم لا على أقدامهم . ان فتاة تربت في منزل أبيها تقفز اليوم الى الشارع قائلة لأمها : « يا ماما ، تزوجت بالأمس فلاناً ، كارلتش أو ايفانتش ، فأستودعكم الله ! » . هل ترون هذا حسناً ؟ هل تعدونه أمراً لائقاً ؟ هل تجدونه شيئاً طبيعياً ؟ أهذه قضية المرأة ؟ انظروا الى هذا الصبي (قالت ذلك مشيرةً الى كوليا) لقد زعم لي منذ مدة أن قضية المرأة هي ذلك بعينه . هب أمك غبيةً حمقاء ! ان هذا لا ينفي أن عليك أن تعاملها معاملة انسانية !... لماذا دخلتم منذ قليل بتحدٍ واستفزاز كأنكم تقولون : « اننا نتقدم ، فلا تتحركوا ! اعطونا جميع الحقوق ولكن اياكم أن تقولوا بحضورنا كلمة واحدة . أحيطونا بجميع أنواع الرعاية والمداراة ، ما تعرفون منها وما لا تعرفون . ولكننا

سنعاملكم نحن كما يعامل أحقر خادم ! » . انهم يسـعون الى الحقيقـة ، ويستندون الى الحق ، ولكن ذلك لا يمنعهم من أن يفتروا على الأمير فى مقالتهم افتراء الكفرة . . ونحن نطالب ولا نستجدى . لن تنالوا منا أية كلمة تعبر عن الشكر ، لأن ما تفعلونه انما تفعلونه لراحة ضميركم أنتم ! » يا لها من أخلاق رائعة ! كيف لا تدرك أنك حين تعفى نفسـك من أى شكر فانما تتيح للأمير أن يجيبك من جهته بأنه غير مضطر أن يشعر بأى امتنان نحو بافلشتشيف ، لأن بافلشتشيف لم يفعل ما فعله ، هو ايضاً ، الا لراحة ضميره . فكيف تعوّل اذن على شـعور الأمير بالامتنان نحـو بافلشتشيف ؟ ان الأمير لم يقترض منك مالاً ، فهو غير مدين لك بشيء . فعلى أى شيء اعتمدت اذا لم تكن قد اعتمدت على ذلك الشعور بالامتنان ؟ ولماذا ترفض اذن ذلك الشعور ؟ ألا ان هذا لضلال ! هؤلاء أناس يتهمون المجتمع بالقسوة والتجرد من الانسانية لأنه يجلل بالعار فتاةً أُغويت ؟ وهم حين يفعلون ذلك يعترفون بأن الفتاة المسكينة تتألم من المجتمع . فكيف يجيزون لأنفسهم ، والحالة هذه ، أن يذيعوا خطيئتها بواسطة الجرائد على أشرار الناس وأن يدعوا أنها لن تتألم من هذا التشهير بها ؟ ألا ان ذلك لجنون ! ألا ان ذلك لتبجح وادعـاء ! انهم لا يؤمنون بالله ولا بالمسيح . ولكن الغرور والصلف يأكلان نفوسهم أكلاً ، ولينتهينّ بهم الأمر الى أن يلتهم بعضهم بعضاً . أنا أقول لكم ذلك . أنا أتنبأ لكم به ! أليس هذا جنوناً وفوضى وجرسة ؟ وانظروا من بعد الى هذا الرجل الذى لا حياء له ، الى هذا الرجل الذى يستغفرهم ! هل يوجد أناس كثيرون من أمثالكم ؟ أتضحكون ساخرين ؟ ألأننى أذللت نفسى بالتورط فى الكلام معكم ؟ نعم ، لقد أذللت نفسى بذلك حقاً ، ولا سبيل الى اصلاح الأمر ... أما أنت ، أيها التـافه الذى لا يصلح لشيء (وجّهت هذا الكلام الى هيـوليت) ، فاننى أنهاك عن الضحك منى ! انه لا يكاد يستطيع التنفس ، ولكنه يفسد

الآخرين • لقد أفسدت لي هذا الصبي (قالت ذلك مشيرةً الى كوليا من جديد) • فهو لا يحلم الا بك • انك تلقنه الالحاد • أنت لا تؤمن بالله ، مع أنك ما تزال ، أيها السيد الصغير ، في سنٍ يجوز فيها جلدك !•• على كل حال ، اذهبوا جميعاً الى جهنم ! يا ليون نيقولايفتش ، أصحيح حقاً أنك ستذهب اليهم غداً ؟ أتذهب اليهم فعلاً ؟

ألقت على الأمير هذا السؤال وهي تكاد تختنق غيظاً • فأجابها الأمير بقوله :

ـ نعم ، سأذهب •

ـ اذا صدق هذا فلا أريد أن أعرفك بعد اليوم !

وهمّت بالانصراف فجأة ، ولكنها لم تلبث أن التفتت تسأله وهي تشير الى هيبوليت :

ـ أتذهب الى هذا الملحد أيضاً ؟

وأضافت صائحة تقول بصوت غير معهود فيها ، وقد هجمت على هيبوليت الذي أخرجتها ضحكته الساخرة عن طورها :

ـ مالي أراك كمن يسخر مني ؟

فصاحت أصوات تناديها من كل جهة :

ـ اليزابت بروكوفيفنا ! اليزابت بروكوفيفنا !

وهتفت آجلايا تقول بصوت قوي :

ـ ماما ! ••• هذا عيب !•••

كانت اليزابت بروكوفيفنا قد وثبت على هيبوليت فأمسكت ذراعه تشدها شداً قوياً بحركة مندفعة ، وتتفرس في وجهه بنظرة تفيض حنقاً وسخطاً •

قال هيبوليت بهدوء ورصانة :

ـ لا تجزعي يا آجلايا ايفانوفنا، لسوف تدرك أمك أن المرء لا يهجم على مريض يُحتضر ... واني لمستعد على كل حال لأن أشرح لها لماذا كنت أضحك ... سوف يريحني كثيراً أن أفلح في أن ...

غير أن نوبة سعال رهيب قد اعترته فجأة ولم يستطع أن يكبحها .

هتفت اليزابت بروكوفيفنا تقول وهي تترك ذراع هيبوليت وتنظر اليه ، مذعورةً بعض الذعر ، حين رأته يمسح الدم الذي طفر الى شفتيه :

ـ محتضر لا يكف عن القاء خطب ! ماذا تريد أن تقول ؟ أوْلى بك أن تمضي الى فراشك فترقد ...

أجابها هيبوليت قائلاً بصوت ضعيف محجوب يشبه أن يكون همساً :

ـ ذلك ما سأفعله . فما ان أصل الى البيت حتى أرقد في فراشي . سأموت بعد خمسة عشر يوماً ، أنا أعرف ذلك . ان الدكتور « ب .. ن » نفسه قد أعلن لي هذا في الاسبوع الماضي . لذلك سأودعكم بكلمتين ، اذا أذنت لي .

صاحت اليزابت بروكوفيفنا تقول مروَّعة :

ـ أحسب أنك فقدت عقلك ! ما هذه الحماقة ؟ عليك أن تعالج نفسك . ليس الوقت وقت أحاديث وخطب . امض امض الى سريرك !..

قال هيبوليت مبتسماً :

ـ سأرقد في سريري ... وسأرقد رقاداً لا قيام بعده . أمس أردت أن أرقد منتظراً الموت ، ثم أمهلت نفسي يومين ما دامت ساقاي تستطيعان أن تحملاني ... بغية أن أجيء معهم اليوم الى هنا ... ولكنني تعبت حقاً ...

قالت له اليزابت بروكوفيفنا وهى تقدم اليه بنفسها كرسياً :

ـ فاجلس اذن ! اجلس ! لماذا تبقى واقفاً ؟

قال هيبوليت بصوت منطفىء :

ـ شكراً . اجلسى أمامى ولنتحدث ... يجب أن نتحدث حتماً يا اليزابت براكوفيفنا ... اننى أصرّ على هذا الآن ... (أضاف ذلك مبتسماً من جديد) . لاحظى أن هذا اليوم هو آخر يوم أقضيه فى الهواء الطلق بين الناس . وبعد خمسة عشر يوماً سأكون تحت التراب حتماً . فهذا اذن وداع للبشر وللطبيعة بمعنى من المعانى . انه ليسرنى جداً ، رغم اننى لست عاطفياً كثيراً ـ هل تصدقين ؟ ـ أن يتم هذا فى بافلوفسك ؛ فهنا أرى الخضرة والاشجار على الأقل ...

قالت اليزابت بروكوفيفنا وكان ارتياعها يزداد دقيقة بعد دقيقة :

ـ أهذا أوان الاكثار من الكلام ؟ انك تعانى حمى شديدة . منذ قليل كنت تصيح صياحاً قوياً ، كنت تعول اعوالاً شديداً . وهأنت ذا الآن لا تكاد تستطيع أن تتنفس .

ـ لن أتأخر عن الخلود الى الراحة . لماذا لا تريدين أن تستجيبى لرغبتى القصوى ؟... هل تعلمين أننى أحلم منذ مدة طويلة بأن ألقاك يا اليزابت بروكوفيفنا ؟ لقد سمعت عنك كثيراً ... من كوليا ... الذى هو الشخص الوحيد الذى لم يهجرنى ... الشخص الوحيد تقريباً ... أنت امرأة أميل الى الطرافة والغرابة والتفرد ... أدركت هذا الآن ... هل تعلمين أننى أحببتك بعض الحب ؟...

ـ رباه ! ما كان أغبانى حين أوشكت أن أضربه !

ـ ان آجلايا ايفانوفنا ، اذا لم يخطىء ظنى ، هى التى نهتك عن

ذلك ! أليست هى ابنتك آجلايا ايفانوفنا ؟ انها تبلغ من الجمال انني ما ان أبصرتها هنا حتى عرفتها ، رغم انني لم أكن قد رأيتها قبل اليوم قط .

وأردف هيبوليت يقول وهو يبتسم ابتسامةً خرقاء مرتبكة :

ـ دعي لى على الأقل أن أتأمل الجمال لآخر مرة فى حياتى ! أنت هنا مع الأمير ، ومع زوجك ، ومع حفل بكامله . فلماذا ترفضين أن تلبى آخر رغبة لى ؟

صاحت اليزابت بروكوفيفنا تقول :

ـ اعطونى كرسياً !

ولكنها لم تنتظر أن يعطيها أحد كرسياً ، بل تناولت بنفسها مقعداً من المقاعد وجلست قبالة هيبوليت . ثم قالت تأمر كوليا :

ـ كوليا ، اصحبه الى البيت فى الحال ؛ وغداً لن يفوتنى أنا نفسى أن ...

ـ اذا أذنت لى ، طلبتُ من الأمير فنجان شاى . انني أشعر بتعب شديد . ألم تكونى تريدين ، يا اليزابت بروكوفيفنا ، أن تصطحبى الأمير الى بيتك لاحتساء الشاى ؟ فابقوا اذن هنا ، ولنقض لحظةً معاً . لا شك أن الأمير سيأمر لنا جميعاً بشاى . اغفرى لى تصرفى هذا ... ولكننى أعلم أنك طيبة القلب نبيلة النفس . وكذلك الأمير ... نحن جميعاً طيبون الى درجة تبعث على الضحك ...

تحرّك الأمير . وخرج ليبديف من الشرفة راكضاً ، وأسرعت فيرا تتبعه .

قالت الجنرالة فجأة :

ـ أنت على حق . تكلم ، ولكن فى رفق وهدوء ، ولا تدع للهيجان سبيلاً الى نفسك . لقد أثرت حنانى ... يا أمير ، ما كنتَ لتستحق أن

أشرب الشاى فى بيتك ، ولكننى أبقى مع ذلك ، دون أن اعتذر لأحد . نعم ، دون أن أعتذر لأحد ! والا كان ذلك منى سخفاً ! على كل حال ، اذا كنت قد أسأت معاملتك يا أمير ، فاننى اعتذر اليك وأطلب مغفرتك ، اذا أنت أردت طبعاً !

ثم أضافت تقول لزوجها وبناتها بلهجة حانقة كل الحنق كأنها حاقدة عليهم من اساءة كبيرة ألحقوها بها :

ـ ولست أجبر أحداً أن يبقى معى ، فاننى أستطيع أن أرجع الى البيت وحدى ...

ولكنهم لم يدعوها تتم كلامها ، بل اسرعوا يقتربون منها ، ويحيطون بها ، ويسعون حولها . وما لبث الأمير أن رجا الجميع أن يبقوا لاحتساء الشاى ، واعتذر عن أنه لم يبادر الى هذا من قبل . حتى الجنرال ايبانتشين هش وبش فقال بضع كلمات تطيِّب الخواطر وتهدىء النفوس ، وسأل اليزابت بروكوفيفنا أليست تشعر فى الشرفة بشىء من البرد ، حتى لقد هم أن يسأل هيبوليت منذ متى التحق بالجامعة ، ولكنك أمسك . وامتلأ أوجين بافلوفتش والأمير « شتشـ ... » مرحاً وفرحاً على حين فجأة . وعبَّر وجها آديلائيد وألكسندرا عن السرور والرضى رغم احتفاظهما بمعنى الدهشة والتعجب . الخلاصة أن الجميع قد أسعدهم اسعاداً واضحاً أن نوبة الغضب التى اعترت اليزابت بروكوفيفنا قد انقضت بسلام ، الا آجلايا وحدها ، فقد ظلت عابسة الوجه صامتة متنحية . وبقى سائر أفراد الجمع ، لم يشأ أحد منهم أن ينصرف ، حتى الجنرال ايفولجين . ولكن ليديف همس يقول له شيئاً لا بد أنه لم يرضه ، فغاب فى ركن من الأركان .

واقترب الأمير من بوردوفسكى وصحبه يدعوهم الى احتساء الشاى دون أن يستثنى أحداً . فجمجموا يقولون بصوت أجش انهم

ســوف يتنظرون هيبوليت ، ثم أسرعـوا ينسحبون الى زاوية من الشرفة حيث جلسوا جنباً الى جنب •

لا بد أن ليبديف كان قد أمر باعداد الشاى لأصحابه منذ مدة طويلة، لأن الشاى قد قُدِّمت فوراً •

ودقت الساعة الحادية عشرة •

الفصل العاشر

بلل هيوليت شفتيه بفنجان الشاى الذى قدمته اليه فيرا ليديفا ، ثم وضع الفنجان على منضدة صغيرة، ثم ألقى على ما حوله نظرة محرجة مرتبكة تكاد تكون زائغة .

وقال متدفقاً :

ـ انظرى الى هذه الفناجين يا اليزابت بروكوفيفنا . انها من خزف، بل هى من أجمل الخزف فيما أظن . ان ليديف يحتفظ بها دائماً فى خزانة صغيرة وراء زجاج ... ولا يستعملها قط ... لا شك فى أنها كانت جزءاً من مهر زوجته ... وقد أخرجها اليوم تكريماً لك من غير شك .. فالى هذا الحد وصل سروره واغتباطه ...

أراد هيوليت أن يضيف شيئاً آخر ، لكن الكلمات لم توافه .

فهمس أوجين بافلوفتش يقول فى اذن الأمير :

ـ ها هو ذا يضطرب ويرتبك ... لقد كنت أتوقع ذلك . هذا خطر ، أليس صحيحاً ؟ تلك علامة ثابتة على أن خبث نفسه وسوء سريرته سيوحيان اليه تصرفاً يبلغ من الشذوذ أن اليزابت بروكوفيفنا نفسها لن تطيق احتماله .

ألقى عليه الأمير نظرة سائلة مستفهمة . فتابع أوجين بافلوفتش كلامه فقال :

ـ ألا تخشى التصرفات الشاذة ؟ أنا أيضاً لا أخشاها ... حتى انني أتمناها ، على الأقل عقاباً لصاحبتنا الطيبة البزابت بروكوفيفنا . يجب أن تنال هذا العقاب فى هذا اليوم نفسه . لا أريد أن أنصرف قبل ذلك . أتراك مصاباً بحمى ؟

أجاب الأمير ذاهل الهيئة متململاً :

ـ سأجيبك فيما بعد . لا تمنعنى من الاصغاء .

كان الأمير قد سمع اسمه يُذكر . ان هيبوليت يتحدث عنه . فهو يقول ضاحكاً ضحكاً عصبياً :

ـ ألا تصدّقين هذا ؟ كنت أتوقع أن لا تصدّقيه . أما الأمير فسوف يصدقنى دفعةً واحدة ، ولن يدهَش البتة .

قالت اليزابت بروكوفيفنا وهى تلتفت اليه :

ـ أتسمعه يا أمير ؟ أتسمعه ؟

وكان الجمع يضحكون من حولهم . وكان ليبديف يصطنع هيئة القلق ويدور أمام الجنرالة .

ـ هو يدعى أن هذا المهرِّج مؤجِّرَك قد راجع مقالة هذا السيد ، أعنى المقالة التى قُرئت لك هذا المساء والتى تتناولك .

نظر الأمير الى ليبديف مدهوشاً .

واستأنفت اليزابت بروكوفيفنا كلامها وهى تضرب الأرض بقدمها قائلة :

ـ ما بالك تصمت ؟

فدمدم الأمير يقول وهو ما يزال يحدق الى ليبديف :

ـ انى لأرى أنه قد راجع المقالة حقاً .

فالتفتت اليزابت بروكوفيفنا نحو ليديف بقوة وسألته :

ـ أهذا صحيح ؟

فقال ليديف بثقة تامة وهو يضع يده على قلبه :

ـ هذه هي الحقيقة بعينها يا صاحب السمو .

فصاحت الجنرالة تقول وقد وثبت عن كرسيّها :

ـ لكأنه يتباهى بهذا !

فتمتم ليديف قائلاً وقد أخذ يلطم صدره ويحني رأسه شيئاً بعد شيء :

ـ أنا رجل منحط ! أنا رجل منحط !

ـ لا يعنيني أن تقول انك منحط ! هو يظن أنه يكفيه أن يقول « انه منحط » حتى يخرج من المأزق وحتى يبرىء ذمته . يا أمير ، مرةً أخرى أسألك : ألا تستحي أن تعاشر أمثال هؤلاء الناس ؟ انني لن أغفر لك هذا أبداً .

قال ليديف بلهجة فيها اقتناع وعاطفة :

ـ سيسامحني الأمير !

وأسرع كيللر يقترب من اليزابت بروكوفيفنا ، فيقف أمامها ، ويقول بصوت منفجر :

ـ من باب الكرم وحده يا سيدتي ، ومن أجل أن لا أفضح صديقاً معرضاً للأذى ، انما سكت منذ قليل عن مراجعته لمقالتي فلم أجىء على ذكرها ولا أشرت اليها ، رغم أنه اقترح رمينا الى أسفل السلّم كما سمعت ذلك بأذنيك . فمي سبيل أن أقرر الحقيقة أعترف الآن بأنني أستعنت به في ذلك فعلاً ونقدته ستة روبلات أجراً . لم أطلب اليه أن ينقّح

الأسلوب ، وانما طلبت اليه أن يكشف لى ، بصفته مصدراً مطلعاً ، على وقائع كنت أجهل أكثرها. فكل ماورد ذكره فى المقالة عن لبادتى الحذاءين اللذين كان ينتعلهما الأمير ، وعن اشباع الأمير نهمه على نفقة البروفسور السويسرى ، وعن الخمسين روبلاً التى ذكرت بدلاً عن المائتين وخمسين المدفوعة فعلاً ، كل هذه المعلومات كان هو مصدرها . وقد نقدته ستة روبلات أجراً على هذا لا على تصحيح اللغة وتنقيح الأسلوب .

قاطع ليديف كلام كيللر فقال نافد الصبر بصوت يزحف من ذلّه زحفاً ان صح التعبير ، بينما كانت الضحكات تتضاعف من حوله :

ـ يجب أن ألفت النظر الى أننى لم أراجع من المقالة الا الجزء الأول . فاننا حين وصلنا الى الجزء الثاني اختلفت آراؤنا حتى لقد تشاجرنا بصدد فكرة جئت بها ، فعدلت عن تصحيح الجزء الثانى من المقالة . فلا يمكن اذن أن أُعدَّ مسئولاً عما تضمه من أخطاء كثيرة وأقاويل كاذبة .

ـ ذلك ما يشغل باله !

كذلك هتفت اليزابت بروكوفيفنا .

قال أوجين بافلوفتش يسأل كيللر :

ـ هل تسمح لى أن أسألك متى تمت مراجعة المقالة ؟

فأجابه كيللر طائعاً :

ـ صباح أمس . اجتمعنا اجتماعاً تعاهدنا على أن يبقى بيننا سراً مكتوماً لا نطلع عليه أحداً .

قالت اليزابت بروكوفيفنا :

ـ ذلك بينما كان يزحف أمامك معلناً لك ولاءه واخلاصه. يا لهؤلاء البشر ! فى وسعك أن تحتفظ ببوشكين ، ولا تظهرنْ بنتُك عندى قط !

وأرادت اليزابت بروكوفيفنا أن تنهض ، لكنها وقد رأت هيبوليت يضحك ، حوّلت غضبها اليه قائلة :

ـ ماذا يا عزيزى ؟ هل آليت على نفسك أن تتخذنى هنا هزؤاً ؟

فأجاب هيبوليت وهو يبتسم ابتسامة خرقاء :

ـ معاذ الله ! لكنك يا اليزابت بروكوفيفنا قد خطفت انتباهى بما تتصفين به خاصةً من غرابة لا يصدقها العقل ! أعترف لك بأننى تعمدت أن أثير موضوع ليديف . كنت أتوقع الأثر القوى الذى لا بد أن يحدثه فيك هذا الموضوع ، أن يحدثه فيك أنت وحدك ، لأن الأمير سيغفر له حتماً ، بل لا شك فى أنه قد غفر له منذ الآن ؛ ولعله قد وجد لفعلته عذراً . أليس هذا صحيحاً يا أمير ؟

كان هيبوليت يلهث ، وكان انفعاله الغريب يقوى عند كل كلمة يقولها .

قالت اليزابت بروكوفيفنا غاضبةً وقد فجأتها لهجة صوته :

ـ هيه ، وماذا ؟

فتابع هيبوليت كلامه قائلاً :

ـ سبق أن سمعت عنك أشياء كثيرة من هذا النوع ... بفرح شديد ... لقد تعلمت أن أحترمك أعظم الاحترام .

كان يتكلم وفى هيئته ما يدل على أنه يريد أن يعبّر عن شىء آخر يختلف كل الاختلاف عما كان يقوله . وكان حديثه المتدفق يكشف فى الوقت نفسه عن رغبة فى السخرية وعن اضطراب مشوّش . انه يلقى حواليه نظرات شك وريب ، ويرتبك ويتيه عند كل كلمة جديدة. وكانت هيئته التى هى هيئةُ مريض بالسل ، وعيناه الملتمعتان ، ونظرته المتحمسة ،

كان ذلك كله أكثر مما يحتاج اليه الحاضرون جميعاً لينصرفوا باتنباههم اليه انصرافاً تاماً •

وتابع كلامه يقول :

ـ رغم انني لا أعرف من آداب المجتمع شيئاً (وذلك ما أعترف به) ، كان يمكن أن يدهشني أن أراك تمكثين في جمع كجمعنا هذا الذي تعدينه غير لائق ، وكان سيدهشني أن أراك تتركين ••• لهاته الفتيات أن يسمعن قضية شائكة فاضحة ، رغم أن قراءة الروايات قد سبق أن علمتهن كل شيء • ومهما يكن من أمر ، فمن الجائز انني لا أعلم ••• لأن أفكاري تضطرب وخواطري تختلط • ولكن مما لا شك فيه على كل حال أن أحداً غيرك ما كان ليرضى أن يبقى ••• تلبيةً لطلب صبي (نعم ، صبي ، انني أعترف بهذا أيضاً) فيقضي السهرة معه ، ويشارك في كل شيء ، وان احمر خجلاً من ذلك في الغد ••• (على أنني أقرُّ بانني أخبط في التعبير خبط عشواء) • ذلك كله يبدو لي خليقاً بأن يُحمد ، ويبدو لي جديراً بأن يُحترم كل الاحترام ، رغم أن وجه زوجك يعبِّر تعبيراً واضحاً عن مدى انزعاج سيادته مما يجري هنا ••• هيء هيء !•••

أخذ هيبوليت يقهقه ، واضطرب وارتبك فجأة ، ثم هزَّته نوبة سعال شديدة حالت بينه وبين الاستمرار في الكلام مدة دقيقتين •

قالت اليزابت بروكوفيفنا بلهجة باردة جافة ، وهي تلقي عليه نظرة استطلاع خال من التعاطف :

ـ ها هو ذا يختنق ! كفى يا صغيري ! كفى ! حسبك هذا !

وتدخل ايفان فيدوروفتش غاضباً فقال وقد نفد صبره :

ـ دعني أنبهك الى شيء أيها السيد الصغير • ان زوجتي هي هنا عند الأمير ليون نيقولايفتش ، جارنا وصديقنا المشترك • فلست أنت ، أيها

الفتى ، فى أية حال من الأحوال ، من يحق له أن يحكم على أفعال اليزابت بروكوفيفنا ، ولا أن يعبّر جهاراً ، بحضورى ، عما تظن أنك تقرؤه فى وجهى • مفهوم ؟

ثم تابع كلامه وهو يزداد اندفاعاً وحماسة :

ـ ولئن بقيت هنا ، فانما بقيت ، أيها السيد ، مدفوعةً بعامل المفاجأة وحب الاطلاع، وذلك حين رأيت هؤلاء الشباب الذين يثيرون حب الاطلاع بغرابتهم فعلاً • ولقد بقيت أنا أيضاً كما أبقى احياناً فى الشارع حين أرى شيئاً يمكن أن يُعدّ ••• أن يُعدّ •••

قال أوجين بافلوفتش محاولاً اسعاف صاحبه :

ـ أن يُعدّ شيئاً غريباً نادراً •

فأسرع الجنرال يقول وقد تورط فى البحث عن تشبيه :

ـ نعم ، هذه هى الكلمة • مهما يكن من أمر فان ما يبدو لى باعثاً على الدهشة ومثيراً للحزن ان صح التعبير هو أنك أيها الفتى لم تستطع حتى أن تدرك أن اليزابت بروكوفيفنا لم تمكث الآن معك الا لأنك مريض ولأنها أيقنت أنك مشارف على الموت ، فكانت الشفقة هى التى ألهمتها سلوكها اذ سمعت أقوالك التى تثير الرحمة والرأفة • فما من لطخة أيها السيد يمكن أن تنال اسمها أو مزاياها أو منزلتها الاجتماعية ••

ثم ختم كلامه بقوله وقد احمر وجهه غضباً :

ـ اليزابت براكوفيفنا ، اذا كنت تريدين الانصراف فلنودّع صاحبنا الأمير الطيب و لـ •••

فقاطعه هيبوليت بلهجة فيها رصانة غير متوقعة ، وكان يحدّق الى ايفان فيدوروفتش بنظرة حالمة :

ـ أشكر لك هذا الدرس يا جنرال •

قالت آجلايا وهي تنهض ، قالت بلهجة تدل على الغضب ونفاد الصبر :

ـ هلمّي ننصرف يا ماما ، فان هذا الأمر يمكن أن يطول كثيراً •

قالت اليزابت بروكوفيفنا بوقار وهي تلتفت نحو زوجها :

ـ دقيقتين أخريين من فضلك يا عزيزي ايفان فيدوروفتش • أظن أنه مصاب بنوبة حمى ، وأنه يهذي لا أكثر • أرى هذا في عينيه • لا يمكن أن نتركه وهو على هذه الحال • يا ليون نيقولايفتش ، أليس في وسعه أن يبيت عندك ، حتى لا يكون ثمة اضطرار الى نقله الى بطرسبرج •

ثم أضافت تقول مخاطبةً الأمير « تشتش ••• » :

ـ هل سئمت أو ضجرت أيها الأمير العزيز ؟ *

ثم قالت تخاطب ألكسندرا :

ـ تعالي يا ألكسندرا ، رتّبي شعرك قليلاً يا عزيزتي •

ورتّبت اليزابت بروكوفيفنا ترتيب شعر ابنتها ، مع أنه لم يكن يعوزه أي ترتيب ، ثم قبلتها ، والواقع أن هذه القبلة كانت هي الغرض من مناداة الفتاة اليها •

عاد هيبوليت يقول وقد خرج من أحلامه :

ـ كنت أظنك قادراً على شيء من التطور الفكري ••• نعم ، ذلك ما كنت أريد أن أقوله لك (أضاف ذلك مرتاحاً ارتياح انسان تذكر شيئاً منسياً) • انظر الى بوردوفسكي : هو يريد صادقاً أن يدافع عن أمه ، أليس كذلك ؟ ولكنه في نهاية الأمر لطّخ شرفها بالعار • انظر الى الأمير: انه يرغب في أن يساعد بوردوفسكي ، وهو اذ يمحضه أرق العاطفة

وينفحه المال انما يصدر عن أحسن نية وأكرم شعور ، ولعله بيننا الانسان الوحيد الذى لا يكرهه ولا ينفر منـه • وها هما مع ذلك يقفان أحدهما من الآخـــر موقف العـدو ! هأ هأ هـأ !••• انتم جميعـاً تكرهـون بوردوفسكى لأنه يتصرف مع أمه تصرفاً ليس فيه لباقة وأناقة فيما ترون، أليس كذلك ؟ هو كذلك ؟ هو كذلك ، هه ؟ انكم جميعاً متعلقون تعلقاً مسعوراً بجمال الأشكال ولطف الآداب في السـلوك (كنت أقدّر منذ زمن طويل أنكم لا تحفلون الا بهذا) ، فاعلموا أن أحـداً منكم لعله لم يحبب أمه كما أحب بوردوفسكى أمه • أناأعلم أنك أرسلت الى هذه المرأة مالاً بواسطة جانيا دون آن يعلم بذلك أحد • ألا انني لمستعد أن أراهن على أن بوردوفسكى سيتهمك الآن بقلة اللباقة وعدم المداراة تجاه أمه • نعم ، حقاً ، هأ هأ هأ !•••

وهذه نوبة جـديدة من الاختنـاق والســعال تقطع تلك الضحكة التشنجية الذى صاحبت كلماته الأخيرة •

قالت اليزابت بروكوفيفنا نافدة الصبر وكانت لا تحوّل عنه نظرتها القلقة :

ــ أهذا كل شيء ؟ هل قلت كل ما كنت تريد أن تقوله ؟ فاذهب الآن اذن الى سريرك • ان بك حمى • آه •• رباه !•• ها هو ذا يستأنف ••

اتجه هيبوليت بالكلام الى أوجين بافلوفتش فجأة ، وقال له بلهجة حانقة :

ــ أتضحك ؟ لماذا تضحك دائماً مني ؟ لقد لاحظت ذلك واضحاً !

وكان أوجين بافلوفتش يضحك فعلاً •

ــ انما أردت أن أسألك يا ســيد ••• هيبوليت ••• معذرةً ••• نسيت اسم أسرتك •••

قال الأمير :

ـ السيد تيرنتيف .

ـ آ ... نعم ... شكراً يا أمير . لقد ذُكر لى اسمه منذ قليل ، لكن هذا الاسم بارح ذاكرتى ... أردت أن أسألك يا سيد تيرنتيف هل ما قيل لى عنك صحيح : لقد قيل لى انك تعتقد أنه يكفيك أن تخطب فى الشعب ، من نافذة بيتك ، خلال ربع ساعة ، حتى يقتنع الجمهور بآرائك فوراً ، فيتبعك . هل هذا صحيح ؟

أجاب هيبوليت محاولاً أن يستجمع ذكرياته :

ـ يجوز جداً أن أكون قد قلت هذا الكلام .

ثم أضاف فجأة وقد اندفع من جديد وحدج أوجين بافلوفتش بنظرة ثابتة :

ـ نعم ، قلت ذلك الكلام حتماً ، فماذا تستنتج من ذلك ؟

ـ لا شىء البتة . فانما ألقيت هذا السؤال من باب حب الاطلاع .

وصمت أوجين بافلوفتش . وظل هيبوليت يحدّق اليه وكأنه ينتظر التتمة قلقاً .

قالت اليزابت بروكوفيفنا تسأل أوجين بافلوفتش :

ـ هيه ؟ هل أنهيت كلامك ؟ أنهه بسرعة يا صديقى ، فقد آن له أن يمضى الى النوم . أم تُراك لا تدرى كيف تنهيه ؟

كانت اليزابت بروكوفيفنا منزعجة انزعاجاً شديداً .

فاستأنف أوجين بافلوفتش كلامه فقال مبتسماً :

ـ لعلنى أميل الى أن أضيف ما يلى : ان كل ما سمعته من رفاقك يا سيد تيرنتيف ، وكل ما قلته أنت نفسك بموهبة لا مجال لنكرانها يرتد

في رأيي الى النظرية التي تطمع في جعل الحق منتصراً على كل شيء ، قائماً فوق كل شيء ، بل مُبْعداً كل شيء ، ربما دون سعي في أول الأمر الى معرفة هذا الحق . لعلني كنت مخطئاً .

ـ أنت مخطيء حتماً . حتى انني لا أفهم عنك ... ثم ماذا ؟

وصعدت من زاوية بالشرفة دمدمة . كان ابن اخت ليبديف يهمهم متكلماً بصوت خافت .

واستأنف أوجين بافلوفتش كلامه فقال :

ـ لم يبق عندي ما أقوله تقريباً . وانما أردت أن ألفت النظر الى أن هذه النظرية ليس بينها وبين النظرية القائلة بأن الحق للأقوى ، أي بأن الحق لقبضة اليد وتحكم الفرد ، وتلك هي الطريقة التي سُوِّيت بها الأمور في أكثر الأحيان ، أقول ليس بين هاتين النظريتين الا خطوة واحدة . لقد تلبث برودون على نظرية القوة هذه التي تخلق الحق . وفي أثناء حرب الانفصال رأينا كثيراً من الليبراليين ، بل كثيراً من الليبراليين المتطرفين ، ينحازون الى صف المزارعين بحجة أن الزنوج ، من حيث هم زنوج ، يجب أن يُعدُّوا أدنى منزلةً من البيض ، وان للبيض حق الأقوى ...

ـ ثم ...؟

ـ أرى أنك لا تجحد حق الأقوى .

ـ ثم ؟

ـ أنت لا تتناقض على الأقل . لقد أردت أن ألفت النظر الى أن المسافة ليست بعيدة بين حق الأقوى وحق النمور والتماسيح ، وحتى حق أمثال دانيلوف وجورسكي .

ـ لا أدري ... ثم ؟

كان هيبوليت لا يصغى الى أوجين بافلوفتش الا بأذن واحدة • كان لا يقول : « ثم ؟ » الا انسياقاً مع الحديث ، دون أن يولى هذه الكلمة أى اهتمام ، أو أن يودعها أى معنى •

ـ لم يبق عندى ما أضيفه ••• ذلك كل ما أردت أن أقوله •

قال هيبوليت يختم الكلام على نحو لم يكن متوقعاً :

ـ الواقع اننى لا أغضب منك ولا أحقد عليك •

وعلى غير شعور تقريباً ، ابتسم ومدّ يده الى أوجين بافلوفتش •

دُهش أوجين بافلوفتش ، ثم اصطنع هيئةً فيها كثير من الجد ليلمس اليد التى مدّها اليه هيبوليت ، كأنما هو يقبل صفحه وعفوه • وأضاف يقول بلهجة فيها ذلك الاحترام نفسه ، ولكن فيها التباساً كذلك :

ـ لا أملك الا أن أشكر لك تلطفك معى اذ تركت لى أن أتكلم ، فقد لاحظت فى أحيان كثيرة أن أصحابنا الليبراليين لا يدعون للآخرين أن يكون لهم رأى شخصى ، وأنهم يردون على معارضيهم فوراً باهانات أو بحجج أدعى الى الأسف من الاهانات نفسها •••

قال الجنرال ايفان فيدوروفتش :

ـ هذا صحيح كل الصحة •

ثم انسحب الى أقصى الشرفة من جهة المخرج جاعلاً يديه وراء ظهره ، وأخذ يتثاءب برماً متململاً •

قالت اليزابت بروكوفيفنا فجأة تخاطب أوجين بافلوفتش :

ـ هيّا ••• كفاك يا صديقى •• لقد أضجرتنى !

وقال هيبوليت وهو ينهض مسرعاً ويرسم بيده حركة تعبر عن الحيرة والارتباك ، ويلقى حواليه نظرة زائغة خائفة :

ـ آن الأوان ••• لقد احتجزتكم •• أردت أن أقول لكم كل شيء ••• كنت أقدّر أنكم جميعاً ••• هذه آخـر مرة ••• كان ذلك مني نزوة خيال •••

واضح انه كان ينتعش ويتحمس نوبات نوبات ، ويخـرج في الفينة بعد الفينة من حالة تشبه الهذيان ، حتى اذا عاد اليه وعيه كاملاً ، كان يستجمع ذكرياته ويعرض في أكثر الاحيان شذرات أفكار لعله كان منذ زمن طويل قد أنضجها وحفظها على ظهر القلب اثنـاء السـاعات الطويلة الفارغة التي كان يقضيها في السرير منعزلاً مؤرقاً !

وأضاف يقول بلهجة جافة :

ـ طيب ••• وداعا ! هل تظنون أن من السهل عليّ أن أقول لكم : « وداعا » ؟ هأ هأ هأ !•••

ضحك ضحكة ساخرة متحسرة لأنه فكّر في خراقة سؤاله • واذ آلمه أنه لم يستطع التعبير عن كل ما كان يريد أن يقوله صرخ يقول بلهجة غاضبة :

ـ يا صاحب السعادة ، يشرفني أن أدعوك الى حضـور جنازتي ، هذا اذا رضيت أن تتنازل فتلبي الدعوة ، وانني ••• أدعوكم جميعاً أيها السادة ، أدعوكم أن تنضموا الى الجنرال !•••

وأخذ يضحك ، لكن ضحكه كان ضحك انسان فقد عقله • صُعقت اليزابت بروكوفيفنا ، فتقدمت نحوه خطوة ، وأمسكت ذراعه • فحدّق اليها بنظرة ثابتة ، وهو ما يزال يضحك ذلك الضحك نفسه الذي تجمد على وجهه ان صح التعبير •

ـ هل تعلمون أنني جئت الى هنا لأرى الأشجار ؟ هذه هي الأشجار ••• (أشار الى أشجار الحديقة بحركة من يده) • ليس في هذا ما يبعث على الضحك والاستهزاء ، أليس كذلك ؟

ثم أضاف يقول بلهجة رصينة ، مخاطباً اليزابت بروكوفيفنا :

ـ يخيّل اليّ أن هذا ليس فيه ما يبعث على الضحك والاستهزاء .

وعاد حالماً على حين فجأة من جديد ، ثم رفع رأسه بعد لحظة وأخذ يتفحص الحضور باحثاً عن واحد منهم . كان يبحث عن أوجين بافلوفتش الذي كان قريباً منه كل القرب ، على يمينه ، والذي لم يتحرك من مكانه. ولكن هيبوليت كان قد نسي ذلك فهو يستكشف ما حوله باحثاً عن الرجل . فلما أبصره أخيراً هتف يقول متعجباً :

ـ ها ... لم تنصرف ! لقد ضحكت ضحكاً طويلاً منذ قليل ، حين تصورت انني أريد أن ألقي من نافذة بيتي خطاباً يدوم ربع ساعة ! ألا فليكن ماثلاً في ذهنك انني لم أبلغ من العمر ثمانية عشر عاماً ، وانني لبثت راقداً على فراشي واضعاً رأسي على وسادتي زمناً طويلاً أنظر من تلك النافذة وأفكّر ... في جميع الأشياء ... التي ... انك تعلم أن الموتى لا أعمار لهم . لقد عاودتني هذه الفكرة في الأسبوع الماضي أثناء ليلة أرق ... هل تريد أن أقول لك ما الذي تخشونه أكثر مما تخشون أي شيء آخر ؟ انكم تخشون صدقنا رغم ما تحملونه لنا من احتقار ! هذه أيضاً فكرة وافتني في الليل بينما كان رأسي على الوسادة ... أتظنين أنني أردت أن أتهكم عليك منذ قليل يا أليزابت بروكوفيفنا ؟ لا لم تكن هذه نيتي . أنا لم أكن أبغي الا أن أمدحك ... لقد قال كوليا ان الأمير عاملك معاملة طفلة ... ... هذا صحيح ... ولكن ماذا ؟ لقد كنت أريد أن أضيف شيئاً آخر ...

قال ذلك وخبأ وجهه في يديه وفكّر لحظة .

ـ ها ... نعم ... تذكرت : حين تهيأت منذ قليل للانصراف خطر

بالى فجـأة ما يلى : هؤلاء أناس لن أراهم مرة أخـرى بعد اليوم أبداً ، أبداً . لا ولن أرى الأشجار مرة أخرى . ولن يقع بصرى بعد الآن الا على جدار الآجر الأحمر من منزل ماير .. أمام نافذتى ... فقلت لنفسى: اشرحْ لهم هذا كله ... حاول أن تُفهمهم . هذه حسناء رائعة الجمال.. وأنت رجل ميت ... فقدِّم نفسك بهذه الصفة ... قل لهم « ان فى وسع ميت أن يتكلم بغير تحفظ » ... وان الأميرة ماريا ألكسيفنا لن تقول عن هذا شيئاً * ... هأ هأ هأ ... ألا تضحكون ؟ (ألقى هذا السؤال وهو يجيل بصره حواليه مرتاباً) . سأقول لكم اننى اثناء رقاد رأسى على الوسادة كانت توافينى خواطر كثيرة. فاقتنعت، فيما اقتنعت به ، بأن الطبيعة ساخرة جداً ... لقد قلتم منذ قليل اننى ملحد ، ولكن هل تعلمون أن الطبيعة .. لماذا عدتم تضحكون ؟ ألا انكم لقساة عتاة !

قال ذلك فجأة وهو يثبت على مستمعيه نظرة حزن واستياء . ثم ختم كلامه قائلاً بلهجة مختلفة كل الاختلاف ، لهجة فيها رصانة واقتناع ، كأن ذكرى أخرى قد ومضت فى ذهنه :

ـ أنا لم أفسد كوليا .

قالت له اليزابت بروكوفيفنا معذَّبةً :

ـ لا أحد يسخر منك ، لا أحد ... لسوف نستدعى لك فى الغد طبيباً آخر . ان الطبيب الأول قد أخطأ . ولكن اجلس ! انك لا تقوى على الوقوف ! وأنت تهذى ...

ثم صرخت اليزابت بروكوفيفنا تقول مضطربة أشد الاضطراب وهى تُجلسه على مقعد :

ـ آه ... ماذا نفعل له الآن ؟

والتمعت على خدها دمعة صغيرة .

فلبث هيبوليت مذهولاً خلال لحظة من الزمن، ثم رفع يده ، ومدّها خجلاً وجلاً فلمس تلك الدمعة الصغيرة ، وطافت بوجهه ابتسامة طفل. قال فرحاً :

ــ انك لا تعلمين مدى ما أشعر به نحوك من ... ان كوليا يحدثني عنك دائماً بحماسة عظيمة ... انني أحب حماسته . أنا لم أفسده ! هو الوحيد الذي أودعه خواطري وأفكاري . لكم تمنيت أن يشارك الجميع في هذا الميراث ، ولكن لم يكن ثمة أحد ، لم يكن ثمة أحد ... ولقد تمنيت كذلك أن أكون رجلاً فعالاً . ذلك من حقي ... وما أكثر الأشياء التي كان يمكن أن أتمناها أيضاً ! أما الآن فقد أصبحت لا أرغب في شيء ، وأصبحت لا أريد أن أرغب في شيء . لقد آليت على نفسي أن لا أتمنى بعد اليوم شيئاً ، فليبحث الآخرون بعدي عن الحقيقة ! نعم ، ان الطبيعة ساخرة !

وأضاف يقول بحرارة :

ــ لماذا تخلق الطبيعة أفضل الناس لتسخر منهم بعد ذلك ؟ هذا ما تعمد اليه الطبيعة : حين أظهرت البشر على الانسان الوحيد الذي عُدّ الانسان الكامل في هذا العالم ، عهدت اليه برسالة أن ينطق بأقوال كانت سبباً في سفح دماء بلغت من الغزارة أنها لو سُفحت مرةً واحدة لخنقت الانسانية ! انها لسعادة أن أموت ! ذلك أنني اذا لم أمت فقد يطلق لساني كذبة رهيبة بدافع من الطبيعة !... أنا لم أفسد أحداً ... لقد أردت أن أحيا لسعادة الناس جميعاً ... أردت أن أحيا لاكتشاف الحقيقة ونشرها ... كنت أنظر من نافذتي الى جدار منزل ماير فأتصور أنه يكفيني أن أتكلم خلال ربع ساعة حتى أقنع جميع البشر ، نعم ، جميع البشر ! وهأنا ذا يُتاح لي ، مرةً واحدة طوال حياتي ، أن أجد نفسي على صلة لا بجميع البشر ، بل بكم وحدكم ، فماذا كانت النتيجة ؟ لا شيء ! كانت النتيجة

أنكم تحتقرونني • هذا دليل على انني غبي أحمق ، على انني امرؤ لا خير فيه ولا فائدة منه ، وعلى أنني قد آن لي أن أزول ! وحين أزول ، فلن أخلّف ورائي أية ذكرى : لن أترك أي صدى ، لن أترك أي أثر ، لن أترك أي عمل ! لم أنشر أي رأي ، لم أذع أية قناعة ! لا تضحكوا من غبي أحمق ! انسوه ! انسوا كل شيء ! أرجوكم أن تنسوا ! لا تكونوا قساة ! هل تعلمون انني لو لم يصبني مرض السل لانتحرت ؟!•••

كان يبدو عليه أنه يريد أن يفيض في الكلام مزيداً من الافاضة ، وأن يتحدث مدة طويلة أيضاً ، ولكنه لم يستطع أن يستمر ، فتهاوى في مقعده ، وغطى وجهه بيديه ، وأخذ يبكي كطفل صغير •

عادت اليزابت بروكوفيفنا تكرر سؤالها :

ـ ماذا نفعل له الآن ؟ هلاّ قلتم ؟

وهرعت اليه فتناولت رأسه وشدته الى صدرها شداً قوياً • كان هيبوليت ينشج نشيجاً عنيفاً • قالت تخاطبه :

ـ كفى كفى ! كفى ! لا تبك ، كفى بكاءً ! انك لطفل طيب ! سيغفر الله لك بسبب جهلك • هيّا ! كفى ! كن رجلاً !••• والا شعرت بعد ذلك بخزي وعار •••

قال هيبوليت وهو يحاول أن يرفع رأسه :

ـ لي هناك أخ وأخوات ، صغار مساكين أبرياء ••• ستُفسد هي أخلاقهم ! انك أنت قديسة ••• أنت نفسك طفلة ، فانقذيهم ! انتزعيهم منها ••• انها ••• هي ••• عار •• آه •• ساعديهم ، أنجديهم! لسوف يرد الله اليك الحسنة أضعافاً مضاعفة ! أنجديهم حباً بالله ، حباً بيسوع !

صاحت تقول في غضب :

ـ هلاّ قلت لنا ما الذى يجب علينا أن نفعله الآن يا ايفان فيدوروفتش ! هلاّ تفضلت فخرجت عن صمتك الوقور المهيب ! اذا لم تتخذ قراراً فلأقضين الليلة كلها هنا ! لقد سئمت النزول على مشيئتك ، والخضوع لاستبدادك !

كانت تتكلم بحماسة شديدة واندفاع قوى ، وتطالب بجواب على الفور ٠ وفي مثل هذه الظروف يلتزم الحضور الصمت ولو كانوا كُثُراً ، ولا يزيدون على الاهتمام السلبى والاستطلاع النائى ٠ انهم يتحاشون الافصاح عن شعورهم واعلان رأيهم ، وان كانوا يبدون ذلك كله بعد مدة طويلة ٠ ولقد كان بين الحضور حينذاك أناس قد يبقون الى مطلع الصبح دون أن ينطقوا بكلمة واحدة ٠ فهذه كانت حالة باربارا آرداليونوفا التى ظلت متنحيةً طوال السهرة ، دون أن تفتح فاها بكلمة واحدة ، ولكنها كانت في الوقت نفسه منتبهةً أشد الانتباه الى كل ما كان يقال ـ ولعل هناك أسباباً كانت تدعوها الى ذلك وتحضها عليه ٠

قال الجنرال :

ـ يا صديقتى العزيزة ، رأيى أن ممرضةً تسهر عليه خير له من كل هذا الاضطراب الذى تضطربينه ؟ ومن المفيد أن يقضى الليل هنا رجل هادىء المزاج أهل للثقة ٠ على كل حال ، يجب أن نطلب الى الأمير أن يصدر أوامره ٠٠٠ ثم نترك المريض فوراً ليرتاح ٠ ويمكن أن نعود الى الاهتمام به في الغد ٠

قال دوكتورنكو يسأل الأمير بلهجة حانقة لاذعة :

ـ أوشك الليل أن ينتصف ٠ ونحن منصرفون ٠ فهل يأتى معنا أم يبقى عندك ؟

قال الأمير :

ـ تستطيعون أن تبقوا معه اذا شئتم •

فانبرى السيد كيللر ينادى الجنرال بحماسة :

ـ يا صاحب السعادة ، اذا كان ينبغي أن يقضى الليل هنا رجلٌ أهل للثقة ، فانني سيسرنى أن أضحى فى سبيل صديقى ••• هذا انسان ذو نفس كبيرة ! لطالما عددته رجلاً عظيماً يا صاحب السعادة ! صحيح أننى أنا بغير ثقافة ، ولكنه هو ، حين يتكلم ، تتساقط من فمه لآلىء ، لآلىء يا صاحب السعادة !

أشاح الجنرال وجهه متململاً برماً •

وقال الأمير يجيب عن الأسئلة الحانقة التى ألقتها عليه اليزابت بروكوفيفنا :

ـ سوف يسرنى أن يبقى • ان من الصعب عليه طبعاً أن ينصرف •

ـ أظن أنك تنام ؟ اذا كنت لا تريد أن تتولى أمره فسأنقله الى بيتى• آه ••• يا رب !••• أرى أن الأمير نفسه لا يكاد يستطيع الوقوف على قدميه • أتراك مريضاً يا أمير ؟

ان اليزابت بروكوفيفنا كانت قد توقعت بعد الظهر أن ترى الأمير راقداً على فراش الموت • فلما رأته قائماً بالغت فى تقدير ابلاله من مرضه • ان نوبته الأخيرة ، والذكريات الكاوية التى ترتبط بها ، والمتاعب والانفعالات التى عاناها فى هذه السهرة بسبب موضوع « ابن بافلشتشيف » أولاً ، وبسبب حالة هيبوليت بعد ذلك ، ان هذا كله قد أهاج ما يتصف به من حساسية مريضة وانفعالية شديدة فاذا هو يصير الى حالة تقارب الحمى • ثم ان هماً جديداً ، بل قل خشية جديدة أخذت تُقرأ الآن فى

عينيه : لقد كان ينظر الى هيبوليت فى قلق كأنما هو يتوقع منه انفجاراً جديداً .

ونهض هيبوليت على حين فجأة شاحب الوجه شحوباً رهيباً . ان سحنته المنقلبة تعبر عن شعور فظيع بالعار ، شعور مرهق يتجلى خاصةً فى النظرة المبغضة الكارهة المذعورة التى كان يجيلها على الحضور ، ويتجلى فى الابتسامة التائهة الزائغة الماكرة الساخرة التى كانت تقلّص شفتيه المرتعشتين. ثم خفض عينيه، وجرّ نفسه بخطى مترنحة نحو بوردوفسكى ودكتورنكو اللذين كانا ينتظرانه عند مخرج الشرفة ، وهو ما يزال يبتسم تلك الابتسامة نفسها . كان يريد أن ينصرف معهم .

هتف الأمير يقول :

ـ ذلك بعينه ما كنت أخشاه ! كان لا بد أن يحدث هذا !

فالتفت هيبوليت نحوه فجأة وقد اعترته نوبة حنق مسعور ترعش جميع قسمات وجهه ، وقال يخاطبه :

ـ آ ... ذلك ما كنت تخشاه ؟ كان لا بد أن يحدث هذا ؟ ألا فاعلم اذن أنه اذا كان هنا شخص أكرهه (زأر يقول هذا الكلام بصوت حاد صافر يصاحبه رشاش لعاب) ـ وأنا أكرههم جميعاً جميعاً ـ فان ذلك الشخص هو أنت ، أنت ! أنت أيها اليسوعى المنافق المرائى ، المعتوه الأبله ، المليونير المحسن . اننى أكرهك أكثر مما أكره أى انسان وأى شىء فى هذا العالم . لقد أدركت حقيقتك منذ زمن طويل فأخذت أكرهك . اننى منذ اليوم الذى سمعت فيه عنك نفرت منك وأبغضتك من أعماق قلبى ... أنت الذى استدرجتنى الى هذا الفخ ! أنت الذى اطلقت فى نفسى نوبة الهذيان هذه ، لقد دفعت رجلاً محتضراً الى أن يجلل نفسه بالخزى والعار. أنت أنت المسئول عن حطتى وصغارى ودناءتى ! لو علمت

أنني سأعيش، لقتلتك ! ما أنا في حاجة الى احسانك • لا أريد أن يحسن أحد الي • هل تسمعني ؟ لا أريد احسان أحد ! لقد أصابتني نوبة هذيان• فليس من حقك أن تستمد من هذا انتصاراً !••• انني ألعنكم جميعاً ، ألعنكم جميعاً الى الأبد •••

دمدم ليديف يقول لأليزابت بروكوفيفنا :

ـ لقد أخجله وأخزاه أنه بكى • « كان لا بد أن يحدث هذا » •

ما أعجب الأمير ! لقد قرأ قرارة نفسه وأعماق ضميره !

لكن اليزابت براكوفيفنا لم تتنازل أن تنظر اليه • كانت منتصبة بشموخ وكبرياء ، مرفوعة الرأس ، تتصفح وجوه هؤلاء « الناس التافهين » ، بفضول يسوده احتقار • وحين أنهى هيبوليت كلامه ، هز الجنرال منكبيه ، فرمقته عندئذ بنظرة غاضبة ، شملته من قمة الرأس الى أخمص القدم ، كأنها تحاسبه على هذه الحركة وتطلب منه تفسيراً لها ، ثم لم تلبث أن أسرعت تلتفت الى الأمير فتقول له :

ـ شكراً يا أمير ، يا صديق أسرتنا الغريب الأطوار ، شكراً على هذه السهرة الممتعة التي ندين بها لك • أحسب أنك الآن فرح بأنك استطعت أن تُشركنا نحن أيضاً في أعمالك الجنونية ! كفى هذا ! يا صديقي ، لا أقل من أن نشكر لك أنك أتحت لنا أن نعرفك حق معرفتك !•••

وبحركات حانقة غاضبة أخذت ترتب خمارها بانتظار أن ينصرف « هؤلاء الناس » • وفي هذه الأثناء وصلت عربة تُقلُّهم ، أتى بها ابن ليديف ، الطالب في الكلية ، الذي كان دكتورنكو قد أوفده منذ ربع ساعة ليجيء بمركبة • وسرعان ما اعتقد الجنرال أن من واجبه أن يضيف كلمة صغيرة الى الأقوال التي نطقت بها امرأته ، فقال :

ـ الحق يا أمير أنني ••• أنا نفسي ••• لم أكن أتوقع أن ••• بعد كل شيء ، بعد كل علاقات الصداقة التي تجمعنا !••• وأخيراً يا أليزابت بروكوفيفنا •••

صاحت آديلائيد تقول وهي تسرع نحو الأمير وتمد اليه يدها :

ـ ما هذا الذي تقولون ؟ كيف يمكنكم أن تعاملوه هذه المعاملة ؟

فابتسم لها الأمير ابتسامة تائهة • الا ان وشوشة متعجلةً لم تلبث أن لسعت أذنه لسع النار • ان آجلايا هي التي دمدمت تقول له هامسة :

ـ اذا لم تطرد هؤلاء الناس الأدنياء فوراً ، فلأكرهنك طوال حياتي، طوال حياتي ، ولأكرهنَّك وحدك !

كانت تبدو خارجة عن طورها ، ولكنها أشاحت عن الأمير من قبل أن يتسع وقته لأن ينظر اليها •

على أن الشرفة كانت قد خلت من كل من يمكن طرده : كانوا قد استطاعوا أن يضعوا المريض في العربة كيفما اتفق ، وكانت العربة قد تحركت منصرفة •

ـ هل تعتقد أن هذا سيدوم مدة طويلة يا ايفان فيدوروفتش ؟ ما رأيك ؟ هل تظن أن سيكون عليَّ أن أحتمل هؤلاء الصبية الأشرار المسيئين زمناً طويلاً ؟

ـ ولكن يا صديقتي ••• أنا من جهتي مستعد طبعاً ••• والأمير ••

ومدَّ ايفان فيدوروفتش يده الى الأمير مع ذلك ، ولكنه قبل أن يتسع وقت الأمير لمصافحته ، أسرع يجري وراء اليزابت بروكوفيفنا التي كانت تهبط درجات الشرفة مظهرةً غضبها في صخب • أما آديلائيد وخطيبها وألكسندرا فقد ودَّعوا الأمير بمودة صادقة • وكان أوجين

بافلوفتش معهم ، وهو الشخص الوحيد الذى كان مشرق المزاج منشرح النفس • وقد دمدم يقول بابتسامة فيها أكبر التلطف :

ــ حدث ما كنت أتوقعه ! ولكن من المؤسف يا صديقى المسكين أنك قد أصابك من ذلك ألم وعذاب •

وخرجت آجلايا دون أن تودِّع الأمير •

على أن هذه السهرة كانت تهيىء مفاجأة جديدة • لقد كان على اليزابت بروكوفيفنا أن تقع لها مقابلة ما كان يمكن أن تدور فى خلد أحد•

فقبل أن تصل الى أسفل السلَّم المفضى الى الطريق (الذى يدور حول الحديقة) كانت تجرى أمام فيللا الأمير مركبة باهرة هى عربة فخمة يجرها حصانان أبلجان ، وفيها سيدتان ترتديان أجمل حلة ، فما ان صارت العربة على مسافة عشرة أمتار من الفيللا حتى وقفت فجأة ، والتفتت احدى السيدتين بحركة سريعة كأنها لمحت شخصاً تعرفه هى فى حاجة ملحة الى أن تراه بسرعة •

وصاحت السيدة تقول بصوت واضح متناغم :

ــ أوجين بافلتش ! أهذا أنت ؟

فارتعش الأمير لهذه الصرخة ، ولعل أحداً آخر قد ارتعش أيضاً• وتابعت السيدة كلامها تقول :

ــ ما أسعدنى بالعثور عليك أخيراً ! لقد أوفدت الى المدينة رسولين ظلا يبحثان عنك طوال النهار فلم يظفرا بطائل •

تسمَّر أوجين بافلوفتش فى وسط السلم كأن صاعقة قد نزلت عليه• وتوقفت اليزابت بروكوفيفنا فى مكانها أيضاً ، ولكن دون أن يظهر عليها ما ظهر عليه هو من علائم الذهول • ورمقت السيدةَ الوقحة بنظرة فيها

ذلك التعالى الشديد نفسه وذلك الازدراء الكبير نفسه الذى اشتملت عليه نظرتها الى أولئك « التافهين » منذ قليل ، ثم سرعان ما حوّلت بصرها الى أوجين بافلوفتش متفحصةً مستفهمة !

تابع ذلك الصوت نفسه يقول :

ـ لديّ نبأ يجب أن أزفه اليك. لا تقلقنك سندات كوبفر *. لقد لبى روجويين طلبى فاشتراها بفائدة ثلاثين فى المائة . فتستطيع أن تطمئن خلال ثلاثة أشهر على الأقل . أما بيسكوب وسائر أولئك الأوباش فستتفق معهم آخر الأمر على حل بغير خصام . معنى ذلك أن الأمور كلها تجرى على ما يرام . فابتهج وافرح ! الى اللقاء غداً !

واستأنفت العربة جريها ولم تلبث أن غابت .

هتف أوجين بافلوفتش يقول وقد احمر وجهه استياء وأخذ يلقى على ما حوله نظرات دهشة وذهول :

ـ هذه مجنونة ! انى لأجهل كل الجهل ماذا أرادت أن تقول. ماتلك السندات التى تكلمت عنها ؟ من هى هذه المرأة ؟

حدّقت اليزابت بروكوفيفنا اليه ثانيتين أخريين ، ثم استدارت واتجهت نحو منزلها يتبعها ذووها . وعاد أوجين بافلوفتش الى الأمير فى الشرفة بعد دقيقة . وكان الأمير فى حالة انفعال شديد واضطراب قوى .

ـ ألا تدرى حقاً ماذا كان معنى ذلك يا أمير ؟

فأجابه الأمير متأثراً هو نفسه تأثراً مؤلماً :

ـ لا أدرى !

ـ لا ؟

ـ لا !

قال أوجين بافلوفتش وهو ينفجر ضاحكاً :

ـ أنا أيضاً لا أدرى ! ان قصة السندات هذه لا تخصنى ولا شأن لى بها ، أقسم لك على ذلك . ولكن ماذا بك ؟ كأنى بك تتهاوى ...

ـ لا ... لا ... أؤكد لك أن لا ...

الفصل الحادي عشر

انقضت ثلاثة أيام قبل أن يهدأ حنق آل ايبانتشين هدوءا كاملاً . وكان الأمير ، على عـادته ، ينسب الى نفسه كثيراً من الأخطاء وينتظر صادقاً أن يعاقَب. ومع ذلك كان قد اقتنع فى هـذه المرة ، منـذ البداية ، أن اليزابت بروكوفيفنا لا يمكن أن تكون قد غضبت منه هو ، وأنها انما غضبت من نفسها . لذلك احتار أشد الحيرة وحزن أكبر الحزن حين رأى أنهم ظلوا حاقدين عليه ثلاثة أيام . وهناك أحـداث أخـرى عديدة غذَّت قلقـه فى أثنـاء ذلك . وكان أحد تلك الأحداث خاصـةً هو الذى أهاج مزاجه الشكاك وطبعه الريَّاب شـيئاً بعد شىء خلال هذه الأيام الثلاثة (كان الأمير يؤاخذ نفسه فى الآونة الأخيرة على أنه يترجح بين حدين أقصـين ، فهو تارة « واثق ثقةً سخيفةً فى غير محلها » ، وهو تارة « شديد الشك والحذر والريب الى درجة مظلمة دنيئة ») . المهم أنه فى نهاية اليوم الثالث كانت حادثة السيدة الغريبة الأطوار التى أطلت من عربتها الفخمة ونادت أوجين بافلوفتش ، كانت هذه الحادثة قد تضخمت فى نفسه واتخذت أبعاداً مخيفة محيِّرة ملغزة . وكان اللغز يترجم عن نفسه فى ذهنه (ناهيك عن وجوهه الأخرى) بالسؤال التالى : أتقع تبعة هذا « العمل الشاذ » الجديد على عاتقه هو أم تقع تبعته على عاتق ..؟ لكنه كان لا يمضى الى حد النطق باسم . أما الأحرف الأولى من الاسم ، وهى : ن ، ف ، ب ، فلم تكن فى اعتقاده الى مزاحة بريئة من مزاحات الأطفال

لا يستطيع المرء أن يتلبث فكره عندها اذا هو لم يشأ أن يقع فى الخزى والعار .

على أن الأمير قد سعد ، فى غداة تلك السهرة الفاضحة التى كان يعد نفسه «سببها» الرئيسى ، قد سعد بزيارة الأمير « شتش .. » وآديلائيد اللذين كانا عائدين من نزهة فى الصباح ، فمرا به قائلين « انهما يريدان « خاصة » أن يستطلعا أخبار صحته . » . وقد لاحظت آديلائيد أثناء دخولها فى الحديقة شجرة قديمة رائعة كثيفة مجوفة الجذع كثيرة التشقق تحمل أغصانها الطويلة ذات العقد أوراقاً فتية نضيرة ، فأصرت اصراراً شديداً على أن ترسمها ، ولم تكد تتكلم أثناء الزيارة التى دامت نصف ساعة الا عن هذه الشجرة . وأبدى الأمير « شتش ... » كثيراً من التحبب والتودد وكان كيساً لبقاً على عادته . سأل الأمير عن الماضى وأيقظ ذكرى الأحداث التى يرجع عهدها الى أولى الملاقات التى قامت بينهما ، حتى انه لم يكد يتكلم عما جرى فى الليلة البارحة .

ونفد صبر آديلائيد أخيراً فاعترفت مبتسمة بأنهما جاءا اليه خفية ، ولم تزد على ذلك شيئاً ، غير أن هذا الاعتراف كان كافياً لافهام الأمير أن أبويها ، ولا سيما اليزابت بروكوفيفنا ليسا راضيين عنه . ومع ذلك لم ينبس الأمير « شتش ... » ، ولا نبست آديلائيد ، أثناء زيارتهما ، بكلمة واحدة عن الجنرالة ، ولا عن آجلايا ، حتى ولا عن ايفان فيدوروفتش.

وحين انصرفا لاتمام نزهتهما لم يدعوا الأمير الى اصطحابهما . أما أن يدعواه الى زيارتهما فذلك أمر لم يكن محل بحث أصلاً . وقد أفلتت من آديلائيد بهذه المناسبة عبارة ذات دلالة ، فانها اذ تكلمت عن لوحة من لوحاتها المرسومة بالألوان المائية وأظهرت رغبتها فجأة فى أن يراها الأمير، قالت : « ما السبيل الى أن أستطيع أن أريك الصورة فى وقت أقرب ؟ اسمع !... سأرسلها اليك هذا اليوم نفسه مع كوليا اذا جاء الى دارنا ،

أو أجيئك بها أنا نفسي غداً أثناء نزهتي مع الأمير . » وقد أسعدها ، حين أوحت بهذه الفكرة ، أن تكون قد وُفِّقت الى حل المسألة حلاً حاسماً يرضي الجميع .

وفي لحظة التوديع تقريباً بدا على الأمير « شتشـ .. » أنه تذكر شيئاً ما على حين فجأة . قال يسأل الأمير :

ـ بالمناسبة ، ألا تعرف يا عزيزي ليون نيقولايفتش ، مَنْ تلك السيدة التي نادت أوجين بافلوفتش أمس من عربتها ؟

قال الأمير :

ـ هي ناستاسيا فيليبوفنا ؟ ألم تتعرفها ؟ لكنني لا أدري مع من كانت!

قال الأمير « شتشـ ... » بحرارة :

ـ أعرفها لأنني سمعت عنها ؟ ولكن بماذا صاحت ؟ أعترف لك بأن ما قالته كان في نظري لغزاً ... في نظري أنا وفي نظر الآخرين .

أجابه الأمير بكثير من البساطة :

ـ تكلمت عن سندات على أوجين بافلوفتش لا أدري ما هي ؟ وقالت ان هذه السندات قد انتقلت تلبيةً لطلبها من يدي مرابٍ الى يدي روجوين الذي سيمهل أوجين بافلوفتش فترة من الوقت .

ـ ذلك ما سمعته يا عزيزي الأمير ، لكنه ليس معقولاً ! ان أوجين بافلوفتش لا يمكن أن يكون قد وقَّع أي سند ! انه غني جداً ... صحيح أن هذا حدث له في الماضي بسبب خفته وطيشه ... أما أن يكون رجل له ثروة طائلة كثروته ، قد وقَّع سندات لمرابٍ من المرابين وأصبح قلقاً لاقتراب موعد دفعها ، فذلك شيء مستحيل . ثم انه لشيء مستحيل أيضاً أن تكون العلاقة بينه وبين ناستاسيا فيليبوفنا حميمة الى هذا الحد ، وأن تُرفع بينهما الكلفة فاذا هي تخاطبه بصيغة المفرد دون تحرج .

ذلك هو اللغز الرئيسى • انه يحلف بأغلظ الأيمان أنه لا يفهم من ذلك شيئاً البتة ، وانى لأصدقه كل التصديق • لذلك رغبت أن أسألك ياعزيزى الأمير هل تعرف عن هذا الأمر شيئاً • أقصد : هل وصلت الى مسامعك شائعة من الشائعات مثلاً ؟

ـ لا ، لا أعرف عن هذه القضية شيئاً ، وأؤكد لك أننى لا شأن لى بها •

ـ ما أغربك اليوم يا أمير ! حقاً اننى أنكرك ولا أعرفك ! هل يمكن أن يكون قد خطر ببالى أن لك مشاركة ما فى قضية كهذه القضية ؟ دعك ••• أنت اليوم فى غير حالتك الطبيعية •

قال له ذلك ثم عانقه وقبّله •

قال ليون نيقولايفتش :

ـ مشاركة ما فى « قضية كهذه القضية » ؟ ولكننى لا أرى هنا أية قضية •

أجاب الأمير « شتشـ ••• » بلهجة جافة :

ـ ليس هناك أى شك فى أن هذه المرأة قد أرادت الاساءة الى أوجين بافلوفتش ، بطريقة من الطرق ، مسندةً اليه ، أمام شهود ، أعمالاً ليست أعماله ولا يمكن أن تكون أعماله •

بدا الاضطراب على الأمير ليون نيقولايفتش ، لكنه ظل يحدق الى محدّثه بنظرة مستفهمة • وظل محدثه صامتاً لا يتكلم •

فدمدم الأمير يقول أخيراً بلهجة فيها شىء من نفاد الصبر :

ـ ولكن أليست المسألة مسألة سندات فحسب ؟ ألم يكن مدار الكلام أمس على سندات لا أكثر ؟

ـ غريب . انني أقول لك الأمر وما عليك الا أن تحكم بنفسك : ما عسى أن يكون هنالك من شيء مشترك بين أوجين بافلوفتش وبين تلك ... أو بينـه وبين روجويين أيضـاً ؟ أعود فأقول لك انه يملك ثروة طائلة . أنا أعرف هذا من مصدر مطلع موثوق به . وهو عدا ذلك متأكد أنه سيرث من عمه . كل ما في الأمر أن ناستاسيا فيليبوفنا ...

قطع الأمير « شتش ... » كلامه من جـديد : كان واضحاً أنه لا يريد أن يقول عن المرأة الشابة أكثر مما قال .

فسأله ليون نيقولايفتش فجأة بعد لحظة صمت :

ـ ألا يبرهن هذا على أنه يعرفها ، على كل حال ؟

ـ جائز جداً . هو رجل متنقل الهوى مولع بالمباهج ! مهما يكن من أمر ، فهما اذا كانا قد تعـارفا فانما تعارفا في الماضي . لا بد أن تعارفهما يرجع عهده الى سنتين أو ثلاث سنين . كان في ذلك الأوان ما يزال على صلة بتوتسـكي . أما الآن فلا يمـكن أن يجمعهما شيء . وكيف كان الأمر فان الصلة بينهما لم تكن في يوم من الأيام حميمة الى الحـد الذي يسمح لهما بأن يتخاطبا بصيغة المفرد . أنت نفسك تعلم أنها كانت غائبة الى هذه الآونة الأخيرة ، وأنها ظلت مختفية لا يعثر عليها أحد . وما يزال كثير من الناس يجهلون أنها عادت . لم ألاحظ عربتها الا منذ ثلاثة أيام.

قالت آديلائيد :

ـ عربة فخمة !

ـ نعم فخمة !

وانصرف الزائران وهما يظهران للأمير أرق العواطف ، حتى لكأنه أخوهما .

خرجت للأمير من هذه الزيارة اشارة هامة • صحيح أنه اشتبه فى الأمر اشتباهاً قوياً منذ الليلة البارحة (وربما قبل ذلك) ، لكنه لم يكن قد جرؤ حتى الآن أن يرى أن مخاوفه في محلها • أما الآن فقد اتضحت له الأمور : ان الأمير « شتشب ••• » ، على تأويله الحادث تأويلاً خطأ ، يقارب الحقيقة مع ذلك ، ويحزر على كل حال أن ثمة « مكيدة » • (قال الأمير يحدث نفسه : ولعله يدرك الأمر ادراكاً صحيحاً بينه وبين نفسه ، ولكنه لا يريد اعلان ادراكه ويتعمد تأويل الحادث تأويلاً خطأ) • هناك شيء يخطف الانتباه خاصةً : هو أنهما جاءا (ولاسيما الأمير «شتشب ••») آملين أن يحصلا على ايضاح ما ؟ وهذا يعنى انهما يعدّان الأمير ضالعاً فى «المكيدة» • ثم اذا كانت القضية هى هـذه ، وكان لها هذا الخطر كله ، فذلك دليل على أن تلك « المرأة » تسعى الى هدف رهيب • ولكن ما هو ذلك الهدف ؟ سؤال فظيع ! « وكيف يمكن صرفها عنه ؟ ان من المستحيل ايقافها عن بلوغ غـاياتها وتحقيق أهـدافها » • ذلك أمر يعـرفه الأمير بالتجربة • « هى مجنونة ! مجنونة » •

ولكن ما أكثر هذه الأسرار التى تتزاحم فى تلك الصبيحة من اليوم! انها تقتضى أن توضّـح كلها على الفور ، وذلك ما أغرق الأمير فى ذهول عميق •

وجاءت فيرا ليديفا حاملةً ليوبوتشكا بين ذراعيها ، فسرّى عنه ذلك قليلاً • وظلت ترثر بعض الوقت مرحـةً ، ثم جاءت أختها الصـغرى فلبثت فاغرة الفم من الدهشة ، ووصل أخيراً ابن ليـديف ، الطالب فى المدرسـة الثـانوية ، فأكّد له أن « كوكب الأفسنتين » الذى تذكر رؤيا يوحنا أنه سقط من السماء على الأرض عند ينبوع المياه انما هو فى رأى أبيه تنبؤ بشـبكة خطوط السـكة الحـديدية التى تمتـد اليوم على أرض

أوروبا . لم يشأ الأمير أن يؤيد هذا الزعم ، واتفق على أن يسأل ليديف نفسه في هذا الأمر لدى أول مناسبة .

روت فيرا ليديفا للأمير أن كيللر قد أقام عندهم منذ أمس ، وأضافت أن جميع الظواهر تدل على أنه لن يغادرهم قريباً ، لأنه وجد ههنا مجتمعاً يناسبه ، وانعقدت صداقة بينه وبين الجنرال ايفولجين . وقد أعلن أنه لا يمكث عندهم الا ليكمل تعليمه ويحسّن ثقافته .

أخذ الأمير ، على وجه العموم ، يزداد سروراً بصحبة أولاد ليديف يوماً بعد يوم .

ولم يظهر كوليا في ذلك النهار : فانه قد ذهب الى بطرسبرج في ساعة مبكرة من الصباح .(وكان ليديف قد سافر منذ الفجر هو أيضاً لأعمال شخصية) .

غير أن الزيارة التي كان الأمير ينتظرها نافدَ الصبر انما هي زيارة جبريل آرداليونوفتش الذي كان لا بد أن يجيء في أثناء النهار . وقد وصل بين الساعة السادسة والساعة السابعة ، بعد العشاء فوراً . فلما رآه أخيراً اعتقد أنه أمام شخص لا بد أن يعرف جميع خفايا الأمر حتى معرفتها . وكيف يمكن أن لا يعرف جانيا جميع خفايا الأمر وهو الذي يملك مساعدين مثل باربارا آرداليونوفنا وزوجها ؟ غير أن العلاقات بينه وبين الأمير كانت تتسم بطابع خاص بعض الشيء . صحيح أن الأمير قد كلفه بقضية بوردوفسكي ورجاه ملحاً أن يهتم بها . ولكن رغم علامة الثقة هذه ، ورغم ما جرى بينهما قبل ذلك ، تبقى هنالك موضوعات يتحاشيان التحدث فيها ويتجنبان الكلام عنها ، وذلك بنوع من اتفاق صامت . كان الأمير يحس في بعض الأحيان أن جبريل آرداليونوفتش يتمنى من جهته لو تنعقد بينهما صداقة وتقوم بينهما صراحة بغير حدود .

وفى هذا الصباح مثلاً ، حين رآه داخلاً ، شعر بأن جانيا يعتقد أنه قد آن الأوان لتحطيم الجليد وتحقيق التفاهم فى جميع الأمور (كان الزائر مع ذلك متعجلاً ، فلقد كانت أخته تنتظره عند ليديف لشأن ملحٍ يجب أن يسوّياه بينهما) .

ولكن لئن توقع جانيا حقاً أن يلقى عليه الأمير وابلاً من أسئلة متعجلة ، وأن يكشف له عن أمور كثيرة على غير ارادة منه ، وأن يفضى اليه بما يعتلج فى قرارة نفسه ، فقد أخطأ خطأً كبيراً . لقد ظل الأمير طوال مدة الزيارة التى دامت عشرين دقيقة ، ظل غارقاً فى خواطره ، حتى ليكاد يكون ذاهلاً . ولم يلق الأسئلة المتوقعة ، أو قل لم يلق السؤال الهام الذى كان ينتظره جانيا . لذلك ارتأى جانيا أن من المناسب أن يتحفظ هو أيضاً فلا يسترسل . صحيح أنه ظل طلق اللسان كثير الكلام ، ولكنه فى ثرثرته الخفيفة المتوددة اللطيفة ، تحاشى أن يلامس النقطة الأساسية .

روى فيما روى أن ناستاسيا فيليبوفنا لم تصل الى بافلوفسك الا منذ أربعة أيام ، وأنها قد جذبت أنظار الناس وأثارت انتباههم . وذكر أنها تقيم عند داريا ألكسيفنا ، فى منزل صغير مريح بشارع « البحارة » ، ولكن مركبتها تكاد تكون أفخم مركبة فى بافلوفسك . وقد احتشد حولها منذ الآن جمهور من المولّهين ، فيهم الشباب وفيهم الشيوخ ؛ وثمة فرسان يواكبون مركبتها فى بعض الأحيان . وهى على عادتها شديدة التدقيق فى اختيار معارفها ، فلا ترضى أن يكون يقربها الا صفوة منتقاة . غير أن هذا لا ينفى أنها محاطة بما يشبه أن يكون فصيلةً من الحرس مستعدة للدفاع عنها أتم الاستعداد متى مسّت الحاجة الى ذلك . وبسببها فسخ خطوبتَه رجلٌ من المزارعين فى بافلوفسك ، وكاد جنرال عجوز أن يلعن ابنه . وهى تصطحب أثناء نزهاتها بالمركبة ، وفى كثير من

الأحيان ، فتاة بارعة الجمال فى السادسة عشرة من عمرها تمت بقربى بعيدة الى داريا ألكسيفنا • والفتاة موهوبة فى الغناء ، فصوتها يجتذب انتباه أهل الحى الى منزلهم فى المساء • هذا وان ناستاسيا فيليبوفنا تعنى بهندامها أشد العناية • فملابسها بسيطة ، لكنها فى غاية الذوق والأناقة ، فاذا أضفنا الى ذلك جمالها ومركبتها أدركنا لماذا تثير غيرة جميع السيدات •

وأفلت لسان جانيا فقال : أما حادث الأمس السخيف فلا شك فى أنه مدبَّر ، ولا يمكن أن تكون هى المسئولة عنه ، فيجب أن يُعرف الجانى ، والا تجنَّى الناس عليها وقالوا فيها سوءاً ، وذلك ما سيحدث قريباً على كل حال •

كان يتوقع أن يسأله الأمير لماذا يرى أن حادث الأمس أمر مدبَّر ، ولماذا يعتقد أن الناس لن يلبثوا أن يقولوا فى ناستاسيا سوءاً •

ولكن الأمير لم يلق أى سؤال عن هاتين النقطتين •

وذكر جانيا بعد ذلك معلومات مفصَّلة عن أوجين بافلوفتش ، دون أن يكون الأمير قد سأله عن شىء من ذلك أيضاً • وان كلام جانيا عن أوجين بافلوفتش لأمر غريب ، لا سيما وأنه كان يُقحمَ فى الحديث اقحاماً • قال جانيا فيما قال : انه يعتقد أن أوجين بافلوفتش لم تكن بينه وبين ناستاسيا فيليبوفنا علاقات فى يوم من الأيام ؛ وانه حتى فى الوقت الحاضر لا يكاد يعرفها فقد قُدِّمت اليه مرةً واحدة منذ ثلاثة أيام أو أربعة أثناء النزهة • ومن المشكوك فيه أن يكون قد زارها فى بيتها مرةً واحدة ولو بصحبة أشخاص آخرين •

أما مسألة السندات فمن الجائز أن تكون صحيحة (حتى ان جانيا يعدها أكيدة) • صحيح أن أوجين بافلوفتش يملك ثروة كبيرة ، غير أن « شيئاً من الفوضى يسيطر على ادارة أملاكه » •••

وانقطع جانيا عن الكلام فى هذا الموضوع الغريب ، ثم لم يزد شيئاً عن فعلة ناستاسيا فيليبوفنا بالأمس ، عدا الاشارة التى ساقها من قبل .

وأخيراً جاءت باربارا آرداليونوفنا تبحث عن جانيا ، لكنها لم تمكث عند الأمير الا دقيقة واحدة استطاعت خلالها أن تبلغه (دون أن يسألها عن شىء أيضاً) أن أوجين بافلوفتش يقضى هذا اليوم ببطرسبرج وقد يقضى بها الغد أيضاً ، وان زوجها (ايفان بتروفتش بتسين) هو الآن ببطرسبرج فأغلب الظن أنه ذهب الى هناك للاهتمام بشئون أوجين بافلوفتش . واضح أن فى الأمر شيئاً . وأضافت الى هذا عند انصرافها أن اليزابت بروكوفيفنا معتكرة المزاج فى هذا اليوم فهى ترهق من حولها أشد الارهاق وأن آجلايا ـ وذلك شىء أغرب ـ قد اشتجرت مع الأسرة كلها ، لا مع أبيها وأمها فحسب ، بل مع أختيها أيضاً . « ليس ذلك بالأمر الحسن بتاتاً » . حتى اذا فرغت من ذكر هذا النبأ ذكراً يشبه أن يكون عارضاً (وهو نبأ له فى نظر الأمير شأن خطير كل الخطورة) انصرفت هى وأخوها . ولم يقل جانيا كلمة واحدة عن قضية « ابن بافلشتشيف » ، سواء من باب اظهار التواضع ، أو بغية « مداراة عواطف الأمير » . غير أن ذلك لم يمنع الأمير من أن يشكر له ، مرةً أخرى ، ما تحمله من مشقة وما تكلفه من عناء لانهاء تلك القضية .

سُرَّ الأمير أعظم السرور حين صار وحيداً ، فهبط من على الشرفة، واجتاز الطريق الى الحديقة . كان يريد أن يفكر ، وكان هناك قرار يجب عليه أن يتخذه ، وهو قرار من تلك القرارات التى لا يفكر المرء فيها ، وانما يعزم أمره عليها دفعةً واحدة . وها هو ذا تستولى عليه رغبة مفاجئة رهيبة فى أن يدع كل شىء فى مكانه ، فينصرف مسرعاً حتى دون أن يودِّع أحداً ، ويرجع الى حيث كان فى البعد والعزلة . كان يوجس أنه اذا بقى فى بافلوفسك ولو بضعة أيام أخرى ، فسيغوص فى هذه البيئة

غوصاً لا مخرج له منه بعد ذلك قط . غير أنه لم يهب لنفسه عشر دقائق من التفكير ، ولم يلبث أن أيقن أن الهروب «مستحيل» ، وأنه يكاد يكون جبناً وحقارة . ان من طبيعة المشكلات المطروحة عليه أنه لا يحق له أن لا يحلها أو على الأقل أن لا يقف جميع جهوده على ايجاد حل لها .

وعلى هذه الحال النفسية انما عاد الأمير الى بيته دون أن يتنزه أكثر من ربع ساعة . وشعر فى تلك اللحظة أنه شقى أكبر الشقاء .

وكان ليبديف غائباً فاستطاع كيللر أن يدخل على الأمير أثناء السهرة . لم يكن كيللر سكران ، لكنه كان فى حالة نفسية تحضه على البوح والمسارّة والنجوى . فسرعان ما أعلن للأمير أنه جاء اليه ليقصّ عليه قصة حياته كاملةً ، فعلى هذه النية انما بقى فى بافلوفسك . ولو أراد الأمير أن يطرده لما استطاع الى ذلك سبيلاً ، ولرفض الرجل أن ينصرف كل الرفض . ولقد أراد أن يندفع فى حديث طويل مفكك ، ولكنه ما ان قال بضع كلمات حتى انتقل الى الخاتمة فاعترف بأنه « امرؤ لم يبق له ذرة من خلق » (وما ذلك الا بسبب زوال اعتقاده بالله) حتى أنه بلغ من هذا حد الاقدام على السرقة . قال :

ـ هل تستطيع أن تتصور أمراً كهذا ؟

قال الأمير :

ـ اسمع يا كيللر ، لو كنت فى مكانك لما اعترفت بهذا ، الا فى حالة الضرورة المطلقة . ثم ان من الجائز جداً أن تكون الآن متجنياً على نفسك عن عمد ...

ـ أنا لا أقول هذا الا لك أنت ، لك أنت وحدك ، وليس لى من ذلك الا هدف واحد هو أن أحاول الارتقاء بأخلاقى . لن أتحدث عن هذا لأحد ، وسأحمل سرّى الى قبرى . ولكن ليتك تعلم يا أمير مدى صعوبة

الحصول على مال في عصرنا هذا ! أين لى بالمال ؟ اسمح لى أن ألقى عليك ذلك السؤال . ان المرء لا يسمع الا جواباً واحداً : « هات لنا ذهباً وماساً فنقرضك على رهن » . والذهب والماس هما ما يعوزنى . هل تستطيع أن تتصور هذا ؟ ولقد غضبت آخر الأمر فقلت بعد لحظة : « وهل تقرضوننى مالاً برهن أحجار زمرد ؟ » ، فقالوا : « نعم ، نقرض مالاً برهن أحجار زمرد » ، فقلت وأنا أتناول قبعتى لأخرج : « هذا حسن . شيطان يأخذكم ، يا لكم من أوغاد ! » . أقسم لك !

ـ هل كنت تملك اذن أحجار زمرد ؟

ـ أحجار زمرد ؟ آه يا أمير ! انك ما تزال تنظر الى الحياة نظرة فيها هدوء وبراءة وسذاجة يمكن أن توصف بأنها ريفية !

كان شعور الأمير بالخجل من سماع مسارّات كيللر أكبر من شعوره بالشفقة عليه . وومضت فى ذهنه فكرة . تساءل : « ألا يمكن أن يُصنع من هذا الانسان شيء باحداث تأثير حسن فيه ؟ » . لكنه استبعد لأسباب شتى أن يكون هذا التأثير الحسن تأثيره هو ، لا من باب التواضع بل بسبب طريقته الخاصة فى مواجهة الأمور . وشيئاً فشيئاً استغرقا فى الكلام وبلغا من الاهتمام بالتحادث معاً أنهما لم يخطر ببالهما أن يفترقا . وأسرع كيللر يعترف بأفعال يتراءى للمرء أن من المستحيل على أحد أن يعترف بها . وكان يؤكد عند كل اعتراف بأنه نادم ندماً صادقاً وبأن « عينيه تفيضان دموعاً » ، غير أن ذلك لم يمنعه من أن يعرض أخطاءه بلهجة اعتزاز ، وأن يعرضها فى بعض الأحيان عرضاً فيه من قوة الهزل وشدة الاضحاك أنه والأمير قد انتهيا الى الاغراق فى ضحك كضحك المجانين .

قال الأمير أخيراً :

ـ المهم أن فيك ثقة كثقة الأطفال وأن لك صراحة يندر مثلها، هل تعلم أن هذا كافٍ ليحمل المرء على أن يغفر لك أموراً كثيرة ؟

فقال كيللر مؤيداً كلام الأمير وقد رقّ قلبه من التأثر :

ـ نفسي نبيلة ، نبيلة وذات شهامة ! ولكن المسألة يا أمير أن هذا النبل لا يوجد الا وجوداً مثالياً ، فوجوده وجود بالقوة لا بالفعل ان صحّ التعبير ! انه لا يتحقق في الواقع أبداً . ولمَ هذا ؟ ذلك ما لا أفهمه .

ـ لا تيأس . يمكن أن نقول الآن على وجه اليقين انك قد كشفت لي عن قرارة نفسك . يخيَّل اليّ على الأقل أنه يستحيل أن يُضاف أي شيء الى ما كشفت لي عنه . أليس هذا صحيحاً ؟

فصاح كيللر يقول بلهجة اشفاق ورحمة :

ـ يستحيل ؟ آه يا أمير ! انك ما تزال تحكم على الناس بأفكار هي أفكار رجل سويسري ...

قال الأمير متحيراً مدهوشاً :

ـ هل يمكن أن يكون ثمة أشياء تُضاف الى ما ذكرتَه ؟ ولكن هلاّ قلت لي يا كيللر ما الذي كنت تنتظره مني حين بحت لي بهذه الأمور، ولماذا جئت اليّ ؟

ـ ما الذي كنت أنتظره منك ؟ أولاً : ان لبساطة نفسك سحرها وفتنتها ، وان المرء ليجد متعة في الحديث معك برهةً من الزمن . انني أعرف على الأقل أن أمامي رجلاً يمتاز بفضيلة لا سبيل الى الشك فيها ؛ وثانياً ... ثانياً ...

لم يكمل كيللر كلامه .

قال الأمير بلهجة فيها كثير من الجد وفيها صراحة يمازجها شيء من حياء :

ـ ألعلك كنت تريد أن تقترض منى مالاً ؟

فارتعش كيللر ، وحدّق الى عينى الأمير مشدوهاً ، وضرب المائدة بقبضة يده ضربة قوية وقال :

ـ هذه بعينها طريقتك فى افحام الناس ! آه يا أمير ! ان لك براءة وسذاجة لم يعرف العصر الذهبى مثلهما ، ثم اذا بنفاذك السيكولوجى العميق يخترق المرء اختراق السهم ، ولكن اسمح لى يا أمير . هذا أمر يحتاج الى تفسير ... ذلك أننى مذهول حقاً ! صحيح أن نيتى كانت هى أن أقترض منك مالاً ، ولكنك ألقيت علىّ السؤال وكأنك لا تجد فى هذا ما يستحق المؤاخذة فكأن الأمر طبيعى تماماً ...

ـ نعم ، هو منك طبيعى تماماً .

ـ وهذا لا يثيرك ؟

ـ ولماذا يجب أن يثيرنى ؟

ـ أصغ الىّ يا أمير : لقد بقيت فى بافلوفسك منذ مساء أمس ، أولاً بسبب اعتبارى العظيم للأسقف الفرنسى بوردالو * (لقد فُتحت زجاجات عند ليديف حتى الساعة الثالثة من الصباح) ، وثانياً وخاصة (أقسم لك بجميع الصلبان أننى أقول الحقيقة) لأننى أردت أن أبوح لك بحقيقة أمرى كاملةً صادقة بغية الارتقاء بأخلاقى . وعلى هذه الفكرة انما نمت ممتلىء العينين بالدموع فى نحو الساعة الرابعة من الصباح . هل تصدق الآن انساناً زاخر النفس بالمشاعر السامية والعواطف النبيلة ؟ اننى حين غفوت غارقاً بالدموع فى الداخل والخارج على السواء (ذلك اننى بكيت ناشجاً ، فأنا أتذكر هذا) قد هاجمتنى فكرة جهنمية ، فتساءلت : « ماذا لو اقترضت منه مالاً بعد أن أعترف له ؟ » . وعلى هذا النحو انما أعددت

اعترافى طبقاً صغيراً من طعام أضع فيه حشائش مشهية وأرشه بدموع سخية ، وأهيئه لاثارة عاطفتك واقتراض مائة وخمسين روبلاً . ألا تجد فى هذا حطةً وصغاراً ؟

ـ لا شك عندى فى أن الأمور قد جرت على هذا النحو ، ولا تعدو المسألة أن تكون تصادفاً . فكرتان التقتا فى ذهنك عرضاً . هذه حادثة شائعة جداً قد ألفتها وتعودتها أنا نفسى . واعتقد أن هذا غير حسن . هل تعلم يا كيللر أن ذلك هو الشىء آخذه على نفسى ؟ ان ما قلتَه الآن عن نفسك ، يمكن أن أقوله أنا عن نفسى .

وتابع الأمير كلامه يقول بلهجة انسان تهمه هذه المسألة كثيراً ، فهو يفكر فيها تفكيراً عميقاً :

ـ حتى لقد اتفق لى أن قدَّرت أن جميع الناس هم على هذه الشاكلة ، وعددت ذلك دليلاً على براءتى مما أتهم به نفسى ، اذ لا شىء أصعب على المرء من مناهضة هذه الأفكار « المزدوجة » . اننى أقول هذا عن خبرة وتجربة . لا يدرى الا الله من أين تجىء هذه الأفكار المزدوجة ولا من أن تنبجس ! ولكن هأنت ذا تصف ذلك بأنه حطة وصغار ! سيكون علىَّ اذن أن أعود الى التخوف من مثل هذه الظاهرة ! على كل حال ، لست أهلاً لأن أحكم عليك ، مع ذلك لا أحسب ان كلمة الحطة أو الصغار هى هنا فى محلها . ما رأيك ؟ لقد عمدت الى المكر والحيلة محاولاً أن تبتز منى بدموعك مالاً ، ولكنك تحلف أنت نفسك أن اعترافك كان له هدف آخر ، هدف نبيل منزهٌ عن الغرض مبرَّأ من المنفعة . أما المال فقد كنت تريده لتقصف وتلهو ، أليس كذلك ؟ وهذا ، بعد اعتراف كالاعتراف الذى أقدمت عليه ، هو سقوط أخلاقى طبعاً ، ولكن أنَّى للمرء أن يتخلص من مجون أصبح فيه عادة راسخة ؟ ذلك

مستحيل . وماذا اذن ؟ ان من الأفضل أن يعمد المرء في مثل هذا الأمر الى حكم ضميره . ما رأيك ؟

كان الأمير يحدّق الى كيللر بنظرة متحيرة الى أقصى حدود التحير. كان واضحاً أن مسألة ازدواج الفكر تشغل باله منذ زمن طويل .

صاح كيللر يقول :

ـ بعد أقوال كهذه الأقوال التي أسمعها منك ، أصبحت عاجزاً عن أن أفهم كيف أمكن أن يصفوك بأنك أبله .

فاصطبغ وجه الأمير بحمرة خفيفة .

ـ ان الواعظ بوردالو لم يراع صاحبه ، أما أنت فقد راعيتني وحكمت عليّ حكماً انسانياً . فمن أجل أن أعاقب نفسي ، ومن أجل أن أبرهن لك على مدى تأثري ، فانني أعدل عن المائة وخمسين روبلاً ، وأكتفي بخمسة وعشرين ، فهذا هو المبلغ الذي أحتاج اليه ، مدة أسبوعين على الأقل . لن أعود لأسألك مالاً قبل انقضاء خمسة عشر يوماً . لقد أردت أن أسرّ آجاشكا ، ولكنها لا تستحق ذلك كثيراً . آه يا أميري العزيز ! ألا فليبارك الله فيك !

هنا دخل ليديف عائداً من بطرسبرج . فلما رأى ورقةً بخمسة وعشرين روبلاً في يدي كيللر قطب حاجبيه . غير أن كيللر ، وقد ملك المال ، لم يلبث أن انصرف . فسرعان ما أخذ ليديف يكيل له الذم .

فقال له الأمير أخيراً :

ـ انك تظلمه . لقد ندم ندماً صادقاً .

ـ ولكن ما قيمة ندمه ؟ هو كندمي بالأمس : « أنا منحط ! » . هذه كلمات !...

ـ ماذا ؟ أكانت هذه كلمات لا أكثر ؟ لقد ظننت أنا ...

ـ اسمع . لك ، لك وحدك سأقول الحقيقة ، لأنك تنفذ الى قرارة قلب الانسان : ان الأقوال والأفعال ، ان الأكاذيب والحقائق ، تختلط عندي بصدق كامل . ففي الحقائق والأفعال انما يتجلى ندمي وتتجلى توبتي ، صدقني أو لا تصدقني ... يميناً ان الأمر كذلك . أما الأقوال والأكاذيب فانها تأتيني من فكرة جهنمية (لا تبرح ذهني) بها أحس انني مدفوع الى خداع الناس والاستفادة حتى من دموع الندامة والتوبة ! أحلف لك بشرفي أن الأمر كذلك ! ما كان لي أن أقول هذا الكلام لشخص آخر غيرك ، والا لضحك أو لبصق اشمئزازاً ! أما أنت يا أمير فسوف تحكم عليّ حكماً انسانياً .

هتف الأمير يقول :

ـ هذا الكلام نفسه قد قاله لي الآخر ؛ ويبدو عليكما كليكما أنكما تعتزان وتتباهيان ! لست أفهم . ولكن الآخر أصدق منك ، أنت الذي تجعل الكذب حرفةً لك . هيّا ! كفى رياءً وتصنعاً يا ليبديف ! لا تضع يدك على قلبك . أليس لديك ما تحب أن تقوله لي ؟ انك لم تأت اليّ بغير هدف ...

أخذ ليبديف يجعّد وجهه ويلوّي جسمه .

قال الأمير :

ـ لقد انتظرتك طوال النهار لألقي عليك سؤالاً . قل لي الحقيقة من أول كلمة ، ولو مرةً واحدة في حياتك : ألم تشارك مشاركة ما في حادثة المركبة أمس ؟

أخذ ليبديف يتلوى من جديد ، ثم طفق يضحك ، ثم فرك يديه ، ثم عطس . لكنه لم يعزم أمره على أن ينطق بكلمة .

ـ أرى أنك شاركت في الأمر .

ـ لم أشارك الا مشاركة غير مباشرة فحسب ! أقول لك الحقيقة خالصة . كان دوري كله في القضية هو أن أبلغ شخصاً ما في الوقت المناسب أن في داري ناساً ، وأن بين هؤلاء الناس فلاناً وفلاناً ...

صاح الأمير يقول بلهجة تدل على نفاد الصبر :

ـ أعرف أنك أرسلت الى هناك ابنك . هو نفسه قال لي ذلك منذ قليل .

قال ليبديف وهو يقوم بحركات انكار :

ـ أنا لا شأن لي في الأمر . ان هذه المكيدة من تدبير أشخاص آخرين ؛ بل انها لنزوة أكثر مما هي مكيدة .

ـ ولكن ما المسألة ؟ اشرح ما بنفسك ، ناشدتك الله ! هل يمكن أن لا تدرك أن هذه القضية تمسني مباشرة ؟ ألا ترى أنهم يحاولون تلطيخ سمعة أوجين بافلوفتش ؟

هتف ليبديف يقول وقد عاد ينقبض :

ـ أيها الأمير ، أيها الأمير العظيم ، انك لا تتيح لي أن أقول لك الحقيقة كلها . لقد حاولت غير مرة أن أبسطها لك ، ولكنك لم تدع لي أن أكمل كلامي في لحظة من اللحظات ...

صمت الأمير وفكّر ، ثم قال في مشقة وعناء ، بلهجة تكشف عن أنه يعاني صراعاً نفسياً عنيفاً :

ـ طيب ... قل لي الحقيقة .

فسرعان ما بدأ ليبديف يقول :

ـ ان آجلايا ايفانوفنا ...

ولكن الأمير صرخ يقول له مندفعاً :

ـ اسكت •••

كان الأمير محمَّر الوجه من الغضب ومن الاستياء وربما من الخجل والحياء • وتابع كلامه فقال :

ـ مستحيل • هذا كله سخف • هذا كله تلفيق منك أو من أناس مجانين مثلك • انني أمنعك من أن تكلمني في هذا الأمر يوماً !

في وقت متأخر من الليل ، في نحو الساعة الحادية عشرة ، وصل كوليا مع حصاد أنباء بعضها من بطرسبرج وبعضها من بافلوفسك • فأوجز رواية الأنباء الآتية من بطرسبرج (وهي تتعلق بهيبوليت وحادثة الأمس) مؤجلاً الحديث المفصَّل عنها الى وقت آخر ، متعجلاً الانتقال الى الكلام عن أنباء بافلوفسك • كان قد رجع من بطرسبرج منذ ثلاث ساعات ، وذهب الى دار آل ايبانتشين رأساً ، دون أن يعرِّج على الأمير • « رهيبٌ ما يحدث هناك » • والسبب الأول للفضيحة هو حادثة المركبة طبعاً • ولكن لا شك أن حادثاً آخر قد وقع ، حادثاً لا يعرفه لا هو ولا الأمير • « وقد تجنبت طبعاً أن أتجسس أو أن أسأل أحداً • ثم انهم قد احسنوا استقبالي حتى لقد أحسنوا استقبالي أكثر مما كنت أتوقع• ولكنهم لم يقولوا كلمة واحدة عنك يا أمير »• وهاهو ذا النبأ المثير : لقد تشاجرت آجلايا مع ذويها بشأن جانيا• لايعرف أحد تفاصيل المشاجرة ، ولكن من المعروف أن جانيا هو سببها ، ولا شك في أن الباعث على المشاجرة كان هاماً خطيراً ، لأن المشاجرة كانت قوية عنيفة • كان الجنرال قد رجع الى البيت متأخراً ، متجهم الهيئة عابس الأسارير ، يصحبه أوجين بافلوفتش الذي استُقبل بكثير من الترحيب وكان باشاً مشرق المزاج كثير اللطف والتودد • وهذا نبأ ثان أهم شأناً : ان اليزابت بروكوفيفنا قد استدعت باربارا آرداليونوفنا التي كانت مع بناتها ، وحظرت عليها ، دون ضجيج ، أن تدوس قدماها

أرض بيتها بعد الآن في يوم من الأيام ؟ وقد أبلغتها هذا الخطر بكثير من الكياسة والتهذيب على كل حال • « عرفت هذا من فاريا بنفسها » • هذا ما أضافه كوليا • وحين خرجت فاريا من عند الجنرالة وودعت الآنسات كانت الآنسات لا يعرفن أن باب هذا المنزل قد أُغلق دونها الى الأبد وأنها تتركهن الى غير رجعة •

قال الأمير متحيراً :

ـ مع ذلك جاءت الىّ باربارا آرداليونوفنا في الساعة السابعة •

ـ وفي الساعة الثامنة انما أُمرت بأن لا تعود • انني متألم لفاريا وجانيا ••• صحيح أنهما لا ينفكان عن تدبير المكائد ، فتلك عادة لا يملكان التخلص منها • أنا لم أستطع أن أعرف ماذا يدبّران ، ولست أحرص على أن أعرف ذلك • ولكنني أؤكد لك يا عزيزي الأمير الطيب أن جانيا له قلب نبيل • هذا رجل ضائع من نواحٍ كثيرة ، لكن له مزايا تستحق أن تُعرف ولن أغفر لنفسي يوماً أنني لم أفهمه قبل هذه المدة • لا أدري ألا يزال علىّ أن أتردد على آل ايبانتشين بعد الذي حدث لفاريا • صحيح أنني منذ اليوم الأول قد احتفظت باستقلالي كاملاً ، وجعلت بيني وبينهم مسافة • ولكن الأمر يحتاج الى تفكير مع ذلك •

قال الأمير :

ـ انك لتخطىء اذا أخذتك بأخيك شفقة • لئن وصلت الأمور الى ما وصلت اليه فلأن جبريل آرداليونوفتش أصبح خطراً في نظر اليزابت بروكوفيفنا • معنى ذلك أن بعض آماله قد تأكدت •

هتف كوليا يسأل مذهولاً :

ـ أية آمال ؟ ماذا تعني ؟ أتراك تتصـــور أن آجـلايا ••• ذلك لا يمكن •••

لزم الأمير الصمت •

وتابع كوليا كلامه بعد دقيقة أو دقيقتين من سكوت :

ـ أنت ريَّاب شكَّاك الى درجة رهيبة يا أمير • لقد لاحظتُ منذ بعض الوقت أنك تهوى الى ريبة فيها غلو ، حتى أخذتَ لا تصدّق شيئاً ، وحتى صرت تفترض كل شيء ••• ولـكن هل تراني استعملت كلمـة « الريبة » في محلها ؟

ـ أظن ، رغم انني لست واثقاً أنا نفسي كل الثقة •

صاح كوليا يقول فجأة :

ـ مع ذلك أسترد هذه الكلمة • لقد اهتديت الى كلمة تفصح عن فكرتي افصاحاً أصدق • أنت لست ريَّاباً ، وانما أنت غيور • ان جانيا يوقظ في نفسك غيرة جهنمية بسبب امرأة متكبرة •

قال كوليا ذلك ونهض عن مكانه واثباً ، وأخذ يضحك ضحكاً لعله لم يضحك ضحـكاً مثله في حيـاته • وازداد ضحكـه حين رأى الأمير يتخضب وجهه بالحمرة• لقد فتنه أن يتصور أن الأمير غيور بسبب آجلايا• ولكنه سكت منذ لاحظ أن ألم الأمير صادق • وأخذا يتكلمان منذئذ بكثير من الرصانة والجد ، فدام حديثهما ساعة أخرى ، أو ساعة ونصفاً •

***

في الغداة سافر الأمير الى بطرسبرج ، واضطر أن يمكث هنالك الى ما بعد الظهر لأمر ملح مستعجل • فلما عاد الى بافلوفسك في نحو الساعة الخامسة صادف ايفان فيدوروفتش بالمحطة• فأمسكه هذا من ذراعه بقوة، وبعد أن ألقى نظرات خائفة ذات اليمين وذات الشمال، أصعده الى مركبة

فى الدرجة الأولى من القطار . لقد كان يحترق رغبةً فى أن يكلمه فى مسألة هامة .

قال ايفان فيدوروفتش للأمير :

ـ أرجوك أولاً ، ياأميرى العزيز ، أن لا تؤاخذنى ولا تحقد علىَّ . اذا كان ثمة ما تلومنى عليه فاننى آمل أن تنساه . لقد أوشكت أن أجىء اليك بالأمس ، لكننى لا أدرى ما الذى كان يمكن أن تتصوره اليزابت بروكوفيفنا لو أننى فعلت ... ذلك لى جحيم حقاً . لكأن مخلوقاً ملغزاً كأبى الهول قد سكن منزلنا . أنا لا أفهم من الأمر شيئاً . أما أنت فأنت فى رأيى أقلنا ذنباً ، رغم أنك سبب كثير من التعقيدات التى حدثت. حب الخير للبشر شىء ممتع يا أمير. ولكن ماينبغى للمرء أن يسرف قط. لعلك عانيت هذه الحقيقة أنت نفسك بالتجربة . صحيح اننى أحب طيب القلب ونبل النفس وأقدر اليزابت بروكوفيفنا ، لكن ...

وظل الجنرال يتكلم على هذا المنوال مدة طويلة ، ولكن كلامه كان مفككاً تفككاً شديداً . كان واضحاً أنه خائف مضطرب الى أبعد حدود الخوف والاضطراب ، من حادث لا سبيل الى فهمه البتة .

قال أخيراً وهو يدخل فى حديثه شيئاً من وضوح :

ـ لا شك عندى فى أنك غريب عن الأمر ، فلا شأن لك فيه . لكننى أرجوك رجاء الصديق أن تنقطع عن زيارتنا زمناً ، الى أن تدور الريح .

ثم هتف يقول بحرارة :

ـ ما أوجين بافلتش فان كل ما يُشاع عنه انما هو أراجيف دنيئة ووشايات كاذبة ! نحن ازاء محاولة تشهير وخطة تآمر. ثمة مكيدة يُهدف منها الى قلب كل شىء رأساً على عقب ، والى احداث الشقاق والخلاف بيننا . اسمع يا أمير ، اننى أقول لك الحقيقة بصراحة : ما من كلمة نُطقت

حتى الآن بيننا ، نحن وأوجين بافلتش ، هل تفهم ؟ لا شيء يربطنا في الوقت الحاضر • غير أن تلك الكلمة يمكن أن تُنطق • وقد تنطق فى القريب ، بل قد تنطق من لحظة الى أخرى • وذلك ما يُراد منعه • لماذا ؟ ما الغرض من ذلك ؟ ما هي النية المختفية وراءه ؟ هذا ما لا أستطيع أن أدركه • ان هذه المرأة محيِّرة شاذة • اننى خائف منها أشد الخوف ؛ ان خوفى منها يؤرقنى ويحرمنى من النوم • وانظر الى تلك المركبة الفخمة ، وتلك الخيول الصهباء ••• ذلك ما يسميه الفرنسيون أناقة ! من ذا الذى يهيىء لها هذا المستوى من العيش ؟ يميناً لقد راودتنى فى يوم من الأيام هذه الفكرة الآثمة ، وهى أن أوجين بافلتش هو الذى يهيىء لها ذلك • ولكن من الواضح أن هذا الرأى لا يمكن أن يصمد للدحض • لماذا تحاول اذن احداث الشقاق بيننا ؟ ذلك هو اللغز ! أمن أجل أن تحتفظ الى جانبها بأوجين بافلوفتش ؟ لكننى أكرر لك وأحلف لك أنه لا يعرفها وأن الصوت اختراع وتلفيق • وما أشد تلك الوقاحة فى أن تخاطبه بصيغة المفرد على ذلك النحو عبر الشارع ! تلك مكيدة مدبَّرة لا أكثر ! واضح أن علينا أن ننبذ هذه المكيدة باحتقار وأن نضاعف احترامنا لأوجين بافلوفتش • ذلك ما أعلنته لاليزابت بروكوفيفنا • والآن أفضى اليك بالرأى الذى أكنه فى قرارة نفسى : اننى مقتنع اقتناعاً عميقاً بأنها تحاول أن تنتقم بهذا منى أنا ، بسبب ما جرى من قبل ، هل تتذكر ؟ ومع ذلك فاننى لم أخطىء فى حقها يوماً ولا أسأت اليها • ان وجهى ليحمر خجلاً كلما فكرت فى ذلك الأمر • ها هى ذى تعود الآن الى الظهور بعد أن ظننت أنها غابت الى الأبد • أين ذهب روجوبين ؟ لقد كنت أحسب أنها أصبحت منذ مدة طويلة زوجة روجوبين •

الخلاصة أن الجنرال كان حائراً أشد الحيرة • ولقد ظل طوال ما يقرب من ساعة ، وهى المدة التى استغرقتها مسافة الطريق بالقطار ،

يجرى الحديث مع نفسه ، فهو الذى يلقى الأسئلة وهو الذى يجيب عنها ، ضاغطاً يدى الأمير ، مفلحاً فى اقناعه على الأقل بأنه لا يساوره ظل من شك فيه . وتلك هى النقطة الجوهرية بالنسبة الى الأمير . وتكلم فى آخر الأمر عن عم أوجين بافلتش الذى يشغل منصب رئيس لاحدى الادارات بطرسبرج . فقال انه « رجل فى نحو السبعين من عمره ، ذو مركز مرموق ، يحب مباهج الحياة ويقبل على ملذات المائدة ، أى انه ـ باختصار ـ شيخ ما يزال نضر الرغبات ... هأ هأ ! وأنا أعلم أنه سمع عن ناستاسيا فيليبوفنا ، حتى انه التمس الحظوة بنعمها . وقد زرته منذ قليل. انه لا يستقبل الآن بسبب سوء صحته ، ولكنه غنى ، غنى . وان له نفوذاً وتأثيراً و ... أطال الله عمره ! غير أن أوجين بافلتش سيرث ثروته كلها ... نعم ... لكننى مع ذلك خائف .. ان فى الهواء نذير شر يحلّق تحليق خفاش ، فأنا خائف ، خائف ... » .

الفصل الثاني عشر

في الساعة السابعة من المساء ، كان الأمير يتهيأ للقيام بنزهته فى الحديقة ، فاذا باليزابت بروكوفيفنا تظهر فى الشرفة وحيدةً ، وتتجه نحوه •

قالت :

ـ أولاً ، لا يذهبن بك الظن الى اننى جئت أطلب منك الصفح • فتلك حماقة ! أنت وحدك مرتكب جميع الأخطاء ومقترف جميع الذنوب !

لزم الأمير الصمت •

ـ أأنت مذنب أم لا ؟

ـ لا أكثر منك ولا أقل • على أننا لم نذنب عن عمد وقصد ، لا أنا ولا أنت • منذ ثلاثة أيام اعتقدت أننى مذنب آثم • أما الآن فقد اقتنعت بعد التفكير بأن لا شىء من ذلك !

ـ آه ••• هكذا أنت ! طيب ، اجلس واسمع ، لأننى لا أنتوى أن أبقى واقفة •

جلس الاثنان •

قالت :

ـ ثانياً ، لا داعى الى كلمة واحدة عن أولئك الأشقياء ! سأمكث عشر دقائق للتحدث معك • لقد جئت أسألك عن أمر من الأمور (لا يعلم

الا الله الى أى شيء ذهب ظنك) ، فان نطقت بكلمة واحدة عن أولئك الوقحين ، فلأنهضن منصرفة على الفور ، وليكونن ذلك فراقاً بينى وبينك .

قال الأمير :

ـ طيب .

ـ اسمح لى أن ألقى عليك سؤالاً : هل بعثت برسالة الى آجلايا منذ شهرين أو شهرين ونصف شهر ، حوالى أعياد الفصح ؟

ـ نـ ... نعم ...

ـ بأية مناسبة ؟ فى أى موضوع ؟ ماذا تضمنته تلك الرسالة ؟ أرنى الرسالة !

كانت عينا اليزابت بروكوفيفنا تقدح شرراً ، وكانت ترتعش من فرط نفاد الصبر .

أجاب الأمير مدهوشاً مرتاعاً :

ـ ليست تلك الرسالة معى ، واذا كانت ما تزال موجودة فهى مع آجلايا ايفانوفنا ...

ـ لا تراوغ ! ماذا كتبت لها فى تلك الرسالة ؟

ـ لست أراوغ ، وليس ثمة ما أخشاه . اننى لا أرى السبب الذى كان يمكن أن يمنعنى من الكتابة اليها ...

ـ اسكت . ستتكلم من بعد . ماذا تضمنت تلك الرسالة ؟ لماذا احمر وجهك ؟

فكّر الأمير لحظة .

ـ لا أعرف ماذا يدور فى رأسك من خواطر يا اليزابت بروكوفيفنا .

ولكننى أرى أن تلك الرسالة قد أورثتك كثيراً من الاستياء . لاحظى أن فى وسعى أن لا أجيب عن سؤال كهذا السؤال الذى تـُلقين . لكننى من أجل أن أبرهن لك على أنه ليس ثمة ما أخشاه بصدد تلك الرسالة ، وعلى أننى لست نادماً ولا خجلان من كتابتها (حين قال الأمير هذا الكلام تضاعفت حمرة وجهه) ، فسأتلوها عليك ، لأننى أحفظ مضمونها على ظهر القلب فيما أظن .

وأخذ الأمير يتلو نص الرسالة كلمةً كلمةً تقريباً .

قالت اليزابت بروكوفيفنا بعد أن أصغت باتنباه شديد ، قالت بلهجة فظة شرسة :

ــ يا له من خلط ! ما المعنى الذى تقصده من هذه السخافات ؟

أجابها الأمير :

ــ أنا نفسى لا أعرف حق المعرفة . ان ما أعلمه هو أن عاطفتى كانت صادقة . كانت تنتابنى هنالك لحظات حياة عنيفة وآمال كبيرة .

ــ أية آمال ؟

ــ يصعب علىَّ أن أشرح هذا ، ولكن تلك الآمال ليست تلك التى يغلب على ظنى أن تفكيرك ينصرف اليها الآن . ان تلك الآمال ... تتصل بالمستقبل ، وترتبط بفرحة التفكير فى أننى لعلنى لم أكن « هنالك » أجنبياً . وقد غمرتنى سعادة بالعودة الى الوطن ، فتناولت القلم فى ذات صباح مشمس ، وكتبت لها تلك الرسالة . لماذا كتبت الرسالة اليها هى ؟ لا أدرى . هناك لحظات يريد فيها المرء أن يكون بقربه صديق .

وأضاف الأمير يقول بعد صمت :

ــ فلعل ذلك الشعور هو الذى قادنى ووجهنى .

ــ أتراك محباً ؟

ـ لا والله . لقد كتبت اليها كما يكتب أخ الى أخيه . حتى لقد ذيلت رسالتى بهذا التوقيع : « أخوك » .

ـ هه ! خيال بارع ! فهمت !

ـ يشق على نفسى جداً أن أجيب عن أسئلة كهذه يا اليزابت بروكوفيفنا .

ـ أعلم . غير أن هذا لا يعنينى البتة . اسمع ، قل لى الحقيقة كما لو كنت تتكلم أمام الله : أكاذب أنت فيما تقول أم لا ؟

ـ لست كاذباً .

ـ أأنت تقول الحقيقة حين تؤكد أنك لست محباً ؟

ـ يخيَّل الىَّ أن هذا صادق صدقاً مطلقاً .

ـ آ ... « يخيَّل اليك » ! هل الصبى هو الذى حمل اليها الرسالة ؟

ـ رجوت نيقولا آرداليونوفتش أن ...

قاطعته اليزابت بروكوفيفنا فى غضب :

ـ الصبى ، الصبى ! أنا لا أعرف نيقولا آرداليونوفتش . قل الصبى !

ـ نيقولا آرداليونوفتش ...

ـ بل الصبى ، قلت لك ...

ردَّ الأمير يقول بلهجة ثابتة ، ولكن دون أن يرفع صوته :

ـ لا ، ما هو بالصبى . انه نيقولا آرداليونوفتش .

ـ طيب ... طيب ... سأجازيك على هذا بمثله ...

كظمت اليزابت بروكوفيفنا انفعالها دقيقة لتسترد أنفاسها ثم سألته :

ـ وما معنى « الفارس الفقير » ؟

ـ لا أدرى . حدث هذا فى غيابى . لا شك فى أنه مزاحة من المزاحات .

ـ ما أحلى أن يعلم المرء هذا كله دفعةً واحدة ! ولكن هل يمكن أن تكون قد اهتمت بك ؟ لقد وصفتك هى نفسها بأنك « طِرْح » وبأنك « أبله » .

قال الأمير بلهجة العتب ، وبصوت يكاد يكون همساً :

ـ كان فى وسعك أن تعفينى من نقل هذا الكلام الىَّ .

ـ لا تزعل . هذه فتاة مستبدة متسلطة ، طائشة اللب ؛ انها طفلة أفسدها الدلال !... قد تفتتن بشخص من الأشخاص فاذا هى تهينه على رءوس الأشهاد ، وتضحك عليه أمام أنفه . أنا نفسى كنت هكذا . ولكننى أرجوك أن لا تتغنى بالانتصار ، وأن لا تسكر بنشوة الظفر . هى ليست لك يا صغيرى . اننى أرفض أن أصدّق . لن يكون هذا فى يوم من الأيام ! أقول ذلك لتعزم أمرك منذ الآن . اسمع : احلف لى أنك لم تتزوج « الأخرى » .

قال الأمير وهو ينتفض دهشةً :

ـ ما هذا الذى تقولينه يا اليزابت بروكوفيفنا ؟

ـ ولكن ألم توشك أن تتزوجها ؟

دمدم الأمير يقول خافضاً رأسه :

ـ أوشكت أن أتزوجها .

ـ فأنت اذن تحبها « هى » ؟ وأنت انما جئت الى هنا من أجلها « هى » ، من أجل « تلك المرأة » ؟

أجاب الأمير :

ـ ما من أجل أن أتزوجها جئت •

ـ هل فى العالم شىء مقدس عندك •

ـ نعم •

ـ احلف انك لم تجىء لتتزوج « تلك المرأة » •

ـ أحلف على ذلك بما تشائين •

ـ صدقتك • قبّلنى • هأناذا أتنفس أخيراً بحرية • ولكن اعلمْ أن آجلايا لا تحبك ، ورتب أمورك على هذا الأساس • لن تصبح أجلايا زوجتك ما بقيت أنا على قيد الحياة • هل سمعت ؟

ـ سمعت •

بلغ الأمير من شدة الاحمرار أنه أصبح لا يستطيع أن ينظر الى اليزابت بروكوفيفنا وجهاً لوجه •

ـ ضع هذا فى رأسك • لقد انتظرتك انتظار العناية الالهية (وكنت لا تستحق ذلك) ، وبللت وسادتى فى الليل بالدموع ـ أوه ! لا بسببك أنت يا صديقى ، اطمئن ! فان لى حزناً آخر ، حزناً لا يتغير مدى الدهر • ولكن اليك السبب الذى جعلنى انتظرك نافدة الصبر : اننى ما زلت أعتقد بأن الله هو الذى أرسلك الىّ صديقاً وأخاً • ليس لى أحد أشد به أزرى ، الا العجوز بيلوكونسكايا ، التى سافرت هى نفسها ، ناهيك عن أنها كانت قد أصبحت من الشيخوخة غبية كشاة من الشياه ! والآن ليس عليك الا أن تجيبنى بكلمة نعم أو بكلمة لا على هذا السؤال : هل تعلم لماذا قذفتْ « تلك المرأة » بتلك الصيحة من داخل مركبتها فى ذلك اليوم؟

ـ أحلف لك أن لا شأن لى بالأمر ، ولست أعرف شيئاً !

ـ يكفينى هذا ! صدّقتك • ان لى الآن رأياً جديداً فى هذا الموضوع ، ولكننى فى صباح الأمس كنت ما أزال أعد أوجين بافلتش

مسئولاً عن كل ما حدث . لقد لازمتني هذه الفكرة طوال أمس الأول وطوال صباح أمس . أما الآن فقد انتهيت الى الموافقة على رأيهم : واضح أنه قد سُخر منه واستُهزىء به كمعتوه . كيف ؟ لماذا ؟ ما الغاية من ذلك ؟ ان الحركة في ذاتها مشبوهة غير شريفة . على كل حال ، لن يتزوج آجلايا . أنا أقول لك هذا ! مهما يكن رجلاً ممتازاً ، فلن أرضى أن يتزوجها . حتى قبل ذلك الحادث كنت مترددة . أما الآن فقد اتخذت قراري وعزمت أمري : « ضعني أولاً في تابوتي وادفني في قبري ، ثم زوج ابنتك » ، ذلك ما قلته اليوم لايفان فيدوروفتش مقطّعةً كلماتي . هأنت ذا ترى مدى ثقتي بك . هل ترى ذلك ؟

- أراه وأفهمه .

حدّقت اليزابت بروكوفيفنا الى الأمير بنظرة نافذة . لعلها كانت تحترق شوقاً الى معرفة الأثر الذي أحدثه في نفسه كلامها عن أوجين بافلتش .

- أنت لا تعرف شيئاً عن جبريل آرداليونوفتش ايفولجين ؟

- أ ... أعرف أشياء كثيرة .

- هل تعرف أنه على صلات بآجلايا ؟

قال الأمير مدهوشاً :

- أجهل هذا كل الجهل . ماذا ؟ تقولين ان جبريل آرداليونوفتش على صلات بآجلايا ايفانوفنا ؟ مستحيل !

- الأمر حديث العهد . ان أخته هي التي شقت له الطريق طوال فصل الشتاء .

عاد الأمير يكرر باقتناع بعد أن ظل شارد الذهن مضطرب النفس برهةً من الوقت :

ـ لا أصدّق شيئاً من هذا الكلام . لو صح ذلك لعرفته حتماً .

ـ أتظن أن جبريل آرداليونوفتش كان سيأتي معترفاً لك بسره باكياً فوق صدرك ؟ يا لك من ساذج غر !... ان جميع الناس يخدعونك ويضللونك مثل ... مثل ... أفلا تستحي أن تمحضه ثقتك ؟ ألست ترى أنه يضحك عليك ويغرّر بك ؟

قال الأمير بصوت خافت ولهجة لا تخلو من اشمئزاز :

ـ أعرف أنه يغشني أحياناً . وهو لا يجهل أنني أعرف ذلك ...

ولم يكمل الأمير فكرته .

ـ هكذا اذن ؟ تعلم أنه يغشك ثم تظل توليه ثقتك . لم يكن ينقص الا هذا . على أن ذلك هو ما يمكن أن يُنتظر منك . فعلام الاستغراب ؟ رباه ! لا يوجد في العالم كله رجلان من نوعك . وهل تعلم أن جانيا هذا أو فاريا هذه قد جعلاها على صلات بناستاسيا فيليبوفنا ؟

صاح الأمير يسأل :

ـ من ؟

ـ آجلايا .

ـ لا أصدّق . هذا مستحيل . ما الغاية من ذلك ؟

وكان قد نهض عن مكانه واثباً .

قالت اليزابت بروكوفيفنا :

ـ أنا أيضاً لا أصدّق ذلك ، رغم أن هناك أدلةً وبراهين . انها فتاة ذات نزوات ، فتاة جامحة الخيال طائشة العقل ! فتاة شريرة ، شريرة، شريرة ! انني مستعدة لأن أكرر لك ألف سنة أنها شريرة ! وبناتي كلهن أصبحن الآن على هذه الشاكلة ، حتى تلك الدجاجة المبتلة ، الكسندرا !

ولـكن آجـلايا قد أفلتت من بين يدىّ وانتهى الأمر . ومع ذلك لست أصدّق هذا أنا أيضاً .

ثم أضافت تقول لنفسها :

ـ ربما لأننى لا أريد أن أصدّقه .

ثم نادت الأمير فجأة تسأله :

ـ لماذا لم تجىء ؟ لماذا لبثت ثلاثة أيام لا تجىء ؟

كرّرت سؤالها نافدة الصبر .

فأخذ الأمير يعدّد الأسـباب التى حالت بينـه وبين المجىء . لكنها قاطعته مرة أخرى وقالت له :

ـ جميع الناس يعدونك غبياً ويغشونك ! لقد كنت أمس بالمدينة ، وانى لأراهن أنك مضيت تجثو أمام ذلك الوغد ضارعاً اليه أن يقبل منك العشرة آلاف روبل .

ـ لا . لم يخطر ببالى أن أفعل . ولم أره . ثم انه ليس وغداً . لقد تلقيت منه رسالة .

ـ أرنيها .

سحب الأمير من محفظة أوراقه رسالة مدّها الى اليزابت بروكوفيفنا. وهذه هى الرسالة :

« سيدى ، ليس لى حتما ، فى نظر الناس ، أى حق فى أن أظهر شيئاً من الشعور بالكرامة . فالناس يعدوننى أهون شأناً وأحقر قيمةً من أن أفعل ذلك . ولكن نظرة الناس الى الأمور ليست نظرتك أنت . اننى مقتنع أشد الاقتناع يا سيدى بأنك ربما كنت أفضل من سائر الناس . لست أشاطر دكتورنكو رأيه ، بل أخالفه فى هذه النقطة . لن أقبل منك كوبكاً واحداً فى يوم من الأيام . ولكنك أنجـدت أمى ، فأنا محمـول على أن

أشكر لك صنيعك رغم أن هذا ضعف • على كل حال ، لقد رجعت عن رأيى فيك ، واعتقدت أن من واجبى أن أبلغك ذلك • وانى لأتنبأ بأننا لن تقوم بيننا أية علاقة بعد الآن » •

آنتيب بوردوفسكى

« حاشية : ان المال الناقص لاكمال مبلغ المائتى روبل الذى أدين لك به * سيُردُّ اليك مع الزمن حتماً » •

قالت اليزابت بروكوفيفنا وهى تنهى قراءة الرسالة ثم ترميها :

ـ يا للسخف والحماقة ! ما كان هذا الكلام ليستحق أن يُقرأ • مم تضحك ؟

ـ اعترفى مع ذلك بأن قراءة هذه الرسالة قد سرَّتك •

ـ كيف ؟ تسرنى قراءة هذا الهذر الدعيّ السخيف ؟ ألست ترى اذن أن جميع هؤلاء الناس قد أضلَّهم الزهو والعجب والغرور ؟

ـ صحيح ، ولكنه اعترف بأخطائه ، وقطع صلته بدكتورنكو • وعلى قدر غروره وزهوه كلفه عمله هذا ثمناً باهظاً • آ ••• يا لك من طفلة صغيرة يا اليزابت بروكوفيفنا !

ـ أتُراك تود أن أصفعك على وجهك ؟

ـ لا ، لا أحرص على ذلك البتة ! كل ما هنالك أننى ألاحظ أن قراءة هذه الرسالة قد ملأت نفسك ارتياحاً ، وأنك تخفين ذلك • فيم تخجلين من عواطفك ؟ انك هكذا فى كل أمر •

صاحت اليزابت بروكوفيفنا تقول واثبة عن مكانها ، شاحبة اللون من فرط الغضب :

ـ حذار أن تضع قدميك فى بيتى بعد اليوم ! اياك أن يظهر أنفك فى عتبة بابى بعد الآن !

ـ وبعد ثلاثة أيام تسعين أنت الىّ ! ما هذا ؟ ما بالك تحمرين خجلاً من أنبل عواطفك ؟ لمَ هذا ؟ انك لا تزيدين بذلك على أن تعذبى نفسك .

ـ لن استدعيك ولو رقدتُ على فراش الموت . سأنسى اسمك . بل لقد نسيته .

قالت ذلك وأسرعت تبتعد عن الأمير .

صرخ الأمير يقول لها :

ـ على كل حال ، لقد حُظر علىّ أن أزورك .

ـ ماذا ؟ من حظر عليك ذلك ؟

ـ آجلايا ايفانوفنا هى التى تحظر علىّ أن ...

ـ متى حدث هذا ؟ تكلم ، مالك لا تتكلم ؟ ...

ـ فى هذا الصباح ، أرسلت تبلغنى أن علىّ أن لا أدوس أرض داركم بعد اليوم قط ...

شُدهت اليزابت بروكوفيفنا . ومع ذلك أخذت تفكر .

ثم هتفت تقول فجأةً :

ـ كيف ؟ من أرسلتْ لابلاغك ذلك ؟ الصبى ؟ بكلام ؟

ـ بل برسالة .

ـ أين الرسالة ؟ اعطنيها ! فوراً !

فكّر الأمير لحظةً ، ثم سلَّ من جيب صديرته مزقة ورق كان مكتوباً عليها ما يلى :

« الأمير ليون نيقولايفتش ، اذا كنت تنوى ، بعد كل الذى حدث ،

أن تدهشني فتجيء تزورنا بدارنا ، فثق أنني لن أكون من أولئك اللواتي ستسرهن زيارتك » .

« اجلايا ايبانتشينا »

لبثت اليزابت بروكوفيفنا شاردة الفكر لحظةً ، ثم أسرعت الى الأمير ، فأمسكت يده ، واقتادته صائحةً وقد استولى عليها اهتياج شديد واضطراب كبير :

ـ حالاً ! تعال ! في هذه اللحظة نفسها !

ـ لكنك ستعرضينني لـ ...

ـ أعرّضك لأي شيء ؟ ساذج ! غبي ! حتى لكأنك لست برجل ! هيَّا ! سأرى كل شيء بنفسي ، بعيني رأسي ...

ـ اسمحي لي أن آخذ قبعتي على الأقل ...

ـ هي ذي ، قبعتك القذرة . هيَّا ! انك عاجز حتى عن اختيار قبعة فيها ذوق !...

ثم تمتمت اليزابت بروكوفيفنا تقول وهي تجرُّ الأمير في اثرها دون أن ترخيه لحظة واحدة :

ـ كتبتْ ذلك ... كتبتْ ذلك بعد المشهد الذي جرى منذ قليل ... كتبته في غمرة الاندفاع ...

ثم أضافت تخاطب الأمير :

ـ لقد تحيزتُ لك منذ قليل . قلت صراحةً انك غبي لأنك لا تجيء ... ولولا ذلك لما كتبتْ اليك رسالة تبلغ هذا المبلغ من الحماقة، وتبلغ هذا المبلغ من قلة الاحتشام ! ان هذا لهو قلة احتشام من جانب فتاة نبيلة المحتد ، حسنة التربية ، ذكية ، نعم ذكية !

وتابعت تقول :

ـ همْ ... ولعلها مغتاظة أيضاً من تغنيك . ذلك جائز . ولكنها لا تدرك أنه لا يُكتب مثل هذا الكلام لرجل أبله يفهم الأمور فهماً حرفياً كما حدث ذلك فعلاً .

ولاحظت أنها أسرفت في القول ، فصاحت تسأله :

ـ مالى أراك تمد أذنيك ؟ انها فى حاجة الى مهرّج من نوعك . لقد حُرمت من مثلك منذ مدة طويلة . ذلك هو السبب فى أنها تسعى اليك ! أنا مفتتنة أعظم الافتتان ، لأنها ستجعلك أضحوكة !... انك لم تسرقها ! انها فى هذه اللعبة بارعة ! نعم بارعة ... حاذقة !...

شخصيات الرواية

آتانازى ايفانوفتش :

هو آتانازى ايفانوفتش توتسكى · راجع اسم توتسكى

آجلايا :

هى آجلايا ايفانوفنا ايبانتشين : بنت الجنرال ايفان فيدوروفتش ايبانتشين واليزابث بروكوفيفنا · ويرد اسمها مصغرا : جلاشا ·

آديلائيد :

هى آديلائيد ايفانوفنا ايبانتشين : بنت الجنرال ايفان فيدوروفتش ايبانتشين واليزابث بروكوفيفنا ·

آرداليون الكسندروفتش :

هو آراداليون الكسندروفتش ايفولجين · راجع اسم ايفولجين ·

الكسندرا :

هى الكسندرا ايفانوفنا ايبانتشين : بنت الجنرال ايفان فيروروفتش ايبانتشين واليزابث بروكوفيفنا ·

اليزابث بروكوفيفنا :

زوجة الجنرال ايبانتشين · تمت بقرابة بعيدة الى الأمير ليون نيقولايفتش ميشكين («الأبله») · ويرد ذكرها فى الرواية بلقب الجنرالة ، جريا على عادة القوم فى خلع رتبة الزوج على الزوجة أيضا،

أوجين بافلوفتش :

هو أوجين بافلوفتش ـ أو بافلتش ـ رادومسـكى · ضابط شاب يود خطبة آجلايا ·

ايبانتشين :

هو الجنرال ايفان فيدوروفتش (أو فيدورتش) ايبانتشين· موظف كبير ورجل أعمال · صديق آتانازى ايفانوفتش توتسكى وشريكه · والجنرالة ايبانتشين ، زوجته ، تمت الى الأمير ميشكين (« الأبله ») بقرابة بعيدة ·

ايفان فيدوروفتش :

هو ايفان فيدوروفتش ايبانتشين · راجع اسم ايبانتشين ·

ايفولجين :

هو آرداليون الكسندروفتش (أو الكسندرتش) ايفولجين· جنرال محال على انتقاعد ، سـكير · زوج نينا الكسندروفنا وأبو الشاب جبريل آرداليونوفتش وأخته باربارا آرداليونوفتش وأخيه الصبى كوليا ·

باراشكوفا :

هى ناستاسيا فيليبوفنا باراشكوفا· راجع اسم ناستاسيا فيليبوفنا·

باربارا آرداليونوفنا :

ابنة الجنرال السكير ايفولجين وزوجة ايفان بتروفتش بتتسين· ويرد اسمها مصغرا : فاريا ، فاركا ، فارتشكا ·

بارفيون سيميونوفتش :

هو بارفيون سيميونوفتش ـ أو سيميونتش ـ روجوين · راجـــع اسم روجوين ·

بافلتشيف :

هو نيقولا آندريفتش بافلتشيف ، المحسن الى الأمير ميشكين ، فقد أرسله الى سويسرا على نفقته لمعالجته من «البلاهة» ·

بتتسين :

هو ايفان بتروفتش بتتسين · يعمل مرابيا · كان مستأجرا غرفة عند أسرة الجنرال ايفولجين ، وقد تزوج ابنته باربارا آرداليونوفنا·

بيلوكونسكايا :

الأميرة بيلوكونسكايا ، صديقة اليزابث بروكوفييفنا ومستشارتها وناصحتها ·

توتسكى :

هو آتانازى ايفانوفتش توتسكى · مالك أطيان ثرى · كان وصيا على ناستاسيا ايفانوفنا فأغواها واتخذها خليلة ·

تيرنتيف :

هو هيبوليت تيرنتيف ، ابن مارتا بوريسوفنا خليلة الجنرالالسكير ايفولجين · فتى مصدور · صديق كوليا ·

جانيا :

راجع اسم جبريل آرداليونوفتش ، فان جانيا هو مصغر جبريل

جبريل آرداليونوفتش :

هو جبريل آرداليونوفتش ـ أو آرداليونتش ـ ايفولجين · ابن الجنرال السكير آرداليون الكسندروفتش ايفولجين · سكرتير الجنرال ايبانتشين · يسعى الى خطبة ناستاسيا فيليبوفنا · يهوى آجلايا ايفانوفنا ايبانتشين · يرد اسمه مصغرا: جانيا ، جانكا ، جانتشكا·

رادومسكى :

هو أوجين بافلوفتش رادومسكى · ضابط شاب· يود خطبة آجلايا· راجع اسم أوجين بافلوفتش ·

روجويين :

هو بارفيـــون سيميونوفتش ـ أو سيميونتش ـ روجويين : ابن تاجر غنى ، ورث عن أبيه ثروة طائلة · أحب ناستاسيا فيليبوفنا باراشكوفا ، وأراد أن يتزوجها ·

فاريا :

راجع اسم باربارا آرداليونوفنا فان اسم فاريا هو تصغير باربارا ·

فردشتينكو :

شاب يسكن غرفة مســتأجرة في بيت أسرة ايفولجين ، ويتردد على ناستاسيا فيليبوفنا ·

فيرا لوكيانوفنا :

بنت لوكيان تيموفئفتش ليبديف ، ابنته الكبرى التى تتـــولى امور البيت ·

كوليا :

هو نيقولا آرداليونوفتش ايفولجين · فتى فى المدرسة الثـانوية · الابن الأصغر للجنرال السكير ايفولجين · يرد اسمه مصغرا : كوليا·

كيللر :

مـــلاكم · ليوتنان محـــال على التقاعد · أحد أفراد بيئة بارفيون سيميونوفتش روجويين وناستاسيا فيليبوفنا · تعلق بعـــد ذلك بالأمير ليون نيقولايفتش ميشكين ·

ليبديف :

هو لوكيان تيموفئفتش ــ أو تيموفئتش ــ ليبديف · موظف يرتبط بعصبة بارفيون سيميونوفتش زوجوين ، ثم يحوم حول الأمير ليون نيقولايفتش ميشكين بالمكيدة والمكر ·

لوكيان تيموفئفتش :

هو لوكيان تيموفئفتش ــ أو تنيموفئتش ــ ليبديف · راجع اسم ليبديف ·

ليون نيقولايفتش :

هو الأمير ليون نيقولايفتش ــ أو نيقولايتش ــ ميشكين · انه بطل الرواية الرئيسى : « الأبله » ·

مارتا بوريسوفنا :

أرملة الكابتن تيرنتيف · خليلة الجنرال السكير ايفولجين · أم الفتى المسلول هيبوليت ·

ميشكين :

هو الأمير ليون نيقولايفتش ميشكين ، البطل الرئيسى فى الرواية ، « الأبله » ·

ناستاسيا فيليبوفنا باراشكوفا :

امرأة كان آتانازى ايفانوفتش وصيا عليها فى طفولتها ، ثم أغواها وأصبح يعولها · رضيت الهرب مع بارفيون سيميونوفتش روجوين ولكنها لم تقبل أن تتزوجه ·

نيقولا آندريفتش :

هو نيقولا آندريفتش بافلتشيف ، المحسن الى الأمير ميشكين · راجع اسم بافلتشيف ·

نينا الكسندروفنا :

زوجة الجنرال السكير آرداليون ألكسندروفتش ايفولجين · أم جبريل وباربارا وكوليا · تؤجر غرفا في بيتها لتستطيع أن تعول الأسرة ·

حواش

الصفحة

٧ ★ « قطار وارسو » : بقطار وارسو انما كان يصل المسافرون الى بطرسبرج آتين من الخـــارج ، من فينـــا وبرلين (عن طريق آيدكونن) ٠

٨ ★ « آيدكونن » : آخر محطة بروسية على حدود روسيا ٠

١٤ ★ «فهو اسم تاريخي» : ورد ذكر هذا الاسم مرة واحدة فى «تاريخ كارامازين » ، فى القرن التاســع عشر ؛ غير أن هــذه الأسرة مالبثت أن انطفأت ٠ولعل دوستويفسكي قد اختار هذا الاسم ـ المشتق من كلمة « ميشكا » ومعناها فأر صغير ـ اشارة الى ما يتصف به طبع هذه الشخصية من تواضع وامحاء ٠

١٤ ★ «كارامازين» (نيقولا ميخائيلوفتش كارامازين) : مؤرخ روسى شهير (١٧٦٦ ـ ١٨٢٦) ، هو مؤلف كتــاب « تاريخ الدولة الروسية » الذى يقع فى اثنى عشر جزءا ٠ وقد ترجم الكتاب الى الفرنسية بين ١٨١٩ و ١٨٢٦ ٠

١٨ ★ راجع حاشية الصفحة ٣٧٨ ٠

٢١ ★ «يستحق النفى الى سيبريا» : ان كل جرم فيه خرق للمقدسات كانت القوانين تعاقب مرتكبه عقابا صارما ، وكانت سرقة الأشياء الخاصة بالعبادة تدخل فى حكم هذا الجرم ٠

٢٤ ★ « آرمانس ، كورالى » : لا بد انهـما من النساء اللواتى كانت مرموقات فى المجتمع ، وأنهما من أصل فرنسى ٠

٢٦ ★ « انها أميرة » : ليست ناستاسيا فيليبوفنا أميرة ، فهذه مبالغة من زاليوجيف ٠

٣٣ ★ « خادم أمين ، نعم ، ولكن لا متملق دنيء » (وفي بغير تملق) : مبدأ كان الجنرال آراكتشييف الذى خلع عليه بطرس الأول لقب بارون ، سنة ١٧٨٩ ، قد اختاره شعارا له ·

٣٤ ★ « صاحب السمو » ان هذا الكونت الذى لا يسميه المؤلف والذى سيرد ذكره فيما بعد قد يكون رئيس الجنرال ايبانتشين ·

٣٩ ★ « في دير أجنبي ·· » من الامثال الروسية السائدة : «في دير أجنبي لا تحاول أن تفرض قاعدتك » ·

٤١ ★ « آرداليونتش » : النطق الشعبي لاسم النسبة الى الاب : آرد اليونوفتش » · وسوف يلاحظ القارئ أن اسم هذا الشخص من شخوص الرواية يرد تارة آرداليونتش ، وتارة آرداليونوفتش ·

٤٣ ★ منذ اعلان اصلاح ٢٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٦١ ، أصبحت جلسات المحاكم الروسية علنية ، ودخل نظام المحلفين في جميع القضايا الجنائية · وكان دوستويفسكي يهتم كثيرا بهذه المحاكم الجديدة ·

٤٣ ★ « من ذلك أن عقوبة الاعدام قد ألغيت » : الواقع ان عقوبة الاعدام في جميع قضايا الحق العام قد ألغتها الامبراطورة اليزابت ضمنا سنة ١٧٤١ ، وصراحة ، بقانون ، سنة ١٧٥٤ ، لكن عقوبة الاعدام لم يتم الغاؤها في الجرائم السياسية · ففي السادس من ايلول سبتمبر ١٨٦٦ مثلا تم تنفيذ عقوبة الاعدام شنقا في كاراكوزوف الذى قام بمحاولة مخفقة لاغتيال الكسندر الثاني أثناء نزهة في « حديقة الصيف » · وقد شنق على مرأى من المشاهدين في ميدان سمولنسكي بمدينة بطرسبرج · وهكذا نرى أن دوستويفسكي يسوق هنا نصف الحقيقة ·

٤٤ ★ « نعم ، رأيت اعداما في فرنسا بمدينة ليون » : كانت اعدامات المجرمين في فرنسا كثيرة وعلنية · وبقي هذا النظام حتى نهاية القرن التاسع عشر · وقد وصف تورجينف تنفيذ اعدام منهذه الاعدامات في مقالة له بعنوان «تعذيب تروبمان» ·

٤٦ ★ «ربما كان يوجد فى هذا العالم انسان حكم عليه بالموت ٠٠» : ان دوستويفسكي يتذكر هنـــا الدقائق الرهيبة الفظيعة التى قضاها هو نفسه مهيأ للاعدام قبل وصول قرار العفو عنه ٠

٤٩ ★ « جانيا » : تصغير اسم جبريل ٠

٦٦ ★ « ان المطران الذليل بافنوس قد وقـــع هذا بخط يده » : هذا المطران هو مؤسس منسك في مقاطعة كوستروما ، فى القرن الرابع عشر ٠ وقـــد نشر توقيعه المؤرخ وعالم الآثار ميشيل بوجودين فى البـــوم من جزاين بعنوان « نماذج من الخطوط السلافية الروسية » (موسكو ، ١٨٤٠ ـ ١٨٤١) ٠

٧٠ ★ «فردشتينكو» ان الاسماء التي تنتهي ب «ينكو» أكرانية الاصل٠

٨٠ ★ « أوترادانويى » : كلمـــة مشـــتقة من أوترادا ، ومعنـــاها وسط بين معنى كلمة « راحتى » ومعنى كلمة « لذتى » ٠

١١١ ★ « وصف الجنوب والمشرق منذ زمن طويل ٠٠٠ » : استشهاد غير دقيق كل الدقة بقصيدة للشـــاعر ليرمونتوف : « الصحفى والقارىء والكاتب » ٠

١١٤ ★ « هو رجل اقتيد مع رجال آخرين محكوم عليهمبالاعدام، وقرىء عليهم قرار المحكمة باعدامهم رميا بالرصاص لجريمة سياسية٠»: ان آنا ، أرملة دوستويفسكي ، قد كتبت تقول : « ان ذكريات كل ماشعر به فيدور ميخائيلوفتش دوستويفسكى أثناء الشروع فى تنفيذ حكم الاعدام فى جماعة بتراشفكى كانت تؤلمه كثيرا ، فلا يتحدث عنها الا فى النادر ٠ لكننى سمعته يرويها ثلاثمرات بهذه التعابير نفسها التى ترد فى رواية « الأبله » ٠

١١٥ ★ « كان سيموت وهو فى السابعة والعشرين من عمره ٠٠٠ » : لقد ولد دوستويفسكي فى ٣٠ تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٢١ ، وكان عمره ثمانية وعشرين عاما حين صدر الحكم عليه بالاعدام٠

١٢٢ ★ « لقـــد رأيت فى مدينة بال ، منذ مـــدة غـــير طويلة ، لوحة مماثلة ٠٠ » : ان دوستويفسكي قد زار متـــحف مدينة بال فى

شهر آب (اغسطس) من سنة ١٨٦٧، فأثرت فيه بعض اللوحات تأثيرا كبيرا ٠ وهو هنا يشير الى لوحة هانس فريس «قطع رأس القديس يوحنا المعمدان» (١٥١٤) التي تمثل النبي وهو مايزال حيا تحت السيف الذى أشهره الجلاد ٠

١٤٤ ★ « مادونا هولباين » : كان دوستويفسكي سنة ١٨٦٧ قد أعجب في معرض درسدن باللوحة التي رسمها هولباين الشاب والتي سماها «مادونا مع أسرة جان ماير» (١٥٢٥) ٠ ولقد كانت اللوحة الاصلية موجودة في متحف دارمشتات ٠ ولكن كان المظنون في ذلك العهد أن لوحة درسدن هي اللوحة الاصلية التي رسمها هولباين ٠

١٧٠ ★ « كوليا » : تصغير اسم نيقولا ٠

١٨٠ ★ كان كل لواء من ألوية الجيش بروسيا يسمى باسم المدينة أو المقاطعة التي أنشيء فيها أول ما أنشيء ، وذلك بالاضافة الى اسمه الرسمي ٠ فكذلك يقال لواء فاسيلكوفسكي أو لواء بيبلوميريسكي ٠

١٨٢ ★ « مدينة تفير » : مدينة بشمال روسيا ، على خط موسكو ـ بطرسبرج ٠ و « اليزابتجراد » ميدنة بالجنوب في السهوب أنشئت في عهد الامبراطورة اليزابت ٠

١٨٤ ★ «فوج مدفعية نوفو زمليانسكي» : الواقع أن هذا الفوج لا وجود له ٠ وقد اخترعه الكاتب المسرحي جريبويديف في حوار الكولونيل سكالوزوب مع نفسه ، في مسرحية «كثير من الذكاء ضرر» ٠ فهذا الاسم الوهمي يشير الى ما يتصف به كلام الجنرال ايفولجين من أنه أخيلة كاذبة ٠

٢٠٥ ★ « حصار كارس » : ان حصار قلعة كارس التركية بالقوقاز قد وقع سنة ١٨٥٥ ، وانتهى باستسلام القلعة للجنرال مورافييف في السادس من شهر تشرين الثاني نوفمبر ١٨٥٥ بعد أن نفدت مؤن المحاصرين نفاذا تاما ٠

٢٠٥ ★ « جريدة الاستقلال » : هي جريدة «الاستقلال البلجيكي» التي كانت تصدر في بروكسل منذ سنة ١٨٣٠ · وكان دوستويفسكي يقرأ كثيرا هذه الجريدة الحسنة الاطلاع ، ولا سيما في السياسة ·

٢٢٦ ★ « الحفلة المقنعة » : مسرحية كتبها ليرمونتوف في مطلع صباه·

٢٤٢ ★ « أرسل بيروجوف برقية الى باريس » : كان نيقولا بيروجوف (١٨١٠ ــ ١٨٨١) ، وهو أشهر الجراحين الروس في ذلك الأوان ، رئيسا للخدمة الطبية أثناء حصار سيباستوبول (١٨٥٤ ــ ١٨٥٥) · وكان أوجوست فيلاتون (١٨٠٧ــ١٨٧٣)، وهو جراح جاريبالدي ونابوليون الثالث ، يتمتع بشهرة عالمية·

٢٤٩ ★ « لينوتشكا » : تصغير اسم هيلينا ·

٢٥١ ★ « تقضي بعض الوقت » : بالفرنسية في الاصل ·

٢٥٢ ★ « أب بمدينة موسكو يوصي ابنه بأن لا يصده شيء في سبيل الحصول على مال » : في شهر كانون الثاني (يناير) من عام ١٨٦٦ ارتكب طالب اسمه دانيلوف جريمة قتل المرابي بوبوف وخادمته بموسكو ليستولي على المال · وقد أشارت الصحف حينذاك الى الشبه بين راسكولينكوف بطل رواية « الجريمة والعقاب » التي كتبها دوستويفسكي وسبق نشرها وبين فاعل هذه الجريمة · وفي شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٦٧، شهد شخص اسمه جلاسكوف ، وكان مع القاتل في السجن ، شهد بأن دانيلوف قد روى له ان أباه هو الذي حرضه على ارتكاب الجريمة · وكان الاب قد قال لابنه في الحقيقة ان عليه أن لا تصده أية عقبة ، وان عليه لتحقيق سعادته (وهي زواج مرتقب) أن يحصل على المال ولو ارتكب في سبيل ذلك جريمة· وقد اهتم دوستويفسكي كثيرا بهذه المحاكمة فتحدث عنها في روايته الجديدة هذه « الأبله » ·

٢٦١ ★ هوايفان كيرلوف ، الكاتب الروسي الشهير الذي كتب قصصا أبطالها حيوانات ، على طريقة لافونتين · والقصة المشار اليها هنا هي قصة الحمار الذي لبط أسداً دب فيه الهرم ·

٢٧١ ★ « من يخش الذئب لا يذهب الى الغابة » : من الامثـال الروسية السائرة ٠

٢٨٥ ★ « أوريكا » : كلمة من اليونانية القديمة معناها « وجدتها » ٠ وينسب الى أرخميدس انه حين اكتشف أحد القوانين الفيزيائية وهو بالحمـــام ، خرج يركض صارخا من فرحته « أوريكا ، أوريكا » أى وجدتها ، وجدتها ٠

٢٨٨ ★ « طلب نقله الى القوقاز » : كانت بلاد القـوقاز فى ذلك العهد مناطق غير آمنة ، بسبب حروب مستمرة ناشبة مع الثوار فى الجبال ٠ فكانت لذلك تعد منفى رسميا للعسكريين والمدنيين ، ومكانا يختاره ويصطفيه اليائسون والشعراء (كذا) ٠

٢٩٤ ★ « كاتيا » : تصغير اسم كاترين ٠

٢٩٧ ★ «مارلنسكى» : الاسم الادبى المستعار للكاتب الديسمبرى آ٠أ٠ بســـتوجيف (١٨٠٧ ـ ١٨٣٧) الذى نفى الى القوقاز جنديا بسيطا ، فكتب هنـاك سلسلة من الروايات التاريخية بأسلوب متقعر غامض ٠

٣٠١ ★ « جريدة أنبـاء البورصة » : هى جريدة يوميـــة كانت تصدر حينذاك بمدينة بطرسبرج ٠

٣٠١ ★ « باشا » : تصغير اسم بيلاجيا أوباراسيفا ٠

٣٠٤ ★ « فاسيليفســـكى » : (أو فاسيلى اوستروف) ، حى من أحياء العاصمة يقع فى جزيرة ٠

٣٠٥ ★ « أو هم يأخذون سكينا فيلفونها بحرير ٠٠٠» : فى سنة ١٨٦٦ دعا تاجر شاب من موسكو اسمه مازورين ، دعا الى بيته رفيقا له هو بائع الجواهر كاليكوف وقتله ٠ ان هذا التاجر الشاب المنحرف الذى كان قد ورث مليونين ثم أتلفهما ، قـــد اتخذه دوستويفسكى نموذجا نقل عنه بعض سمات شخصية روجوين٠

٣١٧ ★ « شكرا » بالفرنسية فى الاصل ٠

٣١٨ ★ « ايكاتيرنهوف » : قرية تقع في ضواحي بطرسبرج ، مع قصر صيفي للامبراطورة كاترين الثانية • وكان الناس يذهبون الى هناك في الليل ينشدون اللهو والتسلية •

٣٤٠ ★ «من ذلك مثلا أن الذين ادعوا أن لهم على التاجر المتوفى ديونا قد أبرزوا للمطالبة بحقوقهم مستندات يمكن انكارها أو اهمالها» : تروى زوجة دوستويفسكى أندوستويفسكى نفسه قددفع أموالا لدائنين جاءوا يطالبونه بعد وفاة أخيه بسداد ما كان على أخيه من ديون ، وكانوا لا يملكون الا مستندات « يمكن اهمالها » ، أو كانوا لا يحملون مستندات البتة •

٣٤٣ ★ « أن أميرا اسمه « شتشـ •• » : هذه هي الشخصية الوحيدة التي لا يذكر المؤلف اسمها كاملا بل يقتصر على الحرف الاول من الاسم (ان في الكتابة الروسية حرفا واحدا ينطق «شتشـ») •

٣٤٣ ★ ان القوانين الاصـــلاحية التي صـدرت في أول كانون الثاني (يناير) ١٨٦٤ ، قد أدخلت الى الاقاليم نظاما للحـكم المحلي • فكان النبلاء والفلاحون ينتخبون نوابا يتشكل منهم « زمتوف » له ميزانيته الخاصة ، ويعنى بالتعليم والخدمات العامة وغيرها من شئون الاقليم •

٣٤٤ ★ « أوجين بافلوفتش ••• » : سيرد اسم هذا الرجل فيما بعد ، أوجين بافلوفتش رادومسكى •

٣٤٤ ★ «من ضباط الامبراطور» : لقب فخرى يمنح لصفوة من الضباط يعرفهم الامبراطور شخصيا •

٣٤٥ ★ « حي اسماعيلوفسكى » : حي في وسط بطرسبرج سمى باسم الثكنات التابعة للواء الحرس اسماعيلوفسكى •

٣٤٩ ★ «دون كيشوت دولامانش» : كان دوستويفسكى يقدر كتاب هذا الكاتب الاسباني العظيم ، سرفانتس ، قدرا كبيرا • وقد كتب يقول في «يوميات كاتب» (آذار ١٨٧٦) : «ليس في العالم كتاب أعمق ولا أقوى من هذا الكتاب • انه حتى الآن آخر وأكبر كلام

قاله الفكر الانساني ، وهو ألذع سخرية مرة استطاع انسان أن يعبر عنها ٠» حتى لقد رأى بعضهم أن ثمة شبها بين شخصية الفارس الحزين دون كيشوت وبين شخصية الامير ميشكين ٠

٣٥١ ★ « بافلوفسك » : قرية في جنوب بطرسبرج ، وهي مصيف للمجتمع الراقي ، فيها عدد كبير من الفيللات و « فوكسهول » تعزف فيه موسيقى سمفونية كان الناس يقدرونها قدرا كبيرا ٠

٣٥٢ ★ « حي الرمال » : حي في ضاحية متواضعة شرق العاصمة ، تخترقه شوارع عديدة ٠

٣٥٤ ★ « صاحب السمو » : الواقع أن لقب صاحب السمو باللغة الروسية لا يخاطب به الا أمراء الاسرة المالكة ٠ وكان الاولى أن تترجم الكلمة هنا بقولنا «الامير المعظم» أو «الامير المبجل» ٠

٣٥٦ ★ « تانيا » : تصغير تاتيانا ٠

٣٥٦ ★ « ليوبوتشكا » : تصغير الاسم النسوى ليوبوف ، ومعناه «الاحسان» بالمعنى المسيحي ، وهو اسم رائج جدا كالاسمين الآخرين اللذين يعبران عن فضيلتين مستمدتين من اللاهوت وهما «فيرا» (الايمان) و «نادجدا» (الامل) ٠ والنساء الروسيات اللواتي يحملن هذا الاسم (مثل بنت دوستويفسكي نفسه) يحولنه الى اسم ايميه Aimée الفرنسي حين يذكرنه بالفرنسية ٠

٣٥٦ ★ « قاتل اسرة جيرامين » : في أول آذار (مارس) سنة ١٨٦٨ قام طالب مدرسة ثانوية بمدينة تامبوف، واسمه فيتولد جورسكي، وهو بولندي الاصل ، قام بقتل ستة أشخاص في آن واحد هم: التاجر جيرامين وأمه وابنه واحدى قريباته وخادمين ٠ وقد اهتم دوستويفسكي اهتماما شديدا بهذه الجريمة وأرجعها الى تأثير النظريات العدمية ٠

٣٥٧ ★ ان القضايا الصغيرة ، مدنية كانت أو جزائية ، انما تنظر فيها محكمة الصلح في كل حي من أحياء المدينة ، (القانون ١٨٦٤)، حتى اذا استؤنفت نقلت الى مجمع قضاة الصلح الاقليمي ٠

٣٥٨ ★ ان هذه العبارة الشــهيرة قـــد وردت فى القرار الامبراطورى الصادر فى ٢٤ تشرين الثانى (نوفمبر) مقـــدمة للتشريعات القضائية · وقد نقشت بأحرف من ذهب على لوح من المرمر فى احدى قاعات قصر العدل بمدينة سان بطرسبرج ··

٣٦٠ ★ المعنى الحرفى لكلمة بالكى هو « العصى » ، واللعبة لعبة قديمة من ألعاب الورق ·

٣٦٠ ★ « الكفاس » : شراب مســكر بخس الثمن مستخرج من الخبز الاسود أو من الفاكهة ·

٣٦٢ ★ «كونتيسة بارى» : هى الكونتيسة جان مارىدى بارى (١٧٤٣ـ ١٧٩٣) ، أثيرة لويس الخامس عشر ، وقد أعدمت بالمقصلة فى عهد الارهاب · و «المذكرات» المزورة التى نسبت اليها ونشرت سنة ١٨٢٩ ـ ١٨٣٠ يستفيد منهــا دوستويفسكى هنا لعرض بعض وقائع حياتها ·

٣٦٣ ★ « ابنة عمى » : بالفرنسية فى النص الاصلى ·

٣٦٤ ★ « لحظة واحدة أخرى يا سيدى الجلاد ، لحظة واحدة أخرى » : بالفرنسية فى النص الاصلى · وان هذه الكلمات التى نطقت بها الكونتيسة دى بارى على المقصلة قد وردت فى المجلد الثالثعشر من «القاموس الموسوعى» الروسى الذى أصـــدره بلوشار سنة ١٨٤٤ فى بطرسبرج وكان دوستويفسكى يقرؤه ·

٣٦٤ ★ « عذاب » : أستعمل المؤلف كلمة misère الفرنسية التى درجت على ألسن عامة الروس بمعنى العذاب ·

٣٧٠ ★ « نيقولا آردا ليونوفتش » : ان ليبديف يقصد هنـــا كوليا ، وليس مألوفا أن يسمى طفل أو مراهق بهذه الطريقة المفخمة . أى أن يذكر اسمه واسم نسبته الى أبيه ·

٣٧٢ ★ « ثمنية قمح بدينار ، وثلاث ثمنيات شـــعير بدينار » : رؤيا القديس يوحنا (الاصحاح السادس ، ٦) رؤيا القديس يوحنا (الاصحاح السادس ، ٨) ·

٣٧٤ ★ ان الحفلات الموسيقية التى كانت تقام فى حدائق محطة بافلوفسك كانت تتمتع بشهرة كبيرة ، وكانت ملتقى أبناء الطبقة الراقية ٠

٣٧٨ ★ « الخصيان » : Scopets ، أى مخصي ، وهو عضو من أعضاء تلك الملة الدينية التى يخصى أفرادها أنفسهم تعصبا ، وهم يمارسون مهنة الصرافين فى أكثر الاحيان ٠

٣٧٨ ★ « ٠٠٠ بورجوازى فخرى وراثى » : ان الاكثرية الكبرى من التجار ، فى أواسط القرن التاسع عشر ، انما كانوا فلاحين اغتنوا من التجارة ٠ فاذا انقطع هؤلاء عن دفع رسوم الانتساب الى طبقة التجار ، عادوا يهبطون الى طبقة القرويين ٠ وقد أسرع المشرع الى ملاقاة هذا الشعور الطبقى الذى أخذ ينشأ فى ميدان التجارة ، فأنشأ فئتين مستقلتين عن دفع الرسوم ، هما : « فئة البورجوازيين العاملين » و « فئة البورجوازيين الفخريين الوراثيين ٠ » ٠

٣٨٣ ★ هوسرجى ميخائيلوفتش سولوفييف (١٨١٠ ــ ١٨٧٩) ، المؤرخ الروسى الكبير ، أعظم مؤلفاته كتاب «تاريخ روسيا» الذى ظهر فى ٢٩ مجلدا من ١٨٥١ الى ١٨٧٩ ، مجلدا كل عام ، وأعيد طبعه فى سبعة مجلدات سنة ١٨٩٧ ٠ وكان دوستويفسكى شديد الاعجاب بهذا الكتاب ، وقد حمل عددا من مجلداته حين سافر الى الخارج سنة ١٨٦٧ ٠

٣٨٤ ★ راجع حاشية الصفحة ٤٨١

٣٩١ ★ « انه لا يناسبك أكثر مما يناسب البقرة أن يوضع على ظهرها سرج » : من التعابير الروسية السائرة ٠

٣٩٢ ★ « قصة بابا غضب من امبراطور » : اشارة الى امبراطور ألمانيا هنرى الرابع الذى جاء للكفارة أمام البابا جريجوار السابع سنة ١٠٧٧ ٠

٣٩٦ ★ « ترسم اشارة الصليب باصبعين » : هذه طريقة ملة « قدماء المؤمنين » فى رسم اشارة الصليب ٠

٤٠٤ ★ « منسوخة عن لوحة هانس هولباين » : كان دوستويفسكي قد راى سنة ١٨٦٧ بمدينة بال ، لوحة هولباين «المسيح في اللحد» (١٥٢١) ، فأثرت فيه واقعيتها تأثيرا أليما رهيبا ، ومما يروى عنه أنه قال لامرأته : « ان لوحة كهذه اللوحة خليقة بأن تفقد المرء ايمانه » ٠

٤٠٦ ★ ٠٠٠ رجل اسمه س ٠٠٠» : من الجائز أن يكون دوستويفسكي حين وصف هذه الشخصية الواسعة الثقافة التي لا تؤمن بالله بل تذهب مذهب الالحاد ، قد أراد الاشارة الى نيقولا سبيشنيف ، عضو حلقة بتراشفسكي ، الذي سيتخذه دوستويفسكي فيما بعد نموذجا لتصوير ستافروجين بطل روايته « الشياطين » ٠

٤٠٩ ★ « تريد أن نتبادل صليبينا ؟ » : كان كل روسي أرثوذوكسي يحمل في عنقه صليبا منذ ولادته ، صليبا من معدن أو خشب٠ وتبادل الصليبين بين شخصين طقس من الطقوس الدينية يعني خلق « أخوة » روحية ٠

٤١٨ ★ «لن يكون يومئذ زمان» : رؤيا يوحنا ، الاصحاح العاشر ، ٦ ٠

٤٢١ ★ « سلاح يطلب صنعه وفقا لرسم معين ، وستة أشخاص يذبحون دفعة واحدة ٠٠ » : هنا يتذكر المتكلم قضية قاتل أسرة جيرامين (حاشية الصفحة ٣٧٢) ٠ ان الطالب الثانوي فيتولد جورسكي قد تسلح بمسدس هيأه سلفا ، وكان قد أوصى حدادا بأن يصنع له سلاحا خاصا زاعما له انه في حاجة اليه لألعاب رياضية ٠

٤٢٦ ★ «محطة نيقولا» : ان السكة الحديدية التي تصل بين بطرسبرج وموسكو والتي أنشئت في عهد نيقولا الاول ، كانت تحمل اسم نيقولايفسكي ، وهو أيضا اسم محطتي نهايتي هذا الخط في بطرسبرج وفي موسكو ٠

٤٢٦ ★ « محطة خط تسارسكوي » : ان خط تسارسكوي ـ سيلو هو أول خط من خطوط السكة الحديدية في روسيا ، وقد دشن سنة ١٨٣٥ وكان يمر بضاحية بافلوفسك ٠

٤٣٧ ★ « الذكرى الالفية لروسيا » : ان ذلك اليوم من صيف ١٨٦٢ ، الذى شهد احتفالات فخمة هو يوم انقضاء ألف عام على وصول الامير الاول روريك الى نوفوجورود سنة ١٠٦٢ ، وقد أقيم نصب تذكارى بتلك المدينة في ذلك الحين ، ولا يزال قائما فيها الى الآن .

٤٤١ ★ « لا تنزل الماء ما لم تضمن المخرج » : من الامثـــال الروسية السائرة .

٤٥٠ ★ « الفارس الفقير » : قصيدة للشاعر بوشكين نظمها سنة ١٨٣٠ وفيها يتحدث عن فارس من القرون الوسطى اختار مريم العذراء « سيدة » له .

٤٥٥ ★ ان « الفارس الفقير » قد اختار هذه الاحرف الثـلاثة شعارا له « آ.م.د » وهى الاحرف الاولى من ثلاث كلمات لاتينية معناها «سلاما أم الرب» . ولكن آجلايا تبدل حرف «د» بحرف «ب» ، وهو الحرف الاول من اسم عائلة ناستاسيا فيليبوفنا باراشكوفا. وبعد قليل ستحل محل «آ.م.ب» الاحرف «ن.ف.ب» صراحة.

٤٥٨ ★ كان لا يجوز للعسكريين العاملين أن يرتدوا الثياب المدنية الا ليسافروا الى الخارج .

٤٦٣ ★ « على المرء أن لا يحطم الكراسى » : تعبـير مستمد من مسرحية جوجول : «المفتش العام» ، وفيها يظهر (الفصل الاول ، المشهد الاول) أستاذ للتاريخ يؤخذ عليه انه يتحمس الى حد « تحطيم الكراسى» حين يتكلم عن الاسكندر الكبير. لذلك فان تعبير «تحطيم الكراسى » جرى على الالسن اشارة الى بذل طاقة فى غير محلها.

٤٦٦ ★ « طبعة آننكوف » : هى واحدة من تلك الطبعات النقدية الاولى لأعمـــال الشـــاعر الكبير ، وقد أصدرها آ.آ ننكوف بين سنة ١٨٥٥ و ١٨٥٧ .

٤٧٠ ★ « عدميون » : ان هذه الكلمة التي يقال ان تورجنيف هو أول من وضعها في الاستعمال كانت ما تزال شيئا جديدا ·

٤٧٠ ★ «أن يبرهنوا على أن بوشكين لا نفع فيه» : اشارة الى مساجلات مدوية قامت سنة ١٨٦٥ ، وفيها سفه الناقد العدمي بيساريف تمجيد الشعر ، وشن على ذكرى بوشكين هجوما عنيفا ·

٤٧٠ ★ « جورسكي ودانيلوف » : القاتلان اللذان ورد الحديث عنهما في حاشية الصفحة ٣٥٦ وحاشية الصفحة ٢٥٢ ·

٤٧٧ ★ « جريدة اسبوعية ساخرة···» : ان المقالة الممتدة عن الصفحة ٤٧٨ الى الصفحة ٤٨٦ من هذه الطبعة العربية لرواية «الأبله» تحاكي ما كان ينشره صحفي مغمور اسمه ستوبانوفسكي في المجلة الاسبوعية الهجائية «الشرارة» ، التي صدرت ببطرسبرج من سنة ١٨٥٩ الى سنة ١٨٧٩ ·

٤٧٩ ★ « لاحظ الا لفئة من الناس » : ان أصل المثــل هو « لاحظ الا للأغبياء » وهذا يحدد الفئة المقصودة هنا ·

٤٧٩ ★ « فالمرء لا يكاد يصدق هذا الامر رغم انه قريب العهد » : بيت من الشـــعر مستمد من مسرحية جريبويديف الهزلية الشهيرة « كثير من الذكاء ضرر » · والاشـــارة الى همجية العهــد الذى لم ينقض عليه زمن طويل ·

٤٨١ ★ « السحابة » (١٨١٥) : واحدة من أجمل الحكايات الخرافية التي كتبها الكاتب الروسى الكبير كريلوف ·

٤٨١ ★ ملة «الراسكولنيك» : هي ملة «قدامى المؤمنين» ، ويرجع عهدها الى الانشـــقاق الدينى الذى نشأ فى أعقاب اصــلاح الشعائر الدينية على يد البطريرك نيكون ·

٤٨٥ ★ « ليوفا » : تصغير كلمة « الطرح » · ان دوستويفسكي يحور هنا فقرة من مقـــاله كتبها عنه هو فى احدى المجـلات ناقد تافه بعنوان «فيديا المغرور» وفيها يصور دوستويفسكي بأنه يعبث بقصة جوجول « المعطف » ويضيع وقته فى سفاسف وترهات·

فهذا الناقد هو الذى يصفه دوستويفسكى هنا بانه أحد مشاهير شعرائنا الساخرين المشهورين ٠

٤٨٥ ★ « شنايدر » : اسم البروفسور السويسرى الذى كان يعالج « الأبله » بسويسرا ٠

٥٣٤ ★ « أيها الامير العزيز » : بالفرنسية فى الاصل ٠

٥٤١ ★ « الاميرة ماريا الكسييفنا لن تقول عن هذا شيئا » : اشارة الى حوار فاموسوف مع نفسه في مسرحية جريبويدوف الشهيرة : « كثير من الذكاء ضرر » ففى المشهد الاخير من المسرحية نرى الشخص يصيح قائلا : « آه ٠٠٠ رباه ٠٠ ما عسى تقول الاميرة ماريا الكسييفنا ؟ »

٥٥٠ ★ « كوبفر » ، « بيسكوب » : لا بد أنهما مرابيان ٠

٥٦٥ ★ «للاسقف الفرنسي بوردالو» : ان بوردالو واعظ فرنسى يسوعى (١٦٣٢ ــ ١٧٠٤) له خطب مشهورة أعجبت الناس ببلاغتها وقوة حجتها ٠ فاما أن نفترض هنا أن ليبديف ، الذى كان يحب الحديث في موضوعات غير متوقعة ، قد تكلم فعلا عن بوردالو ، واما أن نفترض أن كيللر يتلاعب هنا بالالفاظ مشيرا الى الخمرة الفرنسية المشهورة ، خمرة «بوردو» ، أو الى الكلمة الروسية بوردا وهي اسم مزيج من الشراب المسكر ٠ أما اطلاق لقب الاسقف على الواعظ الفرنسى المشهور فهو محض خيال ٠

٥٨٥ ★ ان بوردوفسكى مدين لا بمائتي روبل ، بل بمائتين وخمسين ، لانه لم يرد الا مائة (راجع الصفحة ٢٣٩) ٠